دكتور
منير محمود المسيري

دلالات التقديم والتأخير في القرآن الكريم

دراسة تحليلية

تقديم

الدكتور عبد العظيم المطعني
الأستاذ بجامعة الأزهر

الدكتور على جمعة
مفتى الديار المصرية



دكتور
منير محمود المسيري

دلالات التقديم والتأخير في القرآن الكريم

دراسة تحليلية

مكتبة وهبة
١٤ شارع الجمهورية - عابدين
القاهرة تليفون: ٣٩١٧٤٧٠
فاكس: ٣٩٠٣٧٤٦

الطبعـة الأولى

١٤٢٦هـ - ٢٠٠٥م

بسم الله الرحمن الرحيم

إهـــداء

إلى والدي الكريمين سبب الوجود وبحر العطاء والجود.

إلى كل من بذل جهداً أو أبدى رأياً أو نصحاً .

إلى محبي القرآن وعلومه وطلاب العلم وفنونه .

أقدم غرساً تناولته أيدي الكثيرين راعته بقلوبـــها وسقته بماء جهودها حتى تخرج ثمرة طيبة، فالبلد الطيب يخرج نباته بإذن ربه فما طاب منه فبفضل الله ثم بفضل جهودكم.

أسأل الله أن يجعل هذا العمل فى سبيل الحق مناراً، وفي طريق العلم علما أن يهدي به السالكين ويضيء طريق الباحثين فى علوم القرآن المبين .

اللهم اجعله خالصاً لوجهك الكريم وتقبله فى صالح أعمالنا واجعله زخراً لمعادنا.

دكتور

منير محمود علي المسيري

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم بقلم الأستاذ الدكتور عبدالعظيم المطعني
الأستاذ بجامعة الأزهر الشريف
دلالات التقديم والتأخير في القرآن الكريم
دراسة تحليلية

هذا عنوان أطروحة الدكتوراة التي تقدم بـها الباحث الدكتور منير محمود على المسيري ، إلى جامعة أتونوما – مدريد بإسبانيا. قسم الدراسات العربية والإسلامية والدراسات الشرقية، للحصول على درجة الدكتوراة في التخصص المذكور.

كتب له الباحث مقدمة ، ألـمَّ فيها بمدارس التفسير والدراسات القرآنية بمكة المكرمة، والمدينة المنورة والكوفة.

ثم أشار إلى المصنفات في علوم القرآن منذ أوائل القرن الثاني الهجري إلى القرن الخامس عشر، مبيناً ملامح كل المناهج التي وضعت حول علوم القرآن.

هذا، وقد وزع المادة المدروسة على أبواب وفصول وافية باستيعاب مادة الدرس في البحث. وكان الباحث على بصر ودراية ملحوظة بموضوعه وعالجه معالجة ممتازة تشهد له بالذكاء الفطري، والعلم النظري. وقد اختار نماذج وفيرة من سور القرآن كله مرتباً لها ترتيب المصحف تيسيراً للاطلاع.

وقبل تطبيق قواعد التقديم والتأخير قام ببحث حيوي حول بيان تلك القواعد والضوابط في اللغة العربية بوجه عام.

وساق عليها شواهد وأمثلة كثيرة من المأثور وبخاصة من الشعر العربي، مبيناً ما في كل شاهد من ملاحظات أسلوبية إيجابية في خدمة المعنى.

أو سلبية ترتب عليها خلل في المعنى المراد وهذا البحث من أمتع المباحث التي قدَّم بـها لموضوع دراسته، لأنه يتعلق بجمال العبارة أو قبحها. مما له صلة عميقة بقضايا النقد والبلاغة والنظم والأسلوب وما له من صلة عميقة بموضوع الدراسة.

أما موضوع الدراسة، وكانت قد سبقته دراسات عصرية كثيرة في مرحلتي الماجستير والدكتوراه، وبحوث الترقية الأكاديمية التي لا تحصر، فإن هذا الموضوع ، الذي خطه ببراعة الباحث د. منير المسيري ، يحمل خصائص كثيرة ، جعلته أنموذجا من طراز فريد في حقل الدراسات القرآنية. ذلك لأنه لم يقصر همه على بيان الدلالات الناجمة عن التقديم والتأخير في النظم القرآني وحده، بل ضم إلى ذلك مقارنات بين النظم القرآني ، واللغتين الفرنسية والإسبانية.

ومنهجه في ذلك أن يذكر النص القرآني ، ثم ترجمته إلى اللغة الفرنسية وإلى اللغة الإسبانية، ثم يقوم بنقل الترجمتين الفرنسية والإسبانية إلى اللغة العربية. ثم يسجل ملاحظاته بين النص القرآني ، والترجمة العربية للترجمة الفرنسية والإسبانية.

فتصبح المقارنة بين ثلاثة نصوص كلها باللغة العربية .

وهذا المنهج يسّر فهم الدراسة حتى لمن لا يعرف اللغة الفرنسية، ولا اللغة الإسبانية ومن ذلك على سبيل المثال :

﴿ **يا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعاً** ﴾ وهذا هو نص القرآن الكريم .

أما في الترجمة الفرنسية والإسبانية فإنـــهما اتفقتا في " يا أيها الناس إني إليكم جميعاً رسول الله" وقد لاحظ الباحث أن كلا من اللغتين الفرنسية والإسبانية أخرت " رسول الله " وهذا معناه كما يرى الباحث أنـــهما لم تـــهتما بشأن المؤخر ، وهو " رسول الله" .

وهذا قصور في التعبير، ومأخذ يؤخذ عليه، ونضيف إلى ذلك أن في الترجمتين الفرنسية والإسبانية عيب آخر أهم مما اهتدى إليه الباحث وهو اشتمال العبارة على الفصل بين اسم "إن" وخبرها (رسول الله) بكلام أجنبي لم تدع إلى هذا التقديم علة بيانية.

وأيا كان الأمر فإن هذه الأطروحة عمل متميز وفريد في الدراسات الإسلامية والقرآنية المكتبة الإسلامية في أمس الحاجة إليه. نحث على طبعها بكميات وفيرة ، وتبادلها مع الجامعات الإسلامية والعربية ثم ترجمتها إلى

اللغات الحية المعاصرة ليعم أثرها، وتكون لبنة جديدة تضاف إلى صرح التراث الإسلامي العربي الخالد.

والله من وراء القصد.

أ.د. عبدالعظيم إبراهيم المطعني
جامعة الأزهر

القاهرة في ١٤٢٥/٦/٢١هـ
الموافق ٢٠٠٤/٨/٧م

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله، والصلاة والسلام على سيدنا رسول الله وآله وصحبه ومن والاه
وبعـــــــــد

فإن خير ما يصرف فيه الإنسان الزمان والأعمار هو خدمة كتاب الله سبحانه وتعالى، فهو الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه وهو هدى للمتقين وهو المعجزة الباقية للرسالة الإسلامية عبر العصور وعلى مر الدهور، لا تنتهي عجائبه ولا يخلق من كثرة الرد، ويتعرض القرآن الكريم بـــهجمة شرسة في عصرنا من المشككين وأصحاب الشبـــهات، فلقد غاظهم حفظه الذي يدل في ذاته أنه من عند رب العالمين للمتقين وأنه الكلمة الأخيرة من الله للبشر أجمعين:

﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ (الحجر : ٩) .

فلقد حفظ الله القرآن على مستوى الأداء الصوتي بله ألفاظه وآياته وسوره ، وأصبح على الرغم من كل المحاولات كتاباً فريداً لا مثيل له بين الكتب. وبين أيدينا رسالة علمية تخدم القرآن الكريم وهو محدد حضارة المسلمين وتجلى وجهاً من وجوه إعجازه ألا وهو دلالات التقديم والتأخير في القرآن الكريم يقدمها الباحث الشيخ العلامة منير محمود المسيري الذي جمع بين التعلم الأكاديمي والدعوة إلى الله تعالى حصل عليها من جامعة أوتونوما ــ بمدريد من كلية الفلسفة والآداب قسم الدراسات العربية والإسلامية والدراسات الشرقية تحت إشراف أ.د./ ميجيل كروث هيرناندث والأستاذ الدكتور محمد إبراهيم الجيوشي فخرجت رسالة ماتعة في بابـــها ، فريدة في مبناها ومعناها، ندعو الله أن ينفع بـــها وأن يجازي صاحبـــها خير الجزاء، وأن تكون لبنة في الدراسات القرآنية الحديثة التي تدافع عن الإسلام وكتابه ،إنه سميع قريب مجيب الدعاء.

القاهرة في : ١٩ شعبان ١٤٢٥هـ
١٣ من اكتوبر ٢٠٠٤م

أ.د/ علي جمعـــــة
مفتي جمهورية مصر العربية

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات وبفضله وبتوفيقه تدرك الغايات جوده لا يُحد ونعمه لا تُعد، أظهر قدرته وأكمل نعمته وأقام على جميع الخلق حجته، وأنزل رحمته كتاباً معجزاً أنزل بواسطة خير ملك على خير نبي لخير أمة أخرجت للناس، أمر عباده أن يتلوه حق تلاوته ويتدبروا حقائق عبارته ويتفهموا عجائبه ويتبينوا غرائبه التي لا تزال تسطع بالحق جيلا بعد جيل تصدق ما جاء في محكم التنــزيل أنه ليس من كلام البشر ولكنه تنــزيل من حكيم حميد عزيز جليل.

روى الترمذي وصححه عن علي ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ : ستكون فتن كقطع الليل المظلم، قلت : فما المخرج منها يا رسول الله؟ قال كتاب الله تبارك وتعالى فيه نبأ من قبلكم وخبر ما بعدكم وحكم ما بينكم هو الفصل ليس بالهزل من تركه من جبار قصمه الله ، ومن ابتغى الهدى في غيره أضله الله هو حبل الله المتين ونوره المبين وهو الذكر الحكيم وهو الصراط المستقيم وهو الذي لا تزيغ به الأهواء ولا تلتبس به الألسنة ولا تتشعب معه الآراء ولا يشبع منه العلماء ولا يمله الأتقياء ولا يخلق على كثرة الرد ولا تنقضي عجائبه وهو الذي لم تنته الجن إذ سمعته أن قالوا إنا سمعنا قرآنا عجبا، من علم به سبق ومن قال به صدق ومن حكم به عدل ومن عمل به أجر ومن دعا إليه هدى إلى صراط مستقيم .

تحدى الله به الأولين والآخرين من الجن والإنس أجمعين على أن يأتوا بمثله **﴿ قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لاَ يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً ﴾** . (الإسراء : ٨٨)

تحداهم أن يأتوا ولو بسورة واحدة **﴿ وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ● فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴾** (البقرة : ٢٣ — ٢٤)

هذا هو الإعجاز أن ينـــزل القرآن على نبي أمي ليس شاعراً ولا أديبا وينشأ بين قوم هم أفصح الأمم لساناً وأحسنها بياناً خضع لهم الشعر والأدب ودانت لهم البلاغة فامتلكوا ناصيتها ثم يأتيهم بأسلوب عجيب لم يعهدوه من قبل فخضعوا لبيانه واستسلموا لعلو مكانته وشأنه واعترفوا له بالفضل ولم يستطيعوا أن يحاكوه فبان عجزهم.

إنه القرآن المعجز في إتقانه في وضع كل حرف وكلمة.

ولو رام أرباب البيان وفوارس الكلمات ورواد المعاني والبلاغة أن يأتوا بكلمة واحدة وضعت في غير موضعها أو أن غيرها أفضل منها أو يظهروا لنا خطأً في تركيب بزيادة أو نقص أو تقديم أو تأخيرٍ ما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً ، ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيها اختلافاً كثيراً.

أما بعد ..

فلقد كان من نعم الله تعالى عليّ أن حبب إلى قلبي القرآن الكريم ، منذ طفولتي، أحببت سماعه وعشقت قرَّاءه والفضل بعد الله في ذلك لوالدى رحمه الله الذي كان عاشقاً لسماعه يطرب لجمال الأداء وعذوبة الصوت فعرفت ولم أتجاوز التاسعة من عمرى أعلام القراء وكنت أحاول تقليدهم.

ونموت ونما معي حب القرآن حتى إذا ما بزغ نجم إمام المفسرين في عصره فضيلة الشيخ محمد متولى الشعراوى ـ رحمه الله ـ حيث فتح الله به قلوب ملايين المسلمين لمعرفة كتاب الله وسماع تفسيره فكنت واحدا من هؤلاء الذين أحبوه، وكانت أمنية أن أراه إلى أن رأيته لأول مرة في المسجد الحسيني واستمعت لتفسيره في سورة الإسراء.

وازداد حبى وتلهفى لسماع التفسير عندما سمعت تفسير سورة الرحمن من الدكتور محمد جميل غازى ـ رحمه الله ـ ولازمت دراستي الشرعية والفقهية.. بحب شديد وكلما تجمع لدىّ مال اقتنيت كتاباً فيعاتبني أبي عتاباً رقيقاً وتدفعني أمي لاقتنائه دفعاً رفيقاً ولازمت دروس التلاوة على عدة من المشايخ الأجلاء حتى حصلت على إجازة برواية حفص عن عاصم، كل ذلك ومعي أمل يلازمني وحلم يراودني بإكمال دراساتي العليا وكيف لا وأنا أرى نفسى من غير غرور أصحح لأساتذتي في الجامعة كثيراً من معلومات خاطئة،

ولم أنس أبدا تلك المعادلة التي كتبـــها لنا الأستاذ الدكتور إبراهيم شعلان **طالب علم + زمن = عالم** ، وفي عام ١٩٩٥ م عرضت عليَّ إمامة المركز الثقافي الإسلامي بمدريد، وكنت وقتذاك إماما وخطيباً ومدرساً بجدة فاستخرت الله تعالى في ذلك ورأيت في منامي مبشرات منها.

إني رأيتني مع رسول الله ﷺ في سيارة أقودها والناس صفوفا على الجانبين يحيونه، ثم رأيتني مع الشيخ الشعراوي في حانوت طعام ازدحم عليه الناس ونحن نعطيهم ونوزع عليهم الأطعمة.

انتقلت من السعودية لإسبانيا وبدأت رحلة دعوة علمية أخرى، حيث تعرفت على أحد الفضلاء بمدريد الأستاذ نور الدين الريسوني الذي رتب لي لقاء مع شيخ المستعربين في الدراسات الإسلامية في أوروبا الدكتور ميجيل كروث هرناندث عميد كلية الآداب بجامعة الأوتونوما سابقا وأستاذ الفكر الإسلامي بـــها والذي يتقن اللاتينية والإنجليزية والفرنسية والعربية فضلا عن الإسبانية ولم يعرف عنه في حياته العلمية تطاولا على الإسلام بكلمة واحدة ولم يذكر أبدا طوال سنواتي معه اسم النبي محمد ﷺ إلا بقوله النبي.محمد ﷺ كان مشرفا على الرسالة التي قال عنها في وقت مناقشتها إنـــها أحسن مباراة اعتزال في حياتي، ثم شاء الله تعالى أن ألتقي بفضيلة الدكتور العلامة محمد إبراهيم الجيوشي عميد كلية الدعوة بجامعة الأزهر الذي قبل فكرة الإشراف المشترك بترحاب شديد ولقد لمست من فضيلته، ومن الدكتور ميجيل من بشر الوجه ورحابة الصدر وبذل الوقت والجود بالزمان ما يجعله طوقاً في عنقي لا يكافيه شكرٌ، وامتنان، كانت هذه الرسالة أحد البحوث في مرحلة ما قبل الدكتوراه والذي كان بمثابة نافذة أطلعتني على أسرار وجماليات هذا الأسلوب القرآني العظيم فعزمت القصد بعد أن شرح الله الصدر على أن يكون البحث هو أطروحة الدكتوراه والتي أسميتها **دلالات التقديم والتأخير في القرآن الكريم " دراسة تحليلية"**

هذا البحث التحليلي في أسلوب التقديم والتأخير ما هو إلا محاولة كشفية لكل إمكانات النص القرآني المتعلقة بوجوه إعجازه وعلومه المختلفة، فهو نوع من أنواع التفسير الذي ينحصر في هذه المهمة ولكنه يستخدم كل الأدوات

التي يستخدمها علم التفسير والذي عرفه صاحب "فتح البيان "، وهو يتحدث عن علم التفسير فقال : " هو علم باحث عن نظم نصوص القرآن وآيات سور الفرقان بحسب الطاقة البشرية ووفق ما تقتضيه القواعد العربية ".

كذلك فلابد أن نذكر المنهج الذي ارتضيناه ونحن نتناول الأسلوب فلا يستطيع أن يخرج عن منهج التفسير العام والذي نرى أن أصح طرقه هي التي ذكرها صاحب " حاشية مقدمة التفسير " حيث قال: " أصح طرق التفسير : أن يفسر القرآن بالقرآن ، فما أجمل في مكان فإنه قد فسر في موضع آخر وما اختصر في مكان فقد بسط في موضع آخر، فإن لم نجده فبالسنة فإنــها شارحة للقرآن وموضحة فإن لم تجده فارجع إلى أقوال الصحابة فإنـــهم أدرى بذلك لما شاهدوه،ولما لهم من الفهم، والعلم الصحيح،لا سيما كبراؤهم كالخلفاء الراشدين، والأئمة المهديين كابن مسعود، وابن عباس وإذا لم نجده فقد رجع كثير من الأئمة في ذلك إلى أقوال التابعين ، كمجاهد وسعيد بن جبير وعكرمة وعطاء والحسن ومسروق وسعيد بن المسيب، وكمالك والثوري والأوزاعي والحمادين وأبي حنيفة وغيرهم من تابعي التابعين، وكالشافعي وأحمد وأبي عبيد وأمثالهم من أتباع تابعي التابعين"

لقد كان منهجي في كتابة الرسالة هو المنهج الاستقرائي التحليلي القائم على النظر والبحث في الأسلوب القرآني للوقوف على أسرار التقديم والتأخير فيه، وكذلك التتبع والرصد لما كتبه الآخرون، ثم الشرح والتحليل مع التعقيب على الآراء المنقولة بالموافقة أو المخالفة المؤيدة بالأدلة والبراهين في كلتا الحالتين واتجه البحث في طريقين:

الطريق الأول : يبحث في طبيعة الأسلوب ذاته وعلاقاته مع غيره من العلوم المرتبطة به، وذلك لتحديد معالمه وبيان سماته والوقوف على خصائصه وهذا ما تناوله الباب الأول.

الطريق الثاني : فهو عبارة عن التطبيق العملي لما سبقت الإشارة إليه في الباب الأول، حيث يتم البحث في سور القرآن الكريم كشفاً عن أسرار التقديم والتأخير بين سورة وبين آياته، هذا ما تناوله الباب الثاني، وأحب أن أذكر بأنني قد قمت بعزو الآيات إلى سورها مع ضبطها وتخريج الأحاديث من مصادرها ونسبة الشعر إلى قائليه وتخريجه من دواوينه ومصادره.

لقد جاءت هذه الرسالة بفضل الله سبحانه وتعالى لتغطي مساحة دراسية لم تملأ من قبل الدارسين للعلوم القرآنية من قبل فيما أعلم.

وخاصة الفصل السادس : حكم ترجمة القرآن الكريم وبيان أثرها على أسلوب التقديم والتأخير والحمد لله.

هذا الفصل أبرز أهمية أسلوب التقديم والتأخير والأثر الناتج عن عملية الهدم الأسلوبية بواسطة الترجمة مع ضرب الأمثلة على ذلك في اللغة الإنجليزية والفرنسية والإسبانية، والتوصل إلى نتيجة مفادها استحالة حدوث عملية الترجمة الحرفية بسبب التأثير الهدمى الحاصل في التركيبة البنائية لأسلوب التقديم والتأخير، وفيما أعلم أن هذا الفصل مبحث جديد لم يتطرق إليه أحد قبلي بل ويفتح الباب أمام مجالات جديدة للبحث فتخرج لنا دراسات متخصصة تتناول التراجم بالتحليل والمقارنة بين النص القرآني في لغة نزوله وبعد ترجمته مع التدقيق في المعنى وما طرأ عليه من تغيير وهذا ما قمنا به في الأمثلة التي ذكرناها بفضل الله.

ولست أدعى في عملي الكمال كيف ؟ وقد خلق الله الإنسان وركب فيه الجهل والخطأ والنسيان، فما من صاحب مؤلف إلا وقد قال بعد أن قلب فيه نظره الفينة بعد الفينة يا ليتني زدت في هذا وأنقصت من ذاك، يا ليتني قدمت هذا وأخرت ذاك، يا ليتني يا ليتني ليبقى ذلك دليلا في نـــهاية الأمر على كمال الخالق ونقص المخلوق.

ولا يفوتني في نـــهاية مقدمتي إلا أن أتقدم بالشكر والامتنان لكل من ساهم في إخراج هذا العمل للنور وخاصة الأستاذ الدكتور محمود إبراهيم الجيوشي — الأستاذ الدكتور محمد عبدالعظيم المطعنى ــ الأستاذ الدكتور أحمد يوسف خليفة والأستاذ الدكتور عبد المقصود محمود كمال والأستاذ الدكتور جمال سيدبي الذي حثني على طبعها ونشرها وكان له فضل التقائي بورثة المرحوم الحاج وهبة ذرية طيبة بعضها من بعض جزاهم الله عن الإسلام خيرا، فكم قدموا من خدمات لنشر تراثنا الإسلامي.

اللهم تقبل صالح أعمالنا واغفر لنا تقصيرنا وزللنا، وتقبلنا في عبادك الصالحين إنك أنت أرحم الراحمين

منير المسيري

البـــاب الأول

الفصل الأول
الأسلوب الأدبي بيـانه و أهميته في القرآن الكريم

الفصل الأول

الأسلوب الأدبي بيانه و أهميته في القرآن الكريم

قبل الدخول في العملية التحليلية لأسلوب التقديم والتأخير في العمل الأدبي والذي يعتبر المدخل الرئيسي لفهم ذات الأسلوب في القرآن الكريم والذي هو موضوع بحثنا ينبغي أن نقف عند معنى الأسلوب أولاً، ونحدد مصطلحه، نظراً لاختلاف التعريفات المطروحة لتحديد معناه ، إذ قد يفهم من عنوان البحث أنه يتجه إلى الدراسة التحليلية لرصد العملية اللغوية الخاصة بالتقديم والتأخير المنبثقة من علمي النحو والبلاغة فحسب، نعم هذا جانب من جوانب بحثنا الذي لا يقف عند هذا الحد بل ينطلق مع كل إمكانات النص وجوانبه التحليلية لاكتشاف أسلوب التقديم والتأخير في القرآن الكريم، كما ينبغي ألا نغفل ونحن نحدد المصطلح أننا نتعامل مع نص غير بشري، بمعنى أننا سوف نلتزم تعريفاً نابعاً من وجهة نظر أدبية لا تتعارض مع الثوابت الدينية ، فبينما نجد أن الأسلوب الذي لا يتعامل مع الكلمات المقدسة يخضع لعوامل تلائم صفات المبدع ، وكذا العوامل المختلفة المؤثرة في إبداعه كالعوامل النفسية والثقافية وتأثير البيئة والمجتمع والعادات والتقاليد واختلاف المواهب ...الخ فإننا حتماً سوف نستبعد هذه الأشياء من النص القرآني الذي هو كلام الله الذي ينبغي ألا نتحدث عنه أو نصفه إلا من خلال العقيدة الدينية المستمدة من القرآن والسنة ،حتى لا نصفه بما لا يليق أو ننفي عنه ما يليق به فنحن مع هاتز فيلد نرى أنه ليس هناك اتجاهات متخالفة في علم الأسلوب، فلا ينبغي أن نتحدث عن علم أسلوب جمالي، وآخر لغوي، وثالث نفسي، بل لابد من إدماجها وتكاملها في اتجاه واحد ، قد يكتسب طابعاً لغويا بالنسبة للمادة المستخدمة في أقصى حالاتــها، ونفسياً بالنسبة للبواعث الدافعة إليه، وجمالياً، بالنظر للشكل الخارجي للقول والتأثير الناجم عنه، وجميع هذه العناصر حاضرة في النص، ودراستها يعني التفقه فيها . (١)

---

(١) فصول ، ص ٥٢.

كل هذا نتفق عليه ، ولكن مثلاً بالنسبة للثالث النفسي سوف نتناوله تناولاً يتفق مع العقيدة الإسلامية التي تنفي مماثلة الخالق بالمخلوق كما قال تعالى:**﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾** (الشورى :١١) فنفس الله ليست كنفس البشر ، فمثلاً حين يتحدث القرآن الكريم عن الحالة الجسمية النفسية للمعرضين عن الله في قوله تعالى :**﴿ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقاً حَرَجاً كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ﴾**(الأنعام: ١٢٥). هذا الوصف الشعوري لا يجوز أن نصفه في عملية التحليل الأدبي بأنه حالة نفسية أو شعورية لله تبارك وتعالى ، بل هو علم الله التام والمطلق بنفسية من هذه صفته، ولذا نستطيع أن نقول : إن أنسب مصطلح لتعريف الأسلوب هو تعريف أولريش ليو (**إن الأسلوب يعني الكلية المتكاملة الشاملة لكل الكلمات المتفرقة ، التي تتسم بــها كيفية التعبير**)[1] مع الأخذ في الاعتبار عدم الاقتصار على كيفية التعبير، بل نضيف للمصطلح كلمة وعما نعبر، ليكون التعريف على النحو التالي:

(**الأسلوب هو الكلية المتكاملة الشاملة لكل الكلمات المتفرقة التي تتسم بــها كيفية التعبير وعما يكون التعبير**) مع الأخذ في الاعتبار أنني قلت: عمَّا و لم أقل عمَّن التي تختص بالعاقل بل عما التي تعبر عن العاقل وغير العاقل، وسوف أتناول بالتركيز إبراز التضافر والتضامن بين الجانبين والكشف عن عملية التأثير في أسلوب التقديم والتأخير وكل الأحكام المتعلقة به من علم الإعراب والبلاغة والعقيدة والفقه والتفسير ......إلخ .

ويعجبني في ذلك أن أذكر ما قاله **شتريلكا** تعقيباً على تعريف **أولريش ليو** حيث قال: "ومن البديهي أن النوعية الخاصة لكيفية التعبير ترتبط بالمعبر عنه ، فليس من الممكن أبداً أن نفصل بين كيف نعبر وعما نعبر ....الأسلوب يرتبط بالأبنية الخاصة التي تنشأ عن تفاعل كثير من السمات الأسلوبية المتفرقة للعمل من ناحية النحو والإيقاع والبحر – هذا الأخير يرتبط بالشعر بطبيعة الحال- والصور البلاغية "[2]

---

(١) فصول،نفس العدد السابق مقال بعنوان:مناهج علم الأدب ليوزف شترليكا ترجمة مصطفى ماهر ص٧١.

(٢) المصدر السابق ص٧١.

وإذا كان القرآن الكريم قد نزل بأسلوب العرب وعلى طريقة نظمها في الكلام ، فحينئذ لن يستطيع أحد أن يفهم القرآن الكريم، فضلاً عن معرفة وجوه إعجازه في أسلوبه ونظمه إذا لم يكن عالما بل ومتمكناً من أسلوب العرب الأدبي ، قال تعالى: ﴿ **بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ** ﴾ (الشعراء : ١٩٥).

وإذا كان الإنسان بطبيعته البشرية يختلف أسلوبه تبعاً لاختلاف حالاته الذهنية والعاطفية فيتخير كلماته التي تقال في حالة الرضا عن التي تقال في حالة الغضب ، فيقدم في مقام ما يؤخره في مقام آخر ، ويمهد لمقام ويدخل مباشرة فيما يريده في مقام ثالث ليرتقي ذلك الأسلوب عند الأدباء فيصاغ بأسلوب أدبي ، ولكنَّه في الحالة الذهنية والعاطفية لا يخرج عن أسلوب الآخرين في مجمله، فأقدر الناس على التعبير عن العواطف الإنسانية هم أهل الأدب، الذين تميزوا عن الناس بتلك الموهبة التي جعلتهم يصوغون الأحاسيس والأفكار في القوالب الفكرية التي اختاروا لها كلماتهم بعناية فائقة لتكون خير وسيلة لتوصيل ما يريدونه إلى المتلقي، وهنا تأتي مهمة المحللين والنقاد الذين يتناولون الأسلوب ، ويقفون عند كل كلمة فيه لإبراز مواطن الإبداع والإخفاق و لم نجد شاعراً واحداً قد أجاد في جميع المعاني التي طرقها ولا الألفاظ التي اختارها، بل نجد أن بعضهم اشتهر وذاع صيته في وصف دون وصف وفي معنى دون آخر وأحسن السبك ، وأجاد الوصف في موضع ، و لم يحسن ويبدع في موضع ، ويكفي أن نطالع كتاب طبقات الشعراء لابن قتيبة ، فإنه خير ما كتب في ذلك ، فتحت عنوان أقسام الشعر يقول ابن قتيبة:"تدبرت الشعر ، فوجدته أربعة أضرب ، ضرب منه حسن لفظه وجاد معناه .

كقول القائل في بعض بني أمية :

في كفه خَيْزرانٌ ريحه عَبِقٌ   منْ كف أَرْوعَ في عرْنينه شَمَمُ
يُغْضِي حَيَاءً ويُغْضَى منْ مهابتهِ   فما يكَلَّم إلا حين يَبتسم[1]

لم يَقل في الهيبة شيء أحسن منه .

---

(١) طبقات الشعراء ص٢١ -٢٢ - و لم ينسبه لقائل - وقد وجدته في ديوان الفرزدق.

وكقول أوس بن حجر :

أيتها النفسُ أجملي جَزَعا　　　إنَّ الذي تحذرين قَد وقعا[1]

لم يبتدئ أحد مرثية أحسن من هذا .

وكقول أبي ذؤيب[1]:

والنفس راغبةٌ إذا رغبَتهَا　　　وإذا تُرَدُ إلى قليلٍ تَقنعُ

حدثني الرياشي عن الأصمعي قال هذا أبدع بيت قالته العرب .

وكقول حميد بن ثور[2]:

أرى بصري قد رابني بعد صحة　　　وحسبُك داءً أن تصحَ وتسْلما

ولم يقل في الكبر شيء أحسن منه

وكقول النابغة:[3]

كليني لَهم يا أميمةُ ناصب　　　وليل أقاسيه بطيءِ الكواكبِ

لم يَبتدئ أحد من المتقدمينً بأحسن منه ولَا أغرب.

قال عكرمة بن جرير : قلت لأبي : من أشعر الناس ؟ قال : أجاهلية أم إسلام ؟ قلت جاهلية .

قال زهير: قلت: فالإسلام قال :الفرزدق قلت : فالأخطل قال: الأخطل يجيد نعت الملوك ويصيب صفة الخمر قلت: له فأنت ؟ قال : أنا نحرت الشعر نحراً ،قال عبد الملك لقوم من الشعراء : أي بيت أمدح ؟

فاتفقوا على بيت زهير

تراهُ إذا ما جئتهُ مُتَهلِّلاً　　　كأنك تعطيه الذي أنتَ سائِلهُ[5]

---

(١) المصدر السابق ص٢١ ديوان أوس بن حجر.

(٢) ديوان الهذليين ، القسم الأول من ص١-٢١ ، المفضليات، المفضلية ١٢٦ ص٤١٩-٤٢٩ ، جمهرة أشعارالعرب ص٥٣٤ ، لمنتخب من محاسن أشعار العرب ج١ ص٢٠٨- ٢٢٠ ، منتهى الطلب من أشعار العرب ج ٩/ ص١٢١ –١٣٦.

(٣) ديوان حميد بن ثور ، ص٢٩ ، الكامل في اللغة والأدب ، ج١ ص١٨٢، بهجة المَجالس وأنس المَجالس وشحذ الذاهن والهاجس ، ج٢ ص ٢٣٨

(٤) المصدر السابق ص٢٢ ، وهو في ديوان النابغة الذبياني . القصيدة الثالثة ، ص ٢٢.

(٥) المصدر السابق ص٢٢ ديوان زهير بن أبي سلمى ص٥٧.

وإذا كانت الألفاظ خادمة للمعاني عند كثير من البلاغيين وموضوعة لأجلها ، وأن قيمة الأسلوب، إنما تكون بالمعنى المسبوق إليه ، بينما يرى الآخرون أن المعاني مطروحة في الطريق ، يعرفها العام والخاص ، فليس من شك أن الكلام مهما بلغ في غرابة معناه ما بلغ فليس له قدر ولا قيمة إلا بحسن نظم وجودة تركيب وحسن تآلف وتناغم بين الكلمات، فالنظم هو الذي يفرق بين الأسلوب الأدبي وغير الأدبي، وكذلك بين الأسلوب الأدبي بعضه بعضاً ، وبه يتم التفاضل بين الأدباء.

قال الجرجاني: " ولقد أطبق العلماء على تعظيم شأن النظم وتفخيم قدره والتنويه بذكره وإجماعهم الأفضل مع عدمه ، ولا قدر لكلام إذا هو لم يستقم له ، ولو بلغ في غرابة معناه ما بلغ ".[1] .

ولابد في النظم أن يكون خاضعاً لقوانين اللغة وأصولها ومناهجها التي تكتب بـــها، وذلك أمر مطرد في كل لغات العالم، ففي كل لغة من لغات البشر نسق معين في ترتيب الكلام ، يلتزمه الكتاب فيما يكتبونه ، والمتكلمون في أحاديثهم، ويرتبط بالتسلسل المنطقي والتدرج الذهني ، بحيث يوضع الكلام كما يقتضيه علم النحو في هذه اللغة،والنظم في اللغة العربية كذلك، له قوانينه وأصوله ، فلا يجوز أن يخل بتلك القواعد الموضوعة ، وينبغي لكل ناظم أن ينظر في وجوه كل باب من أبواب الإعراب ويعرف فروقه ، فالنحو هو دعامة اللغة وقانونـــها الأعلى عليه يرتكز كل علم من علوم العربية ، وهو مفتاح الفهم وأداة البيان، فهل يفهم كلام الله ويعرف مراده و دقائق تفسيره إلا به ، وهل أعجزهم القرآن إلا بأسلوبه. قال تعالى:**﴿قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لاَ يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً﴾** (الإسراء : ٨٨) وقال تعالى: **﴿قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ ﴾** (هود : ١٣) قال تعالى: **﴿فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ﴾** (البقرة:٢٣)

وهل تفهم أحاديث النبي ﷺ وأصول العقائد وأدلة الأحكام وما يتبع ذلك من أمور العقائد وأصول الفقه والدراسات المتنوعة البيانية والأدبية إلا به

---

(١) دلائل الإعجاز ص٨٠.

ولهذا أجمع علماء الإسلام قديماً وحديثاً على أن فهم كتاب الله ومعرفة تفسيره ووجوه إعجازه إنما هي متوقفة على فهم علوم العربية أولاً، النحو والأدب والصرف والعروض والبلاغة بمباحثها الثلاث، وأن المجتهد لو أحصى كل علوم الشريعة لا يمكن الوصول إلي رتبة الاجتهاد بدون علوم اللغة العربية ، ولو أردت أن أكتب أسماء العلماء الذين اشترطوا ذلك، لأضعت الوقت والجهد في إثبات المسلمات ولقللت من شأن البديهيات، فتعلق الكلم بعضه ببعض إنما هو حكم من أحكام النحو وتفاضل الكلام وحسن اختياره وترتيبه إنما هو حكم من أحكام البلاغة، ويكفي أن نذكر بعضاً من هؤلاء العلماء الذين حكوا الإجماع على اشتراط ذلك:

قال ابن الأنباري: "إن الأئمة من السلف والخلف أجمعوا قاطبة على أنه شرط في رتبة الاجتهاد ، وأن المجتهد لو جمع كل العلوم لم يبلغ رتبة الاجتهاد حتى يعلم النحو فيعرف به المعاني التي لا سبيل إلى معرفتها بغيره، فرتبة الاجتهاد متوقفة عليه لا تتم إلا به".(١)

ويقول عباس حسن عن أهمية النحو: "وسيلة المستعرب، وسلاح اللغوي، وعماد البلاغيين، وأداة المشرع والمجتهد، والمدخل إلى العلوم العربية والإسلامية جميعاً"(٢)

ويؤكد الدكتور عبد العال سالم مكرم على أهمية علم النحو بالنسبة للعلوم العربية بشأن عام فيقول: " ذلك لأن النحو العربي منذ عصر التدوين والتأليف تمت له السيطرة على العلوم الإسلامية جميعاً، فعلماء الفقه والأصول والتفسير والحديث والفلسفة والتوحيد عالة على الدراسات النحوية واللغوية ، فلا يؤلف كتاب ، ولا تقام نظرية ، ولا تحرر فكرة ، ولا ينشأ بحث إلا على هدي النحو العربي والتعمق فيه يدل على ذلك ما تحدث به ابن قتيبة في كتاب تأويل مشكل القرآن حيث يقول : "للعرب الإعراب ، الذي جعله الله وشياً لكلامها وحلية لنظامها وفارقا في بعض الأحوال بين الكلامين المتكافئين والمعنيين المختلفين كالفاعل والمفعول، لا يفرق بينـــهما ، إذا تساوت حالهما

---

(١) لمع الأدلة في أصول النحو ص٩٥. (٢) النحو الوافي الجزء الأول ص٢.

في إمكان الفعل أن يكون لكل واحد منهما إلا بالإعراب ولو أن قائلاً قال:- هذا قاتلٌ أخي- بالتنوين، وقال آخر - هذا قاتلُ أخي- بالإضافة لدل بالتنوين على أنه لم يقتله ، ودل حذف التنوين على أنه قد قتله .

....ولو أن قارئاً قرأ ﴿ فَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴾ (يس : ٧٦) وترك طريق الابتداء بأن، وأعمل القول فيها بالنصب على مذهب من ينصب إن بالقول كما ينصبها بالظن ، لقلب المعنى من جهته،وأزاله عن طريقته،وجعل **النبي** ﷺ محزوناً لقولهم: إن الله يعلم ما يسرون وما يعلنون وهذا كفر ممن تعمده ، وحرف من اللحن لا تجوز الصلاة به ، ولا يجوز للمؤمنين أن يتجوزوا فيه" .[1]

قال الشيخ محمد أبو زهرة: " اتفق علماء الأصول على ضرورة أن يكون على علم باللغة العربية ، لأن القرآن الذي نزل بهذه الشريعة عربي ، ولأن السنة التي هي بيانه جاءت بلسان عربي مبين ، وقد حد **الغزالي** القدر الذي يجب معرفته من العربية فقال: " إنه القدر الذي يفهم به خطاب العرب وعاداتهم في الاستعمال، حتى يميز بين صريح الكلام ومجمله وحقيقته ومجازه وعامه وخاصه ومحكمه ومتشابهه ومطلقه ومقيده ونصه وفحواه ولحنه ومفهومه،وهذا لا يحصل إلا لمن بلغ في اللغة درجة الاجتهاد...وأنه على قدر فهم الباحث في الشريعة لأسرار البيان العربي ودقائقه تكون قدرته على استنباط الأحكام من النصوص الفقهية"[2]

ويذهب **الشافعي** إلى تحريم الإفتاء لمن لم يكن بصيراً باللغة والشعر .

قال ابن القيم : " قال الشافعي فيما رواه عنه الخطيب في كتاب الفقيه والمتفقه له - لا يحل لأحد أن يفتي في دين الله إلا رجلاً عارفاً بكتاب الله ناسخه و منسوخه ومحكمه و متشابهه وتأويله وتنـزيله ومكيه ومدنيه وما أريد به، ويكون بعد ذلك بصيراً بحديث رسول الله ﷺ وبالناسخ والمنسوخ ويعرف من الحديث مثل ما عرف من القرآن ، ويكون بصيراً باللغة بصيراً بالشعر وما يحتاج إليه للسنة والقرآن".[3]

---

(١) تطبيقات نحوية وبلاغية الجزء الأول ص٧. (٢) أصول الفقه،محمد أبو زهرة ص٣٥٢

(٣) إعلام الموقعين عن رب العالمين ، ج١ ص٣٧.

قال الشاطبي في معرض حديثه عن علوم العربية وأهميتها بالنسبة لعلوم الشريعة:

"وأما الثاني من المطالب، وهو فرض علم، تتوقف صحة الاجتهاد عليه، فإن كان ثم علم لا يحصل الاجتهاد في الشريعة إلا بالاجتهاد فيه فهو لابد مضطر إليه لأنه إذا فرض كذلك لم يمكن في العادة الوصول إلى درجة الاجتهاد دونه ،فلابد في تحصيله على تمامه ، وهو ظاهر، إلا أن هذا العلم مبـــهم في الجملة"[1]

ولن يستطيع إنسان فهم اللغة العربية والوقوف على أسرارها ومواطن جمالها باقتصاره على علم الإعراب فحسب، بل لابد أن يغوص إلى عمق النصوص الأدبية ، ويعيش معها ، حتى يتشرب طريقة العرب في أسلوبـــها الأدبي وكيفية استخدامها للكلمات في حالات التركيب المختلفة، والتي تدور الكلمة الواحدة، وتتنقل بين كثير من المعاني التي يحدد السياق واحدة منها أرادها القائل.

يقول الشاطبي: " ولما كان الكتاب والسنة واردين بلغة العرب ، وكانت لهم عادات في الاستعمال بـــها يتميز صريح الكلام وظاهره ومجمله وحقيقته ومجازه وعامه وخاصه ومحكمه ومتشابـــهه ونصه وفحواه إلى غير ذلك ، كان لابد لطالب الشريعة من هذين الأصلين ، أن يكون على علم بلسان العرب في مناحي خطابـــها ،ما تنساق إليه أفهامها في كلامها ، فكان حذق اللغة العربية بـــهذه الدرجة ركناً من أركان الاجتهاد ، كما تقرر ذلك عند عامة الأصوليين ، وفي مقدمتـــهم الإمام الشافعي في رسالة الأصول ".[2]

نعم لو كان القرآن الكريم نزل على غير أسلوب العرب وطريقتها في الإفهام لكان الأمر بالإيمان به ضرباً من ضروب العبث، لأنه يطلب الإيمان بما لا يفهم معناه، وبما لا تبلغه العقول، نعم قد لا تدرك العقول مفردة في السياق،ولكن ذلك لا يخل بفهم السياق العام للتركيب والمراد منه،وقد لا تدرك بعض الأساليب القرآنية عند العوام، وذلك لا يقدح فيما قلناه، حيث إن هذه

---

(١) الموافقات في أصول الشريعة ، ج٢ ينظر من ص٤٩-٥٢. (٢) المصدر السابق الجزء الأول ص٣.

الأساليب هي المتعلقة باستخراج الأحكام الفقهية التي يصل إليها العلماء بوسائل الاجتهاد ، وليست الأساليب المتعلقة بالدعوة للإيمان وأصول الدين وأركان الإيمان والإسلام، وحول هذا المعنى قال الشيخ محمد عبده : "للتفسير مراتب : أدناها أن يبين بالإجمال ما يشرب القلب عظمة الله وتنزيهه، ويصرف الناس عن الشر ، ويجذب بها إلى الخير، وهذه التي قلنا إنها متيسرة لكل أحد، قال تعالى :**﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾** (القمر : ١٧) .

وأما المرتبة العليا فهي لا تتم إلا بأمور .

● **أحدها** :فهم حقائق الألفاظ المفردة التي أودعها القرآن، بحيث يحقق المفسر ذلك من استعمالات أهل اللغة غير مكتف بقول فلان وفهم فلان ، فإن كثيراً من الألفاظ كانت تستعمل في زمن التنزيل لمعان، ثم غلبت على غيرها بعد ذلك بزمن قريب أو بعيد ، ومن ذلك لفظ التأويل .

● **ثانيها** : الأساليب فينبغي أن يكون عنده من علمها ما يفهم به هذه الأساليب الرفيعة ، وذلك يحصل بممارسة الكلام البليغ ومزاولته مع التفطن لنكته ومحاسنه والوقوف على مراد المتكلم منه، مع أننا لا نتسامى إلى فهم مراد الله تعالى كله على وجه الكمال والتمام ولكن يمكننا فهم ما نهتدي به بقدر الطاقة ، ويحتاج في هذه إلى علم الإعراب وعلم الأساليب- المعاني والبيان –"[1]

هذه العلوم وإن لم تكن مدونة كفنون في العصر الجاهلي وفي صدر الإسلام، فإنها كانت معروفة بالسليقة، لاستقامة لسانهم وعدم دخول العجمى عليهم، فلم يزل لسانهم صافياً من الكدر ، خالياً من اللحن ، سالماً من التغيير، ومن ثم كان الجمهور هو راوية الأشعار والحكم عليها، فبالشعر يتفاخرون ، ويتهاجون ويسجلون مآثرهم ، ويزودون عن أنفسهم ، وتحتفل القبيلة بمولد الشاعر احتفالاً عظيماً ، وجاء النبي ﷺ و لم يقلل من شأن الشعر، بل استمع له وأجاز عليه، وكان له شعراؤه، وأثنى على شاعره حسان خيراً،

---

(١) مناهل العرفان في علوم القرآن ،الجزء الثاني ص ٥٢.

ولقد كان اهتمام الصحابة ﷺ بالشعر حفظاً ورواية كبيراً، وما ذاك إلا من أجل تفسير القرآن وبيان معنى ما غمض من ألفاظه بالرجوع إلى نظائرها في الشعر الجاهلي لمعرفة المعنى المعهود عند الجاهليين، يذكر **الشاطبي** عن عمرﷺ في قوله تعالى: ﴿ **أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَى تَخَوُّفٍ** ﴾(النحل : ٤٧) فإنه سئل عنه على المنبر فقال له رجل من هذيل: التخوف عندنا التنقص ، ثم أنشده الرجل شعراً......فقال عمر، أيها الناس تمسكوا بديوان شعركم في جاهليتكم، فإن فيه تفسير كتابكم".[١]

ولا يفهم من هذا أبداً أننا قد حكمنا الشعر في القرآن وأرجعناه إليه ، بل غاية الأمر أننا نذكر أن القرآن نزل على معهود العرب وأسلوبـــها في التخاطب وعلى نحو ما يفهمه العربي من المفردات والتركيب، كما ذكر السيوطي عن أبي بكر بن الأنباري حيث قال: " فجاء عن الصحابة والتابعين كثيراً الاحتجاج على غريب القرآن ومشكله بالشعر ، وأنكر جماعة لا علم لهم على النحويين ذلك ، وقالوا : إذا فعلتم ذلك ، جعلتم الشعر أصلاً للقرآن ، قالوا: وكيف يجوز أن يحتج بالشعر على القرآن ، وهو مذموم في القرآن والحديث .

قال : وليس الأمر كما زعموه من أنا جعلنا الشعر أصلاً للقرآن ، بل أردنا تبيين الحرف الغريب من القرآن بالشعر ، لأن الله تعالى قال: ﴿**إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآناً عَرَبِياً** ﴾ (الزخرف : ٣) .

وقال: ﴿ **بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ** ﴾ (الشعراء : ١٩٥) وقال ابن عباس: "الشعر ديوان العرب ، فإذا خفي علينا الحرف من القرآن الذي أنزله الله بلغة العرب ، رجعنا إلى ديوانـــها، فالتمسنا معرفة ذلك منه" . ثم أخرج من طريق عكرمة عن ابن عباس قال: "إذا سألتموني عن غريب القرآن فالتمسوه في الشعر، فإن الشعر ديوان العرب .

وقال أبو عبيد في فضائله ــ الكلام للسيوطي ــ .....عن ابن عباس أنه كان يسأل عن القرآن ، فينشد فيه الشعر. قال أبوعبيد : يعني كان يستشهد

---

(١) الموافقات الجزء الثاني ص٦٧

به على التفسير قلت: قد روينا عن ابن عباس كثيراً من ذلك ، وأوعب ما رويناه عن مسائل نافع بن الأزرق ، وقد أخرج بعضها ابن الأنباري في كتاب الوقف، والطبراني في معجمه الكبير ، وقد رأيت أن أسوقها هنا بتمامها، لتستفاد .

ولقد ذكرها السيوطي ، وأحصيتها ، حيث بلغ عدد الآيات التي ذكرها من مسائل نافع بن الأزرق لابن عباس تسعين ومائة مسألة ، لكل مسألة بيت من الشعر يفسر به ابن عباس المعنى المسئول عنه ، وقد حذف السيوطي منها جزءاً يسيراً نحو بضعة عشر سؤالاً، وطلباً للاختصار فقد رأيت أن أذكر بعضاً منها:

فقال نافع: أخبرني عن قول الله تعالى:**﴿عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ عِزِينَ﴾** (المعارج : ٣٧) قال العزون: حلق الرفاق قال: وهل تعرف العرب ذلك؟ قال نعم أما سمعت عبيد بن الأبرص وهو يقول :

فجاءوا يُهْرَعُون إليه حتى يكونوا حول منبره عزينا[١]

قال: أخبرني عن قوله: **﴿وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ﴾** (المائدة : ٣٥) قال: الوسيلة الحاجة، قال: وهل تعرف العرب ذلك؟ قال: نعم أما سمعت عنترة، وهو يقول:

إن الرجالَ لهم إليك وسيلة إنْ يأخذوك تَكحَلي وتخَضَبي[٢]

قال : أخبرني عن قوله: **﴿ شِرْعَةً وَمِنْهَاجاً ﴾** (المائدة : ٤٨) قال: الشرعة - الدين والمنهاج - الطريق قال : وهل تعرف العرب ذلك ؟ قال: نعم، أما سمعت أبا سفيان بن الحارث بن عبد المطلب، وهو يقول :

لقد نطقَ المأمونُ بالصدقِ والهدى وبَينَ للإسلامِ ديناً ومنهجا[٣]

قال: أخبرني عن قوله: **﴿إذا أثمر وينعه﴾** (الأنعام:٩٩) قال: نضجه وبلاغه ، قال: وهل تعرف العرب ذلك؟ قال : نعم أما سمعت قول الشاعر:

إذا مَشتْ وسطَ النساءِ تَأودَت كما اهتزَ غصنٌ ناعمُ النبتِ ميال[٤]

---

(١) لم أعثر على البيت في ديوان عبيد بن الأبرص الشعري، دار الكتاب العربي شرح أحمد عدرة ١٤١٤ هجرية ١٩٩٤ ميلادية.

(٢) ديوان عنترة ص١٨. (٣) لم أعثر للحارث على ديوان. (٤) لم أعثر له على قائل.

قال : أخبرني عن قوله تعالى: ﴿**وريشا**﴾ (الأعراف: ٢٦) قال: الريش المال
قال: وهل تعرف العرب ذلك ؟
قال: نعم أما سمعت الشاعر يقول :

فرِشني بخيرٍ طالَ ما قدْ بريَتني وخيرُ الموالي َمنْ َيريشُ ولا يَبْري.[١]

وعن نفس ذلك المعنى يقول الشاطبي في موضع آخر تحت عنوان النوع الثاني في بيان قصد الشارع في وضع الشريعة للإفهام ، ويتضمن مسائل :

● **المسألة الأولى** : وإنما البحث المقصود هنا ، أن القرآن نزل بلسان العرب على الجملة ، فطَلَبُ فهمه إنما يكون من هذا الطريق خاصة ، لأن الله تعالى يقول: ﴿**إنَّا أنزلْنَاهُ قُرْآناً عَرَبِياً**﴾ (يوسف: ٢) وقال: ﴿ **بلِسَانٍ عَرَبِيٍ مُّبِينٍ**﴾(الشعراء: ١٩٥) وقال: ﴿**وَهَذَا لسَانٌ عَرَبيٌّ مُّبينٌ**﴾ (النحل : ١٠٣) وقال: ﴿**ولَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآناً أعْجَمِياً لَقَالُوا لوْلا فُصِّلَتْ آياتُهُ أأعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ**﴾ (فصلت : ٤٤) إلى غير ذلك، مما يدل على أنه عربي وبلسان العرب لا أنه أعجمي وبلسان العجم ، فمن أراد تفهمه ، فمن جهة لسان العرب يفهم ولا سبيل إلى تطلب تفهمه من غير هذه الجهة ، هذا هو المقصود من المسألة .....فإن قلنا: إن القرآن نزل بلسان العرب، وإنه عربي، وإنه لا عجمة فيه فبمعنى أنه أنزل على لسان معهود العرب في ألفاظها الخاصة وأساليب معانيها وأنــــها فيما فطرت عليه من لسانــــها، تخاطب بالعام ويراد به ظاهره، وبالعام يراد به العام في وجه والخاص في وجه، وبالعام يراد به الخاص، والظاهر يراد به غير الظاهر، وكل ذلك يعرف من أول الكلام وأوسطه أو آخره، وتتكلم بالكلام ، فينبئ أوله عن آخره ، وآخره عن أوله، وتتكلم بالشيء، يعرف بالمعنى ، كما يعرف بالإشارة ، وتسمى الشيء الواحد بأشياء كثيرة ، والأشياء الكثيرة باسم واحد، وكل هذا معروف عندها ، لا ترتاب في شيء منه، ولا من تعلق بعلم كلامها ، فإذا كان كذلك، فالقرآن في معانيه وأساليبه على هذا الترتيب .

---

(١) الإتقان ص٢٥٥-٢٥٦.

● **المسألة الثانية** : للغة العربية من حيث هي ألفاظ دالة على المعاني نظران :

● **أحدهما** : من جهة كونــها ألفاظاً وعبارات مطلقة دالة على معان مطلقة وهي الدلالة الأصلية .

● **الثاني**: من جهة كونــها ألفاظاً وعبارات مقيدة دالة على معان خادمة وهي الدلالة التابعة .

فالجهة الأولى.....وأما الجهة الثانية فهي التي يختص بــها لسان العرب في تلك الحكاية وذلك الإخبار ، فإن كان خبراً ، تعين في هذه الجهة أمور خادمة لذلك الإخبار بحسب المخبِر والمخبر عنه ونفس الإخبار في الحال والمساق ونوع الأسلوب من الإيضاح والإخفاء والإيجاز والإطناب وغير ذلك، وذلك أنك تقول في ابتداء الإخبار ، قام زيد ، إن لم تكن ثَم عناية بالمخبَر عنه بل بالخبر فإن كانت العناية بالمخبَر عنه ، قلنا زيد قام ، وفي جواب السؤال أو ما هو منــزل تلك المنــزلة إن زيداً قام ، وفي جواب المنكر لقيامه، والله إن زيداً قام، وفي إخبار مَنْ يتَوقع قيامَه أو الإخبار بقيامه، قد قام زيد، أو زيد قام، وفي التنكيت على من ينكر إنما قام زيد، ثم يتنوع أيضاً بحسب تعظيمه أو تحقيره أعني المخبَر عنه، وبحسب الكناية عنه، وبحسب ما يقصد في مساق الإخبار وما يعطيه مقتضى الحال إلى غير ذلك من الأمور التي لا يمكن حصرها، وجميع ذلك دائر حول الإخبار عن زيد، فمثل هذه التصرفات التي يختلف معنى الكلام الواحد بحسبــها، ليست هي المقصود الأصلي ، ولكنها من مهماته ومكملاته ، وبطول الباع في هذا النوع يحسن مساق الكلام ، إذا لم يكن فيه منكَر، وبــهذا النوع الثاني اختلفت العبارات وكثير من أقاصيص القرآن ، لأنه يأتي مسار القصة في بعض السور على وجه ، وفي بعضها على وجه آخر، وفي ثالثة على وجه ثالث وهكذا ما تقرر فيه من الإخبارات، لا بحسب النوع الأول إلا إذا سكت عن بعض التفاصيل في بعض ، ونص عليه في بعض ، وذلك أيضاً لوجه اقتضاه الحال والوقت ﴿ **وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِياً** ﴾ (مريم : ٦٤)[1]

---

(١) الموافقات الجزء الثاني ص ٤٩-٥٢.

وفي معرض الحديث عن شروط الاجتهاد يذكر الشوكاني الشرط الثالث من شروطه فيقول: "أن يكون عالماً بلسان العرب ، بحيث يمكنه تفسير ما ورد في الكتاب والسنة من الغريب ونحوه .... وإنما يتمكن من معرفة معانيها وخواص تراكيبـــها ، ما اشتملت عليه من لطائف المزايا من كان عالم بعلم النحو والصرف والمعاني والبيان ، حيث ثبت له في كل فن من هذه ملكة ، يستحضر بـــها كل ما يحتاج إليه عند وروده عليه ، فإنه عند ذلك ينظر في الدليل نظراً صحيحا ويستخرج منه الأحكام استخراجاً قويا".[1]

وإذا كان التقديم والتأخير هو عماد النحو العربي ، بل النحو كله دائر عليه ، وإذا كانت علوم الشريعة كلها لا تفهم إلا من خلال اللسان العربي ومعرفة قواعده وأحكامه ، كما ورد في عبارات الأئمة السابقين ، وقد مر بنا المثال المتقدم الذي ضربه ابن قتيبة في حكم من لحن في القراءة القرآنية ، وأخل بالإعراب ، والذي يصل بكفر قارئه إذا تعمد ذلك ، فهذا مثال آخر ، ذكره الآمدي في معرض حديثه عن الصنف الخامس في أدلة تخصيص العموم ، حيث ذكر تحت هذا الصنف أربع عشرة مسألة ، يقول في المسألة الثالثة عشرة : اللفظ العام إذا عقب بما فيه ضمير عائد إلى بعض العام المتقدم لا إلى كله هل يكون خصوص المتأخر مخصصاً للعام المتقدم بما الضمير عائد إليه أولا ؟

اختلفوا فيه ، فذهب بعض أصحابنا وبعض المعتزلة كالقاضي عبد الجبار وغيره إلى امتناع التخصيص بذلك ، ومنـــهم من جوزه، ومنـــهم من توقف، كإمام الحرمين وأبي الحسن البصري وذلك كما في قوله تعالى: **﴿ وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلاثَةَ قُرُوءٍ ﴾**(البقرة : ٢٢٨) فإنه عام في كل الحرائر المطلقات، بوائن كن، - والبائن التي تحتاج من أجل الرجوع لزوجها إلى عقد نكاح من جديد- أو رجعيات - التي لا تحتاج إلى عقد نكاح للرجوع إلى زوجها لعدم انتهاء الزوجية بينـــهما- ثم قال: **﴿ وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ ﴾** (البقرة : ٢٢٨) فإن الضمير فيه إنما يرجع إلى الرجعيات دون البوائن، وعلى هذا النحو[2]

---

(١) رشاد الفحول إلى تحقيق الحق من علم الأصول ص٢٧٣.

(٢) الإحكام في أصول الأحكام ، الجزء الأول ص ٥٣٢

وإذا ما عرجنا إلى السيوطي والذي يعتبر بحق من أعظم رائدي الدراسات القرآنية نجده قد عقد فصلاً هاماً في إتقانه، تحت عنوان :النوع الأربعون في معرفة الأدوات التي يحتاج إليها المفسر، وأعني بالأدوات الحروف وما شاكلها من الأسماء والأفعال والظروف، وقد بين في هذا النوع أهمية العلم بأسلوب النظم العربي ، لمن أراد أن يلج باب التفسير ، يقول : "اعلم أن معرفة ذلك من المهمات المطلوبة لاختلاف مواقعها، ولهذا يختلف الكلام والاستنباط بحسبها ثم ضرب على ذلك أمثلة لاختلاف معاني الحروف ، أذكر منها قوله تعالى:﴿**فَابْعَثُوا أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ فَلْيَنظُرْ أَيُّهَا أَزْكَى طَعَاماً فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلاَ يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَداً**﴾ (الكهف : ١٩) عطف على الجمل الأول بالفاء والأخيرة بالواو ، لما انقطع نظام الترتيب ، لأن التلطف غير مرتب على الإتيان بالطعام ، كما كان الإتيان به مترتباً على التوجه في طلبه ، والتوجه في طلبه مترتبا على قطع الجدال في المسألة عن مدة اللبث وتسليم العلم له تعالى[١]

ولقد سرد السيوطي الحروف كلها مرتبة على حروف المعجم فيذكر للهمزة أموراً ستة اختصت بها، وضرب لكل معنى مثالاً من القرآن وشرحه ، يقول:

" الهمزة تأتي على وجهين:

- أحدهما الاستفهام ، وحقيقته طلب الإفهام ، وهي أصل أدواته ، ومن ثم اختصت بأمور:
- **أحدها**: جواز حذفها، كما سيأتي في النوع السادس والخمسين.
- **ثانيها**: أنها ترد لطلب التصور والتصديق بخلاف هل ، فإنها للتصديق خاصة وسائر الأدوات للتصور خاصة .
- **ثالثها**: أنها تدخل على الإثبات، نحو﴿ **أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَباً** ﴾(يونس:٢) ﴿**آلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ**﴾ (الأنعام : ١٤٣) وعلى النفي ﴿ **أَلَمْ نَشْرَحْ** ﴾ (الشرح: ١) .وتفيد حينئذ معنيين ، أحدهما التذكير والتنبيه كالمثال المذكور وكقوله تعالى:﴿ **أَلَمْ**

(١) الإتقان في علوم القرآن، المجلد الثاني ص٣٠٤

تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ﴾ (الفرقان : ٤٥) والآخر التعجب من الأمر العظيم، كقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ﴾ (البقرة : ٢٤٣) ، وفي كلا الحالين هي تحذير، نحو﴿أَلَمْ نُهْلِكِ الْأَوَّلِينَ ﴾ (المرسلات : ١٦)

رابعها: تقديمها على العاطف ، تنبيهاً على أصالتها في التصدير، نحو ﴿أَوَ كُلَّمَا عَاهَدُوا عَهْداً﴾ (البقرة : ١٠٠) وسائر أخواتها يتأخر عنه ، كما هو قياس جميع أجزاء الجملة المعطوفة نحو..﴿فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ﴾ (التكوير: ٢٦) [١]

وهكذا يسيرالسيوطي في شرحه لمعاني بقية الحروف، حتى أنه ذكر لحرف الباء اثنى عشر معنى .

النوع الحادي والأربعون: في معرفة إعرابه .

قال السيوطي: "أفرده بالتصنيف خلائق ، منهم مكي، وكتابه في المشكل خاصة والحوفي وهو أوضحها ، أبو البقاء العكبري وهو أشهرها، والسمين وهو أجلها على ما فيه من حشو وتطويل، ولخصه السفاقسي، فحرره، وتفسير أبي حيان مشحون بذلك، ومن فوائد هذا النوع معرفة المعنى، لأن الإعراب يميز المعاني ، ويوقف على أغراض المتكلمين".[٢]

ولا يفهم من كلام السيوطي أن الإعراب هو الحكم على المعاني بإطلاق، وأنها خاضعة له ، بحيث يفهم المعنى دائماً على وجه الإعراب الظاهر، فليس هذا بصحيح، بل يختلف المعنى تبعاً لاختلاف التركيب ، فقد يوجب المعنى أن يلتفت في الإعراب لوجه غير ظاهر بعيداً عن الوجه الظاهر، وإلا فسد المعنى، وأفهم غير المراد ، وذلك أمر صحيح، حيث اتفق علماء العربية قديماً وحديثا على أن الإعراب فرع المعنى، وأنه يجب أن يفهم المعنى أولا حتى يفهم الإعراب ثانياً وأن صحة الإعراب وفساده مترتب على صحة المعنى وفساده ، وقد ذكر السيوطي عن ابن هشام قوله: "وقد زلت أقدام كثير من المعربين راعوا في الإعراب ظاهر اللفظ ، ولم ينظروا في موجب المعنى، من ذلك قوله: ﴿ أَصَلَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ﴾ (هود : ٨٧).

---

(١) الإتقان المجلد الأول ص٣٠٩ – ٣١٠

(٢) المصدر السابق ص٣٨٢.

فإنه يتبادر إلى الذهن عطف أن نفعل على أن نترك، وذلك باطل لأنه لم يأمرهم أن يفعلوا في أموالهم ما يشاءون ، وإنما هو عطف على ما،فهو معمول للترك والمعنى: أن نترك أن نفعل ، وموجب الوهم المذكور أن المعرب يرى أن والفعل مرتين وبينـــهما حرف العطف. [1]

وإنما أقصد بالمعنى المشار إليه آنفاً المعنى الذي تستحقه ألفاظ القرآن من الدلالة والبيان أي المعنى الصحيح المستفاد من النص ، والذي التزم فيه المفسر بالقراءة المتواترة و بشروط التفسير وآدابه، وأنبه على ذلك، لأنه ضل قوم في تفسير القرآن الكريم سابقاً ولاحقاً، إما لعدم التمكن من أدوات التفسير واستكمال شروطه وإما لتعصب مذهبي ألجأ المفسر أن يفسر الآيات على حسب ما يقتضيه المذهب انتصاراً لمذهبه ودعماً لرأيه، وليس كما يقتضيه النص القرآني.

وقد نقل الزرقاني عن إمام القراء أبي عمرو الداني معنى ما ذكرت آنفاً قال: "وأئمة القراء لا تعتمد في شيء من حروف القرآن على الأفشى في اللغة والأقيس في العربية بل على الأثبت في الأثر والأصح في النقل ، والرواية إذا ثبتت عندهم لا يردها قياس عربية .ولا فشو لغة ، لأن القراءة سنة متبعة يلزم قبولها والمصير إليها " قلت:- الكلام للزرقاني- وهذا كلام وجيه فإن علماء النحو إنما استمدوا قواعده من كتاب الله تعالى وكلام رسوله وكلام العرب ، فإذا ثبتت قرآنية القرآن بالرواية المقبولة كان القرآن هو الحكم على علماء النحو وما قعّدوا من قواعد ، وجب أن يرجعوا هم بقواعدهم إليه ، لا أن نرجع نحن بالقرآن إلى قواعدهم المخالفة نحكمها فيه ، وإلا كان ذلك عكساً للآية وإهمالاً للنص في وجوب الرعاية "[2]

يقول السيوطي: "وعلى الناظر في كتاب الله تعالى الكاشف عن أسراره النظر في الكلمة أو صيغتها ومحلها ،ككونـــها مبتدأ ، أو خبر أو فاعلاً أو مفعولاً أو في مبادئ الكلام أو في جواب أو غير ذلك ، ويجب عليه مراعاة أمور.

---

(١) الإتقان الجزء الثالث ص٣٨٣

(٢) مناهل العرفان ج١ ص٤٢٠.

● **أحدها** : وهو أول واجب عليه ، أن يفهم معنى ما يريد أن يعربه مفرداً أو مركباً قبل الإعراب ، فإنه فرع المعنى ، ولهذا لا يجوز إعراب فواتح السور ، إذا قلنا بأنـــها من المتشابه الذي استأثر الله بعلمه ... وقوله: ﴿ **سَبْعاً مِّنَ المَثَانِي**﴾ (الحجر: ٨٧) إن كان المراد بالمثاني القرآن، فمن للتبعيض، أو الفاتحة، فلبيان الجنس، وقوله: ﴿ **إِلاَّ أَن تَتَّقُوا مِنـــهم تُقَاةً** ﴾(آل عمران : ٢٨) إن كان بمعنى الاتقاء، فهي مصدر ، أو بمعنى متقى : أى أمر يجب اتقاؤه فمفعول به، أو جمعاً كرماة، فحال وقوله : ﴿**غُثَاءً أَحْوَى** ﴾ (الأعلى : ٥) إن أريد به الأسود من الجفاف واليبس فهو صفة لغثاء، أو شدة الخضرة فهو حال من المرعى .

● **الثاني**: أن يراعي ما تقتضيه الصناعة ، فربما راعى المعرب وجهاً صحيحاً ولا نظر في صحته في الصناعة ، فيخطئ من ذلك قول بعضهم في قوله تعالى : ﴿ **وَثَمُودَ فَمَا أَبْقَى** ﴾(النجم : ٥١) أن ثمود مفعول مقدم، وهذا ممتنع لأن لما النافية الصدر فلا يعمل ما بعدها فيما قبلها ، بل هو معطوف على عاد ، أو على تقدير : وأهلك ثمودا .

● **الثالث**: أن يكون ملماً بالعربية ، لئلا يَخَرِّج على ما لـــمْ يَثْبت.... وكقول ابن مهران في قراءة ﴿ **إِنَّ البَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا** ﴾(البقرة : ٧٠) بتشديد التاء أنه من زيادة التاء في أول الماضي ، ولا حقيقة لهذه القاعدة ، وإنما أصل القراءة إن البقرة تشابـــهت بتاء الوحدة ، ثم أدغمت في تاء تشابـــهت فهو إدغام من كلمتين.

● **الرابع**: أن يراعى في كل تركيب ما يشاكله ، فربما خرج كلاماً على شيء ، ويشهد استعمال آخر في نظير ذلك الموضع بخلافه،....ومن قال في نحو ﴿ **وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ** ﴾ (الأنعام:١٣٢) إن المجرور في موضع نصب، لأن الخبر لم يجيء في التنـــزيل مجرداً من الباء إلا وهو منصوب ، ومن قال في﴿**وَلَئِن سَأَلْتَـــهم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ**﴾ (الزخرف:٨٧) إن الاسم الكريم مبتدأ، والصواب أنه فاعل، بدليل ﴿**لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ العَزِيزُ العَلِيمُ** ﴾ (الزخرف : ٩) ، قد ذكر السيوطي مجموعة من القواعد الهامة التي يحتاج إليها المفسر تحت عنوان :

{النوع الثاني والأربعون في قواعد مهمة يحتاج المفسر إلى معرفتها}

أذكر منها القاعدة الأولى لتعلقها بموضوع رسالتنا ، وسوف ألقي عليها مزيداً من الإيضاح عند الحديث عنها في الفصل الثالث { **ضوابط التقديم والتأخير في النحو العربي** }

قاعدة في الضمائر: ألف ابن الأنباري في بيان الضمائر الواقعة في القرآن مجلدين وأصل وضع الضمير للاختصار ، ولهذا قام قوله :﴿ **أَعَدَّ اللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْراً عَظِيماً** ﴾ (الأحزاب : ٣٥) مقام خمس وعشرين كلمة لو أتى بــــها مظهرة .

وكذا قوله تعالى:﴿**وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ** ﴾ (النور: ٣١)، ومن ثم لا يعدل إلى المنفصل إلا بعد تعذر المتصل ،بأن يقع في ابتداء نحو: ﴿**إِيَّاكَ نَعْبُدُ**﴾(الفاتحة : ٥) أو بعد إلا نحو﴿**أَمَرَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ** ﴾(يوسف : ٤٠)

مرجع الضميرلا بد له من مرجع يعود إليه ، ويكون ملفوظاً به سابقاً مطابقاً نحو﴿**وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ** ﴾(هود :٤٢) ﴿ **وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ** ﴾(طه: ١٢١) ﴿**إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا** ﴾(النور : ٤٠) أو متضمناً له نحو﴿ **اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى** ﴾ (المائدة: ٨) فإنه عائد على العدل المتضمن له اعدلوا:أي المقسوم لدلالة القسمة عليه، قال مكي: "ليس في كتاب الله آية اشتملت على﴿**وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُوْلُوا الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينُ فَارْزُقُوهُم مِّنْهُ**﴾(النساء : ٨) ضمائر أكثر منها ، فإن فيها خمسة وعشرين ضميراً، أو دالاً عليه بالالتزام نحو ﴿ **إِنَّا أَنزَلْنَاهُ** ﴾(يوسف :٢) أي القرآن لأن الإنزال يدل عليه التزاماً﴿**فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ**﴾ (البقرة : ١٧٨) فعفي يستلزم عافياً، أعيد عليه الهاء من إليه، أو متأخراً لفظاً لا رتبة مطابقاً، نحو﴿ **فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُّوسَى**﴾ (طه:٦٧) ﴿ **وَلاَ يُسْأَلُ عَن ذُنُوبِــهِمُ الْمُجْرِمُونَ** ﴾ (القصص : ٧٨)﴿ **فَيَوْمَئِذٍ لاَّ يُسْأَلُ عَن ذَنبِهِ إِنسٌ وَلاَ جَانٌّ** ﴾ (الرحمن : ٣٩) أو رتبة أيضا في بابَ ضمير الشأن والقصة ونعم وبئس والتنازع،أو متأخرًا دالاً بالالتزام نحو﴿ **فَلَوْلاَ إِذَا بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ**﴾(الواقعة: ٨٣)؛ ﴿ **كَلاَّ إِذَا بَلَغَتِ التَّرَاقِيَ**﴾ (القيامة: ٢٦) ضمير الروح أو النفس لدلالة الحلقوم والتراقي عليها؛﴿**حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ**﴾(ص:٣٢)؛ أي الشمس لدلالة الحجاب

عليها وقد يدل عليه السياق فيضمر ثقة بفهم السامع؛ **﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾** (الرحمن : ٢٦) **﴿مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا﴾** (فاطر : ٤٥) أي الأرض والدنيا....

وقد يعود على لفظ المذكور دون معناه ، نحو **﴿ وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلاَيُنقَصُ مِنْ عُمُرِه ﴾**؛ (فاطر : ١١) أي عمر معمر آخر ، وقد يعود على بعض ما تقدم نحو **﴿ يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلادِكُمْ ﴾** (النساء : ١١) إلى قوله: **﴿ فَإِن كُنَّ نِسَاءً﴾** (النساء : ١١) وقد يعود على المعنى، كقوله في آية الكلالة **﴿ فَإِن كَانَتَا اثْنَتَيْنِ ﴾** (النساء : ١٧٦) ولم يتقدم لفظ مثنى يعود عليه ، وقد يعود على لفظ شيء والمراد به الجنس من ذلك الشيء .

قال الزمخشري: " كقوله تعالى: **﴿إِن يَكُنْ غَنِياً أَوْ فَقِيراً فَاللَّهُ أَوْلَى بِهِمَا﴾** (النساء : ١٣٥) أي بجنسي الفقير والغني لدلالة غنياً أو فقيراً على الجنسين، ولو رجع إلى المتكلم به لوحده ، وقد يذكر شيئان ، ويعاد الضمير إلى أحدهما، والغالب كونه الثاني نحو **﴿ وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ﴾** (البقرة : ٤٥) فأعيد الضمير للصلاة، وقيل للاستعانة المفهومة من **﴿استعينوا﴾** .

قاعدة : الأصل عوده على أقرب مذكور ، ومن ثم أخر المفعول الأول في قوله: **﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُواً شَيَاطِينَ الإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ﴾** (الأنعام : ١١٢).

ليعود الضمير إليه لقربه ، إلا أن يكون مضاف ومضاف إليه ، فالأصل عوده للمضاف لأنه المحدث عنه نحو **﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لاَ تُحْصُوهَا ﴾** (النحل : ١٨) وقد يعود إلى المضاف إليه ، نحو **﴿ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لأَظُنُّهُ مِنَ الكَاذِبِينَ﴾** (القصص : ٣٨) واختلف في **﴿لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ﴾**(الأنعام :١٤٥) فمنهم من أعاده إلى المضاف ، ومنهم من أعاده إلى المضاف إليه.[1]

وكمثل ما ذكره السيوطي عن ابن هشام عن خطأ المعربين الذين راعوا في الإعراب ظاهر اللفظ، ولم ينظروا في موجب المعنى، نجد أيضاً بعض

---

(١)الإتقان،الجزء الأول ص٣٩٧-٣٩٩.

الشعراء الذين راعوا في شعرهم صحة الإعراب ، ولم يلتفتوا إلى ما يلحق المعنى من تعقيد ذهني بعيداً عن مخاطبة الشعور ، لا أقول إلى مخاطبة الفكر بل إلى عناء الفكر وكأن المتلقي أمام معضلة ينبغي عليه أن يحلها ، وهذا ما سوف نذكره تحت عنوان { **أثر التقديم والتأخير في الإخلال بفصاحة الكلام** } .

ولكن ما نريد أن نؤكد عليه أن المزية أو العيب لا ترجع للكلمة نفسها ، بل في التركيب التي أوجدت فيه، فاللفظ الواحد قد يقع مقبولاً أو مكروهاً.

يقول الجرجاني: "ومما يشهد لذلك، أنك ترى الكلمة تروقك ، وتؤنسك في موضع ثم تراها بعينها تثقل عليك، وتوحشك في موضع آخر،كلفظ الأخدع في بيت الحماسة التالي :

تلفتُ نحوَ الحي حتى وجدتَني وجعتُ من الإصغاءِ ليتاً وأخدَعا[١]

الليت هو صفحة العنق،والأخدع عرق في العنق.

وبيت البحتري :

إني وإن بلغتَني شرفَ الغنى وأعتقتَ من رق المطامعِ أخدعي[٢]

فإن لها في هذين المكانين ما لا يخفى من الحسن ، ثم إنك تتأملها في بيت أبي تمام :

يا دهرُ قوِم منْ أخدعيك فقدْ أضججتَ هذا الأنامَ من خُرُقك[٣]

فتجد لها من الثقل على النفس ومن التنغيص والتكدير أضعاف ما ودت هناك من الروح والخفة ، ثم يذكر الجرجاني أمثلة أخرى لكلمة شيء ويعقب قائلاً :

"وهذا باب واسع ، فإنك تجد ، متى شئت الرجلين ، قد استعملا كلماً بأعيانــها، ثم ترى هذا قد فرع السماك -نجم-، وترى ذلك، قد لصق بالحضيض ، فلو كانت الكلمة حسُنت من حيث هي لفظ، وإذا استحقت المزية والشرف، استحقت ذلك في ذاتــها وعلى انفرادها، دون أن يكون السبب في ذلك حال لــها مع أخواتــها المجاورة لها في النظم، لما اختلف بــها الحال، ولكانت إما أن تحسن أبداً ، أو لا تحسن أبداً "[٤]

---

(١) الصمة بن عبد الله القشيري،شرح حماسة أبي تمام للتبريزي.

(٢) ديوان البحتري ، ص٩٠ (٣) ديوان أبي تمام الشعري ص١٩٨ (٤) دلائل الإعجاز ص٤٦-٤٨.

وقد يأتي الشاعر بالمعنى المطروح المطروق، ولكن بحسن تركيبه وبراعة تأليفه يضيف عليه جمالاً واستحساناً .

ومن ذلك قول الشاعر:

ولمَّا قضينا من منى كُلَّ حاجــــة ومَسَّح بالأركان َمنْ هو ماسحُ
وشُدَّت على دُهْم المهارىَ رِحالُنَا ولَمْ ينظُرْ الغادي َالذي هو رائحُ
أخذنا بأطراف الأحاديث بينَنــا وسالت بأعناق المطي الأباطحُ[1]

فنحن إذا فتشنَا في المعنَى ، لم نجد شيئاً جديداً ، وإنَّما هو جمال أسلوب وحسن ترتيب وكان حسن اختيار الشاعر لألفاظه أكبر الأثر في إضفاء جو من الجمال النفسي الحسي على القصيدة ، وخاصة كلمة سالت والتي أشعرتني وولدت في إحساسي شعوراً فياضاً لا أشك أن المتلقي لن يخالفني الرأي فيه ، وهو ذلك الجو النفسي الذي جعلنا الشاعر نعيشه معه رغماً عنا ، ألا وهي كلمة سالت والتي كانت رمزاً لعدة أمور في القصيدة : عذوبة الحديث وحلاوته ، فلم يشعروا بالمطي وهي تسير، كذلك عدم الشعور بطول الوقت حيث إن كلمة سال توحي بالسرعة كذلك ما تخلقه هذه الكلمة من أثر نفسي ، يشعر بالاطمئنان ، حيث تأتي كلمة السيولة وهي من صفة الماء في ذلك الجو الصحراوي لتعطي مزيداً من الراحة، كما أن تقديم الشاعر لكلمة بأعناق المطي والتي هي في الحقيقة مفعول به للفعل سال جعلت المتلقي يشعر بالتشوق لمعرفة بأي شيء سالت أعناق المطي .

ويعلق الجرجاني على هذه الأبيات بقوله: "ثم راجع فكرتك ، واشحذ بصيرتك ، وأحسن التأمل ، ودع عنك التجوز في الرأي ، ثم انظر، هل تجد لاستحسانــهم وحمدهم وثنائهم ومدحهم منصرفاً إلا إلى استعارة وقعت موقعها، وأصابت غرضها ، أو حسن ترتيب تكامل معه البيان، حتى وصل معه المعنى إلى القلب مع وصول اللفظ إلى السمع واستقر في الفهم مع وقوع العبارة في الأذن ؟ وإلا إلى سلامة الكلام من الحشو غير المفيد والفضل الذي هو كالزيادة في التحديد وشيء داخَلَ المعاني المقصودة مداخلة الطفيلي الذي

---

(١) لم ينسب البيت لقائل وقد وجدته لكعب بن زهير :كعب بن زهير حياته وشعره ص١٤٣،١٤٤.

يستثقل مكانه ، والأجنبي الذي يكره حضوره ، وسلامته من التقصير الذي يفتقر معه السامع إلى تطلب زيادة بقيت في نفس المتكلم ؟ فلم يدل عليها بلفظها الخاص بـــها .... وذلك أن أول ما يتلقاك من محاسن هذا الشعر أنه قال : ولما قضينا من منى كل حاجة ، فعبر عن قضاء المناسك بأجمعها ، والخروج من فروضها وسننها من طرق أمكنه ، أن يقصر معه اللفظ ، وهو طرقة العموم ثم بقوله ومسح بالأركان من هو ماسح على طواف الوداع الذي هو آخر الأمر . ودليل المسير الذي هو مقصوده من الشعر ثم قال : أخذنا بأطراف الحديث بيننا فوصل بذكر مسح الأركان ، ما وليه من زم – شد – الركاب وركوب الركبان ، ثم دل بلفظة الطراف على الصفة التي يختص بـــها الرفاق في السفن، من التصرف في فنون القول وشجون الحديث -أصنافه وأنواعه – أو ما هو عادة المتطرفين – الذين هم في الأطراف من الإشارة والتلويح والرمز والإيماء وأنبأ بذلك عن طيب النفوس وقوة النشاط وفضل الاغتباط ،كما توحيه ألفة الأصحاب وأنسة الأحباب ، وكما يليق بحال من وفق لقضاء العبادة الشريفة ورجاء حسن الإياب وتنسم أرواح المحبة والأوطان ، واستماع التهاني والتحايا من الخلان والإخوان ، ثم زان ذلك كله باستعارة لطيفة ، طبق فيها مفصل التشبيه وأفاد كثيراً من لطف الفوائد بلطف الوحي -أي الإيحاء بالإشارة- والتنبيه ، فصرح أولاً بما أومأ إليه بالأخذ بأطراف الحديث ، من أنـــهم تنازعوا أحاديثهم على ظهور الرواحل ، وفي حال التوجه إلى المنازل وأخبر بعد بسرعة المسير ، ووطاءة الظهر إذ جعل سلامة سيرها بـــهم كالماء تسيل به الأباطح -جمع بطحاء وهي مسيل فيه دقاق الحصى – وكان في ذلك يؤكد ما قبله ، لأن الظهور إذا كانت وطيئة ، -سهلة الانقياد – وكان سيرها السير السهل السريع، زاد ذلك في نشاط الركبان ، ومع ازدياد النشاط يزداد الحديث طيباً ، ثم قال : بأعناق المطي و لم يقل بالمطي ، لأن السرعة والبطء يظهران غالباً في أعناقهما ويبين أمرها من هواديها -أعناقها – وصدورها وسائر أجزائها تستند إليها في الحركة، وتتبعها في الثقل والخفة، ويعبر عن المرح والنشاط إذا كان في أنفسها بأفاعيل خاصة في العنق والرأس، ويدل عليها بشمائل مخصوصة في المقاديم- مقاديم الشيء

ما استقبلت منه- فقل الآن هل بقيت عليك حسنة تحيل فيها على لفظة من ألفاظها ، حتى إن فضل الحسنة يبقى لتلك اللفظة ولو ذكرت على الانفراد ، وأزيلت عن موقعها من نظم الشاعر ونسجه وتأليفه ورصفه ، وحتى تكون في ذلك كالجوهرة التي هي وإن ازدادت حسناً بمصاحبة أخواتـــها ، واكتسبت رونقاً بمضامة أترابـــها-بانضمام أشباهها -، فإنـــها إذا جليت للعين فردة ، وتركت في الخيط فذة ، لم تعدم الفضيلة الذاتية ، والبهجة التي في ذاتـــها مطوية.[1]

(١) أسرار البلاغة في علم البيان ، ص٣٥-٣٨.

الفصل الثاني

أثر التقديم والتأخير في الإخلال بفصاحة الكلام

إذا كانت البلاغة مبنية على ترتيب الألفاظ وحسن مواقعها ، فكلما كان الأسلوب محكم البناء جيد السبك والرصف ، قد أخذت فيه كل كلمة موقعها، و لم تكن مكرهة عليه مستقبحة فيه ، كلما جاد اللفظ ، وأبان المعنى، والعكس صحيح ، إذا لم يراع حسن الترتيب اللفظي ضاع الترتيب الذهني بسبب ذلك التعقيد اللفظي الذي حاول فيه منشؤه أن يثبت مهارة لغوية على حساب العمل الأدبي ، الشاعر لايقدم ويؤخر خضوعاً لمقتضيات الوزن فحسب ، وإلا كان مجرد ناظم ، لا حياة في شعره ، و لا قيمة لفنه ، ولكنه يعبر عن إدراك معين للأمور ، ويصور ما بنفسه من رغبات ، ولا بأس بعد ذلك أن تلتئم هذه الغاية المعنوية مع أي قيمة شكلية أخرى كسلامة الوزن أو مراعاة الموسيقى الداخلية ، أو غير ذلك ،مما يدلنا على أن التقديم والتأخير في الشعر مثلهما في النثر يتمان بإدراك ووعي : ويهدفان إلى قوة المعنى وصدق التعبير وجمال العبارة ولا يخلو التقديم والتأخير من أحوال أربعة :

- **الأول** : ما يفيد زيادة في المعنى مع تحسين في اللفظ ،وذلك هو الغاية القصوى ، وإليه المرجع في فنون البلاغة ، والكتاب الكريم هو العمدة في هذا ، انظر إلى قوله تعالى :**﴿وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ﴾** (القيامة:٢٢).

تجد أن تقديم الجار في هذا قد أفاد التخصيص ، وأن النظر لا يكون إلا لله مع جودة الصياغة وتناسق السجع .

- **الثاني**: ما يفيد زيادة في المعنى فقط نحو**﴿بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ﴾** (الزمر:٦٦) فتقديم المفعول في هذا لتخصيصه بالعبادة، وأنه ينبغي ألا تكون لغيره ، ولو أخر ما أفاد الكلام ذلك .
- الثالث : ما يتكافأ فيه التقديم والتأخير ، وليس هذا الضرب شيء من الملاحة كقوله :

وكانتْ يدي ملأى به ثُم أصَبحْت   بحمدِ إلهي وهي منهُ سليبُ

فتقديره :ثم أصبحت، وهي منه سليب بحمدَ إلهي.

- **الــرابع:** مـــا يختل به المعنى ، ويضطرب ، وذلك هو التعقيد اللفظي - أو المعاظلة- كتقديم الصفة على الموصوف والصلة على الموصول أو نحو ذلك. (١)

مثال ذلك قول الفرزدق الذي ذكره الجرجاني كمثال للتعسف الممقوت:

وما مثْلُهُ في الناسِ إلا مُملَكاً   أبو أمهِ حيٌّ أبوُه يقارُبه(٢)

فترتيبَ الألفاظ في هذا البيت:

وما مثله في الناس حي يقاربه   إلا مُمَلكاً أبو   أمه أبوه

والمقصود بقوله " أبو أمه أبوه " خاله يقول الجرجاني تعقيباً على هذا البيت : "وفي نظائر ذلك مما وصفوه بفساد النظم ، وعابوه من جهة سوء التأليف ، أن الفساد والخلل كانا من أن تعاطى الشاعر ما تعاطاه من هذا الشأن على غير الصواب ، وصنع في تقديم أو تأخير أو حذف وإضمار ، أو غير ذلك مما ليس له أن يصنعه ، وما لا يسوغ ولا يصح على أصول هذا العلم ، وإذا ثبت أن فساد النظم واختلاله ، ألا يعمل بقوانين هذا الشأن ، ثبت أن صحته أن يعمل عليها" .(٣)

ويقول عن نفس هذا البيت في موضع آخر : فخذ إليك بيت الفرزدق الذي يضرب به المثل في تعسف اللفظ.....فانظر ، أتتصور أن يكون ذلك للفظه ، من حيث إنك أنكرت شيئا من حروفه ، أو صادفت وحشيا غريبا ، أو سوقياً ضعيفاً ؟ أم ليس إلا لأنه لم يرتب الألفاظ في الذكر على موجب ترتيب المعاني في الفكر،فكد وكدر ومنع السامع أن يفهم الغرض إلا أن يقدم، ويؤخر، ثم أسرف في إبطال النظام وإبعاد المرام ، وصار كمن رمى بأجزاء تتألف منهاصورة ، ولكن بعد أن يراجع فيها باباً من الهندسة ، لفرط ما عادى بين أشكالها، وشدة ما خالف بين أوضاعها".(٤)

---

(١) جواهر البلاغة ص ١١٣.   (٢) لم أعثر على البيت في ديوان الفرزدق   (٣) الدلائل ص ٨٣-٨٤ .

(٤) الجرجاني أسرار البلاغة ص ٣٤ ، ٣٥ .

هذا النوع من التكلف الإعرابي الممقوت هو ما أشار إليه أبو هلال العسكري في الصناعتين تحت عنوان الصنف الثاني: ما كان مستقيماً قبيحاً، كقولك قد زيداً رأيت ، قال في الصناعتين : وإنما قبح ، لأنك أفسدت النظام بالتقديم والتأخير وهذا النوع يسميه علماء المعاني التعقيد ، وسماه ابن الأثير في المثل السائر المعاظلة المعنوية – ،أصل هذه الكلمة من قولهم تعاظلت الجرادتان، إذا ركبت إحداهما الأخرى ، وعاظل الرجل المرأة إذا ركبها– ، وهو تقديم ما الأولى به التأخير كتقديم الصفة أو ما يتعلق بها على الموصوف ، وتقديم الصلة على الموصول ونحو ذلك وهو من المذموم المرفوض عند أهل الصنعة ، لأن المعنى يخل ويضطرب ، قال في المثل السائر ، وهو ضد الفصاحة ، لأن الفصاحة هي الظهور والبيان ، وهذا عار عن هذا الوصف فمن ذلك قول بعضهم :

فأُصبَحَتْ بعد خط بَهْجَته   كأنَ قفراً خط رسومَها قلما

يريد فأصبحت بعد بهجتها قفراً ، كأن قلماً خط رسومها ، فقدم خبر كأن ، وهو "خط" عليها ، فجاء مختلاً مضطرباً ، وأضح منه وأكثر اختلالاً قول الفرزدق :

إلى ملك ما أمُّهُ منْ مُحَارب   أبُوهُ ، ولا كانتْ كليبٌ تصاهرهُ [1]

يريد إلَى مَلك أبوه ما أمه مَن محارب ، والمعنى ما أم أبيه من محارب، يمدحه بذلك ذماً لمحارب.[2]

ولا شك أن هذا لا يفهم من كلامه من الوهلة الأولى ، بل يحتاج إلى تريث وتأمل ورفق ، حتى يفهم المراد منه.

ويقول القلقشندي: "الأصل الثاني من صناعة لإنشاء الكلام النظر في الألفاظ، والنظر فيها من وجهين :

الوجه الأول: في فضل الألفاظ وشرفها ، وقد قال أبو هلال العسكري في كتابه الصناعتين: "ليس الشأن في إيراد المعاني، لأن المعاني يعرفها العربي والعجمي والقروي والبدوي، وإنما هو في جودة اللفظ وصفائه وحسن

---

(١) ديوان الفرزدق ص ٢٢٢ .   (٢) كتاب الصناعتين الكتابة والشعر ص ٧٢ .

بـــهائه ونزاهته ونقائه وكثرة طلاوته ومائه مع صحة السبك والتركيب والخلو من أود-عوج- النظم والتأليف "[1].

وعن نفس المعنى يذكر صاحب جواهر البلاغة أن فصاحة الكلام تتحقق بخلوه من ستة عيوب.....

العيب الثاني :ضعف التأليف ، أن يكون الكلام جارياً على خلاف ما اشتهر من قوانين النحو المعتبرة عند جمهور العلماء ، كوصل الضميرين ، وتقديم غير الأعرف منـــهما على الأعرف ، مع أنه يجب الفصل في نحو هذا:

كقول المتنبي :

خَلتْ البلادُ من الغزالة لَيلها فأعاَضهَاكَ اللهُ كي لا َتحْزَنا[2]

وصل المتنبي بين الضميرين في قوله فأعاضهاك ، وهو ضمير الهاء على كاف المخاطبة ، وكالإضمار قبل ذكر مرجعه لفظاً ورتبة وحكماً في غير أبوابه كقول الشاعر :

ولو أن َمجداً أخلدَ الدهر واحداً من الناسِ أبقى مجدُه الدهر مطعما

فإن الضمير في مجده راجع إلى مطعماً، وهو متأخر في اللفظ كما يرى، لأنه مفعول به، فالبيت غير فصيح، ومطعم أحد رؤساء المشركين، وكان يدافع عن النبي ﷺ ومعنى البيت، أنه لو كان مجد الإنسان سبباً لخلوده في هذه الدنيا، لكان مطعم بن عدي أولى الناس بالخلود، لأنه حاز من المجد ما لم يحزه غيره".[3]

ومن أمثلة التقديم والتأخير لغير علة بلاغية، بل جاء لضرورة الشعر -الوزن والقافية- حيث لا يضيف التقديم والتأخير جديداً لا أسلوبا ولا معنى، من ذلك قول الشاعر ابن عبد ربه الأندلسي :

النَشْرُ مسْكٌ والوجوهُ دنا نيرُ و أطرافُ الأُكف عَنَمْ [4]

النشر - ريح طيبة ، العنم بالتحريك شجرة حجازية، لَها ثمرة حمراء، يشبه بـــها البنان المخضوب، فهذا الترتيب إنما يجب حفظه لضرورة الشعر،

---

(١) صبح الأعشى فى صناعة الإنشاء، الجزء الثانى ص ٢٠٩ . (٢) ديوان الفرزدق ص ٢٢٢ .

(٣) جواهر البلاغة فى المعانى والبيان والبديع ص ٢٠ . (٤) ديوان المتنبي ص ٣٣٩ .

فلو أخرنا ما تقدم فيه ، أو قدمنا ما تأخر، لم يتغير المعنى، كما إذا قلنا أطراف الأكف عنم والوجوه دنانير، والنشر مسك.ومنه قول قيس لبنى :

لقد فُضِّلَت لُبنى على الناسِ مثلمَا على ألف شهرٍ فُضِّلت ليلةُ القدر[1]

فلو أخرنا ما تقدم فيه ، وقدمنا ما تأخَر ، لم يتغير المعنى ، كما إذا قلنا: فضلت ليلة القدر على ألف شهر.

وكقول عباس بن الأحنف :

ويحيا به قومٌ أصابوا هواهم وقد صرتُ فيهم لا أموتُ ولا أحيا[2]

فلو قال على التقديم والتأخير "لا أحيَا ولا أموت" ، لم يتغير المعنى أيضاً.

(١) ديوان قيس بن الملوح ص ٤٧.
(٢) ديوان عباس بن الأحنف ص ٢ .

الفصل الثالث

دوافع التقديم والتأخير

ليس من شك أن ترتيب الكلام اللفظي الذي يتم بوعي وإدراك إنما هو نتاج الترتيب الذهني فإذا خرج الكلام من الأديب كان لترتيبه أثر ظاهر في الحكم على العمل الأدبي ، ومن هنا كان عناية الأديب بترتيب اللفظ الأدبي ليصل إلى أقصى حد ممكن من التأثير في نفس المتلقي .

وكما يقول الزملكاني: " **التقدم في اللسان تبع للتقدم في الجنان** "[١] فكل تقديم وتأخير في العمل الأدبي إنما يهدف الأديب من ورائه إلى الوصول إلى غايته التي من أجلها أنشأ عمله ، وقد تتجمع عدة دوافع من أجل إخراج الأسلوب على الترتيب الذي أراده صاحبه وما يعنينا هنا في هذا الفصل هي الدوافع المتعلقة بالمعنى الذي أراد الأديب أن يصل إليه و لم أعثر فيما تتبعته من كتب البلاغة والأدب التي تحدثت عن هذا الموضوع إلا على عشرة دوافع حتى أن الزملكاني قد حصر أسباب التقديم في خمسة أنواع ، حيث إن الألفاظ كما يقول تبع للمعاني والمعاني تتقدم باعتبارات خمسة : العلة ، الذات الشرف، الرتبة، الزمان "[٢] وقد أشار إلى دافع آخر لم أجده عند غيره فيما قرأت هذا الدافع الذي سماه بـــ {**الخفة**} أي تقديم الكلمة وتأخير الأخرى من أجل خفة القراءة وسهولة النطق وكونه أنشط للمتكلم والقارئ، وقد ضرب على ذلك مثالاً بقولهم : { **ربيعة ومضر** } يقول:

"وإنما قدمت ربيعة مع أن مضر أشرف باصطفاء الله تعالى وجعل النبي ﷺ منها لئلا يفضي إلى كثرة الحركات المتوالية ، فأخرت مضر لتقف عليها بالسكون، وقد يكون تقديم الجن على الإنس لـــهذا الغرض، فالإنس أخف

---

(١) البرهان الكاشف عن إعجاز القرآن ، ص ٢٩٠ .

(٢) المصدر السابق نفس الصفحة .

لمكان النون والسين المهموسة وكان تقديم الأثقل أولى لنشاط المتكلم في أول كلامه، ومن ثم لم يوقف إلا على ساكن"[1]وقد وصلت بـــها إلى تسعة عشر دافعاً هي على هذا النحو :

١- تعجيل المسرة:

مثال مبروك أنت ناجح،ومنه قوله تعالى:**﴿عَفَا اللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ﴾** (التوبة : **٤٣**) فلو اختلف الترتيب في الآية فجاءت هكذا لم أذنت لهم عفا الله عنك .لم تحمل نفس المعنى ولا أفهمت هذا المراد من الآية الأولى التي جاءت مصدرة بالعفو لإذهاب أي خوف من قلب رسول الله ﷺ بسبب تصدير الآية بالعتاب ، كما أنـــها حملت معنى آخر وهو بيان عظيم مكانة هذا النبي عند ربه الذي لم يرد أن يبادره بالعتاب بل بادره بخطاب التلطف مع الأحباب . وكقول ابن الدُمَيْنة :

أبيني : أفي يُمْنَى يدَيْك جعلتَني ... فأفرحُ ، أمْ صيرَتني في شمالـــكَ
تَعَالَلَت كي أشْجَى وما بك علةٌ ... تُريدين قتلي ،قدْ ظفَرتَ بَذلك
لئنْ ساءَني أنْ نلْتَني بمَســاءَة ... لقدْ سَرَني أني خطَرتُ ببَالك[2]

الشاعر هنا يريد أن يستنطقها بما يحب ويهوى وكأنه يوحي إليها بالجواب فبدأ بمطلوبه مقدماً إياه فقال: "أفي يمنى يديك جعلتني "طلباً للمسرة ومن الممكن أن نسميه أيضاً التقديم للتفاؤل أي تفاؤلاً بما سوف تجيبه .

ونجد في البيت الثاني أيضاً تقديم الجار والمجرور"وما بك علة"وهذا التقديم لنفي العلة عنه دون من سواه بقدمه للاعتناء والاهتمام ، أما البيت الثالث فقد قدم قوله: "لئن ساءني" على قوله: "فقد سرني" طلباً للاستعطاف وإظهار رقة حاله وضعفه أمام ظلم محبوبه عسى أن يكون شفيعاً في إلانة قلبه له .

وكقول أبي الحسن الجياب :

عدوُك مقهورٌ وحزبك غالبٌ ... وأمُرك منصورٌ وسهمُك صائبُ [3]

---

(١) المصدر السابق ص ٢٩٨ . (٢) الموجز في البلاغة والعروض ، ص ٥٦ ودلائل الإعجاز ص ٩٠ .
(٣) الإحاطة في أخبار غرناطة ص ٥٦٢ .

بدأ بذكر هلاك عدوه لما فيه من عظيم البشارة والمسرة بالانتصار وهلكة العدو معاً وهذا لا يتحقق لو أخر ، فقال: حزبك غالب ، فقد يغلب حزبه ولكن مع بقاء عدوه وعدم قهره ، فلا يكتمل الفرح .

٢- تعجيل المساءة أو التشاؤم:

و منه قوله تعالى: ﴿ **فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ** ﴾ (البقرة : ٤٣).

إن تقديم كلمة " **ويل** " هنا أشاعت جواً نفسياً مملوءاً بالخوف المرتقب والتشاؤم من العذاب المنتظر الذي مهدت له وأوحت به كلمة " **ويل** "والتي كان بسبب تقدمها مصاحبة هذا الشعور التشاؤمي لنفس من هذه حالته من أول الآية وحتى آخرها فلا يزال الكتبة الكذبة مرهوبين من بداية الآية على عكس ما لو أخرت فقيل : فللذين يكتبون الكتاب بأيديهم ويل .

ومنه قول المتنبي :

ومن نكد الدنيا على الحرِّ أنْ يرى عدواً له ما منْ صداقته بُدُّ[١]

في هذا البيت نجد أن التقديم هنا صلح أن يجيء لعلتين الأولى منهما هي التشاؤم الذي أوجدته كلمة "**نكد** " إن البداءة بهذه الكلمة كفيل بأن يخلق جواً تشاؤمياً مصاحباً للقارئ وملقياً بظلاله عليه وكأنه يعكس حالة الشؤم الواقعي عندما يفاجأ الإنسان في بداية أمره بما يتشاءم به، فيظل متشائماً حزيناً بما بدئ به ،إن هذه الصورة الواقعية المشاهدة بالبصر والمصاحبة للنفس والفكر هي بنفسها تلك الصورة الذهنية التي ابتدأ المتنبي بها بيته هذا لتبقى أثراً معنوياً سيئاً في نفس القارئ لا يتفلت من أسره حتى ينتهي من قراءة القصيدة .

ومنه قول أبي تمام:

يومَ الفراقِ لقدْ خُلِقْتَ عظيما وَتركتَ جسمي لا سقِمْتُ سقيما [٢]

(١) العرف الطيب شرح ديوان المتنبي ، الجزء الأول ص ٣٨٣ من قصيدة يمدح فيها على بن محمد بن سيار بن مكرم التميمي .

(٢) ديوان أبي تمام ص ٤٢٤ .

قدّم أبو تمام هنا "يوم الفراق" مع أن أصله التأخير، فالترتيب هو لقد خلقت عظيماً يا يوم الفراق ، ولكن لما كان هذا اليوم بما يحمله من مشاعر الحزن والأسى والحرمان من الأحبة هو السبب لكل معاناة الشاعر النفسية والجسمانية، قدمه في الذكر لما ترك في قلبه من حسرات ولوعات لا زالت تسبح في خيالاته وتستقر في وجدانه وتتقلب عليه سائر أوقاته حتى صار ذلك اليوم علامة شؤم وهم.

وكمثال البيت السابق قول الشاعر حبيب:

يومَ الفراق لقد خلقت طويلا   لم تبق لي جلداً ولا معقولا[1]

ومنه قول ابن زيدون:

أضحى التنائي بدلاً منْ تدانينا   ونابَ عنْ طيب لُقيانا تــجافينا

حالتْ لفقْدكُم أيامُنا فغــدَتْ   سوداً وكانتْ بكم بيضاً لياليْنا [2]

وننظر هنا أيضاً في أبيات ابن زيدون ، وكيف قدم كلمة "التنائي" لأنـــها هي التي آلمته ثم قدّم كلمة "سود" مع أنـــها في زمن الحدوث حاصلة بعد البياض ، مع أن الأصل في الترتيب أن يقول: وكانت بكم بيضاً ليالينا فغدت سوداً ، ولكنه قدَّمها تشاؤماً وأسى.

وكقول ابن سهل الأندلسي:

هو البينُ يا موسى ولو كنتَ ثاويا   فما كان قربُ الدار منكَ مُقرِّبي[3]

ونزعة التشاؤم هنا طالّة وواضحة تكاد تصرخ في أذن المتلقي حاملة كل معاني التشاؤم والخوف وانتظار الجفاء من المحب ولهذا بدأ بذكره فقال: " هو البين".

ومنه قول شوقي :

فَجَعَ المكارِمَ فاجعُ في ربــها   والمجدَ في بانيهِ والعلياءَ [4]

---

(١) بهجة المجالس وأنس المجالس ، مجلد ١ ص ٦٨ .

(٢) الموجز ص ٢٥ – ديوان ابن زيدون، ص ٢٩٨ من قصيدة أرسلها لولادة بنت المستكفي .

(٣) الشوقيات، الجزء الثاني، ص٣ من قصيدة قالها في سليمان باشا أباظة .

(٤) ديوان ابن سهل الأندلسي، ص ١٧ .

لقد أحسن شوقي هنا في اختيار الكلمة المعبرة عن الحزن مبتدئاً بـــها، لتشعرالقارئ بصدمة لفظية ، تحمل معها تيارات من سيئ الأخبار التي نزلت على المستمع كنـــزول المصيبة على صاحبـــها فجأة بدون حساب.

٣- التشويق للمتأخر :

ومنه قوله تعالى: ﴿**أَفَأُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكُمُ النَّارُ وَعَدَهَا اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا**﴾ (الحج : ٧٢) ليس من شك أن تأخير ذكر النار في الآية الكريمة شغل العقل والفكر في مسرح من التوقعات الذهنية لما يُبَشر به من هذا حاله، وليكون ذلك أدعى لاستقرار المعنى وثبوته أيضاً .

ومنه قول المعري:

والذي حارتْ البريةُ فيه   حيوانٌ مُسْتَحَدثٌ من جماد[1]

يقصد بالحيوان الإنسان، والجماد هو النطفة التي خلق منها، وحيرة البرية فيه هو الاختلاف في إعادته للحشر قدم المسند إليه -الذي- يعني الإنسان للتشويق إلى المتأخر.

وكقول المعري :

تعبٌ كلُها الحياةُ فما أعجَبُ   إلا منْ راغب في ازدياد[2]

أراد المعري أن يقول: إن الحياة تعب كلها، فلم يلجأ إلى هذا الأسلوب، وإنما يريد أن يثير انتباهك ، ويصدمك ، فيقدم الخبر- المسند على المسند إليه-المبتدأ-

وكقول الأقيشر:

وإنْ تَجْمَع الآفاتِ فالبخلُ شرُّه   وشرٌّ منَ البُخلِ المواعيدُ والمُطلُ[3]

الشاعر في البيت السابق أراد إن يقول : أن خلف الوعد والمماطلة في أداء الحقوق شر من البخل ، ولكنه أتى بـــهذا الأسلوب الذي يحمل نفس المعنى ، ولكن عن طريق التشويق إلى معرفة ما هو شر من البخل ، حيث قدم

---

(١) ديوان سقط الزند لأبي العلاء المعري ص ٢٠ . (٢) المصدر السابق القصيدة السابقة ص ١٩٧ .
(٣) ديوان الأقيشر الأسدي، ص ٦٣ .

الخير - وشر من البخل- حتى يتشوق السامع إلى هذا الشيء الذي هو شر من البخل مما أعطى الأسلوب جمالاً وللمعنى قيمة .

وكقول المتنبي:

علىَ قدْرِ أهلِ العزمِ تأتي العزائمُ وتأتي على قدر الكرام المكارمُ [1]

أصلَ الترتيب في الأسلوب السابق "تأتي العزائم على قدر أهل العزم" ، وتأتي المكارم على قدر الكرام.

فخالف المتنبي الترتيب الطبيعي، فقدم المجرور والمضاف إليه، ليتشوق السامع إلى معرفة المتعلق الذهني الذي أخره المتنبي، وكذلك الحال في الشطر الثاني من البيت.

وكقول المتنبي :

تُدبرُ شرقَ الأرضِ والغرب كفُّهُ وليس لها يوماً عن المجد شاغلُ [2]

وكذلك في تقديمه للمفعولَ به شرق الأرض مع المعطوف وَتأخيرَ الفاعل عنه ليتشوق المتلقي لمعرفته.

وكقول شوقي مادحاً النبي ﷺ :

بِكُلِّ قولِ كريمِ أنت قائلُه ُتحيي القلوبَ وُتحيي ميِّتَ الهممِ [3]

قدم شوقي الشطر الأول الذي من حقه التأخير على الشطر الثاني الذي من حقه التقديم ليتشوق المتلقي لمعرفة الأثر الناتج من القول الكريم الذي يقوله الرسولﷺ وكقول الشاعر:

خيرُ الصنائعِ في الأنامِ صنيعةٌ تنبو بحاملها عن الإذلال. [4]

الشاعر في البيت السابق لم يخالف الترتيب النَحوي، وإنما خالَف الترتيب الذهني للتشويق والاستثارة، فبدأ بقوله خير الصنائع في الأنام، حتى يثير الشوق عند المتلقي لمعرفة هذه الصنعة، وعلى نفس الحال جرت أساليب الشعراء في الأبيات التالية:

منها قول العباس بن الأحنف :

يدلُّ على ما بالمحب مِنَ الهوى تقلُّبُ عينيه إلى شخصِ مَنْ يهوى [5]

---

(١) العرف الطيب الجزء الثاني ص ٢٠ (٢) العرف الطيب، الجزء الثاني ص ١٩٢ من قصيدة يمدح بها سيف الدولة الحمداني
(٣) الجواهر ص ١١٣ . (٤) تاريخ الأدب عمر فروخ، الجزء الثاني ص ٣٣ . (٥) ديوان الأحنف عباس ص ٢٠ .

هنا أيضاً قدم الشاعر الجار والمجرور على الفاعل ، ليتشوق المتلقي لمعرفة ما هي العلامة التي تدل على المحب، الذي جاء به في البيت التالي وهو قوله : تقلب عينيه .

ومن ذلك قوله أيضاً :

أنحلَ جسمي وبَرَى أعظُمي لذعُ حرارات فراقِ الحبيب[1]

قدم المفعول الذي من شأنه التأخير ، وهو قوله جسمي ، وأخر الفاعل - لذع حرارات الحبيب - لكي يحدث لنا التشويق لمعرفة سبب ما اعتراه .

وكقوله :

وإني لقاسي القلب إنْ كنتُ صابراً وحبي غداً فيمن يسيرُ يسير[2]

وكثيراً ما يستخدم الأدباء أسلوب التقديم والتأخير لأجل هذه الغاية ، وخاصة في مجال القصة والمسرحية ، بل نراهم نقلوا التقديم والتأخير من العبارة إلى الموضوع بصفة عامة ، فالكاتب يقدم ويؤخر في عرض الأحداث والشخصيات اجتذاباً لانتباه القارئ وتشويقاً له لمتابعة الأحداث، وإحكاماً لبناء القصة أو المسرحية .

٤- التلذذ :

نحو ليلى وصلت .

ومنه قول عمرو بن كلثوم:

وكأسٍ قدْ شربتُ ببَعْلَبَكَ وأخرى في دمَشَق وقَاصَرِينا
إذا صُمِدتْ حُمياهاَ أريباً من الفتيان خلتَ به جُنونَا[3]

قدم عمرو بن كلثوم كلمة "كأس" ، مع أنـــها مفعول به في المعنى للفعل المتأخر شرب فيكون الترتيب المنطقي قد شربت كأساً ببعلبك ، ولكنه أراد أن يضفي أو يشعر من حوله بـــهذه اللذة المسيطرة عليه من جراء تلك الكأسِ ، فقدمها في الذكر تلذذاً بذكرها.

---

(١) المصدر السابق ص ٣٥ . (٢) المصدر السابق ص ١٤٢ . (٣) ديوان عمرو بن كلثوم، ص ٦٦ .

٥- التبرك :
اسم الله اهتديت به ، وسوف يأتي الحديث عن ذلك باستفاضة في تفسي

ر سورة الفاتحة عند قوله تعالى : بسم الله الرحمن الرحيم .

٦- النص على عموم السلب أو سلب العموم :

فعموم السلب يكون بتقديم أداة العموم ، ككل وجميع على أداة النفي نحو كل ظالم لا يفلح المعنى لا يفلح أحد من الظلمة ، ونحو كل ذلك لم يكن، أي لم يقع هذا ولا ذاك ويسمى - شمول النفي- و-عموم السلب- يكون النفي فيه لكل فرد، وسلب العموم يكون بتقديم أداة النفي على أداة العموم ، نحو - لم يكن ذلك ، أي لم يقع المجموع فيحتمل ثبوت البعض ، ويحتمل نفي كل فرد لأن النفي يوجه إلى الشمول خاصة دون أصل الفعل ،ويسمى - نفي الشمول - و- سلب العموم - يكون النفي فيه للمجموع غالباً.

كقول المتنبي :

ما كلُّ رأي الفتى يدعو إلى رَشَد

وقد جاء عموم النَفي قليلاً ، كقوله تَعالى: ﴿ **إِنَّ اللَّهَ لاَ يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ**﴾ (لقمان : ١٨).

٧- إفادة التخصيص قطعاًإذا كان المسند إليه مسبوقاً بنفي والمسند فعلاً :

نحو ما أنا قلت هذا ، أي لم أقله ، وهو مقول لغيري ، وإذا لم يسبق المسند إليه نفي كان تقديمه محتملاً لتخصيص الحكم به أو تقويته ، إذا كان المسند فعلاً ، نحو أنت لا تبخل، هو لا يهب الألوف ، إسناد الفعل إلى ضمير المخاطب في المثال الأول وإسناد الجملة إلى ضمير الغائب في المثال الثاني.

ومنه قول الشاعر:

بكَ اقتدتْ الأيامُ في حسناتِها ولولاكَ شيمتُه هم وتكريبُ[1]

ومع إفادة التخصيص في البيتَ السابق نجد فيه فائدة أخرى وهو التعظيم والاحترام بالبداءة بذكر ضمير المخاطب المعبر عنه.

---

(١) الموجز ص ٥٣ .

ومنه قول ابن سهل الأندلسي:

عليك فطمتُ العينَ عن لذة الكر وأخرجتُ قلبي طيبَ النفسِ عنْ يدي[1]

قدم الجار والمجرور لتخصيصها دون من سواها بسبب حرمان عينيه من النوم وهذا التخصيص المستفاد بالتقديم للجار والمجرور، أفاد استعطافاً لحبيبه ووسيلة لحصول غايته بالقرب منه والظفر بقلبه.

أقول: وما يذكره بعض البلاغيين ضمن أسباب التقديم [**التنبيه من أول الأمر على أنه خبر لا نعت**] فهذا القول منـــهم صحيح ومعقول ، لو كان مذكوراً في موضعه ، أقصد في باب من أبواب النحو، أما لغة الشعر والأدب فلا يستقيم معها ذلك ، لأن الشاعر أو الأديب أياً كان نوع قوله إنما يدفع معناه قولَه ولفظَه ، فالمعنى هو الذي يرتب الكلمات في مواضعها التي سيقت من أجل بيانه ، وليس من أجل التنبيه على كونه خبراً أو مفعولاً أو حالاً، ثم إني أقول: سلمنا بأن الشاعر والأديب إنما قدم الكلمة للتنبيه على أنها خبر وليس صفة ، ماذا أفاد ذلك في معرفة سبب التقديم ، وما الفائدة من تقديم الخبر؟ هل هو من أجل التنبيه على كونه خبراً كما مثل الدكتور عبد الفتاح لاشين ببيت حسان ﷺ والذي يمدح فيه النبي ﷺ بقوله:

لـــهُ هممٌ لا مُنتهى لكبارِهـــا وهمتُه الصغرى أجلُّ من الدهرِ
له راحةٌ لو أنَّ معشارَ جودِها على البرِّ كان البرُّ أندى من البحرِ

يقول الدكتور عبد الفتاح: " فلو قال الشاعر : [**همم له**] أو [**راحة له**] لتوهم -ابتداء- أن لفظ " له" في كلا البيتين نعت وأن الخبر سيذكر فيما بعد، وذلك لأن حاجة النكرة إلى النعت أشد من حاجتها إلى الخبر"[2]

وهل التقديم للاهتمام ؟ أم هو للاختصاص وهو ما نراه ، أم لم يفد التقديم شيئاً فالتقديم والتأخير فيه سواء .

وأقول: إن التقديم هنا في قول حسان ﷺ إنما هو للاختصاص، فهو يمدح النبي ﷺ ومن ذا الذي يدانيه في صفاته أو يشاركه فيها ؟ فالشاعر هنا

---

(١) ديوان ابن سهل الأندلسي، ص ١٧ . (٢) المعاني في ضوء أساليب القرآن، ص ١٦٨ .

أراد أن يمدح النبي ﷺ بصفاته التي فاق غيره فيها ، ومنها همه العالية، وجوده وعطاؤه المنقطع النظير ، ولهذا قدمه قوله : **[له]** في كلا البيتين .

وأقول: ليت البلاغيين ذكروا تحت العنوان **[التنبيه من أول الأمر على أنه خبر لا نعت]** قول حسان ﷺ في وصف خيل أصحاب النبي ﷺ

له خيل مُجنَّبةٌ تعَادَى بفرسانٍ عليها كالصقورِ [1]

فتقديم الخبر هنا ما أفاد معنى زائداً .

٨- للإنكار والغرابة :

كقول الشاعر :

أَبَعدَ مشيب مُنقضٍ في الذوائب تحاولُ وصلَ الغانيات الكواعب[2]

الشاعر في هذا البيت لم ينكر أو يستغرب التقرب والتحَبب للجميلات ، وإنما أنكر واستغرب ذلك لمن كان حاله الشيب، ولهذا قدم كلمة المشيب التي أفادت شدة الإنكار والاستغراب منه لمن أراد وصلهن.

وكما قال عمرو بن كلثوم:

معاذَ الإله أن تنوحَ نساؤنا على هالك أو نضجَّ من القتل[3]

والشاهد في هذاَ البيت تقديم كلمة معاذ الله التي أفادت إنكار النواح من النساء والضج من الرجال.

ومنه قول الأقيشر الأسدي:

تعففتُ عنها في العصور التي خلت فكيف التصابي بعدما كلأ العُمْرُ[4]

وفي هذا البيت أفادَ تقديم اسم الاستفهام على الجملة الفعلية الإنكار على المتصابي بعدما تقدم عمره .

ومنه قول العباس بن الأحنف:

ألقولِ واشٍ ظالمٍ أقصيْتَني نفسي فداؤك أمْ لذنبٍ واجدِ [5]

---

(١) ديوان حسان بن ثابت ص ١٣٤ .

(٢) لم أعثر له قائل .

(٣) ديوان عمرو بن كلثوم ص ٥٤ .

(٤) ديوان الأقيشر ص ٣٨ وذكر الشارح أن البيت المنسوب أيضاً إلى ابن حزيم في معجم البلدان ١٤٠/٢، وكذلك في أمالي القالي ٧٧/١ وينسب إلى الأسدي في ملائكة امعرى مع اختلاف في الرواية تخالفت بدلاً من تعففت مضت بدلاً من خلت كمل بدلاً من كلاً .

(٥) عباس الأحنف، ديوانه الشعري، ص ١٠٥

تقدم قول الشاعر هنا : ألقول واشٍ ، مع أن الذي أهم الشاعر هنا الإقصاء ، إلى أنه أبدى غرابته ودهشته أن يكون الإقصاء لسبب تافه غير ذي بال ، لقد استنكر الشاعر هنا بهذا التقديم ضعف الحب وهشاشته حتى أنه يسقط عند كلمة حاسد نمّام ومزوّر .

ومنه قول الشاعر:

أكلَ امرئ تحسبين امرأً   ونارٍ توقّدُ بالليل نارا[1]

ينكر عليها أن تسّوي بين الناس دوّن مراعاة لاختلاف صفاتهم وطبائعهم ، فلا تفرق بين كامل وناقص ، وأن ترى كل نار توقد نار كريم سمح جواد .

ومنه قول أبي العلاء المعري:

أعندي وقد مارستُ كُلَّ خفيَّة يُصَدَّقُ واشٍ أو يخيَّبُ سائلُ [2]

أصل الترتيب في بيت أبي العلاءً "أيصدق واشٌ أو يخيب سائل عندي" ، ولكنّ أبا العلاء هنا ما أراد أن ينكر إمكانية تصديق الواشي أو تخييب السائل، وإنما أنكر أن يكون هو هذا الشخص الذي يصدق الواشي أو يخيب السائل ، فكأنه يقول : نعم غيري يفعل ذلك أما أنا فلا ، ولذا بدأ بقوله: "عندي" لكي يكون مصب الإنكار في شخصه هو .

ومن هذا القبيل تعجب عروة بن الورد من قيس الذي تمنى غربته فبدأ بها لأنها موقف الاستغراب في هذا البيت التالي :

تمنىَّ غربتي قيسٌ   وإني   لأخشى إنْ طحا بك ما تقولُ [3]

حيث قدم المفعول به [**غربتي**] على فاعله [**قيس**] لبيان الاستغراب من **هذه الأمنية** .

٩- الترقي:

ومن ذلك ما ذكره ابن قتيبة في كتابه طبقات الشعراء قال : سمعت

---

(١) أسرار التقديم والتأخير فى لغة القرآن الكريم محمود السيد شيخون، ص ٧٥، الكامل فى اللغة والأدب ج١ ص٢٣٨ وذكر المبرد أن سيبويه أنشده لعدى بن زيد العبادى وصحح المبرد نسبته لأبى دُواد الإيادى .

(٢) ديوان سقط الزند لأبى العلاء المعرى، ص ١٠٦ القصيدة السادسة عشرة بعنوان ألا فى سبيل المجد.

(٣) ديوان عروة بن الورد ص ٩٥ .

بعض أهل الأدب يذكر أن مقصد القصيد إنما ابتدأ فيها بذكر الديار والدمن - آثار الناس- .

والآثار، فبكى وشكى وخاطب الربع ، واستوقف الرفيق ، ليجعل ذلك سبباً لذكر أهلها الظاعنين .... ثم وصل ذلك بالنسيب ، فشكا شدة الوجد وألم الفراق وفرط الصبابة والشوق ، ليميل نحوه القلوب، ويصرف إليه الوجوه ، ويستدعي به إصغاء الأسماع إليه ، لأن التشبيب قريب من النفوس ، لائط -عالق ومحبب- بالقلوب لما قد جعل الله في قلوب العباد من محبة الغزل وإلف النساء ، فليس يكاد أحد يخلو أن يكون متعلقاً منه بسبب ، وضارباً فيه بسهم حلال أو حرام ، فإذا علم أنه استوثق من الإصغاء إليه والاستماع له ، عقب بإيجاب الحقوق ، فرحل في شعره ، وشكا النصب والسهر وسرى- سيره- الليل وحر الهجير وإنضاء -هزال- الراحلة والبعير فإذا علم أنه قد أوجب على صاحبه حق الرجاء وذمامة التأميل ، وقرر عنده ما نازله من المكاره في المسير ، بدأ في المديح ، فحثه على المكافأة ، وهزه للسماح وفضله على الأشباه وصغر في قدره الجزيل.[1]

١٠- مراعاة الترتيب الوجودي :

كقوله تعالى : **﴿ لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ﴾** (البقرة : ٢٥٥).

ومنه قول الأعشى الكبير- ميمون بن قيس-

بانتْ سعاد، وأمسى حبَلها رابا وأحدثَ النأيُ لي شوقاً وأنصابا[2]

نستطيع القول : أن هذا البيت أتى فيه التقدم لعلتين العلة الأولى الاهتمام حيث إن شوقه لحبيبته أهم من النصب والأوجاع ، العلة الثانية هي علة التقديم الوجودي للشوق على الأنصاب ، لأنه سابق عليه متقدم وجوداً فما النصب إلا أثر من آثار هذا الحب.

حبلها رابا ضعيفاً، لا يعتمد عليه ، فقدم الشوق لأنه سبب النصب.

وكقوله أيضاً:

---

(١) الشعر والشعراء ص ٢٧ .

(٢) ديوان الأعشى .

مِنْ دِيارِ الهضبِ هضبِ القَليبِ   فاضَ ماءُ الشؤونِ فيضَ الغُروبِ
أخلَفَتْــني بــه قُتَيْلَةُ مَيعادي   وكانتْ للوعــــدَ غير كذوبِ[1]

الذي أهم الشاعر في البيت السابق هو خلف وعد حبيبته له، ولكننا نراه قدم ذكر المكان على خلف الوعد وما ذاك إلا لأنه مكان تولد الحب ووجوده، فلذلك قال من ديار الهضب هضب القليب، فاض ماء الشؤون أي ماء الحب.

ومنه قول الأُقَيْشَر:

سأشرُبــها ما دمتُ حياً وإن أ مُتْ   ففي النفسِ منها زفرةٌ وشهيقُ[2]

قدم الشاعر الزفرة على الشهيق، فهي أول ما يخرج من صدر المتحسر النادم على شيء فتراه يزفر أولاً حسرة وندماً ثم يأخذ الشهيق بعد ذلك.

ومنه قول كثير عزة :

وراجعتُ نفسي واعترتني صبابةٌ   وفاضتْ دموعي عبرةً خشيَةَ النوى[3]

وفي البــيت الــسابق نجد الترتيب واضحاً جليا ومقصودا على حسب الحالة النفــسية التي تدرجت بالشاعر من وجود التذكر بقوله-وراجعت نفسي- ثم حدوث الصبابة وشدة العشق ففاضت دموعه لذلك.

ومنه قول العباس بن الأحنف:

عاصٍ مسيءٌ مذنبٌ مُتعتِّبٌ   أخفى هواه وأظهر الغضبَ[4]

وكالبيت السابق تدرج العباس في عتاب حبيبه الذي عصى هواه، فأساءه فصار مذنباً، ومن هنا جاء التدرج في الوصف "عاص مسيء مذنب".

١١- الاحتقار:

ومنه قول الأقيشر:

فقالوا لعكرمةَ المخزيات   وماذا يرى الناسُ في عكرمة[5]

قدم اسم عكرمة للإهانة والاحتقار، وقد تكون للاختصاص أيضاً لشهرته بــها، فكأنــها له وحده.

ومنه قول عمرو بن كلثوم:

---

(١) ديوان الأعشى ص ١٩ .   (٢) ديوان الأقيشر ص ٣٦ .   (٣) ديوان كثير عزة، ص ٢٩ .
(٤) العباس ديوانه ص ٣٥.   (٥) الأقيشر ص ٧٤ .

رددَتُ على عمرو بنِ قيس قلادةً ثمانينَ سوداً من ذرى جبل الهضب[1]

أصل الترتيب في البيت السابق ، رددت قلادة على عمرو بن قيس ، بدأ بذكره تحقيراً له وتخصيصاً له برفضها منه وعدم قبولها منه على وجه التعيين احتقاراً له لا لها ولو كان الاحتقار مقصوداً به القلادة لبدأ بذكرها أولاً .

١٢- الافتخار:

ومنه قول عمرو بنِ كلثوم:

برأسٍ منْ جَشمِ بنِ بكرٍ ندقُ به السهولةَ والحُزونا[2]

قدم الشاعر قوله "برأسٍ" ، والمقصود به حيه مع أنه في المعنى فاعل ندق، فأصل الترتيب "ندق برأس من جشم بن بكر السهولة والحزونة" ، فقدم قومه في الذكر افتخاراً بـــهم.

ومنه قول الأقيشر:

حضرموتُ فتشتْ أحسابَنا وإلينا حضرموتُ تنتسبْ

إخوةُ القـــردِ وهمْ أعمامُـــهُ برئتْ منكم إلى اللهِ العربْ[3]

وكذلك تقديم حرف الجار مع الضمير في كلمة إلينا على حضرموت للافتخار بقومه والاعتزاز بـــهم.

١٣- الترحم أو التشكي:

ومنه قول الشاعر:

أفي الحقِ أن يُعَطى ثلاثون شاعراً ويُحْرَمَ ما دونَ الرضا شاعرٌ مثلي[4]

الشاعر يشتكي الظلم ولهذا بدأ بذكر كلمة أفي الحَق لتأكيد قَضية ظلمه لرفعها عنه.

ومنه قول الأقيشر:

إما تراني قدْ هلكتُ فإنما رمضانُ أهلكني ودينُ أُسَيْد[5]

---

(١) ديوان عمرو بن كلثوم، ص ٢٦ . (٢) ديوان عمرو بن كلثوم ص ٥٦ (٣) الأقيشر ص ٢٢

(٤) الموجز ص ١٢٢ ولم ينسب إلى قائل أو مصدر . (٥) الأقيشر ص ٣٢ .

قدم الأقيشر رمضان ، وهو رتبته التأخير فهو فاعل "أهلكني" إذ إنه يشتكي منه بسبب منعه إياه الخمر فلا يستطيع أن يشربـــها وهو صائم .

١٤- مراعاة الترتيب:-الطي والنشر -

وهو ذكر متعدد على التفصيل أو الإجمال ثم ذكر لكل واحد من غير تعيين ثقة بأن السامع يرده إليه لعلمه بذلك بالقرائن اللفظية أو المعنوية[1]

واللف والنشر كما يفهم من التعريف السابق قسمان :

- **الأول** : ذكر المتعدد على التفصيل ، وهو ضربان :

أحدهما : أن يكون النشر على ترتيب اللف ، بأن يكون الأول من المتعدد في اللف والثاني للثاني وهكذا إلى الآخر، وهذا الضرب هو الأكثر في اللف، والنشر، والأشهر، ومن شواهد هذا الضرب بين اثنين قوله تعالى: **﴿وَمِن رَّحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ﴾**(القصص : ٧٣)

فالسكون راجع إلى الليل، والابتغاء من فضل الله راجع إلى النهار، ومن هذا قول الشاعر:

ألستَ أنتَ الذي منْ ورْدِ نعمتِه ووردِ راحتِه أجني وأغترِفُ[2]

ومنه قول عمرو بن كلثوم:

فصالوا صولةً فيمن يليهم وُصلْنا صولةً فيمن يلينا
فآبوا بالنهابِ وبالسبَايا وأُبنا بالملوكِ مُصَفدين[3]

جاء الشاعر هنا بالنشر المرتب على اللف المذكور في البيت حيث قدّم ذكرهم في صولتهم وإيابـــهم ثم ثنى بقومه بعد في كلا الأمرين .

ومنه قول ابن حيُّوس:

من كان رأيُك رمحَه ومجنَّهُ لْم يلقْ ريبَ الدهرِ أعزلَ أكشف[4]

فأعزل راجعة إلى الرمح ، وأكشف راجعة إلى المجنّ .

---

(١) عتيق عبد العزيز الموجز، دار النهضة العربية ، بيروت ص ١٧ . (٢) علم البديع ص ١٧٦، ولم ينسبه إلى مصدر أو قائل .
(٣) ديوان عمرو بن كلثوم ص ٥٦ . (٤) ديوان ابن حيوس ص ٣٨٤ .

ومن شواهد ذكر المتعدد على التفصيل والترتيب بين ثلاثة وثلاثة قول ابن الرومي:

آراؤكم ووجُوهُكم وسيوفُكُم ... في الحادثات إذا دَجَون نجومُ

فيها معالمُ للهدى ومصـــابحُ ... تجلوالدجى والأخرياتُ رجوم (١)

رجوم هنا بمعنى منايا .فالمعالم للآراء والمصابح للوجوه والرجوم للسيوف.

ومثله قول حمدة ويقال حمدونة الأندلسية :

ولما أبي الواشون إلا فراقَنا ... وما لهْم عندي وعندكَ منْ ثارِ

وشنوا على أسماعنا كلَ غارة ... وقلَ حُماتي عند ذاكَ وأنصاري

غزوناهُم منْ ناظرَيكَ وأدمُعي ... وأنفاسنا بالسيف والسيلِ والنار (٢)

السيف في البيت السابق للنظر والسيل للدموع والنار للأنفاس .

ومن شواهد ذكر المتعدد على التفصيل والترتيب بين أربعة وأربعة قول الشاب الظريف شمس الدين بن العفيف:

رأى جسدي والدمعَ والقلبَ والحشا ... فأضنى وأفنى واستمال وتيَما(٣)

في البيت السابق جاء هذا الترتيب بين الأفعال على الترتيب المذكور في الشطر الأول أضنى جسده ،وأفنى دمعه ، واستمال قلبه ، وتيم حشاه.

والضرب الثاني من اللف والنشر المفصل هو ما يجيء على غير ترتيب اللف.

ومن هذا الضرب ما يكون معكوس الترتيب كقول ابن حيوس :

كيف أسلو وأنت حقفٌ وغصنٌ ... وغزالٌ لحظاً وقداً وردفا(٤)

اللحظ للغزال ، والقد للغصن ، والردف للحقف ، والحقف الرمل العظيم المستدير يشبه به الردف في العظم والاستدارة .

---

(١) ديوان ابن الرومي، ص ١٣٩، من قصيدة قالها في آل طاهر .

(٢) نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب تأليف الجزء السادس ص٦٢ .

(٣) ديوان شمس الدين بن العفيف التلمساني، ص ٣١٢ .

(٤) نفح الطيب الجزء السادس ص ٦٢ ولم أعثر على البيت في ديوانه الشعري.

١٥- صحة المقابلات ، وهو يفيد إبراز المعنى وجمال الصورة :

وهذا القسم يتعلق بترتيب الكلام فإذا أتى بأشياء في صدر الكلام أتى بضدها في عجزه على نفس الترتيب في الصدر بحيث تقابل كل كلمة مضادها فيقابل الأول بالأول والثاني بالثاني في المخالف -المقبلات- أو في الموافق - الطي والنشر- ومتى أخل الترتيب كان الكلام فاسد المقابلة وقد تكون المقابلة بغير الأضداد .

قال ابن أبي الأصبع: "ومن أمثلة صحة المقابلات قول النبي ﷺ: ما كان الرفق في شيء إلا زانه ولا الخرق في شيء إلا شانه" قال المحقق : وروايته فيه - أي الجامع الصغير- ولا نزع من شيء إلا شانه "

وأقول: وعلى كلتا الروايتين المقابلة صحيحة، ففي الأولى بين الرفق والخرق وبين زان وشان ، والثانية بين كان ونزع وبين زان وشان ، على أنه توجد رواية أخري بلفظ " ما كان الفحش في شيء قط إلا شانه ولا كان الحياء في شيء قط إلازانه"والمقابلة هنا واضحة بين الفحش والحياء وبين شانه وزانه"[١]

ومن أمثلة الشواهد الشعرية ما ذكره ابن أبي الأصبع من قول قدامة الشاعر :

فوا عجبا كيف اتفقنا فناصحٌ وفيٌّ ومطويٌّ على الغلِ غادرُ

لما قدم الشاعر ذكر النصح والوفاء في صدر البيت قابلهما بذكر الغل والغدر في عجزه على الترتيب لأن الغل ضد النصح والغدر ضد الوفاء .

وفيما ينسب لأبي دلامة :

ما أحسن الدينَ والدنيا إذا اجتمعا وأقبحَ الكفرَ والإفلاسَ بالرجلِ

ومن قول المتنبي :

أزورهم وسوادُ الليل يشفعُ لي وأنثني وبياضُ الصبحِ يغري بي [٢]

قال ابن أبي الأصبع: "جمع بين عشر مقابلات ، قابل أزور بأنثني وسواداً ببياض والليل بالصبح ويشفع بيغري ولفظة لي بي على الترتيب "[٣]

١٦- العناية والاهتمام:

ومنه قول الزِركْلي:

---

(١) صحيح الجامع الصغير، المجلد الثاني ص ٩٨٧ حديث رقم ٥٦٥٤، ٥٦٥٥ .
(٢) العرف الطيب في شرح ديوان أبي الطيب، من قصيدة يمدح فيها كافور، الجزء الثاني ص ٣٠٧ .
(٣) تحرير التحبير في صناعة الشعر والنثر وبيان إعجاز القرآن ص ١٧٨-١٨٤ .

العينُ بعد فراقها الوطنا   لا ساكناً ألفتْ ولا سَكنا [١]

قدم ما هو أولى بالاهتمام ، وهو قوله ساكناً علَى سكن ، وأذكر من ذلك المثل العامي المصري خذ الجار قبل الدار، والرفيق قبل الطريق، ولعل الشاعر كان متأثراً في ذلك بالقرآن حكاية عن قول امرأة فرعون: **﴿رَبِّ ابْنِ لِي عِندَكَ بَيْتاً فِي الْجَنَّةِ﴾** (التحريم : ١١) قدمت الجوار وهي كلمة عندك على السكن وهي كلمة بيتا.

ومنه قول الأقيشر الأسدي:

خلعوا أمير المؤمنين وبايعوا   مَطراً لعَمْرُك بيعةٌ لا تَظهرُ [٢]

قدّم الشاعر ما أهمه هنا وهو خلع أمير المؤمنين، فلهذا قدمه على بيعة مطر.

١٧- السخرية والتهكم:

ومنه قول أبي تمام:

صَدِّقْ مقالَتهُ إنْ قال مجتهداً   لا والرغيف فذاك البرُّ منْ قَسَمه

وإنْ هممتَ به فافْتكْ بخبزته   فإنــها قطعةٌ منْ لحمه ودمه [٣]

لا يكون التصديق إلَا بعد القَول هذا هو الترتيب الطبيعي، ولكن الشاعر هنا بدأ به قبل فقال: صدّق مقالته، وهذا للتهكم من قائله ببيان شدة بخله .

١٨- التقديم للتدرج:

هذا التقديم غالباً ما يكون في المدح ومنه قول البحتري:[٤]

يترقرقن كالسرابِ وقد خُضن   غماراً من السراب الجاري

كالقسي المعطَّفات بل الأسهمِ   مبـــــريـــةً بـــل الأوتارِ

فقد تدرج في تشبيه نحولها، فشبهها بالقسي ثم بالأسهم المبرية ثم بالأوتار وهي أشد الثلاثة نحولاً . .

---

(١) ديوان الزركلي قصيدة بعنوان نجوى ص ٨ . (٢) الأقيشر ص ٣٩ . (٣) ديوان أبي تمام ص ٥٣٦ .

(٤) ديوان البحتري، الجزء الثاني ص ٤٤ من قصيدة يمدح بـها أبا جعفر بن حميد ويستوهبه غلاماً.

١٩- التقديم لبيان الحال :

وهذا التقديم يكون غالباً للاستعطاف والترحم أو الشكوى ، ومن ذلك ما ذكره **عروة بن الورد** من حال امرأته ، حيث أشغله حاجتها التي جعلتها تبيت على المرافق مهمومة، فبدأ بذكر حال نومها على المرافق ليكون أبلغ في التأثير ، قال عروة :

تبيتُ على المرافقِ أمُّ وهب وقد نامَ العيونُ لها كتيتُ [1]

كذا يبدو لنا أنه بدون معرفة الأسلوب العربي من حيث الإعراب والمعنى والبلاغة لن نستطيع أن نفهم القرآن الكريم ، وأنه على قدر التمكن من معرفة الأسلوب العربي يكون فهمنا له ، وكلما استطعنا أن نتعرف على وجوه الإعجاز في القرآن خاصة وسائر علومه عامة.

---

(١) ديوان عروة بن الورد، ص ٤٩ .

الفصل الرابع

أثر التقديم والتأخير في المعاني

تمهيد

هذا الفصل يهدف إلى بيان الفروق في المعاني تبعاً لاختلاف مواضع التركيب في الأساليب من التقديم والتأخير ، ولنبدأ بالتقديم والتأخير بين الاسم والفعل في الاستفهام التقريري - الاستفهام التقريري هو علم المتكلم بما يسأل عنه ، ولكنه يريد من المخاطب أن يوافقه لغرض من الأغراض - والاستفهام التقريري يأتي في الأزمنة الثلاث الماضي والحال والاستقبال .

ويدخل الاستفهام على الاسم والفعل ، ويكون المبدوء به هو المشكوك فيه ، فإذا قلت: **[أفعلت كذا؟]**

فبدأت بالفعل، كان الشك في الفعل نفسه، وكان غرضك من استفهامك أن تعلم وجوده، وإذا قلت: **[أأنت فعلت؟]** فبدأت بالاسم، كان الشك في الفاعل من هو، وكان التردد فيه يبين ذلك قوله تعالى حكاية عن قول نمروذ: **﴿أَأَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ﴾** (الأنبياء:٦٢) ولا شبهة في أنهم لم يقولوا ذلك له عليه السلام ، وهم يريدون أن يقر لهم بأن كسر الأصنام قد كان ، ولكن أن يقر بأنه منه كان ، وكيف وقد أشاروا إلى الفعل في قولهم: **﴿أَأَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا﴾** (الأنبياء:٦٢) وقال عليه السلام في الجواب **﴿بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا﴾** (الأنبياء:٦٣) نفياً لما طلبوه من نسبة الفعل إليه دون غيره، فدل ذلك على أن المطلوب التقرير بالفاعل لا الفعل .

الفرق بين التقرير بالفعل والتقرير بالفاعل : أو (تقديم الاسم على الفعل أو تأخيره).

- إن الفرق بينهما واضح جلي، فأنت إذا قدمت الفعل، فقلت أسرقت فإنك تقرره بحصول السرقة منه من غير تعرض لغيره ، فجائز أن يكون غيره سرق ، وجائز ألا يكون .

وإذا قدمت الاسم، فقلت أأنت سرقت؟فأنت تقرره أنه السارق دون غيره [1]

التقديم والتأخير بين الاسم والفعل في الاستفهام الإنكاري :

والمقصود بالاستفهام الإنكاري هو الخروج من الاستفهام الحقيقي إلى معنى التكذيب أو النفي ، ويجب أن يلي فيه الأمر المراد إنكاره الهمزة سواء أكان فعلاً أم فاعلاً أم مفعولاً ، أم غير ذلك .

مثال ذلك من الفعل الماضي قوله تعالى: **﴿أَفَأَصْفَاكُمْ رَبُّكُم بِالْبَنِينَ وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلائِكَةِ إِنَاثاً إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلاً عَظِيماً﴾** (الإسراء :٤٠) وقوله عز وجل: **﴿أَصْطَفَى الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ﴾** (الصافات: ١٥٣).

فهذا رد على المشركين ، وتكذيب لهم في قولهم ما يؤدي إلى هذا الجهل العظيم ..

ومثال إنكار الفعل المضارع قول امرئ القيس :

أيقتُلُني والمَشرَفي مُضاجعي ومَسنُونةٌ زرقٌ كأنياب أغوال [2]

فهذا تكذيب منه لإنسان تـهدده بالقتل، وإنكار أن يقدر على ذلك، ويستطيعه ومنه قوله تعالى: **﴿قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَآتَانِي رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَارِهُونَ﴾**(هود:٢٨).

ومنه قول الشاعر:

أأتْرُكُ أنْ قَلتْ دراهمُ خالد زيارتَه؟ إني إذاً للئيمُ [3]

ولما كان الغرض في الأمثلة المتقدمة إنكار الفعل ، قدم الفعل على الاسم، فإذا أريد إنكار الاسم أي الفاعل أو المفعول أو غيرهما وجب تقديمه أيضاً، فمثال إنكار الفاعل قولك لمن ينتحل شعرا: **[أأنت قلت هذا الشعر؟]**فأنت لا تنكر الفعل - وهو قول الشعر- ولكنك تنكر أن يكون هو القائل له، وترى أن القائل غيره ومثال إنكار المفعول قولك : **[إياي تخدع؟]**

---

(١) الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص١١١ – ص ١١٤ محمود السيد شيخون، أسرار التقديم والتأخير في لغة القرآن الكريم، ص ٨ – ص ١٧، الإيضاح ص ٨٢ .

(٢) ديوان امرئ القيس، ص ١٢٥.

(٣) الكامل، الجزء الأول ص ٢٥٧ من شعر عمارة بن عقيل، قاله في خالد بن يزيد الشيباني ويذم تميم بن خزيمة بن حازم النهشلي

فأنت لا تنكر أن يحصل من المخاطب خداع ، وإنما تنكر أن تكون أنت المخدوع، لاستبعاد حدوث ذلك ، وفي البيت السابق أراد الشاعر أن ينكر ترك زيارته لصديقه حين عوزه وفقره، ولذا قدم الفعل ليلي همزة الاستفهام.

ويرى الدكتور عبد الفتاح لاشين أن الاستفهام في البيت السابق - بيت عمارة بن عقيل - ليس عن الفعل - وهو الترك - ولا عن الفاعل- وهو المتكلم- ولا يطلب تعيين واحد منـــهما ، لأن المتكلم متصور لكليهما ، وإنما الشاعر يسأل فقط عن النسبة : نسبة ترك الزيارة للمتكلم ، والإجابة تكون { **بنعم أو بلا**} وهذه الهمزة تعرف بـــهمزة التصديق .[1]

عليك في زعمك ومن هذا القبيل قوله تعالى:**﴿أَغَيْرَ اللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيّاً﴾** (الأنعام: ١٤) وقوله تعالى : **﴿أَغَيْرَ اللَّهِ تَدْعُونَ﴾** (الأنعام: ٤٠).

فليس الإنكار موجهاً إلى اتخاذ الولي أو إلى الدعاء ، وإنما هو موجه إلى أن يكون غير الله بمثابة أن يتخذ ولياً ، أو يدعى ،فإن ذلك لا يرضى به عاقل، ولو قدم الفعل في ذلك لتوجه الإنكارإليه ، وكان المعنى نفي حصوله ، ولم يفد في المفعول ذلك المعنى الذي أفاده تقديم المفعول.ومن هذا القبيل أيضاً قوله تعالى : **﴿أَبَشَراً مِّنَّا وَاحِداً نَّتَّبِعُهُ﴾** (القمر:٢٤) أنكروا أن يكون البشر ممن يصح اتباعه ، وأن يكون مبعوثاً من عند الله، فإنـــهم كانوا ينكرون ذلك ، ويرون أن الرسول يجب أن يكون ملكاً بدليل قولهم:**﴿إِنْ أَنتُمْ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُنَا ﴾** (إبراهيم :١٠) وقولهم : **﴿مَا هَذَا إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَائِكَةً﴾** (المؤمنون :٢٤).

صور الاستفهام الدال على الإنكار :

لإنكار الفعل إنكارا تكذيبياً صورتان :

الأولى:أن يقع الفعل عقب الاستفهام كالأمثلة السابقة .

الثانية: أن ينحصر فاعل الفعل، أو مفعوله، أو غيرهما من متعلقاته في واحد أو أكثر، فيؤتى بذلك الفاعل أو المفعول ، أو غيرهما من المتعلقات عقب الهمزة ويعطف عليه غيره ب**[أم]** إن وجد ، فيتوجه الإنكار إلى الاسم المقدم، بحسب الظاهر فيلزم من إنكاره إنكار الفعل لأن الفعل إذا نفي فاعله،

---

(١) المعاني في ضوء أساليب القرآن، ص ١٢٩ .

الذي لا فاعل له غيره ، أو مفعوله الذي لا مفعول له غيره ، أو ظرفه الذي لا ظرف له غيره لزم انتفاؤه حتماً .

الصورة الأولى إنكار الفاعل:

ومن أمثلة ذلك قوله تعالى : ﴿ **قُلْ أَرَأَيْتُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَاماً وَحَلالاً قُلْ آللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ** ﴾(يونس :٥٩)[1].

فالمقصود نفي الإذن من أصله ، فإنه لا آذن في التحليل والتحريم إلا الله، فإذا نفى أن يكون لله آذناً ، فقد انتفى الإذن ، وأتى الكلام في صورة نفي الفعل لا الفاعل ، ليكون أبلغ.

ومنه قوله تعالى: ﴿**أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ أَوْ تَهْدِي**﴾ (الزخرف: ٤٠) ليس إسماع الصم مما يدعيه أحد ، فيكون ذلك للإنكار، وإنما المعنى في هذا التمثيل والتشبيه هو أن ينـزل الذي يظن بـهم أنـهم يسمعون ، أو أنه يستطيع إسماعهم منزلة من يرى أنه يُسمع الصم ويَهدي العمي ،والمعنى في تقديم الاسم وإن لم يُقل : [**أتُسمع الصم**] هو أن يقال للنبي ﷺ أأنت خصوصاً أُوتيت أن تُسمع الصم ، وأن يُجعل في ظنه أنه يستطيع إسماعهم بمثابة من يظن أنه قد أُوتي قدرة على إسماع الصم .

ومن لطيف ذلك قول ابن أبي عيينة:

فدع الوعيدَ فما وعيدُ ك ضائري   أطنينُ أجنحة الذباب يضيرُ[2]

جعله كأنه قد ظن أن طنين أجنحة الذباب بمثابة ما يضير ، حتى ظن أن وعيده يضير.

الصورة الثانية إنكار المفعول.

ومنه قوله تعالى:﴿ **قُلْ آلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الأُنثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الأُنثَيَيْنِ**﴾ (الأنعام :١٤٣)، فالمقصود نفي الفعل، - وهو التحريم لشيء مما ذكر- ولكن لم يقدم الفعل عقب الهمزة ، بل أخرج الكلام في صورة نفي المفعول دون الفعل، ليكون أبلغ في نفي الفعل، فإن نفيه حينئذ يكون بطريق الكناية واللزوم وذكر الدعوى مع دليلها كأنه قيل : لو كان هناك تحريم لكان متعلقاً بواحد من هذه الأمور ، لكن واحداً منها ليس بمحرم ، فليس هناك

---

(١) الدلائل ص ١١٤ – ١٢٠، الإيضاح ص ٨٢ الأسرار ص ١٩ – ص ٢٢ . (٢) دلائل الإعجاز مكتبة الخانجي ص ١٢١ .

إذن تحريم ، وذلك أنـــهم كانوا تارة يحرمون ذكور الأنعام وتارة إناثها، وتارة ما في بطون الإناث ذكوراً كانت أم إناثا أم مختلفة وينسبون ذلك إلى الله ، فرد الله عليهم إفكهم بإنكار محل التحريم .

ومنه قوله تعالى: ﴿**قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا**﴾ (الأنعام : ١٤) وقوله عز وجل: ﴿ **قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ السَّاعَةُ أَغَيْرَ اللَّهِ تَدْعُونَ**﴾ (الأنعام:٤٠) فتقديم المفعول هنا أفاد من الحسن والمزية والفخامة ما لا يكون لو أخر ، فقيل: { **قل أتخذ غير الله ولياً**} و{**أتدعون غير الله**} وذلك لأنه قد حصل بالتقديم معنى قولك: أيكون غير الله بمثابة أن يُتخذ ولياً ؟ أيرضى عاقل من نفسه أن يفعل ذلك ؟ و أن يكون جهلٌ أجهل وعمىً أعمى من ذلك؟ ولا يكون شيء من ذلك ، إذا قيل [**أأتخذ غير الله ولياً**] وذلك لأنه حينئذ يتناول الفعل أن يكون فقط ولا يزيد على ذلك.

وكذلك الحكم في قوله تعالى: ﴿**فَقَالُوا أَبَشَراً مِنَّا وَاحِداً نَتَّبِعُهُ**﴾(القمر:٢٤).

وذلك لأنـــهم بنوا كفرهم على أنه من كان مثلهم بشراً ، لم يكن بمثابة أن يتبع، ويطاع ، ويُنتهى إلى ما يأمر ، ويُصدق أنه مبعوث من الله تعالى، وأنـــهم مأمورون بطاعته كما جاء في الآية الأخرى ﴿ **قَالُوا إِنْ أَنتُمْ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا**﴾ (إبراهيم:١٠) وكقوله عز وجل :﴿**مَا هَذَا إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَائِكَةً**﴾ (المؤمنون:٢٤).

التقديم والتأخير في النفي:

الصورة الأولى: لنفي فعل لم يثبت أنه مفعول :وصورته {**ما فعلتُ**} وتفسير ذلك أنك إذا قلت :[**ما فعلتُ**] كنت نفيت عنك فعلاً ، لم يثبت أنه مفعول، أما إذا قلت{ **ما أنا فعلت** } فهو.

الصورة الثانية : وهي نفي فعل ثبت أنه مفعول : وتفسير ذلك أنك إذا قلت :[**ما قلتُ هذا**] كنت نفيت أنّ تكون قد قلت ذاك وكنت نوظرت في شيء لم يثبت أنه مقول؟

وإذا قلت: [**ما أنا قلتُ هذا**] كنت نفيت أن تكون القائل له وكانت المناظرة في شيء ثبت أنه مقول .ومما هو مثال بين في أن تقديم الاسم يقتضي وجود الفعل قول المتنبي:

وما أنا أسقمتُ جسمي به   ولا أنا أضرمتُ في القلب نارا[1]،[2]

فالسقم ثابت موجود ، وليس القصد بالنفي إليه ، ولكن إلى أَن يكون هو الجالب له ويكون قد جره إلى نفسه.

ومثله أيضاً قول المتنبي:

وما أنا وحدي قلتُ ذا الشعرَ كلَّه   ولكنْ لشعري فيك منْ نفسه شعرُ[3]

فالشعر مقولٌ على القطع ، والنفي لأن يكون هو وحده القائلَ له .[4]

التقديم والتأخير لإفادة عموم النفي أو نفي العموم :

يرى الإمام بدر الدين بن مالك الأندلسي أن تقديم المسند إليه لقصد إفادة العموم يجب بثلاثة شروط:

الأول: اقتران المسند إليه بأداة العموم **[ككل وجميع]** فإن لم يقترن كان التقديم والتأخير سواء فإذا قلت: **[محمد لم يقصر]** فأنت بالخيار بين أن تقدم محمد كما في المثال أو تؤخره بأن تقول: **[لم يقصر محمد]** إذ لا عموم حتى يراعى لأجله وجوب التقديم.

الثاني: أن يكون المسند إليه لو أخر لأعرب فاعلاً وإلا لاستوى التقديم والتأخير كقولك: **[كل إنسان لم يقم أبوه]** فلو أخرت كل إنسان وقلت لم يقم أبو كل إنسان لم يكن كل إنسان فاعلاً وإفادة العموم حاصلة بالتقديم والتأخير فلا معنى لوجوب التقديم.

الثالث: اقتران المسند إليه بحرف النفي، فإن لم يقترن لا يجب التقديم نحو **[كل إنسان قام]** إذ العموم حاصل على التقديم والتأخير .

ومثال ما توفرت فيه الشروط **[كل إنسان لم يقم]** فتقديم المسند إليه واجب،**لأجل إفادة عموم النفي وهو نفي الحكم عن كل فرد من أفراد الإنسان**، فإذا أخرت في مثل هذا المسند إليه، لم يكن الكلام نصاً في إفادة العموم، بل يحتمل أن يكون منفياً عن بعض الأفراد دون البعض، فقولك لم يقم

---

(١) الدلائل ص ١٢٠ – ١٢٢، الإيضاح ص ٨٣، الجزء الثاني ٢٤٢، الأسرار ص ٢٣.

(٢) العرف الطيب في ديوان أبي الطيب، المجلد الثاني ص ١٧٥، بعنوان الناس الظلام وأنت النهار .

(٣) العرف الطيب المجلد الأول ص ٣٧٥ من قصيدة يمدح بها علي بن أحمد بن عامر الأنطاكي .

(٤) الدلائل ص ١٢٤ – ١٢٧، الأسرار ص ٣٣ – ٣٤ .

كل إنسان يحتمل أن يكون معناه نفي القيام عن كل فرد من أفراد الإنسان، ويحتمل أن يكون معناه نفي القيام عن بعض أفراد الإنسان دون بعض .

أما الجرجاني فيرى أن إفادة عموم النفي مبنية على تقديم أداة العموم على حرف النفي لفظاً ورتبة. فإذا ما عكست ، قدمت حرف النفي على أداة العموم انعكس المعنى فأفاد نفي العموم.

قال عبد القاهر: كلمة **[كل]** في النفي إن أدخلت في حيزه بأن قدم عليها لفظاً ،كقول أبي الطيب :

ما كلُّ ما يتمنى المرءُ يدْرِكُه تأتِي الرياحُ بما لا تشتهي السفِنُ [1]

وقول أبي العتاهية:

ما كلُّ رأي الفتى يدعو إلى رَشَد إذا بدا لك أمرٌ مشكلٌ فقف [2]

وقولنا ما جاء القوم كلهم ، وما جاءَ كل القوم ....

أو تقديراً ، بأن قدمت على الفعل المنفي وأعمل فيها - لأن العامل رتبته التقدم على المعمول - كقولك: كل الدراهم لم آخذ **[بنصب كل]** توجه النفي إلى الشمول خاصة دون أصل الفعل ،وأفاد الكلام ثبوته لبعض **[في المسند للفاعل]** أو تعلقه ببعض **[في الواقع على المفعول]** ووجه ذلك عنده أن الكلية نوع من التقييد ،والنفي إذا اتجه إلى كلام مقيد بقيد، فإنه ينصب بخاصة على هذا القيد، أخرجت من حيزه : بأن قدمت عليه لفظاً، ولم تكن معمولة للفعل المنفي توجه النفي إلى أصل الفعل، عما أضيف إليه لفظ كل، وذلك كقول الشاعر :

فكيف وكلٌّ ليس يعدو حمامةَ ولا لامرئ عما قضى اللهُ مزحلُ [3]

فالمعنى على نفي أن يعدو أَحد من الناس حمامةً ،ولو عكست،فَقلت:فكيف وليس يعدو كل حمامه؟ فأخرت لفظ كل لأفسدت المعنى، وصرت كأنك تقول: إن من الناس من يسلم من الحمام، ويبقى خالداً لا يموت .

ومن ذلك قول دعبل:

فواللهِ ما أدري : بأيِّ سهامِها رمتني، وكلٌّ عندنا ليس بالمَكدِي [4]

---

(١) العرف الطيب، الجزء الثاني ص ٣٤٤ . (٢) ديوان أبي العتاهية ص ٣١٣ فقرة شعرية رقم ٣٤٤.

(٣) لم أعثر عليه في ديوان شعري وقد وجدته في تحرير التحبير ص ١٤٧ دون أن ينسبه لقائل أيضاً .

(٤) ديوان دعبل الخزاعي، ص ٦٥، من قصيدة يمدح بها العباس بن جعفر بن محمد بن الأشعث الخزاعي.

أباجيد أم مجرى الوشاحِ وإنَّني لأتـــهم عينيها مع الفاحمِ الجعدِ

المعنى على نَفي أن يكون في سهامها مكد، لا يصيب بوجه من الوجوه .

هذا، ومثل النفي في إفادة المعنيين النهي : فقول القائد لجنده : كل الأسرى لا يقتل – نـــهي عن قتل كل واحد منـــهم، وعفو شامل لجميعهم، وقوله:[**لا يقتل كل الأسرى**] نـــهي عن قتل بعض منـــهم وإبقاء على بعض.

وقد استشهد لهذه القاعدة بقول النبي: ﷺ لما قال له ذو اليدين: أقصرت الصلاة أم نسيت يا رسول الله :"كل ذلك لم يكن".[1] أي لم يكن واحد منـــهما لا القصر ولا النسيان.

وقول أبي النجم :

قد أصبحتْ أمُّ الخيارِ تدَّعي عليَّ ذنباً كلُّه لمْ أصنعِ[2]

برفع كل كما هي الرواية، لأن المعنى أنه لم يصنع من الذنب قليلاً ، ولا كثيراً ولا بعضاً ولا كلاً مما ادعت عليه.

وسر إفادة التقديم أنك إذا بدأت بكل كنت قد بنيت النفي عليه ، وسلطت الكلية على النفي ، وأعملتها فيه وإعمال معنى الكلية في أتنفى ، يقتضي ألا يشذ شيء عن النفي [3]

التقديم والتأخير بين المفعول والفعل:

إذا قدم المفعول ونحوه - كالظرف والحال- وغيرهما على الفعل إنما يكون إذا كان هناك وجود فعل ، واعتقد المخاطب وقوعه على غير من وقع عليه وتريد رده من الخطأ ذلك إلى الصواب ، كان تقديمه للقصر غالباً ومنه قوله تعالى: ﴿ **إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ**﴾ (الفاتحة:٥).

معناه نخصك بالعبادة لا نعبد غيرك ونخصك بالاستعانة لا نستعين غيرك وقوله تعالى: ﴿**إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ**﴾ (النحل:١١٤) ، معناه إن كنتم تخصونه بالعبادة وفي قوله تعالى: ﴿**لَإِلَى اللَّهِ تُحْشَرُونَ** ﴾(آل عمران:١٥٨) ، معناه إليه

---

(١) البخارى كتاب الجمعة، حديث رقم ١١٥٢، مسلم كتاب المساجد رقم ٨٩٦، الترمذى، كتاب الصلاة رقم ٣٦٥ النسائى، كتاب السهو ١٢١٠، ١٢١١، تحرير التحبير ص ١٤٨.

(٢) الإيضاح الجزء الثانى ص ٧٨ .

(٣) شرح التلخيص، ص٢٤٥ – ٢٥٠، الأسرار ص٦٣ ــ ص٧٠ ،الإيضاح الجزء الثانى ص١٦٢ ميلادية الأسرار ص٦٣ – ٧٠ .

لا إلى غيره وقد يكون في غير الغالب لأغراض أخرى، منها العناية بالمقدم والاهتمام بشأنه ، رعاية الفاصلة، ضرورة الشعر ، كون المعمول محلاً للإنكار وسوف نأتي على كل هذه الأغراض بالتفصيل عند تطبيق هذه الأغراض على القرآن الكريم. فإذا قلت: "زيداً ضربتُ" أفاد التركيب أن الضرب حاصل بلا شك ، وأن المخاطب يرى أنك ضربت غير زيد فترد عليه بأنك ضربت زيدا ولم تضرب غيره وتقول لتأكيده ، وتقريره **[زيداً ضربت لا غيره]**.

ولذلك لا يصح القول: "زيداً ضربت وغيره" لأن التقديم يفيد نفي الضرب عن غير زيد والعطف عليه يفيد وقوع الضرب عليه ، وهذا تناقض . وكذلك إذا قلت: "ما زيداً ضربت"أفاد التركيب أن الضرب حاصل بلاشك، وأن المخاطب يزعم أنك ضربت زيداً، فتنفي الضرب عن زيد وتثبته لغيره ، بتقديم المفعول وإيقاعه بعد النفي.

ولذلك لا يصح أن تقول: "ما زيداً ضربت ولا غيره" لأن تقديم الاسم ، وإيقاعه بعد النفي ، يفيد إثبات الضرب واقعاً على غير زيد ، والعطف يفيد عدم وقوعه على غيره فيتناقض ما أفاده التقديم".[1]

تقديم بعض معمولات الفعل على بعض:

يقدم المفعول على الفاعل إذا كان الغرض منه معرفة وقوع الفعل على من وقع عليه لا وقوعه ممن وقع منه وعليه قول الله تعالى:﴿ **وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُم مِّنْ إِمْلَاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ**﴾ (الأنعام :١٥١) ، وقوله تعالى:﴿ **وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ** ﴾(الإسراء :٣١) قدم المخاطبين في الأولى دون الثانية ، لأن الخطاب في الأولى للفقراء ، فقدم الوعد برزقهم على الوعد برزق أولادهم ، والخطاب في الثانية للأغنياء بدليل قوله خشية إملاق فإن الخشية إنما تكون مما لم يقع ، فكان رزق أولادهم هو المطلوب دون رزقهم لأنه حاصل، فكان أهم ، فقدم الوعد برزق أولادهم على الوعد برزقهم.

---

(١) شرح التلخيص ص ٣١٤ – ٣١٥، الإيضاح المجلد الأول الجزء الثاني ص ١٦٢ – ١٦٦ .

وكذلك لا يصح أن تقول: " ما زيدا ضربت ولكن أكرمته" لأن تقديم المفعول ، يفيد أن الفعل مسلم ، لا كلام فيه ، والكلام إنما هو في المفعول ، وقولك: " ولكن أكرمته" يفيد أن الكلام في الفعل ، لا في المفعول فيتدافعان.
والصحيح هو أن نقول: " ما زيداً ضربت ، ولكن سعيداً" .
وكذلك لا يصح أن نقول: "زيدا ضربت و لم أكرمه" لأن تقديم المفعول، يفيد أن الفعل ثابت ، لا كلام فيه ، وأن الكلام في المفعول ، والعطف ، يفيد أن الكلام في الفعل فيتدافعان.

التقديم والتأخير في الخبر المثبت:

يرى جمهور علماء البلاغة أن هناك فرقاً بين تقديم الاسم الذي هو فاعل في المعنى على الفعل ، وتقديم الفعل عليه في الخبر هذا التقديم يأتي عندهم على ثلاث صور :

أ- أن يكون في الخبر نفي، ويتقدم النفي على الاسم المقدم ، مظهراً كان ، أم مضمراً نحو ما أنا فعلت كذا،ما زيد فعل كذا.

ب- ألا يكون في الكلام نفي،بل يكون الخبر مثبتاً ، نحو أنا فعلت كذا ، زيد فعل كذا.

ج- أن يكون الخبر منفياً ،ويتأخر النفي عن الاسم المقدم ، نحو أنا ما فعلت كذا زيد ما فعل كذا.

الصورة الأولى : أن يكون الفاعل المقدم على فعله منفياً نحو ما أنا ظلمت أحداً أفاد التركيب قصر نفي الفعل على الاسم المقدم ، وأن الفعل ثابت متفق على حصوله ، وأنه منفي عن المسند عليه المقدم وأنه مثبت لغيره ، على حسب النفي عموماً ، وخصوصاً .

والسر في ذلك أنك لا تقول: ما أنا قلت ، إلا إذا كان القول ثابتاً متفقاً على حصوله بينك وبين مخاطبك ولكنه يزعم أنك القائل له دون غيرك فتصحح له الأمر بأن تقول ما أنا قلت هذا فتنفيه عن نفسك وتثبته لغيرك.

مثال ذلك قول المتنبي:

وما أنا أسقمتُ جسمي به ولا أنا أضرمتُ في القلب نارا [1]

فالسقم والنار ثابتان في الجسم وأراد المتنبي نفيهما، بل أرادَ أن يكون هو الجالب لهما.

---

(١) سبق تخريجه .

وكقوله أيضاً:

وما أنا وحدي قلتُ ذا الشعرَ كلَّهُ   ولكنْ لشعري فيكَ منْ نفسه شِعرُ[1]

أما في حالة تقدم الفعل ما قلت ما فعلت فأنت تنفي عن نفَسك فعلاً يستوي فيه احتمال الإيجاد والعدم ولا يفيد القصر ، كذلك مثال ذلك ما قلت أنا هنا للتوكيد فقط.

الصورة الثانية: وهي ما تقدم فيها المسند إليه على الفعل ، ولم يكن في الكلام نفي، نحو أنا فعلت كذا وزيد فعل كذا فيكون التقديم للاهتمام بالفاعل المقدم وبيان أن القصد إليه وذلك الاهتمام سببه أمران :

أحدهما جلي : أن يكون الغرض قصر الفعل على المقدم ، ونفيه عن واحد آخر أو عن جميع ما عدا المقدم ،مثال ذلك أن تقول أنا كتبت في موضوع كذا تريد أن ترد على من زعم أن غيرك مشاركك في الأمر.

الثاني :تقوية الحكم والذي هو ثبوت الفعل للفاعل وتوكيده ودفع الشك عنه لا قصره عليه مثال ذلك.

هو يعين المحتاجين ،ففي هذا المثال لم نقصر الفعل على الفاعل أو ننفيه عن غيره وإنما أردنا أن نحقق الحكم وتمكنه في نفس السامع وندفع الشك عنه.

من شواهد ذلك قوله تعالى: **﴿وَاتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً لاَ يَخْلُقُونَ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾** (الفرقان:٣)

وقوله تعالى:**﴿ وَإِذَا جَاءُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَقَد دَّخَلُوا بِالْكُفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا بِهِ﴾** (المائدة:٦١)

وقول المعذل البكري:

هم يُفرشون اللبدَ كلَّ طمِرَة   وأجردَ سباحٍ يَبذُ المُغاليا[2]

ومعنى البيت أنـــهم يفرشونَ الصوف المتلبد على الفرس الكريمة وكذلك على الفرس القصير الشعر الذي يشبه عدوه السباحة ويغلب الفرس المغالي في العدو.

---

(١) سبق تخريجه .

(٢) المعذل البكرى، الشاعر الأموى، ديوان الحماسة للمرزوقى ج٢ ص٣٥٩، دلائل الإعجاز، الجرجانى ص ١٥٩ وفيه (المعاليا) بالياء، الإيضاح فى علوم البلاغة للقزوينى ج٢ ص ٥٩ .

وقول الأخنس بن شُرَيق :

همُ يضربون الكبشَ يبرُقُ بيضهُ   على وجهه من الدماء سبائبُ [(١)]

ومعنى البيت أنـــهم يضربون رئيس القوم التي تبرق خوذَته الحديدية حتى تسيل الدماء على وِجهه طرائق.

وكقول عروة بن أُذينة :

سلمى أزمعتْ بينا   فأين تقولها أين[(٢)]

فتقديم المسند في الأمثلة السابقة لم يقصد به القصر ولا نفي الفعل عن آخر وإنما قصد به تأكيد ثبوت الفعل للفاعل ، ومنع السامع من الشك فبدئ بالمسند إليه للتنبيه له و منع الشك والإنكار.

يقول الجرجاني عن فائدة تقديم المسند إليه في هذه الصورة:

وجملة الأمر أنه ليس إعلامك الشيء بغتة غفلاً ، مثل إعلامك له بعد التنبيه عليه والتقدمة له ، لأن ذلك يجري مجرى تكرير الإعلام في التأكيد والإحكام. ومن هنا قالوا: إن الشيء إذا أضمر ثم فسر كان ذلك أفخم له من أن يذكر من غير تقدمة إضمار.ومن أمثلة ذلك قوله تعالى:**﴿ فَإِنَّهَا لاَ تَعْمَى الأَبْصَارُ﴾**(الحج: ٤٦) وقوله تعالى: **﴿إِنَّهُ لاَ يُفْلِحُ الكَافِرُونَ﴾**(المؤمنون:١١٧)، ومما يؤكد على أن تقديم المسند إليه على الفعل استعمالات البلغاء هذا التقديم في المواضع التي تحتاج إلى التوكيد وقد ذكر منها الجرجاني هذه المواضع.

الأول: فيما سبق فيه إنكار نحو أن يقول الرجل: ليس لي علم بالذي تقول،فتقول له أنت تعلم أن الأمر على ما أقول،ومنه قوله تعالى: **﴿وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾** (آل عمران: ٧٥).

فهم يعلمون أنـــهم كاذبون وأنـــهم ينكرون الكذب ومعلوم أن الإنكار يقتضي توكيد الحكم .

---

(١)الأخنس بن شهاب التغلبي، شرح اختيارات المفضل للخطيب التبريزي ج٢ ص ٩٣٥، ديوان الحماسة للمرزوقي ج٢ ص ٧٢٧، وأورد المرزوقي البيت بصيغة (فهم يضربون) وبذلك استقامت تفعيلة الشطر الأول، دلائل الإعجاز ص ١٣٠، الإيضاح ج٢ ص٥٨.

(٢) الأغاني لأبي الفرج الأصـــهاني ج٢ ٢٣٠ – ٢٣٢، دلائل الإعجاز ص ١٣٠.

الثاني: فيما اعترض فيه شك نحو أن يقول الرجل كأنك لا تعلم ما صنع فلان، فتقول له إن أعلم ولكني أداريه.

الثالث : في تكذيب مدع كقوله تعالى: ﴿**وَإِذَا جَاءُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَقَد دَّخَلُوا بِالْكُفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا بِهِ**﴾ (المائدة:٦١) فإن قولهم آمنا دعوى منهم أنهم لم يخرجوا بالكفر فالموضع موضع تكذيب .

الرابع : إنه يؤتى به فيما لقياس في مثله ألا يكون عقلاً ومنطقاً ومنه قوله تعالى:﴿**وَاتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً لا يَخْلُقُونَ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ**﴾(الفرقان:٣).
فإنهم وإن كانوا لا ينكرون أنها غير مخلوقة ، فإن عبادتها تقتضي أنها غير مخلوقة، لأن العقل يقتضي أن يكون المعبود خالقاً ، لا مخلوقاً.

الخامس: في كل خبر كان على خلاف العادة وعما يستغرب من الأمور مثل قوله ذئب يتكلم وكما تقول فلان يدعي العظيم وهو يعيا باليسير ويزعم أنه شجاع وهو يفزع من أدنى شيء.

فكل ذلك أمر مستغرب جاء على خلاف العادة ، فهو في حاجة إلى التأكيد لعدم الاستعداد لقبوله.

السادس: في الوعد والضمان كقول الرجل : أنا أعطيك ، أنا أكفيك ، أنا أقوم بهذا الأمر، وذلك أن الضمانات يدخلها الشكوك فاحتاجت إلى التوكيد لعدم الشك في الوفاء بالوعد.

السابع: المدح والفخر نحو هو يعطي الجزيل.

ومنه قول طرفة بن العبد:

نحن في المشتاة ندعو الجَفَلى لا ترى الآدبَ فينا ينْتقر [1]

ومعنى البيت أنهم في زمن الشتاء يدعون الدعوة العامة فلا يدعو الداعي إلى الطعام دعوة خاصة يختار فيها المدعيين .

ومنه قول زهير بن أبي سلمى :

وَلأَنْت تَفْري ما خلقتَ وبعـ ضُ القوم يخلقُ ثُمَّ لا يَفْري [2]

ومعنى البيت أنه ينفذ ما قدر وهيأ ، ولا ينكص على عقبه ، وذلك أن من شأن المادح أن يمنع السامعين من الشك فيما يمدح بهوبياعدهم من الشبهة، وكذلك المفتخر.

---

(١) ديوان طرفة بن العبد، ص ١٥٧. (٢) ديوان زهير بن أبي سلمى، ص١١٩ من قصيدة يمدح بها هرم بن سنان .

الصورة الثالثة : أن يكون الخبر منفياً ، ولكن يقدم الاسم على الفعل ، والنفي جميعا كقولك أنت لا تفعل كذا ، وهذه الصورة كسابقتها تحتمل وجهين :

١- أن يكون الغرض من التقديم قصر نفي الفعل على المقدم وإثباته لغيره.

٢- أن يكون الغرض تقوية الحكم ، وتوكيده فإن قولك أنت لا تحسن كذا أشد لنفي الإحسان من قولك : لا تحسن كذا فتقديم الاسم إنما هو لتأكيد النفي لمن هذه حاله ومن شواهد هذه الصورة قوله تعالى:﴿**وَالَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لاَ يُشْرِكُونَ**﴾ (المؤمنون:٥٩) ، وقوله تعالى: ﴿**لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَى أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ**﴾ (يس : ٧) ، وقوله تعالى: ﴿ **فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ الأَنبَاءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لاَ يَتَسَاءلُونَ**﴾ (القصص:٦٦) ، وقوله تعالى:﴿ **إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللّهِ الَّذِينَ كَفَرُواْ فَهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ**﴾(الأنفال:٥٥) فإن تقديم الاسم في كل ذلك يفيد من التوكيد ما لا يفيد تقديم الفعل.[١]

وعن الصورتين السابقتين يقول الزملكاني تحت عنوان : في تقديم الاسم على الفعل وتأخيره " إن تقديم الاسم على الفعل يتردد بين احتمالين :

أحدهما:أن يكون غرضك أن المذكور هو الفاعل لـــهذا الفعل دون كل أحد... وهذا الغرض يؤذن بإظهار أنه مستبد بذلك ، وأن يزول عن السامع شبهة أن يكون قد صدر ذلك من غيرك.

الاحتمال الثاني: أن لا يكون غرضك الاستبداد بل إن تحقق عند السامع أنه فعل ذلك ظناً منك أو أنه شك في ذلك .. ومن القسم الثاني قوله:

هما يلْبسان المجدّ أحسنَ لُبْسة شحيحان ما اسطاعا عليه كلاهما

لا شك أنه لم يرد أن يقصرُ هذه الصفة عليهما ، بل إن يعرف أن ذلك من شأنــهما وعادتــهما ".[٢]

تقديم النكرة والمعرفة على الفعل والعكس:

الفرق في التقديم والتأخير حالة الاستفهام أن المقدم منــهما هو المشكوك فيه، فإذا قدمت الفعل فقلت أجاءك رجل ؟ أو أجاءك زيد؟ دل التقديم على أنه شاك في ثبوت الفعل للفاعل أو انتفائه عنه ، وغرضك معرفة الواقع منــهما .

---

(١) الدلائل ص١٢٨ – ١٣٥، الإيضاح ٥٨، الأسرار ٣-٣-٤٦ .

(٢) الدلائل ص١٤٢ – ١٤٣، الإيضاح ،المجلد الأول ، الجزء الثاني ص ٦٤ – ٦٦ .

وإذا قدمت الاسم فقلت أرجل جاءك ؟ أو أزيد جاءك ؟ لم يكُن الشك في الفعل بل في الفاعل من أجل معرفته وتعيينه ، فلا فرق بين النكرة والمعرفة في ذلك .

لكن هناك فرقاً بينـــهما من جهة أخرى ، وهو أنك إذا قدمت المعرفة ، فقلت أزيد جاءك ؟ كان الغرض تعيين الفاعل بعينه ، وأما إذا قدمت النكرة ، فلا يمكن أن يكون الغرض طلب الفاعل بعينه ، لأن النكرة لا تدل على معين، وإنما الغرض تعيين جنسه أو عدده .

الفرق بينـــهما في الخبر إذا تقدم الفعل فقلت جاءني رجل ، أو جاءني زيد دل ذلك على ثبوت الفعل للفاعل المذكور،ولم يشعر بنفيه عن غيره.

وإذا تقدم الاسم فقلت :رجل جاءني أو زيد جاءني دل ذلك على أنك تريد قصر الفعل عليه ، وأنه ثابت له منفي عن غيره ، فلا فرق بين النكرة والمعرفة في ذلك .

ولكن هناك فرق من ناحية أخرى ، وهو أن المقصور عليه في تقديم المعرفة ، هو المقدم بخصوصه وعينه ، أما في تقديم النكرة فالمقصور عليه الجنس أو العدد ، ومن الأمثلة المشهورة عند العرب قولهم : " شرٌ أهرَّ ذا ناب " وهو مثل يضرب عند ظهور الشر ومخايله وأهر -حمله على الهرير ، وهو أن يكشر السبع عن أنيابه ويصوت إذا رأى ما يفزعه ، يقول الجرجاني: "إنما قدم فيه الشر لأن المراد أن يعلم أن الذي أهر ذا الناب هو من جنس الشر لا جنس الخير،فجرى مجرى أن تقول رجل جاءني تريد أن تقول أنه رجل لا امرأة "[1]

تقديم مثل وغير على الفعل:

إذا وقعت مثل في الكلام ونسب إليها فعل من الأفعال كان ذلك على وجهين:

١- أن يقصد بالكلام المعنى الظاهر من العبارة ، وهو الحكم على مماثل لما أضيفت إليه ومنه قول امرئ القيس:

فمثلُكِ حُبْلى قدْ طرقتُ ومُرضعٍ فألهيتُها عنْ ذي تمائمَ محْوَلِ [2]

فإنه يريد امرأةً أخرى مماثلة للمخاطبة.

ومنه قول المتنبي:

مثلُكَ يَثني المُزن عن صوبهِ ويستردُّ الدمعَ عن غَرْبِهِ [3]

---

(١) البرهان الكاشف عن إعجاز القرآن، ص ٢١٣،٢١٤.

(٢) ديوان امرئ القيس الشعرى ص١١٣.

(٣) العرف الطيب ، الجزء الثاني ص ٤٨٠ من قصيدة قالها في رثاء عمة عضد الدولة ببغداد .

المزن: السحاب . الغرب عرق في العين يجري منه الدمع ، يصفه أولاً بالكرم وثانيا بالشجاعة .

٢- ألا يقصد بالكلام المعنى الظاهر وإنما يكون الحكم على ما أضيفت إليه عن طريق الكناية كقولك لإنسان مادحا إياه لأمانته : مثلك يؤدي الأمانة، أو لجرأته مثلك لا يفر.

ومنه قول المتنبي :

ولم أقلْ مثلُك، أعني به سواك ، يا فرداً بلا مُشْبه [١]

وهذا الأسلوب الكنائي أبلغ وأفخم من الأسلوب الصريح ، ووجه الدلالة فيه أن ما ثبت لأحد المثلين بفعل أو بترك يجب أن يثبت مثله للآخر.

وحكم "غير" كحكم "مثل" على وجهين.

١- أن يقصد المعنى الحقيقي الظاهر: وهو الحكم على مغاير لما أضيفت إليه لـ[غير] .

كقول ابن شرف القيرواني:

غيري جنى وأنا المعاقَبُ فيكُمُ فكأنّني سبَّابةُ المتندِّم [٢]

فإنه يريد أن شخصا غيري هو الذي جنى ، وأما أنا فقد عوقبت بدون جناية.

وكذلك قول النابغة:

لكلفتني ذنبَ امرئ وتركته كذي العري يُكوى غيرُه وهو راتعُ [٣]

فهو يريد أن الأجرب راتعٌ في مرعاه وهو المقصود بالعلاج بينما السليم هو الذي يكوى بالنار.

٢- ألا يقصد هذا المعنى الظاهر :بل يكون الحكم على ما أضيفت إليه هو المقصود من الكلام بطريق الكناية كقول المتنبي:

غيري بأكثر هذا الناسِ ينْخدِعُ إنْ قاتلوا جبُنوا، أو حدثوا شَجَعوا [٤]

فلم يرد أنَ هناك شخصا آخر هو الذي يفعل ذلك ، وإنما أراد أن ينفي عن نفسه ذلك الأمر بطريق الكناية.

ومن ذلك قول أبي تمام:

وغيري يأكلُ المعروفَ سُحتاً وتَشحبُ عندهُ بِيضُ الأيادي [٥]

---

(١) القصيدة السابقة ص٤ (٢) ديوان ابن شرف القيرواني ، ص ٧٨

(٣) ديوان النابغة الذبياني ، ص ١١٣.

(٤) العرف الطيب، الجزء الثاني ص ٨٩ من قصيدة يمدح بها سيف الدولة.

(٥) ديوان أبي تمام ص٨١ من قصيدة يمدح بها أبا عبد الله أحمد بن أبي دؤاد.

لم يرد أبو تمام أن يعرض بغيره ، بل أراد أن ينفي عن نفسه أن يكون ممن يكفر النعمة ويلؤم.

حكم تقديم [مثل وغير]

يقول الجرجاني: "واستعمال [**مثل و غير**] على هذا السبيل شيء مركوز في الطباع وهو جار في عادة كل قوم ، وأن هذين الاسمين يقدمان أبدا على الفعل إذا نحي بـــهما هذا النحو، وأن المعنى لا يستقيم فيهما إذا لم يقدما أفلا ترى أنك لو قلت : **[يثني المزن عن صوبه مثلك]** [**رعى الحق والحرمة مثلك**] **[يحمل على الأدهم والأشهب مثل الأمير]**....رأيت كلاماً مقلوباً عن جهته ومغيَرا عن صورته،ورأيت اللفظ قد نبا عن معناه، ورأيت الطبع يأبى أن يرضاه".[1]

إنما وتقديم المفعول وتأخيره .

إذا دخلت إنما على الجملة الفعلية أفادت الاختصاص للمؤخر من الفاعل أو المفعول ، ومن ذلك قوله تعالى: **﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾** (فاطر:٢٨)

فتقديم اسم الله تعالى كما يقول الجرجاني: "إنما كان لأجل أن يُبَيَن الخاشون من هم ويُخبَر بأنـــهم العلماء خاصة دون غيرهم ولو أُخر ذكر اسم الله فقدم العلماء فقيل إنما يخشى العلماء الله لصار المعنى على ضد ما هو عليه الآن ، ولصار الغرض بيان المخشي من هو،والإخبار بأنه الله تعالى دون غيره، ولم يجب حينئذ أن تكون الخشَية من الله تعالى مقصورة على العلماء وأن يكونوا مخصوصين بـــها كما هو الغرض في الآية ، بل كان يكون المعنى أن غير العلماء يخشون الله تعالى أيضاً ، إلا أنـــهم مع خشيتـــهم الله تعالى يخشون معه غيره ، والعلماء لا يخشون غير الله تعالى .

وهذا المعنى وإن كان قد جاء في التنـــزيل في غير هذه الآية كقوله تعالى:**﴿ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَداً إِلَّا اللَّهَ ﴾**(الأحزاب:٣٩) فليس هو الغرض في الآية ، ولا اللفظ بمحتمل له البتة ، ومن أجاز حملها عليه، كان قد أبطل فائدة التقديم، وسوى بين قوله تعالى **{ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ }** وبين أن يقال إنما يخشى العلماء من الله".[2]

ومن ذلك قول الفرزدق:

---

(١) الدلائل ص١٣٨-١٤٠، الإيضاح ، المجلد الأول ، الجزء الأول ص٧٠-

(٢) الدلائل ص٣٣٨-٣٣٩

أنا الضامنُ الراعي عليهم وإنّما يدافعُ عنْ أحسابـــهم أنا أو مِثلي[1]

إذ غرضه أن يخص المدافع لا المدافع عنه.

وحكم [ما] و [إلا] كحكم إنما في إفادة الاختصاص للمتأخر من الفاعل أو المفعول .

حكم الفاعل والمفعول إذا تأخرا جميعاً بعد إلا:

إذا تأخر الفاعل والمفعول كلاهما بعد إلا فإن الاختصاص يقع حينئذ في الذي يلي [إلا] منـــهما ، فإذا قلت: [**ما ضرب إلا عمرو زيداً**] كان الاختصاص في الفاعل ، وكان المعنى أنك قلت: " إن الضارب عمرو لا غيره وإن قلت: [**ما ضرب إلا زيداً عمرو**] كان الاختصاص في المفعول وكان المعنى أنك قلت: إن المضروب زيد لا من سواه"

وحكم المفعولين في التأخير كحكم الفاعل والمفعول.

نقول:" لم يكس إلا زيداً قميصا" فيكون المعنى اختصاص زيد من بين الناس بإعطائه القميص وإن قلنا: " لم يكس إلا قميصاً زيداً " كان المعنى : أنه خص القميص من أصناف الكسوة .

وكذلك الحكم حيث يكون بدل أحد المفعولين جار ومجرور ، كقول السيد الحميري:

لو خُير المنبرُ فرسانَه ما اختارَ إلا منكمُ فارساً [2]

الاختصاص في منكم دون فارساً ولو قلت: "ما اختار إلا فارساً منكم" صار الاختصاص في فارسا.

حكم المبتدأ والخبر الواقع بعد إنما :

حكم المبتدأ والخبر الواقع بعد إنما كحكم الفاعل والمفعول ، حيث يقع الاختصاص على المتأخر منـــهما ، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿**فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ**﴾ (الرعد:٤٠)

وقولَه تعالى:﴿**إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ**﴾(التوبة:٩٣) فالاختصاص في الآية الأولى في المبتدأ الذي هو البلاغ والحساب وليس في الخبر الذي هو{**عليك**} .

و{ **علينا** } ، وأنه في الآية الثانية في الخبر الذي هو { **على الذين** } وليس في المبتدأ الذي هو {**السبيل**}[3].

---

(١) ديوان الفرزدق، ص٤٨٨.

(٢) الدلائل ص٣٤٤.

(٣) الدلائل ص٣٤٤-٣٤٥.

الفصل الخامس
ضوابط التقديم و التاخير في قواعد اللغة العربية

معلوم عند أرباب النحو أن ليس النظم سوى تعليق الكلم بعضها ببعض وجعل بعضها بسبب من بعض

والكلم ثلاث :اسم وفعل وحرف ، وللتعليق فيما بينها طرق معلومة، وهو لا يعدو ثلاثة أقسام ، تعلق اسم باسم وتعلق اسم بفعل وتعلق حرف بـــهما ، فالاسم يتعلق بالاسم بأن يكون خبراً عنه أو حالاً منه أو تابعاً له صفة أو تأكيداً أو عطف بيان أو بدلاً أو عطفاً بحرف ، أو يكون الأول مضافاً إلى الثاني ، أو يكون الأول يعمل في الثاني عمل الفعل، وذلك في اسم الفاعل أو اسم المفعول والصفة المشبهة والمصدر أو تمييزا.

وأما تعلق الاسم بالفعل فبأن يكون فاعلاً له أو مفعولاً-مفعولاً به ، مفعولاً مطلقاً ،ظرفاً مفعولاً فيه زماناً أو مكاناً، أو مفعولاً له، أو مفعولاً معه، أو منـــزلاً من الفعل منـــزلة المفعول مثل خبر كان وأخواتـــها، وأما تعلق الحرف بـــهما فعلى ثلاثة أضرب.

أحدها: أن يتوسط بين الفعل والاسم: الثاني :العطف. الثالث:النفي الاستفهام والشرط والجزاء.

يقول الجرجاني في منظومته الهائية عن التقديم والتأخير:

إني أقول مقالاً لستُ أُخْفيه	**ولستُ أَرهَبُ خَصْماً إنْ بدا فيه**
ما منْ سبيلٍ إلى إثبات معجزةَ	**في النظمِ إلا بما أصبحتُ أُبـــديه**
فما لنظمِ كَلامٍ أنت ناظمُهُ	**معنىً سوى حُكمِ إعرابٍ تُزجِّيه**
اسمٌ يُرَى و هو أصل للكلامِ	**فما يَتم من دون قصد لُمنْشـــيه**
و آخـــرُ هو يعطيك الزيادةَ	**في ما أنت تُثبتـــه أو أنت تَنفيه**
تفسيُر ذلك أن الأصلَ مبتدأٌ	**تَلقى له خبراً من بعـــد تُثنيه**

و فاعلٌ مسندٌ فعلٌ تَقــدَّمه إلــيه يكسبه وصفاً و يعطيه
هذان أصلان لاتأتيك فائدةٌ منْ منطقٍ لَم يكونا من مبانيه .[1]

ولسنا مع الجرجاني في قوله :

فما لنظم كلام أنت ناظمه معنىٍ سوى حــكم إعراب تزجيه

فقد جعل المعنى تابع للإعراب وفرعاً عنه ، مع أن المعنى هو الأساس الذي يبنى عليه الحكم الإعرابي ، فربما توجه الإعراب إلى وجه ظاهر لم يلتفت إليه بسبب أن المعنى يأباه وبما استودع من أسرار البلاغة ووجوه الفصاحة ما جعله يعمد إلى إعراب سواه .

ويعجبني هنا أن أذكر ما قاله الأستاذ محمد رشيد رضا وهو يتحدث عن قاعدة عامة من قواعد البلاغة من خلال تفسيره للآية التاسعة والستين من سورة المائدة ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئُونَ وَالنَّصَارَى**﴾ (المائدة:٦٩) يقول: "وقد تجرأ بعض أعداء الإسلام على دعوى وجود الغلط النحوي في القرآن وعدَّ رفع الصابئين هنا من هذا الغلط وهذا جمع بين السخف والجهل وإنما جاءت هذه الجرأة من الظاهر المتبادر من قواعد النحو مع جهل أو تجاهل أن النحو استنبط من اللغة و لم تستنبط اللغة منه، وأن قواعده إذا قصرت عن الإحاطة ببعض ما ثبت عن العرب فإنما ذلك لقصور فيها ، وأن كل ما ثبت نقله عن العرب فهو عربي صحيح ، ولا ينسب إلى العرب الغلط في الألفاظ، ولكن قد يغلطون في المعاني[2] .

الضمير :

يجب أن يكون الضمير منفصلاً في عدة مواضع ومنها:

- إذا تقدم على عامله كما في قوله تعالى : ﴿**إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ**﴾ (الفاتحة : ٥).

كانت الجملة نعبدك والكاف مفعول به فلما قدمت الكاف على العامل وهو الفعل صارت إياك ضميراً منفصلاً .

---

(١) عبد القاهر الجرجاني، ص٤ - ص١٠.
(٢) تفسير المنار محمد رشيد رضا مج٦ ص ٤٧٨.

مفسر الضمير:

مفسره مذكور وهو نوعان:

متقدم وله ثلاث صور:

ا- متقدم في اللفظ والتقدير مثل ﴿**وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ**﴾ (يس :٣٩)، فالهاء في قدرناه ضمير غائب وَمفسرةٌ القمر وهو متقدمِ في اللفظ والتقدير ، وفيه فائدة التشويق للمتأخر .

ب- متقدمفي اللفظ دون التقديرمثل﴿**وَإِذِابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ**﴾(البقرة:١٢٤).

فالهاء في ربه مفسرها إبراهيم وهو من الناحية اللفظية متقدم لكن من ناحية التقدير متأخر لأنه مفعول والمفعول رتبته بعد الفاعل والفاعلِ هو ربه .

ج- متقدم في التقدير دون اللفظ مثل ﴿**فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُّوسَى**﴾ (طه: ٦٧) ،فالهاء في نفسه مفسرها موسى وموسى فاعلَ متأَخر لفظه ولكن من حيث التقدير مقدم على الضمير.

- **متأخر في اللفظ والرتبة أو التقدير وهو محصور فيما يأتي :**

ا- مفسر ضمير الشأن ﴿ **قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ**﴾ (الإخلاص :١) فالله مفسر للضمير هو .

ب- المفسر خبر للضمير﴿**إِنْ هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا**﴾ (الأنعام :٢٩)[1]فحياتنا مفسر للضمير هي وفي الوقت نفسه خبر للضمير.

ج- المفسر تمييز للضمير { **نعم طالباً عليٌّ**} ففاعل نعم ضمير مستتر ، تقديره هو يفسره طالباً وهو تمييز .

د- الضمير المجرور بـــ{**ربَ**} يفسره التمييز مثل {**ربَه طالباً دعوتُه إلى المجد فأجاب**}.

هـــ- الضمير الذي يكون ما بعده بدلاً منه فما بعده مفسر له مثل : اللهم صل عليه الرءوف الرحيم، فالرءوف بدل من الضمير متأخرة من ناحية

---

(١) تطبيقات نحوية وبلاغية، الجزء الأول ص ١٤٩.

اللفظ ومن ناحية الرتبة أو التقدير[1] ﴿**أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَداً يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ**﴾ (يوسف:١٢)

الجملة الاسمية المبتدأ والخبر :

الأصل في الجملة الاسمية أن يتقدم المبتدأ على الخبر ، وارتفاع المبتدأ بالابتداء وهو التجرد للإسناد وارتفاع الخبر بالمبتدأ لا بالابتداء ولا بـــهما.

وللخبر ثلاث حالات :

- **إحداها**: التأخر وهو الأصل ك{**زيدٌ قائمٌ**} ويجب في أربع مسائل
- **إحداها**: أن يخاف التباسه بالمبتدأ وذلك إذا كانا معرفتين أو متساويين ولا قرينة نحو زيد أخوك ،أفضلُ منك أفضلُ مني.
- **الثانية**: أن يخاف التباس المبتدأ بالفاعل نحو{ **زيدٌ قام**} أي إذا كان الخبر جملة فعلية.
- **الثالثة**: أن يقترن بإلا معنى نحو﴿**إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ**﴾ (هود:١٢) {**محمدٌ رسولُ الله**}(الفتح:٢٩) .
- **الرابعة**: أن يكون المبتدأ مستحقاً للتصدير إما بنفسه كأن يكون اسم استفهام نحو{**منْ في الدار**} .

أو اسم شرط نحو[**منْ يقُمْ أقمْ معه**] أو مشبـــها به نحو [**الذي يأتيني فله درهمٌ**] أو ما التعجبية نحو[**ما أحسنَ زيداً**] إذا كان المبتدأ مقروناً بلام الابتداء نحو[**لزيدٌ قائمٌ**] [1]

الحالة الثانية:

التقدم ويجب في أربع مسائل:

- **إحداها** :أن يوقع تأخيره في لبس ظاهر نحو [**في الدار رجلٌ**] [**عندك مال**] [**وعندي أنك فاضل**] فإن تأخير المبتدأ في هذا المثال يوقع في إلباس [**أن**] المفتوحة بالمكسورة ، وأنَ المؤكدة التي بمعنى لعل، وتأخيره في الأمثلة الأول يوقع في إلباس الخبر بالصفة وإنما لم يجب

---

(١) شذور الذهب في معرفة كلام العرب ،الجزء الأول ص٦٨.

(٢) أوضح المسالك ص١٤٥-ص١٤٨.

تقديم الخبر في نحو﴿وَأَجَلٌ مُسَمًّى عِندَهُ﴾ (الأنعام :٢)، لأن النكرة وقد وصفت بمسمى فكان الظاهر أنه خبر لا صفة.

- **الثانية** : أن يقترن المبتدأ بإلا لفظاً نحو [**ما لنا إلا اتباع أحمدا**] أو معنى نحو [**إنما عندك زيدٌ**].
- **الثالثة:** أن يكون لازم الصدرية نحو أين زيد أو مضافاً إلى ملازمها نحو[**صبيحةَ أي يومٍ سفرِك**].
- **الرابعة**:أن يعود ضمير متصل بالمبتدأ على بعض الخبر كقوله تعالى : ﴿ **أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا**﴾ (محمد :٢٤).

وقول الشاعر:

ولكنْ ملءُ عينِ حبيبـــها

الحالة الثالثة :

جواز التقديم والتأخير:

وذلك فيما فقد فيه موجبـــها كقولك زيد قائم فيترجح تقديمه على الأصل ، ويجوز تقديمه لعدم المانع مثل عندك محمدٌ، محمدٌ عندك ﴿**سَلَامٌ هِيَ**﴾ (القدر :٥) هي سلام ومنه قول الشاعر:

نعمتْ جزاءُ المتقين الجنَّةْ   دارُ الأماني و المنى والمِنَّةْ [1]

الإعراب : نعمت نعم فعل ماض يدل على إنشاء المدح والتاء علامة التأنيث جزاء فاعل نعم وجزاء مضاف والمتقين مضاف إليه والجملة من الفعل والفاعل في محل رفع خبر مقدم ، والجنة مبتدأ مؤخر.

إذا تساوى المبتدأ والخبر في درجة التعريف ووجدت قرينة أو دليل على الخبر جاز تقديمه ومنه قول الشاعر :

بنونا بنو أبنائنا وبناتُنا   بنوهُن أبناءُ الرجالِ الأباعد

استشهد به علىَ جواز تقديم الخبر على المبتدأ مَع مساوَتـــهما في التعريف لأجل القرينة المعنوية ، لأن الخبر هو محط الفائدة،فما يكون فيه التشبيه الذي تذكر الجملة لأجله فهو الخبر وهو قوله -بنونا - إذ المعنى أن بني

---

(١) شذور الذهب في معرفة كلام العرب ، الجزء الأول ص٦٣.

أبنائنا مثل بنينا لا أن بنينا مثل بني أبنائنا : قال **ابن هشام**: وقد يقال إن هذا البيت لا تقديم فيه ولا تأخير وأنه جاء على عكس التشبيه.

كقول ذي الرمة : [1]

ورملٍ كأوراكِ العذارى قطعتُه

فكان ينبغي للشارح يعني ابنَ الناظمَ أن يستدل بما أنشده والده في شرح التسهيل من قول حسان بن ثابت[2]

قبيلةٌ ألأمُ الأحياءِ أكرُمها　　وأغدرُ الناسِ بالجيران وافيها

إذ المراد الإخبار عن أكرَمها بأنه ألأم الأحياء وعن وافيها بأنه أغدر الناس لا العكس.

الأفعال الداخلة على المبتدأ والخبر :

فترفع المبتدأ تشبيهاً بالفاعل ويسمى اسمها وتنصب خبره تشبيهاً بالمفعول ويسمى خبرها وهي-أصبح - أضحى-أمسى- ظل- بات -صار- ليس - مازال -ما برح - ما فتئ- ما انفك.

وتوسط أخبارهن جائز أي تقديم الخبر على المبتدأ قال تعالى: ﴿**وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ**﴾ (الروم:٤٧)

وقال الشاعر :

لا طيبَ للعيشِ مادامتْ مُنغَصةً　　لذَّاتهُ بادِّكارِ الموتِ والهرَمِ

استشهد به على جواز تقديم خبر- ما دامت - على اسمها : قال العيني: "وقد رد ذلك ابن معط وهو محجوج بالبيت ، ومعنى منغصة مكدرة والادكار التذكر أي لا طيب لعيش ابن آدم مادامت لذاته منغصة بتذكر الموت والهرم و لم يقف على قائل البيت"[3]

ويقول الشاعر :

ما دام حافظُ سري مَنْ وثقتُ به　　فهو الذي لستُ عنهُ راغباً أبداً

---

(١) ديوان ذي الرمة ، ص١٤٦ و تكملة البيت إذا خلته المظلمات الحنادس.　　(٢) ديوان حسان بن ثابت ، ص٢٥٤.

(٣) الدرر اللوامع على همع الهوامع شرح جمع الجوامع الجزء الأول ص٧٦ و لم يعزه إلى قائل.

حافظ سري خبر دام وقوله من وثقت به اسمها وقد تقدم الخبر على الاسم[1]
وتقديم أخبارهن جائز بدليل قوله تعالى: ﴿**هَؤُلاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ**﴾(سبأ: ٤٠).
﴿**وَأَنفُسَهُمْ كَانُوا يَظْلِمُونَ**﴾ (الأعراف: ١٧٧) وقوله تعالى: ﴿**تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ مَا كَانُوا إِيَّانَا يَعْبُدُونَ**﴾ (القصص: ٦٣) إلا خبر دام اتفاقا.

وإذا نفي الفعل بما، جاز توسط الخبر بين النافي والمنفي مطلقاً نحو: ما قائماً كان زيدا.

ويجوز باتفاق أن يلي هذه الأفعال معمول خبرها إن كان ظرفاً أو مجروراً نحو: كان عندك أو في المسجد زيد معتكفا.

قال الشاعر:

فلا تلْحُني فيها فإنَّ بُحبـــها أخاك مصابُ القلب جمٌّ بلابله

استشهد به على جواز تقديم معمول خبر إن على اسمها إذا كان مجروراً والظرف يساويه في ذلك قال أبو حيان: "وقد تأول ذلك أصحابنا بأن جعلوه متعلقاً بفعل محذوف تقديره أعني كأنه قال أعني بحبـــها وفصل بـــهذه الجملة الاعتراضية بين إن واسمها ....يقول : "لا تلمني في حب هذه المرأة فقد أصيب قلبي بـــها واستولى عليه حبـــها فالعذل لا يصرفني عنها ، ويقال لحيت الرجل إذا لمته ولحوت العود ولحيته إذا قشرت لحاءه وأصل الأول منه والجم الكثير والبلابل الأحزان وشغل البال واحدها بلبال قال: ولم أعثر على **قائله**".[2]

تعمل ما النافية عمل ليس في رفع المبتدأ ونصب الخبر ومن شروطها ألا يتقدم خبرها على اسمها وكذلك ألا يتقدم معمول خبرها فمثال الأول:

وما حسنٌ أنْ يمدحَ المرءُ نفسَه ولكن أخلاقاً تُذَمُّ وتُحْمَدُ[3]

تقدم الخبر على الاسم واسمها مصدر مؤول ، والتقدير وما مدح المرء نفسه حسناً لما قدم الخبر ألغي العمل.

وقالوا تَعَرَّفَها المنازلَ منْ منى وما كلُّ منْ وافى منىً أنا عارفُ

الشاهد إلغاء عملها لتقدم معمول خبرها {**كل من وافى**} وهذا لا يجوز [4]

---

(١) الدرر اللوامع الجزء الأول ص٨٧.
(٢) الدرر اللوامع ص١١٣.
(٣) المصدر السابق ، الجزء الأول ص٢٤٠.
(٤) المصدر السابق ، الجزء الأول ص٢٣٩.

لا النافية العاملة عمل ليس:

لا النافية تعمل عمل ليس في رفع المبتدأ ونصب الخبر ، ومن شروط عملها أن يتقدم اسمها على خبرها ، فإذا تقدم خبرها على اسمها بطل عملها ، وكذلك ألا يتقدم معمول خبرها على اسمها إلا إذا كان ظرفاً أو جاراً ومجروراً مثل :لا في المحاضرة طالب مهملاً ، فإذا تقدم معمول خبرها على الاسم عدا هاتين الحالتين بطل عملها مثل :لا الواجب طالبة مؤدية.[1]

الأحرف الثمانية الداخلة على المبتدأ والخبر والتي تنصب المبتدأ ويسمى اسمها وترفع خبرها ويسمى خبرها وهي **[إن–أن –لكن– كأن –ليت –لعل–عسى– لا النافية للجنس]** فيقول ابن هشام :عن خبرها ولا يجوز تقدمه مطلقاً ولا توسطه إلا إن كان ظرفاً أو مجروراً نحو:

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً ﴾(النازعات :٢٦) **﴿إِنَّ لَدَيْنَا أَنكَالًا﴾** (المزمل :١٢)[2]

لا النافية للجنس:

لا النافية للجنس تعمل عمل إن بشروط أن يكون الاسم متقدماً والخبر مؤخراً **﴿ لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ ﴾**(الصافات :٤٧)، في هذا المثال لا ليست عاملة لأن من شروط عملها ألا يتقدم خبرها على اسمها وفي هذا المثال تقدم الخبر على الاسم ولذلك ألغيت.[3]

الجملة الفعلية:

الفاعل اسم أو ما في تأويله أسند إليه فعل ، أو ما في تأويله مقدم أصلي المحل والصيغة.

الاسم نحو تبارك الله والمؤول به نحو **﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنزَلْنَا﴾**(العنكبوت:٥١).

---

(١) شذور الذهب ص٢٥٢ وتطبيقات ص٢٦١.

(٢) تطبيقات نحوية الجزء الأول ص٢٨١.

(٣) المصدر السابق ، الجزء الأول ص٢٤٢.

والفعل كما مثلنا ومنه أتي زيد ، نعم الفتى زيد، ولا فرق بين المتصرف والجامد والمؤول بالفعل نحو ﴿ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ ﴾ (النحل :٦٩) ومقدّمٌ رافع لتوهم دخول نحو زيد قام .

وأصلي المحل مخرج لنحو [قائمٌ زيدٌ] فإن المسند وهو قائم أصله التأخير لأنه خبر .

وذكر الصيغة مخرجٍ لنحو[ضُرِب زيد] بضم أول الفعل وكسر ثانيه فإنـــها مفرعة عن صيغة ضَرَب بفتحهما وله أحكام الرفع........

الثاني: وقوعه بعد المسند فإن وجد ما ظاهره أنه فاعل تقدم وجب تقديرٍ الفاعل ضميراً مستتراً وكون المقدم إما مبتدأ في نحو زيد قام ، وإما فاعلاً محذوف الفعل في نحو﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ﴾(التوبة :٦). لأن أداة الشرط مختصة بالجمل الفعلية.

الثالث : أنه لابد منه ...

الرابع: أنه يصح حذف فعله إن أُجيب به نفي.

الخامس : إن فعله يوحد مع تثنيته وجمعه.

السادس : إنه إن كان مؤنثاً أنث فعله بتاء ساكنة في آخر الماضي وبتاء المضارعة في أول المضارع.

السابع : إن الأصل فيه أن يتصل بفعله ثم يجيء المفعول،وقد يعكس، وقد يتقدمها المفعول ، وكل من ذلك جائز وواجب ، فأما جواز الأصل فنحو ﴿ وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ﴾ (النمل :١٦).

ونحو قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ جَاءَ آلَ فِرْعَوْنَ ﴾(القمر :٤١) وقوله:﴿ فَفَرِيقاً كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقاً تَقْتُلُونَ﴾ (البقرة :٨٧) .

وكقول جرير بن عطية:

جاء الخلافةَ أو كانت له قدَرا كما جاء ربهَ موسى على قَدَر [١]

في هذا البيت قدم المفعول على الفاعل ، وأعاد الضمير المتصل بالمفعول المتقدم وهو قوله ربه على الفاعل المتأخر الذي هو قوله موسى، وأصل الكلام كما أتى موسى ربه على قدر، فقدم الفاعل على المفعول ، فصار كما في

---

(١) ديوان جرير ص٢١١ ، من قصيدة يمدح فيها عمر بن عبد العزيز .

البيت وهذا مما شاع في لسان العرب و لم يستأثر به قوم دون قوم، ولـــهذا لم يختلف النحاة في جوازه.[1]

وقد أجاز البصريون والكسائي وابن الأنباري تقديم المفعول على الفاعل كقول الشاعر :

ولما أبى جماحا فؤاده

حيث قدم المفعول المحصور بإلا وهو قوله جماحا علي الفاعل الذي هو قوله فؤاده وقول الشاعر: فما زاد إلا ضعفَ الذي بي كلامها ، والشاهد في هذا البيت هو تقديم المفعول به وهو ضعف على الفاعل وهو كلامها مع كون الفاعل منحصراً بإلا ، وهذا جائز عند الكسائي قال زهير بن أبي سلمى: وهلْ تُغْرَسُ إلا في منابتها النخل ، والشاهد فيه تقديم الجار والمجرور وهو قوله في منابتها على نائب الفاعل وهو قوله النخل مع أن الجار والمجرور بمنـــزلة المفعول به ، وكان النائب من الفاعل بمنـــزلة الفاعل صح الاستدلال بـــهذا الشاهد على جواز تقديم المفعول المحصور بإلا على الفاعل.[2]

وجوب تقدم المفعول:

يجب تقدم المفعول على الفاعل في المسائل التالية:

الأولى: أن يتصل بالفاعل ضمير المفعول أي إذا اشتمل الفاعل على ضمير يعودعلى متأخر في اللفظ والرتبة نحو **﴿وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ﴾**(البقرة :١٢٤). وقوله :**﴿ يَوْمَ لَا يَنفَعُ الظَّالِمِينَ ﴾** (غافر :٥٢).

الثانية: أن يحصر الفاعل بإنما نحو**﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾**(فاطر :٢٨).

الثالثة: إذا كان الفاعل محصوراً بإلا –لا يسمع النصيحةَ إلا العاقلٌ .

الرابعة: إذا كان الفاعل اسماً ظاهراً والمفعول ضميراً متصلاً كما في قوله تعالى: **﴿ قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي ﴾** (الأنعام :١٦١).

---

(١) قطر الندى وبل الصدى ص٢٥٦، الدرر اللوامع ، الجزء الثاني ص١٣٤ ، أوضح المسالك ص٣٣٣- ٣٣٥.

(٢) نفس المصدر ص٣٦٢ -٣٦٣.

الخامسة: إذا كان الفاعل ضميراً منفصلاً واقعاً بعد إلا نحو- ما أكرمني إلا أنت .

السادسة:أن يكون له الصدر ومنه قوله تعالى:﴿ **فَأَيَّ آيَاتِ اللَّهِ تُنكِرُونَ**﴾ (غافر :٨١) وقوله تعالى: ﴿ **أَياً مَّا تَدْعُوا** ﴾ (الإسراء : ١١٠) .

السابعة: أن يقع عامله بعد الفاء وليس له منصوب غيره مقدم عليها نحو قوله تعالى: ﴿ **وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ** ﴾ (المدثر :٣) ، وقوله تعالى﴿ **فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلاَ تَقْهَرْ**﴾ (الضحى :٩).

وجوب تقدم الفاعل:

يجب تقدم الفاعل على المفعول في هذه المسائل:

- **الأولى**: أن يخشى اللبس أي إذا كانت علامات الإعراب مقدرة على الفاعل والمفعول معاً بحيث يؤدي تأخير الفاعل عن المفعول إلى اللبس، فمنعاً للبس يجب تقديم الفاعل إذا لم توجد قرينة أو دليل يظهر الفاعل ويوضحه كـ{ **زار موسى عيسى**} على خلاف بين النحويين.
- **الثانية**: أن يحصر المفعول بإنما نحو {**إنما ضرب زيد عمرا**} على خلاف بين النحويين.
- **الثالثة**: إذا كان الفاعل والمفعول ضميرين متصلين ولا يوجد حصر في أحدهما مثل زار أبي صديقي.
- **الرابعة**: أن يكون المفعول محصوراً بأداة الحصر إلا–ما أعطى الأستاذُ إلا الجائزةَ.
- **الخامسة**: أن يكون الفاعل ضميراً متصلاً والمفعول به اسما ظاهراً– أكرمتُ عليًا [1]

فعلا التعجب:

- لا يجوز تقديم معمول فعل التعجب عليه ، فلا تقول: ما زيداً أحسنَ، من قولك - ما أحسنَ زيداً و لا يجوز أيضاً - زيداً ما أحسنَ ،

(١) أوضح المسالك ص٣٦٦-٣٧١،تطبيقات نحوية ، الجزء الثاني ص٢٢.

ولا بزيد أحسن ، فإن كان المعمول ظرفاً أو جاراً ومجروراً جاز التقديم مثل ما أحسنَ بالرجل أن يَصدقَ ، وما أقبحَ به أن يكذبَ.[1]

- **المفعول فيه وهو المسمى الظرف.**

يجوز تقدم المفعول فيه -الظرف- كما في قول الشاعر :

أفي الحقِ أَنِي مغرمٌ وبك هائمٌ

وقول أبي فراس الحمداني:

أقــول وقد ناحت بقُربي حمامــةٌ   أيــا جــارتا لو تعلمين بحالي
مَعَاذ الهوى ما ذقتُ طارقةَ النَّوى   ولا خَطَرتْ منك الهمومُ ببال
أيا جارتا ما أنصفَ الدهرُ بــيننا   تَعالَي أُقاسِمْكِ الهَمومَ تعَالَي[2]

الحال في مجالي التقديم والتأخير:

الأصل أن يتقدم صاحب الحال ، على الحال وقد يتقدم الحال على صاحبه في الأحوال الآتية :

إذا كان صاحب الحال نكرة كما في قول كثير :

لمِيَّةَ موحشاً طللُ   يلوح كأنَّهُ خلَلُ[3]

فقد تقدم الحال وهو موحشا على صاحبه وهو طَلل .

ويجب تقديم الحال على صاحبه إذا كان صاحبه محصوراً بأداة الحصر إلاكما في قوله تعالى:**﴿مَا فِي بُطُونِ هَذِهِ الأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا﴾**(الأنعام :١٣٩). خالصة حال في قراءة النصب وبــهذه القراءة يجوز أن يتقدم الحال على عامله الجار والمجرور،وكذلك في قوله تعالى:**﴿وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ ﴾**(الزمر ٦٧). مطويات حال في قراءة النصب وبــهذه القراءة يجوز أن يتقدم الحال على صاحبه.

يجب تأخير الحال عن صاحبه في الحالات التالية:

- **الأولى:** إذا كانت الحال محصورة -ما جاء الأستاذُ إلا محاضراً.

---

(١) تطبيقات نحوية ، الجزء الثاني ص٢٠

(٢) نفس المصدر ، الجزء الثاني ص٦٥.

(٣) قطر الندى ص٢٣، وأوضح المسالك ، الجزء الثاني ص٤٩ ، شذور الذهب ص٢٤.

- **الثانية**: إذا كان صاحب الحال مجرورا بحرف جر كقوله تعالى: ﴿ **وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ كَافَّةً لِّلنَّاسِ**﴾ (سبأ :٢٨) كافة حال تقدمت على صاحبـــها الجار والمجرور للناس ومنه قول الشاعر:

مشغوفةً بك قد شغفْتَ وإنما ... حُمَّ الفراقُ فما إليك سبيلُ [١]

مشغوفة حال تقدمت على صاحبـــها بك الجار والمجرور.

- **الثالثة**: إذا كان صاحب الحال مجروراً بالإضافة كقول الشاعر:

تقولُ ابنتي إنَّ انطلاقَك واحداً ... إلى الرَّوْعِ يوماً تاركي لا أباً ليا

واحداً حال من المضاف إليه وهو الضمير -الكاف-

وجوب تقديم الحال على صاحبـــها:

- **الأولى**: إذا كانت الحال اسم استفهام-كيف وصل الأستاذ -الحال كيف وجب تقديمها لأنـــها اسم استفهام.
- **الثانية**: إذا كان العامل اسم تفضيل متوسط بين حالين اسمين مختلفي المعنى مفضل أحدهما في حالة على الآخر في حالة أخرى -الأستاذ محاضراً أحسنُ منه خطيباً.
- **الثالثة**: إذا كان العامل اسم تفضيل متوسط بين حالين اسمين مختلفي المعنى مفضل أحدهما في حالة على الأخر في حالة أخرى-محمدٌ متصدقاً أحسنٌ منْ عليٍ ممسكا [٢]

التمييز مع عامله في مجال التقديم والتأخير :

يجب تأخير التمييز عن عامله فيما يأتي:

- **الأولى**:إذا كان ناصبه اسماً -عدداً -كيلاً-مساحة-وزناً-قرأتُ ثلاثين قصةً-اشتريتُ مترين صوفاً.
- **الثانية**: إذا كان ناصبه فعلاً جامداً وهو فعل التعجب - ما أعظم علياً خطيباً

---

(١) تطبيقات نحوية وبلاغية ، الجزء الثاني ص٢٣٥.

(٢) المصدر السابق ص٢٢٤-٢٢٧، وأوضح المسالك ص٨٢-٨٨.

وكقول الشاعر:

ونارُنا لْم يُر ناراً مثَلها قدْ عَلمتْ ذلك معدٌ كلُّها [1]

تقدم التمييز ناراً على عامله غير المتصرف الجَامد وهو مثلها.

- **الثالثة**:إذا كان ناصبه فعلا متصرفاً يشبه الفعل الجامد من ناحية التعجب ومنه قول الشاعر:

أنفساً تطيبُ بنيلِ المُنى وداعي المنونِ ينادي جِهارا [2]

ومنه أيضاً قول الشاعر:

أتَهجُرني ليلى بالِفراق حبيبها وما كان نفساً بالفراق تطيب

قدم التمييز نفساً علىَ الأمل المتصرف وهو تطيب [3] [4].

المستثنى:

يجوز تقدم المستثنى على المستثنى منه -ما حضر إلا محمداً الطلبةُ.

جواز تقديم المعطوف على المعطوف عليه:

يجوز تقديم المعطوف على المعطوف عليه إذا لم يكن هناك مانع مثل قول الشاعر:

وأنت غريمٌ لا أظنُ قضاءَ هولا العَنْزي القارظُ الدهرَ جائياً

أراد لا أظن قضاءه جائياً هو ولا العنـــزَي ، والعنـــزي أحد رجلين خرجا يجنيان القرظ فلم يرجعا أصلا فضرب بـــهما المثل .

حرف العطف:

الواو لمطلق الجمع من غير ترتيب مثل جاء محمد وعلي ، وهذا المثال يحتمل ثلاثة معان :

أحدها: أن يكون جاءا معاً.

ثانيها : أن يكون بمجيئهما على الترتيب .

ثالثها : أن يكون على عكس الترتيب .

فإن فهمت المعية إذا جاءا معاً والترتيب وعكسه فإن هذا الفهم ناشئ من دليل آخر وليس من طبيعة الواو ، فالمصاحبة فهمت بالقرينة كقوله تعالى: **﴿ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ﴾** (البقرة : ١٢٧) .

والترتيب فهم بالقرينة كقوله تعالى:**﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الأَرْضُ زِلْزَالَهَا . وَأَخْرَجَتِ الأَرْضُ أَثْقَالَهَا . وَقَالَ الإِنسَانُ مَا لَهَا ﴾** (الزلزلة ١-٢-٣).وقوله تعالى:**﴿ وَلَقَدْ**

أرسلْنَا نُوحاً وَإِبْرَاهِيم ﴾ (الحديد :٢٦) وعكس الترتيب فهم بالقرينة كقوله تعالى :﴿ ما هيَ إلاَ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ ونَحْيَا ﴾ (المؤمنون ٣٧) . ولو كانت الواو للترتيب لأفهَمت اعترافَ الكفار بالحياة بعد الموت.

الفاء تفيد الترتيب والتعقيب والتشريك في الحكم مثل وصل محمدٌ فعليٌ، أي أن وصول علي وقع بعد وصول محمد بدون مهلة ومنه قوله تعالى:﴿ ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ ﴾ (عبس :٢١) لأن الإقبار يعقب الإماتة.

ثانيا: وقد تفيد التسبب وهذا غالب في عطف الجمل ومنه قوله تعالى: ﴿ فَتَلَقَّى آدَمُ من رَبِّه كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْه ﴾ (البقرة :٣٧).

وقد تخلو العاطفة للجمل من هذا المعنى ومنه قوله تعالى: ﴿ الَّذي خَلَقَ فَسَوَّى ٠ وَالَّذي قَدَّرَ فَهَدَى ٠ وَالَّذي أَخْرَجَ المَرْعَى ٠ فَجَعَلَهُ غُثَاءً أَحْوَى﴾ (الأعلى :٢-٥) . الفاء في هذه الآيات نابت عن ثم والتقدير فمضت مدة فجعله غثاء.

الرابع: ذكر ابن قاسم ثلاثة أقسام للفاء العاطفة.

أ- إن عطفت مفردا غير صفة لم تدل على السببية مثل قام محمدٌ فعمرو.

ب- إن عطفت جملة دلت على السببية غالبا نحو﴿فَوَكَزَهُ مُوسَى فَقَضَى عَلَيْه﴾ (القصص :١٥).

ج- إن عطفت مفرداً صفة دلت على السببية .

ومنه قول الشاعر :

يا لهفَ زيانةٌ للحارث الـــ صابحِ فالغانمِ فالآيب

كأنه قال الذي صبح فغنمَ فآب، وهي في البيت تدل على ترتيب في الوجود وقد تدل على ترتيب معانيها في التفاوت من بعض الوجود مثل خذ الأكمل فالأفضل واعمل الأحسن فالأجمل ، وقد تدل على ترتيب موصوفاتـــها مثل قوله تعالى :﴿ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بَأْسُنَا﴾ (الأعراف :٤).

الفاء في الآية للترتيب على التأويل أي أردنا إهلاكها فجاءها بأسنا ، أو تكون الفاء للترتيب الذكري لأن ما بعد الفاء تفصيل للمجمل قبلها ، ثم للترتيب والتراخي ومنه قوله تعالى:﴿ ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنشَرَهُ ﴾ (عبس : ٢٢) . أن الانتشار يتراخى عن الإماتة في قوله تعالى:﴿ ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ ﴾ (عبس :٢١).

ومنه قول الشاعر:

كهزِّ الرُدَيني تحتَ العَجَاج جرى في الأنابيبِ ثُمَّ اضطرب .[1]

---

(١) تطبيقات نحوية وبلاغية، الجزء الثالث ص٣٤٣-٣٧٦ وعزاه للأشموني ، الجزء الثالث.

الفصل السادس

أثر الترجمة في أسلوب التقديم والتأخير

بعد أن استعرضنا في الفصول الخمسة السابقة أسلوب التقديم والتأخير، تعريفه وأثره ودوافعه والأحكام المتعلقة به ، نصل ببحثنا إلى هذا الفصل الهادف إلى محاولة إبراز أهمية أسلوب التقديم والتأخير في القرآن الكريم من خلال النظر في عملية الترجمة التي أثبتنا من خلالها استحالة حدوثها بالنسبة للقرآن الكريم بسبب التأثير الهدمي الذي تحدثه في التركيبة البنائية لأسلوب القرآن ،يأتي في مقدمة تلك الأساليب على الإطلاق أسلوب التقديم والتأخير ، والذي هو أ حد جوانب الإعجاز للقرآن، وقبل أن ندخل في هذا البحث ، ينبغي أن نقف عند تحديد مصطلح الترجمة ووضع تعريف له فكما هو معروف أن كثيراً من الشغب والتأليف في مجال البحوث والتأليف كان مرده إلى عدم الاتفاق على المصطلح أو الخطأ في فهم التعريف ، حيث نتناولها من كثير الزوايا الخاصة بـــها من حيث معناها في العرف واللغة، ومعناها كفن ، وأنواع التراجم وإذا كانت الترجمة هي تحويل نص إلى نص فلابد من التعريف بالنص المصدر وما هي طبيعته وصفاته وهو هنا النص القرآني، وما هي الترجمة المقصودة بمجال بحثنا مع التعرف على وجهة نظر الباحثين والمتخصصين في عملية الترجمة ،وذكر الأمثلة القرآنية التي تؤيد ما نذهب إليه وكذلك إعطاء أمثلة من التراجم الإسبانية التي تأثر بـــها أسلوب التقديم والتأخير فاختل على إثرها المعنى القرآني المترجم .

الترجمة في اللغة:

وضعت كلمة ترجمة في اللغة العربية لتدل على أحد معان أربعة:

أولـــهاً : تبليغ الكلام لمن لم يبلغه ومنه قول الشاعر :

إن الثمانين– وبُلِّغتُها– قدْ أحوجتْ سمعي إلى تَرجُمان [١]

ثانيها: تفسير الكلام بلغته التي جاء بـــها ومنه قيل في ابن عباس –رضي الله عنـــهما– : إنه ترجمان القرآن..

ثالثها: تفسير الكلام بلغة غير لغته ، وجاء في لسان العرب في مادة **[ترجم]** التُرجمان ، **[التَرجمان]** المفسر للسان، وفي حديث هرقل : قال لترجمانه – الترجمان بالضم والفتح هو الذي يترجم الكلام أي ينقله من لغة إلى أخرى . [٢]

رابعها: نقل الكلام من لغة إلى أخرى ، قال في لسان العرب: الترجمان بالضم وبالفتح هو الذي يترجم الكلام أي ينقله من لغة إلى أخرى والجمع تراجم..

ومدار بحثنا على الترجمة بمعناها الرابع أي نقل الكلام من لغة إلى أخرى والتي يقول عنها الزرقاني : ومعنى نقل الكلام من لغة إلى أخرى التعبير عن معناه بكلام آخر مع الوفاء بجميع معانيه ومقاصده ،كأنك نقلت الكلام نفسه من لغته الأولى إلى لغته الثانية :

وتنقسم الترجمة بـــهذا المعنى العرفي إلى قسمين :
حرفية وتفسيرية :

فالترجمة الحرفية هي التي تراعى فيها محاكاة الأصل في نظمه وترتيبه ، وهي تشبه وضع المرادف مكان مرادفه ، وبعض الناس يسمي هذه الترجمة ترجمة لفظية ، وبعضهم يسميها مساوية .

والترجمة التفسيرية هي التي لا تراعى فيها تلك المحاكاة ، أي محاكاة الأصل في نظمه وترتيبه ، بل المهم فيها حسن تصوير المعاني والأغراض كاملة، ولـــهذا تسمى أيضاً بالترجمة المعنوية وتفسيرية لأن حسن تصوير المعاني والأغراض فيها جعلها تشبه التفسير . [٣]

---

(١) شذور الذهب ص ٦٣ الشاهد رقم ١٣ وعزاه لعوف بن محلم في الدرر ٣١/٤ ، وشرح شواهد المغني ٨٢١/٢ ، وطبقات الشعراء ص١٨٧ ، ومعاهد التنصيص ٣٦٩/١ وبلا نسبة في مغني اللبيب ٣٨٨/٢.

(٢) لسان العرب ، ج١ ص٤٢٦.

(٣) مناهل العرفان في علوم القرآن،الجزء الثاني ص١١٠-١١١.

وموضوع الترجمة التي نحن بصددها هي الترجمة اللفظية أو الحرفية ، والسؤال الأول هل هذه الترجمة ممكنة أم غير ممكنة ؟ وإذا كانت غير ممكنة ، فما هو السبب ؟ وللإجابة عن هذه الأسئلة لابد أن نذكر أولاً الرأي في إمكان الترجمة في النص الأدبي غير المقدس ، هل من الممكن أن ينقل الشاعر قصيدة شاعر إلى لغة أخرى ، بحيث نقول بعد الترجمة هذه القصيدة في اللغة العربية هي عين القصيدة في اللغة الإسبانية مثلاً ؟ هذا ما نرى استحالة وقوعه ، وذلك راجع لعدة أسباب :

السبب الأول: وهو يتعلق بالنظرية اللغوية لعملية الترجمة ،وقد حدد كاتفورد مستويات الأحداث اللغوية في النقاط الآتية:
الشكل النحوي المعجمي :
فالقواعد مستوى من الشكل اللغوي الذي تعمل فيه أنظمة مغلقة ، وسمات النظام المغلق هي:
عدد المصطلحات محدد.
كل مصطلح مستقل بنفسه .
يؤدي أي تغير في عدد المصطلحات إلى تغير في قيم المعاني الرسمية للمصطلحات الأخرى ، من ذلك مثلاً أنظمة الضمائر ، أنظمة المعاني السياقية -العدد -الحالة -الزمن إلخ.
المعجم - مستوى من الشكل اللغوي تعمل فيه أنظمة مفتوحة ،مثلاً أنظمة المفردات المفتوحة التي تحدث بوصفها أمثلة للأسماء والأفعال.

شكل الوسيلة :

النظام الصوتي : مجموع الوحدات الرسمية التي تنظم فيها المادة الصوتية، والتي تعمل في مجموعات بوصفها دلائل للأشكال النحوية والمعجمية .
النظام الكتابي : مجموع الوحدات التي تنتظم فيها المادة الخطية ،والتي تعمل في مجموعات عادة بوصفها دلائل للأشكال النحوية والمعجمية .

مادة الوسيلة:

المادة الصوتية : الأصوات النطقية الحقيقية -المادة التي تعكس لنا النظام.
المادة الخطية العلامات المرئية الحقيقية -المادة التي تعكس النظام الكتابي.
المقام -مادة الوقف -مجموع صفات المواقف ما عدا مادة الوسيلة التي تتعلق أو يمكن ربطها بالسلوك اللغوي ، ولمادة الوقف تنظيم معين ، يفرضها عليه الشكل النحوي والمعجمي، ويجب بالإضافة إلى ما سبق دراسة المستوى الوسطي للسياق أو المعنى السياقي.[١]

وبالنظر إلى ما تقدم ، ندرك للوهلة الأولى عدم إمكانية حدوث هذه الترجمة اللفظية-أو المماثلة - لعدم وجود التماثل بين أي من لغات البشر ، وإلا لكانتا لغة واحدة ، وليس لغتين مما يجعل الجور موجود لا محالة إما على الأسلوب وإما على المعنى ، أو بأسلوب آخر إما على الشكل وإما على المضمون .

وكما يقول مناع القطان: "والذين هم على بصر باللغات يعرفون أن الترجمة الحرفية بالمعنى المذكور لا يمكن حصولها مع المحافظة على سياق الأصل والإحاطة بجميع معناه ، فإن خواص كل لغة تختلف عن الأخرى في ترتيب أجزاء الجملة" .[٢]

إنه من المستحيل يقيناً أن تعمل الترجمة دون أن ترعى الاختلاف ، بل وتبحث عنه في أحيان كثيرة من أجل نجاح عملية الترجمة ، فهي تحويل للغتين جميعا اللغة المترجمة واللغة المترجَمة .

وفي هذا يقَول الجاحظ: "ومتى وجدنا الترجمان قد تكلم بلسانين علمنا أنه قد أدخل الضيم عليها لأن كل واحدة من اللغتين تجذب الأخرى وتأخذ منها و تفرض عليها".[٣]

ولقد أحسن موريس بلانشو التشبيه لعملية الترجمة ، وهي تحاول التقريب بين لغتين بعمل هرقل وهو يحاول التقريب بين ضفتي البحر ، هذا

---

(١) كاتفورد نظرية لغوية في الترجمة، ص١٢،١٣.   (٢) مباحث في علوم القرآن ، ص٣١٣.
(٣) الحيوان للجاحظ ،، الكتاب الأول ،الجزء الأول ، ص٦٧.

العسر وهذه الصعوبة التي تتطلب قوة جبارة في مثل قوة هرقل - الخرافية بالطبع- يدلان على أن ذلك التقريب هو في الوقت ذاته إبعاد ، وعلى أن الترجمة إذ تحاول أن توحد بين اللغات تعمل بالعقل ذاته على خلق الاختلاف بينها وإذكاء حدته .[١]

وعلى هذا النحو من حيث اختلاف اللغات فيما بينها تقارباً وتباعداً ، ومن ناحية قواعدها وطريقة تراكيبـــها ومدلولات معانيها، ندرك ما يترتب على ذلك كله من هدم لأسلوب لغة المصدر وتباين المدلولات حيناً ، وتباعدها حيناً آخر، وهو الأمر الثاني الذي يقف عقبة في طريق الترجمة .

دلالة الكلمات : تختلف الكلمات الأدبية عن سائر الكلمات بأنـــها تحمل معها أفكاراً وعواطف وأحاسيس ومجموعة من المعاني المتدفقة في لفظة واحدة ، وإذا ما عرجنا إلى كتب الأدب والبلاغة والنقد ، نجد أن البيت الواحد يستغرق صفحات طويلة ، من أجل أن نصل إلى ما نستطيع إظهاره من إمكانات النص، الذي ما اكتسب جماله إلا بتركيبه على شكل مخصوص، وفي سياق مقصود ،أراد المبدع من خلاله أن ينفذ إلى القلوب والعقول، ويغزو الضمائر والأفكار عن طريق حسن الاختيار ، وحسن التركيب المتولد من عقله وفكره، والمصبوغ بشعوره وأحاسيسه صبغة خاصة فكان بصمة خاصة ، لا تتكرر مهما تقاربت مع غيرها ، هذا كله والشعر في لغته، فمابالنا إذا ما أردنا أن ننقله إلى غير لغته لاشك أن الأمر صعب بل مستحيل.

لماذا لا يمكن ترجمة القرآن ؟

يزداد أمر الترجمة صعوبة وتعقيداً ، لمن رام أن يترجم القرآن الكريم ، وذلك راجع إلى طبيعة الأسلوب القرآني المعجز المتحدى به الإنس والجن ، فما هو تعريف القرآن الذي هو النص المصدر بالنسبة لعملية الترجمة .

القرآن لغة :

وأما القرآن فاختلفت التعريفات اللغوية فيه ، وهل هو مشتق أم جامد ، فقال جماعة: "هو اسم علم غير مشتق خاص بكلام الله ، وبه قرأ ابن كثير وهو مروي عن الشافعي ".

---

(١) كتاب نصف الشهر عبد السلام ، ص٦٧.

وقال قوم منــهم الأشعري : "هو مشتق من قرنت الشيء بالشيء ، إذا ضممت أحدهما إلى الآخر ، وسمي به القرآن السور والآيات والحروف فيه"
قال الفراء: "هو مشتق من القرائن لأن الآيات منه يصدق بعضها بعضا، ويشابه بعضها بعضا ،وهي قرائن ، وعلى القولين هو بلا همز أيضاً ونون أصلية .."

قال اللحياني : "هو مصدر لقرأت ،كالرجحان والغفران ،سمي به الكتاب المقروء من باب تسمية المفعول بالمصدر" .

وقال آخرون منــهم الزجاج : " هو وصف على فعلان ، مشتق من القرء بمعنى الجمع ، ومنه قرأت الماء في الحوض أي جمعته " قال أبو عبيدة : " سمي بذلك لأنه جمع الصور بعضها إلى بعض " وقال الراغب : "وإنما سمي قرآنا لكونه جمع ثمرات الكتب السالفة المنــزلة ، وقيل :لأنه جمع أنواع العلوم كلها". واختار السيوطي رأي الشافعي .[1]

أقول: وقد أصاب في الترجيح حيث إن الشافعي حجة في اللغة فقوله مقدم على من هو دونه .

القرآن اصطلاحاً :

أجمع علماء السنة على أن القرآن : هو كلام الله تعالى المترل على محمد ﷺ المتعبد بتلاوته ، المتحدى به الجن والإنس ، المبدوء بسورة الفاتحة والمختوم بسورة الناس.

فخرج بقولنا كلام الله أن يكون من كلام الإنس والجن والملائكة، ودليله قوله تعالى: **﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ﴾** (التوبة:٦).

المنــزل دليله قوله تعالى: **﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾** (الحجر: ٩)

المتعبَد بتلاوته دليله قوله تعالى: **﴿وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلاً ﴾** (المزمر: ٤).

---

(١) الإتقان ، المجلد الأول ص١١٢،١١٣.

المتُحَدى به دليله قوله تعالى:﴿ قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لاَ يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً ﴾ (الإسراء:٨٨).

لقد فارق القرآن أسلوب الأدب العربي كله ، وما ألفوه من طرق التعبير، تقول المستشرقة الإيطالية لورا فيشيا فاغليري: " ليس ثمة أيما نمط لـــهذا الأسلوب -أي أسلوب القرآن - في الأدب العربي الذي تحدر إلينا من العصور التي سبقته ، والأثر الذي يحدثه في النفس البشرية إنما يتم من غير أيما عون عرضي أو إضافي من خلال سموه السليقي ، إن آياته كلها على مستوى واحد من البلاغة ،عندما تعالج موضوعات لا بد أن تؤثر في نفسها وجرسها كموضوع الوصايا والنواهي وما إليها". [١]

وليس فيما قالته فاليري خروج عن الحق أو عدول عن الصواب، فالتاريخ خير شاهد على عدم وجود شيء من هذا وإلا لأبرزه المعارضون ، وفيما توصلت إليه فاليري قاله السيوطي من قبل :

"وقد كانوا آنف شئ ، وأشد حمية، فلو علموا أن الإتيان بمثله في قدرتـــهم لبادروا إليه ، لأنه كان أهون عليهم" [٢]

ويذكر السيوطي قول الجاحظ الذي أبان من خلاله صفات هؤلاء المعارضين للقرآن ومدى تمكنـــهم من اللسان والبيان بما لم يصل إليهم فيها أحد من الأزمان ، يقول الجاحظ : "بعث الله محمداً ﷺ أكثر ما كانت العرب شاعراً وخطيباً ،وأحكم ما كانت لغة ،وأشد ما كانت حدة ، فدعا أقصاها وأدناها إلى توحيد الله وتصديق رسالته". [٣]

لقد وضع علماء الإسلام أيدينا على كثير من الخصائص التي تميز لغة القرآن عن سائر كلام البشر ، ومن هذه الخصائص، أنه منقول بألفاظ منـــزلة ومعان مستودعة، وبلغه الملك بلفظه وعلى نظمه ،وأداه الرسول إلى الأمة بعينه، فلم ينخرم فيه لفظ و لم يختل فيه معنى ،ولا تغير له ترتيب ، حتى صار من الزلل مضبوطا ومن التبديل محفوظا ، تستمر به الأمصار على شاكلته .

---

(١) مجلة دعوة الحق ، ص٨٣. (٢) الإتقان ص٢٥٣. (٣) المصدر السابق ص٢٥٤.

ويرى ابن عطية – الفقيه والمفسر الأندلسي – مع جمهرة علماء المسلمين أن وجه إعجاز القرآن إنما هو في نظمه وترتيب ألفاظه على نحو مخصوص وصحة معانيه يقول:"الصحيح والذي عليه الجمهور والحذاق في وجه إعجازه، أنه بنظمه وصحة معانيه وتوالي ألفاظه، وذلك أن الله أحاط بكل شيء علما، وأحاط بالكلام كله فإذا ترتيب اللفظ من القرآن علم بإحاطته : أي لفظ تصلح أن تلي الأولى وتبين المعنى بعد المعنى ، ثم كذلك من أول القرآن إلى آخره"[1] .

أقوال العلماء في حكم ترجمة القرآن:

الإمام الشافعي :

أوجب الشافعي تعلم اللغة العربية لفعل الواجبات المطلوبة من صلاة وذكر وحج، ويرى عدم جواز فعل ذلك بغير اللغة العربية ، يقول في رسالته في المسألة الثامنة والستين والتاسعة والستين بعد المائة:

"وما ازداد من العلم باللسان ، الذي جعله الله لسان من ختم به نبوته ، وأنزل به آخر كتبه كان خيراً له كما عليه يتعلم الصلاة والذكر فيها ، ويأتي البيت وما أمر بإتيانه ويتوجه لما وجهِ له ويكون تبعاً فيما افترض عليه ، وندب إليه ،لا متبوعاً.

المسألة التاسعة والستين:

وإنما بدأت بما وصفت من أن القرآن نزل بلسان العرب دون غيره ،لأنه لا يعلم من إيضاح جمل علم الكتاب أحد جهل سعة لسان العرب ، وكثرة وجوهه ، وجماع معانيه وتفرقها ، ومن علمه انتفت عنه الشبه التي دخلت على من جهل لسانـــها" .[2]

---

(١) الإتقان، المجلد الثاني ص٢٥٧.

(٢) الرسالة ، ص٤٩، ٥٠.

رأي ابن حزم :

ذكر ابن حزم في كتابه المحلى بأن من قرأ القرآن بغير العربية، أو قدم كلمة، أو أخرها ،عامداً لذلك، بطلت صلاته، وخرج عن كونه قرآناً ، يقول: ومن قرأ أم القرآن أو شيئاً منها أو شيئاً من القرآن في صلاته مترجماً بغير العربية أو بألفاظ عربية غير الألفاظ التي أنزل الله تعالى عامداً لذلك بطلت صلاته ، وهو فاسق لأن الله تعالى قال: ﴿**قُرْآناً عَرَبِياً**﴾ (يوسف :٢) وغير العربي ليس عربياً ،فليس قرآناً ، وإحالة رتبة القرآن تحريف كلام الله تعالى ، وقد ذم الله تعالى قوماً فعلوا ذلك ، قال: ﴿**يُحَرِّفُونَ الكَلِمَ مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِه**﴾ (المائدة:٤١) [١].

رأي الشاطبي :

لقد فصل الشاطبي في موافقاته القول بعدم إمكان ترجمة القرآن الكريم، معتمداً في وجهة نظره على علمه بطبيعة الأسلوب العربي والأسلوب القرآني من خلال عدة مستويات ، إذا دققنا النظر فيها ، وجدناها هي عينها التي أقام عليها كاتفورد نظريته اللغوية للترجمة ، والتي ذكرتـــها من قبل .

يقول الشاطبي: "فإن قلنا إن القرآن نزل بلسان العرب وإنه عربي ، وإنه لا عجمة فيه ، فبمعنى أنه أنزل على لسان معهود العرب في ألفاظها الخاصة ، وأساليب معانيها ، وأنـــها فيما فطرت عليه من لسانـــها ، تخاطب العام يراد به ظاهره وبالعام يراد به العام في وجه والخاص في وجه ، وبالعام يراد به الخاص، والظاهر يراد به غير الظاهر ، وكل ذلك يعرف من أول الكلام أو وسطه أو آخره، وتتكلم بالكلام ينبئ أوله عن آخره ، أو آخره عن أوله ، وتتكلم بالشيء يعرف بالمعنى كما يعرف بالإشارة ، وتسمي الشيء الواحد بأسماء كثيرة ، والأشياء الكثيرة باسم واحد وكل هذا معروف عندها ، لا ترتاب في شيء منه هي ولا من تعلق بعلم كلامها فإذا كان كذلك ،

---

(١) المحلى ص ٢٥٤ .

فالقرآن في معانيه وأساليبه على هذا الترتيب ، فكما أن لسان بعض الأعاجم لا يمكن أن يفهم من جهة لسان العرب ، كذلك لا يمكن أن يفهم لسان العرب من جهة لسان العجم لاختلاف الأوضاع والأساليب "[١]

ويتابع الشاطبي حديثه في المسألة الثانية فيقول:

"للغة العربية من حيث هي ألفاظ وعبارات دالة على معان نظران :

أحدها : من جهة كونها ألفاظاً وعبارات مطلقة دالة على معان مطلقة ، وهي الدلالة الأصلية .

الثاني: من جهة كونها ألفاظاً وعبارات مقيدة دالة على معان خادمة وهي الدلالة التابعة.

فالجهة الأولى هي التي يشترك فيها جميع الألسنة ، وإليها منتهى مقاصد المتكلمين ولا تختص بأمة دون أخرى ، فإنه إذا حصل في الوجود فعل لزيد مثلاً كالقيام،ثم أراد كل صاحب لسان الإخبار عن زيد بالقيام،تأتى له ما أراد من غير كلفة.

ومن هذه الجهة يمكن في لسان العرب الإخبار عن أقوال الأولين ممن ليسوا من أهل العربية وحكاية كلامهم ، ويتأتى في ألسن العجم حكاية أقوال العرب والإخبار عنها هذا لا إشكال فيه.

وأما الجهة الثانية فهي التي يختص بها لسان العرب في تلك الحكاية ، وذلك الإخبار فإن كان خبر يقتضي في هذه الجهة أموراً خادمة لذلك الإخبار بحسب المخبِر والمخبَر عنه والمخبَر به ونفس الإخبار في الحال والمساق ونوع الأسلوب من الإيضاح والإيجاز والإطناب وغير ذلك ، وذلك أنك تقول في ابتداء الإخبار [**قام زيد**] إن لم تكن ثمة عناية بالمخبر عنه بل بالخبر ، فإن كانت العناية بالمخبر عنه ، قلت : [**زيد قام**] وفي جواب السؤال أو ما هو منزل تلك المنزلة [**إن زيداً قام**] وفي جواب المنكر لقيامه [**والله إن زيدا قام**]وفي إخبار من يتوقع قيامه أو الإخبار بقيامه [**قد قام زيد**] أو[**زيد قام**] وفي التنكيت على من ينكر [**إنما قام زيد**].

---

(١) الشاطبي ، الموافقات ص٥١.

ثم يتنوع أيضاً بحسب تعظيمه أو تحقيره ، أعني -المخبَر عنه- ومن حيث الكناية منه والتصريح به وبحسب ما يقصد في مساق الإخبار،وما يعطيه مقتضى الحال إلى غير ذلك من الأمور التي لا يمكن حصرها ، وجميع ذلك دائر حول الإخبار بالقيام عن زيد، ... وبـــهذا النوع الثاني اختلفت العبارات وكثير من أقاصيص القرآن لأنه يأتي مسار القصص في بعض السور على وجه ، وفي بعضها على وجه آخر وفي ثالث على وجه ثالث، وهكذا ما تقرر فيه من الإخبارات لا بحسب النوع الأول إلا إذا سكت عن بعض التفاصيل في بعض ونص عليه في بعض ، وذلك أيضاً لوجه اقتضاه الحال والوقت. **﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِياً﴾** (مريم:٦٤).

وإذا ثبت هذا ،فلا يمكن من اعتبر هذا الوجه الأخير أن يترجم كلاماً من الكلام العربي بكلام العجم على حال فضلاً عن أن يترجم القرآن ، وينقل إلى لسان غير عربي ، إلا مع فرض استواء اللسانين في اعتباره عيناً ، كما إذا استوى اللسانان في استعمال ما تقدم تمثيله ونحوه ، فإذا ثبت ذلك في اللسان المنقول إليه مع لسان العرب أمكن أن يترجم أحدهما إلى الآخر ، وإثبات مثل هذا بوجه عسير جداً ، وربما أشار إلى ذلك أهل المنطق من القدماء ، ومن حذا حذوهم من المتأخرين ، ولكنه غير كاف ولا مغن في هذا المقام ، وقد نفى ابن قتيبة إمكان ترجمة القرآن ، يعني على هذا الوجه الثاني ، أما على الوجه الثاني فممكن " .[1]

رأي القاضي أبي بكر بن العربي وهو من كبار فقهاء المالكية:
قال: "إن التبيان والإعجاز إنما يكون بلغة العرب، فلو قلب إلى غير هذا لما كان قرآنا، ولا بياناً ،ولا اقتضى إعجازاً" .[2]

رأي شيخ الإسلام ابن تيمية :

يقول:"وأما الإتيان بلفظ يبين المعنى كبيان لفظ القرآن فهذا غير ممكن أصلاً، ولـــهذا كان أئمة الدين على أنه لا يجوز أن يقرأ بغير العربية، لا مع

(١) الموافقات ص٥١،٥٢. (٢) مباحث في علوم القرآن ص ٣١٩.

القدرة عليها ولا مع العجز عنها،لأن ذلك يخرجه عن أن يكون هو القرآن المنــــزل"[1]

الزركشي وترجمة القرآن :

ذكر الزركشي في البرهان الإجماع على عدم جواز قراءته على غير هيئته التي يتعلق بـــها الإعجاز ، يقول : "واستقر الإجماع على أنه تجب قراءته على هيئته التي يتعلق بـــها إعجاز لنقص الترجمة عنه ، ولنقص غيره من الألسن عن البيان الذي اختص به دون سائر الألسنة ، وإذا لم تجز قراءته بالتفسير العربي لمكان التحدي بنظمه،فأحرى ألا تجوز الترجمة بلسان غيره" [2]

رأي السيوطي في ترجمة القرآن:

لا يجوزعند السيوطي وقراءته بغير العربية يقول: "لا يجوز قراءة القرآن بالعجمية مطلقاً ، سواء أحسن العربية أم لا ، في الصلاة أم في خارجها ...ووجه المنع أنه يذهب إعجازه المقصود منه ". [3]

وحكم الترتيب داخل الآية حكمه بين الآيات، وهو ما سوف نتعرض له في الفصل الثاني ،إن شاء الله ونقل السيوطي عن شارح المهذب قوله : " وأما قراءة السورة من آخرها إلى أولها ، فمتفق على منعه ، لأنه يذهب ببعض نوع الإعجاز، ويزيل حكمة الترتيب. قلت -والكلام للسيوطي- وفيه أثر ، أخرج الطبراني بسند جيد عن ابن مسعود ﷺ أنه سئل عن رجل يقرأ القرآن منكوساً ؟ قال ذاك منكوس القلب" .[4]

رأي محمد رشيد رضا :

ذكر صاحب المنار خمسة عشر سبباً في استحالة ترجمة القرآن ومن هذه الأسباب :

---

(١) مباحث في علوم القرآن ص ٣١٩.
(٢) البرهان ، الجزء الأول ، ص٤٦٥.
(٣) الإتقان، المجلد الأول ص٢٣٥.
(٤) المصدر السابق ، المجلد الأول ص٢٣٦

١- إن لنظم القرآن وأسلوبه تأثيراً خاصاً في نفس السامع لا يمكن أن ينقل بالترجمة . لقد أشار صاحب المنار إلى مسألة هامة تترتب على الترجمة وهو ضياع التأثير الصوتي وذلك النغم والإيقاع الناشئ عن هذا الترتيب بين الكلمات، والذي إذا اختل بتقديم أو تأخير فسوف يختفي معه هذا التأثير.[1]
وقال في موضع آخر: " بل نصوا - أي العلماء- على أن في ترتيب حروف الكلمات القرآنية ومراعاة التناسب فيما بينها من الصفات من وجوه الإعجاز ومراعاة التناسب فيما بينها من الصفات من وجوه الإعجاز ما لا يقدر أحد من البشر على الإتيان بمثله، فضلاً عما في ترتيب الكلمات والجمل من اللطائف والأسرار مما لا يحوم حول بيانه لسان أو دركه جنان" .[2]

رأي مناع القطان :

"والترجمة تطلق على معنيين :

أولـــهما : الترجمة الحرفية ، وهي نقل ألفاظ من لغة إلى نظائرها من اللغة الأخرى ، بحيث يكون النظم موافقاً للنظم ، والترتيب موافقاً للترتيب.

ثانيهما: الترجمة التفسيرية أو المعنوية ، وهي بيان معاني الكلام بلغة أخرى من غير تقييد بترتيب كلمات الأصل، أو مراعاة لنظم.

والذين هم على بصر باللغات يعرفون أن الترجمة الحرفية بالمعنى المذكور لا يمكن حصولها مع المحافظة على سياق الأصل ، والإحاطة بجميع معناه ، فإن خواص كل لغة تختلف عن الأخرى في ترتيب أجزاء الجملة ، فترجمة القرآن الحرفية على هذا مهما كان المترجم على دراية باللغات وأساليبـــها وتراكيبـــها تخرج القرآن عن أن يكون قرآناً" [3]

رأي الزرقاني:

"حكم على الترجمة الحرفية بالاستحالة العادية والشرعية ، أما الاستحالة العادية فمن طريقين ، الطريق الأول لأنـــها تستلزم المحال ، وهو الوفاء بجميع معاني القرآن الأولية والثانوية وبجميع مقاصده الرئيسية الثلاثة ، وكلا هذين

---

(١) المنارج ٩ ص ٣٢٨ ج٩. (٢) المنار ج ٩ ص ٣٣٥. (٣) مباحث في علوم القرآن ص٣١٣.

مستحيل ، فالمعاني الثانوية مدلولة لخصائص القرآن العليا التي هي مناط بلاغته وإعجازه، وهي التي لا يمكن تحقيقها بالنسبة لما يفهم من معاني القرآن التابعة، كما أن القرآن آية خارقة ومعجزة غير ممكنة، وكذلك كون القرآن متعبداً بتلاوته ، فإنه لا يمكن أن يتحقق في الترجمة ، لأن ترجمة القرآن غير القرآن قطعاً ، والتعبد بالتلاوة إنما ورد في خصوص القرآن وألفاظه عينها وترتيباته نفسها ، دون أي ألفاظ أو أساليب أخرى ولو كانت عربية مرادفة لألفاظ الأصل وأساليبه". [1]

بحث مقدم إلى الندوة العالمية حول ترجمة معاني القرآن بعنوان ترجمة مالا يترجم:

يقول صاحب البحث الذي رمز لاسمه بحرف س .ا -علي : " إن خبراء الترجمة يرون أن على المترجم إذا ما استعصت عليه الترجمة المباشرة أن يلتزم بروح النص،وأن ينقله بلغة وصور مجازية ، تخلو من الركاكة والغموض،وينقل عن ويليام كوبر في ترجمة قصائد جوتة أنه حين تواجه المترجم مشكلة الترجمة المباشرة من لغة تتعذر ترجمتها بدقة وكفاءة إلى اللغات الأخرى ، فالسبيل عندئذ ليس هو الترجمة ، بل هو استلهام روح النص، والتعبير عنه باستخدام كلمات وعبارات وصور مجازية جديدة بحيث يكون النص مفهوماً إلى اللغة المنقول إليها ، ولا شك في وجود هذه الصعوبة في النص القرآني ، فلغته محكمة ،ومفرداته وتعبيراته رمزية إلى حد بعيد، فلا سبيل إلى محاكاة أسلوبه وطريقة نظمه". [2]

نخلص من كل الآراء السابقة للسابقين والمعاصرين من أهل لغة وخبراء ترجمة ومفسرين وفقهاء وعلماء القرآن أنـــهم اتفقوا على أن الترجمة تكون مستحيلة ، وغير حادثة ،ومن أهم الأسباب لذلك هو النظم وطبيعة الأسلوب للغة وأن الترجمة لا تعني أبداً أن اللغة المنقول إليها هي عين اللغة، المنقول منها

---

(١) مناهل العرفان، الجزء الثاني ص ١٤٤،١٤٥.

(٢) بيان الندوة العالمية حول ترجمة معاني القرآن الكريم، ص٨٢ بحث بعنوان ترجمة ما لا يترجم.

وخاصة لغة القرآن الكريم التي هي سر إعجازه ، وقبل أن أعطي أمثلة للتراجم التي أثرت في أسلوب التقديم والتأخير وما ترتب عليه من إخلال بالمعنى وإفساد للبلاغة وهدم للأسلوب.

وسوف أذكر مثالاً لبيان الأحكام المستفادة من أسلوب التقديم والتأخير،وبيان الأثر المترتب عليه، والذي سوف نتناوله بالتفصيل في الفصول التالية .

يقول الله تعالى:﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ**﴾ (المائدة :٦).

لقد استفاد الفقهاء وجوب الترتيب بين أعضاء الوضوء في الطهارة أخذاً من مخالفة مقتضى الظاهر في ذكر هذه الأعضاء بآية الوضوء ، فأنت ترى أنه -تعالت حكمته- ذكر الرأس وهو ممسوح بين الأعضاء الأخرى ، وهي مغسولة، وكان مقتضى الظاهر أن تتصل المغسولات بعضها ببعض ، وتذكر قبل الممسوح ،أو بعده لأن المغسولات متماثلة ، والعرب لا تفصل بين المتماثلات إلا لحكمة والحكمة هنا هي إفادة وجوب الترتيب بين أعضاء الوضوء في الطهارة على نمط الترتيب المماثل في هذه الآية ،وثمة وجه آخر لاستفادة حكم هذا الترتيب أيضاً ، ذلك أن الآية المذكورة لم تُعْرَض فيها أعضاء الوضوء عرضاً تصاعدياً ولا ترتيباً تنازلياً فلم يبدأ فيها بالأعالي متبوعة بالأسافل ، ولا بالأسافل متبوعة بالأعالي ، بل ذكر فيها عالٍ ثم سافل ، ثم أعلى ثم أسفل ، وذلك خلاف مقتضى الظاهر ، ومثله لا يصدرً في لغة العرب إلا لحكمة ، وما الحكمة هنا فيما نفهم إلا إفادة وجوب الترتيب في الوضوء.

أمثلة لبيان أثر الترجمة على أسلوب التقديم والتأخير :

قوله تعالى: ﴿**وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِ**﴾ (الأنفال :١١).

Il fit descendre sur vous de l´eau du ciel afin de vous purifie

وننـــزل عليكم ماءً من السّماء ليطهّركم به .تغير المعنى بعد الترجمة فإن تقديم كلمة {**السماء**} على المفعول به للفت الأذهان إلى قدرة الله الذي أنزل عليهم الماء معجزة من حيث لم يحتسبوا ، فكان الأمر يستدعى لفت الأذهان

إلى قدرة المنــزِّل وليس إلى المنَزَّل فيكون ذلك أدعى لزيادة اليقين وحسن التوكل ولذا قال :﴿ **وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ** ﴾

sent down water from the sky upon you

وقوله تعالى: ﴿**كونوا قَوَّامِينَ لله شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ**﴾ (المائدة :٨).

Be steadfast witnesses for Allah in equity

المعنى بعد الترجمة كونوا قوامين بالقسط لله شهداء: يؤدي جواز الإنجليزية للتقدم إلى مزج بين {**قوامين**} و{**شهداء**} ، وقد تغير المعنى بعد الترجمة فإن المعنى في الآية [**كونوا قوامين دائماً لله في كل أموركم**] أي ليتكرر ذلك منكم في كل أمر ، فلا يكون قيامكم إلا لله ، ثم طلب منـــهم بعد ذلك أن يشهدوا بالعدل، أما الترجمة فقد صار المعنى فيها كونوا دائماً قائمين بالعدل من أجل الله، وكونوا شهداء، وشتان بين المعنيين . ٠

وقوله تعالى: ﴿**قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَالِمِ الْغَيْبِ**﴾ (سبأ :٣).

بعد الترجمة تصير{**قل بلى وربي عالم الغيب لتأتينكم**}حيث تقدم قوله: { **عالم الغيب** } على جملة جواب القسم { **لتأتينكم** } وقد أدى ذلك التقدم للفصل بين { **عالم الغيب** } وبقية الآية التي تتحدث عن تلك الصفة { **لا يعزب عنه مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا في كتاب مبين** } فجاء الكلام مترابطاً متناغماً في سياق واحد آخذ بعضه بعنق بعض ، بينما ضاع ذلك كله عند التقدم .

وقوله تعالى : ﴿**عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ** ﴾ (الزخرف :٣١).

بعد الترجمة على رجل عظيم من القريتين ،وقد تغير المعنى بعد الترجمة، فإن تقدم { **من القريتين** } على { **عظيم** } في الآية راجع إلى أن العرب لم يكونوا يدينون إلا لرجل من إحدى القريتين -مكة أو المدينة- فذلك الذي لا بد منه ، ثم بعد ذلك يكون ثرياً وذا جاه ، ولا تغني الثانية عن الأولى، ولذلك لم تتقدم في الآية ، بينما تقدمت في الترجمة ليختفي معها سبب التقدم كما ترى.

الملاحظ في المثال الثاني أن الإنجليزية تفضل تقدم المفعول الصري {water}

على غير الصريح   ، بينما الفرنسية تبيح العكس .

وقوله تعالى: ﴿بَلاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾ (البقرة :٤٩).

tremendous trial from your Lord.
Une terrible épreuve de votre Seigneur.
Una gran desgracia de parte de vuestro Seőr.

في التّرجمتين الفرنسيّة والإسبانيّة تقدّمت صفة البلاء "عظيم" ، بينما تأخرّت في الآية القُرآنيّة ، وقد أفاد تقديم الجار والمجرور { من ربكم } في الآية إلى أن هذا البلاء من ربـــهم ولن يكشفه إلا هو فتتعلق القلوب به ، ولذا قدم للاهتمام ليس بصفة البلاء وإنما لمصدر البلاء ، وقد اختفى ذلك المعنى من الترجمة فصار الاهتمام لصفة البلاء وليس للمنسوب إليه.

وقوله تعالى: ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَـةَ﴾ (المؤمنون :٩٦).

repel evil with that which is better.
Repousse la mauvaiseté par ce qui est meilleur.

جاءت التّرجمة في الفرنسيّة بتقديم الـــمفعول به " السّيئة " على الجار والمجرور " بالّتي هي أحسن" لتصير التّرجمة ﴿ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةَ ﴾وهو نفس التّغيير الحادث في اللّغة الإسبانيّة.

إن تقديم قوله: {بالتي هي أحسن} لبيان الاهتمام بنوع الدفع وإنه ينبغي أن يكون بالتي هي أحسن ، أما تقديم ادفع السيئة كما في الترجمة، فإنه يتغير معه المعني ليكون الاهتمام بالدفع أياً كان نوعه، والفارق بينـــهما واضح جداً.

يفصل بيرك بين العنصرين

وفي نقل﴿إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعاً الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ (الأعراف :١٥٨) .

يتحول العنصر المؤخر إلى بدل ، كما في الفرنسية ، أي

1 - Je suis un Envoyé de Dieu à vous tous ensemble، Lui quì possède le royaume des cieux et de la terre {Berque}

2 -Dis : « hommes! Je suis pour vous tous le messager d´Allah،à qui appartient la royauté des cieux et de la terre.

بعد التّرجمة إلى اللّغة الفرنسيّة تصير : " قُل يا أيُّها النّاس ، إنّي إليكم جميعًا رسول الله ، الّذي له مُلك السّموات والأرض، وقد أحدث تغيير التأخير لـــ{رسول الله} الاهتمام بذكر المرسل إليهم ، بينما تقديم قوله{رسول الله} لبيان الاهتمام بالرسالة ولذا بدئ بـــها .

أو إلى استئناف وجملة اعتراضية كما في الإنجليزية ، أي :

{the messengter} …I am the messenger of Allah to you all
of Him to whom belongeth the Sovereignty of the heavens and the earth {Pickthall}

أما في الآية ﴿ **وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَادِهِمْ شُرَكَاؤُهُمْ**﴾ (الأنعام:١٣٧).

فإن تقديم الفاعل في الترجمة قد يحدث ارتباكاً بخصوص إعادة الضمير في {**أولادهم**} أي على {**شركاء**} لا على {**المشركين**}.

أما الفرنسية ، فتحول المبني للمعلوم إلى مبني للمجهول مع جملة اعتراضية:

إلا أن المقصود من التركيب هو {**وكذلك زين شركاء كثير من المشركين قتل أولادهم ليردوهم**} .

Thus have their {so-called} partners {of Allah} made the killing of their children to seem fair to many of the idolaters Pickthal}.

1 - De même ،aux yeux de beaucoup d'associants se partent ،du fait de leurs associés ،le meurtre de leurs enfants {Berque}
2 - Et C´est ainsi que leurs divinités ont enjolivé à beaucoup d´associations le meurtre de leurs enfants

وفي ترجمة الفرنسيّة الثّانية للسّعوديّة " فإنّ الفاعل تقدّم على المفعول لتُصبح الجملة ، وكذلك الشّركاء زيّنوا للعديد من الـــمُشركين قتل أولادهم، إن تقديم الفاعل في الترجمة الفرنسية قد أخل بقصد التشويق الذي من أجله أخر في الآية حيث يشتاق القارئ لمعرفة من فعل ذلك التزيين ليأتي الجواب في نـــهاية الآية رادًا على ذلك التساؤل.

وهناك مطابقة تامة بين العربية ولغة أخرى في بعض الحالات مثل المفعول به والجملة الشرطية ، كما في الأمثلة التالية ، مع الاستعانة ببعض الآليات الأسلوبية كعلامات الترقيم :

﴿وَنُوحاً هَدَيْنَا﴾ (الأنعام :٨٤).

1-Et Nohe ،nous l'avons guidé.

2-Et Noé ،Nous l´avons guidé auparavant [1]

تقدّم الظّرف { من قبل } في التّرجمتين على الجُملة الفعليّة لتصير " ونوحًا نحن من قبلُ هديناهُ ، فيضيع الاهتمام بتقديم ذكر الهداية الذي هو لبيان عظيم العناية ولهذا جاء في البداية .

﴿ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ (الصف :١١)

Allah has more right that you should fear Him: if you are believers

1 – En qui réside pour vous un bien: pour peu que vous sachiez.

2 – Et cela vous est bien meilleur ،si vous saviez! [2]

تصير بعد التّرجمة { ذلكم لكم خيرٌ إن كنتم تعلمون } بتقديم الجار والمجرور { لكم } على الخبر { خير } حيث أفاد هذا التقديم بعد الترجمة الاختصاص أو العناية وكلاهما غير مقصود ، إذ إن تقديم { خير } لبيان الاهتمام بالعمل سواء قاموا به هم أم قام به غيرهم فتقديم { خير} لبيان الاهتمام به والحرص على الإتيان به.

That is best for you: if you but knew.

﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْماً آخَرِينَ﴾(الأنبياء: ١١) .

Cuantas ciudades que eran injustas arrasamos، dando origen despues a otra gente? [3]

vernet ،traduccion y notas de Cuantas ciudades impias hemos arrrinando [4] ،suscitando despues a otros pueblo

(1)Traduction du Coran faite en Arabie Saudite .
(2)tradction du coran faite en arabie saudite.
(3)Juan vernet ،El Coran. Introduccion.
(4)Melara Navio ،Abdelgani ،El noble Coran ،Complejo.

2 - Et que des cités qui ont commis des injustices ،Nous avons brisé; et Nous avons créé d'autres peuples aprés eux. (1)

صارت بعد الترّجمتين الإسبانيّة والفرنسيّة " وكم من قرى ظالـمة قصمناها وأنشأنا قومًا آخرين بعدها.

لقد أحدث تأخير الجملة الفعلية {**قصمنا**} وتقديم الجار والمجرور {**من قرية**} عليه قد غير المعنى ليكون المراد منه بيان كثرة القرى الهالكة ، بينما تقديم الفعل قصم في الآية القرآنية ، أعطى من معاني التهديد والتخويف الذي بدئ فيه بالفعل ما فقده عند تأخيره .

﴿وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾(البقرة :١٢٤).

Y cuando Tu. Senor puso apruebas a Ibrahim con palabras que este cumpli ،le dijo: voy a hacer de ti un dirigente y un ejemplo para los hom bres.
Dijo: y lo haras tambien con descendientes?
Dijo: Mi pacto no alcanza a los injustos.(2)

**** { Et Rappelle toi ، }quand ton seigneur eut eprouvé Abraham par certains commandements، et qu'il les eut accomplis، le seigneur lui dit : « Je vais faire de toi un exemple à suivre pour les gens » .- « Et parmi ma descendance » ? demanda-t-il. - « Mon engagement ،dit Allah ne s'applique pas aux injustes ». (3)

المعنى بعد التّرجمة في الفرنسيّة والإسبانيّة صار: " وإذ ربُّكَ ابتلى إبراهيم بكلمات فأتمهُن ، قال إنّي جاعلُك إمامًا للنّاس .قال ومن ذُرّيتي ، قال " عهدي لا ينالهُ الظّالمون ، لقد أدى تقديم الفاعل {**ربه**} على مفعوله {**إبراهيم**} في الترجمة إلى تغيير المعنى ، حيث قدم {**إبراهيم**} لبيان قصته والإعلام بخبره وما كان منه فهو محور الحديث ، ولهذا بدئ به في الذكر ، كما أن تقديم {**للناس**} على {**إماماً**} لإثبات فضله على كل أهل زمانه ، بينما فقد هذا المعنى في الترجمة ، فلم يظهر منه إلا أنه سوف يكون إماماً للناس .

---

(1)traduction du coran faite en arabie saudite.
(2)merala navio abdelgani
(3)Traduction du Coran faite en Arabie Saudite.

الباب الثاني

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

بعد أن انتهينا من الباب الأول بفصوله الستة ، نأتي إلى الباب الثاني ، والذي يعتبر التطبيق العملي للباب الأول ، وينقسم هذا الباب إلى فصلين:

الفصل الأول: بعنوان أسباب التقديم والتأخير في القرآن الكريم ، حيث أذكر فيه أسباب التقديم والتأخير في القرآن الكريم ، مع التعريف بكل سبب ، وبيان المقصود به و ذكر الأمثلة والشواهد عليه،غير مسهب ولا مستفيض في الشرح والتحليل ، فذلك ما سوف أقوم به إن شاء الله في الفصل الثاني.

الفصل الثاني : حيث أبين علاقة التقديم والتأخير بكل أنواعها من حيث افتتاح السور القرآنية حيث أقوم بذكر العلاقة بين السور بعضها البعض متحدثاً عن سر الترتيب بينها وبين السور بعضها البعض وبين أسباب التقديم والتأخير في آيات القرآن الكريم ناظراً وباحثاً في طبيعة التركيب من حيث التقديم والتأخير ، في ضوء ما قدمته من أسبابه في الفصل الأول ، وسوف يتناول التحليل كل ما يتعلق بالأسلوب من أسباب بلاغية أو عقدية أو تفسيرية أو فقهية إلخ ، وسوف يكون سير البحث على ترتيب المصحف أي مبتدئاً بسورة الفاتحة مختتماً بسورة الناس ، ولقد كان اعتمادي بشكل أساسي في الفصل الأول على كتاب البرهان للزركشي ، حيث إنه أوفى وأجمع ما رأيت في هذا الباب ، ولا نجد عالماً قد أتى بمثل ما جاء به الزركشي ، حتى السيوطي في إتقانه كان ناقلاً نقلاً حرفياً لما كتبه الزركشي في برهانه من قبل، ومع اعتمادي لتقسيم الزركشي -رحمه الله- والذي قد أحسن وأجاد في جمعه لأسباب التقديم والتأخير ، إلا أنني لم أتفق معه في بعض الأسباب التي ذكرها والتي تبعه فيها السيوطي تقليداً ، وهو ما سوف نبينه في الفصل الخاص بعملية تحليل الأسلوب في القرآن الكريم .

الفصل الأول

هذا الفصل يتكون من مبحثين
المبحث الأول : أنواع التقديم والتأخير
المبحث الثاني : أسباب التقديم والتأخير

المبحث الأول : أنواع التقديم والتأخير

أما بالنسبة لأنواع التقدم والتأخير فإن التوافق في القرآن الكريم ليس محصوراً بين سوره فقط ، أو بين آياته فتتلو الواحدة منها الأخرى وتتعانق معها، بل إن التوافق كذلك موجود بين كل كلمة والتي تليها في نفس الآية، وكذلك بين مقدمة الآية وختامها ، حيث يرد الختام على هيئة تعقيب مناسب يتلاءم تمام التلاؤم مع المعاني المحتواة في الآية نفسها ، وهناك التوافق بين السور بعضها البعض وهو ما سوف نبينه في أول كل سورة لبيان ارتباطها بسابقتها، بما يثبت بغير عناء إعجاز القرآن في نظمه وأسلوبه الذي جاء على غير مقدور البشر، وكما يقول الدكتور محمد عبد الله دراز وهو يتحدث عن قصور البلغاء أن يصلوا إلى كمال في عملهم الأدبي: " وآية ذلك أنك تراه حين يتعقب كلام نفسه في الفينة بعد الفينة يجد فيه زائداً يمحو ، وناقصاً يثبته ، ويجد فيه ما يهذب ويبدل وما يقدم أو يؤخر ، حتى يسلك سبيله إلى النفس سوياً ولعله لو رجع إليه سبعين مرة لكان له في كل مرة نظرة ، وكلما كان أنفذ بصراً وأدق حساً ، كان أقل في ذلك قناعة وأبعد هماً إذ يرى وراء جهده غاية هي المثل الأعلى الذي يطمح إليه ولا يطاوعه والكمال البياني الذي يتعلق به خياله ولا يناله { **كباسط كفيه إلى الماء ليبلغ فاه وما هو ببالغه** }[1]

---

(١) النبأ العظيم ، نظرات جديدة في القرآن ، ص ١١٠،١١١.

أولاً : فواتح السور:

وقد يخيل للبعض أن ذلك العنوان مقحمٌ على التقديم والتأخير، وهذا غير صحيح .

إذ إن افتتاح السورة وابتداءها ما هو إلا تقديم لمعنى يراد البداءة به رأس السورة وقبل أن أدخل في أنواع الاستفتاح ، أحب أن أؤكد بأن فواتح السور تقابل في الشعر ما يسمى بحسن الابتداءات أو براعة الاستهلال ، أي حسن ابتداء الشاعر لقصيدته وإجادته فيها ، وقد وازن النقاد كثيراً بين الشعراء في ابتدائهم قصائدهم وقد وضع ابن أبي الأصبع في التحرير باباً بعنوان { **حسن الابتداءات** } ونقل عن ابن المعتز موازنته بين بيت امرئ القيس :

قفا نبْكِ منْ ذكرى حبيب ومنـــزل بسقْط اللّوى بين الدَّخُول فحَوْمَل [1]

حيَث رأى أن ابتداءَ امرئ القَيسَ على تقدمه وكثرة معاني ابتداءاته متفاوت القسمتين ، ويرى أن صدر البيت جمع عذوبة اللفظ وسهولة السبك وكثرة المعاني بالنسبة إلى العجز ما لم يجمع العجز إلى أن يقول : فبيت النابغة أفضل من جهة ملاءمة ألفاظه ومساواة قسمية ويقصد بيت النابغة :

كِليني لهمٍّ يا أميمةُ ناصب وليلٍ أقاسيه بطيءِ الكواكبِ [2]

ومن جيدَ ابتداءات المولدين قول أبي نواسٍ :

خليلَّي هذا موقفٌ منْ متَيَّمِ فعُوجا قليلاً وانظراه بُسلَّمِ [3]

ثم يقول : فإذا وصلت إلى قول البحتري :

بودي لو يهوى العذولُ ويعشقُ ليعلمَ أسبابَ الهوى كيف تَعلقُ [4]

وصلت إلى الغاية التي لا تدرك .

ثم يقول : وأكثر ابتداءات أبي العلاء تأتي على نسق الصواب كقوله :

يا ساهرَ البرقِ أيقظْ راقدَ السمَرِ لعلَّ باجزعِ أعواناً على السهرِ [5]

وكقوله:

طرِبْن لضَوءِ البارقِ المتعالي ببغدادَ وهنا ما لهنَّ ومالي [6]

---

(١) امرئ القيس ، ديوانه الشعري ص١١٠.

(٢) النابغة الذبياني شاعر المدح والاعتذار ص٧٢.

(٣) البحتري ديوانه الشعري ج١ص١٤٣.

(٤) أبو نواس ، ديوانه الشعري ص٤٩٣.

(٥) أبو العلاء المعري ، ديوانه الشعري -سقط الزند- ص٣٦.

(٦) أبو العلاء المعري ديوانه الشعري - سقط الزند ص.

وأقول: ليس من شك أن افتتاح القصيدة إنما هو عنوان القصيدة ومدخلها الصحيح الكريم أو الضعيف السقيم ويتفاوت فيه الشعراء بين موفق وملفق .

أنواع استفتاح السور القرآنية:

لخص السيوطي أنواع الفواتح التي ذكرها ابن أبي الأصبع في كتابه [**الخواطر السوانح في أسرار الفواتح**] في عشرة أنواع لا يخرج شيء من السور عنها وهي

١- الثناء على الله تعالى بصفات المدح والتنـــزيه عن صفات النقص
٢- حروف التهجي. ٣- النداء. ٤ - الجمل الخبرية. ٥- القسم.
٦- الشرط . ٧-الأمر. ٨- الاستفهام. ٩-الدعاء . ١٠- التعليل. [١]

وقسمها الدكتور عدنان زرزور إلى أربعة أنواع والنقل عن السيوطي في **ذلك** بين واضح.

١- الاستفتاح بالثناء على الله تعالى والثناء قسمان : إثبات لصفات المدح ونفي وتنـــزيه عن صفات النقص ، والإثبات نحو {**الحمد لله**} و{**تبارك**} والتنـــزيه نحو {**سبحان الذي أسرى**}{**سبح اسم ربك**} وقد ورد الاسفتاح بالثناء في أربع عشرة سورة نصفها لثبوت صفات الكمال ونصفها لسلب صفات النقص.

٢- الاستفتاح بالنداء وقد جاء في عشر سور،خمس في نداء النبيﷺوخمس في خطاب الناس ، ثلاث من الأولى بـــ {**يا أيها النبي**} والنداءان الآخران بـــ{ **يا أيها المزمل**} و{**يا أيها المدثر**} وفي خطاب المكلفين ثلاث بـــ{ **يا أيها الذين ءامنوا** } واثنتان بـــ{**يا أيها الناس**}.

٣- الاستفتاح بالجملة الخبرية : في ثلاث وعشرين سورة بالقسم في خمس عشرة سورة ، وبالشرط في سبع سور، وبالـــمر في ست سور، وبالاستفهام في ست سور، وبالدعاء في ثلاث سور ، وبالتعليل في موضع واحد.

---

(١) الإتقان ج٢ص ٢٢٨ ،٢٢٩.

٤- الاستفتاح بالحروف المقطعة أو بحروف التهجي في تسع وعشرين سورة .[١] لم يذكر الدكتور عدنان حكم البداءة والاستفتاح لما ذكر ، وأنا أذكر ذلك مبيناً العلاقة بين الاستفتاح وبين السورة وما هو الرابط بينـــهما ولماذا بدأت به.

فأقول:

- أما السور التي بدأت بالثناء على الله تعالى بإثبات صفات المدح فقد بدأت بذلك للأسباب التالية :

الدعوة إلى توحيده وإفراده بالعبادة والتوجه له وحده في طلب الاستعانة مثال ذلك : فاتحة الكتاب ، سورة الأنعام ، دعوة للإيمان بالقرآن معجزة من عند الله كسورة الكهف دعوة للإيمان بمحمد ﷺ كسورة الفرقان ، بيان قدرة الله على المكذبين بإهلاكهم في الدنيا وتعذيبـــهم في الآخرة كسورة سبأ ، لفت الأنظار والبصائر إلى صفات الربوبية والخلق والإبداع وصفات الرحمة وتعدد النعم كسورة فاطر وسورة الأعلى .

- السور التي بدأت بالتنـــزيه عن صفات النقص ، فقد كان موضوع السورة يدور حول الحديث عن أمر عظيم خارق للعادة ، نفي بعض صفات السلب في صلب السورة كقولهم الملائكة بنات الله نفيهم لقدرة الله في البعث والإعادة ، تحديهم للنبي ﷺ وطلب المعجزات ، مثال ذلك سورة الإسراء ، تنـــزيه لله عن افتراءات بعض أهل الكتاب كسورة الحشر أو تكذيبـــهم لما جاء به محمد ﷺ كسورتي الصف والجمعة ، استغناء الله عن خلقه أجمعين فلا ينفعه إيمان المؤمنين ولا يضره تكذيب المعاندين ، ومنه سورة التغابن.

- السور التي افتتحت بنداء النبي ﷺ فهي لأمر أو نـــهي أو توجيه وإرشاد للنبي ﷺ من ذلك سورة الأحزاب، أمر بتقوى الله وعدم طاعة الكافرين والمنافقي، النهي عن التبني، التذكيربأخذ الميثاق أوامر يبلغها لأزواجه وبناته ولنساء المؤمنين، بيان ما أباحه الله له من النساء ، بيان حكم الطلاق وعدته، سورة الطلاق، عتاب في تحريم ما لم يحرمه الله ، سورة التحريم الأمر بالقيام بأعباء الدعوة وبعض العبادات ، المزمل والمدثر.

---

(١) علوم القرآن، مدخل إلى تفسير القرآن وبيان إعجازه ، ص١٥١-١٥٢.

٥- الاستفتاح بالجملة الخبرية كالقسم وذلك لتأكيد أمر عظيم للتصديق به مثل سورتي الذاريات والنازعات لتأكيد وقوع يوم القيامة وما فيه من تعذيب الله للكافرين تأكيد وقوع العذاب على الكافرين في الآخرة ، ومنه سورة الطور والمرسلات ، نفي الضلالة عن رسول الله وإثبات أن ما جاء به حق وصدق ومنه سورة النجم ،القسم على القدرة على البعث بعد الموت ومنه سورة القيامة ، قدرة الله على تعذيب المكذبين في الدنيا ومنه سورة الفجر وسورة البلد ، تأكيد الخبر بفلاح المؤمنين وخسارة الكافرين ومنه سورتا الشمس والليل، تأكيد منــــزلة رسول الله ﷺ عند ربه ونفي شبهة المشركين بترك الله له ومنه سورة الضحى ، القسم على نعمة الخلق السوي ومجازاة المؤمن والكافر كل بعمله ومنه سورة التين .

الاستفتاح بالحروف المقطعة ، نجد أن الحديث بعدها غالباً عن القرآن وإعجازه ، وأنه من عند الله رب العالمين ، وأنه مؤتلف من حروف هي التي منها بناء كلامهم ليكون عجزهم عنه أبلغ في الحجة عليهم إذ لم يخرج عن كلامهم ، ومن ذلك سورة البقرة { **الم**} بعدها الحديث عن القرآن { **ذلك الكتاب لا ريب فيه** } سورة آل عمران {الم} بعدها {الله لا إله إلا هو الحي القيوم نزل عليك الكتاب بالحق وأنزل التوراة والإنجيل} سورة الأعراف {المص} وبعده { **كتاب أنزل إليك فلا يكن في صدرك حرج منه لتنذر به وذكرى للمؤمنين**} سورة يونس{**الر**} بعدها { **تلك آيات الكتاب الحكيم**} سورة هود { **الر** } وبعدها { **كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير**} سورة يوسف { **الر**} وبعدها { **تلك آيات الكتاب المبين**} سورة الرعد { **المر** } وبعدها { **تلك آيات الكتاب والذي أنزل إليك من ربك الحق ولكن لأكثر الناس لا يؤمنون**} سورة إبراهيم { **الر**} وبعدها { كتاب أنزلناه إليك لتخرج الناس من الظلمات إلى النور } سورة الحجر{ **الر**} وبعدها{ **تلك آيات الكتاب وقرآن مبين**} سورة مريم {**كهيعص**} وبعدها { **ذكر رحمة ربك عبده زكريا**} سورة طه { **طه**} وبعدها { **ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى** } سورة الشعراء { **طسم** } وبعدها { **تلك آيات الكتاب المبين**} سورة النمل { **طس** } وبعدها { **تلك**

آيات القرآن وكتاب مبين} سورة القصص { طسم} وبعدها { تلك آيات الكتاب المبين} سورة لقمان { الم} وبعدها { تلك آيات الكتاب الحكيم} سورة السجدة { الم } وبعدها{ تنــزيل الكتاب لا ريب فيه من رب العالمين} سورة يس { يس } وبعدها { والقرآن الحكيم} سورة ص {ص} وبعدها { والقرآن ذي الذكر} سورة غافر {حم} وبعدها{تنــزيل الكتاب من الله العزيز العليم} سورة فصلت {حم} وبعدها {تنــزيل من الرحمن الرحيم} سورة الشورى {حم عسق} وبعدها {كذلك يوحي إليك وإلى الذين من قبلك الله العزيز الحكيم} سورة الزخرف{حم} وبعدها {والكتاب المبين} سورة الدخان {حم} وبعدها {والكتاب المبين} سورة الجاثية {حم} وبعدها { تنــزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم} سورة الأحقاف {حم} وبعدها {تنــزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم} سورة ق {ق} وبعدها {والقرآن ذي الذكر} سورة القلم {ن} وبعدها {والقلم وما يسطرون . ما أنت بنعمة ربك بمجنون} والنعمة المقصودة هنا هي القرآن الكريم.

ثانياً : خواتيم السور :

يتناسب ختام السورة القرآنية مع موضوع السورة العام ، فإما أن يكون عظة والعبرة لما سبق ، أو حكمة مستفادة ، أو أمر أو نــهي ، أو تفكر وتبصر ،أو تمهيد لسورة جديدة ، و كما يقول الدكتور أمير عبد العزيز:" ولاجرم بعد ذلك كله أن نجد الآية الخاتمة حاسمة في إنــهاء السورة ليتسنى الانتقال إلى مرحلة جديدة عبر سورة أخرى تتلو سابقتها ، وذلك في غاية من كمال التعبير المؤثر الذي يقع في ختام السورة مكن خلال آية الختام المناسبة الفعالة الحاسمة ".[1]

ثالثاً : الترتيب في الآية الواحدة :

الناظر في آيات القرآن يجد ذلك التلاحم والترابط بين آياته ، بل كل كلمة إنما رتبت لغاية ووضعت لتؤدي معنى وهدف ، فلا تنافر ولا انفصام

---

(١) دراسات في علوم القرآن ، ص ٢٧٧.

ولا تشتيت للمعنى وهذا الترتيب يشكل مع النوع الثالث - الترتيب بين الآيات بعضها البعض الشطر الأكبر والأعظم الذي تدور حول إثباته الرسالة ، يقول الشيخ محمد العفيفي: "واستخلاص مقاصد القرآن من كثرة أنواع المفردات القرآنية وكثرة مواضعها يتم بالصبر والاجتهاد ولذلك كله نتيجة كبرى هي الفقه ، فلا شك أن الفقه في حقيقته لا يتم لأحد إلا إذا تدرب تدريباً متواصلاً على النظر في مفردات القرآن ."(١)

رابعاً : **خواتيم الآيات** :

وهي الفواصل ، والفاصلة كما عرفها السيوطي : [**كلمة آخر الآية**] كقافية الشعر وقرينة السجع ، ونقل عدة تعاريف أخر لها: ، منها تعريف الداني: كلمة آخر الجملة.

وعرفها القاضي أبو بكر: " الفواصل حروف متشاكلة في المقاطع يقع بـــها إفهام المعاني "(٢) وتأتي الفاصلة دائماً مناسبة لمعنى الآية التي ختمت بـــها ، وإن كان البعض حاول أن يجعلها كالسجع وهذا ما سوف نوضحه في معرض الحديث عن التقديم والتأخير في قوله تعالى: { **رب هارون وموسى**}من سورة{**طه**}

ذكر السيوطي عن ابن الصائغ قوله : "وقد تتبعت الأحكام التي وقعت في آخر الآي مراعاة للمناسبة ، فعثرت منها على نيف عن الأربعين حكماً ".

وسوف أذكر منها ما يتعلق بموضوع التقديم والتأخير :

- **أولاً** : تقديم المعمول على العامل نحو{**أهؤلاء إياكم كانوا يعبدون**} قيل ومنه {**إياك نعبد وإياك نستعين**} أو على معمول آخر أصله التقديم نحو {**لقد جاء آل فرعون النذر**} ومنه تقديم خبر كان على اسمها نحو { **ولم يكن له كفواً أحد**}.
- **ثانياً** : تقديم ما هو متأخر في الزمان نحو { **فلله الآخرة والأولى**} ولولا مراعاة الفواصل لقدمت الأولى كقوله: { **له الحمد في الأولى والآخرة** } .

(١) القرآن الفصل بين كلام الله وكلام البشر، ص ١٢٠.

(٢) الإتقان ج٢ ص ٢٠٩.

- **ثالثاً** : تقديم الفاضل على الأفضل نحو { **برب هارون وموسى** } وتقدم ما فيه.
- **رابعاً** : تقديم الضمير على ما يفسره نحو{**فأوجس في نفسه خيفة موسى**}
- **خامساً** :تقديم الصفة الجملة على الصفة المفردة نحو{ **ونخرج له يوم القيامة كتاباً يلقاه منشوراً** }[1]

خامساً : الترتيب بين الآيات بعضها البعض :

يأتي التقديم والتأخير بين الآيات القرآنية تبعاً للمعنى المقتضي للتقديم ، وقد يكون في كل واحد من الشيئين صفة تقتضي التقدم فحينئذ يكون الترجيح لأهمها في ذلك المحل وإن كانت الأخرى أهم في محل آخر ، ومن هنا تأتي أهمية النظر والتبصر في السياق الذي جاء مختلف الترتيب من موضع لآخر، ولابد من سبب يستخرج ، فما خولف الترتيب إلا لحكمة ، وقد أحسن البقاعي والإسكافي في الإجابة عن كثير من هذه التساؤلات.

قال السيوطي: [**قاعدة**] قال بعض المتأخرين : الأمر الكلي المفيد لعرفان مناسبة الآيات في جميع القرآن هو أنك تنظر الغرض الذي سيقت له السورة ، وتنظر ما يحتاج إليه ذلك الغرض من المقدمات ، وتنظر في مراتب تلك المقدمات في القرب والبعد من المطلوب، وتنظر عند انجرار الكلام في المقدمات إلى ما يستتبعه من استشراف نفس السامع إلى الأحكام واللوازم التابعة التي تقتضي البلاغة شفاء الغليل بدفع عناء الاستشراف بالوقوف عليها "[2]

سادساً : الترتيب بين السور :

جاء ترتيب السور القرآنية كما هي الآن في المصحف الشريف ترتيباً غاية في المناسبة وعجباً في التلاحم ، مع أن السور قد اختلفت في الترتيب الزماني ، فجاء هذا الترتيب مخالفاً له غير متوافق مع ترتيب نزوله ، وبغض النظر عن كون هذا الترتيب توقيفياً – وهو ما نميل إليه – أو اجتهادياً ، فإن

---

(١) الإتقان ج٢ ص٢١٤.

(٢) الإتقان ج٢ ص٢٣٩.

الترتيب لا يخلو من حكم وفوائد سوف نبينها في مطلع كل سورة ، وعلاقتها بما قبلها ، وما أعظم قول السيوطي : " وفصل الخطاب أنـــها على حسب الوقائع تنـــزيلاً وعلى حسب الحكمة ترتيباً وتأصيلاً " .[1]

المبحث الثاني أسباب التقديم والتأخير في القرآن الكريم

- **السبب الأول :**

التقديم والتأخير كما يقتضيه الأصل ولا مقتضى للعدول عنه. كتقديم الفاعل على المفعول ، والمبتدأ على الخبر ، وصاحب الحال عليها نحو جاء زيد راكباً ، وليس هذا التقديم هو مجال بحثنا .

- **السبب الثاني :**

عدم الإخلال ببيان المعنى .

ويقصد به رفع الإشكال عن المعنى الظاهر ، فإذا ما عُرِف أنه من باب التقديم والتأخير زال الإشكال.

ومِن ذلك قول الله تعالى:﴿ **فَلاَ تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلاَ أَوْلادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللّهُ لِيُعَذِّبَــهم بِـــها فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا**﴾ (التوبة :٥٥).

هذا من تقاديم الكلام يقول: لا تعجبك أموالهم ولا أولادهم في الحياة الدنيا إنما يريد الله ليعذبـــهم بـــها في الآخرة . وأخرج عنه أيضاً في قوله تعالى: ﴿ **وَلَوْلا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَكَانَ لِزَاماً وَأَجَلٌ مُّسَمًّى**﴾ (طه : ١٢٩)، قال هذا من تقاديم الكلام ، يقول لولا كلمة وأجل مسمى لكان لزاماً . وأخرج عن مجاهد في قوله تعالى: ﴿**أَنزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُ عِوَجاً قَيِّماً** ﴾ (الكهف : ١) قال هذا من التقديم والتأخير أنزل على عبده الكتاب قيما ولم يجعل له عوجا .[2]

ومنه قوله تعالى: ﴿**وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ**﴾(غافر :٢٨) فإنه لو أخر قوله: {**من آل فرعون**} فلا يفهم أنه منـــهم .

---

(١) الإتقان ج٢ ص٢٣٥.

(٢) الإتقان المجلد الثاني ص٢٦.

ومنه قوله تعالى:﴿وَقَالَ المَلأُ مِن قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِلِقَاءِ الآخِرَةِ﴾ (المؤمنون :٣٣) بتقديم الحال {من قومه} على الوصف {الَّذين كفروا} ولو تأخر لتوهم أنه من صفة الدنيا، لأنـــها هاهنا اسم تفضيل ، من الدنو وليست اسماً ، والدنو يتعدى بـــ {من} وحينئذ يشتبه الأمر في القائلين أهمْ : من قومه أم لا ؟ فقدم لاشتمال التأخير على الإخلال ببيان المعنى المقصود ، وهو كون القائلين من قومه . وحين أمن هذا الاختلال بالتأخير قال تعالى في موضع آخر من هذه السورة:﴿ فَقَالَ المَلأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ مَا هَذَا إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ ﴾ (المؤمنون : ٢٤) [(١)]

- **السبب الثالث :**

التقديم لمشاكلة رءوس الآي أو ما يسمى رعاية الفاصلة :

من ذلك قوله تعالى:﴿ فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُّوسَى ﴾ (طه :٦٧) فإنه لو أخر في {نفسه} عن {موسى} ، فات تناسب الفواصل ، لأن قبله ﴿ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى ﴾ (طه :٦٦) ،وبعده ﴿ إِنَّكَ أَنْتَ الأَعْلَى ﴾ (طه : ٦٨) وهذا السبب الذي ذكره الزركشي في برهانه وتابعه عليه السيوطي لا نوافق عليه للأسباب التي سوف أوردها في ذلك عند الحديث عن الآية التاسعة من سورة طه: **{ فأوجس في نفسه خيفة موسى }**

- **السبب الرابع :**

التأخير لمناسبته لما بعده :

كما في قوله تعالى:﴿ وَتَغْشَى وَجُوهَهُمُ النَّارُ ﴾ (إبراهيم :٥٠) فإن تأخير الفاعل عن المفعول لمناسبته لما بعده وهو قوله تعالى:﴿ لِيَجْزِيَ اللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الحِسَابِ ﴾ (إبراهيم :٥١) فالنار هي جزاء كفرهم ولهذا أخرت لتناسب { ليجزيَ اللهُ} في بداية الآية التي تليها.

- **السبب الخامس :**

التقديم للعظمة والاهتمام :

وذلك أنه من عادة العرب الفصحاء ، إذا أخبرت عن مخبَر ما ، وأناطت به حكماً أو علقت به وصفاً وقد يشركه غيره في ذلك الحكم ، أو فيما أخبر

---

(١) البرهان ، المجلد الثالث ص٢٧٤ ص٢٧٥.

به عنه وقد عطفت أحدهما على الآخر بالواو المقتضية عدم الترتيب فإنـــهم يبدأون بالأهم والأولى ولو كانا جميعاً محل اهتمام واعتناء .
ومن ذلك قول الله تعالى:﴿ **وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ**﴾ (البقرة :٤٣) فبدأ بالصلاة لأنــها أهم.
وقال سبحانه وتعالى:﴿ **وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ** ﴾ (التغابن : ١٢) .
وقال تعالى :﴿ **إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ** ﴾ (الفاتحة :٥).
فقدم العبادة للاهتمام بـــها ، فهي مطلوب الله ، والاستعانة مطلوب العبد .

- **السبب السادس:**

أن يكون الخاطر ملتفتاً إليه ،والهمة معقودة به:

ومن ذلك قول الله تعالى:﴿ **وَجَعَلُوا لِلَّه شُرَكَاءَ**﴾ (الأنعام : ١٠٠)
بتقديم لفظ الجلالة - الجار والمجرور - على المفعول الأول ، لأن الإنكار متوجه إلى الجعل لله ، لا إلى مطلق الجعل .

- **السبب السابع :**

التبكيت والتعجب:

ومن ذلك تقديم المفعول الثاني على الأول في قوله تعالى: ﴿ **وَجَعَلُوا لِلَّه شُرَكَاءَ الْجِنَّ** ﴾(الأنعام :١٠٠) والأصل { **الجن شركاء** } وقدم، لأن المقصود هنا التوبيخ على اتخاذ الشريك، سواء أكان من الجن أم من غيره ، وهذا أبلغ في حصوله وأدل على المقصود.
ومنه قوله تعالى: ﴿ **وَجَاءَ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى**﴾(يس :٢٠) توبيخ لأهل المدينة الكافرين والمعرضين مع قربـــهم من الرسالة والدعوة ، وحصول الإيمان من ساكني الأطراف.[1]

- **السبب الثامن:**

الاختصاص :

وذلك بتقديم المفعول ، والخبر، والظرف، والجار والمجرور ، ونحوها على الفعل كقوله تعالى :﴿**إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ**﴾(الفاتحة :٥) أي نخصك بالعبادة والاستعانة، فلا نعبد غيرك ،ولا نستعين بسواك .

---

(١) البرهان ص٢٧٦.

وقوله:﴿إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ (النحل :١١٤) أي إن كنتم تخصونه بالعبادة ، فلا تعبدون غيره .

وأما التخصيص بالخبر فمن ذلك قول الله تعالى:﴿قَالَ أَرَاغِبٌ أَنْتَ عَنْ آلِهَتِي﴾ (مريم :٤٦) الأصل أأنت راغب .

ومنه قوله تعالى: ﴿وَظَنُّوا أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ اللَّهِ﴾ (الحشر :٢). والأصل وظنوا أن حصونهم مانعتهم من الله .

تقديم الظرف له حالتان ، فإن كان في الإثبات دل على الاختصاص ، كقوله تعالى:﴿إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ﴾ (الغاشية :٢٥-٢٦) . أي أن رجوعهم وحسابهم إلى الله، وليس إلى غيره .

وإن كان في النفي فإن تقديمه يفيد تفضيل المنفي عنه، كما في قوله تعالى:﴿لاَ فِيهَا غَوْلٌ وَلاَ هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ﴾ (الصافات :٤٧) أي ليس في خمر الجنة ما في خمرة غيرها من الغول.

أما تأخير الظرف: فإنه يفيد النفي فقط ،كما في قوله تعالى: ﴿لاَ رَيْبَ فِيهِ﴾ (البقرة :٢)[1]

- السبب التاسع :

السبق بالزمان والإيجاد :

ومنه قوله تعالى:﴿إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ ﴾(آل عمران :٦٨) .

فالنبي ﷺ أفضل من أتباع إبراهيم -عليه السلام- ولكنهم قدموا عليه لوجدهم قبله زماناً .

ومنه قوله تعالى:﴿هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ﴾(الفرقان :٤٧) فالأزواج قبل الذرية وهم سبب لوجودها.

وأما ما قاله الزركشي: "واعلم أنه ينضم إليه - أي مع السبق الزماني الوجودي- التشريف عند قوله تعالى:﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحاً وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ (آل عمران ٣٣) فقوله غير مسلم له وسوف نتناوله بالتفصيل في الفصل التالي .

---

(١) البرهان ،المجلد الثالث ص٢٧٨.

ومن التقديم بالإيجاد السنة قبل النوم في قوله تعالى:﴿**لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ**﴾ (البقرة :٢٥٥) . لأن العادة في البشر أن تأخذ العبد السنة قبل النوم، فجاءت العبارة على حسب هذه العادة أو أنـــها وردت على سبيل التمدح والثناء ، وافتقاد السنة أبلغ في التنـــزيه فبدئ بالأفضل لأنه إذا استحالت عليه السنة فأحرى أن يستحيل عليه النوم .

ومن ذلك تقديم الظلمة على النور كما في قوله تعالى :﴿**وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ**﴾(الأنعام :١) والليل على النهار، ومنه قوله تعالى﴿**وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ**﴾ (الأنبياء : ٣٣)، ومنه تقديم الزمان على المكان ومنه قوله تعالى:﴿**خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ**﴾(الأنعام:١). والموت على الحياة ومنه قوله تعالى:﴿ **الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ**﴾ (الملك :٢) . ومنه التقديم لسبق الوجوب ومنه قوله تعالى:﴿**ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا**﴾ (الحج :٧٧).

- **السبب العاشر :**

التقديم لسبق التنـــزيه:

ومنه قوله تعالى:﴿ **آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ**﴾ (البقرة ٢٥٨) .

- **السبب الحادي عشر :**

التقديم بالذات :

ومنه قوله تعالى: ﴿**مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ**﴾ (النساء :٣) ونحوه ﴿**مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ**﴾ (المجادلة : ٧)

- **السبب الثاني عشر:**

التقديم بالعلة والسببية :

كتقديم العزيز على الحكيم، لأنه عز فحكم ، وتقديم العليم على الحكيم، لأن الإتقان ناشئ عن العلم ، ومن ذلك قوله سبحانه:﴿**قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ**﴾ (البقرة :٣٢) . ومنه قوله تعالى: ﴿**إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ**﴾ (الفاتحة :٥) .قدمت العبادة لأنـــها سبب حصول الإعانة. وقوله :﴿**إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ**﴾ (البقرة :٢٢٢) فإن التوبة سبب للطهارة، وكذا قوله:﴿ **وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ**﴾(الجاثية :٧) وقوله : ﴿**وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُوراً . لِنُحْيِيَ بِهِ بَلْدَةً مَّيْتاً وَنُسْقِيَهُ مِمَّا خَلَقْنَا**

﴿أَنْعَاماً وَأَنَاسِيَّ كَثِيراً﴾(الفرقان :٤٨-٤٩)قدم إحياء الأرض، لأنه سبب إحياء الأنعام والأناسي ، وقدم إحياء الأنعام، لأنه مما يحيا به الناس، بأكل لحومها وشرب ألبانــها .

ومن ذلك قوله سبحانه: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلادُكُمْ فِتْنَةٌ﴾(الأنفال :٢٨).

قدم الأموال من باب تقديم السبب ، فإنه إنما شرع النكاح عند قدرته على مؤونته ، فهو سبب التزويج والتزويج سبب للتناسل ، ولأن المال سبب للتنعيم بالولد ، وفقده سبب لشقائه.

- **السبب الثالث عشر:**

التقديم والتأخير بالمرتبة:

كتقديم سميع على عليم فإنه يقتضي التخويف والتهديد ، فبدأ بالسميع لتعلقه بالأصوات ، وإن من سمع حسك فقد يكون أقرب إليك في العادة ممن يعلم ، وإن كان علم الله يتعلق بما ظهر وما بطن.

وكقوله:﴿غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾(البقرة :١٧٣) فإن المغفرة سلامة، والرحمة غنيمة، والسلامة مطلوبة قبل الغنيمة، وإنما تأخرت في آية سبأ في قوله :{**الرحيم الغفور**}لأنــها منتظمة في سلك تعداد أصناف الخلق من المكلفين وغيرهم، وهو قوله:﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ الرَّحِيمُ الْغَفُورُ﴾ (سبأ : ٢) فالرحمة شملتــهم جميعاً ، والمغفرة تخص بعضاً ، والعموم قبل الخصوص بالرتبة.

وقوله تعالى:﴿يَأْتُوكَ رِجَالاً وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ﴾ (الحج:٢٧) فإن الغالب أن الذين يأتون رجالاً من مكان قريب، والذين يأتون على الضامر من البعيد.[1]

- **السبب الرابع عشر:**

التقديم بالداعية:

كتقدم الأمر بغض الأبصار على حفظ الفروج في قوله تعالى: ﴿ قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ﴾(النور :٣٠) لأن البصر داعية إلى الفرج لقوله ﷺ:{**العينان تزني والفرج يصدق ذلك أو يكذبه**}[2]

---

(١) البرهان ص٢٩١.

(٢) مسند الإمام أحمدج٢ ٣٧٢.

- **السبب الخامس عشر:**

التقديم للتعظيم :

كقوله تعالى:﴿ **وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ** ﴾ (النساء :٦٩) .

وقوله :﴿ **إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ** ﴾ (الأحزاب : ٥٦) .

وقوله:﴿**شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ وَالْمَلائِكَةُ وَأُولُوا الْعِلْمِ**﴾ (آل عمران :١٨).

وقوله: ﴿**إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا**﴾ (المائدة :٥٥).

- **السبب السادس عشر :**

التقديم للشرف وهو أنواع:

شرف الرسالة : كقوله تعالى:﴿**وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلاَ نَبِيٍّ إِلاَّ إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ**﴾ (الحج :٥٢) .
فإن الرسول أفضل من النبي.
وقوله:﴿ **الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ**﴾ (الأعراف :١٥٧) .
وقوله: ﴿ **وَكَانَ رَسُولاً نَّبِياً** ﴾ (مريم :٥٤) .
وجعل الزركشي من هذا النوع شرف الذكورة ، وهذا ما لا نتفق معه فيه ، وسوف يأتي الرد مبسوطاً في الفصل التالي.

شرف الحرية :كقوله تعالى:﴿**الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ**﴾(البقرة :١٧٨) .

شرف العقل: كقوله تعالى:﴿**يُسَبِّحُ لَهُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ**﴾ (النور :٤١) فقدم الاسم الموصول الخاص بالعاقل، وهو[**من**] ثم ذكر غير العاقل وهو الطير.
وكقوله تعالى:﴿ **مَتَاعاً لَّكُمْ وَلأَنْعَامِكُمْ**﴾ (النازعات :٣٣) .

شرف الإيمان: كقوله تعالى:﴿**وَإِن كَانَ طَائِفَةٌ مِّنكُمْ آمَنُوا بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ وَطَائِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُوا** ﴾ (الأعراف :٨٧) .

وكذلك تقديم المسلمين على الكافرين في كل موضع ، والطائع على العاصي، وأصحاب اليمين على أصحاب الشمال.

شرف الحياة: كقوله تعالى:﴿**يُخْرِجُ الحَيَّ مِنَ المَيِّتِ ويُخْرِجُ المَيِّتَ مِنَ الحَيِّ**﴾ (الروم :١٩) .

شرف المعلوم : نحو قوله تعالى:﴿**عَالِمِ الغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ**﴾ (المؤمنون :٩٢) فإن علم الغيبيات أشرف من المشاهدات.

ومنه﴿**سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ**﴾ (الأنعام :٣)﴿**وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ**﴾(التغابن: ٤)

شرف الأعضاء :

كتفضيل القلب على سائر الأعضاء ومنه قوله تعالى:﴿**خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِم وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ** ﴾(البقرة:٧) .

وأما ما ذكره الزركشي من تفضيل السمع على البصر في هذا النوع فهذا أيضاً مما لا نوافقه فيه لما سوف نبينه فيما بعد .

شرف المجازاة :

ومنه قوله تعالى:﴿**مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَن جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلاَ يُجْزَى إِلاَّ مِثْلَهَا**﴾ (الأنعام :١٦٠) .

شرف العموم :

فإن العام أشرف من الخاص ، كتقديم العفو على الغفور ، أي عفو عما لم يؤاخذنا به مما نستحقه من ذنوبنا ، غفور لما أخذنا به في الدنيا ، فتقدم العفو على الغفور لأنه أعم وأخِّرَت المغفرة لأنـها أخص ، ومنه قوله تعالى: ﴿**إِنَّ اللَّه لَعَفُوٌّ غَفُورٌ**﴾ (الحج :٦٠).

شرف الإباحة للإذن بـها:

كقوله تعالى:﴿**وَلاَ تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الكَذِبَ هَذَا حَلالٌ وَهَذَا حَرَامٌ**﴾ (النحل : ١١٦)

الشرف بالفضيلة: كقوله تعالى:﴿ **مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ** ﴾ (النساء :٦٩) وقوله تعالى:﴿ **مُحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَـهُم**﴾ (الفتح :٢٩) وقوله تعالى:﴿**وَلَقَد آتَيْنَا مُوسَى وَهَارُونَ الفُرْقَانَ**﴾(الأنبياء :٤٨) ومنه تقدم جبريل على ميكائيل في قوله تعالى﴿**مَن كَانَ عَدُواً لِّلَّهِ وَمَلائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ**﴾ (البقرة :٩٨) لأن جبريل صاحب الوحي والعلم ، وميكائيل صاحب الأرزاق والخيرات النفسانية أفضل من الخيرات الجسمانية.

ومنه تقديم المهاجرين في قوله تعالى: ﴿لَقَد تَّابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ﴾ (التوبة :١١٧) .

وبدل على فضيلة الهجرة قوله ﷺ:{ لولا الهجرة لكنت امرأ من الأنصار}[(١)]

وبـــهذه الآية احتج الصديق على تفضيلهم وتعيين الإمامة فيهم.

ومنه قوله: ﴿صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيماً﴾(الأحزاب :٥٦) ، فالصلاة أفضل من التسليم، فهي رحمة وثناء وتحلية، والتسليم تطهير من النقص والعيب بالتحلية، والإثبات أفضل من السلب .

وقوله تعالى:﴿آتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ﴾ (البقرة :١٧٧) قدم القريب، لأن الصدقة عليه أفضل من الأجنبي .

ومنه تقديم الوجه: كقوله تعالى:﴿ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ ﴾(المائدة :٦)

وتقديم اليمين على الشمال ، في قوله تعالى: ﴿جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ﴾ (سبأ:١٥) ، وقوله تعالى:﴿عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ﴾ (المعارج :٣٧) .

ومنه تقديم الأنفس على الأموال في قوله تعالى:﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم﴾ (التوبة :١١١).

ومنه قوله تعالى :﴿مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ﴾ (الفتح :٢٧) فإن الحلق أفضل من التقصير في العمرة والحج وقد دعا النبي ﷺ للمحلقين ثلاثاً وللمقصرين مرة .

ومنه تقديم السموات على الأرض كقوله:﴿خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ﴾ (العنكبوت :٤٤)

ومنه تقديم الإنس على الجن ، في قوله: ﴿ قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لاَ يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً﴾ (الإسراء :٨٨)

وقوله: ﴿ فَيَوْمَئِذٍ لاَّ يُسْأَلُ عَن ذَنبِهِ إِنسٌ وَلاَ جَانٌّ ﴾ (الرحمن :٣٩) .

وقوله: ﴿وَأَنَّا ظَنَنَّا أَن لَّن تَقُولَ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى اللَّهِ كَذِباً ﴾(الجن : ٥)

وقوله: ﴿خَلَقَ الإِنسَانَ مِن صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ *وَخَلَقَ الْجَانَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ﴾ (الرحمن :١٤-١٥) .

---

(١) صحيح البخاري ج٥ص ٣٨.

ومنه تقديم السجد على الراكعين،في قوله:﴿ **وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ**﴾ (آل عمران :٤٣) .

ومنه تقديم الخيل على البغال، والبغال على الحمير في قوله:﴿ **وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا** ﴾(النحل :٨) ومنه تقديم الذهب على الفضة في قوله: ﴿ **وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ** ﴾(التوبة ٣٤) .

وفي قوله :﴿**زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ**﴾(آل عمران :١٤).

ومنه تقديم الصوف في قوله : ﴿**وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا**﴾ (النحل :٨٠) .

ولـــهذا احتج به بعض الصوفية على اختيار لبس الصوف على غيره من الملابس.

ومنه تقديم الشمس على القمر في قوله تعالى: ﴿ **الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ**﴾ (الحج :١٨) .

وفي قوله :﴿**وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُـــهم لِي سَاجِدِينَ**﴾ (يوسف:٤)

وقوله :﴿**وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجاً وَقَمَراً مُّنِيراً**﴾ (الفرقان:٦١) .

وقوله تعالى:﴿**جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُوراً**﴾(يونس :٥)

- **السبب السابع عشر:**

الغلبة والكثرة :

كقوله تعالى:﴿**فَمِنْـــهم ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْـــهم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْـــهم سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ**﴾(فاطر:٣٢) .

وقوله:﴿**فَمِنْـــهم شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ**﴾(هود:١٠٥) وقوله:﴿**مِنكُم مَّن يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ الآخِرَةَ** ﴾(آل عمران :١٥٢) ومن هذا النوع، قوله تعالى: ﴿ **وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا**﴾ (المائدة :٣٨) .

فالسرقة في الرجال أكثر منها في النساء ، أما قوله تعالى :﴿ **الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي**﴾ (النور:٢) بتقديم المرأة لأن الزنى فيهن أكثر فهذا غير مسلم به .

ومنه قوله تعالى:﴿ **قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ** ﴾ (النور:٣٠) فتقديم البصر هنا لأنه بريد الزنى.

ومنه تقديم الرحمة على العذاب، ومعظم آي القرآن في حديثها عن الرحمة والعذاب تبدأ بـــها أولاً ثم تذكر العذاب، ومن ذلك قوله : ﴿ **نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ * وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ**﴾(الحجر:٤٩-٥٠)

- **السبب الثامن عشر :**

التقديم لدلالة السياق:

ومنه قوله تعالى:﴿ **وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ** ﴾ (النحل:٦)

لما كان إسراحها وهي خماص ، وإراحتها وهي بطان ، قدم الإراحة لأن الجمال بـــها حينئذ أفخر.

وقوله : ﴿**وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِّلْعَالَمِينَ**﴾ (الأنبياء :٩١) لأن السياق في ذكر مريم في قوله :﴿**وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا**﴾(الأنبياء :٩١) : ولذلك قدم الابن في غير هذا المكان، قال تعالى:﴿**وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً**﴾(المؤمنون: ٥٠)

وقوله :﴿**فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلاً آتَيْنَا حُكْماً وَعِلْماً**﴾ (الأنبياء :٧٩) قدم الحكم على العلم مع أنه لابد من سبق العلم للحكم ، ولكن لما كان السياق في الحكم قدمه، فإنَّ قبلها ﴿**وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ**﴾ (الأنبياء :٧٨) .

ومنه تقديم المحو على الإثبات في قوله:﴿ **يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ**﴾ (الرعد:٣٩) . فإن قبله﴿ **لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ**﴾ (الرعد :٣٨).

وقوله :﴿**وَيَمْحُ اللَّهُ الْبَاطِلَ وَيُحِقُّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ** ﴾ (الشورى :٢٤)

ومنه قوله تعالى : ﴿ **وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ** ﴾ (البقرة :٢٤٥) قدم القبض ، لأن قبله ﴿**مَن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافاً كَثِيرَةً**﴾(البقرة: ٢٤٥) وكان هذا بسطاً ، فلا يناسب تلاوة البسط ، فقدم القبض لـــهذا، وللترغيب في الإنفاق ، لأن الممتنع منه سببه خوف القلة ، فبين أنه هذا لا ينجيه، فإنَّ القبض مقدر ولابد.

- **السبب التاسع عشر:**

مراعاة اشتقاق اللفظ:

كقوله:﴿**لِمَن شَاءَ مِنكُمْ أَن يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ**﴾ (المدثر:٣٧) .

﴿ **عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ** ﴾ (الانفطار:٥).

﴿ **يُنَبَّأُ الإنسَانُ يَوْمَئذ بمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ** ﴾(القيامة :١٣).
﴿**قُلْ إنَّ الأوَّلِينَ وَالآخِرِينَ لَمَجْمُوعُونَ إلَىمِيقَاتِيَوْمٍ مَّعْلُومٍ**﴾(الواقعة:٤٩-٥٠).
﴿ **ثُلَّةٌ مِّنَ الأوَّلِينَ وَثُلَّةٌ مِّنَ الآخِرِينَ** ﴾ (الواقعة ٣٩-٤٠) .
﴿ **وَلَقَدْ عَلِمْنَا المُسْتَقْدِمِينَ منكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا المُسْتَأْخِرِينَ** ﴾ (الحجر :٢٤) .
﴿ **فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلاَ يَسْتَقْدِمُونَ** ﴾ (النحل :٦١).
﴿ **إنَّهُ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ** ﴾ (البروج :١٣).
﴿ **كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ** ﴾ (الأعراف :٢٩).
﴿ **لله الأَمْرُ من قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ** ﴾(الروم:٤) .
﴿ **لَهُ الحَمْدُ فِي الأُولَى وَالآخِرَةِ** ﴾ (القصص:٧٠) .
﴿ **هُوَ الأَوَّلُ وَالآخِرُ** ﴾ (الحديد :٣).
﴿ **فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ** ﴾ (البقرة :٢٢٠).

- **السبب العشرون:**

الحث عليه خيفة من التهاون به:

كتقديم تنفيذ الوصية على وفاء الدين في قوله:﴿ **مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ** ﴾ (النساء:١١).

فإن وفاء الدين سابق على الوصية ، لكن قدم الوصية ، لأنهم كانوا يتساهلون بها بتأخيرها بخلاف الدَّين.

وقوله:﴿ **مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ**﴾ (الشورى:٤٩).

- **السبب الحادي والعشرون:**

الاهتمام به عند المخاطب:

كقوله:﴿ **فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْرُدُّوهَا**﴾(النساء:٨٦)،وقوله:﴿ **وَلِذِي القُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ** ﴾(الأنفال :٤١).

وقوله:﴿ **وَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ**﴾ (النساء:٩٢) فقدم الكفارة على الدية، وعكس في قتل المعاهد ، حيث قال:﴿ **وَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ فَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ**﴾(النساء:٩٢) .

ومنه الاهتمام بالمدح والذم حيث يقدم ذكره على الممدوح ، فقولنا : نعم الرجل زيد أولى من قولنا : زيد نعم الرجل ، فالعرب يقدمون الأهم ، وهم في هذا بذكر المدح والذم أهم.

وأما تقديمه في قوله تعالى: ﴿ **نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ** ﴾ (ص:٣٠) [1]فإن الممدوح هنا نعم العبد هو سليمان-عليه السلام-وقد تقدم ذكره في قوله:﴿ **وَوَهَبْنَا لِدَاوُودَ سُلَيْمَانَ**﴾ [2](ص:٣٠).

- **السبب الواحد والعشرون: للتنبيه عل أنه مطلق لا مقيد:**

كقوله تعالى:﴿ **وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ** ﴾ (الأنعام :١٠٠) على القول بأن لفظ الجلالة في موضع المفعول الثاني لـ{**جعل**} و {**شركاء**} مفعول أول ، ويكون الجن في كلام ثان مقدر كأنه قيل : فمن جعلوا شركاء ؟ قيل: الجن، وهذا يقتضي وقوع الإنكار على جعلهم {**شركاء لله**} على الإطلاق، فيدخل مشركة غير الجن ، ولو أخر فقيل: وجعلوا الجن شركاء لله ، كان الجن مفعولاً أولا ، وشركاء ثانياً ، فتكون الشركة مقيدة غير مطلقة لأنه جرى على الجن، فيكون الإنكار توجه لجعل المشاركة للجن خاصة ، وليس كذلك.

- **السبب الثاني والعشرون:**

للتنبيه على أن السبب مرتب :

كقوله تعالى :﴿ **يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَى بِـــهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُـــهُم وَظُهُورُهُمْ** ﴾ (التوبة :٣٥).

قدم الجباه ثم الجنوب ثم الظهور ، لأن مانع الصدقة في الدنيا كان يصرف وجهه أولاً عن السائل ، ثم ينوء بجانبه ، ثم يتولى بظهره.

- **السبب الثالث والعشرون:**

التنقل:

إما من الأقرب إلى الأبعد، كقوله:﴿ **يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُم لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ فِرَاشاً وَالسَّمَاءَ بِنَاء**﴾ (البقرة ٢١-٢٢) قدم ذكر المخاطبين على الذين من قبلهم ، وقدم الأرض على السماء .

---

(١) البرهان ، المجلد الثالث ص٢٩.

(٢) البرهان ، المجلد الثالث ص٢٩.

وقوله:﴿ إنَّ اللَّهَ لا يخفى عليه شيْءٌ في الأَرْضِ ولا في السَّماءِ ﴾(آل عمران:٥) لقصد الترقي.

وقوله﴿قُلْ من رَّبُّ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ العَرْشِ العَظِيمِ ﴾ (المؤمنون: ٨٦)

وإما بالعكس كقوله في أول الجاثية: ﴿ إنَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ من دَابَّةٍ﴾ (الجاثية:٤) .

وإما من الأعلى كقوله: ﴿ شهِدَ اللَّهُ أنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ ﴾(آل عمران:١٨).

وقوله:﴿مَا كُنت تعْلَمُهَا أَنْتَ وَلاَ قَوْمُكَ ﴾(هود:٤٩) وإما من الأدنى كقوله: ﴿ وَلاَ يُنفِقُونَ نفَقَةً صَغِيرَةً وَلاَ كَبِيرَةً﴾ (التوبة :١٢١).

وقوله:﴿مَا لِـــهذا الكتَابِ لاَ يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلاَ كَبِيرَةً إِلاَّ أَحْصَاهَا ﴾(الكهف:٤٩).

وقوله:﴿ لاَ تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلاَ نَوْمٌ ﴾ (البقرة:٢٥٥) .

- **السبب الرابع والعشرون:**

الترقي:

كقوله:﴿أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِـــها أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِـــها﴾(الأعراف:١٩٥) فإنه سبحانه بدأ منها بالأدنى لغرض الترقي

- **السبب الخامس والعشرون:**

مراعاة الإفراد:

فإن المفرد سابق على الجمع ، كقوله تعالى :﴿ المَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾(الكهف:٤٦) .

وقوله: ﴿ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ﴾ (المؤمنون:٥٥) ولهذا لما عبر عن المال بالجمع أخر عن البنين في قوله:﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ المُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ ﴾(آل عمران:١٤) ، ومنه تقديم الوصف بالمفرد على الوصف بالجملة، في قوله:﴿ وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ ﴾ (غافر:٢٨) فـــ {مؤمن} وصف مفرد قدمت على جملة الصفة{ يكتم إيمانه}، وقوله: ﴿ وَهَذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَاهُ ﴾ (الأنبياء:٥٠) فـــ{ذكر} صفة قدم على الجملة الصفة {أنزلناه}.

● **السبب السادس والعشرون:**

التحذير منه والتنفير عنه:

كقوله تعالى:﴿ **الزَّانِي لاَ يَنكِحُ إِلاَّ زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً**﴾ (النور: ٣) قرن الزنى بالشرك وقدمه .

وقوله:﴿ **زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ**﴾(آل عمران ١٤) قدم النساء في الذكر ، لأن المحنة بــهن أعظم من المحنة بالأولاد، ومنه تقديم نفي الولد على نفي الوالد،في قوله:﴿ **لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ**﴾ (الإخلاص:٣) .

فإنه لما وقع في الأول منازعة المنازعين وتقولهم اقتضت الرتبة بالطبع تقديمه في الذكر، اعتناء به قبل التنــزيه عن الوالد الذي لم ينازع فيه أحد من الأمم .

● **السبب السابع والعشرون:**

التخويف منه:

كقوله تعالى:﴿ **فَمِنــهم شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ**﴾(هود:١٠٥) وقوله تعالى: ﴿**فَمِنهم ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنــهم مُّقْتَصِدٌ وَمِنــهم سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ**﴾ (فاطر:٣٢) وقوله:﴿ **مِنكُم مَّن يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ الآخِرَةَ** ﴾ (آل عمران:١٥٢)

● **السبب الثامن والعشرون:**

التعجب من شأنه:

ومنه قوله تعالى:﴿ **وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ** ﴾ (الأنبياء:٧٩).

قدم الجبال على الطير ، لأن تسخيرها لداود أعجب وأدل على القدرة، وأدخل في الإعجاز، لأنــها جماد، والطير حيوان ناطق .

● **السبب التاسع والعشرون:**

كونه أدل على القدرة:

كقوله تعالى:﴿ **فَمِنــهم مَّن يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ وَمِنــهم مَّن يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ وَمِنــهم مَّن يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ**﴾ (النور:٤٥) .

● **السبب الثلاثون:**

قصد الترتيب:

كقوله تعالى:﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ**﴾

(المائدة:٦) فإن إدخال المسح بين الغُسْلين ، وقطع النظر عن النظير مع مراعاة ذلك في لسان العرب ، دليل على قصد الترتيب .

ومن ذلك البداءة بالصفا قبل المروة قوله تعالى: ﴿ **إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِن شَعَائِرِ اللَّهِ** ﴾ (البقرة:١٥٨).

ولقد وضع بعض العلماء قاعدة ، وهي أن الكفارة المرتبة بدأ الله فيها بالأغلظ، والمخيرة بدأ فيها بالأخف.

مثال المرتبة قوله تعالى: ﴿ **إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الأَرْضِ فَسَاداً أَن يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلافٍ أَوْ يُنفَوْا مِنَ الأَرْضِ** ﴾ (المائدة :٣٣)، بدأ فيها بالأغلظ طردا للقاعدة ، ومثال المخيرة: قوله تعالى: ﴿ **لاَ يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ الأَيْمَانَ فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَاكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُم أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلاثَةِ أَيَّامٍ** ﴾(المائدة :٨٩) .

- **السبب الواحد والثلاثون:**

خفة اللفظ:

بأن يقدم اللفظ الأخف نطقاً على الأثقل منه .

كتقديم الإنس على الجن في الآيات السابقة، فالإنس أخف لمكان النون والسين المهموسة .

- **السبب الثاني والثلاثون:**

رعاية الفواصل وهو ليس مقصداً في ذاته ابتداءً كما سوف نبين وإنما هو تابع للمعنى :كتأخير الغفور في قوله:﴿ **لَعَفُوٌّ غَفُورٌ** ﴾ (الحج:٦٠).

وقوله: ﴿ **وَكَانَ رَسُولاً نَّبِياًّ** ﴾ (مريم:٥٤).

وقوله: ﴿ **فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سُجَّداً قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَى** ﴾ (طه: ٧٠).

بتقديم هارون مع أن موسى أفضل منه.

الفصل الثاني

التقديم والتأخير في القرآن الكريم

هذا الفصل هو التطبيق العملي لما سبق بيانه في الباب السابق بفصوله المختلفة حيث أقوم فيه بالدراسة التحليلية لعملية التقديم والتأخير في الآيات القرآنية ، مبتدئاً بسورة الفاتحة ومنتهياً بسورة الناس ، وسوف تتناول الدراسة أسلوب التقديم والتأخير في الآية باحثاً عن سر التقديم والتأخير من جميع الجوانب التي تعين على إبراز أسرار التقديم والتأخير في كل تعلقاته الأسلوبية والوظيفية، والتي كانت من أعظم وجوه إعجاز القرآن الكريم ذلك الكتاب الذي لم تحرف ألفاظه لا بتقديم ولا تأخير ولا حذف ولا زيادة أو نقصان ، لقد حفظه الله من التحريف الذي تعرضت له الكتب السماوية وكان من وجوه تحريفها التحريف بالتقديم والتأخير والذي يبين أهمية هذا الأسلوب في كل الكتب السماوية،ولذا قال الله تعالى:**﴿يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ﴾** (المائدة:١٣).

قال الأستاذ محمد رشيد رضا في هذه الآية: " التحريف إمالة الشيء عن موضعه إلى جانب من جوانب ذلك الموضع ، مأخوذ من الحرف وهو الطرف والجانب ... وتحريف الكلم عن مواضعه يصدق بتحريف الألفاظ بالتقديم والتأخير والحذف والنقصان وبتحريف المعاني بحمل الألفاظ على غير ما وضعت له". [١]

---

(١) تفسير المنار ج٦ ص٢٨٢ ،٢٨٣.

سورة الفاتحة

من خلال اسمها نعرف مناسبة افتتاح القرآن الكريم بـــها فهي فاتحة الكتاب بـــها ابتدأ ترتيب سوره لما فيها من أغراض عظيمة سيقت من أجلها، وهي أعظم سورة في القرآن الكريم ، فقد أثبتت استحقاق الله تعالى لجميع المحامد وصفات الكمال ، وإثبات صفات الربوبية والألوهية له ، وأنه وحده مالك يوم الدين واستحقاقه بالعبادة والاستعانة ولزوم صراطه المستقيم وهو صراط المنعم عليهم الذين علموا وعملوا ، ومجانبة صراط أهل الجحيم الذين ضلوا بجهلهم فعملوا على غير الرشاد والذين علموا و لم يعملوا بمقتضى علمهم وهم المغضوب عليهم ، لقد شملت هذه السورة كل أنواع التوحيد ، الربوبية والألوهية والأسماء والصفات ولزوم منهج أهل السنة ومفارقة مناهج المبتدعين.

﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾ (الفاتحة:١).

في البسملة مسائل :

الأولى :الجاروالمجرور لا بد له من متعلق ، وليس بمذكور، فيكون مقدراً، أو أنه يكون اسماً أو فعلاً ، أو اسماً فيه رائحة الفعل ، وعلى التقديرين فإما أن يكون مقدراً مقدماً أو مؤخراً، نحو: أبدأ باسم الله ، أو ابتدائي باسم الله ، أو بسم الله أبتدئ ، أو باسم الله ابتدائي أو الابتداء ، وتقدير الفعل أولى من تقدير الاسم ، لأن كل فاعل يبدأ في فعله ببسم الله يكون مضمراً، ما جعل التسمية مبدأ له ، فيكون المراد أن إنشاء ذلك الفعل ، إنما هو على اسم الله ، فيقدر هاهنا ، بسم الله أقرأ أو أتلو أو أبدأ، لأن الذي يتلو التسمية مقروء ومبدوء به ......

وتقدير المحذوف متأخر أولى، على نحو قوله تعالى:**﴿ بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا ﴾** (هود :٤١) . لأن، ذكر الله أدخل في التعظيم، ولأن ما هو سابق في الوجود يستحق السبق في الذكر.

وقد ذهب إلى نحو ما ذكرناه البيضاوي حيث قال: " وتقديم المعمول هاهنا أوقع كما في قوله: { **بسم الله مجراها ومرساها** } وقوله: {**إياك نعبد**}

لأنه أهم وأدل على الاختصاص وأدخل في التعظيم وأوفق للوجود فإن اسمه سبحانه وتعالى مقدم على القراءة كيف لا وقد جعل حيث إن الفعل لا يتم ولا يعتد به شرعاً ما لم يصدر باسمه تعالى لقوله عليه الصلاة والسلام: " كل أمر ذي بال لا يبدأ فيه ببسم الله فهو أبتر" .[1]

وكما يقول القرطبي: "ندب الشرع إلى ذكر البسملة في أول كل فعل، كالأكل والشرب والنحر، والجماع والطهارة وركوب البحر ، إلى غير ذلك من الأفعال قال الله تعالى:﴿ **فَكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ** ﴾(الأنعام:١١٨) . وقال:{ وقال اركبوا فيها بسم الله مجريها ومرساها}وقال رسول الله ﷺ { **أغلق بابك واذكر اسم الله ، وخمر إناءك واذكر اسم الله، وأوك سقاءك واذكر اسم الله**} وقال{**لو أن أحدكم إذا أراد أن يأتي أهله قال بسم الله اللهم جنبنا الشيطان وجنب الشيطان ما رزقتنا فإنه إن قدر بينهما ولد في ذلك لم يضره شيطان أبداً**} وقال لعمر بن أبي سلمة: { **يا غلام سم الله وكل بيمينك وكل مما يليك** } ......هذا كله ثابت في الصحيح وروى الدارقطني عن عائشة قالت: كان رسول الله - ﷺ - إذا مس طهوره سمى الله تعالى ، ثم يفرغ الماء على يديه".[2]

أقول: و يجمع ما ذكره القرطبي حديث النبي- ﷺ - والذي روي بروايات مختلفة منها ما رواه الإمام أحمد عن أبي هريرة - رضي الله عنه- قال : قال رسول الله ﷺ:{**كل كلام أو أمرلا يفتح بذكر الله فهو أبتر أو قال أقطع**}.[3]

وقد ذهب إلى ترجيح ذلك أيضاً الزمخشري وذكر مثل ما ذكر القرطبي ثم زاد قائلاً: " فإن قلت لم قدرت المحذوف متأخراً ؟ قلت: لأن الأهم من الفعل هو المتعلق به ، لأنهم كانوا يبدأون بأسماء آلهتهم فيقولون باسم اللات باسم العزى ، فوجب أن يقصد الموحد معنى اختصاص اسم الله عز وجل بالابتداء ، وذلك بتقديمه وتأخير الفعل كما فعل في قوله: ﴿ **إِيَّاكَ نَعْبُدُ** ﴾

---

(١) تفسير أنوار التنزيل وأسرار التأويل المعروف بتفسير البيضاوي ج١ ص ٢١،٢٢.

(٢) تفسير الجامع لأحكام القرآن ج١ ص ٦٩.

(٣) مسند الإمام أحمد كتاب { باقي مسند المكثرين} حديث رقم ٨٣٥٥.

(الفاتحة:٥) حيث صرح بتقديم الاسم إرادة الاختصاص والدليل عليه قوله:
{**بسم الله مجريها ومرساها**}فإن قلت : فقد قال:﴿**اقرأ باسْمِ ربّكَ الّذي خلق**﴾
(العلق:١) فقدم الفعل قلت: -والكلام للزمخشري- هناك تقديم الفعل أوقع لأنـــها أول سورة نزلت فكان الأمر بالقراءة أهم فإن قلت : ما معنى تعلق اسم الله بالقراءة قلت فيه وجهان : أحدهما : أن يتعلق بـــها تعلق القلم بالكتبة في قولك كتبت بالقلم ،على معنى أن المؤمن لما اعتقد أن فعله لا يجيء معتداً به في الشرع واقعاً على السنة حتى يصدر بذكر اسم الله لقوله عليه الصلاة والسلام:

" كل أمر لا يبدأ فيه باسم الله فهو أبتر" إلا كان فعلاً كلا فعل، جعل فعله مفعولاً باسم الله كما يفعل الكتب بالقلم . والثاني : أن يتعلق بـــها تعلق الدهن بالإنبات في قوله﴿ **تَنْبُتُ بِالدُّهْنِ**﴾ (المؤمنون:٢٠) على معنى متبركاً باسم الله أقرأ ، وكذلك قول الداعي للمعرس : بالرفاء والبنين، معناه أعرست ملتبساً بالرفاء والبنين وهذا الوجه أعرب وأحسن "[١]

وفي مبحث البسملة يذكر الرازي المسألة الأولى ويعرض رأيه بأسلوبه الرياضي المنطقي، حيث ذكر مسألة التقديم والتأخير فيقول: " قد بينا أن الباء من{**بسم الله الرحمن الرحيم** } متعلقة بمضمر فنقول : هذا المضمر يحتمل أن يكون اسماً ، وأن يكون فعلاً ، وعلى التقديرين فيجوز أن يكون متقدماً ، وأن يكون متأخراً فهذه أقسام أربعة ، أما إذا كان متقدماً وكان فعلاً فكقولك أبدأ باسم الله ، وأما إذا كان متقدماً وكان اسماً فكقولك : ابتداء الكلام باسم الله ، وأما إذا كان متأخراً وكان فعلاً فكقولك: باسم الله أبدأ ، وأما إذا كان متأخراً وكان اسماً، فكقولك :باسم الله ابتدائي ويجب البحث هنا عن شيئين :

الأول: أن التقديم أولى أم التأخير ؟ فنقول كلاهما وارد في القرآن ، أما التقديم فكقوله: { **باسم الله مجريها ومرساها**} وأما التأخير فكقوله:{**اقرأ باسم ربك**}وأقول -الكلام للرازي - التقديم عندي أولى ،ويدل عليه وجوه:

---

(١) تفسير الكشاف ج١ ص١٤ ،١٥.

- **الأول** : أنه تعالى قديم واجب الوجود لذاته، ليكون وجوده سابقاً على وجود غيره ، والسابق بالذات يستحق السبق في الذكر.
- **الثاني** : قال تعالى:**﴿ هُوَ الأَوَّلُ وَالآخِرُ﴾** (الحديد :٣) وقال:**﴿ لله الأَمْرُ من قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ﴾** (الروم:٤).
- **الثالث**:أن التقديم في الذكر أدخل في التعظيم.
- **الرابع**: أنه قال: { **إياك نعبد** } فهاهنا الفعل متأخر عن الاسم فوجب أن يكون في قوله{ **باسم الله**}كذلك فيكون التقدير باسم الله أبتدئ .
- **الخامس**: سمعت الشيخ الوالد ضياء الدين عمر ﷺ يقول : سمعت الشيخ أبا القاسم الأنصاري يقول: حضر الشيخ أبو سعيد بن أبي الخير الميهني مع الأستاذ أبي القاسم القشيري فقال الأستاذ القشيري : المحققون قالوا ما رأينا شيئاً إلا ورأينا الله بعده ، فقال الشيخ أبو سعيد بن أبي الخير:ذاك مقام المريدين ، أما المحققون فإنـــهم ما رأوا شيئاً إلا وكانوا قد رأوا الله قبله ". [1]

وإلى ذلك الرأي مال الكثير من المفسرين والنحويين مثل الطيب صديق ابن علي الحسين القنوجي البخاري ، العلامة نظام لدين الحسن بن محمد بن حسين القمي النيسابوري،وأبو حيان الأندلسي، و محيي الدين درويش .

المسألة الثانية: وأما تقديم اسم الذات " الله" على الرحمن الرحيم وعلى غيره من الأسماء والصفات فراجع إلى عدة أمور :

إن ذلك الاسم غير مشتق عند الخليل ومتابعيه ، وعند أكثر الأصوليين والفقهاء وأنه اسم علم له سبحانه وتعالى، وكذلك فإن الترتيب العقلي إنما هو ذكر الذات ثم تعقيبه بالصفات ، ومن ثم فكل الأسماء الحسنى مرجعها لذلك الاسم ومردها إليه، كما في قوله تعالى: **﴿ قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَياً مَّا تَدْعُوا فَلَهُ الأَسْمَاءُ الحُسْنَى ﴾**(الإسراء:١١٠) وقوله :**﴿ وَلِلَّهِ الأَسْمَاءُ الحُسْنَى فَادْعُوهُ بِـــهَا ﴾** (الأعراف:١٨٠)

---

(١) تفسير الفخر الرازي المعروف بـــ{ التفسير الكبير ومفاتيح الغيب} ج١ ص١٠٨.

وقوله: ﴿ هُوَ اللَّهُ الَّذِي لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ. هُوَ اللَّهُ الَّذِي لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ (الحشر:٢٢ -٢٣).

وأقول: ومن رحمته سبحانه أنه علمنا أن نبدأ كل شيء باسم الله ...لأن الله هو الاسم الجامع لصفات الكمال سبحانه وتعالى ..والفعل عادة يحتاج إلى صفات متعددة ..فأنت حين تبدأ عملاً تحتاج إلى قدرة الله وإلى قوته وإلى عونه وإلى رحمته، فلو أن الله سبحانه وتعالى لم يخبرنا بالاسم الجامع لكل الصفات كان علينا أن نحدد الصفات التي نحتاج إليها ..كأن نقول بسم الله القوي وبسم الله الرازق وبسم الله المجيب وبسم الله القادر وبسم الله النافع إلى غير ذلك من الأسماء والصفات التي نريد أن نريد أن نستعين بها .. ولكن الله تبارك وتعالى جعلنا نقول : بسم الله الجامع لكل هذه الصفات.

المسألة الثالثة: لماذا تقدم اسم الرحمن على الرحيم في البسملة ؟

{الرحمن الرحيم} كلاهما مشتق من الرحمة ولكن الرحمن تتعلق برحمته خلقه وعباده جميعاً في الدنيا مؤمنهم وكافرهم فهي رحمة عامة، بينما الرحيم رحمة خاصة بالمؤمنين في الآخرة ولذلك قدمت الرحمة العامة على الرحمة الخاصة.

قال ابن عطية : " وذكر الرحيم بعده لتخصيص المؤمنين به في قوله تعالى:﴿ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيماً ﴾ (الأحزاب:٤٣) وقد ذكر أبو حيان هذا التفسير أيضاً لمجاهد وأبي علي الفارسي.[١]

وقد جاء الألوسي بالعجب العجاب مجانباً أصول علم التفسير غارقاً في الإشارات بعيداً عن الصواب في معرض حديثه عن سر تقديم الرحمن على الرحيم وقد ذكر جملة من الآراء في سبب تقدم الرحمن على الرحيم وبدأ يفندها جميعاً وهي عند النظر والتحقيق أولى بالقبول من رأيه الذي لم يستند فيه على دليل لغوي أو شرعي أو نقل عن أصحاب النبي ﷺ الذين هم أدرى الأمة بمراد الله تعالى: يقول: "وقيل الرحمة في ذلك حقيقة شرعية ، وأن الرحمن أبلغ من الرحيم لأن زيادة البناء تدل على زيادة المعنى ، فتؤخذ تارة باعتبار

---

(١) تفسير البحر المحيط ج١ ص ١٢٨، ١٢٩.

الكمية ، وأخرى باعتبار الكيفية فعلى الأول قيل يا رحمن الدنيا ، لأنه يعم المؤمن والكافر ورحيم الآخرة لأنه يخص المؤمن وعلى الثاني قيل يا رحمن الدنيا والآخرة ورحيم الدنيا ،لأن النعم الأخروية كلها جسام ، وأما النعم الدنيوية فجليلة وحقيرة ، وأنه إنما قدم الرحمن والقياس يقتضي الترقي لتقدم رحمة الدنيا، لأنه صار كالعلم من حيث إنه لا يوصف به غيره لأن معناه المنعم الحقيقي البالغ في الرحمة غايتها ، وذلك لا يصدق على غيره ...أو التقديم لأن الرحمن لما دل على جلائل النعم وأصولها ذكر الرحيم ليتناول ما خرج منها فيكون كالتتمة والرديف له أو للمحافظ على رؤوس الآي وهذا جميعه لا يخلو عن مقال، ولا يسلم من رشق نبال ...يقول : وعندي من باب الإشارة أن تأخير صفة الرحيم لأنه صفة محمد ﷺ

قال تعالى:﴿ **بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ**﴾ (التوبة:١٢٨) وبه عليه السلام كمال الوجود ، وبالرحيم تمت البسملة وبتمامها تم العالم خلقاً وإبداعاً وكان صلى الله تعالى عليه وسلم مبتدأ وجود العالم عقلاً ونفساً فبه بدأ الوجود باطناً وبه ختم المقام ظاهراً في عالم التخطيط فقال لا رسول بعدي فالرحيم هو نبينا عليه الصلاة والسلام وبسم الله هو أبونا آدم عليه السلام وأعني في ابتداء مقام الأمر ونـــهايته وذلك أن آدم عليه السلام حامل الأسماء قال تعالى:﴿ **وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا**﴾(البقرة:٣١) ومحمد ﷺ حامل معاني تلك الأسماء التي حملها آدم عليه السلام "[١].

ويفهم من كلام البيضاوي أن التقديم هنا لسبق الوجود قال : "وإنما قدم والقياس يقتضي الترقي من الأدنى إلى الأعلى ، لتقدم رحمة الدنيا ولأنه صار كالعلم من حيث إنه لا يوصف به غيره ، لأن معناه المنعم الحقيقي البالغ في الرحمة غايتها .. وهناك سبب آخر ذكره وهو أن يكون التقديم من باب تقديم الأعظم والأجل قال: أو لأن الرحمن لما دل عل جلائل النعم وأوصلها ذكر الرحيم ليتناول ما خرج منها فيكون كالتتمة الرديف له للمحافظة على رؤوس الآي ، وهذا الأخير لا نتفق معه فيه وسوف يأتي بيان الرد عليه في ذلك "[٢].

---

(١) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم ، والسبع المثاني ج١ ص٦١ ، ٦٤ . (٢) البيضاوي ٢٤ ج١ ص ٣٩-٤٠.

﴿ **الْحَمْدُ للّه ربِّ العالَمين** ﴾ (الفاتحة:٢).

في هذه الآية سؤالان : الأول : لماذا ابتدأت بالحمد مع أن التسبيح مقدم على الحمد في الذكر فنقول : سبحان والحمد لله ؟ والسؤال الثاني: لماذا تقدمت صفة الربوبية على صفة الرحمة والملك في السورة ؟

أما السبب في وقوع البداءة بالحمد وليس بالتسبيح فأقول :إن سورة الفاتحة إنما تتحدث عن صفات الله الذاتية المتعلقة بالتفضل على الخلائق بصور الإنعام المذكورة في السورة من نعمة الإيجاد والتربية والإصلاح في قوله :{**رب العالمين**} ونعمة الرحمة التي يعيش فيه الخلق كله في الدنيا وهي صفة { **الرحمن**} ونعمة الرحمة الخاصة بالمؤمنين وتعلقها بصفة { **الرحيم**} ثم نعمة العدل وتعلقها بقوله : { **مالك يوم الدين**} ولذلك كله بدأت السورة بالحمد الواجب لله علي إنعامه المذكور في السورة بعد الحمد ولم تبدأ بالتسبيح وإن كان مقدما عليه في الذكر .

أما الحافظ بن رجب في جامع العلوم والحكم في شرحه للحديث الثالث والعشرين فقد قال: " وبكل حال ، فالتسبيح دون التحميد في الفضل كما جاء صريحا في حديث علي وأبي هريرة وعبد الله بن عمرو و الرجل من بني سليم أن التسبيح نصف الميزان ، والحمد لله تملؤه ، وسبب ذلك أن التحميد إثبات المحامد كلها لله فدخل في ذلك إثبات صفات الكمال ونعوت الجلال كلها والتسبيح هو تنـــزيه الله عن النقائص والعيوب والآفات والإثبات أكمل من السلب ،ولهذا لم يرد التسبيح مجرداً لكن مقروناً بما يدل على إثبات الكمال فتارة يقرن بالحمد كقوله : سبحان الله وبحمده وسبحان الله والحمد لله وتارة باسم من الأسماء الدالة على العظمة والجلال كقوله سبحان الله العظيم ". [1]

وهناك جواب آخر أجابه صاحب تفسير غرائب القرآن يقول في المسألة السادسة في تفسير سورة الفاتحة : " التسبيح مقدم على التحميد لأنه يقال : سبحان الله والحمد لله فما السبب في وقوع البداءة بالتحميد ؟ والجواب أن التسبيح داخل في التحميد دون العكس ، فإن التسبيح يدل على كونه مبرأ في

---

(١) جامع العلوم والحكم في شرح خمسين حديثاً من جوامع الكلم ج٢ ص ١٣.

ذاته وصفاته عن النقائص والتحميد يدل على كونه محسنا إلى العباد ، ولا يكون محسناً إليهم إلا إذا كان عالماً بجميع المعلومات ليعلم مواقع الحاجات وإلا إذا كان قادراً على المقدورات ليقدر على تحصيل ما يحتاجون إلا إذا كان غنياً في نفسه وإلا شغله حاجة نفسه عن حاجة غيره ، فثبت أن كونه محسناً لا يتم إلا بعد كونه منــزهاً عن النقائص والآفات " [1]

لماذا تقدمت صفة الربوبية على صفة الرحمة والملك في فاتحة الكتاب فجاءت على هذا الترتيب {**الحمد لله رب العالمين ٭الرحمن الرحيم ٭مالك يوم الدين**} مع أننا نجد صفة الرحمة في البسملة جاءت بعد اسم الله مباشرة ؟

السبب في التقديم من عدة أوجه :

أولاً : بالنظر إلى ما قبل لفظ الجلالة في البسملة نجد أنها بدأت بباء الاستعانة فقولنا : بسم الله الرحمن الرحيم هو استعان بقدرة الله حين نبدأ فعل الأشياء ثم جاء قوله الرحمن الرحيم في البسملة لمعنى آخر غير الموجود في الفاتحة إذ إنــها في البسملة كما ذكر الشيخ الشعراوي تذكرنا برحمة الله سبحانه وتعالى وغفرانه حتى لا نستحي ولا نــهاب أن نستعين بسم الله إن كنا قد فعلنا معصية فالله سبحانه وتعالى يريدنا أن نستعين باسمه دائماً في كل أعمالنا .فإذا سقط واحد منا في معصية ، قال كيف أستعين باسم الله وقد عصيته ؟ نقول؟ ادخل عليه سبحانه من باب الرحمة فيغفر لك وتستعين به فيجيبك .

وأنت حين تسقط في معصية تستعيذ برحمة الله من عدله ، لأن عدل الله لايترك صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها .ولهذا جاء، اسمه الرحمن واسمه الرحيم بعد لفظ الجلالة، بينما جاء الاسمان الكريمان بعد صفة الربوبية فهو ما نبينه في المسألة الثانية. [2]

المسألة الثانية: جاءت صفة الربوبية متقدمة على صفة الرحمة نظراً لتعلقها بما قبلها وهو قوله:{ **الحمد لله** } ، فالله محمود لذاته محمود لصفاته محمود لنعمه وعطائه وقضائه وهو سبحانه رب الجميع المؤمن والكافر فهو الذي أوجدهم من العدم ورباهم على الجود و الكرم فكل النعم التي هي من

---

(١) غرائب القرآن ورغائب الفرقان ص٩٥.

(٢) تفسير الشعراوي ج١ ص ٥٢.

عطاء الربوبية هي في الدنيا لخلقه جميعاً وقد أوجدها لهم قبل وجودهم لتكون موجبات الحمد موجودة قبل الوجود الإنساني .ولهذا أمرنا الله في فاتحة الكتاب أن نقول الحمد لله وهي تعني حمد الألوهية ، فكلمة الله تعني المعبود بحق، فالعبادة تكليف والتكليف يأتي من الله لعباده فكأن الحمد أولاً لله ثم يقتضي بعد ذلك أن يكون الحمد لربوبية الله ، وكما يقول صاحب غرائب القرآن: " لما كان الله أحسن الأسماء عقبه بأكمل الصفات وهو{**رب العالمين**} إذ معناه أن وجود ما سواه فائض عن تربيته وإحسانه وجوده وامتنانه، فالأول يدل على التمام . والثاني يدل على أنه فوق التمام ".[1]

فالحمد لله رب العالمين على إيجادنا من عدم وإمدادنا من عدم ثم تأتي الرحمن الرحيم في الفاتحة بمعنى رحمة الله في ربوبيته لخلقه حتى لا يفهم من هذه الربوبية أنـــها ربوبية ظلم .

وكما يقول القرطبي: "لما كان في اتصافه بـــ { **رب العالمين** } ترهيب قرنه بالرحمن الرحيم لما تضمن من الترغيب ليجمع في صفاته بين الرهبة منه والرغبة إليه فيكون أعون على طاعته و أمنع كما قال :
﴿**نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ**﴾(الحجر:٤٩، ٥٠)
{**وأن عذابي هو العذاب الأليم**}[2]،[3]ولكننا إذا رأينا ظلماً واقعاً من بعض العباد على بعض في الدنيا فليس ذلك منافياً لصفة الربوبية ولا لصفة الرحمة ومن أجل ذلك جاء قوله{**مالك يوم الدين**}ليدخل العباد في دائرة الطمأنينة من أنـــهم إذا أصابـــهم ظلم في الدنيا فإن هناك يوماً لا ظلم فيه وهذا اليوم الأمر فيه لله وحده بدون أسباب فكل إنسان لو لم يدركه العدل والقصاص في الدنيا فإن الآخرة تنتظره ولهذا جاء الترتيب في السورة على أساس أن البداية من الله {**رب العالمين**} والرحمة في الإيجاد والمعاش من الله {**الرحمن الرحيم**} والنهاية إلى الله {**مالك يوم الدين**} يقول صاحب غرائب القرآن في المسألة الخامسة في تفسير قوله مالك يوم الدين: "في هذه السورة من أسماء الله خمسة : الله ، الرب الرحمن الرحيم المالك كأنه يقول لك : خلقتك أولاً

---

(١) تفسير غرائب القرآن ص ٩٥. (٢) تفسير البحر المحيط ج١ ص ٤٩ ، ٥٠.

(٣) تفسير الجامع لأحكام القرآن ج١ ص ٩٨.

فأنا الله ،ثم ربيتك بأصناف النعم فأنا الرب ، ثم عصيت فسترت عليك فأنا الرحمن ، ثم تبت فغفرت لك فأنا الرحيم ثم أجازيك بما عملت فأما مالك يوم الدين. وقد جاء قوله﴿ مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ (الفاتحة:٤) إثر قوله الرحمن الرحيم كما يقول المراغي: " ليكون كترهيب بعد ترغيب وليعلمنا أنه تعالى ربى عباده بكلا النوعين من التربية فهو رحيم بـــهم ومجاز لهم على أعمالهم} كما قال تعالى:﴿نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ﴾ (الحجر:٤٩،٥٠) [١] [٢]

ومن لطائف الترتيب في فاتحة الكتاب ما ذكره الرازي في حديثه عن الأسرار المستنبطة من الفاتحة قال: "ولما تقرر هذا المعنى - يقصد معنى الحمد لله رب العالمين- ظهر أن الموجود الذي يقدر على خلق هذه العوالم على عظمتها، ويقدر على خلق العرش والكرسي والسموات والكواكب لابد أن يكون قادراً على إهلاكها، ولابد أن يكون غنياً عنها ، فهذا القادر القاهر الغني يكون في غاية العظمة والجلال وحينئذ يقع في قلب العبد أني مع نــهاية ذلتي وحقارتي كيف يمكنني أن أتقرب إليه ، وبأي طريق أتوسل إليه، فعند هذا ذكر الله ما يجري مجرى العلاج الموافق لـــهذا المرض ، فكأنه قال: أيها العبد الضعيف ، أنا وإن كنت عظيم القدرة والهيبة والإلهية إلا أني مع ذلك عظيم الرحمة ، فأنا الرحمن الرحيم وأنا مالك يوم الدين ، فما دمت في هذه الحياة لا أخليك عن أقسام رحمتي وأنواع نعمتي وإذا مت فأنا مالك يوم الدين، لا أضيع عملاً من أعمالك ، فإن أتيتني بالخير قابلت الخير الواحد بما لانـــهاية له من الخيرات ، وإن أتيتني بالمعصية قابلتها بالصفح والإحسان و المغفرة". [٣]

ولقد أخطأ مكي فيما نقله عنه أبو حيان من أن قوله تعالى في فاتحة الكتاب {**الرحمن الرحيم**} مؤخر يراد به التقديم تقديره{**الحمد لله الرحمن الرحيم رب العالمين**} وعلل ذلك بقوله : "وإنما قلنا بالتقديم لأن مجاورة الرحمة بالحمد أولى ومجاورة المُلك بالمُلك أولى قال : والتقديم والتأخير كثير في

---

(١) تفسير البحر المحيط ج١ ص ٤٩ (٢) تفسير المراغي ج١ ص ٣٢. (٣) تفسير مفاتيح الغيب ج١ ص ١٩٠ ، ١٩١.

القرآن" ولقد رد عليه أبو حيان بما يشفي قائلاً : "وكلام مكي مدخول من غير وجه ، ولولا جلالة قائله نزهت كتابي هذا عن ذكره والترتيب القرآني جاء في غاية الفصاحة لأنه تعالى وصف نفسه بصفة الربوبية وصفة الرحمة ، ثم ذكر شيئين: أحدهما : ملكه يوم الجزاء. والثاني : العبادة ، فناسب الربوبية للملك ، والرحمة للعبادة ، فكان الأول للأول ، والثاني للثاني".[1]

﴿ **إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ** ﴾ (الفاتحة:٥) يقول الرازي عن سر التقديم في هذه الآية: "الفائدة الثالثة: قال إياك نعبد ،فقدم قوله إياك على قوله نعبد و لم يقل نعبدك، وفيه وجوه :أنه تعالى قدم ذكر نفسه ليتنبه العابد على أن المعبود هو الله الحق ، فلا يتكاسل في التعظيم ولا يلتفت يميناً ولا شمالاً ....

وثانيها : أنه إن ثقلت عليك الطاعات وصعبت عليك العبادات من القيام والركوع والسجود فاذكر أولاً قوله : {**إياك نعبد**} لتذكرني وتحضر في قلبك معرفتي ،فإذا ذكرت جلالي وعظمتي وعزتي وعلمت أني مولاك وأنك عبدي سهلت عليك تلك العبادات ومثاله أن من أراد حمل الجسم الثقيل تناول قبل قبل ذلك ما يزيده قوة وشدة ، فالعبد لما أراد حمل التكاليف الشاقة الشديدة تناول أولاً معجون معرفة الربوبية من يستوقفه قوله إياك حتى يقوى على حمل ثقل العبودية.

وثالثها: قال الله تعالى:﴿ **إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ** ﴾ (الأعراف:٢٠١) ، فالنفس إذا مسها طائف من الشيطان من الكسل والغفلة والبطالة تذكروا حضرة جلال الله من مشرق قوله: {**إياك نعبد**} فيصيرون مبصرين مستعدين لأداء العبادات والطاعات .

ورابعها: إنك إذا قلت نعبدك فبدأت أولاً بذكر عبادة نفسك ولم تذكر أن تلك العبادة لمن فيحتمل أن إبليس يقول : هذه العبادة للأصنام أو للأجسام أو للشمس أو القمر إما إذا غيرت هذا الترتيب وقلت أولاً لإياك ثم قلت ثانياً نعبد كان قولك أولاً إياك صريحاً بأن المقصود والمعبود هو الله تعالى، فكان هذا أبلغ في التوحيد وأبعد عن احتمال الشرك .

---

(١) تفسير البحر المحيط ج١ ص ١٣٢ ، ١٣٣.

وخامسها : هو أن القديم الواجب لذاته متقدم في الوجود على المحدث الممكن لذاته فوجب أن يكون ذكره متقدماً على جميع الأذكار فلهذا السبب قدم قوله إياك على قوله نعبد ليكون ذكر الحق متقدماً على ذكر الخلق .

وسادسها: قال بعض المحققين : من كان نظره في وقت النعمة إلى المنعم كان نظره في وقت البلاء إلى المبتلي لا إلى البلاء ، وحينئذ يكون غرقاً في كل الأحوال في معرفة الحق سبحانه ، وكل من كان كذلك كان أبداً في أعلى مراتب السعادات ، أما من كان نظره في وقت النعمة إلى النعمة لا إلى المنعم كان نظره في وقت البلاء إلى البلاء لا إلى المبتلي فكان غرقاً في كل الأوقات في الاشتغال بغير الله، فكان أبداً في الشقاوة ، لأن في وقت وجدان النعمة يكون خائفاً من زوالها فكان في العذاب وفي وقت فوات النعمة كان مبتلى بالخزي والنكال فكان في محض السلاسل والأغلال ، ولهذا التحقيق قال لأمة موسى: ﴿ **اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ** ﴾(البقرة:٤٧) وقال لأمة محمد:﴿**فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ**﴾ (البقرة:١٥٢) إذا عرفت هذا فنقول : إنما قدم قوله إياك على قوله نعبد ليكون مستغرقاً في مشاهدة نور جلال إياك ومتى كان الأمر كذلك كان في وقت أداء العبادة مستقراً في عين الفردوس كما قال تعالى: {**لا يزال العبد يتقرب إليّ بالنوافل حتى أحبه فإذا أحببته كنت له سمعاً وبصراً**} .

وسابعها: لو قيل نعبدك لم يفد نفي عبادتـهم لغيره ، لأنه لا امتناع في أن يعبدوا الله ويعبدوا غير الله كما هو دأب المشركين ، أما لما قال إياك نعبد أفاد أنـهم يعبدونه ولا يعبدون غير الله .

ويفرض الرازي هنا سؤالاً يجيب عنه بنفسه فيقول: فإن قال قائل : جميع ما ذكرتم قائم في قوله الحمد لله مع أنه قدم فيه ذكر الحمد على ذكر الله.

فالجواب أن قوله الحمد يحتمل أن يكون لله ولغير الله فإذا قلت لله فقد تقيد الحمد بأن يكون لله ، أما لو قدم قوله:{**نعبد**} احتمل أن يكون لله واحتمل أن يكون لغير الله وذلك كفر ، والنكتة أن الحمد لما جاز لغير الله في ظاهر الأمر كما جاز لله ، لا جرم حسن تقدم الحمد، أما هنا فالعبادة لما لم تجز لغير الله لا جرم قدم قوله إياك على نعبد ، فتعين الصرف للعبادة فلا يبقى في الكلام احتمال أن تقع العبادة لغير الله " .(١)

---

(١) تفسير مفاتيح الغيب ج١ ص ٢٤٨ - ٢٥٠.

﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ (الفاتحة:٥) تكلم الرازي عن سرالتقديم و التأخير في الآية و لم يخل تفسيره من الإشارات والعبارات الصوفية كما هو معروف من طريقته وقد ألجأه ذلك إلى ذكر أحاديث القوم التي لم يثبت صحتها عند المحققين والتي تروق عند العوام والقصاصين وقد رأيت أن أحذفها طلباً للاقتصار على موضوع بحثنا حتى لا نخرج بالرد عليه عما نريد أن نسير فيه، قال: " الفائدة الأولى: لقائل أن يقول :الاستعانة على العمل إنما تحسن قبل الشروع في العمل ، وهاهنا ذكر قوله إياك نعبد ثم ذكر عقيبه و إياك نستعين ، فما الحكمة فيه ؟ الجواب من وجوه:

- **الأول:** كأن المصلي يقول: شرعت في العبادة فأستعين بك في إتمامها، فلا تمنعني في إتمامها بالموت ولا بالمرض ولا بقلب الدواعي وتغيرها .
- **الثاني:** كأن الإنسان يقول: يا إلهي إني أتيت بنفسي إلا أن لي قلباً يفر مني فأستعين بك في إحضاره وكيف وقد قال عليه الصلاة والسلام: {**قلب المؤمن بين أصبعين من أصابع الرحمن**} ، فدل ذلك على أن الإنسان لا يمكنه إحضار القلب إلا بإعانة الله.
- **الثالث:** لا أريد في الإعانة غيرك لا جبريل ولا ميكائيل ، بل أريدك وحدك وأقتدي في هذا المذهب بالخليل عليه السلام......فكما لم يرض الخليل -عليه السلام ـــ بغيرك معيناً فكذلك لا أريد معينا غيرك..
- **الرابع** : إياك نستعين : أي لا أستعين بغيرك ، وذلك لأن الغير لا يمكنه إعانتي إلا إذا أعنته على تلك الإعانة ، فإذا كانت إعانة الغير لا تتم إلا بإعانتك فلنقطع هذه الواسطة ولنقتصر على إعانتك.
- **الخامس:** قوله: {**إياك نعبد**} يقتضي حصول رتبة عظيمة للنفس بعبادة الله تعالى ، وذلك يورث العجب فأردف بقوله وإياك نستعين ليدل ذلك على أن تلك الرتبة الحاصلة بسبب العبادة ما حصلت من قوة العبد ، بل إنما حصلت بإعانة الله ، فالمقصود من ذكر قوله وإياك نستعين إزالة العجب وإفناء تلك النخوة والكبر . [١]

---

(١) مفاتيح الغيب ج١ ص٢٤٦ -٢٥٠.

أقول: لقد أحسن الرازي في استخراجه لتلك الكنوز والأسرار من قوله: {**إياك نعبد وإياك نستعين**} غير أنه قد فاته وجه آخر هام لعله نسيه لربطه مفهوم الاستعانة بالعبادة وحصره عليها فإنه لا يغيب عن عالم أن استعانة العبد بالله ينبغي أن تكون صفة لازمة للعبد في كل أموره وأحواله فيما يرجوه وما يحذره في الخير والشر والرغبة والرهبة في الدنيا والآخرة والدليل على ذلك حديث ابن عباس - رضي الله عنهما - وفيه {**وإذا استعنت فاستعن بالله**} رواه الترمذي وقال : حسن صحيح ورواه الإمام أحمد في المسند وهو الحديث التاسع عشر في جامع العلوم والحكم ، قال الحافظ ابن رجب في شرحه للحديث وقوله :ﷺ {**إذا سألت فاسأل الله وإذا استعنت فاستعن بالله** } هذا منتزع من قوله تعالى:{**إياك نعبد وإياك نستعين**} فإن السؤال هو دعاؤه والرغبة إليه..فتضمن هذا الكلام أن يسأل- الله عز وجل - ولا يسأل غيره وأن يستعان بالله دون غيره

فأما السؤال فقد أمر الله بمسألته﴿ **وَاسْأَلُوا اللَّهَ مِن فَضْلِهِ**﴾ (النساء:٣٢) وفي الترمذي عن ابن مسعود ﷺ مرفوعاً { **سلوا الله من فضله فإن الله يحب أن يسأل** }...وفي حديث آخر { **ليسأل أحدكم ربه حاجته كلها، حتى يسأل شسع نعله إذا انقطع** }.

وفي النهي عن مسألة المخلوقين أحاديث كثير صحيحة، وقد بايع النبي ﷺ جماعة من أصحابه على ألا يسألوا الناس شيئاً،منهم أبوبكر الصديق وأبو ذر وثوبان ، وكان أحدهم يسقط سوطه أو خطام ناقته ، فلا يسأل أحداً أن يناوله إياه .[1]

وأنا أضيف ثلاثة أوجه أخرى غير الخمسة السابقة التي ذكرها الرازي:

- **الوجه السادس** في تقديم قوله: {**إياك نعبد على إياك نستعين** }أنه لما كانت العبادة حق خالص لله وهي مطلوبه ومراده ، وكانت الإعانة فيها ما هو طلب العون على العبادة وعلى غيرها من حاجات

---

(١) جامع العلوم والحكم ، ص ٣٧١ ، ٣٧٢.

العباد قدم ما كان حقاً خالصاً لله على حق الله المشوب بحقوق الآدميين.

- **الوجه السابع** : أنه لو علقنا طلب الاستعانة { **إياك نستعين** } بالعبادة وحدها.

{ **إياك نعبد** } دون ما سواها فإنه أيضاً يجب أن يتقدم قوله: {**إياك نعبد**} على قوله: {**إياك نستعين**} حيث إن العبادة هي الغاية بدليل قوله تعالى:﴿ **وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ**﴾ (الذاريات:٥٦) والاستعانة وسيلة للوصول إليها والغايات أشرف من الوسائل ولذا قدمت عليها .

- **الوجه الثامن:** وهو أن تقديم الضمير المنفصل على الفعلين {**نعبد ونستعين**} إنما هو للاختصاص فلا يعبد ويدعى إلا الله عز وجل ، بينما يرى الثعالبي والقرطبي أن التقديم للاهتمام .

قال الثعالبي:"وقدم إياك على الفعل اهتماماً،وشأن العرب تقديم الأهم[1]

وتحت عنوان المسألة الرابعة والعشرين قال القرطبي: "إن قيل : لم قدم المفعول على الفعل ؟ قيل له قدم اهتماماً ، وشأن العرب تقديم الأهم . يذكر أن أعرابياً سب آخر فأعرض المسبوب عنه ، فقال لله الساب: إياك أعني : فقال له الآخر : وعنك أعرض ، فقدما الأهم ، وأيضاً لئلا يتقدم ذكر العبد والعبادة على المعبود ، فلا يجوز نعبدك ونستعينك ، ولا نعبد إياك ونستعين إياك فيقدم الفعل على كناية المفعول ، وإنما يتبع لفظ القرآن .

وقال العجاج :

إياك أدعو فتقبَّل ملقي واغفرْ خطاياي وكُثر ورقي.[2]

وهذه الفوائد التي ذكرها الرازي هي بعينها وعللها التي نقلها صاحب تفسير غرائب القرآن ولكن دون أن ينسبـــها إليه وقال تحت المسألة السادسة: هاهنا مقامان : معرفة الربوبية ومعرفة العبودية ، وعند اجتماعهما يحصل الربط المذكور في قوله﴿ **وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ**﴾ (البقرة:٤٠) .

أما معرفة الربوبية فكمالها مذكور في قوله:{**الحمد لله رب العالمين ◦ الرحمن الرحيم ◦مالك يوم الدين** } فانتقال العبد من العدم السابق إلى

---

(١) الجواهر الحسان في تفسير القرآن ج١ ص ٤١.

(٢) تفسير القرطبي ج١ ص١٠١، ١٠٢.

الوجود يدل على كونه إلها ، وحصول الفائدة للعبد حال وجوده يدل على كونه رباً رحمناً رحيماً ،وأحوال معاده تدل على أنه مالك يوم الدين ، وأما معرفة العبودية فمبدؤها{**إياك نعبد**} وكمالها {**إياك نستعين**} في جميع المطالب ، وإذا تم الوفاء بالعهدين ترتبت عليه الثمرة وهو قوله:﴿**اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ**﴾ (الفاتحة:٦) فهذا ترتيب لا يتصور أحسن منه [١]

من حكم التقديم والتأخير عند الخازن في قوله تعالى:{ **إياك نعبد وإياك نستعين**}

قال: فإن قلت الاستعانة على العمل إنما تكون قبل الشروع فيه فلم أخر الاستعانة على العبادة وما الحكمة فيه؟ قلت : ذكروا فيه وجوهاً:

- **أحدها**: إن هذا يلزم من يجعل الاستطاعة قبل الفعل ونحن بحمد الله نجعل التوفيق والاستطاعة مع الفعل فلا فرق بين التقديم والتأخير .
- **الثاني**: إن الاستعانة نوع نعبد فكأنه ذكر جملة العبادة أولاً ثم ذكر ما هو من تفاصيلها ثانياً.
- **الثالث**: كأن العبد يقول شرعت في العبادة فإني أستعين بك على إتمامها فلا يمنعني من إتمامها مانع.
- **الرابع**: إن العبد إذا قال إياك نعبد حصل له الفخر وذلك منـــزلة عظيمة فيحصل بسبب ذلك العجب فأردف ذلك بقوله: { **وإياك نستعين** } ليزول ذلك العجب الحاصل بسبب تلك العبادة . [٢]

قال البيضاوي :"وتقديم ما هو مقدم في الوجود والتنبيه على أن العابد ينبغي أن يكون نظره إلى المعبود أولاً وبالذات ، ومنه إلى العبادة .. ويعلم منه أن تقديم الوسيلة على طلب الحاجة أدعى إلى الإجابة " [٣]

ويضيف الألوسي وجهاً آخر للتقديم وهو التقديم لسبق الوجود فيقول: وتقديم ما هو مقدم في الوجود فإنه تعالى مقدم على العابد والعبادة ذاتاً فقدم وضعاً ليوافق الوضع الطبع . وتنبيه العابد من أول الأمر علي أن المعبود هو الله تعالى الحق فلا يتكاسل في التعظيم ولا يلتفت يميناً وشمالاً ، والاهتمام فإن

---

(١) تفسير غرائب القرآن ص١٠٧.

(٢) تفسير الخازن المسمى لباب التأويل في معاني التنزيل ،ج١ ص٣٠.

(٣) تفسير البيضاوي : ج١ ص٦٨.

ذكره تعالى أهم للمؤمنين في كل حال لا سيما حال العبادة لأنـــها محل وساوس الشيطان من الغفلة والكسل والبطالة، ويرى كذلك أنه في تأخير الاستعانة توافق رؤوس الآي ".[1]، ونظير هذه الآية قوله تعالى:﴿ **إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ**﴾ (النحل:١١٤) .

أولى التفاسير في قوله تعالى:﴿ **صِرَاطَ الَّذِينَ أَنعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ المَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلاَ الضَّالِّينَ**﴾(الفاتحة:٧) هو رأي جماهير المفسرين بأنـــهم هم النبيون والصديقون والشهداء والصالحون، فخير ما يفسر به القرآن هو القرآن ، يقول الله تعالى :﴿ **وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُوْلَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُوْلَئِكَ رَفِيقاً** ﴾(النساء:٦٩) .

على أن المغضوب عليهم والضالين قد تعددت فيهم الأقوال واختلفت، والظاهر ما قاله الأستاذ المراغي: " أن المغضوب عليهم هم الذين بلغهم الدين الحق الذي شرعه الله لعباده فرفضوه ونبذوه وراءهم ظهرياً ، وانصرفوا عن النظر في الأدلة تقليداً لما ورثوه عن الآباء والأجداد وهؤلاء عاقبتـــهم النكال والوبال في جهنم وبئس القرار .

والضالون هم الذين لم يعرفوا الحق ، أو لم يعرفوه على الوجه الصحيح ، وهؤلاء هم الذين لم تبلغهم رسالة أو بلغتـــهم على وجه لم يستبن لهم فيها الحق ، فهم تائهون في عماية لا يهتدون معها إلى مطلوب ، تعترضهم الشبـــهات التي تلبس الحق بالباطل والصواب بالخطأ إن لم يضلوا في شئون الحياة الدنيا ضلوا في شئون الحياة الأخرى" [2].

وبناء على هذا التفسير الذي ارتضيناه أقول: إن التقديم والتأخير على النحو التالي:

أولاً: تقديم المنعم عليهم أولاً لشرفهم وفضلهم فهم أولى بالذكر من هاتين الطائفتين الهالكتين .

ثانياً : تقديم ما أنعم الله به على عباده من الهداية والكرامة أولى من تقديم ما فعله أشرار العباد بأنفسهم من استحقاق الغضب عليهم والوقوع في الضلالة والغواية فقدم الله ذكرهم لبيان إنعامه وإكرامه لهم .

---

(١) تفسير روح المعاني : ج١ ص٨٧، ٨٨.

(٢) تفسير المراغي ، ج١ ص٣٧.

ثالثاً: عند وصف الأشياء إنما يوصف الشيء بصفاته الثابتة واللازمة له قبل وصفه بصفات غيره المميزة له والفارقة بينه و بين المغاير له ، وكما هو معلوم أن مدلول {**غير**}هو المخالفة بوجه ما ، ولذا قدم صراط المنعم عليهم قبل المغضوب عليهم والضالين .

وقد مر بنا في الفصل الرابع { **أثر التقديم والتأخير في المعاني**} حكم تقديم غير وسوى وأن حكمهما وجوب التقديم في باب الإسناد إليهما ومر بنا قول المتنبي : غيري بأكثر هذا الناس ينخدع حيث إنه ليس ممن ينخدع ويغتر وكذلك قو أبي تمام : غيري يأكل المعروف سحتاً، حيث ينفي عن نفسه تلك الصفة الثابتة لغيره.

﴿ **غَيْرِ المَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلاَ الضَّالِّينَ**﴾(الفاتحة:٧) .

رأي أبي حيان في تقديم المغضوب عليهم على الضالين.

قال: "وقدم الغضب على الضلال وإن كان الغضب من نتيجة الضلال ضل عن الحق فغضب عليه لمجاورة الإنعام ومناسبة ذكره قرينة ، لأن الإنعام يقابل الانتقام ولا يقابل الضلال الإنعام فالإنعام إيصال الخير إلى المنعم إليه ، والانتقام إيصال الشر إلى المغضوب عليه ، فبينهما تطابق معنوي وفيه أيضاً تناسب التسجيع ، لأن قوله: {**ولا الضالين**} تمام السورة فناسب أواخر الآي، وكان العطف بالواو الجامعة التي لا دلالة فيها على التقديم والتأخير لحصول هذا المعنى من مغايرة جمع الوصفين الغضب عليه والضلال لم أنعم الله عليه ، وإن فسر اليهود والنصارى فالتقديم إما للزمان أو لشدة العداوة ، لأن اليهود أقدم وأشد عداوة من النصارى". [1]

أقول:والأرجح عندي تقدم اليهود على النصارى بسبب شدة عداوتـــهم يدل عليه قوله تعالى:﴿ **لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاس عَدَاوَةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا اليَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَـــهم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى ذَلِكَ بِأَنَّ مِنـــهم قِسِّيسِينَ وَرُهْبَاناً وَأَنـــهم لاَ يَسْتَكْبِرُونَ** ﴾ (المائدة:٨٢) .

---

(١) تفسير البحر المحيط جـ١ ص٦٠.

رأي الرازي :

اعتمد الرازي أسلوب التقديم والتأخير بين الآيات لبيان أحد وجوه التفسير لقوله تعالى :{ **غير المغضوب عليهم ولا الضالين** }قال : ويحتمل أن يقال : المغضوب عليهم هم الكفار ، والضالون هم المنافقون ، وذلك لأنه تعالى بدأ بذكر المؤمنين والثناء عليهم في خمس آيات من أول البقرة ثم أتبعه بذكر الكفار وهو قوله:﴿ **إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا**﴾(البقرة:٦) ثم أتبعه بذكر المنافقين وهو قوله:﴿ **وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا** ﴾ (البقرة:٨) فكذا هاهنا بدأ بذكر المؤمنين وهو قوله :{ **أنعمت عليهم** } ثم أتبعه بذكر الكفار وهو قوله: {**غير المغضوب عليهم**}ثم أتبعه بذكر المنافقين وهو قوله:{**ولا الضالين**} .[1]

أقول: وهذه مقارنة حسنة ، وحسن نظر غير سالم من الرد حيث يقال : إنما ذكر الكفار بعد المؤمنين في سورة البقرة ، وسبق ذكرهم ذكر المنافقين للسبق الوجودي حيث لم يوجد المنافقون كما هو معلوم إلا في المجتمع المدني، كما أنه عند التخلي عن المعايب وسيئ الصفات إنما يبدأ بالتنـــزه عن الأسوأ ثم السيئ ،ومعلوم أن المنافقين أسوأ كفراً وأعظم جرماً وأشد عذاباً من الكافرين قال تعالى:﴿ **إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيراً**﴾ (النساء:١٤٥) ، فلو كان الترتيب بين هذه الطوائف كما يدعي الرازي لكان المغضوب عليهم المقصود بـــهم المنافقون أولى من أن يكون المقصود بـــهم الكافرين ، ولهذا نجد الترتيب في الشر ذكره القرآن مرتباً ترتيباً تنازلياً مبتدئاً بالأسوأ فالأقل سوءاً وهكذا ومنه قوله تعالى:﴿**وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ** ﴾ (الحجرات:٧).

من نكات الترتيب التي ذكرها الرازي في الفاتحة :

بعد ذكر الرازي للأسماء الخمسة ذكر جملة من فوائدها منها النكتة الأولى : أن سورة الفاتحة فيها عشرة أشياء ، منها خمسة من صفات الربوبية ، وهي الله ، والرب والرحمن ، والرحيم ، والمالك، وخمسة أشياء من صفات

---

(١) مفاتيح الغيب ج١ ص٢٦٤ ، ٢٦٥.

العبد وهي العبودية والاستعانة وطلب الهداية وطلب الاستقامة وطلب النعمة كما قال :

{صراط الذين أنعمت عليهم} فانطبقت تلك الأسماء الخمسة على هذه الأحوال الخمسة ، فكأنه قيل إياك نعبد لأنك أنت الله ، وإياك نستعين لأنك أنت الرب ، اهدنا الصراط المستقيم لأنك أنت الرحمن وارزقنا الاستقامة لأنك أنت الرحيم ، وأفض علينا سجال نعمك وكرمك لأنك مالك يوم الدين". [1]

---

(١) مفاتيح الغيب جـ١ ص ٢٨٨.

سورة البقرة

ومناسبة سورة البقرة لفاتحة الكتاب واضحة جلية في أول السورة ، فإنه لما أخبر سبحانه أن عباده المخلصين سألوا في الفاتحة هداية الصراط المستقيم { **إهدنا الصراط المستقيم** } الذي هو غير طريق الهالكين أرشدهم في أول التي تليها إلى أن الهدى المسؤول إنما هو في هذا الكتاب ، وبين لهم صفات الفريقين فريق المؤمنين الناجين وفريق الهالكين الكافرين ، فكان ذلك من أعظم المناسبات لتعقيب الفاتحة بالبقرة ، لأنـــها سيقت لنفي الريب عن هذا الكتاب، وأنه هدى للمتقين الذين سألوا ربـــهم الهدى ثم شرعت في وصفهم ولماذا استحقوا الفلاح ووصفت الكافرين الذين لا يؤمنون لما وقع من الختم على حواسهم .

﴿ **الـــم * ذَلِكَ الكِتَابُ لاَ رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ**﴾(البقرة:١-٢) لقد تصدرت ثلاثون سورة في القرآن الكريم بالأحرف المقطعة منها سورة البقرة ، وبعيداً عن الخوض في معناها نسأل لماذا تقدمت هذه الأحرف المقطعة الثلاثين سورة؟ ولماذا لم تأت في وسط السورة أو آخرها ؟ الجواب : أن الحكمة في البداءة بـــهذه الأحرف هو التنبيه وطلب إصغاء السامعين إلى ما يلقى بعدها خاصة وقد قالوا :{ **لا تسمعوا لـــهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون** } ولذا فإن الحكيم إذا خاطب من يكون مشغول البال قدم على المقصود شيئاً غيره ، والغالب أن يكون مستغرباً جديداً في طرحه ليلتفت المخاطب بسببه إلى ما يراد أن يلتفت إليه ، فحيناً يكون كلاماً مفهوماً كقول القائل : اسمع أو ألق بالك إلي وحيناً يكون في معنى الكلام المفهوم كقولك يا علي ، وحيناً يكون صوتاً غير مفهوم المعنى كمن يصفر خلف إنسان ليلتفت إليه .

قال المراغي :" فحسن من الحكيم الخبير أن يقدم على المقصود حروفاً هي كالمنبـــهات لا يفهم منها معنى ، لتكون أتم في إفادة التنبيه ، لأنه إذا كان المقدم قولاً مفهوماً فربما ظن السامع أنه هو المقصود ولا كلام للمتكلم بعد ذلك ليصغى إليه ، أما إذا سمع صوتاً لا معنى له جزم أن هناك كلاماً آخر سيرد بعد فيقبل إليه تمام الإقبال ويرهف السمع إلى ما سيأتي ".

وقد ثبت بالاستقراء أن كل سورة في أوائلها حروف التهجي بدئت بذكر الكتاب أو التنـــزيل أو القرآن نحو { **الم ذلك الكتاب ، المص كتاب أنزل إليك ،يس والقرآن ، ص والقرآن ، ق والقرآن ،حم تنـــزيل الكتاب}** إلا ثلاث سور **{كهيعص ، الم أحسب الناس الم غلبت الروم}**[1]

وقد تقدم الريب على الظرف لأن المقصود نفي الريب عن الكتاب لا إثباته لغيره.

قال الزمخشري: "فإن قلت : فهلا قدم الظرف على الريب ، كما قدم على الغول في قوله تعالى :**﴿ لَا فِيهَا غَوْلٌ﴾**(الصافات:٤٧) قلت : لأن القصد في إيلاء الريب حرف النفي ، نفي الريب عنه وإثبات أنه حق وصدق لا باطل وكذب ، كما كان المشركون يدعونه ، ولو أولى الظرف لقصد إلى ما يبعد عن المراد وهو أن كتاباً آخر فيه الريب فيه ، كما قصد في قوله :{**لا فيها غول**} تفضيل خمر الجنة على خمر الدنيا بأنـــها لا تغتال العقول كما تغتالها هي كأنه قيل ليس فيها ما في غيرها من العيب والنقيصة" [2].

رأي الزمخشري في ترتيب الجمل داخل الآية:

بعدما ذكر الزمخشري الوجوه المختلفة في إعراب الآيات يرجح وجهاً إعرابياً مستنداً في ذلك على أنه أبلغ يقول: والذي هو أرسخ عرقاً في البلاغة أن يضرب عن هذه المحال صفحاً ، وأن يقال: إن قوله :

{**الم**} جملة برأسها ، أو طائفة من حروف المعجم مستقلة برأسها ، { **ذلك الكتاب** } جملة ثانية و{**لا ريب فيه**} ثالثة و{**هدى للمتقين**} رابعة .

يقول: وقد أصيب بترتيبـــها مفصل البلاغة وموجب حسن النظم ، حيث جيء بـــها متناسق هكذا من غير حرف نسق ، وذلك لمجيئها متآخية آخذ بعضها بعنق بعض ، فالثانية متحد بالأولى معتنقة لها وهلم جرا إلى الثالثة والرابعة . بيان ذلك أنه نبه أولاً على أنه الكلام المتحدى به ، ثم أشير إليه بأنه الكتاب المنعوت بغاية الكمال . فكان تقريراً لجهة التحدي ، وشداً من أعضاده ثم نفى عنه أن يتشبث به طرف من الريب ، فكان شهادة وتسجيلا

---

(١) تفسير المراغي : ج٢ ص١١١.

(٢) تفسير الكشاف ج١ ص ٤٤.

بكماله ، لأنه لا كمال أكمل مما للحق واليقين ، ولا نقص أنقص مما للباطل والشبهة . وقيل لبعض العلماء : فيما لذتك ؟ فقال : في حُجة تتبختر اتضاحاً، وفي شبهة تتضاءل افتضاحاً .ثم أخبر عنه بأنه هدى للمتقين فقرر بذلك كونه يقيناً لا يحوم الشك حوله وحقاً لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه .ثم لم تخل كل واحدة من الأربع بعد أن ترتب هذا الترتيب الأنيق ، ونظمت هذا النظم السري ، من نكتة ذات جزالة " .[١]

رأي أبي حيان في الآية السابقة :

ومع أن أباحيان خالف الزمخشري في رأيه الذي علل به تقديم الخبر على الظرف فقال: وقد انتقل الزمخشري من دعوى الاختصاص بتقديم المفعول إلى دعواه بتقديم الخبر ولا نعلم أحداً يفرق بين **[ليس في الدار رجل]** و**[ليس رجل في الدار]** وعلى ما ذكر من أن خمر الجنة لا يغتال ، وقد وصفت العرب بذلك خمر الدنيا.

قال علقمة بن عبدة :

تَشفي الصداعَ ولا يُؤذيك طالبها ولا يُخالطُها في الرأسِ تدويمُ

ونجد أن أبا حيان ينقل كلام الزمخشري بعينه دون أن يعزوه له وكان الأولى به نسبته إليه يقول أبو حيان ذاهباً إلى رأي الزمخشري دون أن يعترف بذلك: والأولى جعل كل جملة مستقلة فذلك الكتاب جملة ولا ريب جملة وفيه هدى للمتقين جملة ، ولم يحتج إلى حرف عطف لأن بعضها آخذ بعنق بعض فالأولى أخبرت بأن المشار إليه هو الكتاب الكامل كما تقول زيد الرجل : أي الكامل في الأوصاف والثانية نعت .. والثالثة أخبرت أن فيه الهدى للمتقين ".[٢]

رأي الرازي :

يرى الرازي أن تقديم الخبر على الظرف للأهمية يقول : السؤال الثاني: لم قال هاهنا **{لا ريب فيه}** وفي موضع آخر **{لا فيها غول}** ؟ الجواب لأنـــهم يقدمون الأهم فالأهم وهاهنا الأهم نفي الريب بالكلية عن الكتاب ،

---

(١) الكشاف ج١ ص ٤٦.

(٢) تفسير البحر المحيط ج٦ ص ١٦١.

ولو قلت : لا فيه ريب لأوهم أن هناك كتاباً آخر حصل الريب فيه لا هاهنا كما قصد في قوله: { **لا فيها غول** } تفضيل خمر الجنة على خمور الدنيا فإنـــها لا تغتال العقول كما تغتالـــها خمرة الدنيا . وبـــهذا يتفق رأي الرازي مع رأي الزمخشري وهو ما ذكره صاحب غرائب القرآن. [1]

﴿**الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ**﴾(البقرة:٣) .

في الآية السابقة تقدم ذكر الإيمان بالغيب على إقامة الصلاة و الإنفاق ، و السبب في ذلك يرجع إلى أن أمر العبادات كلها ويأتي في مقدمتها الصلاة ، وهي حق الله ثم الزكاة وهي حق العباد إنما يتعلق قبولها والجزاء عليها بالإيمان، فالله تعالى يقول :﴿ **وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُوراً**﴾ (الفرقان:٢٣)، ويقول ﴿ **الَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئاً وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ**﴾(النور:٣٩) وقد يكون التقديم للترتيب الوجودي أيضاً : إذ إن العبد يؤمر ويخاطب بالإيمان أولاً فإذا ما استجاب خوطب بعد ذلك بفروع الشريعة فإن الخطاب بالتكليف لا يتوجه لغير المؤمنين .

{**و يُقيمون الصَّلاةَ وممَّا رزقناهُم يُنفقون**} تقدمت الصلاة لأهميتها فهي ثاني الأركان بعد الشهادتين ، ولهذا تقدمت الصلاة على الزكاة في كل المواضع التي اقترنت بـــها في القرآن .

يقول الرازي في تفسير هذه الآية: "يحتمل أن يكون كالتفسير لكونـــهم متقين وذلك لأن المتقي هو الذي يكون فاعلاً للحسنات و تاركاً للسيئات ، أما الفعل فإما أن يكون فعل القلب وهو قوله: {**الذين يؤمنون**} وإما أن يكون فعل الجوارح ، وأساسه الصلاة والزكاة والصدقة ، لأن العبادة إما أن تكون بدنية وأجلها الصلاة أو مالية وأجلها الزكاة ولهذا سمى الرسول -عليه الصلاة والسلام { **الصلاة عماد الدين ، والزكاة قنطرة الإسلام**}. [2]

وجه آخر للتقديم وهو أن الصلاة حق الله والزكاة حق العبد فقدم حق الرزاق على حق المرزوق والدليل على ذلك حديث النبي -عليه الصلاة والسلام- {**فدين الله أحق بالقضاء** } وقد يكون التقديم أيضاً لأن الصلاة

---

(١) مفاتيح الغيب ج١ ص٢١ ؛ غرائب القرآن ص ١٣٧.

(٢) مفاتيح الغيب ج ١ ص٢٦.

سبب للرزق والدليل على ذلك قوله تعالى:﴿ **وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لا نَسْأَلُكَ رِزْقاً نَحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى**﴾(طه:١٣٢) ، وأما التقديم في قوله:{**ومما رزقناهم**} على قوله: { **ينفقون**} فقد ذكر البعض أنه من باب تقديم المفعول على الفاعل للاهتمام}.

وأقول : بأن التقديم هنا له أسباب أخر منها :

أولاً : إثبات الأدب مع الله بذكر كريم فعله بعباده أولاً فقدم فعل الله على فعل العبد.

ثانياً : الحث على السخاء والإنفاق بإثبات الملك لمالكه وواهبه الحقيقي.

ثالثاً: حسن الفاصلة .

قال أبو حيان : "وترتيب الصلاة على حسب الإلزام فالإيمان بالغيب لازم للمكلف دائماً ، والصلاة لازمة في أكثر الأوقات، والنفقة لازمة في بعض الأوقات،وهذا من تقديم الأهم فالأهم". [(١)]

﴿ **وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ** ﴾ (البقرة:٤) لم ذكر الله تعالى الإيمان بما أنزل إليه قبل ما أنزل من قبله مع أنه أسبق وجوداً ؟

وأقول: لأن الإيمان بما أنزل من قبل لم يعرف إلا من خلال الإيمان بما أنزل على محمد ، أو أن صحة الإيمان بما أنزل من قبل متوقفة على ما أنزل على النبي -عليه الصلاة والسلام- إذ هي الحكم في إثبات الصحيح من الزائف منها ولهذا قدم عليه والدليل عليه قوله تعالى: ﴿ **وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِناً عَلَيْهِ**﴾ (المائدة:٤٨) ، ويرى الرازي أن الآية التي قبلها {**الذين يؤمنون بالغيب**} في المسلمين، وأن هذه الآية التي بعدها في أهل الكتاب الذين آمنوا بالرسول: كعبد الله بن سلام ، وأن هذا التخصيص بالذكر مزيد تشريف لهم كما في قوله تعالى:﴿**مَن كَانَ عَدُوّاً لِّلَّهِ وَمَلائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ** ﴾ (البقرة:٩٨)، و يرى الرازي أن هذه الآية من ذكر الخاص بعد العام ، وهذا القول يفتقر إلى الدليل فدعوى التخصيص تحتاج إلى التنصيص. [(٢)]

---

(١) تفسير البحر المحيط ج١ ص١٦٥.

(٢) تفسير مفاتيح الغيب ج١ ص٣٥.

بينما يري أبو حيان أن تقديم الجار والمجرور في الآية { **وبالآخرة هم يوقنون**} اعتناء به ولتطابق الأواخر.[1]

وأقول: نعم التقديم هنا للاعتناء ، أما تطابق الأواخر فسفن بحره فيها واقفة ليست بالمواخر ، وإني لخائض يمّه وللجته بعد قليل عابر حتى ينجلي ظلام الليل بصبح سافر، ويصل إلى بر الأمان من عاتي أمواجه المسافر.

﴿ **خَتَمَ اللّهُ عَلَى قُلُوبِهمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ** ﴾ (البقرة :٧)

ويرى الزركشي أن التقديم والتأخير للتفنن في الفصاحة وإخراج الكلام على عدة أساليب.[2]

أقول: وليس هذا بالمراد فيما أرى والله أعلم بالصواب، ففي هذه الآية ذكر ثلاثة أشياء على هذا الترتيب القلب ثم السمع ثم البصر ، فما هو السر في هذا الترتيب؟ الجواب لكون القلب أشرف أعضاء الإنسان ،فحواس الإنسان كلها في خدمة القلب وموصلة إليه ، وهو الحكم على كل ما يسمعه الإنسان أو يراه في حياته حباً أو بغضاً قبولاً أو رفضاً ، قال تعالى :﴿ **وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْراً وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَى فَلَن يَهْتَدُوا إِذاً أَبَداً**﴾ (الكهف:٥٧) فالسماع ثابت لهم بدليل قوله: { **ذُكِّرَ**} وهو متقدم وجوداً إذ العلم مترتب عليه أولاً ثم جاء قوله :{ **فأعرضَ** } وهو من عمل القلب حيث كره الحق فأعرض عنه وتصديق ذلك أنه عند ذكر السبب تقدم القلب أولاً {**إنّا جعلنا على قلوبهم أكنةً أنْ يفقهوهُ وفي ءاذانهم وقراً**} ونظير ذلك قوله تعالى:﴿**وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ**﴾(فصلت:٥) والآيات في هذا المعنى كثيرة جداً ولأن القلب هو محل الإيمان وقبول الحق قال تعالى:﴿ **نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ**﴾ (الشعراء:١٩٣-١٩٤) أما قوله تعالى: ﴿**وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ**﴾ (الجاثية:٢٣) فأخر القلب فيها لأن العناية في هذه الآية بذم المتصامين عن السماع ، ومنهم الذين كانوا يضعون القطن في آذانهم

---

(١) تفسير البحر المحيط ج١ ص٣٦.

(٢) البرهان في علوم القرآن ج٣ ص٢٣٣

حتى لا يسمعوا ، ولهذا صدرت السورة بذكرهم في قوله:﴿ **وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ يَسْمَعُ آيَاتِ اللَّهِ تُتْلَى عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِراً كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا**﴾ (الجاثية:٧-٨).

وفي الحديث { **إن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب**}.

وأدب الإنسانية في حديثه عن العاطفة إنما يذكر القلب على أنه السبب أو المحرك للعواطف الإنسانية.

قال الألوسي: "وإنما قدم سبحانه الختم على القلوب هنا لأن الآية تقرير لعدم الإيمان فناسب تقديم القلوب لأنـــها محل الإيمان والسمع والأبصار طرق وآلات له وهذا بخلاف قوله تعالى: { **وختم على سمعه وقلبه** } فالسياق لعدم المبالاة بالمواعظ ولذا جاءت الفاصلة {**أفلا تذكرون**} فكان المناسب هناك تقديم {**السمع**}. [(١)]

﴿**وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ** ﴾(البقرة:٧) ذهب جمهور المفسرين وعلماء القرآن إلى تفضيل السمع على البصر ، وأن هذا التقديم للترقي ، لأن السمع أشرف من البصر ،ويستدلون على ذلك بأدلة عقلية ذكرها الرازي في المسألة السابعة فقال: "من الناس من قال: السمع أفضل من البصر لأن الله تعالى حيث ذكرهما قدم السمع على البصر لأن التقديم دليل على التفضيل ولأن السمع شرط النبوة بخلاف البصر ، ولذلك ما بعث الله رسولاً أصم وقد كان فيهم من كان مبتلى بالعمى، ولأن بالسمع تصل نتائج عقول البعض إلى البعض، فالسمع كأنه سبب لاستكمال العقل بالمعارف، والبصر لا يوقفك إلا على المحسوسات ولأن السمع متصرف في الجهات الست بخلاف البصر ،ولأن السمع متى بطل ، بطل النطق . ومنـــهم من قدم البصر لأن آلة القوة الباصرة أشرف ولأن متعلق القوة الباصرة هو النور ومتعلق القوة السامعة هو الريح.

وقولهم غير مسلم له لجملة من الأسباب :

- **أولاً** : السمع هو وسيلة الوحي تلقياً للرسول وسماعاً للمرسل إليهم قال تعالى:﴿ **وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ**﴾

---

(١) تفسير روح المعاني: ج١ ص٣٥.

(الملك: ١٠) أما ما ذكروه من أن السمع شرط للنبوة فذلك الشرط يشاركه غيره من انتفاء صفات العيبٍ الخلقي كلها من العرج والعمى والبكم والصمم وغيرها مما يعد عيباً خلقيا ، وأما ما ابتلى الله به بعض الأنبياء بالعمي ولم يبتلهم بالصمم فليس فيه دليل على تفضيل إذ هو محض إرادة الله وحكمته .

- **ثانيا** : قد يكون التقديم هنا من باب سبق الوجود، أي أن الأذن تخلقت قبل العين أو سبق إدراك ووظيفة، حيث إن إدراك المسموعات أسبق من إدراك المبصرات وقد بحثت هذه المسألة من الناحية الطبية .

وخلصت إلى صحة ما ذهبت إليه من سبق إدراك المسموعات قبل المبصرات ، حتى أن الجنين ليسمع الأصوات وهو في رحم أمه ، وكذلك بعد الولادة لا يستطيع المولود أن يبصر شيئاً عدة أيام بينما يسمع الأصوات التي من حوله قال الطبيب الأمريكي المشهور كيث صاحب المرجع الطبي المعروف **[النمو البشري]** حيث يقول :" تبدأ الأذن والعين في التكون أثناء الأسبوع الرابع من الحمل ولكن وظيفتي السمع والبصر يتكونان في وقت لاحق ، حديثو الولادة لا يستطيعون الرؤية بوضوح في الأسابيع الأولى بعد الولادة وذلك يرجع إلى عدم اكتمال تكون الجزء الحساس فقي شبكية العين المسئول عن حدة البصر ". (١)

وظيفة السمع تسبق وظيفة البصر في التطور حيث إن جنين الإنسان يستطيع السمع بعد انتهاء الشهر السادس من الحمل ، بينما لا يرى بوضوح حتى بداية الأسبوع العاشر بعد الولادة " . (٢)

أيضاً العصب البصري يكون غير كامل التكون عند الولادة ، بعد تعرض العين للضوء لمدة عشرة أسابيع تقريباً يكتمل تطور العصب البصري. (٣)

---

(1) Keith L Moor. the developing human clinically oriented embryology. 3rd edition with Islamic additions correlation studies with Qur`an and Hadith, by W.B. Saundres company USA 1982; {19} p 420

(2) Kwitko, ML {ED}: Surgery of the infant eye. New York. Appleton-Centurycrofts. 1979

(3) Gerhardet KJ. Abrams RM. Fetal exposures to sound and vibroacoustic stimulation. J Perinatol 2000 Dec. 20 {8 Pt 2} : S21-30

توجد كثير من الدلائل على قدرة الجنين على اختزان الخبرات الصوتية التي تظهر لاحقاً في المرحلة المتقدمة بعد الولادة ، يستطيع المولود أن يميز صوت أمه أو صوت أبيه أو بعض القطع الموسيقية التي استمع لها مسبقاً أثناء الحمل مما يثبت قدرة الجنين على التعلم وهو داخل الرحم.

اكتشف حديثاً أن الأصوات المحيطة بالمرأة الحامل تخترق الأنسجة والسوائل المحيطة برأس الجنين فتثير الأذن الداخلية من خلال التوصيل العظامي للموجات الصوتية" [١]

وقد نشرت جريدة العالم الإسلامي مقالاً بعنوان [**مدلولات مختلفة للبصر والرؤية والنظر في القرآن**] وتحت هذا العنوان : [**خواطر من وحي آيات البصر**] موضوع البحث العلمي الذي أعده الدكتور عفيفي محمود الأستاذ بكلية العلوم جامعة المنصورة والذي يتناول فيه المناقشة والإعجاز العلمي في قوله تعالى: {**قل هو الذي أنشأكم وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة قليلاً ما تشكرون**} وأيضاً قوله تعالى: {**إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسؤولاً**} ويقول الباحث إن هناك آيات أخرى تعد بالعشرات تقرن بين السمع والبصر ، وأول ما يلفت النظر فيها هو ذكر السمع قبل البصر مع أن البصر لا يقل عن السمع أهمية وقد يفوقه في الأهمية وذكر السمع قبل البصر مطابق للحقيقة العلمية ، فبينما يصبح الجنين سمعياً وهو في الشهر الثالث من الحمل لا يصبح بصيراً إلا بعد الولادة بأسبوعين فاكتمال حاسة السمع في هذا الطور المبكر يعطي الجنين فرصة الاستماع إلى دقات قلب أمه فترة كافية تجعله يستوعبـــها تماماً بحيث يتذكرها بعد الولادة كلما ضمته إلى صدرها وبـــهذا يهدأ ويطمئن وقت الإرضاع أما حاسة البصر فإن أعضاء الإبصار لا تمارس وظائفها إطلاقاً طوال الحياة الجنينية -رغم اكتمال تكوينها- لانعدام الضوء اللازم لنقل المرئيات"[٢]

---

(1) Moon CM, Fiefer WP. Evidence of transnatal auditory learning . J Prinatol 2000 Dec. 20(8 Pt 20):S37-44 .

(٢) جريدة العالم الإسلامي ص٨.

ثالثاً : لقد ذكر القرآن العين قبل الأذن في قوله تعالى: ﴿ **وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالأَنفَ بِالأَنفِ وَالأُذُنَ بِالأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ** ﴾ (المائدة:٤٥) وقوله تعالى:﴿ **أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا قُلِ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلاَ تُنظِرُونِ** ﴾ (الأعراف:١٩٥) .

- **ثالثاً**: أما كون السمع تصل به نتائج العقول بعضها إلى بعض فصحيح ولكن بالقراءة والنظر أيضاً تصل نتائج العقول بعضها إلى بعض ولا سيما الآن في عصر ثورة الاتصالات والتي تعتمد على النظر أكثر من السمع .
- **رابعاً** : الثابت عند أهل السنة والجماعة أن أعظم نعيم أهل الجنة هو النظر إلى ربـــهم في الجنة كما فسر النبي بذلك قوله تعالى: ﴿ **لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ** ﴾(يونس:٢٦) الحسنى الجنة والزيادة النظر إلى وجهه الكريم ، وفي الحديث عن نعيم أهل الجنة { **فما أعطوا شيئاً أحب إليهم من النظر إلى ...**}
- **خامساً**: إن فقد البصر أشد إيلاماً من فقد السمع ولهذا بدئ به في قوله تعالى:﴿**وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى وُجُوهِهِمْ عُمْياً وَبُكْماً وَصُماً**﴾ (الإسراء:٩٧).

ويؤيد ما ذكرته من أن البصر أهم من السمع وأفضل بوجه عام منه حديث البخاري الذي رواه عن أنس ﷺ قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول: {**إن الله عز وجل قال : إذا ابتليت عبدي بحبيبتيه فصبر عوضته عنهما الجنة ، يريد عينيه**} قال شارح رياض الصالحين معلقاً على الحديث : محضهما بذلك لأنـــهما أحب أعضاء الإنسان إليه وأخرج الترمذي وصححه من حديث أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ :{ **يقول الله عز وجل : من أذهبت حبيبتيه فصبر واحتسب لم أرض له ثواباً دون الجنة**} ووجه هذا الجزاء ، أن فاقدهما حبيس الدنيا فالدنيا سجنه حتى يدخل الجنة.[1]

---

(١) دليل الفالحين ج١ ص ١٦٧ ، ١٦٨.

وأقول: هذا الحديث قاطع في المسألة على أن البصر أفضل من السمع ولهذا ورد فيه هذا الفضل الذي لم يرد في أي عضو آخر .

أما الترتيب في قوله تعالى:﴿ **صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لا يَرْجِعُونَ**﴾ (البقرة:١٨) هذا مثل ضربه الله لحال المنافقين في الدنيا إذ إن هذا الترتيب يتوافق مع حال إعراضهم وعدم انتفاعهم بسماع الوحي فصاروا مثل الأصم، ثم لم يتكلموا بالإيمان ويشهدوا بالحق فترتب على ذلك عمايتهم في طريق الضلال .

قال الرازي: "اعلم أنه لما كان من المعلوم من حالهم أنهم كانوا يسمعون وينطقون ويبصرون امتنع حمل ذلك على الحقيقة فلم يبق إلا تشبيه حالهم لشدة تمسكهم بالعناد وإعراضهم عما يطرق سمعهم من القرآن وما يظهره الرسول من الأدلة والآيات بمن هو أصم في الحقيقة فلا يسمع ، وإذا لم يسمع لم يتمكن من الجواب فلذلك جعل بمنزلة الأبكم ، وإذا لم ينتفع بالأدلة و لم يبصر طريق الرشد فهو بمنزلة الأعمى" [1]

وللألوسي رأي وجيه في سر التقديم ، يقول: "وقدم الصمم لأنه إذا كان خلقياً يستلزم البكم وأخر العمى لأنه كما قيل : شامل لعمى القلب الحاصل من صرف المبصرات والحواس الظاهرة ، وهو بهذا المعنى متأخر لأنه معقول صرف ولو توسط -حل بين العصا ولحائها- ولو قدم-لأوهم تعلقه بـ{**لا يبصرون**} ، أو الترتيب على وفق حال الممثل له لأنه يسمع أولاً دعوة الحق ثم يجيب ويعترف ثم يتأمل ويتبصر ".[2]

ويؤيد ما ذهبت إليه في هذا الترتيب قوله تعالى : ﴿**وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيراً مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لاَّ يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لاَّ يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لاَّ يَسْمَعُونَ بِهَا أُوْلَئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ**﴾ (الأعراف:١٧٩) وقد ذهب البقاعي في تفسيره أن تقديم البصر هنا للعموم لأنه ينتفع به الصغير الذي لا يفهم القول وكذا كل من في حكمه .[3]

ونظير هذه الآية قوله تعالى:﴿ **أُوْلَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَى أَبْصَارَهُمْ**﴾ (محمد:٢٣).

---

(١) مفاتيح الغيب ج١ ص٨٤. (٢) روح المعاني ج١ ص٣٥. (٣) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور ، ج٣ ص١٥٩.

- **سادساً** : قد لا يكون في الآية تقديم ولا تأخير إذا قلنا بأن على أبصارهم استئناف والجار والمجرور خبر المبتدأ الذي هو غشاوة وسوغ الابتداء بالنكرة فيه اعتمادها على الجار والمجرور قبلها ، ولذلك يجب تقديم هذا الخبر لأنه هو الذي سوغ الابتداء بالمبتدأ فتحصل أن الختم على القلوب والأسماع وأن الغشاوة على الأبصار، فليس هنا تقديم للسمع على الأبصار.

قوله تعالى:﴿ **يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُم لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ۞ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ فِرَاشاً وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقاً لَّكُمْ**﴾ (البقرة:٢١-٢٢).

رأي الزمخشري في هذا الترتيب :

إنه سبحانه قدم من موجبات عبادته وملزمات حق الشكر له خلقهم أحياء قادرين أولاً لأنه سابقة أصول النعم ومقدمتها ، والسبب في التمكن من العبادة والشكر وغيرهما ، ثم خلق الأرض التي هي مكانهم ومستقرهم الذي لابد لهم منه ، وهي بمنزلة عرصة المسكن ومتقلبه ومفترشه ، ثم خلق السماء التي هي كالقبة المضروبة والخيمة المطنبة على هذا القرار ، ثم ما سواه عز وجل من شبه عقد النكاح بإنزال الماء منها عليها والإخراج به من بطنها - أشباه النسل المنتج من الحيوان - من ألوان الثمار رزقاً لبني آدم ..[1]

وقد ذكر الرازي في ترتيب الآية جملة من الأسباب لها وجاهتها فيقول:

المسألة الثالثة : أن الله تعالى ذكر هاهنا خمسة أنواع من الدلائل اثنين من الأنفس وثلاثة من الآفاق ، فبدأ أولاً بقوله {**خلقكم**} وثانياً بالآباء والأمهات وهو قوله: { **والذين من قبلكم**} ، وثالثاً بكون الأرض فراشاً ، ورابعاً بكون السماء بناءً ، وخامساً بالأمور الحاصلة من مجموع السماء والأرض ، وهو قوله: { **وأنزل من السماء ماءً فأخرج به من الثمرات رزقاً لكم**} ولهذا الترتيب أسباب .

---

(١) الكشاف : ج١ ص٩٩.

- **الأول** : أن أقرب الأشياء إلى الإنسان نفسه ، وعلم الإنسان بأحوال نفسه أظهر من علمه بأحوال غيره ، وإذا كان الغرض من الاستدلال إفادة العلم ، فكل ما كان أظهر دلالة كان أقوى إفادة ، وكان أولى بالذكر . فلهذا السبب قدم ذكر نفس الإنسان ، ثم ثناه بآبائه وأمهاته ثم ثلث بالأرض ، لأن الأرض أقرب إلى الإنسان من السماء،والإنسان أعرف بحال الأرض منه بحال السماء ، وإنما قدم ذكر السماء على نزول الماء من السماء وخروج الثمرات بسببه لأن ذلك كالأمر المتولد من السماء والأرض والأثر متأخر عن المؤثر ، فلهذا السبب أخر الله ذكره عن ذكر الأرض والسماء .
- **الثاني** : هو أن خلق المكلفين أحياء قادرين أصل لجميع النعم ، وأما خلق الأرض والسماء والماء فذاك إنما ينتفع به بشرط حصول الخلق والحياة والقدرة والشهوة،{**فلا جرم قدم ذكر الأصول على الفروع**}.

أقول :ومما يؤيد قول الرازي ويشهد لصحته قوله تعالى ﴿**وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِيالأَرْضِ جَمِيعاً مِّنْهُ**﴾(الجاثية:١٣).

- **الثالث**: أن كل ما في الأرض والسماء من دلائل الصانع فهو حاصل في الإنسان ، وقد حصل في الإنسان من الدلائل ما لم يحصل فيهما لأن الإنسان حصل فيه الحياة والقدرة والشهوة والعقل ، وكل ذلك مما لا يقدر عليه أحد سوى الله تعالى . فلما كانت وجوه الدلائل له هنا أتم كان أولى بالتقديم. ويذكر في المسألة السادسة تفصيل القول في أن السماء أفضل أم الأرض ؟ قال بعضهم : السماء أفضل لوجوه.

أحدها:أن السماء متعبد الملائكة ، وما فيها بقعة عصى الله فيها أحد.

وثانيها : لما أتى آدم – عليه السلام بتلك المعصية – قيل له اهبط من الجنة ، وقال الله تعالى:لا يسكن في جواري من عصاني.

- **الرابع** : قوله تعالى :﴿ **وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفاً مَّحْفُوظاً**﴾ (الأنبياء:٣٢) وقوله:﴿ **تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجاً**﴾ (الفرقان:٦١) ولم يذكر في الأرض مثل ذلك.

- **الخامس** : أن في أكثر الأمر ورد ذكر السماء مقدماً على الأرض في الذكر .ونحن نتفق مع قول الرازي فيما ذهب إليه من أسباب التفضيل ، ولكن لو قال وما عصي الله في بقاع السماء كما عصي في بقاع الأرض لكان أحسن لأن إبليس قد عصى الله في السماء وليس على الأرض وذكر الرازي وجوهاً كثيرة لسبب تفضيل السماء على الأرض ، منها أن :

فيها العرش والكرسي ومتعبد الملائكة ومنها أنـــها قبلة الدعاء ،فالأيدي ترفع إليها والوجوه تتوجه نحوها وهذا مردود عليه بأن السماء ليست قبلة الدعاء وإنما ترفع الأيدي إلى الله وتتوجه الوجوه نحوه حيث له علو الذات وعلو القهر، ومنها أن السموات مؤثرة غير متأثرة ، والأرضون متأثرة غير مؤثرة والمؤثر أشرف من القابل ، فلهذا السبب قدم ذكر السماء على الأرض في الأكثر " .[1]

وأزيد على ما ذكره الرازي من أن تقديم السماء على الأرض للتفضيل ، لأن لها صفة الفوقية ، والعلو أفضل من السفل فمن أسماء الله تعالى الظاهر **﴿ هُوَ الأَوَّلُ وَالآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ﴾**(الحديد:٣) والمراد بالظهور العلو ومنه قوله :**﴿ فَمَا اسْطَاعُوا أَن يَظْهَرُوه ﴾**(الكهف:٩٧) ووصف الله نفسه بالفوقية **﴿ وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِه ﴾**(الأنعام:١٨)وكما قال تعالى: **﴿ يَخَافُونَ رَبَّــهم مِّن فَوْقِهِمْ ﴾** (النحل:٥٠) والله تعالى مستو على السماء كما روى أحمد ومسلم وأبو داود والنسائي وهذه رواية مسلم عن معاوية بن الحكم السلمي قال بينا أنا أصلي مع رسول الله ﷺ إذ عطس رجل من القوم فقلت يرحمك الله فرماني القوم بأبصارهم فقلت واثكل أمياه ما شأنكم تنظرون إليّ فجعلوا يضربون بأيديهم على أفخاذهم فلما رأيتـــهم يصمتونني لكنني سكت فلما صلى رسول الله ﷺ فبأبي هو وأمي ما رأيت معلماً قبله ولا بعده أحسن تعليماً فوالله ما نـــهرني ولا ضربني ولا شتمني قال : إن هذه الصلاة لا يصلح فيها شيء من كلام الناس إنما هو التسبيح والتكبير وقراءة القرآن أو كما قال

---

(١) مفاتيح الغيب ج١ ص ١١٥-١١٧.

رسول الله ﷺ قلت يا رسول الله إني حديث عهد بجاهلية وقد جاء الله بالإسلام وإن منا رجالاً يأتون الكهان قال فلا تأتـــهم قال ومنا رجال يتطيرون قال ذاك شيء يجدونه في صدورهم فلا يصدنكم قال قلت ومنا رجال يخطون قال كان نبي من الأنبياء يخط فمن وافق خطه فذاك قال وكانت لي جارية ترعى غنماً لي قبل أحد فاطلعت يوماً فإذا الديب قد ذهب بشاة من غنمها وأنا رجل من بني آدم آسف كما يأسفون لكني صككتها صكة فأتيت رسول الله ﷺ فعظم ذلك عليَّ قلت يا رسول الله أفلا أعتقها قال ائتني بـــها فأتيته بـــها فقال لـــها أين الله ؟ قالت في السماء، قال :فمن أنا ؟ قالت:أنت رسول الله قال : أعتقها فإنـــها مؤمنة".[1]

ومن السماء تتنـــزل الرحمة وهذا ثابت من رقية النبي-عليه الصلاة والسلام - للمريض قال: { **ربنا الله الذي في السماء تقدس اسمك أمرك في السماء والأرض كما رحمتك في السماء اجعل رحمتك في الأرض اغفر لنا حوبنا وخطايانا أنت رب الطيبين أنزل رحمة من رحمتك وشفاء من شفائك على هذا الوجع فيبرأ** } رواه أبو داود وأحمد. [2]

ومن السماء تتنـــزل الرحمة المادية والمعنوية المادية وهي الماء كما قال تعالى:﴿**وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ** ﴾(الشورى:٢٨) والمعنوية وهذا ثابت من رقية النبي ﷺ للمريض{**ربنا الله الذي في السماء تقدس اسمك أمرك في السماء والأرض كما رحمتك في السماء اجعل رحمتك في الأرض اغفر لنا حوبنا وخطايانا أنت رب الطيبين أنزل رحمة من رحمتك وشفاً من شفائك على هذا الوجع فيبرأ** } كما أنه قد عُصي الله في الأرض بما لم يُعص في السماء قال تعالى:﴿**أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا**﴾ (البقرة:٣٠) وقدمت الأرض على السماء في ستة مواضع وليس في خمسة مواضع كما ذكر الفيروزابادي ، منها هذه الآية وفي آل عمران في قوله تعالى:

---

(١) صحيح مسلم كتاب المساجد ومواضع الصلاة رقم {٨٣٦} والنسائي كتاب السهو رقم {١٢٠٣} وأبي داود كتاب الصلاة رقم {٧٩٥} وكتاب الأيمان والنذور رقم {٢٨٥٦} ومسند أحمد باقي مسند المكثرين رقم {٧٥٦٥} ومسند الشاميين {١٧٢٦٦} ومسند الكوفيين {١٨٦٣٦} و {١٨٦٤٧} وباقي مسند الأنصار {٢٢٦٤٥ و {٢٢٦٤٩} و { ٢٢٦٥٢ }

(٢) أحمد/ ٦/ ٢٠ أبو داود ٣٨٩٢.

﴿ **إِنَّ اللَّهَ لاَ يَخْفَى عَلَيهِ شَيْءٌ فِي الأَرْضِ وَلاَ فِي السَّمَاءِ** ﴾ (آل عمران:٥) وبدأ بالحديث عن علم الله بالأرض لأن المخاطبين هم البشر وحياتــهم وأعمالــهم فوق الأرض ليس في السماء وهو نفس السبب في سورة إبراهيم ﴿ **وَمَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِن شَيْءٍ فِي الأَرْضِ وَلاَ فِي السَّمَاءِ** ﴾(إبراهيم:٣٨) وكذلك في يونس﴿ **فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلاَ فِي السَّمَاءِ**﴾ (يونس:٦١) أما في طه فالتقديم كآية سورة البقرة للترتيب الوجودي ﴿ **تَنزِيلاً مِّمَّنْ خَلَقَ الأَرْضَ وَالسَّمَوَاتِ الْعُلَى** ﴾ (طه:٤) أما سورة العنكبوت فلأن البشر على الأرض أقدر منــهم في السماء ، أو قد يكون من باب الترقي أي إن كنتم قادرين في الأرض ثم أصبحتم أعظم في القدرة فصرتم إلى السماء فلستم معجزين لله ﴿ **وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِي الأَرْضِ وَلاَ فِي السَّمَاءِ**﴾ (العنكبوت:٢٢) .

رأي أبي حيان الأندلسي :

قال: "وعطف قوله:{**والذين من قبلكم**} على الضمير المنصوب في{**خلقكم**} والمعطوف متقدم في الزمان على المعطوف عليه وبدأ به وإن كان متأخراً في الزمان لأن علم الإنسان بأحوال نفسه أظهر من علمه بأحوال غيره ، إذ أقرب الأشياء إليه نفسه ، ولأنــهم المواجهون بالأمر بالعبادة ، فتنبيههم أولاً على أحوال أنفسهم آكد وأهم ، وبدأ أولاً بصفة الخلق إذ كانت العرب مقرة بأن الله خالقها، وهم المخاطبون والناس تبع لهم إذ نزل القرآن بلسانــهم". [(١)]

ويقول في موضع آخر عن سر التفضيل في هذه الآية حكاية عن بعض المفسرين: "وقدم الخلقة البشرية وإن كانت العالم الأصغر لما فيها من بدائع الصنعة ما لا يعبر عنه وصف لسان ، ولا يحيط به فكر جنان ، وظهور حسن الصنعة في الأشياء اللطيفة الجرم أعظم من في الأجرام العظام ، ولأن اعتبار الإنسان بنفسه في تقلب أحواله أقرب إلى ذهنه قال تعالى:﴿ **وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلاَ تُبْصِرُونَ** ﴾ (الذاريات:٢١) أو لأن العرب عادتــها تقديم الأهم عندها والمعتنى

---

(١) البحر المحيط جـ٣ ص ٢٣٤.

به وهو تعالى بإصلاح حال البنية البشرية أكثر اهتماماً من غيرها من المخلوقات ، لأنـــها أشرف مخلوقاته وأكرمها عليه قال تعالى:﴿ **وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ** ﴾ (الإسراء:٧٠) ولأنه تعالى خلق هذه الأشياء منافع لبني آدم وأعدها نعماً يمتن بـــها عليهم وذكر المنعم عليه يتقدم على ذكر النعمة ، .... وقد ذكر الأرض على السماء وإن كانت أعظم في القدرة وأمكن في الحكمة وأتم في النعمة وأكبر في المقدار ، لأن السقف والبنيان فيما يعهد لا بد له من أساس وعمد مستقر على الأرض ، فبدأ بذكرها إذ على متنها يوضع الأساس وتستقر القواعد ، إذ لا ينبغي ذكر السقف أولاً قبل ذكر الأرض التي تستقر عليها قواعده ، أو لأن الأرض خلقها متقدم على السماء ، فإنه تعالى خلق الأرض ومهد رواسيها قبل خلق السماء قال تعالى:﴿ **قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ**﴾ (فصلت: ٩)، أو لأن ذلك من باب الترقي بذكرالأدنى إلى ذكر الأعلى". [١]

أقول: وتقديم الأرض على السماء في هذه الآية إنما هو تقديم وجودي وليس تقديم فضل ، فالأرض أسبق وجوداً من السماء وهذا ما يتفق وظاهر القرآن في قوله تعالى:﴿ **قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَاداً ذَلِكَ رَبُّ العَالَمِينَ. وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ . ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِوَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ**﴾ (فصلت ٩-١٠-١١)، وليس ذلك معارض بقوله تعالى :﴿**أَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقاً* أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا * رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّاهَا * وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا** ﴾ (النازعات:٢٧-٢٨-٢٩) فإن الله ذكر دحي الأرض وليس خلقها وإيجادها وليس معارضاً كذلك بقوله تعالى:﴿**وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلاَ فِي السَّمَاءِ وَلاَ أَصْغَرَ مِن ذَلِكَ وَلاَ أَكْبَرَ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ** ﴾ (يونس:٦١) رأي الزمخشري قال: " فإن قلت : لم قدمت الأرض على السماء بخلاف قوله في سورة سبأ: ﴿ **عَالِمِ الغَيْبِ لاَ يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلاَ فِي الأَرْضِ**﴾ (سبأ :٣) قلت: حق السماء أن تقدم على الأرض ، ولكنه لما ذكر

(١) البحر المحيط ج١ ص ٢٤١.

شهادته على شؤون أهل الأرض وأحوالهم وأعمالهم ووصل بذلك قوله: {**لا يعزب عنه**} لاءم ذلك أن قدم الأرض على السماء" .[1]

وقد ذكر القرطبي في تفسيره للآية السابعة من سورة آل عمران حديثاً يزيل ذلك الإشكال ، روى البخاري عن سعيد بن جبير قال : قال رجل لابن عباس إني أجد في القرآن أشياء تختلف عليَّ قال: ما هو؟ قال:﴿ **فَلاَ أَنسَابَ بَيْنَهم يَوْمَئِذٍ وَلاَ يَتَسَاءَلُونَ**﴾ (المؤمنون:١٠١) وقال:﴿ **وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ** ﴾ (الصافات:٢٧) وقال:﴿ **وَلاَ يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثاً** ﴾ (النساء:٤٢) وقال :﴿ **قَالُوا وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ** ﴾ (الأنعام:٢٣) فقد كتموا الله في هذه الآية وفي النازعات { **أم السماء بناها ... إلى قوله دحاها** } فذكر خلق الأرض قبل خلق السماء ثم قال : { **أئنكم لتكفرون بالذي خلق الأرض في يومين** }

فذكر في هذا خلق الأرض قبل خلق السماء وقال :﴿ **وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَّحِيماً**﴾ (النساء:١٠٠) ﴿ **وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزاً حَكِيماً**﴾ (النساء:١٥٨) ﴿ **وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعاً عَلِيماً**﴾ (النساء :١٤٨) فكأنه كان ثم مضى فقال ابن عباس: { **فلا أنساب بينهم** }في النفخة الأولى ثم ينفخ في الصور فصعق من في السموات ومن في الأرض إلا من شاء الله فلا أنساب بينهم عند ذلك ولا يتساءلون، ثم في النفخة الآخرة أقبل بعضهم على بعض يتساءلون وأما قوله: {**ما كنا مشركين**} و{ **ولا يكتمون الله حديثاً** } فإن الله يغفر لأهل الإخلاص ذنوبهم وقال المشركون: تعالوا نقول: لم نكن مشركين فختم الله على أفواههم فتنطق جوارحهم بأعمالهم فعند ذلك عُرف أن الله لا يكتم حديثاً وعنده يود الذين كفروا لو كانوا مسلمين ، وخلق الله الأرض في يومين ثم دحا الأرض أي بسطها فأخرج منها الماء والمرعى وخلق فيها الجبال والأشجار والآكام وما بينها في يومين آخرين فذلك قوله: {**والأرض بعد ذلك دحاها**} فخلقت الأرض وما فيها في أربعة أيام وخلقت السماء في يومين وقوله: {**وكان الله غفوراً رحيماً**}.

---

(١) الكشاف ج٢ ص ٤٣٢.

يعني نفسه ذلك أي لم يزل ولا يزال كذلك ، فإن الله لم يرد شيئاً إلا أصاب به الذي أراد ويحك فلا يختلف عليك القرآن فإن كلاً من عند الله". [١]

أما تقديم المفعول غير الصريح في الآية فله عدة أوجه ، أن يكون ذلك إظهاراً للفضل وإشعاراً بالمنة والتخصيص بالنعمة، أو كما ذكر الألوسي أنه تعجيل المسرة ببيان كون ما يعقبه من منافع المخاطبين أو للتشويق إلى ما يأتي بعده ، أو لما في المؤخر وما عطف عليه من نوع طول فلو قدم لفات تجاوب الأطراف". [٢]

وفي هذه الآية تنقل من الأقرب إلى الأبعد كما ذكر الزركشي: قدم ذكر المخاطبين على من قبلهم ، وقدم الأرض على السماء ". [٣]

قال البقاعي: "ورُتبت هذه النعم الدالة على الخالق الداعية إلى شكره أحكم ترتيب قدم الإنسان لأنه أعرف بنفسه والنعمة عليه أدعى إلى الشكر ، وثنى بمن قبله لأنه أعرف بنوعه ، وثلث بالأرض لأنـــها مسكنه الذي لابد له منه ، وربع بالسماء لأنـــها سقفه ، وخمس بالماء فقال: **{وأنزل}** . [٤]

وقد تقدم ذكر السماء على الأرض في معظم المواضع منها قوله تعالى :

﴿وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ﴾ (آل عمران:١٣٣) وقوله تعالى في نفس السورة:**﴿ لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾** (آل عمران:١٨٩) والآية التسعين بعد المائة من نفس السورة **{ إن في خلق السموات والأرض}** وفي سورة المائدة في قوله تعالى: **﴿ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ ﴾**(المائدة:١٧) ، وفي الآية التالية أيضاً **﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ ﴾** (المائدة:١٨) وفي الآية السابعة والتسعين من نفس السورة **{ذلك لتعلموا أن الله يعلم ما في السموات وما في الأرض}**، وفي الآية العشرين بعد المائة **{لله ملك السموات والأرض وما فيهن}** وفي سورة الأنعام**﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ﴾** (الأنعام:١) وقوله تعالى في سورة الإسراء:

---

(١) القرطبي ج٣ ص٩ ، ١٠.
(٢)روح المعاني ج١ ص١٨٨.
(٣) نظم الدرر ج١ ص٥٦
(٤) البرهان ج٣ ص٣١١ ، ٣١٢.

﴿وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ (الإسراء:٥٥) والتاسعة والتسعين من نفس السورة .

{ أولم يروا أن الله الذي خلق السموات والأرض } وفي سورة فاطر ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ أَن تَزُولا﴾ (فاطر:٤١) وفي سورة الأحزاب ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ (الأحزاب:٧٢) وفي سورة الحديد

﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ﴾ (الحديد :٤) وفي مواطن كثيرة أخرى لم أذكرها طلباً للاختصار .

قوله تعالى :﴿ فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ ﴾ (البقرة:٢٤)

تقدم ذكر الحجارة على ذكر الناس كما في قوله تعالى :﴿ قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَاراً وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ ﴾ (التحريم:٦) وقوله تعالى :﴿ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ ﴾ (الأنبياء:٩٨) وسر التقديم هنا أن الآية سيقت لتهديد ووعيد العصاة بالنار وتخويفهم بـــها ، فكان المناسب أن يبدأ بـــهم ، لأن النار وما فيها من حطب إنما خلقت من أجل تعذيـــهم وهذا من باب تقديم الغايات على الوسائل .

قال أبوحيان: "وقدم الناس على الحجارة لأنـــهم العقلاء الذين يدركون الآلام والمعذبون ،أو لكونـــهم أكثر إيقاداً للنار من الجماد لما فيهم من الجلود والشحوم والعظام والشعور ، أو لأن ذلك أعظم في التخويف فإنك إذا رأيت إنساناً يحرق اقشعر بدنك وطاش لبك ، بخلاف الحجر . وهذا الأخير هو ما نميل إليه ، إذ إن السياق في الآيات ذكر على سبيل التخويف والأمر باتقائها ". (١)

وإلى نفس المعنى ذهب الألوسي (٢). ﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ ﴾ (البقرة:٢٥) .

تقدم خبر أن على اسمها وذلك لأن تقديم الخبر كما يقول أبوحيان آكد من تقديم المخبر عنه لقرب عود الضمير على{الذين آمنوا } فهو أسرّ

---

(١) البحر المحيط ج١ ص٢٥٠. (٢) روح المعاني ج١ ص١٦٣.

للسامع، والشائع أنه إذا كان الاسم نكرة تعين تقديمه كما في قوله تعالى: ﴿ أئنَّ لنا لأجْراً﴾ (الشعراء:٤١) ، وفي وصف الجنة في القرآن نجد دائماً أن ذكر الأنــهار فيها مقدم على سائر الصفات وسر ذلك لتقديم كما يقول أبو حيان: "ولما كانت الجنة لا تشوق والروض لا يروق إلا بالماء الذي يقوم لها مقام الأرواح للأشباح ما كاد مجيء ذكرها مشفوعاً بذكر الأنــهار مقدماً على هذا الوصف فيها على سائر الصفات" .[1]

وفي هذا التقديم كما لا يخفى بيان كمال الاعتناء والاهتمام بالمؤمنين وأن نعيم الجنة إنما سيق من أجلهم .

﴿ يُضلُّ به كثيراً ويَهْدي به كثيراً ﴾ (البقرة:٢٦) أما لماذا تقدم الضلال على الهدى في هذه الآية مع أنه أشرف ؟ فأقول: لمناسبة السياق حيث إن الحديث هنا عن الكافرين الضالين الذين لم ينتفعوا بالأمثال بل ضلوا بــها ، فكان المناسب أن يبتدأ بــهم لأنــهم أصحاب الشأن والآية إنما نزلت في شأنــهم، وهذا لا يعارض بأن التقديم قد يكون أيضاً للأغلبية والكثرة حيث إنه لا يهتدي بالأمثال ولا يعقلها إلا المؤمنون وهم الأقل.

يقول الألوسي عن سبب ذلك : "وقدم في النظم الإضلال على الهداية مع سبق الرحمة على الغضب ، وتقدمها بالرتبة والشرف لأن قولهم ناشئ من الضلال" .[2]

﴿الَّذينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللَّه منْ بَعْد ميثَاقه وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ به أَن يُوصَلَ وَيُفْسدُونَ في الأَرْض أُوْلَئكَ هُمُ الخَاسرُونَ ﴾ (البقرة:٢٧)، تقدم في هذه الآية حق الله على حق عباده من باب التقديم للاهتمام والفضل والشرف، كما أن كل عهد بين العباد إنما هو فرع من عهد الله ونابع منه فهو أصل كل العهود ونظير هذه الآية قوله سبحانه: ﴿وَالَّذينَ يَصلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ به أَن يُوصَلَ ﴾ (الرعد:٢١) قال شيخ الإسلام ابن تيمية في معرض حديثه عن قوله تعالى : {واتقوا الله الذي تساءلون به والأرحام } " واعلم أن حق الله داخل في الحقين ومقدم عليهما ولهذا قدمه في قوله :{ اتقوا ربكم الذي

---

(١) البحر المحيط ج١ ص٢٥٦.   (٢) روح المعاني ج١ ص٢٠٩.

خلقكم } فإن الله خلق العبد وخلق أبويه وخلقه من أبويه. فحق النسب والقرابة والرحم تقدمه حق الربوبية " .[1]

﴿ **كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَاتاً فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ** ﴾(البقرة:٢٨) ، وقبل النظر في أسباب التقديم والتأخير في هذه الآية ينبغي أن نعرف ما المقصود بالموت الأول والثاني والحياة الأولى والثانية نظراً لتعدد أقوال العلماء في ذلك ، كما أن القول بالتقديم والتأخير إنما مداره وتعلقه على هذا المعنى.

أقول:إن أولى الأقوال بالقبول هو قول ابن عباس،وابن مسعود، ومجاهد،: كنتم أمواتاً معدومين قبل أن تخلقوا دارسين ، كما يقال للشيء الدارس ميت ثم خلقتم وأخرجتم إلى الدنيا فأحياكم ، ثم أماتكم الموت المعهود ثم يحييكم للبعث يوم القيامة.

وهذا القول هو المقدم بدلالة الآية الثانية من سورة الملك :

{ **الذي خلق الموت والحياة** } وهو ما سوف يأتي بيانه عند الحديث عنها .

وقد ذكر ابن عطية عن القاضي أبي محمد أن هذا القول هو أولى الأقوال، لأنه الذي لا محيد للكفار عن الإقرار به في أول ترتيبه ثم إن قوله أولاً { **كنتم أمواتاً** } وإسناده آخر الإماتة إليه تبارك وتعالى مما يقوي ذلك القول، وإذا أذعنت نفوس الكفار لكونـــهم أمواتاً معدومين ، ثم للإحياء في الدنيا ، ثم للإماتة فيها قوي عليهم لزوم الإحياء الآخر ، وجاء جحدهم له دعوى لا حجة عليها .[2] وقريباً من هذا القول ما ذهب إليه البغوي في معالم التنـــزيل قال:{ **وكنتم أمواتاً** } نطفاً في أصلاب آبائكم { **فأحياكم** } في الأرحام والدنيا {**ثم يميتكم**}عند انقضاء آجالكم { **ثم يحييكم** } للبعث { **ثم إليه ترجعون** } أي تردون في الآخرة فيجزيكم بأعمالكم" .[3] لقد تقدم ذكر الموت على الحياة في أكثر آيات القرآن الكريم مع أن الحياة أشرف من الموت

---

(١) أحكام الزواج للإمام تقي الدين ابن تيمية ص ١٠،١١.

(٢) المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز المشتهر باسم تفسير ابن عطية ج١ ص٢٢٠-٢٢٢.

(٣) معالم التنزيل في التفسير والتأويل ج١ ص٦٠.

من ذلك قوله تعالى:﴿ **قَالُوا رَبَّنَا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ**﴾ (غافر:١١) وقوله تعالى:﴿ **وَأَنَّهُ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا**﴾ (النجم:٤٤) .

ذكر الزركشي بعضاً من أسباب ذلك التقديم فقال: "إن فيه قهراً للخلق والمقام يقتضيه ومنها أن حياة الإنسان كلا حياة ، ومآله إلى الموت ، ولا حياة إلا بعد الموت.ومنها : أن الموت تقدم في الوجود ، إذ الإنسان قبل نفخ الروح فيه كان ميتاً لعدم الروح. وهذا إن أريد بالموت عدم الوجود ، بدليل { **وكنتم أمواتاً فأحياكم** } وإن أريد به بعد الوجود فالناس منازعون في الموت هل هو أمر وجودي كالحياة أو لا ؟

وقيل بالوقف ، قالت الفلاسفة : الموت عدم الحياة عما من شأنه أن يكون حياً .

والجمهور على أنه أمر وجودي يضاد الحياة ، محتجين بقوله :﴿ **الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ** ﴾(الملك :٢) والحديث في الإتيان بالموت على صورة كبش وذبحه.

وأجيب عن الآية بأن الخلق بمعنى التقدير ، ولا يجب في المقدر أن يكون وجودياً ، وعن الثاني بأن ذلك على طريق التمثيل ، لبيان انقطاع الموت وثبوت الخلود .

فإن قلنا عدمي ، فالتقابل بينه وبين الحياة تقابل العدم والملكة ، وعلى الصحيح تقابل التضاد.

وعلى القول بأنه وجودي يجب أن يقال: تقديم الموت الذي هو عدم الوجود، لكونه سابقاً أو معدوم الحياة الذي هو مفارقة الروح البدني يجوز أن يكون لكونه الغاية التي يساق إليه الإنسان في دار الدنيا ، .. أو تزهيداً في الدار الفانية ، وترغيباً فيما بعد الموت .

فإن قيل : فما وجه تقدم الحياة في قوله:﴿ **قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ**﴾ (الأعراف:٢٥) .

وقوله:﴿ **وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ**﴾ (الأنعام:١٦٢) قلنا: - الكلام للزركشي - إن كان الخطاب لآدم وحواء ، فلأن حياتـــهما في الدنيا سبقت الموت ، وإن كان للخلق فالخطاب لمن هو حي يعقبه الموت فما التقديم بالترتيب ، وكذا الآية بعده .

فإن قيل: فما وجه تقديم الموت على الحياة في الحكاية عن منكري البعث ﴿ **إنْ هِيَ إلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيا** ﴾(المؤمنون: ٣٧) قلت لأجل مناسبة رؤوس الآي فإن قلت: فما وجه تقدم التوفي على الرفع في قوله:﴿ **إنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ**﴾ (آل عمران:٥٥) قيل:فيه جوابان:

أحدهما : المراد بالتوفي النوم ، كقوله تعالى:﴿ **يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ**﴾(الأنعام:٦٠).

ثانيهما : أن التاء في متوفيك زائدة ، أي متوفيك عملك .[1]

أقول: وهناك أوجه أخر لم يذكرها الزركشي منها : أن التوفي هو الإماتة العادية والرفع رفع الروح والمكانة لا المكان كما قال تعالى : في شأن إدريس عليه السلام — ﴿**وَرَفَعْنَاهُ مَكَاناً عَلِياً**﴾(مريم:٥٧) وقال في شأن المؤمنين: ﴿ **فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ** ﴾ (القمر:٥٥) ويكون المعنى إني مميتك وجاعلك بعد الموت في مكان علي رفيع، والذي أراه أن عيسى – عليه السلام- رفع من غير نوم ولا موت، حيث رفع حياً بجسمه وروحه وسينـــزل في آخر الزمان فيحكم بشريعة الإسلام ثم يميته الله ، وأن الآية على التقديم والتأخير لأن الواو لا توجب الرتبة ، والمعنى إني رافعك إليّ ومطهرك من الذين كفروا ومتوفيك بعد أن تنـــزل من السماء كقوله: ﴿ **وَلَوْلا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَكَانَ لِزَاماً وَأَجَلٌ مُسَمًّى** ﴾ (طه :١٢٩) وهذا القول هو الذي دلت عليه الأحاديث النبوية الصحيحة ، روى مسلم في صحيحه عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ{ **والله لينـــزلن ابن مريم حكماً عادلاً** }[2] روى مسلم عن أبي هريرة قال : قال رسول الله–صلى اله عليه وسلم- { **كيف أنتم إذا نزل ابن مريم فيكم وإمامكم منكم**}[3]وعلى هذا الرأي أكثر العلماء وهو اختيار القرطبي والطبري والدكتور وهبة الزحيلي وذكر حديثا لا يحتمل التأويل يؤيد هذا الرأي فلو صح لوجب المصير إليه ،{ **إن عيسى لم يمت وإنه راجع إليكم قبل يوم القيامة** }.

﴿**وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَم**

---

(١) البرهان ج٣ ٢٨٤ –٢٨٦.

(٢) صحيح مسلم ، باب نزول عيسى بن مريم -عليه السلام- بشريعة نبينا محمدﷺ رقم ٢٤٣.

(٣) صحيح مسلم ، الباب السابق رقم ٢٤٥.

مَا لاَ تَعْلَمُونَ. وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى المَلاَئِكَةِ فَقَالَ أَنبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلاءِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ. قَالُوا سُبْحَانَكَ لاَ عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنتَ العَلِيمُ الحَكِيمُ. قَالَ يَا آدَمُ أَنبِئْهُم بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنبَأَهُم بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ. وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلاَئِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الكَافِرِينَ﴾ (البقرة ٣٠:٣٤).

لقد خرج الترتيب عن حد التسلسل الزمني والسياق التاريخي لتسلسل الأحداث فعندما قص الله قصة خلق آدم ، كان السياق التاريخي وتتابع الأحداث الزمنية يقتضي ذكر سجود الملائكة لآدم بعد ذكر خلقه ، ثم ذكر تعليم الله له أسماء كل شيء ما قال تعالى في موضع آخر﴿ **إِنِّي خَالِقٌ بَشَراً مِّن طِينٍ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ** ﴾ (طه:٧١،٧٢) وظهور فضله بذلك على الملائكة فيعلمون علة سجودهم له ، ولكن الذي ذكر في سورة البقرة غير ذلك ، فقد ذكر بعد خلقه تعليمه أسماء كل شيء ، ثم عقب بذكر سجود الملائكة له كما جاء في الآيات السابقة قال الحافظ بن كثير في تفسيره تعليلاً لـــهذا "وإنما قدم هذا الفصل على ذاك لمناسبة ما بين هذا المقام وعدم علمهم بحكمة خلق الخليقة حين سألوا عن ذلك فأخبرهم تعالى بأنه يعلم ما لا تعلمون ، ولهذا ذكر الله هذا المقام عقيب هذا ليبين لهم شرف آدم بما فضل عليهم من العلم"[(١)]

الترتيب في الآية الواحدة والثلاثين يدل على حسن جواب الملائكة إذ قدموا تنـــزيه الله أولاً ثم اعترفوا بنقصهم وجهلهم ثانياً ثم نسبوا إلى الله العلم والحكمة وناسب تقديم الوصف بالعلم على الوصف بالحكمة كما يقول أبوحيان: " لأنه المتصل به في قوله وعلم ، أنبئوني ، لا علم لنا ، فالذي ظهرت به المزية لآدم من الفضيلة هو العلم ، فناسب ذكره متصلاً به ، ولأن الحكمة إنما هي آثار العلم وناشئة عنه ، ولذلك أكثر ما جاء في القرآن تقديم الوصف بالعلم على الوصف بالحكمة ولأن يكون آخر مقالهم مخالفاً لأوله حتى يبين رجوعهم عن قولهم: { **أتجعل فيها**} .[(٢)]

---

(١) تفسير القرآن العظيم ت ٧٧٤هجرية ج١ ص ٧٢،٧٣.

(٢) البحر المحيط ج١ ص٢٩٨.

ويرى الزركشي في تقديم العليم على الحكيم أنه تقديم بالعلة والسببية كتقديم العزيز على الحكيم لأن الإتقان ناشئ عن العلم ، وكذلك أكثر ما في القرآن من تقديم وصف العلم على الحكمة يقول: "ويجوز أن يكون قدم وصف العلم هنا ليتصل بما يناسبه ، وهو **{لا علم لنا}** وفي غيره من نظائره ، لأنه صفات ذات فيكون من القسم قبله ".[1]

لماذا قُدم العلم بالمشاهد على العلم بالغيب في الآية الثالثة والثلاثين ؟ معلوم أن العلم بالغيب أشرف وأثبت لصفات القدرة، وأن من يعلم الغيب يعلم الجهر ولا يجب العكس وبهذا جاءت أكثر آيات القرآن التي تتحدث عن علم الله أنها تقدم علم الغيب على علم الشهادة كما في قوله تعالى:**﴿عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾** (المؤمنون:٩٢) وقوله تعالى :**﴿ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ﴾**(الأنعام:٦) وقوله: **﴿ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴾**(التغابن:٤) أو تقتصر على علم الغيب وحده لدلالته على علم الشهادة ، كما في قوله تعالى : **﴿ عَالِمُ الْغَيْبِ فَلاَ يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَداً ﴾** (الجن:٢٦).

أما هذه الآية فكما يقول أبوحيان: "وعطف قوله :{ **وما كنتم تكتمون**} هو من باب الترقي في الإخبار لأن علم الله تعالى واحد لا تفاوت فيه بالنسبة إلى شيء من معلوماته جهراً كان أو سراً". [2]

وأرى أن الآية لم يتقدم فيها علم المشاهدة على علم الغيب ، بل تقدم فيها العلم بالغيب أولاً ليشمل ما في السموات والأرض { **قال ألم أقل لكم إني أعلم غيب السموات والأرض** } هذا على سبيل العموم ثم ذكر الله بعد ذلك علمه بالملائكة وحالهم جهراً وسراً لإظهار حكمته في هذا الشيء الذي أظهروه .

وللزركشي رأي وجيه إذ يرى أن التقديم لقصد أن يقع البداءة والختم به، للاعتناء بشأنه .[3]

أما قوله تعالى:**﴿ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى﴾** (طه:٧) والسر ما أسررت في نفسك وأخفى منه ما لم تحدث به نفسك ، مما يكون في علم الله سواء ،

---

(١) البرهان ج٣ ص٢٨٩.   (٢) البحر المحيط ص٣٠٠.   (٣) البرهان ج٣ ص٣٣٢.

ولاشك أن الأخفى من السر أبلغ منه في الإخفاء فلماذا قدم السر عليه ؟ ذكر الزركشي في هذه المسألة وجهين:

الأول: أنه أفعل تفضيل يستدعي مفضلاً عليه ، عُلم حتى يتحقق في نفسه ، فحينئذ يكون تقديم السر من النوع الأول .

الثاني : مُراعاة رؤوس الآي .

أقول: ومن هذا القسم قوله تعالى :﴿ **إِنَّهُ يَعْلَمُ الجَهْرَ وَمَا يَخْفَى** ﴾(الأعلى:٧) ولكنه ليس من باب مراعاة الفاصلة بل من باب الترقي في المعلوم من الأدنى إلى الأعلى.

﴿ **وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الجَنَّةَ وَكُلاَ مِنْهَا رَغَداً حَيْثُ شِئْتُمَا وَلاَ تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ** ﴾ (البقرة:٣٥) تقدم ذكر الزوجة على الجنة في هذه الآية لأن نعمة السكن الروحي مع الإنسان أعظم من نعمة السكن البدني في المكان وأي نعيم بلا أنيس ؟ فالجار أهم من الدار ولهذا السبب قدم قوله تعالى :{ **عندك** } على قوله: { **في الجنة** } في دعاء امرأة فرعون المذكور في قوله تعالى:﴿ **رَبِّ ابْنِ لِي عِندَكَ بَيْتاً فِي الجَنَّةِ**﴾(التحريم:١١) حيث ذكرت الجار قبل الدار.

قال الألوسي: "وأيضاً في تقديم زوجك على الجنة نوع إشارة إليه وفي المثل الرفيق قبل الطريق، وأيضاً هي مسكن القلب والجنة مسكن البدن ومن الحكمة تقديم الأول على الثاني"[1]

﴿ **قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعاً فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ** ﴾ (البقرة:٣٨) تقدم الخوف على الحزن لأنه أعظم الضررين وأشد الألمين ، فخوف المجهول أشد على النفس من الحزن على المعلوم .

قال صاحب غرائب القرآن : "وجمع قوله :{**فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون**} جميع ما أعد الله تعالى لأوليائه ، لأن الخوف ألم يحصل للنفس من توقع مكروه ، أو انتظار محذور ، وزواله يتضمن السلامة من جميع الآفات، والحزن ألم يعرض للنفس لفقد محبوب أو فوات مطلوب ونفيه يقتضي

---

(١) روح المعاني ج١ ص

الوصول إلى كل اللذات والمرادات وإنما قدم عدم الخوف على عدم الحزن لأن زوال ما لا ينبغي مقدم على حصول ما ينبغي ".[١]

وأقول: هناك سر آخر للتقديم في هذه الآية ، فبما أن الخوف يتعلق بما لم يحصل بعد، أي بما يتوقع حدوثه في المستقبل، فإن الخوف في هذه الآية متعلق بالآخرة أي بـهذا العالم المجهول الغريب وما فيه من أهوال ، أما الحزن فهو على ما حدث في الماضي أي حزن على ترك الدنيا ومفارقة الأهل والأحباب والأموال وكل ما يحدث في الدنيا من حزن أو مكروه فإنه لا يداني لحظة ألم من عذاب الآخرة ،ولـهذا قدم الخوف لما هو آت على الحزن لما قد فات فقدم أهمهما ، وإلى ما ذهبت إليه وجدت الرازي قد ذكره عن ابن زيد: لا خوف عليهم أمامهم فليس شيء أعظم في صدر الذي يموت مما بعد الموت، فأمنـهم الله تعالى منه ثم سلاهم عن الدنيا فقال : { **ولاهم يحزنون** } على ما خلفوه بعد وفاتـهم في الدنيا" .[٢]

﴿ **وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاةِ** ﴾ (البقرة:٤٥) يرى أبو حيان: أن تقديم الصبر على الصلاة لأن تأثير الصبر في إزالة ما لا ينبغي وتأثير الصلاة في حصول ما ينبغي ، والنفي مقدم على الإثبات ، ولم يذكر أبو حيان سبباً لرفضه هذا الرأي واكتفى بذكر رأيه حيث يقول: ويظهر أنه قدم الاستعانة به على الاستعانة بالصلاة لأنه سبق ذكر تكاليف عظيمة شاق فراقها على من ألفها واعتادها من ذكر ما نسوه ، والإيفاء بما أخلفوه والإيمان بكتاب متجدد، وترك أخذهم الرشا على آيات الله ، وتركهم إلباس الحق بالباطل، وكتم الحق الذي لهم بذلك الرياسة في الدنيا، والإستتباع لعوامهم، وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة، وهذه أمور عظيمة فكانت البداءة بالصبر لذلك.[٣]

وأقول: هذا رأي حسن،وحُسْن ربط للمعاني في السياق من خلال النظر لمفهوم الصبر في إزالة ما لا ينبغي وجعله سبب التقديم على الصلاة التي تأثيرها في حصول ما ينبغي ، ولو أننا أخذ الصبر بمفهومه الشامل لظهر لنا سر آخر للتقديم ، فإن الصبر يندرج تحته الأنواع التالية : الصبر عن المعصية والصبر

---

(١) غرائب القرآن ورغائب الفرقان ج١ ص٢٦٦. (٢) مفاتيح الغيب ج٣ ص٢٩د. (٣) البحر المحيط ج١ ص٣٤١.

على المكروه والصبر على فعل الطاعات ، ويأتي على رأسها أداء الصلوات والتي تحتاج إلى صبر على أدائها وإتمامها ، ولهذا ذكر الصبر قبلها ، يؤيد ما ذكرناه أنه عندما تقدم الصبر أيضاً على الصلاة في سورة الرعد ذكر بعده جملة من صفات المؤمنين التي استحقوا بـها دخول الجنة ، وقد جمعت الملائكة كل أعمال الطاعات المذكورة في الآية في كلمة واحدة اقترنت بباء السببية في قوله تعالى:﴿ **سَلامٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ** ﴾ (الرعد:٢٤) عقب قوله تعالى:﴿ **وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّـهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِراً وَعَلانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُولَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ. جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِـهِمْ وَالْمَلائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ**﴾ (الرعد:٢٣-٢٤) وإلى ما ذهبت إليه في تقديم أمر الصبر على الصلاة وجدت أن أبا حيان قد ذكر نحوه عند تفسير قوله تعالى :﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاةِ** ﴾ (البقرة:١٥٣) يقول: " فالصبر قصر النفس على المكاره والتكاليف الشاقة ، وهو أمر قلبي والصلاة ثمرته وهي من أشق التكاليف لتكررها .ثم ذكر اختلاف المفسرين في معنى الصبر حيث قيده بعضهم بأنه الصبر على أذى الكفار أو الصبر على أداء الفرائض أو الصوم أو الجهاد وعقب قائلاً : والأولى ما قدمناه من عموم اللفظ فتندرج هذه الألفاظ تحته". [١]

وعن سر التقديم يقول الألوسي: "لما أمرهم سبحانه بترك الضلال والإضلال والتزام الشرائع ، وكان ذلك شاقاً عليهم لما فيه من فوات محبوبـهم وذهاب مطلوبـهم عالج مرضهم بـهذا الخطاب و{**الصبر**} حبس النفس على ما تكره وقدمه على الصلاة لأنـها لا تكمل إلا به أو لمناسبته لحال المخاطبين ، أو لأن تأثيره كما قيل - في إزالة ما لا ينبغي وتأثير الصلاة في حصول ما ينبغي ودرء المفاسد مقدم على جلب المصالح". [٢]

﴿ **وَاتَّقُوا يَوْماً لاَّ تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئاً وَلاَ يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلاَ يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلاَ هُمْ يُنصَرُونَ** ﴾(البقرة:٤٨)، في هذه الآية تقدمت الشفاعة على العدل وفي آية أخرى في نفس السورة تأخرت عن العدل في قوله تعالى:

---

(١) البحر المحيط ج١ ص٦٢١.

(٢) روح المعاني ج٣ ص٢٩.

﴿ وَاتَّقُوا يَوْماً لاَ تجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئاً وَلاَ يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلاَ تَنفَعُهَا شَفَاعَةٌ وَلاَ هُمْ يُنصَرُونَ ﴾ (البقرة:١٢٣) قال الفيروزابادي: "قدم الشفاعة في هذه الآية وأخر العدل وقدم العدل في الآية الأخرى من هذه السورة وأخر الشفاعة . وإنما قدم الشفاعة قطعاً لطمع من زعم أن آباءهم تشفع لهم ، وأن الأصنام شفعاؤهم عند الله ، وأخرها في الآية الأخرى ليكون لفظ القبول مقدماً فيها ". [١]

يقول الشعراوي: "ففي الآية الأولى قدم الشفاعة وقال: لا يقبل والثانية أخر الشفاعة وقال لا تنفع . الشفاعة في الآية الأولى مقدمة والعدل متأخر، وفي الآية الثانية لا تنفعها شفاعة والمقصود بقوله تعالى: {**اتقوا يوماً**} هل يوم القيامة الذي قال عنه سبحانه وتعالى: **﴿ يَوْمَ لاَ تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْئاً وَالأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّه ﴾** (الانفطار :١٩)، وقوله تعالى: { **لا تجزي نفس عن نفس شيئاً** } كم نفس هنا؟ انـــهما اثنتان نفس عن نفس هناك نفس أولى ونفس ثانية فما هي النفس الأولى ؟ النفس الأولى هي الجازية والنفس الثانية هي المجزي عنها ومادام هناك نفسان فقوله تعال:ى { **لا تقبل منها شفاعة**} هل من النفس الأولى أو الثانية ؟ إذا نظرت إلى المعنى فالمعنى أنه سيأتي إنسان صالح يوم القيامة ويقول يارب أنا سأجزي عن فلان أو أغني عن فلان أو أقضي حق فلان ، نفس الأولى أي النفس الجازية تحاول أن تتحمل عن النفس المجزي عنها.... والإنسان الصالح يحاول أن يشفع لمن أسرف على نفسه فلا تقبل شفاعته ولا يؤخذ منه عدل ولا يسمح لها بأي مساومة أخرى . إذاً لا يتكلم عن العدل في الجزاء إلا إذا فشلت الشفاعة .

هنا الضمير يعود إلى النفس الجازية أي التي تتقدم للشفاعة عند الله فيقول الحق سبحانه وتعالى: { **لا يقبل منها شفاعة** } فلا يقبل منها أي مساومة أخرى ويقول سبحانه : { **ولا يؤخذ منها عدل** } وهذا ترتيب طبيعي للأحداث .

في الآية الثانية يتحدث الله تبارك وتعالى عن النفس المجزي عنها قبل أن تستشفع بغيرها وتطلب منه أن يشفع لها لا بد أن تكون قد ضاقت حيلها

---

(١) بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز ج١ ص١٤٢.

وعزت عليها الأسباب فيضطر أن يذهب إلى غيره وفي هذا اعتراف بعجزه فيقول يارب ماذا أفعل حتى أكفر عن ذنوبي فلا يقبل منه فيذهب إلى من تقبل منـــهم الشفاعة فلا تقبل شفاعتـــهم .

وإذا أردنا أن نضرب لذلك مثلا من القرآن الكريم فاقرأ قول الحق تبارك وتعالى﴿ **وَلَوْ تَرَى إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّـــهِم رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحاً إِنَّا مُوقِنُونَ**﴾ (السجدة:١٢) هؤلاء هم الذين يطلبون العدل من الله بأن يعيدهم إلى الدنيا ليكفروا عن سيئاتـــهم ويعملوا صالحاً ينجيهم من العذاب ذلك أن الحسنات يذهبن السيئات فماذا كان رد الحق سبحانه وتعالى عليهم قال جل جلاله:﴿ **ذُوقُوا بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا إِنَّا نَسِينَاكُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ**﴾ (السجدة:١٤) فهم عرضوا أن يكفروا عن سيئاتـــهم ، بأن يطلبوا العودة إلى الدنيا ليعملوا صالحاً فلم يقبل الله سبحانه وتعالى منـــهم هذا العرض.اقرأ قوله تعالى:﴿ **هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ قَدْ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْـــهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ**﴾(الأعراف:٥٣) لقد طلب هؤلاء الشفاعة أولاً ولم تقبل فدخلوا في حد آخر وهو العدل فلم يؤخذ مصداقاً لقوله تعالى : { **لا يقبل منها شفاعة ولا يؤخذ منها عدل** } وهكذا نرى الاختلاف في الآيتين فليس هناك تكرار في القرآن الكريم...[1]

وفي هاتين الآيتين يقول صاحب درة التنـــزيل: "فقدم في الأول قبول الشفاعة على أخذ الفدية ، وفي الثاني قبول الفدية على نفع الشفاعة ، والوجه في الأول أنه لما قال :لا تجزي نفس عن نفس شيئاً ،بمعنى لا يغني أحد عن أحد شيئاً فيما يلزمه من العقاب ولا يكفر سيئاته ما له من الثواب ، وهو كقوله عز من قائل :﴿ **وَاخْشَوْا يَوْماً لاَّ يَجْزِي وَالِدٌ عَن وَلَدِهِ وَلاَ مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِ شَيْئاً**﴾ (لقمان:٣٣).

فهذه الأشياء التي ذكرت في هذه الآية امتناع وقوعها في الآخرة أربعة أنواع يتلقى بـــها المكاره ويداوي بـــها الشدائد . ألا ترى العرب إذا دفع

---

(١) تفسير الشعراوي ج١ ص٣١٩.

أحدهم إلى كريهة وارتـــهنت نفسه بعظيمة ، وحاولت أعزته دفع ذلك عنه وتخليصه منه بذلت ما في نفوسها الأبية من مقتضى الحمية ، فذبت عنه كما يذب الوالد عن ولده بغاية قوته وجلده فإن رأى من لا قبل له بممانعته ، ولا يد له بمدافعته ، عاد بوجوه الضراعة ، وصنوف المسألة والشفاعة فحاول بالملاينة ما قصر عنه بالمخاشنة ، فإن لم تغن عنه الحالتان ، ولم تنجه الخلتان من الخشونة والليان لم يبق بعدهما إلا فداء الشيء بمثله وفكه من الأسر بعدله إما بمال وإما بغيره ، فإن لم تنج هذه الثلاثة في العاجلة تعلل بما يرجوه من نصر في الآجلة وإدالة في الخاتمة ، كما قال تعالى :﴿ **ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنصُرَنَّهُ اللَّهُ**﴾ (الحج:٦٠) وقال تعالى:﴿ **فَلاَ يُسْرِف فِّي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنصُوراً**﴾ (الإسراء:٣٣) على أحد وجوه التفسير فأخبر الله تعالى أن ما يغني في هذه الدنيا عن المجرمين ، وتترتب هذه المراتب بين العالمين لا يغني شيء منه في الآخرة عن الظالمين ، والفائدة في قوله تعالى في الآية الثانية وتقديم قبول الفدية على نفع الشفاعة هي أنه لما قال: {**واتقوا يوماً لا تجزي نفس عن نفس شيئاً**} ومعناه ما ذكرنا عقبه بنفي الفداء لأن، النفس تجزي عن النفس فداء مؤقت ، يرتـــهن عنها مدة معلومة ويكون بعد ذلك فداء يفك الرهن ويخلصه من التبعات فيكون معنى{**لا تجزي نفس عن نفس شيئاً**} لا تغني عنها بفداء محصور بوقت ولا بفداء يخلصه على وجه الرهن ويكون بعد ذلك { **ولا تنفعها شفاعة** } معناه ولا تخفف مسألة من عذابـــها ولا ينقص شفيع من عقابـــها {**ولا هم ينصرون**}.[1]

أما قول الرازي : "أن الله تعالى قدم في هذه الآية قبول الشفاعة على أخذ الفدية، وذكر هذه الآية في هذه السورة بعد العشرين ومائة وقدم قبول الفدية على ذكر الشفاعة فما الحكمة فيه ؟ الجواب أن من كان ميله إلى حب المال أشد من ميله آل علو النفس فإنه يقدم التمسك بالشافعين على إعطاء الفدية ومن كان بالعكس يقدم الفدية على الشفاعة ففائدة تغيير الترتيب الإشارة إلى هذين الصنفين" .[2]

---

(١) درة التنزيل وغرة التأويل في بيان الآيات المتشابـــهات في كتاب الله العزيز ص٦.

(٢) مفاتيح الغيب ج٢ص٥٨.

أقول: وفيما قاله الرازي بعد إذ يود الكافر في هذا اليوم أن يفتدي بأي شيء ينجيه من العذاب فدية كان أو شفاعة قال تعالى:﴿ **إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِم مِّلْءُ الأَرْضِ ذَهَباً وَلَوِ افْتَدَى بِهِ أُوْلَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ**﴾ (آل عمران:٩١) وأرى والله أعلم بمراده أن تقديم الشفاعة تارة والعدل تارة إنما يرجع إلى حال الكافرين وتنوع أحوالهم فمنـــهم أصحاب الأموال الذين يظنون أن أموالهم تأتي لهم بما يشتهون وتدفع عنـــهم ما يكرهون فبدأ الله تعالى بالعدل ليعي هؤلاء بأن أموالهم لن تغني عنـــهم من الله شيئاً يوم القيامة ، وإذا تقدمت الشفاعة فهي إلى هؤلاء أصحاب الجاه والرياسة والأتباع الذين ظنوا أن معارفهم وأتباعهم وأقاربـــهم وأصدقاءهم قادرون على نفعهم ودفع الضر عنـــهم فقدمت الشفاعة في حال هؤلاء ونظرائهم.

﴿**وَإِذْ أَنجَيْنَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُقَتِّلُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُم بَلاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ** ﴾ (الأعراف:١٤١) تقدم الذبح على الاستحياء لأنه أعظم البلاءين .

﴿**وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ** ﴾ (البقرة:٥٧) يقول أبو حيان: {**لكن**} هنا وقعت أحسن موقع لأنه تقدم قبلها نفي وجاء بعدها إيجاب نحو قوله تعالى :{**وما ظلمناهم ولكن ظلموا أنفسهم**} وكذلك العكس نحو قوله تعالى: ﴿ **أَلاَ إِنَّـــهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِن لاَّ يَعْلَمُونَ** ﴾ (البقرة:١٣) أعني أن يتقدم إيجاب ثم جيء بعدها نفي ، لأن الاستدراك الحاصل بـــها إنما يكون يدل عليه ما قبلها بوجه ما وذلك أنه لما تقرر أنه قد وقع منـــهم ظلم فلما نفى ذلك الظلم أن يصل إلى الله تعالى بقيت النفس متشوفة ومتطلعة إلى ذكر من وقع به الظلم فاستدرك بأن الظلم الحاصل منـــهم إنما كان واقعاً وأحسن مواقعها أن تكون بين التضادين ، ويليه أن تقع بين النقيضين ، ويليه أن تقع بين الخلافين .....وقدم معمول الخبر عليه هنا وهو قوله أنفسهم ليحصل بذلك توافق رؤوس الآي والفواصل وليدل على الاعتناء بالإخبار عمن حل به الفعل ولأنه من حيث المعنى صار العامل في المفعول توكيداً لما يدل عليه ما قبله فليس ذكره ضرورياً ، وبأن التوكيد أن يتأخر عن المؤكد ، وذلك أن تقول: [**ما ضربت زيداً**] ولكن ضربت عمراً فذكر ضربت الثانية أفادت التأكيد لأن

لكن موضوعها أن يكون ما بعدها منافياً لما قبلها ولذلك يجوز أن تقول: [**ما ضربت زيداً ولكن عمراً**] فلست مضطراً لذكر العامل فلما كان معنى قوله: [ولكن كانوا أنفسهم] لكان كلاماً عربياً ، ويكتفى بدلالة لكن أن ما بعدها مناف لما قبلها فما اجتمعت هذه المحسنات لتقديم المفعول كان تقديمه هنا الأفصح}. [(1)]

﴿ وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَداً وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّداً وَقُولُوا حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ ﴾ (البقرة:٥٨)، في هذه الآية موضعان للتقديم والتأخير: الأول قوله: { **حيث شئتم** } على قوله: {**رغداً**} وفي الآية الأخرى في نفس السورة تقدم قوله:{ **رغداً** } على قوله: { **حيث شئتم** }.

يقول الشعراوي في الموضع الأول : " الفرق في المعنى أن قوله تعالى: {**حيث شئتم رغداً** } تدل على أن هناك أصنافاً كثيرة من الطعام . و{**رغداً حيث شئتم**} يكون هناك صنف واحد والناس جائعون فيقبلون على الطعام.. عندما يقول الحق جل جلاله: كلوا رغداً يكون المخاطب هنا نوعين : إنسان غير جائع ولذلك تعد له ألواناً متعددة من الطعام لتغريه على الأكل .. فتقدم في هذه الحالة {**حيث شئتم**} فيقال: {**فكلوا منها حيث شئتم رغداً**} .. فإذا كان الإنسان جوعان يرضى بأي طعام فيقال رغداً حيث شئتم ". [(2)]

الموضع الثاني : تقدم الأمر بالسجود على قولهم حطة وهو عكس التقديم في آية الأعراف**﴿وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ اسْكُنُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ وَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا حِطَّةٌ وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّداً نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَاتِكُمْ سَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ ﴾** (الأعراف:١٦١) قال الفيروزابادي:"وقدّم { **ادخلوا الباب سجداً** } في هذه السورة وأخرها في الأعراف لأن السابق في هذه السورة { **ادخلوا** } فبين كيفية الدخول ". [(3)]

يرى صاحب درة التنـــزيل أن التقديم والتأخير غير مقصود في هذه الآية وحجته في ذلك أن القرآن لم يقصد حكاية الألفاظ بأعيانـــها وإنما قصد إلى

---

(١) البحر المحيط ج١ ص٣٨٧. (٢) الشعراوي : ج١ ص٣٥٣. (٣) بصائر ذوي التمييز ج١ ص١٤٢.

اقتصاص معانيها، وأن من قصد حكاية المعنى كان مخيراً بأن يؤديه بأي لفظ أراد وكيف شاء من تقديم وتأخير بحرف لا يدل على الترتيب [1] .

أقول :وهذا الكلام غير مسلم له بما يلي :

أولاً : إن هاتين الآيتين ليستا حكاية عن بني إسرائيل ، وإنما كلام الله عن بني إسرائيل فهذا قول الله عنـــهم وليس قولهم هم عن أنفسهم {**وإذ قلنا**} و {**وإذ قيل**} إذا فلماذا اختلف الترتيب وهذا هو الأمر الثاني ؟

أقول: إن أسلوب الأمر يتكون من ثلاثة أمور آمر ومأمور ومأمور به ، والآمر في الآيتين واحد وكذلك المأمور وإنما وقع الاختلاف في المأمور به تقديماً وتأخيراً وهذا فيما نراه والله أعلم راجع إلى تيسير الله لهم بقبول الطاعة منـــهم على أي من الحالتين ، سواء قدموا القول أم الفعل ولبيان مدى تكاسلهم عن الاستجابة وعدم رغبتـــهم في أداء الطاعة على أي وجه من الوجوه المأمور بـــها .

وهناك احتمالات أخرى في التقديم والتأخير ذكرها الألوسي قال:" وأيضاً المخاطبون يحتمل أن يكون بعضهم مذنبين ، والبعض الآخر ما كانوا كذلك، فالمذنب لا يجد أن يكون اشتغاله بحط الذنب مقدماً على اشتغاله بالعبادة ، فلا جرم أن يكون تكليف هؤلاء أن يقولوا {**حطة**} ثم يدخلوا، وأما الذي لا يكون مذنباً ، فالأولى به أن يشتغل أولاً بالعبادة ثم يذكر التوبة ثانياً للهضم وإزالة العجب فهؤلاء يجب أن يدخلوا ثم يقولوا فلما احتمل كون أولئك المخاطبين منقسمين إلى ذين القسمين ،لا جرم ذكر كل واحد منـــهما في سورة أخرى ". [2]

يرى الزركشي أن التقديم والتأخير للتفنن في الفصاحة، وإخراج الكلام على عدة أساليب.

ولصاحب غرائب القرآن رأي آخر له وجاهته يقول: "ولم قال هنا { **وادخلوا الباب سجداً وقولوا حطة** } وفي الأعراف بالعكس ؟ لأن الواو للجمع المطلق ولأن المخاطبين صنفان : محسن ومذنب واللائق بالمحسن تقدم

---

(١) درة التنزيل وغرة التأويل ص٨.

(٢) روح المعاني ج١ ص٢٦٧ ، ٢٦٨.

العبادة والخضوع ، ثم ذكر التوبة على سبيل هضم النفس وإزالة العجب واللائق بالمسيء عكس ذلك ، ولأنه ذكر في هذه السورة { **ادخلوا هذه القرية** } فقدم كيفية الدخول" .[1]

ويرى صاحب المنار : أن التقديم والتأخير في البقرة والأعراف لا يدل على طلب ترتيب بين الأمرين لأن العطف فيه بالواو الدالة على طلب الأمرين مطلقاً ، ولكن لو كان التعبير في الموضعين واحداً لفهم منه أن المقدم في الذكر أرجح أو أهم ولو في الجملة كما هي القاعدة في التقديم لذاته فكان الاختلاف دالاً على عدم الفرق بين تقديم هذا وتأخير ذلك وبين عكسه ، لأن المراد منـــهما لا يقتضي ترتيباً بين ما دلت عليه كلمة { **حطة** } وهو الدعاء بأن تحط عنـــهم أوزارهم وخطاياهم كقولك اللهم غفراً وبين دخول باب القرية في حال التلبس بالتواضع والخشوع لله تعالى وتنكيس الرؤوس شكراً لجلاله على نواله كما فعل النبي الأعظم- ﷺ- لما دخل مكة فاتحاً".[2]

﴿ وَإِذِ اسْتَسْقَى مُوسَى لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِب بِّعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْناً ﴾(البقرة:٦٠) تقدم الجار والمجرور { **منه** } على متعلقه وهو الفاعل { **اثنتا عشرة عيناً** } لأن السياق لبيان الإعجاز في خروج الماء من الحجر ، ولـــهذا قدم في الذكر فجاء على هذا الترتيب ، و لم يقل فانفجرت اثنتا عشرة عيناً منه ، وفي هذا إلفات للأذهان بالتفكر والتبصر في الوضع الذي أخرج منه الماء وهو عين الاعتبار لأهل البصائر والأبصار .

﴿ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّــهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴾ (البقرة:٦١) يقول أبو حيان في هذه الآية: "ولما ذكر تعالى حلول العقوبة بـــهم من ضرب الذلة والمسكنة والمباءة بالغضب بين علة ذلك فبدأ بأعظم الأسباب في ذلك وهو كفرهم بآيات الله ثم ثنى بما يتلو ذلك في العظم وهو قتل الأنبياء ، ثم أعقب ذلك بما يكون من المعاصي وما يتعدى من الظلم، قال معنى هذا صاحب المنتخب ويظهر أن قوله ذلك بأنـــهم كانوا يكفرون

---

(١) غرائب القرآن ج١ ص ٢٩٦.

(٢) المنار ج٩ ص ٣٧٢.

ويقتلون تعليل لضرب الذلة والمسكنة والمباءة بالغضب ، وأن الإشارة بقوله ذلك بما عصوا إشارة إلى الكفر والقتل وبما تعليل لهما فيعود العصيان إلى الكفر ويعود الاعتداء إلى القتل فيكون قد ذكر شيئين وقابلهما بشيئين كما ذكر أولاً شيئين وهما الضرب والمباءة وقابلهما بشيئين وهما الكفر والقتل فجاء هذا لفاً ونشراً في الموضعين،وذلك من محاسن الكلام وجودة تركيبه".[1]

أقول: وقد ناسب تقديم الذلة على المسكنة أيضاً تقديم الكفر على القتل، إذ إن الذلة أشد العقوبتين حيث إنـــها الخضوع والاستكانة للغير أما المسكنة فهـــي أثـــر نفسي وشعور داخلي لا يستلزم الخضوع للغير ودليل ذلك قوله تعـــالى:﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِـــبُّـــهُمْ وَيُحِـــبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَـــبِيلِ اللَّـــهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ**﴾ (المائدة:٥٤) .

وتقدم قوله:{ **بما عصوا** } على قوله: { **وكانوا يعتدون** } لأن المعصية كلها حرام يُأمر باجتنابـــها ، أما العدوان فمنه الحق والباطل بدليل قوله: ﴿**فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ** ﴾ (البقرة : ١٩٤) من ذلك قوله تعالى : ﴿ **وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ** ﴾(المائدة : ٢) حيث تقدم الإثم على العدوان .

﴿ **إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحاً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّـــهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ** ﴾ (البقرة : ٦٢) .

ورد ذكر أربع فرق في هذه الآية وفي موضعين آخرين في سورة المائدة ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئُونَ وَالنَّصَارَى مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحاً فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ** ﴾ (المائدة :٦٩).

وفي سورة الحج ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَى وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَـــهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ**﴾ (الحج : ١٧)

ورد في الآيات السابقات تقدم وتأخير بين فرقتي النصارى والصابئين فما هو السر في ذلك ؟

---

(١) البحر المحيط ج١ ص٤٠٠.

قال الفيروزابادي: "لأن النصارى مقدَّمون على الصابئين في الرتبة ، لأنـــهم أهل الكتاب فقدمهم في البقرة ، والصابئون مقدَّمون على النصارى في الزمان ، لأنـــهم كانوا قبلهم في الحج ، وراعى في المائدة المعنيين فقدمهم في اللفظ ، وأخرهم في التقدير، لأن تقديره : والصابئون كذلك .
قال الشاعر:

فمن كان أمسى بالمدينة رحلُهُ   فإني وقيَّارٌ بـــها لغريبُ

أراد: إني لغريب بـــها وقيارَ كذلك . فتأمل فيها وفي أمثالها يظهر لك إعجاز القرآن"[1].

ولصاحب غرة التأويل في سر هذا الترتيب رأي حسن .

قال: "إن الذين ءامنوا بكتب الله المتقدمة مثل صحف إبراهيم ، والذين ءامنوا بما نطقت به التوراة وهم اليهود، والذين ءامنوا بما أتى به الإنجيل وهم النصارى ، فهذا ترتيب على حسب ما ترتب تنـــزيل الله كتبه ، فصحف إبراهيم -عليه السلام- قبل التوراة المنـــزلة على موسى - عليه السلام- ، والتوراة قبل الإنجيل المنـــزل على عيسى - عليه السلام- ، فرتبـــهم عز وجل في هذه الآية على ما رتبـــهم عليه في بعثة الرسالة ، ثم أتى بذكر الصابئين وهم الذين لا يثبتون على دين وينتقلون من ملة إلى ملة ، ولا كتاب لهم كما للطائفتين اللتين ذكرهما الله تعالى في قوله : ﴿ **أَن تَقُولُوا إِنَّمَا أُنزِلَ الكِتَابُ عَلَى طَائفَتَيْنِ من قَبْلنَا وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِـــهم لَغَافِلِينَ**﴾ (الأنعام : ١٥٦)

فوجب أن يكونوا متأخرين عن أهل الكتاب : وأما بعد هذا الترتيب ، فترتيبـــهم في سورة المائدة ، وتقديم الصابئين على النصارى ، ورفعه هنا ونصبه هناك ترتيب ثان ، فالأول على ترتيب الكتب ، والثاني على ترتيب الأزمنة ، لأن الصابئين وإن كانوا متأخرين على النصارى بأنـــهم لا كتاب لهم ، فإنـــهم متقدمون عليهم بكونـــهم قبلهم لأنـــهم كانوا قبل عيسى -عليه السلام- ، فرفع الصابئون ونوى به التأخير عن مكانه ...، إنما قدم في اللفظ وأخر في النية ، لأن التقديم الحقيقي التقدم بكتبه المنـــزلة على الأنبياء -عليهم السلام- فلذا فعل ذلك في الآية الأولى ، وكان هاهنا تقدم آخر

(١) بصائر ذوي التمييز ج١ ص٢٤٥.

بتقديم الزمان ، جاءت آية أخرى قدم فيها هذا الاسم على ما أخر عنه في الآية التي قبل ، ثم أقيمت في لفظه أمارة تدل على تأخره عن مكانه . كان ذلك دليلاً على أن هذا الترتيب ترتيب بالأزمنة ، وأن النية التأخير والترتيب بالكتب المنــزلة، وأما الترتيب الثالث في سورة الحج فترتيب الأزمنة لا نية للتأخير معه ، لأنه لم يقصد في هذا المكان أهل الكتاب ، إذ كان أكثر من ذكر ممن لا كتب لهم وهم الصابئون والمجوس والذين أشركوا وعبدة الأوثان ، فهذه ثلاث طوائف .

وأهل الكتاب طائفتان ، فإن لم يقصد في الأغلب الأكثرين من المذكورين ترتيبــهم بالكتب رتبوا بالأزمنة وأخر الذين أشركوا لأنــهم وإن تقدمت لهم أزمنة وكانوا في عهد أكثر الأنبياء الذين تقدمت بعثتــهم - صلوات الله عليهم -فإنــهم كانوا أكثر من مني رسول الله ﷺ وصلي بجهادهم ، وكأنــهم لما كانوا موجودين في عصر النبي كانوا أهل زمانه وهذا الزمان متأخر عن أزمنة الفرق الذين قدم ذكرهم "[1] .

وللزمخشري رأي وجيه في تقديم الصابئين في آية المائدة قال: " فإن قلت : ما التقديم ولا تأخير إلا لفائدة ، فما فائدة هذا التقديم ؟ قلت : فائدته التنبيه إلى أن الصابئين يتاب عليهم إن صح منــهم الإيمان والعمل الصالح، فما الظن بغيرهم"[2] .

﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا بَقَرَةً قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُواً قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴾ (البقرة : ٦٧).

في هذه القصة نوع آخر من التقديم و التأخير في القرآن الكريم وهو التقديم والتأخير في الأحداث الزمانية وهذا الأسلوب قد اعتمده الروائيون في بعض كتاباتــهم القصصية فأول القصة تبدأ من قوله تعالى: **﴿ وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْساً فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴾** (البقرة : ٧٢) .

فكان الظاهر والتسلسل السردي أن يقال قال موسى إذ قتل قتيل تنوزع في قاتله إن الله يأمر بذبح بقرة هي كذا وكذا ، وأن يضرب ببعضها ذلك

---

(١) درة التنزيل وغرة التأويل ص١٠ ، ١١.

(٢) الكشاف ج١ ص٦٤٨.

القتيل فيخبر بقاتله فيكون كيت وكيت إلا أنه قدم ذكر قصة البقرة لبيان مدى تعنتـــهم وعدم مبادرتـــهم للاستجابة وغلظ طبعهم وسوء أدبـــهم .

وقد جعل الزركشي هذا تحت باب - مما قدم والنية به التأخير - قال : ومنه ما يدل على المعنى كقوله تعالى: { **وإذ قتلتم نفساً** } .

قال الخازن: "فإن قلت كان حق هذه القصة أن يقدم ذكر القتيل أولاً ، ثم ذكر ذبح البقرة بعد ذلك فما وجه ترتيب هذه القصة على هذا الترتيب ؟ قلت : وجهه أن الله لما ذكر من قصص بني إسرائيل وما وجد من خياناتـــهم تقريعاً لهم على ذلك وما وجد فيهم من الآيات العظيمة ، وهاتان قصتان كل واحدة منـــهما مستقلة بنوع من التقريع ، وإن كانتا متصلتين متحدتين في نفس الأمر ، فالأولى لتقريعهم على ترك المسارعة إلى امتثال الأمر وما يتبعه، والثانية لتقريعهم على قتل النفس المحرمة فلو قدم قصة القتيل على قصة الذبح لكانت قصة واحدة ولذهب الغرض من ثنية التقريع فلهذا قدم ذكر الذبح أولاً ثم عقبه بذكر القتل"[(١)].

ويظهر جلياً أن الخازن إنما ذكر قول الزمخشري حول هذا الترتيب وقد ذكر القاسمي وجهاً آخر نقله عن الحرالي قال : "قدم نبأ موسى - عليه السلام- على ذكر ندائهم في القتيل ، ابتداء بأشرف القصدين من معنى التشريع الذي هو قائم على أفعال الاعتداء وأقوال الخصومة"[(٢)].

﴿ **أَوَلا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ** ﴾ (البقرة : ٧٧).

يرى الألوسي أن تقديم السر على العلن إما لأن مرتبة السر متقدمة على مرتبة العلن إذ ما من شيء يعلن إلا وهو أو مباديه قبل ذلك مضمر في القلب يتعلق به الإسرار غالباً ، فتعلق علمه تعالى بحالته الأولى متقدم على تعلقه بالحالة الثانية ، وإما للإيذان بافتضاحهم ووقوع ما يحذرونه من أول الأمر ، وإما للمبالغة في بيان شمول علمه تعالى المحيط بجميع الأشياء .

---

(١) الخازن ج١ ص٩٦.

(٢) تفسير القاسمي ، ج١ ص٣٢٩ .

وأرى أن الألوسي قد أخطأ بقوله أن علمه بما يسرون أقدم منه بما يعلنونه مع كونهم في الحقيقة على السوية فإن علمه تعالى ليس بطريق حصول الصورة ، بل وجود كل شيء بنفسه علم بالنسبة إليه تعالى، وفي هذا المعنى لا يختلف الحال بين الأشياء البارزة ولا الكامنة .

نعم هما في الحقيقة على السواء كما قال ولكن ادعاءه بأن علم السر أقدم من العلن فغير مسلم له فيه ، حيث يلزم منه القول بالعلم المحدث لله تعالى أي عدم وجود العلم السابق له سبحانه ، وأما قوله: "فإن علمه ليس بطريق حصول الصورة " فالأولى من ذلك لو أنه قال فإن علمه سبحانه لا يفتقر إلى حصول الصورة ، فالكيفية من التكلف بالغيب الذي لا يعلم كنهه إلا الله وحده .[1]

ونظير هذه الآية قوله تعالى : {**عالم الغيب والشهادة**} حيث يرى الزركشي وتبعه السيوطي أن التقديم فيها لشرف المعلوم وهذا ما نراه معهما فإن علم الغيبيات أشرف من علم المشاهدات .

ومنه قوله تعالى : ﴿ **يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ** ﴾(الأنعام: ٣)﴿ **وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ** ﴾ (التغابن : ٤)

وأما قوله تعالى ﴿ **فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى** ﴾ (طه : ٧) فيذكر فيه الزركشي قول ابن عباس : أن السر ما أسررت في نفسك وأخفى منه ما لم تحدث به نفسك مما يكون في عد علم الله فيهما سواء ، ثم يرجح أن الآتي أبلغ وأن فيه وجهان:

أحدهما : أنه أفعل تفضيل يستدعي مفضلاً عليه علم حتى يتحقق في نفسه فيكون حينئذ تقديم السر من النوع الأول .

وثانيهما : مراعاة رؤوس الآي .وهذه المراعاة لا يقبل القول بـها ، إنما هو من باب الترقي من الأدنى إلى الأعلى بالنسبة للمعلوم[2] .

وقد عكس الترتيب في قوله تعالى: ﴿ **وَإِن تُبْدُوا مَا فِي أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ اللَّهُ** ﴾ (البقرة : ٢٨٤) لأن الأصل فيما يتعلق المحاسبة به هو الأمور البادية دون الخافية .

---

(١) روح المعاني ج١ ص٣٠١ . (٢) البرهان ج٣ ص٢٩٥، ٢٩٦ .

﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لاَ تَعْبُدُونَ إِلاَّ اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً وَذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْناً ﴾(البقرة : ٨٣) .

تقدم الإحسان إلى الوالدين بعد عبادة الله على كل الحقوق ، وذلك لأن حقهما أوكد من غيرهما وبرهما مقدم على ما سواهما ، فهما سبب وجود الولد كما أنهما سبب التربية ، وغير الوالدين قد يكون سبب التربية فقط ، فلا إنعام بعد إنعام الله تعالى أعظم من إنعام الوالدين ، ومنها أن إنعامهما يشبه إنعام الله تعالى من حيث إنهما لا يطلبان بذلك ثناءً ولا ثواباً{**إنما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاءً ولا شكوراً**} .

﴿ ثُمَّ أَنتُمْ هَؤُلاء تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقاً مِّنكُم مِّن دِيَارِهِمْ تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِم بِالإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسَارَى تُفَادُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ ﴾ (البقرة : ٨٥) .

قال الخازن: "وفي الآية تقديم وتأخير تقديره وتخرجون فريقاً منكم من ديارهم تظاهرون عليهم بالإثم والعدوان وهو محرم عليكم إخراجهم وإن يأتوكم أسارى تفادوهم "[١].

لم يذكر الخازن السر في التقديم والتأخير ، وأقول :سبب التقديم هنا هو إظهار التعجب من فعلهم ، إذ كيف يستبيحون قتالهم وفي نفس الوقت يفدونهم بالمال إذا وقعوا في الأسر ولهذا تقدم قوله : { **وإن يأتوكم أسارى تفادوهم** } على قوله:

{ **وهو محرم عليكم إخراجهم** } .

﴿ فَفَرِيقاً كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقاً تَقْتُلُونَ ﴾ (البقرة : ٨٧) .

وفائدة تقديم المفعول كما ذكر صاحب غرائب القرآن بيان غاية عنادهم وفرط عتوهم ، حيث جعلوا الرسل فريقين : أحدهما: مخصص بالتكذيب. والآخر: بالقتل ، كأن وصف الرسالة عندهم هو الذي اقتضى عندهم أحد هذين حتى خص المنعوت به دون سائر الناس بأحد الأمرين [٢].

﴿ مَن كَانَ عَدُوّاً لِّلَّهِ وَمَلآئِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَافِرِينَ ﴾(البقرة : ٩٨) .

---

(١) الخازن ج١ ص١٠٦ .

(٢) غرائب القرآن ج١ ص٣٣١.

تقدم ذكر الملائكة على ذكر الرسل في هذه الآية ، ولا يدل تقديم الملائكة في الذكر على تفضيلهم على رسل بني آدم كما يرى أبوحيان الذي قال : "لأن الترتيب الذي ذكرناه هو ترتيب بالنسبة إلى الوسائط لا بالنسبة إلى التفضيل "[1].

ويرجح صحة هذا الرأي هو إجماع أهل التفسير على أن سبب نزول الآية أن اليهود قالوا :جبريل عدونا ، لما أخبروا أنه هو الذي ينـــزل بالوحي على النبي ﷺ فالآية نزلت للدفاع عن الملائكة وإبطال حجج اليهود للتفريق بينـــهم، أما تقدم ذكر جبريل على ميكال فيحتمل أنه تقديم فضل لأن جبريل ينـــزل بالوحي والعلم ، وهو مادة الأرواح وميكال ينـــزل بالخصب والأمطار وهي مادة الأبدان وغذاء الأرواح أشرف من غذاء الأشباح.

ومـــن قبيل هذا الترتيب تقدم ذكر الملائكة على الرسل في قوله تعالى : **﴿ آمَـــنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ وَقَالُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ﴾** (البقرة : ٢٨٥) .

قال الزركشي : "فبدأ بالرسول قبل المؤمنين ثم قال : {**كل ءامن بالله وملائكته** }.

فبدأ بالإيمان بالله ، لأنه قد يحصل بدليل العقل والعقل سابق في الوجود على الشرع، ثم قال {**وملائكته**} مراعاة لإيمان الرسول ، فإنه يتعلق بالملك الذي هو جبريل أولاً ثم بالكتاب الذي نزل به جبريل ، ثم بمعرفة نفسه أنه رسول.ثم حكى الزركشي قول السهيلي : وإنما عرف نبوة نفسه بعد معرفته بجبريل -عليه السلام- وإيمانه ، فترتب الذكر المنـــزل عليه بحسب ذلك ، فظهرت الحكمة والإعجاز ، فقال : {**كل ءامن بالله وملائكته وكتبه ورسله**}لأن الملك هو النازل بالكتاب ، وإن الكتاب أقدم من الملك ، ولكن رؤية النبي ﷺ للملك كانت قبل سماعه الكتاب، وأما إيماننا نحن بالعقل آمنا بالله أي بوجوده ، ولكن الرسول ﷺ عرفنا اسمه ووجوب النظر المؤدي إلى معرفته ، فآمنا بالرسول ثم بالكتاب المنـــزل عليه، وبالملك النازل به، فلو

---

(١) البحر المحيط ج١ ص٤٨٨.

ترتب اللفظ على حسب إيماننا لبدأ بالرسول قبل الكتاب ، ولكن إنما ترتيب على حسب إيمان الرسول ﷺ الذي هو إمام المؤمنين "[1].

وقريباً مما ذكره الزركشي قول صاحب الغرائب قال: " واعلم أن الآية دلت على أن معرفة هذه المراتب الأربع من ضروريات الإيمان :

المرتبة الأولى: هي الإيمان بالله سبحانه فإن صدق المبلَغ والرسول يتوقف على وجود المبلِغ والمرسِل .

والثانية : الإيمان بالملائكة فإنـــهم وسائط بين الله وبين البشر ﴿ **يُنَزِّلُ المَلائكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ**﴾(النحل : ٢) ﴿**عَلَّمَهُ شَدِيدُ القُوَى** ﴾ (النجم : ٥).

والثالثة : الكتب فإنه الوحي الذي يتلقفه الملك ويوصله إلى النبي ﷺ فمثال الملَك في عالم الصورة جرم القمر ، ومثال الوحي نور القمر ، فكما أن القمر يستفيد من نور الشمس ويوصله إلينا، فكذا الملك يأخذ الوحي من الله تعالى ويلقيه على الأنبياء فلا جرم وقع الرسل في المرتبة الرابعة وهذا الترتيب مما تقتضيه حكمة عالم التكليف والوسائط "[2].

قال القاسمي: "وصدَّر الكلام بذكر الجليل تفخيماً لشأنـــهم وإيذاناً بأن عداوتـــهم عداوته عز وعلا ، وقدم الملائكة على الرسل كما قد الله على الجميع ، لأن عداوة الرسل بسبب نزول الوحي ونزوله بتنــزيل الملائكة ، ويتنــزيلهم لها بأمر الله ، فذكر الله تعالى ومن بعده على هذا الترتيب "[3].

أقول:وقد تقدم هنا ذكر جبريل على ذكر ميكائيل ، لأن جبريل صاحب الوحي والعلم وميكائيل صاحب الأرزاق ، والخيرات النفسانية أفضل من الخيرات الجسمانية .

﴿ **وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلاَ نَصِيرٍ** ﴾ (البقرة: ١٠٧) .

تقدم هنا الولي على النصير، والتقديم هنا قد يكون للترقي من الأدنى إلى الأعلى ، فالولي قد يضعف عن النصرة فلا تفيد ولايته والنصير قد يكون أجنبياً عن المنصور فلا ينصره .

---

(١) البرهان ج٣ ص ٢٨٨ .
(٢) غرائب القرآن ج٢ ص ٨٦ ، ٨٧ .
(٣) محاسن التفسير المعروف بتفسير القاسمي ج١ ص٣٦٠ .

﴿ وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ ۰ وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ﴾(البقرة : ١٢٤ — ١٢٥) .

قال صاحب غرائب القرآن: "قيل : في الآية تقديم وتأخير لأن قوله: { **رب اجعل هذا بلداً ءامنا** } لا يمكن إلا بعد دخول البلد في الوجود فقوله { **وإذ يرفع** } وإن كان متأخراً في التلاوة فهو متقدم من حيث المعنى قلت : -والكلام له- في ترتيب القصة فوائد منها : أنه أجمل القصة في قوله:{ **وإذ ابتلى** } إلى { **فأتمهن** } **ثم فسر، وفي التفسير قدم الأهم فالأهم ، ولا ريب أن ذكر جعل إبراهيم إماما أولى بالتقديم لعموم نفعه للخلائق ولتقدمه في الوجود أيضاً ، ثم ذكر جعل البيت مثابة للناس وأمنا لأنه المقصود من عمارة البيت ثم حكاية عمارة البيت**}[1].

أقول: ما ذكره هو الظاهر ، إلا أن هناك احتمال آخر ، أن يكون إبراهيم - عليه السلام - قد أوحي إليه بأن البلد سوف يوجد ، وأن أهله سوف يسكنونه ويعمرونه فجاء الدعاء على الترتيب الوجودي باعتبار ما سيكون ، وليس هذا ببعيد .

{ أنْ طهِّرا بيتيَ للطَّائفين والعاكفين والرُّكَعِ السُّجود }

قال الزركشي : " فقدم الطائفين لقربهم من البيت ، ثم ثنى بالقائمين وهم العاكفون لأنهم يخصون موضعاً بالعكوف والطواف بخلافه فكان أعم منه ، والأعم قبل الأخص ، ثم ثلث بالركوع ، لأن الركوع لا يلزم أن يكون في البيت ولا عنده ، وما ذكره الزركشي رأي حسن وهو المناسب للسياق ، حيث إن الآية إنما تتحدث عن البيت ".[2]

أقول :وقد يكون تقديم الطائفين لأنه أكثر فالبيت مثابة الناس ، وهم ضيوف البيت والاعتناء بالضيف أولى وأظهر ، أو يكون التقديم لكثرة الطواف نفسه إذ إن تحية البيت هي الطواف لكل من دخل البيت من أهله ومن غير أهله ، ولذا بدأ بالطائفين لكثرة وقوع عبادة الطواف، وهناك تقديم

---

(١) غرائب القرآن ورغائب الفرقان ج١ ص٧٤ .
(٢) البرهان ج٣ ص٢٩١،٢٩٢

الركوع على السجود ، وقد ورد في آيات كثيرة منها قوله تعالى:﴿ **ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا** ﴾ (الحج : ٧٧) وقوله :﴿ **تَرَاهُمْ رُكَّعاً سُجَّداً** ﴾ (الفتح : ٢٩) وقوله : ﴿ **الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ** ﴾ (التوبة : ١١٢) وسبب التقديم لأنه أسبق في الوجوب، وإن كان السجود أفضل وفي الحديث { **أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد** } أما تقدم السجود على الركوع في قوله تعالى: ﴿ **يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ** ﴾ (آل عمران : ٤٣) ففيه أوجه :

يحتمل أنه كان في شريعتـــهم السجود قبل الركوع ، وأما قول الزركشي: يحتمل أن يراد بالركوع ركوع الركعة الثانية فقول غريب لا مسوغ له والأغرب منه أن المراد بـــ { **اركعي** } اشكري فهذا أمر تأباه اللغة والسياق"[١].

وقيل: أراد بـــ{ **اسجدي** } صلي وحدك وبـــ{ **اركعي** } صلي في جماعة ، ولذلك قال: { **مع الراكعين** }.

رأي العلامة الألوسي: قال: " ولعل تقديم السجود على الركوع لأنه كذلك في صلاتـــهم ، وقيل لأنه أفضل أركان الصلاة وأقصى مراتب الخضوع وفي الخبر {**أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد** } أو للتنبيه على أن الواو لا توجب الترتيب ، أو ليقترن اركعي مع الراكعين للإيذان بأن من ليس في صلاتـــهم ركوع ليسوا مصلين ، قال الألوسي : "وكل هذه الأوجه لا يخلو من دغدغة .

أما أولاً : فلأنه يتم على القول بأن القيام ليس أفضل من السجود كما نقل عن الإمام الشافعي .

وأما الثاني : فلأن الخطاب مع من يعلم لغة العرب لا مع من يتعلم منه اللغة .

وأما الثالث : فلأن تماميته تتوقف على بيان وجه على أنه لم يعبر بالساجدين تنبيهاً على أن من لا سجدة له في صلاته ليس من المصلين ، وكأن وجه ذلك يستفاد من كلام الزمخشري حيث قال: "ويحتمل أن يكون في

---

(١) البرهان ج٣ ص٢٨٧ .

زمانـــها من كان يقوم ويسجد في صلاته ولا يركع وفيه من يركع ، فأمرت بأن تركع مع الراكعين ، ولا تكون مع من لا يركع ، فالنكتة في التعبير ما جعلت نكتة في ذكر واركعي مع الراكعين واعترضه أيضاً بعضهم بأنه إذا قدم الركوع وقيل واركعي مع الراكعين واسجدي يحصل ذلك المقصود ، ولا مدخل للتقديم والتأخير في إفادة ذلك ، وقيل المراد بالسجود الصلاة كما في قوله:﴿ **وَأَدْبَارَ السُّجُود** ﴾ (ق : ٤٠) والتعبير عن الصلاة بذلك من التعبير بالجزء عن الكل، ويراد بالركوع الخشوع والتواضع ، كأن أمرها بذلك حفظاً لـــها من الوقوع في مهاوي التكبر والاستعلاء بما لها من علو الدرجة "[١]

أقول: وهذا احتمال ضعيف إذ كيف يتصور الكبر من مريم وهي التي اصطفاها الله على نساء العالمين وطهرها فذلك قوله تعالى:﴿ **وَإِذْ قَالَتِ الملائكةُ يَامَرْيَم إِنَّ اللَّهَاصْطَفَاكِوَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِعَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ**﴾(آل عمران : ٤٢) والطهارة هنا عامة تشمل طهارة الباطن وطهارة الظاهر فلا وجه للكبر والاستعلاء بعد تطهير ربـــها لها .

أقول : هناك احتمال بأن تقديم السجود على الركوع باعتبار أن هذا السجود سجود شكر أمرت به عند حدوث نعمة الاصطفاء والتطهير فناسب غاية التكريم غاية الذل والخضوع لله رب العالمين وذلك في حالة السجود وقد كان النبي -ﷺ- يسجد لله شكراً عندما يأتيه خبر سار أو بشارة خير .

﴿ **وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ** ﴾ (البقرة : ١٢٧).

يقول أبو حيان: "وتقدمت صفة السمع وإن كان سؤال التقبل متأخراً عن العمل للمجاورة ، نحو قوله :﴿ **يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ** ﴾(آل عمران:١٠٦) وتأخرت صفة العليم لكونـــها فاصلة ولعمومها، إذ يشمل علم المسموعات وغير المسموعات "[٢]. وهو نفس السبب الذي ذكره في قوله تعالى : ﴿ **فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلاَّ مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ** ﴾(البقرة : ٢٤٩) .

---

(١) روح المعاني ج٢ ص١٥٧ . (٢) البحر المحيط ج١ ص٥٩٥ .

وأقول :وقد يكون تقدم صفة السمع هنا لأن المقام مقام دعاء ، فناسب أن يذكر الصفة التي تتناسب مع حال دعائه فتضرع إلى الله بصفة السميع الذي يسمع هذا الدعاء ، وقد جاء التضرع بـــهذه الصفة صفة السميع على لسان زكريا في الآية الثامنة والثلاثين من سورة آل عمران في قوله تعالى : **{هنالك دعا زكريا ربه قال رب هب لي من لدنك ذرية طيبة إنك سميع الدعاء }**.

يرى الزمخشري : أن الاستثناء في قوله: { **إلا من اغترف** } من قوله: { **فمن شرب منه فليس مني**} وأن الجملة الثانية في حكم المتأخرة ، إلا أنـــها قدمت للعناية كما قدم { **والصابئون** } في قوله :**﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئُونَ ﴾** (المائدة : ٦٩) ومعناه الرخصة في اغتراف الغرفة باليد دون الكروع ، والدليل عليه قوله: {**فشربوا منه** } أي فكرعوا فيه { **إلا قليلاً منـــهم** } وقرئ { **غرفة**} بالفتح بمعنى المصدر ، وبالضم بمعنى المغروف وقرأ أبي والأعمش إلا قليل بالرفع ، وهذا من ميلهم مع المعنى والإعراض عن اللفظ جانباً ، وهو باب جليل من علم العربية ، فلما كان معنى { **فشربوا منه** } في معنى لم يطيعوه ، حمل عليه ، كأنه قيل: فلم يطيعوه إلا قليل منـــهم"(١) .

﴿ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾(البقرة : ١٢٨) .

يرى أبو حيان أن تقديم التواب على الرحيم لأنـــهما دعوا بأن يجعلهما مسلمين ومن ذريتـــهما أمة مسلمة وبأن يريهما مناسكهما وبأن يتوب عليهما فناسب ذكر التوبة عليهما أو الرحمة لهما وناسب تقديم ذكر التوبة على الرحمة لمجاورة الدعاء الأخير في قوله: { **وتب علينا** } وتأخرت صفة الرحمة لعمومها لأن من الرحمة التوبة ولكنها فاصلة والتواب لا يناسب أن تكون فاصلة هنا لأن قبلها إنك أنت السميع العليم وبعدها إنك أنت العزيز الحكيم"(٢) .

---

(١) الكشاف ج١ ص٢٩٠، ٢٩١.

(٢) البحر المحيط ج١ ص٥٦٢.

ذكر الألوسي أن تقديم التوبة على الرحمة للمجاورة ، وتأخير الرحمة لعمومها ولكونها أنسب الفواصل[1] .

وأقول :إن تقديم التواب على الرحيم من باب تقديم السبب على المسبب لأن التوبة هي سبب الرحمة، وقد تقدمت التوبة على المغفرة والرحمة والفلاح ودخول الجنة في كثير من آي القرآن لنفس العلة ، فمن ذلك قوله تعالى : **﴿ فَتَلَقَّى آدَمُ من رَّبِّه كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْه إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾**(البقرة : ٣٧) وقوله: **﴿ إِلاَّ الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنُوا فَأُوْلَئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾** (البقرة : ١٦٠) وقوله: **﴿ فَإِن تَابَا وَأَصْلَحَا فَأَعْرِضُوا عَنْهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ تَوَّاباً رَّحِيماً ﴾** (النساء: ١٦) وقوله : **﴿ فَمَن تَابَ مِنْ بَعْدِ ظُلْمِه وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْه ﴾** (المائدة : ٣٩)وقوله: **﴿ وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلامٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِه الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوءاً بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِه وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾** (الأنعام: ٥٤) وقوله : **﴿ وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْه إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ ﴾** (هود : ٩٠) وقوله: **﴿ إِلاَّ مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً فَأُوْلَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلا يُظْلَمُونَ شَيْئاً ﴾** (مريم : ٦٠) وقوله تعالى :**﴿ وَتُوبُوا إِلَى اللَّه جَمِيعاً أَيُّهَا الْمُؤْمِنُون لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾** (النور:٣١) . وقوله تعالى:**﴿ لَوْلا تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾** (النمل : ٤٦) . والآيات في هذا الموضوع كثيرة .

﴿ رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ (البقرة : ١٢٩) .

تقدم ذكر التلاوة و العلم والحكمة على التزكية بخلاف قوله تعالى: **﴿ كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولاً مِّنكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ ﴾** (البقرة : ١٥١) .

وهو نفس الترتيب في قوله تعالى: **﴿ لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِه وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُّبِينٍ ﴾** (آل عمران : ١٦٤) وهي نظير قوله تعالى: **﴿ وَأَهْدِيَكَ إِلَى رَبِّكَ فَتَخْشَى ﴾** (النازعات : ١٩) .

---

(١) روح المعاني ج٣ ص١١٤

لأن الخشية لا تكون إلا بالمعرفة ، فمعرفة الله مقدمة على طاعته، فبالتلاوة والهداية تحصل المعرفة ، ونظير ذلك قوله تعالى: ﴿ **أَنْ أَنذِرُوا أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاتَّقُون** ﴾ (النحل : ٢) وقوله تعالى: ﴿ **إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلاةَ لِذِكْرِي** ﴾ (طه : ١٤).

ففي هذه الآية تقدمت التزكية على العلم بالكتاب والحكمة وكذلك في قوله تعالى:

﴿ **هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُّبِينٍ** ﴾(الجمعة : ٢) .

والسبب في التقديم أن التزكية هي الغاية التي من أجلها أرسل الرسول ، وهي تطهيرهم من الضلال ثم تأتي بعد ذلك صفة تعليم الكتاب والحكمة ، لأن ذلك ناشئ عن تطهير الإنسان باتباعه للنبي ﷺ فيعلمه بعد ذلك ويفهمه ما انطوى عليه كتاب الله وما اقتضته الحكمة الإلهية، فأول منـــزلة للنبي ﷺ بعد النبوة الآيات الدالة على النبوة ثم بعد ذلك تعليمهم الكتاب لفظاً ومعنى إفهاماً وتربية ومن ثم يصلون بذلك التعليم وتلك التربية إلى الحكمة والتي هي إصابة السداد في الأقوال والأعمال فيصير الإنسان حينئذ مزكى ومطهر من كل ما يشينه .

قال الألوسي: في قوله تعالى: { **كما أرسلنا فيكم رسولاً ...** } ...{**ويزكيكم**} أي يطهركم من الشرك وهي صفة أخرى للرسول وأتى بـــها عقب التلاوة لأن التطهير عن ذلك ناشئ عن إظهار المعجزة لمن أراد الله تعالى توفيقه { **ويعلمكم الكتاب والحكمة** } صفة إثر صفة وأخرت لأن تعليم الكتاب وتفهيم ما انطوى عليه من الحكمة الإلهية والأسرار الربانية إنما يكون بعد التخلي عن دنس الشرك ونجس الشك بالإتباع ، وأما قبل ذلك فالكفر حجاب ، وقدم التزكية على التعليم في هذه الآية وأخرها عنها في دعوة إبراهيم لاختلاف المراد بـــها في الموضعين[1] .

قال صاحب التحرير والتنوير في قوله تعالى: { **كما أرسلنا فيكم ....** } "وقدمت جملة {**ويزكيكم**} على جملة { **ويعلمكم الكتاب والحكمة** } هنا عكس ما في الآية السابقة في حكاية قول إبراهيم { **يتلو عليهم ءاياتك**

---

(١) روح المعاني ج٢ ص٨١-٩١

ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم} لأن المقام هنا للامتنان على المسلمين فقدم فيها ما يفيد معنى المنفعة الحاصلة من تلاوة الآيات عليهم وهي منفعة تزكية نفوسهم اهتماماً بـها وبعثاً لها بالحرص على تحصيل وسائلها وتعجيلاً للبشارة بـها . فأما في دعوة إبراهيم فقد رتبت الجمل على حسب ترتيب حصول ما تضمنته في الخارج ، مع ما في ذلك التخالف من التفنن[1].

قال الألوسي: " فتقديم التلاوة لأنـها من باب التمهيد ثم التزكية لأنـها بعده وهي أول أمر يحصل منه صفة يتلبس بـها المؤمنون وهي من قبيل التخلية المقدمة على التحلية لأن درء المفاسد مقدم على جلب المصالح ، ثم التعليم لأنه يحتاج إليه بعد الإيمان ، بقي أمر تقديم العلم على التزكية في آية البقرة ولعله كان إيذاناً بشرافة التحلية"[2] .

﴿ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهاً وَاحِداً وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾ (البقرة :١٣٣) [3]

تقدم إبراهيم لفضله وأبوته وتقدم إسماعيل على إسحق وليس عندنا دليل على التفضيل فبقي السن وهذا يرجح قول أكثر العلماء الذين قالوا بأنه بكر إبراهيم .

وذكر الرازي نقلاً عن القفال أن تقديم إسماعيل من أجل سنه [3].

وإلى هذا ذهب الخازن أيضاً في تفسيره[4] وهو قول جماهير العلماء ، ويؤيد ذلك قوله تعالى حكاية عن نبي الله إبراهيم **﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ ﴾**(إبراهيم : ٣٩).

﴿قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ﴾ (البقرة: ١٣٦)

الترتيب في هذه الآية ترتيب وجودي إلا في قوله : **{ وما أنزل إلينا }**، حيث تقدم على ما بعده في الآية ، وهو أسبق نزولاً ، وعلة التقديم هنا لأنه أول بالإضافة إلينا أو أنه كان السبب للإيمان فيما أنزل من قبلنا .

---

(١) التحرير والتنوير ج٢ ص٤٩، ٥٠.
(٢) روح المعاني ج١ ص ١٨ ، ١٩.
(٣) الكشاف ج١ ص٢٩٠ ، ٢٩١ .
(٤) مفاتيح الغيب ج٤ ص٨٤ .
(٥) الخازن ج١ ص ١٥١.

﴿ قُل لِّلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ ﴾(البقرة : ١٤٢) .

وقع تقديم المشرق على المغرب ضمن السياق الزمني ، فالشروق قبل الغروب فما من غروب إلا ويسبقه شروق ، وهذا التقديم مطرد في كتاب الله تعالى ومنه قوله تعالى:﴿يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لاَّ شَرْقِيَّةٍ وَلاَ غَرْبِيَّةٍ﴾ (النور : ٣٥) وقوله تعالى في سورة الرحمن: ﴿ رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ ﴾ (الرحمن : ١٧) وقوله تعالى في سورة المعارج : ﴿ فَلاَ أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ إِنَّا لَقَادِرُونَ ﴾ (المعارج : ٤٠) .

﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ (البقرة : ١٤٣) .

قال صاحب التحرير والتنوير: " وتقديم {رءوف} ليقع لفظ رحيم فاصلة فيكون أنسب بفواصل هذه السورة لانبناء فواصلها على حرف صحيح ممدود يعقبه حرف صحيح ساكن، ووصف رءوف معتمد ساكنه على الهمز والهمز شبيه بحروف العلة ، فالنطق به غير تام التمكن على اللسان وحرف الفاء لكونه يخرج من بطن الشفة السفلى ، وأطراف الثنايا أشبه حرف اللين فلا يتمكن عليه سكون الوقف .

وتقديم { بالناس } على متعلقه وهو رءوف رحيم للتنبيه على عنايته بـــهم إيقاظاً لهم ليشكروه مع الرعاية على الفاصلة "[(١)] .

وأقول : تقدمت الرأفة على الرحمة من باب التدرج في الإحسان ، فإن الرأفة تتعلق برفع المكروه وإزالة الضرر ، أما الرحمة فإنـــها اسم جامع يدخل فيه ذلك المعنى ويدخل فيه الإفضال والإنعام وقد سمى الله تعالى المطر رحمة ﴿ وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْراً بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ ﴾(الأعراف : ٥٧) ، وقال تعالى :﴿ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَى لِلْعَابِدِينَ ﴾(الأنبياء: ٨٤).

﴿ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلاَ عَادٍ فَلاَإِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾(البقرة : ١٧٣).

وجاء في ثلاثة مواضع بعده وما أهل لغير الله به، أولها في سورة المائدة ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ ﴾(المائدة : ٣)

---

(١) التحرير والتنوير ج٢ ص٢٦

وفي آخر سورة الأنعام : ﴿ **قُل لاَّ أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّماً عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلاَّ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَماً مَّسْفُوحاً أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقاً أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ** ﴾(الأنعام : ١٤٥). وفي سورة النحل ﴿ **فَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلاَلاً طَيِّباً وَاشْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ۝ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ**﴾.(النحل: ١١٤، ١١٥).

جاء في المواضع الثلاثة به مؤخراً عن قوله لغير الله .

قال الفيروزابادي: " قدم { **به** } في هذه السورة ، وأخرها في المائدة والأنعام والنحل ، لأن تقديم الباء الأصل ، فإنـــها تجري مجرى الألف والتشديد في التعدي ، وكان كحرف من الفعل ، وكان الموضع الأول أولى بما هو الأصل ، ليُعلم ما يقتضيه اللفظ ، ثم قدم فيما سواها ما هو المستنكر وهو الذبح لغير الله ، وتقديم ما هو الغرض أولى ، ولهذا جاز تقديم المفعول على الفاعل والحال على ذي الحال ، والظرف على العامل فيه إذا كان أكثر الغرض في الإخبار ". [1]

أما صاحب درة التنـــزيل فيقول: " للسائل أن يسأل فيقول : لماذا اختلف الموضع الأول مع المواضع التي بعده ؟ والجواب أن يقال : أما الموضع الأول فإنه جاء على الأصل الذي يقتضيه حكم اللفظ ، لأن الباء التي يتعدى بـــها الفعل في هذا المكان من جملة الباءات التي تجيء كحرف من نفس الفعل، فصار قوله: { **أهل به لغير الله** } بمنـــزلة ذبح لغير الله مسمى عليه اسم بعض الآلهة ، فلما كان هذا الأصل في الأول جرت الآية الأولى عليه ، ولما كان الإهلال بالمذبوح لا يستنكر إلا إذا كان لغير الله ، كان ما عدا الأصل بتقديم المستنكر أحق وأولى . ألا ترى أنـــهم يقدمون المفعول إذا كانوا ببيانه أعنى ، فيقولون ضرب زيداً عمرو فيقدمون المفعول على الفاعل لأن الاهتمام بأمره أتم ، لأن هذا ينفي ما فيه وهم متوهم ، أو قول قائل : ضرب محمد زيداً ، فيقع الخلاف في المفعول لا في الفاعل ، فيقول المنكر لذلك المثبت صحة ما عنده ضرب عمراً زيد لا محمداً ، فإن ترك قوله لا محمداً كان مكتفياً عنه بتقديم المفعول ، وكذلك ما ينكره من الفضلات

---

(١) بصائر ذوي التمييز ج١ ص١٥٠، ١٥١.

كالظرفين والحال فقال المخاطب إذ توهم ضرب زيد عمراً اليوم فقال المنكر ضرب أمس عمراً فقدم أمس على الفاعل والمفعول به لأنه هو الذي ينكره ويمنع أن يكون على ما توهمه ، والباقي من الكلام ليس فيه ما يستنكره ، فالعناية بتقديم ما يزيل الشك عنه أتم وهو بالتقديم أحق فذلك قوله تعالى:

{ **وما أهل به لغير الله** } مع قوله:{**وما أهل لغير الله به**} في الآي الثلاث.[1]

وتقدَّم في الآية اسم الغفور على الرحيم ، وهذا تقديم بالرتبة كما ذكر الزركشي فإن المغفرة سلامة ، والرحمة غنيمة ، والسلامة مطلوبة قبل الغنيمة وإنما تأخرت في آية سبأ في قوله:﴿ **الرَّحِيمُ الغَفُورُ** ﴾ (سبأ:٢) لأنـــها منتظمة في سلك تعداد الخلق من المكلفين وغيرهم ، وهو قوله :{ **يعلم ما يلج في الأرض وما يخرج منها وما ينـــزل من السماء وما يعرج فيها وهو الرحيم الغفور** } فالرحمة شملتـــهم جميعاً ، والمغفرة تخص بعضاً،والعموم قبل الخصوص بالرتبة.[2]

﴿ **وَقَالُوا كُونُوا هُوداً أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا** ﴾ (البقرة:١٣٥) تقدم اليهود على النصارى ليس تقدم فضل ، بل هو تقدم لسبق الوجود حيث إنـــهم أسبق منـــهم زماناً ونظيره قوله تعالى: ﴿**مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِياً وَلاَ نَصْرَانِياً** ﴾ (آل عمران:٦٧) بدليل قوله تعالى:﴿ **لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا اليَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَـــهم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى ذَلِكَ بِأَنَّ منـــهم قِسِّيسِينَ وَرُهْبَاناً وَأَنـــهم لاَ يَسْتَكْبِرُونَ**﴾ (المائدة:٨٢) فتقديم اليهود لشدة عداوتـــهم للمؤمنين ، فقد كانوا أسرع الناس كفراً بالنبي ﷺ وتكذيباً له وصد الناس عن دعوته والمسارعة بالإنفاق في محاربة الإسلام والكيد والتآمر ونقض العهود وخيانة المواثيق وإشعال الحروب وكل ذلك مسطور في القرآن مذكور في السيرة.

﴿ **قُولُوا آمَنَّا بِاللَّه وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِن**

---

(١) درة التتريل ص٢٢،٢٣.

(٢) البرهان ج٣ ص٢٩١.

رَبِّــهم لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْــهم وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾ (البقرة:١٣٦) يقول أبو حيان: " وقدم ما أنزلَ إلينا وإن كان متأخراً في الإنزال عن ما بعده لأنه أولى بالذكر لأن الناس بعد بعثة محمد ﷺ مدعوون إلى الإيمان بما أنزل إليه جملة وتفصيلاً ، قدم ما أنزل على إبراهيم على ما أوتي موسى وعيسى للتقدم في الزمان ، أو لأن المنــزل على موسى ومن ذكر معه هو المنــزل إلى إبراهيم إذ هم داخلون تحت شريعته" .[1]

وأقول : وقد تقدم الإيمان بما أنزل إلينا ، لأن الإيمان بالكتب السماوية السابقة ومعرفة كتبــهم وأنبيائهم إنما كان عن طريق ما أنزل إلينا فهو المخبر عنها والحاكم عليها . ﴿ قُلْ أَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللَّهُ ﴾ (البقرة:١٤٠) .

قال أبو حيان: "وقد توسط هنا المسئول عنه ، وهو أحسن من تقدمه وتأخره، إذ يجوز في العربية أن يقول : أأعلم أنت أم الله ، ويجوز أأنت أم الله أعلم ؟ ولا مشاركة بينــهم وبين الله في العلم حتى يسأل أهم أَزْيَدُ علماً أم الله ، ولكن ذلك على سبيل التهكم بــهم والاستهزاء وعلى تقدير أن يظن بــهم علم وهذا نظير قول حسان :(فشرُّكما لخيركما الفداء) وقد علم أن الذي هو خير كله هو الرسول - عليه الصلاة والسلام-، وأن الذي هو شر كله هو هاجيه "[2] .

والشطر الأول من البيت هو:

أتهجوه ولستَ له بكفء فشرُّكما لخيركما الفداء [3]

﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً ﴾ (البقرة:١٤٣) هنا تقدمت شهادتــهم على شهادة النبيﷺ لأنــها تقع هكذا ، يشهدون أولاً على الأمم ، ثم يشهد هو عليهم ثانيا، وهذا منصوص عليه في حديث النبي ﷺ من أنه إذا أنكرت الأمم رسلهم وشهدت عليهم أمة محمد بالتبليغ يؤتى بمحمد ﷺ فيسأل عن حال أمته فيزكيهم ويشهد بصدقهم وإن فسرت الشهادتان بغير ذلك فحينئذ يمكن أن تكون شهادة الرسول من باب الترقي ، لأن شهادة الرسول عليهم أشرف من شهادتــهم على الناس .

---

(١) البحر المحيط ج١ ص٥٨٥. (٢) البحر المحيط ج١ ص٥٨٧. (٣) ديوان حسان ص٢٠

﴿ قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴾ (البقرة:١٤٤).

التقديم والتأخير هنا في عرض الأحداث ، إذ جاء ذكر الآثار التي ترتبت على هذه الواقعة قبل وقوعها فكشفت الآيات عن موقف اليهود من تحول القبلة إلى المسجد الحرام أولاً ، ثم عرضت الأمر بهذا التحول بعد ذلك ، وفي هذا ما يشعر بأن هذا التحول في ذاته ما كان ليكون موضع تساؤل وجدل فهو أمر من الله ووجه من الوجوه إليه **{ ولله المشرق والمغرب }** ولكن النفوس المريضة لا تجد طعماً حلواً ولا مساغاً لطيب ، وهذا هو محل النظر والأولى بالبداءة به خاصة إذا كان الجدال والشغب فيه عن علم **{ وإن الذين أوتوا الكتاب ليعلمون أنه الحق من ربهم }** .

﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ﴾ (البقرة:١٥٥) وهي نظير قوله تعالى:**﴿ لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى﴾** (آل عمران :١٨٦)، وقدم الابتلاء بالخوف على الابتلاء بالجوع من باب الترقي من الصعب إلى الأصعب وكذلك قدمت الأموال على الأنفس أيضاً من باب الترقي من الصعب إلى الأصعب أو لأن الابتلاء في الأموال أكثر من الابتلاء في النفوس وهذا الترتيب عكس الترتيب في اللفظ في سورة قريش وإن كان متفقاً في المعنى حيث قدم الامتنان بالإطعام من الجوع على الأمن من الخوف لأن مضرة الجوع أعظم إذ إنه يفضي إلى الهلاك .

﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِن شَعَائِرِ اللَّهِ ﴾ (البقرة:١٥٨) يرتبط التقديم والتأخير في هذه الآية بفقه الحج والعمرة ، حيث إن النبي ﷺ بدأ في سعيه بين الصفا والمروة بالصفا ، ففي حديث جابر رضي الله عنه أن النبي ﷺ لما دنا من الصفا قرأ **{ إن الصفا والمروة من شعائر الله فمن حج البيت أو اعتمر فلا جناح عليه أن يطوف بهما ومن تطوع خيراً فإن الله شاكر عليم }** أبدأ بما بدأ الله به فبدأ بالصفا فرقى عليه} [1] رواه مسلم وهو عند الترمذي وقال فيه هذا

---

(١) مسلم باب حجة النبي ﷺ {[illegible]} {١٢١٨} وسنن الترمذي كتاب الحج رقم {٧٩٠}.

حديث حسن صحيح والعمل على هذا عند أهل العلم أنه يبدأ بالصفا قبل المروة فإن بدأ بالمروة لم يجزه .[1]

قال أبو حيان: "ومشروعية السعي على قول كافة العلماء البداءة بالصفا.٣٥٥ ويترتب على ما سبق أنه لو خالف الترتيب فبدأ بالمروة لم يعتد بذلك الشوط.

قال ابن قدامة والنووي: " ويفتتح بالصفا ويختتم بالمروة " وجملة ذلك ، أن الترتيب شرط في السعي ، وهو أن يبدأ بالصفا ، فإن بدأ بالمروة لم يعتد بذلك الشوط ، فإذا صار إلى الصفا اعتد بما يأتي به بعد ذلك لأن النبي ﷺ بدأ بالصفا وقال : { **نبدأ بما بدأ الله به** } وهذا قول الحسن ومالك والشافعي والأوزاعي وأصحاب الرأي ، وعن ابن عباس قال :
قال الله تعالى { **إن الصفا والمروة من شعائر الله** } فبدأ بالصفا وقال : اتبعوا القرآن فما بدأ الله به فابدؤوا به ".[2]

قال صاحب منهج السالك : "فيبدأ بالصفا ويختم بالمروة ، ولو بدأ بالمروة سقط الشوط الأول قال الشارح : إشارة إلى ترتيب أشواط السعي وأن ذلك شرط فيبدأ بالصفا ويختم بالمروة لأن النبي ﷺ بدأ بالصفا وقال : { **أبدأ بما بدأ الله به** } { **فبدأ بالصفا** } وعند النسائي في الكبرى { **ابدؤوا** } وفي الصغرى{ **فابدؤوا** } قال في شرحه على قول المؤلف : ولو بدأ بالمروة سقط الشوط الأول : أي لم يحتسب له لمخالفة فعل النبي ﷺ والمستفيض عنه ولأمر البداءة بالصفا في الحديث السابق فبدأ بالصفا وقرأ{ **إن الصفا والمروة من شعائر الله** } وهذا بيان لمراد الله وتقرير له ".[3]

﴿ **إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ** ﴾ (البقرة:١٦١) قال أبوحيان : "بدأ تعالى بنفسه وناهيك بذلك طردا وإبعادا﴿ **قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ اللَّهِ مَن لَّعَنَهُ اللَّهُ**﴾(المائدة:٦٠).

فلعنة الله هي التي تجر لعنة الملائكة والناس، ألا ترى إلى قول بعض الصحابة ، ومالي لا ألعن من لعن الله على لسان رسوله ، وكما روي عن

---

(١) البحر المحيط ج١ ص٦٣٢. (٢) المغني ج٣ ص ٢٧٥ المجموع ج٨ ص١٠٥.

(٣) منهج السالك إلى بيت الله المبجل في أعمال المناسك ص١٩٦ ، الواضح في فقه الإمام أحمد د/ علي أبو الخير دار الخير دمشق ١٤١٦ هجرية ١٩٩٥ ميلادية.

أحمد أن ابنه سأله : هل يلعن وذكر شخصاً معيناً ، فقال لابنه : يا بني هل رأيتني ألعن شيئاً قط ؟ ثم قال ومالي لا ألعن من لعنه الله في كتابه قال : فقلت:يا أبت وأين لعنة الله ؟ قال : قال تعالى:﴿ **أن لَّعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمينَ**﴾ (الأعراف:٤٤) ثم ثنى بالملائكة لما في النفوس من عظم شأنهم وعلو منزلتهم وطهارتهم ، ثم ثلث بالناس لأنهم من جنسهم فهو شاف عليهم لأن مفاجأة المماثل مما يدعي المماثلة بالمكروه أشق بخلاف صدور ذلك من الأعلى ".[1]

وقد ذكر البغوي نقلاً عن أبي العالية ما يفيد أن هذا للترتيب الوجودي يوم القيامة وهو لا يتعارض مع ما ذكره البغوي قال : قال أبو العالية: هذا يوم القيامة يوقف الكافر فيلعنه الله ثم تلعنه الملائكة ثم يلعنه الناس". [2]

أقول: ولا منافاة بين القولين ، فأبو حيان نظر إلى المعنى والبغوي نظر إلى الفعل ، وكلا الرأيين صحيح.

﴿ **إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ** ﴾ (البقرة:١٦٤) ، وعن سر التقديم والتأخير بين هذه الآيات كلام لأبي حيان منه ما يقبل الاحتمال ومنه ما هو عين الوهم والخيال يقول: "وقدم السموات على الأرض لعظم خلقها ، أو لسبقه على خلق الأرض عند من يرى ذلك ، ثم أعقب ذكر خلق السموات والأرض باختلاف الليل والنهار ، وهو أمر ناشئ عن بعض الجواهر العلوية النيرة التي تضمنتها السموات ، ثم أعقب ذلك بذكر الفلك ،وهو معطوف على الليل والنهار كأنه قال : واختلاف الفلك : أي ذهابه مرة كذا ومرة كذا على حسب ما تحركها المقادير الإلهية ، وهو أمر ناشئ عن بعض الأجرام السفلية الجامدة التي تضمنتها الأرض ، ثم أعقب ذلك بأمور اشترك فيها العالم العلوي والعالم السفلي ،وهو إنزال الماء من السماء ونشر ما كان دفيناً في الأرض بالإحياء ، وجاء هذا المشترك مقدم فيه السبب على المسبب ،

---

(١) البحر المحيط ج١ ص ٦٤٢.　　(٢) معالم التنزيل في التفسير والتأويل ج١ ص١٨٨.

فلذلك أعقب بالفاء التي تدل على السبب عند بعضهم ثم ختم ذلك بما لا يتم تقدمه من ذكر جريان الفلك ، فانظر إلى هذا الترتيب الغريب في الذكر حيث بدأ أولاً باختراع السموات والأرض ، ثم ثنى بذكر ما نشأ عن العالم العلوي ، ثم أتى ثالثاً بذكر ما نشأ عن العالم السفلي ، ثم أتى بالمشترك ، ثم ختم ذلك بما لا تتم النعمة للإنسان إلا به وهو التصريف المشروح."[1]

أقول:أما ما ذكره من تقديم خلق السموات على الأرض لعظم خلقها، فهذا احتمال وارد وقد صار اليوم من اليقينيات العلمية أن الأرض بالنسبة إلى السماء كحبة رمل في الصحراء ، وأما قوله : {**أو لسبقه على خلق الأرض عند من يرى ذلك**}، فقد بسطت فيه القول في الآية الواحدة والعشرين وذكرت أن خلق الأرض مقدم على خلق السماء ، وأما قوله :عن اختلاف الليل والنهار بأنه ناشئ عن بعض الجواهر العلوية النيرة التي تضمنتها السموات فليته سكت إذلم يعلم ولم يتخرص بالظن، فقد أثبت العلم بما لا يدع مجالاً للشك أن تغير اختلاف الليل والنهار بسبب دوران الأرض حول محورها أمام الشمس .

وفي هذه الآية تقدم الليل على النهار ، وفي سبب التقديم احتمالات .

ذكر الألوسي أن تقديم الليل لسبقه في الخلق أو لشرفه ، ولا أدري أي شرف عناه ؟ فالليل و النهار كلاهما وعاء لما يحدث فيهما من خير أو شر ، فالشرف إنما يثبت بالدليل كما ثبت فضل أيام العشر على ما سواها من أيام وشهر رمضان على ماسواه من الشهور ويوم الجمعة على سائر أيام الأسبوع وليلة القدرعلى سائر الليالي أما الليل والنهار فكلاهما مطيتان للبلوغ بالأعمال، وأما ما ورد في شأن فضل صلاة الليل وعلى الأخص في الثلث الآخر فإنما ذلك راجع إلى المشقة اللاحقة بترك النوم والراحة والنهوض بأعباء العبادة .[2]

وما ذُكر من التقدم بالخلق والإيجاد أولى بالقبول وهو ما ذهب إليه الزركشي

---

(١) البحر المحيط ج١ ص ٦٤٢ . (٢) روح المعاني ج٢ ص ٣١.

يقول: "ومنه تقدم الليل على النهار﴿ **وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ**﴾ (الإسراء:١٢) ومنه قوله تعالى:﴿ **سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا آمِنِينَ**﴾ (سبأ :١٨) وقوله تعالى : ﴿ **بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ** ﴾(سبأ :٣٣) وقوله تعالى :﴿ **حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ** ﴾ (الروم:١٧) ولذلك اختار العرب التاريخ بالليالي دون الأيام ،وإن كانت الليالي مؤنثة والأيام مذكرة وقاعدتـــهم تغليب المذكر إلا في التاريخ.فإن قلت : فما تصنع بقوله تعالى :﴿**لاَ الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلاَ اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ** ﴾ (يس:٤٠) قلت : استشكل الشيخ أبو محمد بن عبد السلام في{قواعده } بالإجماع على سبق الليلة على اليوم . وأجاب بأن المعنى : تدرك القمر في سلطانه ، وهو الليل ، أي لاتجيء الشمس في أثناء الليل فقوله بعده :{**ولا الليل سابق النهار وكل في فلك يسبحون**}أي لا يأتي في بعض سلطان الشمس وهو النهار ، وبين الجملتين مقابلة .

فإن قيل : قوله تعالى :﴿ **يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ**﴾ (الحديد:٦) مشكل على هذا ، لأن الإيلاج إدخال الشيء في الشيء ، وهذا البحث ينافيه.

قلت: المشهور في معنى الآية أن الله يزيد في زمن الشتاء مقداراً من النهار ومن النهار في الصيف مقداراً في الليل وعلى غير المشهور ، يجعلْ الليل في المكان الذي كان فيه النهار ويجعل النهار في المكان الذي كان فيها الليل ، والتقدير:يولج الليل في مكان النهار ويولج النهار في مكان الليل".[1]

أقول: وما ذهب إليه الشيخ أبو محمد وتابعه عليه الزركشي من تقديم الليلة على اليوم هو الراجح ، فالفضل ليس في زمن الليل نفسه ، وإنما لأنه أقرب إلى الإخلاص وأبعد عن الرياء ، أو لما فيه من المجاهدة في السهر ومغالبة النوم من أجل العبادة ولهذا جاء الليل والنهار في معرض الثناء على المنفقين مقابلة بالسر والعلن على طريقة اللف والنشر في قوله تعالى : ﴿ **الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِراً وَعَلاَنِيَةً** ﴾(البقرة:٢٧٤) قال الألوسي : " وقدم الليل على النهار والسر على العلانية للإيذان بمزية الإخفاء على الإظهار .

---

(١) البرهان ج٣ ص ٢٨١، ٢٨٢.

وذكر الألوسي قول بعضهم عن سر التقديم والتأخير واعترض عليه ولست معه في اعتراضه هذا لما تبين لي من ترجيح لـــهذا القول عند النظر في الآية، قال الألوسي: في قوله تعالى: { **وما أنزل الله من السماء من ماء** } عطف على{ **الفلك** } قيل : وتأخيره عن ذكرها مع كونه أعم منها نفعاً لما فيه من مزيد تفضيل ، وقيل : المقصود من الأول الاستدلال بـــ{**البحر**} وأحواله لا بـــ{**بالفلك**} الجاري فيه لأن الاستدلال بذلك إما بصنعته على وجه يجري في الماء ، أو العلم بكيفية إجرائه _ أو بتسخير الريح والبحر- لذلك أو توسله إلى {**ما ينفع الناس**} وشيء منها ليس من حاله في نفسه ، ولأن الاستدلال - بالفلك الجاري في البحر - استدلال بحال من أحوال البحر بخلاف ما لو استدل بالبحر وجميع أحواله فإنه أعم وأليق بالمقام ، إلا أنه خص الفلك بالذكر مع أن مقتضى المقام حينئذ أن يقال : والعجائب التي في البحر -لأنه سبب الإطلاع على أحواله وعجائبه- فكان ذكره ذكراً لجميع أحواله، وطريقاً إلى العلم بوجوه دلالته ، ولذلك قدم على ذكر المطر والسحاب -أن منشأهما البحر في غالب الأمر ، وإلا فالمناسب بعد ذكر { **اختلاف الليل والنهار** } الذي هو من الآيات العلوية ذكر - المطر والسحاب - اللذين هما من كائنات الجو وعدم نظم الفلك في البين لكونـــها من الآيات السفلية. يقول الألوسي : وعندي أن ذلك خلاف الظاهر جداً -وإن جل قائله- إذ يؤول المعنى إلى - والبحر الذي تجري فيه الفلك بما ينفع الناس - وهو قلب للنظم الكريم بغير داع إليه ولا دليل يعول عليه، وأي مانع من كون الاستدلال باختلاف الفلك وذهابـــها مرة كذا ومرة كذا على حسب ما تحركها المقادير الإلهية ، أو بالفلك الجارية في البحر من حيث أنـــها جارية فيه موقرة مقبلة ومدبرة ، متعلقة بحبال الهواء على لطفه ، وكثافتها لا ترسب إلى قاع البحر مع تلاطم أمواجه واضطراب لججه وكون شيء من ذلك ليس حالا لها في نفسها غير مسلم ، ووجه الترتيب -على ما أرى - والكلام للألوسي- أنه سبحانه ذكر أولاً خلق أمرين علوي وسفلي ، واختلاف شيئين بمدخلية أمرين سماوي وأرضي { **ثانياً** } إذ تعاقب الليل والنهار أو اختلافهما ازدياداً أو انتقاصاً أو ظلمة أو نوراً إنما هو بمدخلية سير الفلك وحيلولة جرم

الأرض على كيفيتين مخصوصتين ، ثم عقب ذلك بما يشبه آيتي الليل والنهار السابح كل منـــهما في لجة بحر فلكه الدوار المسخر بالجريان فيه ذهاباً وإياباً بما ينفع الناس في أمر معاشهم وانتظام أحوالهم ، وهو الفلك التي تجري على كبد البحر بذلك ، ويختلف جريانـــها شرقاً وغرباً على حسب تسليك المقادير الإلهية لها في هاتيك المسالك ، فالآية حينئذ على حد قوله تعالى : **{وآية لهم الليل نسلخ منه النهار فإذا هم مظلمون . والشمس تجري لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم . والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم. لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل في فلك يسبحون . وآية لهم أنا حملنا ذريتـــهم في الفلك المشحون}**[1] إلا أن الفرق بين الآيتين أن الآيتين في الثانية ذكرتا متوسطتين صريحاً بين حديث الفلك وشأن الليل والنهار ،وفي الأولى تقدم ما يشعر بـــهما ويشير إليهما ، ثم عقب ذلك بما يشترك فيه العالم العلوي والعالم السفلي ، وله مناسبة لذكر البحر بل ولذكر الفلك التي تجري فيه بما ينفع الناس وهو إنزال الماء من السماء ونشر ما كان دفيناً في الأرض بالإحياء ، وفي ذلك النفع التام والفضل العام ...وعقب إحياء الأرض بالمطر، وبث كل دابة فيها بتصريف الرياح لأن في ذلك تربية النبات وبقاء حياة الحيوانات التي تدب على وجه الأرض .....قال بعض الفضلاء: لعل تأخير تصريف الرياح وتسخير السحاب في الذكر عن جريان الفلك وإنزال الماء مع انعكاس الترتيب الخارجي للإشعار باستقلال كل من الأمور المعدودة في كونـــها آية ولو روعي الترتيب الخارجي لربما توهم كون المجموع المرتب بعضه على بعض آية واحدة ، ولا يخفى أنه يبعد هذا التوهمَ ظاهرُ قوله تعالى ".[2]

أقول: وتقديم السموات على الأرض كثير في القرآن الكريم وأما تأخيرها عنها في قوله:﴿ **وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ من مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلاَ فِي السَّمَاءِ وَلاَ أَصْغَرَ من ذَلِكَ وَلاَ أَكْبَرَ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ** ﴾(يونس:٦١) فلأنه لما ذكر المخاطبين وهو قوله : **{ولا تعملون من عمل إلا كنا عليكم شهوداًإذ**

---

(١) روح المعاني ج٢ ص٤٧.

(٢) روح المعاني ج٢ ص٣١-٣٣.

تفيضون فيه } وهو خطاب لأهل الأرض وعملهم يكون في الأرض وهذا بخلاف الآية التي في سبأ فإنـــها منتظمة في سياق علم الغيب وكذلك قوله : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لاَ يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الأَرْضِ وَلاَ فِي السَّمَاءِ ﴾ (آل عمران:٥) وأما تأخيرها عنها في قوله :﴿وَالأَرْضُ جَمِيعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ﴾ (الزمر:٦٧) فلأن الآية في سياق الوعد والوعيد وإنما هو لأهل الأرض ، وكذا قوله :﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ الأَرْضُ غَيْرَ الأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ﴾ (إبراهيم: ٤٨) .

﴿ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلاَ عَادٍ فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ (البقرة:١٧٣) هذا التحريم المجمل فصل في صدر سورة المائدة في قوله تعالى :﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلاَّ مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَأَن تَسْتَقْسِمُوا بِالأَزْلاَمِ ذَلِكُمْ فِسْقٌ﴾ (المائدة:٣) يرى بعض المفسرين أن هذه الآية ليس فيها تقديم ولا تأخير بينما يقول الفقهاء : يقدم الأخف تحريماً فيؤكل عن الاضطرار فميتة المأكول على ميتة غيره .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَناً قَلِيلاً أُولَئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِـــهِمْ إِلاَّ النَّارَ وَلاَ يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلاَ يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ (البقرة:١٧٤) في هذه الآية جاء التقديم والتأخير على أسلوب الطي والنشر السابق ذكره في الفصل الثالث- دوافع التقديم والتأخير- لقد ترتب على كتمان ما أنزل الله وشراء الثمن القليل أخبار أربعة هي :

أولاً: أكلهم النار. **ثانياً**: عدم تكليم الله لهم يوم القيامة. **ثالثاً**: عدم تزكيتـــهم. **رابعاً**: استحقاقهم العذاب الأليم.

وعن سر ذلك الترتيب يقول أبو حيان: "وناسب ذكر هذه الأخبار ما قبلها ومناسب عطف بعضها على بعض لما نذكره فنقول متى ذكر وصف ورتب عليه أمر فللعرب فيه طريقان : أحدهما : أن تكون تلك الأمور المترتبة على الأوصاف مقابلة لها ، الأول منها لأول تلك الأوصاف والثاني بالثاني ، وتارة يكون الأول من تلك الأمور مجاوراً لما يليه من تلك الأوصاف فتحصل المقابلة من حيث المعنى لا من حيث الترتيب اللفظي ، وهذه الآية جاءت من

هذا القبيل، لما ذكر تعالى اشتراءهم الثمن القليل وكان ذلك كناية عن مطاعمهم الخسيسة الفانية بدأ أولاً في الخبر بقوله : **{ما يأكلون في بطونـــهم إلا النار}** ثم قابل تعالى كتمانـــهم الدين والكتمان هو أن لا يتكلموا به بل يخفوه بقوله تعالى: **{ولا يكلمهم الله}** فجوزوا على من التكلم بالدين أن منعوا تكليم الله إياهم ، وابتنى على كتمانـــهم الدين واشترائهم بما أنزل الله ثمناً قليلاً أنـــهم شهود زور وأحبار سوء ، حيث غيروا نعت رسول الله وادعوا أن النبي المبتعث غير هذا قوبل ذلك كله بقوله:**{ ولا يزكيهم }**، ثم ذكر أخيراً ما أعد لهم من العذاب الأليم فرتب على اشتراء الثمن القليل قوله: **{ ما يأكلون في بطونـــهم إلا النار }** وعلى الكتمان قوله :**{ولا يكلمهم الله}** وعلى مجموع الوصفين قوله : **{لا يزكيهم ولهم عذاب أليم}** فبدأ أولاً بما يقابل فرداً فرداً وثانياً بما يقابل المجموع . [1]

قال الألوسي : " وقد جاءت هذه الأخبار مرتبة بحسب المعنى ، لأنه لما ذكر سبحانه اشتراءهم بذلك - الثمن القليل - وكان كناية عن مطامعهم الخبيثة الفانية بدأ أولاً في الخبر بقوله تعالى: **{ما يأكلون في بطونـــهم إلا النار}** ثم قابل كتمان الحق وعدم التكلم به بقوله تعالى: **{ولا يكلمهم الله}** - وابتنى على كتمانـــهم واشترائهم بما أنزل الله ثمناً قليلاً - أنـــهم شهود زور وأحبار سوء آذوا بـــهذه الشهادة الباطلة رسول الله ﷺ وآلموه فقوبلوا بقوله سبحانه: **{ ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم}** وبدأ أولا بما يقابل فرداً فرداً ، وثانياً بما يقابل المجموع ". [2]

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلاً أُوْلَئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونـــهِمْ إِلاَّ النَّارَ وَلاَ يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلاَ يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ (البقرة:١٧٤) بدأ الوعيد في الثمن **{ما يأكلون في بطونـــهم إلا النار}** لكونه الحامل على كتمان العلم ثم أتبعه الوعيد على نفس الكتمان **{ ولا يكلمهم الله }** .

﴿ لَيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي

---

(١) البحر ج١ ص ٦٦٨

(٢) روح المعاني ج١ ص٤٤.

الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾(البقرة:١٧٧) قال الألوسي :" (**المشرق والمغرب**) السمتان المعنيان ، فإن اليهود تصلي – قبل المغرب – إلى بيت المقدس من أفق مكة ، والنصارى قبل المشرق .... وقدم المشرق على المغرب مع تأخر زمان الملة النصرانية رعاية لما بينهما من الترتيب المتفرع على ترتيب الشروق والغروب، وقرأ حمزة وحفص- البر – بالنصب والباقون بالرفع . ووجه الأولى أن يكون خبراً مقدماً كما في قوله :

سلي أنْ جهلت الناس عنَّا وعنهم فليس سواءً عالمٌ وجهولُ

وحسن ذلك أن المصدر المؤول أعرف من المحلى باللام لأنه يشبه الضمير من حيث إنه لا يوصف ولا يوصف به والأعرف أحق بالاسمية ولأن في الاسم طولاً فلو روعي الترتيب المعهود لفات تجاوب أطراف النظم الكريم، ووجه الثانية أن كل فريق يدعي أن البر هذا فيجب أن يكون الرد موافقا لدعواهم وما ذلك إلا بكون البر اسماً كما يفصح عنه جعله مخبراً عنه في الاستدراك ...{**ذوي القربى**} مفعول أول لـ{**آتى**} قدم عليه مفعوله الثاني للاهتمام أو لأن فيه مع {**ما**} عطف عليه طولاً لو روعي الترتيب لفات تجاوب الأطراف ، وهو الذي اقتضى تقديم الحال أيضاً ، وقيل : هو المفعول الثاني ، والمراد بذوي القربى – ذو قرابة – المعطي لكن المحاويج منهم لا مطلقاً ... وقدم هذا الصنف لأن إيتاءهم أهم فقد صح عن أم كلثوم بنت عقبة قالت سمعت رسول الله ﷺ يقول: { **أفضل الصدقة على ذي الرحم الكاشح** } وأخرج أحمد والترمذي وغيرهما عن سلمان بن عامر قال : قال رسول الله ﷺ { **الصدقة على المسكين صدقة وعلى ذي الرحم اثنتان صدقة وصلة**} ... {**والصابرين في البأساء والضراء**} والبأساء – والبؤس والفقر – والضراء – السقم والوجع- ..{**وحين البأس**} أي وقت القتال وجهاد العدو وهذا من باب الترقي في الصبر من الشديد إلى الأشد لأن الصبر على المرض فوق الصبر على الفقر والصبر على القتال فوق الصبر على المرض. [1]

---

(١) روح المعاني ج١ ص٤٧ ،٤٨.

قال أبو حيان: "وقدم الملائكة والكتب على الرسل وإن كان الإيمان بوجود الملائكة وصدق الكتب لا يحصل إلا بواسطة الرسل ، لأن ذلك اعتبر فيه الترتيب الوجودي لأن الملك يوجد أولاً ، ثم يحصل بوساطة تبليغه نزول الكتب ، ثم يصل ذلك الكتاب إلى الرسول فروعي الترتيب الوجودي الخارجي ، لا الترتيب الذهني ، وقدم الإيمان بالله واليوم الآخر على الإيمان بالملائكة والكتب والرسل ، لأن المكلف له مبدأ ووسط ومنتهى ، ومعرف المبدأ والمنتهى هو المقصود بالذات وهو المراد بالإيمان بالله واليوم الآخر ، وأما معرفة مصالح الوسط فلا تتم إلا بالرسالة ، وهي لا تتم إلا بأمور ثلاثة الملائكة الآتين بالوحي، والموحى به وهو الكتاب، والموحى إليه وهو الرسول، وقدم الإيمان على أفعال الجوارح وهو إيتاء المال والصلاة والزكاة ، لأن أعمال القلوب أشرف من أعمال الجوارح ، ولأن أعمال الجوارح النافعة عند الله تعالى إنما تنشأ عن الإيمان ...قال الراغب: "فإن قيل لم قدم هنا ذكر اليوم الآخر وأخره في قوله:**﴿وَمَن يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ﴾** (النساء:١٣٦) قيل : يجوز ذلك مع أن الواو لا تقتضي ترتيباً من أجل أن الكافر لا يعرف الآخرة ولا يعنى بـــها ، وهي أبعد الأشياء عن الحقائق عنده ، فأخر ذكره ، لما ذكر حال المؤمنين والمؤمن أقرب الأشياء إليه أمر الآخرة وكل ما يفعله ويتحراه فإنه يقصد به وجه الله تعالى ، ثم أمر الآخرة فقدم ذكره تنبيهاً على أن البر مراعاة الله ومراعاة الآخرة ...ويرى أبو حيان أن تقديم البأساء على الضراء من باب الترقي من الشديد إلى الأشد فذكر أولاً الصبر على الفقر ، ثم الصبر على المرض ، وهو أشد من الفقر، ثم الصبر على القتال، وهو أشد من الفقر والمرض". [1]

ولصاحب الظلال لفتة جميلة في تقديم ذوي القربى على غيرهم يقول: "هذه الصلة لذوي القربى فيها تحقيق لمروءة النفس،وكرامة الأسرة،ووشائج القربى والأسرى هي النواة الأولى للجماعة ومن ثم هذه العناية بـــها وهذا التقديم ".[2] وهذه الآية لها نظائر كثيرة في كتاب الله تعالى من ذلك قوله تعالى :

---

(١) البحر ج٢ ص ٦٠٠

(٢) في ظلال القرآن سيد قطب ميلادية ج١ ص ١٦٠

﴿ يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلْ مَا أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ ﴾ (البقرة:٢١٥) .

وعن هذا الترتيب يقول صاحب الظلال : "أما طريق الإنفاق ومصرفه فيجيء بعد تقرير نوعه: **{فللوالدين والأقربين واليتامى والمساكين وابن السبيل}**وهو يربط بين طوائف من الناس بعضهم تربطه بالمنفق رابطة العصب، وبعضهم رابطة الرحم ، وبعضهم رابطة الرحمة ، وبعضهم رابطة الإنسانية الكبرى في إطار العقيدة ..وكلهم يتجاورون في الآية الواحدة: الوالدون. والأقربون واليتامى والمساكين وابن السبيل . وكلهم يتضامنون في رباط التكافل الاجتماعي الوثيق بين بني الإنسان في إطار العقيدة المتين .

ولكن هذا الترتيب في الآية وفي الآيات الأخرى ، والذي تزيده بعض الأحاديث النبوية تحديداً ووضوحاً كالذي جاء في صحيح مسلم عن جابر أن رسول الله ﷺ قال لرجل: ابدأ بنفسك فتصدق عليها فإن فضل شيء فلأهلك، فإن فضل شيء عن أهلك فلذي قرابتك ، فإن فضل عن ذي قرابتك شئ فهكذا وهكذا".[1]

هذا الترتيب يشي بمنهج الإسلام الحكيم البسيط في تربية النفس وقيادتـــها إنه يأخذ الإنسان كما هو، بفطرته وميوله الطبيعية واستعداداته، ثم يسير به من حيث هو كائن ، ومن حيث هو واقف يسير به خطوة خطوة ، صعداً في المرتقى العالي : على هينة وفي يسر ، فيصعد هو مستريح ، هو يلبي فطرته وميلوله واستعداداته، وهو ينمي الحياة معه ويرقيها لا يحس بالجهد والرهق ، ولا يكبل بالسلاسل والأغلال ليجر في المرتقى ، ولا تكبت طاقاته وميوله ، ليحلق ويرف ولا يعتسف به الطريق اعتسافاً ، ولا يطير به طيراناً فوق الآكام، إنما يصعد به صعوداً هيناً وقدماه على الأرض وبصره معلق بالسماء ، وقلبه يتطلع إلى الأفق الأعلى وروحه موصولة بالله في علاه .

---

(١) صحيح مسلم كتاب الزكاة رقم{ ١٦٦٣} سنن النسائي كتاب الزكاة رقم { ٢٤٩٩} وكتاب البيوع رقم { ٤٥٧٣ }.

ولقد علم الله أن الإنسان يحب ذاته ، فأمره أولاً بكفايتها قبل أن يأمره بالإنفاق على من سواها ، وأباح له الطيبات من الرزق وحثه على تمتيع ذاته بـــها في غير ترف ولا مخيلة ، فالصدقة لا تبدأ إلا بعد الكفاية والرسول ﷺ يقول: **﴿ خير الصدقة ما كان عن ظهر غنى واليد العليا خير من اليد السفلى ، وابدأ بمن تعول ﴾** ....ولقد علم الله أن الإنسان يحب - أول ما يحب- أفراد أسرته الأقربين ..عياله .. ووالديه فسار به خطوة في الإنفاق وراء ذاته إلى هؤلاء الذين يحبـــهم ، ليعطيهم من ماله وهو راض ، فيرضي ميله الفطري الذي لا ضير منه ، بل فيه حكمة وخير ، وفي الوقت ذاته يعول ويكفل ناساً هم أقرباؤه الأدنون ، نعم ، ولكنـــهم فريق من الأمة، إن لم يعطوا احتاجوا وأخذهم من القريب أكرم لهم من أخذهم من البعيد وفيه في الوقت ذاته إشاعة للحب والسلام في المحضن الأول، وتوثيق لروابط الأسرة التي شاء الله أن تكون اللبنة الأولى في بناء الإنسانية الكبير.

ولقد علم الله أن الإنسان يمد حبه وحميته بعد ذلك إلى أهله كافة - بدرجاته منه وصلتـــهم به- ولا ضير في هذا ، فهم أفراد من جسم الأمة وأعضاء في المجتمع فسار به خطوة في الإنفاق وراء أهله الأقربين ، تساير عواطفه وميوله الفطرية ، وتقضي حاجة هؤلاء، وتقوي أواصر الأسرة البعيدة وتضمن وحدة قوية من وحدات الجماعة المسلمة، مترابطة العرى وثيقة الصلات .

وعندما يفيض ما في يده عن هؤلاء وهؤلاء - بعد ذاته - فإن الإنسان يأخذ بيده لينفق على طوائف من المجموع البشري ، يثيرون بضعفهم أو حرج موقفهم عاطفة النخوة و عاطفة الرحمة وعاطفة المشاركة وفي أولهم اليتامى الصغار الضعاف ، ثم المساكين الذين لا يجدون ما ينفقون، ولكنـــهم يسكتون فلا يسألون الناس كرامة وتجملاً ، ثم أبناء السبيل الذين قد يكون لهم مال ، ولكنـــهم انقطعوا عنه وحالت بينـــهم وبينه الحوائل" .[1]

ومن ذلك أيضاً قوله تعالى :**﴿ وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلاَ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً وَبِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَى**

---

(١) الظلال ج٢ ص١١٤

وَالْجَارِ الجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنْبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لاَ يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالاً فَخُوراً ﴾ (النساء:٣٦)، فالتقديم هنا للأهمية أيضا ومن هذا القبيل آية الصدقات في سورة التوبة في قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ (التوبة:٦٠).

فالتقديم هنا للاهتمام بالمستحقين لصدقات فبدأ الآية بالأهم فالأهم ، وهذا ما ذهب إليه الرازي أيضاً حيث قال: [**الوجه الأول**] أنه تعالى أثبت الصدقات لهؤلاء الأصناف دفعاً لحاجتهم وتحصيلاً لمصلحتهم ، وهذا يدل على أن الذي وقع الابتداء بذكره يكون أشد حاجة لأن الظاهر وجوب تقديم الأهم على المهم، ألا ترى أنه يقال أبو بكر وعمر ومن فضل عثمان علي علي - عليهما السلام - قال في ذكرهما عثمان وعلي ، ومن فضل علياً على عثمان يقول علي وعثمان وأنشد عمر قول الشاعر :

كفى الشيبُ والإسلامُ للمرءِ ناهياً

فقال: هلا قدم الإسلام على الشيب ؟ فلما وقع الابتداء بذكر الفقراء وجب أن تكون حاجتهم أشد من حاجة المساكين" .[1]

وذكر القاسمي عن الراغب : " إن قيل كيف أعتبر الترتيب المذكور في قوله تعالى { **وآتى المال ..**}الآية ؟ قيل : لما كان أولى ما يتفقد الإنسان بمعروفه أقاربه ، كان تقديمها أولى ثم عقبه باليتامى لأن مواساتهم بعد الأقارب أولى ، ثم ذكر المساكين الذين لا مال لهم حاضراً ولا غائباً ، ثم ذكر ابن السبيل الذين منهم صادق، و كاذب ، ثم ذكر الرقاب الذين لهم أرباب يعولونهم فكل واحد ممن أخر ذكره أقل فقراً ممن قدم ذكره ".[2]

﴿ **الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَاتٌ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلاَ رَفَثَ وَلاَ فُسُوقَ وَلاَ جِدَالَ فِي الْحَجِّ** ﴾ (البقرة ١٩٧) .

بدأ بقوله :{ **فلا رفث** } من باب تقديم الداعي لما بعده إذ إن الرفث هو مقدمات النكاح من نظرٍ بالعين وسماعٍ بالأذن ولمسٍ باليد وفكر بالقلب ،

---

(١) مفاتيح الغيب ج١٦ ص ١٠٩، ١١٠.
(٢) محاسن التأويل ج١ ص٤٨٣.

فإذا حدث ذلك كان داعيا إلى الجماع في حالة الإحرام وهو الفسق المذكور بعده {**ولا فسوق**} .

﴿وَاذْكُرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَّعْدُودَاتٍ فَمَن تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَن تَأَخَّرَ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ لِمَنِ اتَّقَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ (البقرة:٢٠٣) .

في هذه الآية تأخير عن الآيات السابقة عليها في التلاوة والتي تتحدث عن الحج وأعماله ومناسكه ، وكان السياق يقتضي أن تكون هذه الآية سابقة ومتقدمة إلا أن التأخير هنا جاء لعلة بلاغية وضرب من ضروب البديع الذي لم يوافق عليه أبو حيان ولسنا معه في ذلك ، قال : " قال بعض الناس : في هذه الآيات نوع من البديع وهو التقديم والتأخير ، وهو من ضروب البيان في النثر والنظم دليل على قوة الملكة في ضروب من الكلام وذلك قوله: {**واذكروا الله في أيام معدودات** }متقدم على قوله :{**فمن الناس من يقول**} لأن قوله : { **واذكروا الله في أيام معدودات**} معطوف عليه قوله: {**فمن الناس من يقول** } لأن قوله:{ **واذكروا الله في أيام معدودات** } معطوف عليه قوله :{ **فإذا قضيتم مناسككم فاذكروا الله** } وقوله:{**فمن الناس من يقول**} معطوف على قوله:{**ومنــــهم من يقول**} وقوله:{**ومنــــهم من يقول**} معطوف على قوله: { **ومن الناس من يعجبك** } وعلى قوله :{ **ومن الناس من يشتري** } فيصير الكلام معطوفاً على الذكر لأنه مناسب لما قبله في المعنى، ويصير التقسيم معطوفاً بعضه على بعض ، لأن التقسيم الأول في معنى الثاني فيتحد المعنى ويتسق اللفظ ، ثم قال : ومثل هذا في القرآن كثير ، يعني التقديم والتأخير ثم قال : ومثل هذا فذكر قصة البقرة وقتل النفس وقصة المتوفى عنها زوجها في الآيتين قال : ومثل هذا في القرآن كثير ، يعني التقديم والتأخير ،يعلق أبو حيان على ما أورده قائلاً: " ولا يذهب إلى ما ذكروه ولا تقديم ولا تأخير في القرآن لأن التقديم والتأخير عندنا من باب الضرورات وننــــزه كتاب الله تعالى عنه" .[1]

---

(١) البحر المحيط ج٢ ص١٢٩.

أقول: وما ذكره أبو حيان قول عجيب من عالم مثله كيف أنكر أسلوباً من أساليب البلاغة عرف في الأدب العربي كله جاهلية وإسلاما وما بعد الإسلام وحتى يومنا هذا وباب الضرورات فيه نذر يسير لما عداه ، وقد سبق بيان ذلك في الفصل الأول من الرسالة ففيه الكفاية .

نعم نحن معه في أن البعض تكلف وتحكم غير الصواب وإخراج الكلام عن سياقه بدعوى التقديم والتأخير دون سبب مبرر لذلك فنحن معه في تعليقه على قوله تعالى: ﴿ **حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّه** ﴾ (البقرة:٢١٤) وقالت طائفة: " في الكلام تقديم وتأخير التقدير ، حتى يقول الذين ءامنوا متى نصر الله ، فيقول الرسول: {**ألا إن نصر الله قريب**} ، فقدم الرسول في الرتبة لمكانته ، وقدم قول المؤمنين لتقدمه في الزمان " قال ابن عطية: " وأكثر المتأولين على أن الكلام إلى آخر الآية من قول الرسول والمؤمنين ، ويكون ذلك من قول الرسول على طلب استعجال النصر لا على شك وارتياب ، والرسول اسم الجنس ، وذكره الله تعظيماً لتلك النازلة التي دعت الرسول إلى هذا القول" .[1] ويؤيد أبوحيان قول ابن عطية ويميل أيضاً إلى أن الرسول اسم جنس لا واحد بعينه .

وأقول: حتى لو كان واحداً بعينه فإن ذلك لا ينقص قدره ليس من عدم الشك والارتياب، بل لكون الاستعجال من أجل أمته وأتباعه رحمة بـــهم وليس من أجله نفسه

﴿ **أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُم مَّسَّتــهم البَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّه أَلاَ إِنَّ نَصْرَ اللَّه قَرِيبٌ** ﴾(البقرة:٢١٤).

ادعى البعض أن في هذه الآية تقديم وتأخير وأن أصل الترتيب كالتالي { **أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم مستــهم البأساء والضراء حتى يقول الذين ءامنوا متى نصر الله فيقول الرسول ألا إن نصر الله قريب** } ، وقالوا بأن الرسول ﷺ قد قدم في الرتبة لمكانته.

---

(١) المحرر الوجيز ج١ ص٢٤١.

أقول: ولا يخلو هذا الادعاء من تكلف وإخراج الكلام عن ترتيبه بغير قرينة لفظية أو معنوية ، وقد حملهم على ذلك تنـــزيه الرسول عن الاستعجال لطلب النصر ، ونقول إن استعجال طلب النصر من الرسول ﷺ إنما كان للمؤمنين خوفاً على إيمانـــهم وسلامة لدينـــهم وليس لشخصه ، فشأن الأنبياء الفناء في البلاء مواصلة الصبر عند مر القضاء فما بالك بالمرسلين وهم أعظم إيماناً وأرسخ في اليقين ، وقد دعا سيد المرسلين في غزوة بدر سائلاً ربه النصر من أجل ظهور الدين وعدم استعلاء دين المشركين وفي السيرة النبوية : وبعد أن اتخذ الرسول ﷺ كل الوسائل المادية الممكنة للنصر في حدود الطاقة البشرية ، بات ليلته تلك يتضرع إلى الله تعالى أن ينصره ومن دعائه كما جاء في رواية عند مسلم {**اللهم انجز لي ما وعدتني، اللهم آت ما وعدتني، اللهم إن تـــهلك هذه العصابة من أهل الإسلام لا تعبد في الأرض**} وتقول الرواية فما زال يهتف بربه حتى سقط رداؤه عن منكبيه فأتاه أبو بكر ، فأخذ رداءه فألقاه على منكبيه ثم التزمه من ورائه وقال : يا نبي الله كفاك مناشدتك ربك فإنه سينجز لك ما وعدك فأنزل الله عز وجل: ﴿**إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ**﴾ (الأنفال:٩) ومما رواه البخاري من دعائه في ذلك اليوم {**اللهم إني أنشدك عهدك ووعدك ، اللهم إن تشأ لا تعبد بعد اليوم**} . [(١)]

﴿**يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ اللَّهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ**﴾(البقرة:٢١٧) .

قال صاحب التحرير والتنوير: "واعلم أن مقتضى ظاهر ترتيب نظم الكلام أن يقال : وصد عن سبيل الله وكفر به وصد عن المسجد الحرام وإخراج أهله منه أكبر عند الله، فخولف مقتضى هذا النظم إلى الصورة التي جاءت عليها الآية.....والداعي إلى هذا الترتيب هو أن يكون نظم الكلام على أسلوب أدق من الظاهر وهو الاهتمام بتقديم ما هو أفظع من جرائمهم ،

---

(١) السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية ص ٣٤٧ .

فإن الكفر بالله أفظع من الصد عن المسجد الحرام، فكان ترتيب النظم على تقديم الأهم فالأهم ، فإن الصد عن سبيل الله يجمع مظالم كثيرة ، لأنه اعتداء على الناس فيما يختارونه لأنفسهم ، وجحد لرسالة رسول الله، والباعث عليه انتصارهم لأصنامهم { **أجعل الآلهة إلهاً واحداً إن هذا لشيء عجاب** } فليس الكفر بالله إلا ركناً من أركان الصد عن الإسلام ، فلذلك قدم الصد عن سبيل الله ثم ثنى بالكفر بالله ليفاد بدلالة المطابقة بعد أن دل عليه الصد عن سبيل الله بدلالة التضمن ، ثم عد عليهم الصد عن المسجد الحرام ثم إخراج أهله منه.[1]

﴿ **إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا** ﴾ (البقرة:٢١٨) تقدم الإيمان على كل من الهجرة والجهاد لتقدم وقوعه من ناحية ولتعلق قبولهما به من ناحية أخرى ، وكذلك تقدمت الهجرة على الجهاد لتقدم وقوعها عليه.

﴿ **وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِ وَيُبَيِّنُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ** ﴾ (البقرة:٢٢١) قال أبو حيان: "وتقدم هنا الجنة على المغفرة وتأخر عنها في قوله: ﴿ **وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ** ﴾ (آل عمران:١٣٣) وفي قوله :﴿ **سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ** ﴾ (الحديد:٢١) ، والأصل فهي تقدم المغفرة على الجنة، لأن دخول الجنة متسبب عن حصول المغفرة في تلك الآيتين جاء على هذا الأصل، وأما هنا فتقدم ذكر الجنة على المغفرة لتحسن المقابلة، فإن قبله { **أولئك يدعون إلى النار** }فجاء {**والله يدعو إلى الجنة** } وليبدأ بما تتشوف إليه النفس حين ذكر دعاء الله ، فأتى بالأشرف للأشرف ثم أتبع بالمغفرة على سبيل التتمة في الإحسان وتهيئة سبب دخول الجنة " .[2]

أقول: وقد يكون من باب تقديم الغايات على الوسائل ، فإن الجنة هي الغاية والمغفرة سبب للوصول إليها فبدأ الله تعالى بها لأنها المقصودة بذاتها والمغفرة سبيل إليها .

﴿ **إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ** ﴾ (البقرة:٢٢٢) قدم التوابين على المتطهرين ، لأن التوبة سبب للطهارة فإذا تاب العبد طهره الله من درن

---

(١) التحرير والتنوير ص ٣٢٩، ٣٣٠.

(٢) البحر المحيط ج٢ ص١٧٦.

المعاصي وكفر عنه سيئاته ، قال تعالى:﴿ **إلاَّ مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صَالِحاً فَأُوْلَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِم حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَّحِيماً**﴾(الفرقان: ٧٠).
وقد شبه النبي ﷺ الصلاة بالنهر الذي يغتسل الإنسان فيه خمس مرات فلا يبقي من درنه شيئاً وكذلك الزكاة طهرة للنفوس ﴿**خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا** ﴾ (التوبة :١٠٣) ﴿ **وَقَدِّمُوا لأَنفُسِكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُم مُّلاَقُوهُ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ** ﴾ (البقرة:٢٢٣) .

وقد رتبت الجمل الثلاث الأول على عكس ترتيب حصول مضامينها في الخارج ،فإن الظاهر أن يكون الإعلام بملاقاة الله هو الحاصل أولاً ثم يعقبه الأمر بالتقوى ثم الأمر بأن يقدموا لأنفسهم ، فخولف الظاهر للمبادرة بالأمر بالاستعداد ليوم الجزاء ،وأعقب بالأمر بالتقوى إشعاراً بأنها هي الاستعداد ثم ذكروا بأنهم ملاقوا الله فجاء ذلك بمنزلة التعليل .

﴿ **الطَّلاَقُ مَرَّتَانِ فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ** ﴾(البقرة:٢٢٩) .

تقدم قوله : { **فإمساك بمعروف** } على قوله: { **تسريح بإحسان** } وهذا التقدم للاستحباب حيث إن الإمساك أفضل من التسريح ولهذا بدأ به، فالطلاق وإن كان مباحاً فإنه مكروه بأصل التشريع ، روى الإمام أبو داود في سننه بإسناده عن ابن عمر –رضي الله عنهما – عن النبي ﷺ قال { **أبغض الحلال إلى الله تعالى الطلاق** }[1]

﴿ **فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالاً أَوْ رُكْبَاناً** ﴾ (البقرة:٢٣٩) هذه الآية تتحدث عن أحوال المصلين صلاة الخوف فبدأ بذكر الرجال قبل الركبان لأن صلاة الراجل أمكن من صلاة الراكب، أو أن الترتيب من باب الجبر للراجلين في باب الرخصة إذ إنهم أشد تعباً من الراكبين في الجهاد ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ **وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالاً وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ**﴾ (الحج :٢٧) لأن الراجل أشد تعباً من الراكب ويحتمل لأن الراجل هو أسرع تلبية بحكم قربه فهو الذي يأتي من مكان قريب من البيت ذكر الوجه الأخير الزركشي بعد حديثه عن النوع الرابع – المرتبة – [2]

---

(١) سنن أبي داود باب الطلاق { في كراهية الطلاق} حديث رقم ١٨٦٢ ، ١٨٦٣.
(٢) البرهان ج٣ ص٢٩١.

﴿ **وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ** ﴾ (البقرة: ٢٤٥) لماذا تقدم القبض على البسط مع أن البسط من معانيه الرحمة والكرم والجود بخلاف القبض ؟ فيه احتمالات ذكر الزركشي منها أن تأخير القبض وتقديم البسط لا يناسب التلاوة قبله لأن الآية تقول : { **من ذا الذي يقرض الله قرضاً حسناً فيضاعفه له أضعافاً كثيرة** } أو للترغيب في الإنفاق لأن الممتنع منع سببه خوف القلة ، فبين أن هذا لا ينجيه ، فإن القبض مقدر ولا بد":[1]

بينما يرى صاحب غرائب القرآن كما يفهم من كلامه أنه للترهيب من الإقتار ، يقول في الآية{ **والله يقبض ويبسط** } : " يقتر على عباده ويوسع فلا تبخلوا عليه بما وسع عليكم لا يبدلكم الضيقة بالسعة وأيضاً من كتب له الفقر فليس له إلا ذلك سواء أنفق أو لم ينفق ومن كتب له الغنى فليس له إلا ذلك فعلى التقديرين يكون إنفاق المال في سبيل الله أولى ..ويحتمل أن يكون المعنى : والله يقبض بعض القلوب حتى لا يقدم على هذه الطاعة ، ويبسط بعضها حتى يسهل عليه البذل وصرف المال"..[2]

وأرى هناك وجهاً آخر : وهو أن { **يقبض** } هنا بمعنى القبول والأخذ وهذا ذخر في الآخرة {**ويبسط**} وهذا بركة في المال وخلف في الدنيا بالحلال قال تعالى: ﴿ **أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ** ﴾(التوبة :١٠٤) روى البخاري عن أبي هريرة ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ {**من تصدق بعدل تمرة من كسب طيب ولا يقبل الله إلا الطيب وإن الله يقبلها بيمينه ثم يربيها لصاحبه كما يربي أحدكم فلوه حتى تكون مثل الجبل**} يصدق الصدقة بيمينه فيربيها لأحدكم.. وعند مسلم { **ما تصدق أحد بصدقة من طيب ولا يقبل الله إلا الطيب إلا أخذها الرحمن بيمينه وإن كانت تمرة فتربو في كف الرحمن حتى تكون أعظم من الجبل كما يربي أحدكم فلوه أو فصيله**}. ورواه أيضاً أحمد

---

(١) البرهان ج٣ ص٣٠٦.

(٢) غرائب القرآن ورغائب الفرقان ج٢ ص٦٦٣.

والترمذي والنسائي وابن ماجة.[1] فالقبول سبب للثواب وهذا تقديم للشرف، كما أنه سبب لحصول البسط في الرزق ، وهذا تقديم للسببية ، ومن هنا كان التقديم لسببين الشرف والسببية .

﴿قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ (البقرة:٢٤٧).

قال الألوسي: "وفي تقديم البسطة في العلم على البسطة في الجسم إيماءً إلى أن الفضائل النفسانية أعلى وأشرف من الفضائل الجسمانية..بل يكاد لا يكون بينهما نسبة ، وفي اختيار { **واسع عليم**} في الإخبار عنه تعالى هنا من حسن المناسبة لبسطة الجسم وكثرة العلم ما تهتش له الخواطر لا سيما على ما يتبادر من بسطة الجسم ، وقدم الوصف الأول مع أن ما يناسبه ظاهراً مؤخر لأن له مناسبة معنى لأول الإخبار إذ الاصطفاء من سعة الفضل أيضاً ولأن عليم أوفق بالفواصل وإظهار الاسم الجليل لتربية المهابة ".[2]

﴿ فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلاَّ مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ﴾(البقرة:٢٤٩).

بدأ بقوله: { **فمن شرب منه فليس مني** } على قوله: {**ومن لم يطعمه فإنه مني**} لأن المقصود بالإخبار هو عدم الشرب فبدأ بالتحذير أولاً لأنه هو المراد من السياق ، إذ إن طلب السلامة والنجاة أولى من طلب الغنيمة، ودرء المفاسد مقدم على جلب المنافع .

﴿ وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْراً وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ (البقرة:٢٥٠) قال البيضاوي : "وفيه ترتيب بليغ إذ سألوا أولاً إفراغ الصبر في قلوبهم الذي هو ملاك الأمر، ثم ثبات القدم في مداحض الحرب المسبب عنه،ثم النصر على العدو المترتب عليهما غالباً".[3]

---

(١) صحيح البخاري كتاب الزكاة رقم {١٣٢١} وكتاب التوحيد رقم {٦٨٧٨} ومسلم كتاب الزكاة رقم {١٦٨٤} و{١٦٨٥} وسنن الترمذي كتاب الزكاة رقم {٥٩٧. ورقم {٥٩٨} والنسائي كتاب الزكاة رقم {٢٤٧٨} ابن ماجة كتاب الزكاة {١٨٣٢} ومسند أحمد من كتاب باقي مسند المكثرين {٧٣١٤} {٨٠٣} {٨٦٠٤} {٨٨٧٧} {٩٠٦٤} {٩٧٠٧} {١٠٥٢٣}.

(٢) روح المعاني ج١ ص١٦٧.

(٣) البيضاوي ج١ ص٥٤٨.

وما ذكره البيضاوي ظاهر المعنى، فالترتيب هنا ترتيب تسلسلي لأحداث متعلق بعضها على بعض آخذ بعضها بعنق بعض ، فلا ثبات إلا بصبر ولا نصر إلا بثبات.

﴿ وَآتَاهُ اللَّهُ المُلْكَ وَالْحِكْمَةَ ﴾ (البقرة:٢٥١) .

تقدم الملك على الحكمة مع كونها أشرف منه ،لأنها كانت بعده وقوعاً ، فهي من باب الترقي أي من ذكر الأدنى إلى ذكر الأعلى ، فالتدرج في مثل هذا المقام من الأدون إلى الأشرف هو الترتيب الطبيعي.

﴿ اللَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الحَيُّ القَيُّومُ لا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلاَ نَوْمٌ ﴾ (البقرة:٢٥٥) .

لماذا تقدم اسم الحي على اسم القيوم ؟

أقول: لأن {**الحي** } صفة الذات التي تترتب عليها سائر الصفات كلها، فإذا عدمت هذه الصفة عدمت سائر الصفات ، ولذا تقدمت على صفة القيومية والتي هي قيومية ذات فهو لايفتقر إلى غيره سبحانه ، غيره يفتقر في قوامه إليه سبحانه وكلاهما لا يكونان بدون حياة .

وهنا تقدمت السنة على النوم لأن السنة هي مقدمات النوم ، فهي ما يتقدم النوم من الفتور الذي يسمى النعاس .

ومنه قول ابن الرقاع العاملي :[1]

وسنانُ أقصَده النُعاسُ فرنَقَت　　في عينيه سِنةٌ وليس بنائمِ

وقدم نفي الأخص على نفي الأعم ليفيد المبالَغة من حيث لزوم نفي النوم أولاً، ثم نفى الأعم ليفيد المبالغة من حيث لزوم نفي النوم أولاً ضمناً ثم ثانياً تصريحاً . ولو اقتصر على نفي الأخص لم يلزم منه نفي الأعم.

وهذا ما ذهب إليه الألوسي أيضاً إذ يرى أن تقديم السنة على النوم مراعاة للترتيب الوجودي فلتقدمها إلى النوم في الخارج قدمت عليه في اللفظ ، وقيل : إنه على طريق التتميم وهو أبلغ لما فيه من التأكيد إذ نفي السنة يقتضي نفي النوم ضمناً فإذا نفي ثانياً كان أبلغ ، ورد بأنه إنما هو على أسلوب الإحاطة والإحصاء وهو متعين ففيه مراعاة الترتيب الوجودي والابتداء من

---

(١) العرائب ج١ ص١٤.

الأخف فالأخف كما في قوله :﴿ **لاَ يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلاَ كَبِيرَةً** ﴾ (الكهف :٤٩) ولهذا توسطت كلمة{لا}تنصيصاً على الإحاطة ونفي الشمول لكل منـــهما، وقيل إن تأخير النوم رعاية للفواصل ولا يخفى أنه من ضيق العطن ، وقال بعض المحققين : "هذا كله إنما يحتاج إليه إذا أخذ الآخذ بمعنى العروض والإعتراء ، وأما لو أخذ بمعنى القهر والغلبة ، كما ذكره الراغب، وغيره من أئمة اللغة ومنه قوله تعالى: ﴿ **أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ** ﴾ (القمر:٤٢) ،فالترتيب على مقتضى الظاهر إذ يكون المعنى لا تغلبه السنة ولا النوم الذي هو أكثر غلبة منها ."[1]

أقول: وهناك احتمال آخر للتقديم والتأخير في قوله :{ **سنة ولا نوم** } ولعله أظهر من القول بأن التقديم لسبق الوجود ، وهو أن التقديم والتأخير من باب كمال القيومية، حيث بدأ بالصغير قبل الكبير إثباتاً لانتفاء النقص عنه سبحانه فلا يلحقه نوم ولا مقدمات النوم كقوله تعالى :{ **لا يغادر صغيرة ولا كبيرة**}

ويعجبني ما قاله صاحب التحرير بعد تعريفه للسنة بقوله :" والسنة أول النوم" ثم ذكر بيت عدي بن الرقاع والنوم معروف ..ونفي استيلاء السنة والنوم على الله تعالى تحقيق لكمال الحياة ودوام التدبير ، وإثبات لكمال العلم ، فإن السنة والنوم يشبـــهان الموت فحياة النائم في حالهم حياة ضعيفة ، وهما يعوقان عن التدبير وعن العلم بما يحصل في وقت استيلائهما على الإحساس .
ونفي السنة عن الله تعالى لا يغني عن نفي النوم عنه لأن من الأحياء من لا تعتريه السنة فإذا نام نام نوماً عميقاً ومن الناس من تأخذه السنة في غير وقت النوم غلبة ، وقد تمادحت العرب بالقدرة علي السهر ، .. والمقصود أن الله لا يحجب علمه شيء حجباً ضعيفاً ولا طويلاً ولا غلبة ولا اكتساباً ، فلا حاجة إلى ما تطلبه الفخر والبيضاوي من أن تقديم السنة على النوم مراعى فيه ترتيب الوجود ، وأن ذكر النوم من قبل الاحتراس وقد أخذ هذا المعنى بشار وصاغه بما يناسب صناعة الشعر فقال :

---

(١) غرائب القرآن ورغائب الفرقان ج٢ ص٨.

وليلٍ دجوجيٍ تنامُ بناتُهُ   وأبناؤه من طُوله وربائبه [1]

فإنه أراد من بنات الليل وأبنائه الساهرين والساهرات بمواظبة وأراد بربائب الليل من هم أضعف منـــهم سهراً لليل لأن الربيب أضعف نسبة من الولد والبنت .[2]

﴿ لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لاَ انفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ (البقرة:٢٥٦) وتقديم الكفر بالطاغوت على الإيمان ، من باب تقديم التخلية على التحلية ، فلا يستقيم إيمان عبد إلا إذا نزع كل عقائد الباطل وشبـــهات الوثنية والشرك من قلبه ، حينئذ يستقر الإيمان ويثبت ، وإلا كان إيماناً مهزوزاً مريضاً ، لا يؤتي ثمراً ولا يورق فيفيد ظلاً ، كشجرة نبتت في أرض غير نقية قد امتلأت بالحشائش والمتعلقات والمتسلقات والطفيليات التي تضعفها أو تتلفها ، فهذا الإيمان حاله كحال تلك الشجرة لا يثبت عند أدنى شبهة ، أو يصمد عند أدنى محنة سرعان ما تنكسر أصوله وتيبس غصونه ، ولو أورق لتساقطت أوراقه .

قال ابن عطية : "وقدم ذكر الكفر بالطاغوت على الإيمان بالله ، ليظهر الاهتمام بوجوب الكفر بالطاغوت "[3]

ويضيف أبو حيان: وناسب ذلك أيضاً اتصاله بلفظ الغي ، ولأن الكفر بالطاغوت متقدم على الإيمان بالله ، لأن الكفر بـــها هو رفضها ، ورفض عبادتـــها .[4]

﴿ اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَـــهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ (البقرة:٢٥٧) قدم اسمه سبحانه للاهتمام وأخر الطاغوت للاحتقار، فالترتيب الطبيعي أن يقال والطاغوت ولي الذين كفروا .ونظير تقديم الكفر بالطاغوت على الإيمان بالله قوله تعالى في سورة الزمر:**﴿ وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ لَهُمُ الْبُشْرَى فَبَشِّرْ عِبَادِ﴾** (الزمر :١٧) وسوف نتعرض لها بمزيد من التفصيل في سورة الزمر.

---

(١) ديوان بشار بن برد ص١٤٢.
(٢) التحرير ج٣ ص٥٠٤.
(٣) المحرر الوجيز ج٢ ص٢٩٢.
(٤) تفسير البحر المحيط ج٢ ص٢٩٢.

﴿ أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْيِي هَٰذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَانظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِّلنَّاسِ وَانظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (البقرة:٢٥٩) تقدم قوله :{ **وانظر إلى طعامك وشرابك** } على قوله : { **وانظر إلى العظام** } مع أن سبب القصة هو التعجب من أمر إحياء الموتى ، وأقول: إن القصة إنما سيقت لبيان التعجب من قدرة الله تعالى في كيفية إحياء الموتى ولما كان الأمر كذلك قدم ما هو أدل على القدرة وأبلغ في العظة وذلك لأن الطعام والشراب أسرع إلى الفساد والتحلل وأظهر في القدرة ،ولهذا بدأ به ثم ثنى بإحياء الموتى.

﴿وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ ﴾(البقرة:٢٦٧) تقدم الجار والمجرور على الجملة الفعلية وعن سبب التقديم يقول نظام الدين : "وقدم {**منه**} ليعلم أن المنهي عنه هو تخصيص الخبيث بالإنفاق منه أي إذا كان في المال طيب وخبيث . ويحتمل أن يتم الكلام عند قوله: { **ولا تيمموا الخبيث** } ثم ابتدأ مستفهماً بطريق الإنكار فقال: { **منه تنفقون** } وحالكم أنكم لا تأخذونه في حقوقكم إلا بالإغماض وهو غض البصر وإطباق جفن على جفن وأصله من الغموض وهو الخفاء". [(١)]

﴿ الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ (البقرة:٢٦٨) بدئ بجملة { **الشيطان يعدكم الفقر** } على لفظ الجلالة لأنه سبقها قوله :{ **ولا تيمموا الخبيث منه تنفقون** } وكان حاملهم على ذلك هو البخل والشح بالطيب الذي مثيره الشيطان ، فلذلك بدئ بقوله { **الشيطان يعدكم الفقر** } وأن ما تصدقتم به من الخبيث إنما هم من نزغات الشيطان، ثم ذكر تعالى في مقابلة وعد الشيطان وعد الله بشيئين أحدهما : الستر لما اجترحوه من الذنوب : والثاني : الفضل وهو زيادة الرزق والتوسعة في الدنيا والآخرة .

---

(١) الغرائب ج٣ ص٤٥.

هذه الآية التي جاء بـــها ابن أبي الأصبع في باب صحة المقابلات ، قال: " قُدم في صدر الكلام أمران : الوعد بالفقر والأمر بالفحشاء ، ثم قابل الشيئين في الظاهر بشيء واحد وهو الوعد فأوهم أنه أخل بذكر الأمر وليس كذلك وإنما كان الفضل مقابلاً للفقر والمغفرة مقابلة للأمر بالفحشاء ، لأن الفحشاء توجب العقوبة والمغفرة تقابل العقوبة استغنى بذكر المقابل ذكر مقابله لأن ذكر أحدهم ملزم لذكر الآخر"[1]

قال صاحب التحرير : "وقدم اسم الشيطان مسنداً إليه لأن تقديمه مؤذن بذم الحكم الذي سيق له الكلام وشؤمه لتحذير المسلمين من هذا الحكم ، كما يقال في مثال علم المعاني [**السفاح في دار صديقك**] ولأن في تقديم المسند إليه على الخبر الفعلي تقوي الحكم وتحقيقه .

﴿ لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ ﴾ (البقرة:٢٧٢).

تقدم المسند هنا على المسند إليه، لتخفيف العناء الذي كان يشعر به رسول الله ﷺ من عدم إيمانـــهم ، وقد أفاد هذا التقديم بيان الاهتمام بالنبي ومراعاة شأنه بإذهاب سبب غمه وألمه .

قال صاحب التحرير والتنوير: "تقديم الظرف وهو عليك على المسند إليه وهو {**هداهم**} إذا أجري على ما تقرر في علم المعاني من أن تقديم المسند الذي حقه التأخير يفيد قصر المسند إليه على المسند وكان ذلك في الإثبات بيناً لا غبار عليه نحو قوله تعالى :**﴿ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾** (الكافرون:٦) [2]**﴿ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِراً وَعَلاَنِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّـــهِم وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ﴾** (البقرة:٢٧٤) تقدم القول في تقدم الليل على النهار في الآية وأن تقديم الليل ليس في فضله على النهار وإنما قدم هنا باعتبار ما يحدث في وقته الذي هو مظنة إخفاء الصدقة والتي هي أقرب للإخلاص وأبعد عن الرياء ، وقد جاءت الآية على أسلوب اللف والنشر فجاء النشر فيها على ترتيب اللف فقابل الليل السر وقابل النهار العلانية .

قال أبو حيان:"وقد يقال:إن تقديم الليل على النهار والسر على العلانية يدل على تلك الأفضلية".[3]

---

(١) تحرير التحبير ص ١٨٣ و التحرير والتنوير ج٣ ص٥٩.

(٢) التحرير ج٣ ص٦٠.

(٣) التحرير والتنوير ج٢ ص٣٤٤.

﴿ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لاَ يَقُومُونَ إِلاَّ كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ذَلِكَ بِأَنَّهُم قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا ﴾ (البقرة: ٢٧٥) ، ليس في الآية تقديم ولا تأخير وإنما هي حكاية قولهم الفاسد فبدلاً من أن يقولوا إنما الربا - المجمع على تحريمه- مثل البيع -المجمع على حله- جعلوا الربا بمنزلة الأصل المماثل له البيع وهذا من عكس التشبيه، كقول ذي الرمة : ورملٍ كأروالِ العذارى قطعتُه .

وكما قال أبو القاسم بن هانئ :

كأنَّ ضياءَ الشمسِ غرةُ جعفر رأى القرنَ فازدادت طلاقتُهُ ضعفا[1]

ويرى الأستاذ عبد الكريم الخطيب: أن هناك تقديما وتأخيرا آخرَ ناشئ من النظر في معنى {**الذين يأكلون الربا**}، حيث يرى كما يقول: "إن الضمير في قوله تعالى : {**الذين يأكلون الربا لا يقومون إلا كما يقوم الذي يتخبطه الشيطان من المس**} يراد به المقترضون بالربا ، وهم -كما قلنا- الذين يأكلون

هذا المال المقترض ويستهلكونه في الأمر أو الأمور التي اقترضوا من أجلها ويسند هذا الرأي أن المقرض - وهو المرابي - لا يأكل المال الذي أقرضه بالربا ، ولا يستهلكه ، وهذا ما ينطق به ظاهر اللفظ{ **يأكلون**} والحمل على الظاهر أولى ، ولا يصار إلى غيره إلا عندما يكون للظاهر وجه مقبول ، هكذا في الطبع والأصوب - غير مقبول .

هذا من جهة ومن جهة أخرى ، فإننا لو نظرنا في الصورة كلها على هذا الوجه ، لبدا لنا أن آكلي الربا ،وهم المقرضون - على ما ذهبنا إليه- قد رهقهم الدين وأثقلهم حمله وأنهم أصبحوا في يد المرابي كالسمكة في شبكة الصياد ، كلما ضربت برأسها وذنبها في الشبكة لتجد طريقاً إلى الخلاص كلما اشتد ضغط الشبكة عليها وإمساكها بها ..فالمقترض بالربا قد علقت به حبائل المرابي وكلما أراد أن يفلت من يده ويتخفف من الدين الذي أثقله به كلما ازداد إحكام يده عليه وتضاعف الدين الذي كان ينوء به ...والحق

---

(١) النجوم الزاهرة ج٤ ص ٦٧.

أنه لو امتنع المقترضون بالربا عن طرق أبواب المرابين لما وجد هؤلاء المرابون من يتعاملون معه ولما تمت هذه الجريمة المنكرة ..

وأما تقديم المقترضين بالربا على المقرضين به في مجال التشنيع على الربا والتهديد للمتعاملين به فذلك لأن المقترض -كما قلنا - هو الذي بيده مفتاح هذه العملية ،وأنه هو الذي يطرق باب المرابي وبتلك الطرقات يفتح الباب وتتم الجريمة ولو أمسك المقترضون عن التعامل بالربا لما وجد المرابون سوقاً رائجة يتعاملون معها فكان تقديم الحديث إليهم في هذا الموقف هو من مقتضيات الحكمة والبلاغة معاً ".[1]

﴿ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الحَقُّ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلاَ يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْئاً فَإن كَانَ الَّذِي عَلَيْهِ الحَقُّ سَفِيهاً أَوْ ضَعِيفاً أَوْ لاَ يَسْتَطِيعُ أَن يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُ بِالْعَدْلِ وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِن رِّجَالِكُمْ فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ أَن تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الأُخْرَى وَلاَ يَأْبَ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا وَلاَ تَسْأَمُوا أَن تَكْتُبُوهُ صَغِيراً أَوْ كَبِيراً إِلَى أَجَلِهِ ﴾ (البقرة:٢٨٢) تقدمت الكتابة على التملية مع أنـــها متأخرة عنها واقعاً فإنما تكون الكتابة بعد الإملاء وذلك للاهتمام بـــها وعدم التفريط فيها، فإن كثيراً من المنازعات والخلافات المالية إنما تنشأ بسبب النسيان الذي هو مظنة ضياع الحقوق وما يترتب عليه من فساد العلاقات .

قال الثعالبي: "ولما كانت النفوس مستشرفة إلى معرفة أسباب الحوادث ، قدم في هذه العبارة ذكر سبب الأمر المقصود إلى أن يخبر به ، وهذا من أبرع الفصاحة إذ لو قال لك رجل : أعددت هذه الخشبة أن أدعم بـــها هذا الحائط لقال السامع : ولم تدعم حائطاً قائماً ؟ فيجيب ذكر السبب فيقال : إذا مال ، فجاء في كلامهم تقديم السبب أخصر من هذه المحاورة ". [2]

قدم الصغير على الكبير ،وإن كان الكبير أهم والكتابة به أعنى خيفة التساهل ولمزيد الاعتناء . أو كما قال الألوسي: "الانتقال من الأدنى إلى الأعلى "[3]

---

(١) التفسير القرآني ج٣ ص٣٥٢،٣٥٤

(٢) الجواهر الحسان ج١ ص٢٢٢.

(٣) روح المعاني ج٢ ص٦٠.

ومن ذلك قوله تعالى :﴿ **مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ** ﴾ (النساء:٧) وقوله تعالى: ﴿ **لاَ يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلاَ كَبِيرَةً إِلاَّ أَحْصَاهَا**﴾ (الكهف:٤٩)﴿ **لِّلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَإِن تُبْدُوا مَا فِي أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ اللَّهُ فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ**﴾ (البقرة:٢٨٤) تقدم الجار والمجرور – به – على الفاعل – الله – للاعتناء به فلا يحدث التساهل من قبل المكلفين ، كما أن الآية سيقت في مجال الإخبار الذي يحمل معنى التهديد والوعيد لمن يعمل السوء ، ولذا قدم الضمير العائد على العمل الذي يجازى به الإنسان قبل من يجازي عليه ، ومعلوم أن الله تعالى لا يظلم مثقال ذرة فلما أمن الظلم كان الاهتمام بالعمل هو محط الفائدة وموضع الاهتمام، قال الألوسي :"وأما تقديم الإبداء على الإخفاء على عكس ما في قوله تعالى:﴿ **قُلْ إِن تُخْفُوا مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ اللَّهُ**﴾ (آل عمران:٢٩) فلما قيل : إن المعلق – بما في أنفسهم – هنا المحاسبة والأصل فيها الأعمال البادية ، وأما العلم فتعلقه بـــها كتعلقه بالأعمال الخافية ولا يختلف الحال عليه تعالى بين الأشياء البارزة والكامنة ، بل لا كامن بالنسبة إليه سبحانه خلا أن مرتبة الإخفاء متقدمة على مرتبة الإبداء ما من شيء يبدو إلا وهو أو مباديه قبل ذلك مضمر في النفس فتعلق علمه تعالى بحالته الأولى متقدم على تعلق علمه بحالته الثانية ...وتقديم المغفرة على التعذيب لتقدم رحمته على غضبه ".[١]

أقول: أما تقدم العذاب على المغفرة في المائدة { **يعذب من يشاء ويغفر لمن يشاء**} لأنـــها نزلت في حق السارق والسارقة وعذابـــهم يقع في الدنيا فقدَّم لفظ العذاب وفي غيرها قدَّم لفظ المغفرة رحمة منه سبحانه وترغيباً للعباد في المسارعة إلى موجبات المغفرة ، فالتقديم هنا تقديم وجودي لأن عذاب الحد واقع في الدنيا .

﴿**وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ** ﴾ (البقرة:٢٨٥) تقدم السمع على الطاعة لأنه وسيلة التكليف وسببه ، فلا تكليف بلا علم ولا طاعة إلا بعد المعرفة وتقديمهما على طلب الغفران من باب تقدم الوسيلة على المسئول حيث تكون أقرب للقبول كما سيأتي في سورة آل عمران

(١) روح المعاني ج٢ ص٦٥.

وقوله تعالى: ﴿ **لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ** ﴾ (البقرة:٢٨٦) تقدم المسند المجرور في الموضعين { **لها** } و{ **عليها** } وقد أفاد هذا التقديم الانحصار ، أي أن كسب النفس من العمل الصالح لا يستفيد بـــها سواها ، وما كسبته من العمل السيئ لن يحمله سواها ، ولهذا المعنى تقدم المجروران .

﴿ **رَبَّنَا لاَ تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلاَ تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْراً كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلاَ تُحَمِّلْنَا مَا لاَ طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا** ﴾ (البقرة:٢٨٦) جاءت هذه الآية على طريقة اللف والنشر فقد قابل كل جملة من الجمل الثلاث جملة فقابل قوله :{**لا تؤاخذنا**} بقوله:{**واعف عنا**} وقابل قوله :

{**ولا تحمل علينا إصراً**} بقوله :{ **واغفر لنا** } وقابل قوله :{**ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به** } قوله :{ **وارحمنا** } لأن من آثار عدم المؤاخذة بالنسيان والخطأ العفو ، ومن آثار عدم حمل الإصر عليهم بالمغفرة ، ومن آثار عدم تكليف ما لا يطاق الرحمة .

قال أبو حيان: " و بمعرفة معنى العفو والمغفرة والرحمة يتبين سر التقديم في الآية ، فالعفو هو إسقاط العقوبة ، والمغفرة هو ستر الذنب ومنه سمي المغفر الذي يوضع على رأس الفارس لأنه يستر رأسه من الضربات فجاء طلب المغفرة لعدم كشف الجريمة صوناً له عن عذاب التخجيل والفضيحة فإن الخلاص من عذاب النار إنما يطيب إذا حصل عقيبه الخلاص من عذاب الفضيحة . فالأول هو العذاب الجسماني والثاني هو العذاب الروحاني ، وبعد التخلص منـــهما أقبل على طلب الثواب وهو أيضا قسمان : جسماني وهو نعيم الجنة وطيباها وهو قوله:{**وارحمنا**} وروحاني وهو إقبال العبد بكليته على مولاه ففيه الاعتراف بأنه سبحانه هو المتولي لكل نعمة ينالونـــها ".[1]

---

(١) البحر ج٢ ص٤٧٠

سورة آل عمران

تناسبت سورة آل عمران مع خاتمة سورة البقرة تناسباً شديداً ، فقد جاء في آخر البقرة آية الكرسي وما بعدها لتقرير أمر التوحيد وإثبات صفات الله تعالى ، وأنه هو الحي القيوم وذكر حال من جادل في الألوهية واستبعد قدرة الله والأمر بالإنفاق في سبيل الله والوعد بمضاعفة الجزاء للمنفقين والإخبار بإيمان الرسول والمؤمنون بالله وملائكته وكتبه ورسله ودعاء الله سبحانه وتعالى الذي بيد ه النصر والتوجه إليه برفع الآصار وعدم التكليف بما يشق﴿ **رَبَّنَا وَلاَ تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْراً كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا**﴾(البقرة٢٨٦)، جاءت سورة آل عمران مبتدئة بذكر لفظ الجلالة﴿ **اللَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ**﴾ (آل عمران:٢) الذي دعاه المؤمنون في آخر سورة البقرة ثم جاء الحديث عن التوراة والإنجيل وهما الكتابان المنـــزلان على الذين من قبلنا السابق ذكرهم في آخر البقرة ولما تحدثت سورة البقرة عن اليهود وأفعالهم جاءت سورة البقرة لتتحدث عن المسيح - عليه السلام- وعائلته وعجيب خلقه وحال أتباعه وتقسيم أهل الكتاب إلى أمين وخائن﴿ **وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَمِنـــهم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لاَّ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ**﴾ (آل عمران:٧٥) وقد تشابه ختام البقرة وآل عمران في أن كلاً منـــهما قد ختم بالدعاء .

وقد أوجب سبحانه الحج في آل عمران ، بعد أن ذكر أنه مشروع في البقرة وأمر بتمامه بعد الشروع فيه ولهذا ذكر البيت والصفا والمروة .
﴿ **نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ التَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ ٠ مِن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ الْفُرْقَانَ**﴾ (آل عمران:٣،٤) ذكر الخازن عن السدي قوله: "في الآية تقديم وتأخير تقديره وأنزل التوراة والإنجيل والفرقان هدى للناس ".[1]

(١) الخازن ج١ ص٤١١.

أقول: ولست أدري سبباً لـــهذا التكلف بالتقديم والتأخير إلا كونه أراد أن يدخل القرآن في قوله هدى للناس ، مع أن هذا المعنى مستفاد من قوله تعالى: { **مصدقاً لما بين يديه** } أي أنه مصدق لما في التوراة والإنجيل من الهدى، هذا وقد يكون هناك محذوف، تقديره كذلك أي :وأنزل الفرقان كذلك هدى للناس ، طلباً للإيجاز والاختصار وهما روح البلاغة.

﴿**إِنَّ اللَّهَ لا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الأَرْضِ وَلا فِي السَّمَاءِ**﴾(آل عمران:٥).

قدم الأرض ترقياً من الأدنى إلى الأعلى ، ولأن المقصود بالذكر ما اقترف فيها من أعمال العباد ، فالآية تـــهديد ووعيد لأهل الأرض أولاً ، فهم المخاطبون بـــهذا الوعيد الذي جاء في صورة الإخبار عن إحاطة علم الله بكل شيء بما في ذلك أعمالهم .

﴿ **زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ** ﴾ (آل عمران:١٤)، قال أبو حيان: " وأتى بذكر الشهوات على سبيل الإجمال ثم أخذ في تفسيرها شهوة شهوة ليدل على أن المزين ما هو إلا شهوة دنيوية لا غير فيكون في ذلك تنفير عنها وذم لطالبـــها وللذي يختارها على ما عند الله ، وبدأ في تفصيلها الأهم فالأهم ".(١)

وأقول: بدأ بالنساء لأن التعلق بـــهن أشد وأخطر ثم ثنى بالبنين وقدمهم على الأموال لأن حب الإنسان ولده أكثر من حبه لماله ، أما تقدم المال على البنين في قوله تعالى:﴿ **الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا**﴾ (الكهف:٤٦) ، فالتقديم هنا للسببية ، فبدون المال لا يكون زواجاً ولا أبناء ، وأما التقديم في قوله تعالى :{ **إنما أموالكم وأولادكم فتنة** } فالتقديم هنا للداعي ، لأن الأموال غالباً هي التي يستعان بـــها على الفتن، أو كما قال صاحب الطراز : "إنما قدم ذكر الأموال هنا لأنه في معرض ذكر الافتتان ، ولا شك أن الافتتان بالمال أدخل من الافتتان بالأولاد لما فيه من تعجيل اللذة والوصول إلى كل مسرة والتمكن من البسطة والقوة بخلاف آية القناطير ، فإنه إنما قدم البنين

---

(١) البحر المحيط ج٢ ص ٤١٤.

فيها لما ذكرها في معرض الشهوة وتمكين المحبة".[1] وكذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الأَمْوَالِ وَالأَوْلَادِ ﴾ (الحديد: ٢٠) .

قال الخازن: " إنما بدأ بذكر النساء لأن الالتذاذ بـــهن أكثر، والاستئناس بـــهن أتم{ من الذهب والفضة } قال: "إنما بدأ بـــهما من بين سائر الأصناف لأنـــهما قيم الأشياء".[2]

قال الشعراوي: "وفي هذا القول نجد أن القناطير المقنطرة من الذهب والفضة تأخرت هنا عن النساء والبنين ولم يأت بذكر الأموال أولاً ثم الأولاد كفتنة ، وهي تأتي بعد تحقيق الشهوة الأولى وهي النساء ،والزينة الثانية وهي الأبناء ونعلم أن من عنده مال يكفيه للزواج والإنجاب قد يطمع في المزيد من المال"[3]

أقول:وهناك احتمال آخر لتقديم البنين على المال هنا وتأخرها في مواضع أخر وهو أن البنين جاءت بصيغة الجمع وعندما جاءت بصيغة المفرد أُخرت كما في قوله تعالى:﴿ **الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا** ﴾ (الكهف:٤٦) وقوله تعالى:﴿ **أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَل لَّا يَشْعُرُونَ** ﴾ (المؤمنون:٥٥،٥٦) ﴿ **قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ** ﴾(آل عمران:١٥) إذا كان الكلام قد تم عند قوله: { **للذين اتقوا** } فإن { **جنات** } يرتفع على أنه خبر لمبتدأ محذوف تقديره هو جنات ، وتكون الجملة بيان وتفسير للخيرية المذكورة في الآية وإذا تم الكلام عند قوله : { **من ذلكم** }، ففي الآية تقديم وتأخير فيكون قوله: {**للذين اتقوا**} خبر مقدم والمبتدأ المؤخر هو قوله: { **جنات** } ويكون التقديم هنا مفيداً للاختصاص أي أن الجنات للمتقين ليست لغيرهم .

﴿**الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ**﴾(آل عمران:١٦).

تقدم قولهم: {**ربنا إننا آمنا**} على قولهم : {**فاغفر لنا**} لأن إيمانـــهم هو الوسيلة لطلب مغفرة الذنوب ونظيره قوله تعالى في ذات السورة:

---

(١) الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز ص٢٣٣.

(٢) الخازن ج١ ص٤٢٢، ٤٢٣.

(٣) الشعراوي ج١ ص٤٦٧١.

﴿ رَبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِياً يُنَادِي لِلإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الأَبْرَارِ ﴾ (آل عمران:١٩٣) وقد أمر تعالى عباده بتقديم الوسيلة إليه ابتغاء فقال :﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الوَسِيلَةَ وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ (المائدة:٣٥).

﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ وَالْمَلائِكَةُ وَأُولُوا العِلْمِ قَائِماً بِالْقِسْطِ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ العَزِيزُ الحَكِيمُ ﴾ (آل عمران:١٨)، قال أبو حيان: " قدم الملائكة على أولي العلم من البشر لأنـــهم الملأ الأعلى وعلمهم كله ضروري بخلاف البشر فإن علمهم ضروري واكتسابي ."[١]

وأقول:وربما كان التقديم لسبق الوجود إذ إن خلق الملائكة أسبق من البشر، أو لسبق الشهادة إذ إن الملائكة أسبق بشهادتـــهم من أولي العلم ، فقد شهدوا بذلك منذ خلقهم ، لأنـــهم فطروا على الطاعة و أما أولو العلم فليسوا سواء ، فمنـــهم من لم يدخل في شهادتـــهم وقتاً ما لعدم وجود الإيمان ، أو العلم من قبل.وليس تقديم الملائكة للتفضيل ، وإن كان قد ذهب إلى ذلك فريق من أهل العلم .

ونقل القاسمي عن الشعراني قال: "سألت أخي أفضل الدين : لم شهد الحق تعالى لنفسه بأنه لا إله إلا هو ؟ فقال ﷺ : لينبه عباده على غناه عن توحيدهم له ، وأنه هو الموحد نفسه بنفسه فقلت له : فلم عطف الملائكة على نفسه دون غيرهم ؟ فقال لأن علمهم بالتوحيد لم يكن حاصلاً من النظر في الأدلة كالبشر ، وإنما كان علمهم بذلك حاصلاً من التجلي الإلهي وذلك أقوى العلوم وأصدقها ، فلذلك قدموا في الذكر على أولي العلم وأيضاً فإن الملائكة واسطة بين الحق وبين رسله فناسب ذكرهم في الوسط فاعلم ذلك".[٢]

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ (آل عمران:٢١) التقديم هنا للأهمية حيث ذكر الله تعالى ضياع الحقوق مبتدئاً بالأهم فالمهم ، ومن الممكن أن يقال البداءة بأعظم الجرائم فالأقل ، وعلى كلتا الحالتين فالتقديم للترقي المتصاعد في الجريمة .

---

(١) تفسير البحر المحيط ج٢ ص٤٢٠. (٢) تفسير القاسمي ج٢ ص٢٩٦.

قال أبو حيان: "فهذه ثلاثة أوصاف بدئ فيها بالأعظم فالأعظم ، وبما هو سبب للآخر ، فأولـــها الكفر بآيات الله وهو أقوى الأسباب في عدم المبالاة بما يقع من الأفعال القبيحة ، وثانيها قتل من اظهر آيات الله استدل بـــها ،والثالث، قتل أتباعهم ممن يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر" .[1]

أقول: وقد جاء ترتيب الآية التي تليها مناسباً لها وهي قوله تعالى: **﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ﴾** (آل عمران:٢٢). فلما كان الكفر بآيات الله أعظم كان التبشير بالعذاب الأليم أعظم، وقابل قتل الأنبياء بحبوط العمل في الدنيا والآخرة ففي الدنيا بالقتل والسبي وأخذ المال والاسترقاق ، وفي الآخرة بالعقاب الدائم، وقابل قتل الآمرين بالقسط بانتفاء الناصرين عنـــهم إذا حل بـــهم العذاب.

﴿ قُلْ إِن تُخْفُوا مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ اللَّهُ ﴾ (آل عمران:٢٩).

قدم هنا الإخفاء على الإبداء ،وجعل محلهما الصدور ،وجعل جواب الشرط العلم بخلاف ما في البقرة فإنه قدم فيها الإبداء على الإخفاء وجعل محلهما النفس ، وجعل جواب الشرط المحاسبة وذلك لعلة بلاغية لم يذكرها السمين الحلبي حيث اكتفى بقوله{**وكل ذلك تفنن في البلاغة وتنوع في الفصاحة**}.[2] وقد ذكرت قول الألوسي في علة التقديم والتأخير بين الآيتين في آخر سورة البقرة .

﴿ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحاً وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴾ (آل عمران:٣٣)، هذا الترتيب المذكور بين الأنبياء لسبق الوجود وليس للتفضيل، فآدم نبي ونوح نبي ورسول بل من أولي العزم من الرسل وإبراهيم أفضل من نوح بدليل حديث النبي ﷺ الذي رواه مسلم عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال :يا خير البرية فقال رسول الله ﷺ:{**ذاك إبراهيم عليه السلام**}.[3]

﴿ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴾ (آل عمران:٣٦) أصل الترتيب في هذه الآية {**وإني أعيذها وذريتها بك**} إلا أن الآية جاءت على

---

(١) تفسير البحر المحيط ج٢ ص ٤٢٩. (٢) الدر المصون في علوم الكتاب المكنون ج٢ ص٢٦.

(٣) صحيح مسلم باب من فضائل إبراهيم الخليل ﷺ رقم ٢٣٩٦.

خلاف هذا الترتيب ، فقدمت أم مريم المعاذ به وهو الله سبحانه وتعالى في قولها {**بك**} على المعطوف { **وذريتها** } وذلك راجع إلى تعظيمها لله بتقديم اسمه ، كما يدل على شدة إيمانـــها وتعلق قبلها بحبائل التوحيد المتينة ،حيث إنّ استعاذتـــها لم تكن إلا بالله وحده ، ولهذا قدمته في الذكر ، وكأنـــها تقول: غني أعيذها وذريتها بك وحدك ليس بأحد سواك.

قال أبو حيان: "وقدمت ذكر المُعَاذ به على المعطوف على الضمير للاهتمام به ثم استدركت بعد ذلك ذكر ذريتها " .[1]

﴿ **كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقاً** ﴾ (آل عمران:٣٧).

تقدم الجار والمجرور - عليها - على الفاعل -زكريا - لإظهار كمال العناية بأمرها ولأن القصة في شأنـــها وليس في شأن زكريا .

﴿ **قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلامٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ** ﴾ (آل عمران :٤٠)، قال أبو حيان:" وهنا قدم حال نفسه وأخر حال امرأته ، وفي مريم عكس فقال الماتريدي : لا تراعى الألفاظ في الحكاية إنما تراعى المعاني المدرجة في الألفاظ، وقال غيره : صدر الآيات في مريم مطابق لـــهذا الترتيب هنا لأنه قدم أنه وهن العظم منه ، واشتعل الرأس شيباً وقال: {**إني خفت الموالي من ورائي وكانت امرأتي عاقراً**} فلما أعاد ذكرها في الاستعلام أخر ذكر الكبر ليوافق {**عتيا**} رؤوس الآي وهو باب مقصود في الفصاحة يترجح إذا لم يخل بالمعنى ، والعطف هنا بالواو فليس التقديم والتأخير مشعراً بتقدم زمان وإنما هذا من باب تقديم المناسب في فصاحة الكلام ".[2]

وقد ذهب الفيروزابادي إلى نحو مما سبق حيث قال: " فقدم ذكر المرأة لأن في مريم قد تقدم ذكر الكبر في قوله: { **وهن العظم مني** } وتأخر ذكر المرأة في قوله: { **وإني خفت الموالي من ورائي وكانت امرأتي عاقراً** } ثم أعاد ذكرهما فأخر ذكر الكبر ليوافق{**عتيا**} ما بعده من الآيات { **سويا**} { **عشيا**} و{ **صبياً** }[3]

---

(١) البحر المحيط ج٢ ص٤٥٨. (٢) البحر المحيط ج٢ ص٤٧٠. (٣) بصائر ذوي التمييز ج١ ص١٦٢.

أقول: وفيما ذكراه نظر ، فالقول بالتأخير لموافقة رؤوس الآي ضرورة شعرية تستحيل على كلام القدير ، ولكن لا بد أن يكون هناك معنى آخر جاء لأجله هذا الترتيب مع ما فيه من حسن الوقف على هذه الفاصلة ، أما أن تكون الفاصلة هي الهدف من هذا الترتيب فهذا نظم يضعف به إبداع الشاعر فما بالك بالقرآن الكريم ومن يمعن النظر في السورتين يدرك أن الترتيب فيهما واحد لم يختلف، وأن التقديم فيهما جاء على نسق واحد ففي سورة آل عمران تقدم ذكر الكبر في قوله: {**وقد بلغني الكبر وامرأتي عاقر**}، فبدأ بذكر تعجبه أولاً من حال نفسه وفي سورة مريم بدأ بذكر تعجبه من وجود الولد بحال امرأته { **وكانت امرأتي عاقراً وقد بلغت من الكبر عتياً** } لأنه قد سبق ذلك الإشارة إلى حال كبره وشيخوخته { **قال رب إني وهن العظم مني واشتعل الرأس شيباً** } واقترابه من الرحيل بدنوه من خطوات الموت { **وإني خفت الموالي من ورائي**} أي من بعد موتي ، فلما سبق ذكر شأنه ناسب أن يبتدأ بذكر حال امرأته ويؤخر ذكر نفسه المذكور من قبل في دعائه .

أما قول الماتريدي : " لا تراعى الألفاظ في الحكاية إنما تراعى المعاني المدرجة في الألفاظ فغير مقبول لماذا ؟ لأنه إن لم يكن للترتيب معنى في إيراد الحكاية وكان كلا الأسلوبين في التقديم والتأخير سواء بسواء فلم خولف الترتيب؟ لقصد أم لغير قصد؟ إن كان لقصد فهو ما ذكرناه وإن كان لغير قصد فهذا عبث ننـــزه كلام الله تعالى عنه .

﴿ **يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ** ﴾ (آل عمران:٤٣)، تقدم السجود على الركوع راجع إلى أمور ذكرها أهل التفسير ، ولقد جمع أبو حيان جملة هذه الآراء فذكر أن السجود إذا كانت الهيئة التي هي أقرب ما يكون العبد فيها إلى الله قدم وإن كان متأخراً في الفعل على الركوع فيكون إذ ذاك التقديم بالشرف ، أقول: ويشهد لـــهذا القول قوله تعالى في سورة الزمر : ﴿ **أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِداً وَقَائِماً يَحْذَرُ الآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ** ﴾ (الزمر:٩)، فتقدم السجود على القيام مع كونه أسبق في الوجود منه من الركوع ومنه أيضاً قوله تعالى في سورة الفرقان:﴿**وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّداً**

وَقِيَاماً﴾ (الفرقان:٦٤) ، وقد ذهب إلى ذلك الرأي البقاعي عند تفسيره لـــهذه الآية فقال ولما كان السجود أشد أركان الصلاة تقريباً إلى الله ، لكونه أنـــهى الخضوع مع أنه الذي أباه الجاهلون ، قدمه لذلك ويعلم بادئ بدء.أن القيام في الصلاة فقال: { **سجداً** } وأتبعه ما هو تلوه في المشقة تحقيقاً لأن السجود على حقيقته فيتمحص الفعلان في الصلاة. [١]

وقيل كان السجود مقدماً على الركوع في شرع زكريا وغيره منـــهم ذكره أبو موسى الدمشقي ، وقيل في كل ملة إلا ملة الإسلام فجاء التقديم من حيث الوقوع في ذلك الشرع، فيكون إذ ذاك التقديم زمانياً من حيث الوقوع، وهذا التقديم أحد الأنواع الخمسة التي ذكرها البيانيون وكذلك التقديم الذي قبله ، وتوافق الزمخشري وابن عطية على أنه لا يراد ظاهر الهيئات ، فقال الزمخشري: "أمرت بالصلاة بذكر القنوت والسجود لكونـــهما من هيئات الصلاة وأركانـــها ثم قيل لـــها {**واركعي مع الراكعين**} المعنى : ولتكن صلاتك مع المصلين أي في جماعات وانظمي نفسك في جملة المصلين وكني معهم وفي عدادهم ولا تكوني في عداد غيرهم".

وقال ابن عطية: "القول عندي في ذلك أن مريم أمرت بفعلين ومَعْلَمَين من معالم الصلاة وهما طول القيام والسجود وخصا بالذكر لشرفهما في أركان الصلاة وهذان يختصان بصلاتـــها منفردة وإلا فمن يصلي وراء إمام لا يقال له أطل قيامك ، ثم أمرت بعد بالصلاة في الجماعة فقيل لها {**واركعـــي مـــع الراكعين**}، وقصد هنا معلم آخر من معالم الصلاة لئلا يتكرر لفظ ، ولم يرد بالآية السجود والركوع الذي هو منتظم في ركعـــة واحـــدة". [٢]وذكـــر الزمخشري توجيهاً آخر في تأخير الركوع عن السجود فقـــال: "ويحتمـــل أن يكون في زمانـــها من كان يقوم ويسجد في صلاته ولا يركع ، وفيـــه مـــن يركع فأمرت بأن تركع مع الراكعين، ولا تكون مع من لا يركع انتـــهى. فكأنه قيل: لا تقتصري على القيام والسجود بل أضيفي إلى ذلك الركـــوع . وقيل المراد بـــ{**اقنتي**} أطيعي وبـــ{**اسجدي**} صلي ومنه**﴿وَأَدْبَارَ السُّجُودِ﴾**

---

(١) نظم الدرر ج٥ ص٣٢٥. (٢) المحرر الوجيز ج١ ص١١٤،١١٥.

(ق:٤٠) أي الصلوات وبـــ{**اركعي**} اشكري مع الشاكرين ومنه﴿**وَخَرَّ رَاكِعاً وَأَنَابَ**﴾ (ص :٢٤) ويقوي هذا المعنى ويرد على من زعم أنه لم تشرع صلاة إلا والركوع فيها مقدم على السجود ، فإن المشاهد من صلاة اليهود والنصارى خلوها من الركوع ،ويبعد أن يراد بالركوع الانحناء الذي يتوصل منه إلى السجود .

قال الشوكاني: "وقدم الركوع على السجود لكونه أفضل أو لكون صلاتـــهم لا ترتيب فيها مع كون الواو لمجرد الجمع بلا ترتيب".[١]

وأقول: هناك احتمال آخر في تقديم السجود على الركوع على اعتبار أنه سجود شكر بمناسبة تبشيرها بالاصطفاء وبولادتـــها كلمة الله وروحه عيسى بن مريم ، وهذا السجود مشروع في شريعتنا ، قال سيد سابق: "ذهب جمهور العلماء إلى استحباب سجدة الشكر لمن تجددت له نعمة تسره ، أو صرفت عنه نقمة ، فعن أبي بكرة أن النبي ﷺ كان إذا أتاه أمر يسره أو بشر به خر ساجداً شكراً لله تعالى، رواه أبو داود وابن ماجه والترمذي وحسنه وروى البيهقي بإسناد على شرط البخاري أن علياً رضي الله عنه لما كتب إلى النبي ﷺ بإسلام همذان خر ساجداً ثم رفع رأسه فقال:{**السلام على همذان، السلام على همذان**} ....وروى البخاري أن كعب بن مالك سجد لما جاءته البشرى بتوبة الله عليه".[٢]

أما صاحب الغرائب فقد قال: "استعمال كل منـــهما في وقته اللائق به، والواو تفيد التشريك لا تفيد الترتيب ".[٣]

وقد تقدم الركوع على السجود في مواضع أخر مراعاة للتسلسل الطبيعي من ذلك قوله تعالى في سورة التوبة: ﴿ **التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ** ﴾ (التوبة :١١٢)، ففي هذه الآية قدم الراكعون على الساجدين ، ومنه قوله تعالى في سورة الحج:﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ**﴾ (الحج:٧٧) ،حيث تقدم الركوع على السجود.

---

(١) فتح القدير بين في الرواية والدراية من علم التفسير ج١ ص٣٣٨.

(٢) فقه السنة ج١ ص٢٤٤.

(٣) غرائب القرآن ورغائب الفرقان ج٢ ص١٦٠.

﴿ **إِذْ قَالَتِ المَلائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ اسْمُهُ المَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ** ﴾ (آل عمران:٤٥).

قال السمين الحلبي: نقلاً عن ابن الأنباري : "وإنما قدم -بدئ بلقبه- لأن المسيح أشهر من عيسى لأنه قل أن يقع على سُمَيَّ يشتبه به ، وعيسى قد يقع على عدد كثير فقدمه لشهرته ، ألا ترى أن ألقاب الخلفاء أشهر من أسمائهم ، فهذا يدل على أن المسيح عند ابن الأنباري لقب لا اسم ".[١]

أقول : وما ذكره ابن الأنباري هو ما رجحه القرطبي قال : "والمسيح لقب لعيسى ومعناه الصديق ، قاله إبراهيم النخعي" .[٢]

وأقول : إن المسيح هنا صفة مدح وثناء على المسيح سواء في طيب جسده إذا قلنا بأن المسيح الممسوح من كل عيب ، أو ذكر معجزته لأنه كان يمسح على المرضى وأصحاب البلاء فيُشفَون بإذن الله ، أو صفة فعل لأنه كان يمسح الأرض يأكل من الشجر وبقل الأرض وينام حيثما ستره الليل ، ولذلك قدم ذكر صفة الجمال الدالة على عظيم قدره قبل ذكر الاسم الدال على ذاته وخلقه ، وهذا لا يناقض القول السابق بالتقديم للشهرة والذيوع ، فلا تعارض بينهما .

﴿ **أَنِّي أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْراً بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُبْرِئُ الأَكْمَهَ وَالأَبْرَصَ وَأُحْيِي المَوْتَى بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ** ﴾ (آل عمران:٤٩) لما كانت الآيات الإلهية إنما هي من أجل أن يؤمن البشر فإن المسيح – عليه السلام – لكامل شفقته وعظيم رحمته بقومه رجاء أن يؤمنوا برسالته بدأ يذكر لهم الأعجب فالأعجب مبتدئاً بأعظم المعجزات الداعيات إلى الإيمان به وتصديقه وعدم تكذيبه ، فالتقديم هنا من باب الترقي الذي يبدأ فيه بذكر الأعلى ثم الأدنى طمعاً في إيمانهم عند مشاهدة أول الآيات ولهذا بدأ بأعظمها.

قال أبو حيان: " بدأ بالخلق لأنه أعظم في الإعجاز وثنى بإبراء الأكمه والأبرص ، وأتى ثالثاً بإحياء الموتى وهو خارق شاركه فيه غيره بإذن الله تعالى" .[٣]

---

(١) الدر المصون ج٢ ص٩٥. (٢) القرطبي ج٤ ص٥٧. (٣) البحر المحيط ج١ ص٤٨٩.

﴿ إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فاعْبُدُوهُ ﴾ (آل عمران:٥١) .

وفي سورة الزخرف في هذه القصة ﴿ إِنَّ اللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ ﴾ (الزخرف :٦٤) بتقديم الضمير **{هو}** وتقديم الضمير مفيد للاختصاص بأنه ليس له رب إلا الله فإذا قلنا مثلاً : **{أحمد مسافر}** فيحتمل أن هناك مسافر آخر فيحتمل أن يكون التقدير وعمر مسافر، أما إذا قلنا : **{أحمد هو المسافر}** فقد خصصناه بالسفر وحده ، ونظير ذلك هذه الآية التي معنا، حيث أفاد تقديم الضمير الحصر والاختصاص بين المبتدأ والخبر ،فكلاهما مخصص بالآخر ويأتي هنا السؤال فلماذا لم تخصص آية آل عمران أيضاً بتقديم الضمير **{هو}** ؟

أقول : لأنه قد سبق الآية عشر آيات تتحدث عن قضية التوحيد وأن الله عز وجل رب عيسى وخالقه ليس أباه ولا والده . وكذا جاءت الآيات في سورة مريم.

{ وإن الله ربي وربكم فاعبدوه } حيث سبقها عشرون آية عن قصة خلق المسيح من قوله تعالى :**{ واذكر في الكتاب مريم }**، أما سورة الزخرف فليست كذلك لأنه ابتداء كلام فحسن أن يؤكد بقوله: **{ هو}** المفيد للاختصاص .

﴿ إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُواوَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾(آل عمران:٥٥)، في هذه الآية سؤال وهو لماذا تقدم التوفي على الرفع ؟

أقول: هنا عدة إجابات:

الأول: أن يكون المراد بالتوفي النوم كقوله تعالى:**﴿يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ﴾** (الأنعام :٦٠) .

الثاني: أن التاء زائدة في متوفيك أي موفيك عملك ومنه قوله تعالى : **﴿ وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُم غَيْرَ مَنقُوصٍ﴾** (هود :١٠٩) .

الثالث : أن المقصود بالتوفي هو الإماتة العادية كقوله تعالى:**﴿ اللَّهُ يَتَوَفَّى الأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا ﴾** (الزمر :٤٢) ، وأما الرفع فهو رفع الروح والمكانة ومنه قوله تعالى :**﴿ يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾** (المجادلة:١١)

كما قال تعالى في إدريس-عليه السلام- :﴿ **وَرَفَعْنَاهُ مَكَاناً عَلِياً**﴾ (مريم:٥٧) .

وقال في شأن المؤمنين:﴿ **فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ** ﴾(القمر:٥٥)، ويكون المعنى إني مميتك وجاعلك بعد الموت في مكان عالٍ رفيع . ولست مع أي من هذه الأقوال بل ما أراه هو أن الآية جاءت على أسلوب التقديم والتأخير والواو لا توجب الرتبة والمعنى {**إني رافعك إليَّ ومطهرك من الذين كفروا ومتوفيك بعد أن تنـــزل من السماء**} وهذا هو الظاهر أنه ـــ عليه السلام – رفع من غير نوم ولا موتٍ حيث رفع حياً بجسمه وروحه وسينـــزل في آخر الزمان ليكون دليلاً على قرب القيامة كما قال تعالى: ﴿ **وَإِنَّهُ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ**﴾ (الزخرف :٦١) ، وكما قال تعالى: ﴿ **وَإِن مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلاَّ لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيداً**﴾(النساء:١٥٩)، ومثل هذا التقديم والتأخير قوله تعالى: ﴿ **وَلَوْلا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَكَانَ لِزَاماً وَأَجَلٌ مُّسَمًّى** ﴾(طه :١٢٩) ، وهذا الذي ذكرته هو ما دلت عليه الأحاديث الصحيحة، ففي صحيح مسلم قال رسول الله { **والذي نفسي بيده ليوشكن أن ينـــزل فيكم ابن مريم حكماً مقسطاً ...**} [(١)] وعلى هذا الرأي أكثر العلماء . وقد ذكر صاحب التفسير المنير حديثا لو صح لكان الفاصل في المسألة والقاطع في الجواب والرافع للخلاف قال : والصحيح لدى المحققين من العلماء أن الله رفع عيسى -عليه السلام- إلى السماء من غير وفاة ولا نوم وسينـــزل في آخر الزمان هذا ما دلت عليه الأحاديث الصحيحة وهو قول النبي ﷺ إن عيسى لم يمت وإنه راجع إليكم قبل يوم القيامة} .[(٢)]

وعن ترتيب هذه الآية قال العلامة الشعراوي: " إن الواو لا تقتضي ترتيب الأحداث ، فعلى فرض أنك أخذت {**متوفيك**} أي {**مميتك**} فمن الذي قال إن {**الواو**} تقتضي الترتيب في الحدث ؟ بمعنى أن الحق يتوفى عيسى ثم يرفعه فإذا قال قائل ولماذا جاءت {**متوفيك**} أولاً ؟ نرد على ذلك: لأن البعض قد يظن أن الرفع تبرئة من الموت ولكن عيسى سيموت قطعاً فالموت ضربة لازب ومسألة يمر بـــها كل البشر "[(٣)]

---

(١) صحيح مسلم باب نزول عيسى – عليه السلام-١٥٥. (٢) التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج ج٣ ص٢٤١ -٢٤٣.
(٣) الشعراوي ج١ ص ١٥٠٥.

﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَأُعَذِّبُـــهم عَذَاباً شَدِيداً فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ ۝ وَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَاللَّهُ لاَ يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴾ (آل عمران :٥٦،٥٧)

بدأ أولاً بقسم الكفار لأن ما قبله من ذِكْر حُكْمه تعالى بينـــهم هو على سبيل التهديد والوعيد للكفار والإخبار بجزائهم ، فناسبت البداءة بـــهم، ولأنـــهم أقرب في الذكر بقوله :{ **فوق الذين كفروا** } ويكون الكلام مع اليهود الذين كفروا بعيسى وراموا قتله ، ثم أتى ثانياً بذكر المؤمنين .

قال السمين الحلبي: "وفي ترتيب هذه الأخبار الأربعة ـــ أعني متوفيك ورافعك ومطهرك وجاعل ـــ هذا الترتيب معنى حسن جداً ، وذلك أنه تعالى بشره أولاً بأنه متوفيه ومتولي أمره فليس للكفار المتوعدين له بالقتل عليه سلطان ولا سبيل ، ثم بشره ثانياً بأنه رافعه إليه أي : سمائه محل أنبيائه وملائكته ومحل عبادته ليسكن فيها ويعبد ربه مع عابديه ، ثم ثالثاً بتطهيره من أوضار الكفرة وأذاهم وما رموه به، ثم رابعاً برفعة تابعيه على من خالفهم ليتم بذلك سروره ، ويكمل فرحه ، وقدم البشارة بما يتعلق بنفسه على البشارة بما يتعلق بغيره ، لأن الإنسان بنفسه أهم وبشأنـــها أعنى ،{ **قوا أنفسكم وأهليكم ناراً** } { **ابدأ بنفسك ثم بمن تعول** } [1]

﴿إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلاَّ اللَّهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (آل عمران:٦٢) ، بدأت قصة المسيح -عليه السلام- بالحق في بداية السورة في قوله تعالى:**﴿نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ التَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ﴾** (آل عمران:٣) ، وختمت قصة المسيح - عليه السلام - بالحق أيضاً ، وهذا للتأكيد ودفع اللبس مع ما توحيه من اطمئنان النفس بعدم الالتفات للمخالف، وقريباً من ذلك المعنى إثبات التوحيد والتأكيد عليه في هذه السورة ، حيث بدأت بقوله تعالى :**﴿ اللَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾** (آل عمران :٢) وختمت القصة التأكيد على قضية التوحيد ونفي الشريك في الآية التالية**﴿ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلاَّ اللَّهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾** (آل عمران:٦٢)

---

(١) الدر المصون ج٢ ص١١٦ ، ١١٧

﴿ إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ ﴾(آل عمران٦٨) يرى البعض أن في الآية تقديم بسبق الزمان والإيجاد حيث تقدم قوله: { للذين اتبعوه } على قوله : { وهذا النبي } وأقول : إن التقديم في هذه الآية ليس راجعاً إلى سبق الوجود أو التقدم بالزمن ، وإن الآية ليس فيها تقديم و لا تأخير على هذا النحو ، بل ذكر النبي – صلى الله علي وسلم – للتخصيص بالذكر لعلو الرتبة والتنبيه بالفضل كقوله تعالى:﴿ مَن كَانَ عَدُواً لِّلَّهِ وَمَلآئِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَافِرِينَ ﴾ (البقرة:٩٨) ، فقد ذكر الملائكة على سبيل العموم، ثم ذكر جبريل وميكال بعد ذلك مع أنــهم من الملائكة لفضلهما وشرفهما على سائر الملائكة ، فالنبي خص بالذكر لأنه أفضل الأتباع وهذا نظير قولنا في الصلاة على النبي: {**اللهم صل على محمد وعلى آل محمد كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم**} والسؤال المطروح هو إذا كان النبي ﷺ أفضل من إبراهيم ﷺ فكيف طلب له من الصلاة مثل ما لإبراهيم مع أن المشبه به أصله أن يكون فوق المشبه ؟ والجواب أن النبي من آل إبراهيم بل هو أفضل آل إبراهيم فيكون قولنا كما صليت على آل إبراهيم متناولاً الصلاة عليه وعلى سائر النبيين من ذرية إبراهيم ويتناول إبراهيم نفسه كما في قوله تعالى:﴿ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحاً وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ (آل عمران :٣٣) فإبراهيم وعمران دخلا في آل إبراهيم وآل عمران كما في قوله تعالى :﴿ إِلاَّ آلَ لُوطٍ نَّجَّيْنَاهُم بِسَحَرٍ ﴾ (القمر:٣٤) فإن لوطاً داخل في آل لوط كما في قوله تعالى:﴿ وَإِذْ نَجَّيْنَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ ﴾ (البقرة:٤٩) وقوله تعالى :﴿ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾ (غافر:٤٦) فإن فرعون داخل في آل فرعون ، وكذلك لما جاء أبوأوفى إلى النبي ﷺ دعا النبي له قائلاً :{**اللهم صل على آل أبي أوفى**} .

﴿ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ (آل عمران:٧٥) تقدم المسند إليه { **هم** } على الجملة الفعلية { **يعلمون** } للتوكيد فهم يعلمون أنــهم يكذبون وأنــهم ينكرون الكذب ومعلوم أن الإنكار يقتضي توكيد الحكم ، ولهذا أضمر الضمير ثم فسر .

﴿ وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْــهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لاَّ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلاَّ مَا دُمْتَ عَلَيْهِ ﴾ (آل عمران:٧٥) قال

صاحب التحرير: "وقد ذكر الله هنا أن في أهل الكتاب فريقين : فريقاً يؤدي الأمانة تعففاً عن الخيانة وفريقاً لا يؤدي الأمانة متعللين لإباحة الخيانة في دينـــهم ... والمقصود من الآية ذم الفريق الثاني إذ كان من دينـــهم في زعمهم إباحة الخون قال تعالى: { **ذلك بأنـــهم قالوا ليس علينا في الأمين سبيل** } ولذلك طول الكلام فيه .

وإنما قدم عليه قوله: { **ومن أهل الكتاب من إن تأمنه بقنطار** } إنصافاً لحق هذا الفريق لأن الإنصاف مما اشتهر به الإسلام .... وتقديم المسند في قوله {**ومن أهل الكتاب**} في الموضعين للتعجيب من مضمون صلة المسند إليهما : ففي الأول للتعجيب من قوة الأمانة ، مع إمكان الخيانة ووجود العذر له في عادة أهل دينه، وفي الثاني للتعجيب من أن يكون الخون خلقاً لمتبع كتاب من كتب الله ثم يزيد التعجيب عند قوله :{ **ذلك بأنـــهم قالوا** } فيكسب المسند إليهما زيادة عجب حال. . . وقدم المجرور على متعلقه في قوله: {**عليه قائما**} للاهتمام بمعنى المجرور ، ففي تقديمه معنى الإلحاح ، أي إذا لم يكن قيامك عليه لا يرجع لك أمانتك ".[1]

أقول: هذه الآية فيها إشارات لطيفة لمعان شريفة ، توجه أصحاب النصح في نصحهم وأهل الدعوة في دعوتـــهم وأهل الحكم والقضاء الذين يستشارون عند النوازل والمعضلات ، بأن يبدأ الواحد من هؤلاء بذكر ما عند المحكوم عليه أو المنصوح أو من يُدعى لترك قبيح أو يؤمر بفعل صحيح أو ما كان فيه نوع من إظهار العيب والتجريح أن يبدأ الإنسان بذكر صفات الصحة والكمال قبل ذكر صفات المرض والاعتلال ، فهو أحرى لأن يقبل منه ويسمع لقوله ويستجاب لحكمه لا سيما وقد قدّم ما يدل على الإنصاف وعدم الجور عند الخلاف ، ولهذا بدأ الله تعالى في هذه الآية بذكر صفات الأمينين أولاً ليكون أحرى بقبول الحكم على غير الأمينين ، ومن هذا القبيل ما ذكره الله تعالى في سورة يوسف عندما بدأ الشاهد بذكر أسباب براءة امرأة العزيز قبل ذكر أسباب اتـــهامها فقال :﴿ **إِن كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن قُبُلٍ**

(١) التحرير ج٣ ص٢٨٥-٢٨٧

فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الكَاذِبِينَ • وَإِن كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ (يوسف:٢٦،٢٧) ومثاله أيضاً ما جاء في الآية الثامنة والعشرين من سورة غافر على لسان مؤمن آل فرعون حيث ذكر احتمال كذب الرسول وهذا ما يدعيه فرعون وقومه على احتمال صدقه وهو ما يؤمن به سراً وذلك ليكون أقنع في قبول حكمه والأخذ برأيه، حيث بدأ بما يوافقهم وإن كان غير الحق ليكون أدعى لقبول ما يقوله من الحق { **وقال رجل مؤمن من ءال فرعون يكتم إيمانه أتقتلون رجلاً أن يقول ربي الله وقد جاءكم بالبينات من ربكم وإن يك كاذباً فعليه كذبه وإن يك صادقاً يصبكم بعض الذي يعدكم به**} ومن ذلك أيضاً قوله تعالى :**﴿وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾** (سبأ:٢٤) فقدم نفسه عند احتمال وجود الضلال ولم يقدم من يحاوره لأن البداءة بنسبة الضلال إليهم إساءة في الجدال وأبعد عن التقريب في الحوار وكأنه قد أقيم بسببها بين المتحاورين جدار ، ومن ذلك أيضاً البداءة بنسبة الجريمة إلى الداعي أولاً قبل المدعو في قوله تعالى: **﴿ قُل لاَّ تُسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلاَ نُسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾** (سبأ :٢٥) وهذا كله باب عظيم من آداب الإسلام في الحوار .

وبالنظر في الآيات التالية نجد تقديم قوله تعالى:**﴿ بَلَى مَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ وَاتَّقَى فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴾** (آل عمران:٧٦) على قوله تعالى :**﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِم ثَمَناً قَلِيلاً أُوْلَئِكَ لاَ خَلاَقَ لَهُمْ فِي الآخِرَةِ وَلاَ يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلاَ يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلاَ يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾** (آل عمران:٧٧) .وذلك أنه لما مضى تقسيمهم إلى أمين وخائن استأنف بشارة الأول ونذارة الثاني على غرار ترتيب ما سبق فبدأ بالأمين قبل الخائن .

﴿ مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَاداً لِّي مِن دُونِ اللَّهِ ﴾ (آل عمران:٧٩) .

التقديم للترقي فبدأ بالكتاب وهو العلم ثم ترقى إلى التمكين وهو الفصل بين الناس ثم ترقى إلى الرتبة العليا وهي النبوة .

﴿ أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ ﴾ (آل عمران:٨٣) .

قال أبو حيان:" وتقدمت الهمزة اعتناءً بالاستفهام والتقدير فأغير وجوز هذا الوجه الزمخشري وهو قول جميع النحاة قبله ...وانتصب غير على أنه

مفعول يبغون وقدم على فعله لأنه أهم من حيث إن الإنكار الذي هو معنى الهمزة متوجه إلى المعبود بالباطل قاله الزمخشري" .[1]

يقول الزمخشري: " وقدم المفعول الذي هو {**غير دين الله**} على فعله لأنه أهم من حيث الإنكار الذيهو معنى الهمزة متوجه إلى المعبود بالباطل".[2]

﴿ قُلْ آمَنَّا بِاللَّه وَمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَالنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِم لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾ (آل عمران:٨٤).

تقدم الجار والمجرور في قوله: { **ونحن له مسلمون** } ليُعلم أن هذا الإذعان والإيمان والاستسلام لا غرض فيه إلا وجه الله دون شيء آخر من طلب المال والجاه.

﴿ وَلِلَّه عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴾ (آل عمران:٩٧) .

قدم الضمير المجرور في { **إليه**} على قوله: { **سبيلاً**} للاهتمام بشأنه .

﴿ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكْفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ٠ وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّه هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ (آل عمران:١٠٦،١٠٧)قال صاحب التحرير: "وقدم عند وصف اليوم ذكر البياض ، الذي هو شعار أهل النعيم ، تشريفاً لذلك اليوم بأنه يوم ظهور رحمة الله ونعمته ، ولأن رحمة الله سبقت غضبه ، ولأن في ذكر سمة أهل النعيم ، عقب وعيد غيرهم بالعذاب ، حسرة عليهم إذ يعلم السامع أن لهم عذاباً عظيماً في يوم فيه نعيم عظيم ، ثم قدم في التفصيل ذكر سمة أهل العذاب تعجيلاً بمساءتهم ".[3]

قال البيضاوي: " وكان حق التقديم أن يقدم ذكرهم - يقصد بيض الوجوه-لكن قصد أن يكون مطلع الكلام وقطعه حلية للمؤمنين وثوابهم.[4]

وعن سر التقديم والتأخير يقول صاحب المنار: "ومن مباحث اللفظ والنظم في الآيات أنه جعل النشر في آية { **يوم تبيض وجوه** } إلخ على غير

---

(١) التحرير ج١ ص٥٣٨.

(٢) الكشاف ج١ ص٣٧٢.

(٣) التحرير ج٤ ص[illegible].

(٤) البيضاوي ج٢ ص٧٧.

ترتيب اللف إذ ذكر في اللف الابيضاض قبل الاسوداد وذكر في النشر حكم من اسودت وجوههم قبل حكم من ابيضت وجوههم ، وليس اللف الذي يسمونه المرتب أبلغ مما يسمونه المشوش وإنما يختلف ذلك باختلاف الكلام فلا يرجح أحدهما على الآخر إلا بمرجح وقد قيل إن نكتة الترجيح هنا جعل مطلع الكلام ومقطعه في بيان حال المؤمنين وجزائهم فوافق ذلك استحسان البلغاء جعلهما مما يسر ويشرح الصدر ، وقيل إن نكتة ذلك بيان أن المقصود من الخلق والرحمة دون العذاب ، ولذلك بدأ بذكر أهل الرحمة وختم بذكر جزائهم وأدمج ذكر الآخرين في الأثناء ، والقول الأول ترجيح بحسب اللفظ، والثاني ترجيح بحسب المعنى" .[1]

أقول: وقد يكون تقديم حال أصحاب الوجوه السوداء عند الجزاء لأن المقام مقام تحذير عن التشبه بحالهم فناسب البداء بهم تخويفاً وترهيباً من التشبه بهم حتى لا يصار إلى مثل مآلهم ، كما أن فيه ختم الكلام بحسن حال المؤمنين كما بدئ بهم .

﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾ (آل عمران:١١٠) قال الرازي: "لم قدم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر على الإيمان بالله في الذكر مع أن الإيمان بالله لا بد أن يكون مقدماً على كل الطاعات ؟ والجواب أن الإيمان بالله أمر مشترك فيه بين جميع الأمم المحقة ثم إنه تعالى فضل هذه الأمة على سائر الأمم المحقة فيمتنع أن يكون المؤثر في حصول هذه الخيرية هو الإيمان الذي هو القدر المشترك بين الكل ، بل المؤثر في حصول هذه الزيادة هو كون هذه الأمة أقوى حالاً في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وأما الإيمان بالله فهو شرط لتأثير هذا المؤثر في هذا الحكم لأنه ما لم يوجد الإيمان لم يصر شيء من الطاعات مؤثراً في صفة الخيرية فثبت أن الموجب لهذه الخيرية هو كونهم آمرين بالمعروف ناهين عن المنكر وأما إيمانهم فذاك شرط التأثير : والمؤثر ألصق بالأثر من شرط التأثير فلهذا السبب قدم الله تعالى ذكر الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر على ذكر الإيمان" .[2]

---

(١) المنار ج٤ ص٥٦،٥٧.

(٢) مفاتيح الغيب ج٨ ص ١٩٧ .

وقد نقل صاحب المنار عن الشيخ محمد عبده قوله: "أما تقديم ذكر الأمر والنهي على الإيمان فالحكمة فيه أن هذه الصفة [**الأمر والنهي**] محمودة في عرف جميع الناس مؤمنـــهم وكافرهم يعترفون لصاحبـــها بالفضل، ولما كان الكلام في خيرية هذه الأمة على جميع الأمم مؤمنـــهم وكافرهم قدم الوصف المتفق على حسنه عند المؤمنين والكافرين" .[1]

وهناك حكمة أخرى وهي أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر سياج الإيمان وحفاظه [**كما تقدم بيانه**] فكان تقديمه في الذكر موافقاً للمعهود عند الناس في جعل سياج كل شيء مقدماً عليه .انتهى كلام الإمام قال صاحب المنار: أقول : كل ذلك حسن والمتبادر عندي أن تقديم الأمر والنهي للتعريض بأهل الكتاب الذين كانوا يدعون الإيمان ولا يقدرون على ادعاء القيام بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لأنـــهم كانوا في مجموعهم لا يتناهون عن منكر فعلوه وادعاء ما تكذبه المشاهدة يفضح صاحبه ، فقدم ذكر الأمر والنهي لأنـــهم لا مجال لهم في دعوى مشاركة المؤمنين فيه وأخر ذكر الإيمان الذي يدعونه ليرتب عليه بيان أنه إيمان غير صحيح لأنه لم يأت بثمر الإيمان الصحيح ولذلك قال:﴿ **وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْراً لَّهُم**﴾(آل عمران: ١١٠).

قال صاحب الغرائب: "وإنما قدم الأمر بالمعروف على الإيمان بالله في الذكر مع أن الإيمان مقدم على كل الطاعات ، لأن الآية سيقت لبيان فضل الأمر بالمعروف وتأكد القيام به ولـــهذا كرر بعد قوله :

﴿**وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ**﴾(آل عمران: ١٠٤) فكانت العناية به أشد فكان تقديمه أهم". [2]

قال الألوسي: "وإنما أخر الإيمان عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مع تقدمه عليهما وجوداً ورتبة كما هو الظاهر لأن الإيمان مشترك بين جميع الأمم دون الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فهما أظهر في الدلالة على الخيرية، ويجوز أن يقال قدمهما عليه للاهتمام وكون سوق الكلام لأجلهما ، وأما ما ذكره فكالتتميم ويجوز أيضاً أن يكون ذلك للتنبيه على أن جدوى

---

(١) المنار ج٤ ص٦٣، ٦٤.

(٢) غرائب القرآن ورغائب الفرقان ج٣ ص٢٥٣.

الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في الدين أظهر مما اشتمل عليه الإيمان بالله تعالى لأنه من وظيفة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام - ولو قيل قدما - وأخر للاهتمام وليرتبط بقوله تعالى :{**ولو ءامن أهل الكتاب لكان خيراً لهم**}[1] وهذا الذي ذكره الألوسي ما يسمى بالمناسبة بين الآيات أي لمناسبة الآية لما بعدها.

﴿ **لَن يَضُرُّوكُمْ إِلاَّ أَذًى وَإِن يُقَاتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ الأَدْبَارَ ثُمَّ لاَ يُنصَرُونَ** ﴾ (آل عمران:١١١) التقديم هنا للترقي في الوعد ، مما هو أدنى إلى ما هو أعلى ، لأنـــهم وعدوا ألا يضروهم إلا أذى ثم وعدوا بتولية عدوهم الأدبار عند المقابلة ثم ترقى الوعد إلى ما هو أتم في النجاح من أن هؤلاء لا ينصرون مطلقاً ويزيد هذا الترقي دخول {ثم} دون الواو فإنـــها تستعار هنا للتراخي في الرتبة دون الوجود .

﴿ **وَلَكِنْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ** ﴾ (آل عمران:١١٧) { **أنفسهم** } مفعول مقدم، قدم للاختصاص أي : لم يقع وبال ظلمهم إلا بأنفسهم خاصة لا يتخطاهم إلى غيرهم أقول وكذلك لأجل رعاية الفاصلة .

قال السيد محمد رشيد رضا نقلاً عن الأستاذ محمد عبده : " أما تقديم الأمر والنهي على الإيمان فالحكمة فيه أن هذه الصفة { **الأمر والنهي** } محمودة في عرف جميع الناس مؤمنـــهم وكافرهم يعترفون لصاحبـــها بالفضل، ولما كان الكلام في خيرية هذه الأمة على جميع الأمم مؤمنـــهم ، وكافرهم قدم الوصف المتفق على حسنه عند المؤمنين والكافرين .

وهناك حكمة أخرى وهي أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر سياج الإيمان وحفاظه [**كما تقدم بيانه**] فكان تقديمه في الذكر موافقاً للمعهود عند الناس في جعل سياج كل شيء مقدماً عليه كل ذلك حسن - الكلام لصاحب المنار- والمتبادر عندي أن تقديم الأمر والنهي للتعريض بأهل الكتاب الذي كانوا يدعون الإيمان ولا يقدرون على ادعاء القيام بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لأنـــهم في مجموعهم لا يتناهون عن منكر فعلوه وادعاء

---

(١) روح المعاني ج١ ص١١٠.

ما تكذبه المشاهدة يفضح صاحبه ، فقدم ذكر الأمر والنهي لأنــهم لا مجال لهم في دعوى مشاركة المؤمنين فيه وأخر ذكر الإيمان الذي يدعونه ليترتب عليه بيان أنه إيمان غير صحيح لأنه لم يأت بثمر الإيمان الصحيح "[١]

﴿ وَعَلَى اللَّه فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴾ (آل عمران:١٢٢) .

قدم لفظ الجلالة للاختصاص أي عليه لا على غيره يكون التوكل .

﴿ بَلَى إِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ آلافٍ مِّنَ الْمَلائِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴾ (آل عمران :١٢٥) قال صاحب التحرير: "فموقع قوله: { **ويأتوكم** } موقع وعد ، فهو في المعنى معطوف على { **يمددكم ربكم** } وكان حقه أن يرد بعده ، ولكنه قدم على المعطوف عليه ، تعجيلا للطمأنينة إلى نفوس المؤمنين ،فيكون تقديمه من تقديم المعطوف على المعطوف عليه". [٢]

﴿ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلاَّ بُشْرَى لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِ وَمَا النَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِندِ اللَّه الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴾ (آل عمران :١٢٦) .

و قال في سورة الأنفال: **﴿ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلاَّ بُشْرَى وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِندِ اللَّه إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾** (الأنفال:١٠) هنا أسئلة يمكن أن تطرح فيقال : ما في الآية الأولى مما يوجب أن يأتي فيها بقوله { **لكم** } وليس في الآية الثانية ، وما بال قوله :{ **به**} قد أخر في الآية الأولى عن قوله: { **قلوبكم** } ، وقدم في الآية الأخرى عليه ؟ والجواب أن يقال: أما قوله : لكم في هذه الآية وحذفه من الثانية مع العلم بأن الله تعالى جعل إخباره بإنزال الملائكة إن نصرهم بشارة لهم ، وإن { **لكم** } مضمرة في سورة الأنفال كما هي مظهرة في هذه السورة ، فلأن الأولى جاءت على الأصل والثانية قد تقدمتها لكم فأغنت عن إعادتــها بلفظها ومعناها ، وهي في قوله : **﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلائِكَةِ مُرْدِفِينَ ﴾** (الأنفال:٩) .

فلما قال استجاب لكم علم أنه جعل بشرى لهم فأغنت لكم الأولى بلفظها ومعناها على الثانية ، وفي الآية الأولى لم يتقدم ما يقوم هذا المقام فأتى

---

(١) المنار ج٤ ص٦٤.　　　(٢) التحرير ج٣ ص٧٤.

بقوله لكم على الأصل . وأما تأخيره بعد قوله: { **قلوبكم** } فلأنه لما أخر الجار والمجرور في الكلام الأول وهو قوله: { **وما جعله الله إلا بشرى لكم** } وعطف الكلام الثاني عليه وقد وقع فيه جار ومجرور وجب تأخيرها في اختيار الكلام ليكون الثاني كالأول في تقديم ما الكلام أحوج إليه وتأخير ما قد يستغني عنه ، وأما تقديم { **به** } في الآية الثانية فلأن الأصل في كل خبر يصدر بفعل أن يكون الفاعل بعده ثم المفعول ثم الجار والمجرور ، وقد يقدم المفعول علي الفاعل إذا كان اللبس واقعاً فيه وأريد إزالته عنه كما تقول ضرب عمراً زيد لا محمداً لأن المخاطب عنده أن المضروب محمد ولا خلاف بين المتخاطبين في أن الضارب زيد ، فهو يبدأ بما هو أهم وعنايته ببيانه أتم ، وكذلك الجار والمجرور بمنـــزلة المفعول به في التقديم والتأخير وشبههما .

﴿ **لِيَقْطَعَ طَرَفاً مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَوْ يَكْبِتَــهم فَيَنقَلِبُوا خَائِبِينَ ، لَيْسَ لَكَ مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَــهم فَإِنَّــهم ظَالِمُونَ** ﴾(آل عمران:١٢٧،١٢٨)

قال صاحب التحرير والتنوير: "فإن قلت : هلا جمع العقوبات متوالية : فقال ليقطع طرفاً من الذين كفروا، أو يكبتـــهم فينقلبوا خائبين ، أو يتوب عليهم، أو يعذبـــهم ، قلت : روعي قضاء حق جمع النظير أولاً ، وجمع الضدين ثانيا، بجمع القطع والكبت ، ثم جمع التوبة والعذاب ، على نحو ما أجاب به أبو الطيب عن نقد من نقد قوله في سيف الدولة :

وقفتَ وما في الموت شكٌ لواقف كأنك في جَفن الرَّدى وهو نائمُ

تمرُّ بك الأبطال كَلمى حزينةً ووجهُك وضَّاحٌ وثغرُك باسمُ (١)

إذ قدم من صفتيه تشبيهه بكونه في جفن الردى لمناسبة الموت ،وأخر الحال وهي ووجهك وضاح لمضادة قوله كلمى حزينة ، في قصة مذكورة في كتب الأدب". (٢)

﴿**وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ** ﴾ (آل عمران :١٣٣) تقدمت المغفرة على الجنة لأن التخلية مقدمة علي التحلية أو للسببية .

﴿ **الَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ** ﴾ (آل عمران:١٣٤).

---

(١) العرف الطيب شرح ديوان أبي الطيب ج٢ ص ٢٠٦. (٢) التحرير ج٣ ص١٣٤

قال صاحب المنار: " وقد بدأ وصف المتقين بالإنفاق لوجهين{**أحدهما**} مقابلته بالربا الذي نــهي عنه في الآية السابقة فإن الربا هو استغلال الغني حاجة المعوز وأكل ماله بلا مقابل والصدقة إعانة له وإطعامه ما لا يستحقه فهي ضد الربا . ولم يرد في القرآن ذكر الربا إلا وقبح ومدحت معه الزكاة والصدقة كما قال في سورة الروم ﴿ **مَا آتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَ فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَرْبُو عِندَ اللَّهِ وَمَا آتَيْتُم مِّن زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ**﴾(الروم:٣٩) ثانيهما : أن الإنفاق في السراء والضراء أدل على التقوى وأشق على النفوس وأنفع للبشر من سائر الصفات والأعمال }.[١]

وأقول: ولأن الإنفاق صفة عطاء وإيصال خير عام ، أما الكظم والعفو فهو صفة منع أذى خاص فقدم النفع العام على منع الأذى الخاص ، وقد جاءت الآية في صفات هؤلاء المتقين على أسلوب الترقي الإيماني من الأدنى إلى الأعلى حتى نصل إلى أعلى مراتب الإيمان وهي مرتبة المحسنين المذكورة في الآية والتي جاءت في حديث جبريل المشهور ، فالكظم هو حبس الانفعال وعدم إخراجه لحيز التطبيق الانفعالي ، بينما العفو هو إخراجه ولكن من القلب ومن التطبيق أيضاً كأن الأمر لم يحدث، بينما العفو هو أن يتجاوز الإنسان الكظم والعفو بأن يحسن إلى المسيء إليه.

﴿ **وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِــهِم وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ** ﴾ (آل عمران :١٣٥) .

بدأ بالفاحشة وهي إن كان المقصود بــها كبائر الذنوب ، فمن باب البدء بما هو أرجى في المغفرة وأدعى للرجوع والتوبة فالذي يغفر الكبائر لاشك يغفر الصغائر ، وإذا كان المقصود بالفاحشة هنا هي الزنى ، فلأنه أعظم ذنباً وأقبح أثراً لما فيه من تعدٍّ على حق الغير من تلويث عرض امرأة وتدنيس شرف أهلها وإلحاق المعرة بــهم وإدخال عليهم من ليس منــهم إن كانت محصناً وأخذه الإرث بلا حق والاطلاع على العورات ، إلى غير ذلك من المفاسد ولهذا بدئ به أولاً لبيان عظيم رحمة الله وعدم اليأس من التوبة ثم ذكر ظلم النفس بعد ذلك لأنه أخف .

---

(١) المنار ج٤ ص١٣٢،١٣٣.

﴿ **وكأين من نبي قاتل معه ربيون كثير فما وهنوا لما أصابهم في سبيل الله وما ضعفوا وما استكانوا والله يحب الصابرين ۝ وما كان قولهم إلا أن قالوا ربنا اغفر لنا ذنوبنا وإسرافنا في أمرنا وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين** ﴾ (آل عمران:١٤٦، ١٤٧).

تقدم ذكر المحاسن الفعلية على المحاسن القولية للاهتمام بها وأنها كانت سبباً لأن يطمعوا بمحاسنهم القولية في طلب مغفرة الذنوب وتثبيت الأقدام والنصر، وقد تقدم الدعاء بالاستغفار على طلب تثبيت الأقدام في مواطن الحرب والنصرة على العدو ليكون طلبهم إلى ربهم عن زكاة وطهارة وخضوع وأقرب إلى الاستجابة .

قال صاحب الغرائب :" قال المحققون : إنما قدموا الاستغفار لعلمهم بأنه تعالى ضمن نصر المؤمنين ، فإذا لم يحصل النصرة وظهرت أمارات استيلاء الأعداء دل ذلك على صدور ذنب وتقصير من المؤمنين ، فيلزم تقديم التوبة والاستغفار على طلب النصرة ليكون طلبهم إلى ربهم عن زكاة وطهارة أقرب إلى الاستجابة"[1]

أقول: وقد جاء الأسلوب في هذه الآية على سبيل الترقي في الطلب، حيث طلبوا مغفرة الصغائر. { **ربنا اغفر لنا ذنوبنا** } ثم ارتقوا في الطلب طمعاً لمغفرة الكبائر {**وإسرافنا في أمرنا**} فلما طمعوا في مغفرة السيئات وإقالة العثرات ارتقوا في استنزال النصر والرحمات {**وانصرنا على القوم الكافرين**}.

وتقدم في هذه الآية خبر كان على اسمها في قوله : {**وما كان قولهم إلا أن قالوا**} لأنه خبر عن مبتدأ محصور، لأن المقصود حصر أقوالهم حينئذ في مقالة {**ربنا غفر لنا ذنوبنا** } فالقصر حقيقي لأنه قصر لقولهم الصادر منهم ، حين حصول ما أصابهم في سبيل الله فذلك القيد ملاحظ من المقام ، نظير القصر في قوله تعالى: ﴿ **إنما كان قول المؤمنين إذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم أن يقولوا سمعنا وأطعنا** ﴾ (النور :٥١) .

---

(١) غرائب القرآن ورغائب الفرقان ج٣ ص٢٧٤.

قال العلامة الشعراوي عن سر الترتيب في الكلمات الثلاث ضعفوا – وهنوا – استكانوا–" هذه جاءت في موقعها الصحيح لأن الوهن بداية الضعف والوهن محله القلب وهو ينضح على الجوارح ضعفاً و{ **استكانوا** } ماذا تعني ؟ إنـــها من { **سكن**} والسكون تقابله الحركة والحرب تحتاج إلى حركة والذي يأتي إلى الحرب يحتاج إلى كر وفر ، أما الذي لا يتحرك فهذا معناه أنه ليس لديه قدرة على أن يتحرك".(١)

﴿فَآتَاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الآخِرَةِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾ (آل عمران:١٤٨)

تقدم ثواب الدنيا على الآخرة وإن كان ثوابـــها أشرف وذلك لسبقه في الوجود وهو النصر الذي وعد الله به عباده المؤمنين .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَقَالُوا لإِخْوَانِـــهِم إِذَا ضَرَبُوا فِي الأَرْضِ أَوْ كَانُوا غُزًّى لَوْ كَانُوا عِندَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذَلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِـــهِم وَاللَّهُ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ (آل عمران:١٥٦) .

تقدم الموت على القتل عكس الآية التالية والتقديم هنا لمناسبة الترتيب في الآية لأن {إذا ضربوا } يقابله {**ماتوا**}و{**أو كانوا غزى**}يقابله{**وما قتلوا**}.

السبب الثاني: هو بيان فساد عقائد المنافقين وعدم إيمانـــهم بوجود الآجال المضروبة والأعمار المحدودة فبدأ بما هو أبعد سبباً عن الموت وهو السفر ثم الأقرب سبباً لبيان شكهم في القضاء والقدر ،سواء في المواطن التي لا يغلب عليها الهلاك { **إذا ضربوا في الأرض**} أو التي يغلب عليها الهلاك { **أو كانوا غزى** } ويدل على ذلك ذيل الآية { **والله يحي ويميت** } .

﴿وَلَئِن قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ (آل عمران :١٥٧)، قدم القتل على الموت لأنه أكثر ثواباً وأعظم عند الله تعالى، فترتب المغفرة والرحمة عليه أقوى وعكس في قوله سبحانه:**﴿ وَلَئِن مُّتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لإِلَى اللَّهِ تُحْشَرُونَ﴾** (آل عمران:١٥٨) لأن الموت أكثر من القتل وهما

---

(١) الشعراوي ج٣ ص١٨٠٧.

مستويان في الحشر .وليس كما ذهب صاحب المنار أن تقديم القتل لكثرة وقوعه ولـــهذا قدم على الموت.[1]

قال الثعالبي: " وترتب الموت قبل القتل في قوله تعالى :**﴿مَا مَاتُوا وما قُتلوا﴾** (آل عمران:١٥٦) مراعاة لترتيب الضرب في الأرض والغزو - يقصد هنا أن النشر جاء على ترتيب اللف في الآية { **يا أيها الذين ءامنوا لا تكونوا كالذين كفروا وقالوا لإخوانـــهم إذا ضربوا في الأرض أو كانوا غُزًّى لو كانوا عندنا ما ماتوا وما قتلوا** } - وقدم القتل هنا - في قوله: **﴿وَلَئِن قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾** (آل عمران: ١٥٧) - لأنه الأشرف الأهم ، ثم قدم الموت في قوله تعالى :**﴿ وَلَئِن مُّتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ﴾** (آل عمران:١٥٨) لأنـــها آية وعظ بالآخرة والحشر،وآية تزهيد في الدنيا والحياة، وفي الآية تحقير لأمر الدنيا وحض على طلب الشهادة ، والمعنى إذا كان الحشر لا بد منه في كلا الأمرين فالمضي إليه في حال شهادة أولى" .[2]

قال صاحب التحرير والتنوير: "وقدم القتل في الأولى والموت في الثانية اعتباراً بما يظن أنه أبعد عن الحكم فإن كون القتل في سبيل الله سبباً للمغفرة أمر قريب ، ولكون الموت في غير السبيل مثل ذلك أمر خفي مستبعد ، وكذلك تقديم الموت في التثنية لأن القتل في سبيل الله قد يظن أنه بعيد عن أن يعقبه الحشر ، مع ما فيه من التفنن ، ومن رد العجز على الصدر وجعل القتل مبدأ الكلام وعوده". [3]

أقول: وهناك احتمال آخر ، أن الآية الأولى سيقت لبيان فضل الجهاد والقتل في سبيله ، فقدم ما هو الأغلب من حال المجاهدين الذين يفارقون الدنيا وهو القتل ، والثانية سيقت لبيان أن حشر الخلائق كلهم إليه بأي وجه يفارقون الدنيا. وفي قوله : {**لإلى الله تحشرون**} تقديم الجار على المجرور لإفادة الحصر، وأنـــهم لا يحشرون إلى غيره وأنه لا حكم لأحد في ذلك اليوم إلا له .

﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظاً غَلِيظَ الْقَلْبِ لانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْـــهُم وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ ﴾ (آل عمران:١٥٩)

---

(١) المنار ج٤ ص١٩٧ (٢) جواهر الحسان ج١ ص٣٠٧. (٣) التحرير ج٤ ص١٤٣،١٤٤.

تقدم العفو من النبي ﷺ على الاستغفار وكلاهما تقدم على المشاورة ، فالمعنى كالتالي : اعف عنـــهم فيما يتعلق بحقوقك ، لأنـــهم تركوه يوم أحد وما كان لهم ليتركوه ولا يرغبوا بأنفسهم عن نفسه وقد ذكر القرآن فرارهم عنه في قوله : **﴿ إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُونَ عَلَى أَحَدٍ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أُخْرَاكُمْ ﴾** (آل عمران:١٥٣) ، وقوله:**﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْاْ مِنكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْـــهُ﴾** (آل عمران:١٥٥) واستغفر لهم الله فيما يتعلق بحقوقه سبحانه فقدم عفوه ﷺ أولاً لأنـــهم بعفوه عنـــهم صاروا أهلاً لمغفرة الله ، فسقطت التبعة فيما بينـــهم وبين النبي ثم بينـــهم وبين الله تعالى فعندئذ صاروا أهلاً للمشورة فقال: **{وشاورهم في الأمر}** .

قال صاحب التحرير والتنوير: "وتقديم الجار والمجرور مفيد للحصر الإضافي أي برحمة من الله لا بغير ذلك من أحوالهم وهذا القصر مفيد التعريض بأن أحوالهم كانت مستوجبة الغلظ عليهم، ولكن الله ألان خلق رسوله رحمة بـــهم، لحكمة يعلمها الله في سياسة هذه الأمة . وزيدت ما بعد باء الجر لتأكيد الجملة بما فيها من القصر ، فتعين بزيادتـــها كون التقديم للحصر ، لا لمجرد الاهتمام" .[1]

﴿ لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُواوَقَتْلَهُمُ الأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴾ (آل عمران:١٨١).

بدأ الله تعالى بذكر أفظع جرائمهم وأقبح ذنوبـــهم وهو اجتراؤهم على الخالق حيث قالوا:**{إن الله فقير}** ثم أتبعه الاجتراء على أشرف الخلائق فقال:**{وقتلهم الأنبياء}** .

﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لأُولِي الأَلْبَابِ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَى جُنُوبِـــهِمْ﴾(آل عمران:١٩٠،١٩١)

إذا فسر الذكر هنا بالصلاة فالترتيب هنا يتعلق بحكم فقهي من أحكام الصلاة أي يصلون في حال القيام ، فإن عجزوا ففي حال القعود ، فإن لم يُستَطع فعلى جنب ، ويؤيد ذلك ما رواه البخاري والترمذي من حديث

---

(١) التحرير ج٤ ص١٤٤.

عمران بن الحصين ﷺ قال: كانت بي بواسير فسألت النبي ﷺ عن الصلاة فقال:قال له:{**صل قائماً فإن لم تستطع فقاعداً فإن لم تستطع فعلى جنب**}[1]

أقول :والآية تشمل أيضاً الذكر باللسان ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ **فَإِذَا قَضَيْتُمُ الصَّلاةَ فَاذْكُرُوا اللَّهَ قِيَاماً وَقُعُوداً** ﴾ (النساء:١٠٣) وقد سبقت الإشارة في تقدم الليل على النهار في سورة البقرة .

﴿ **فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأُوذُوا فِي سَبِيلِي وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ثَوَاباً مِّنْ عِندِ اللَّهِ وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ** ﴾ (آل عمران:١٥٩).

تقدم قوله: { **قاتلوا**} على قوله: { **قُتلوا** }وهذا التقديم للسببية لأن القتال سبب للقتل .

أقول: ربما أن ذلك التقديم للتفضيل لأن ثواب المقتول في سبيل الله أعظم عند الله من ثواب القاتل وأما على قراءة حمزة بعكس الترتيب في اللفظ { **وقتلوا وقاتلوا**}فهنا يكون التقديم زمانياً لأن المسلمين قوتلوا أولاً من الكفار في مكة قبل الهجرة في مرحلة الاستضعاف وقتل بعضهم في التعذيب، ثم كان القتال من المسلمين في المدينة رداً على قتال الكفار من قبل ومما يؤيد رأينا هذا هو قوله تعالى :﴿ **أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ** ﴾ (الحج:٣٩) .

---

(١) صحيح البخاري كتاب الجمعة رقم{ ١٠٥٠}، سنن الترمذي ، كتاب الصلاة.

سورة النساء

لما جاءت سورة آل عمران داعية إلى التوحيد وآمرة المؤمنين بموالاة بعضهم بعضاً وتذكيرهم بنعمة الله عليهم ﴿ **وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا** ﴾ (آل عمران:١٠٣) والتذكير بخيرية هذه الأمة ﴿ **كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ** ﴾ (آل عمران:١١٠) والأمر بالنفقة مما يُحَب ﴿ **لَن تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ** ﴾ (آل عمران:٩٢) جاءت سورة النساء لبيان مقاطع الحقوق بين المسلمين وبيان تحريم الاعتداء على أموال الآخرين مبتدئة باليتامى ﴿ **وَآتُوا الْيَتَامَى أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَتَبَدَّلُوا الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ** ﴾ (النساء:٢) ثم الأمر بإعطاء النساء مهورهن وعدم أخذ شيء منه بغير طيب نفس منهن ﴿ **وَآتُوا النِّسَاءَ صَدُقَاتِهِنَّ نِحْلَةً فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَيْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيئًا مَّرِيئًا** ﴾ (النساء:٤) ثم آيات المواريث وإعطاء كل ذي حق حقه والأمر بتنفيذ الوصايا وإرجاع الدين لأصحابه ثم النهي عن الاعتداء على أموال الزوجة، ثم بعد ذلك تحدثت السورة عن المنافقين فجاء ترتيب السورة على أحسن وجه حيث تحدثت البقرة عن المؤمنين ثم الكفار ثم اليهود وتحدثت آل عمران عن النصارى وتحدثت النساء عن المنافقين فجمعت السور الثلاث كل الطوائف.

﴿ **مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ** ﴾ (النساء:٣) التقدم هنا بالذات ومنه قوله تعالى: ﴿ **مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ** ﴾ (المجادلة:٧) .

قال صاحب الطراز: "وهكذا القول في مراتب الأعداد كلها، فإن كل واحدة منها سابقة على ما بعدها من المراتب سبقاً ذاتياً ".[١]

﴿ **وَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَن كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ** ﴾ (النساء:٦).

---

(١) الطراز ص٢٣١.

تقدم الأمر للأغنياء قبل الفقراء إما أنه يكون للكثرة لأن أكثر من يتكفل الأيتام منـــهم ،أو لأن ذنب أكل مال اليتيم من قبل الغني أعظم ذنباً من أكله من قبل الفقير.

﴿ **وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُوا الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينُ** ﴾(النساء:٨) قدم المفعول به - القسمة على الفاعل - أولو القربى وما عطف عليه ، لأن القسمة هي المبحوث عنه ومتعلق الحكم بـــها ، وقدم اليتامى على المساكين لشدة ضعفهم وحاجتـــهم.

﴿ **يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الأُنثَيَيْنِ فَإِن كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ وَإِن كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ وَلأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْـــهُمَا السُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِن كَانَ لَهُ وَلَدٌ فَإِن لَّمْ يَكُن لَّهُ وَلَدٌ وَوَرِثَهُ أَبَوَاهُ فَلأُمِّهِ الثُّلُثُ فَإِن كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلأُمِّهِ السُّدُسُ مِن بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِـــهَا أَوْ دَيْنٍ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ لا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعاً فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيماً حَكِيماً ۝ وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّهُنَّ وَلَدٌ فَإِن كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمُ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْنَ مِن بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِينَ بِـــهَا أَوْ دَيْنٍ وَلَهُنَّ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْتُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّكُمْ وَلَدٌ فَإِن كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ الثُّمُنُ مِمَّا تَرَكْتُم مِّن بَعْدِ وَصِيَّةٍ تُوصُونَ بِـــهَا أَوْ دَيْنٍ وَإِن كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلالَةً أَو امْرَأَةٌ وَلَهُ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ فَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْـــهُمَا السُّدُسُ فَإِن كَانُوا أَكْثَرَ مِن ذَلِكَ فَهُمْ شُرَكَاءُ فِي الثُّلُثِ مِن بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصَى بِـــهَا أَوْ دَيْنٍ غَيْرَ مُضَارٍّ وَصِيَّةً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ** ﴾(النساء:١١،١٢).

قال الفخر الرازي: " المسألة الثانية: روي عن علي بن أبي طالب ﷺ أنه قال : إنكم لتقرؤون الوصية قبل الدين ، وإن الرسول ﷺ قضى بالدين قبل الوصية . واعلم أن مراده ﷺ التقديم في الذكر واللفظ ، وليس مراده أن الآية تقتضي تقديم الوصية على الدين في الحكم لأن كلمة أو لا تفيد الترتيب البتة .

واعلم أن الحكمة في تقديم الوصية على الدين في اللفظ من وجهين : الأول : أن الوصية مال يؤخذ بغير عوض فكان إخراجها شاقاً على الورثة ، فكان أداؤها مظنة التفريط بخلاف الدين ، فإن نفوس الورثة مطمئنة إلى أدائه،

فلهذا السبب قدم الله ذكر الوصية على ذكر الدين في اللفظ بعثاً على أدائها وترغيباً في إخراجها". [1]

وللألوسي كلام حسن عن التقديم والتأخير في هذه الآيات يقول : " ثم اعلم أن الله سبحانه أورد أقسام الورثة في هذه الآيات على أحسن الترتيبات ، وذلك أن الوارث إما أن يتصل بالميت بنفسه من غير واسطة أو يتصل به بواسطة فإن اتصل بغير واسطة فسبب الاتصال إما أن يكون النسب أو الزوجية ، فحصل هنا ثلاثة أقسام أشرفها وأعلاها الاتصال الحاصل ابتداء من جهة النسب ، وذلك هو قرابة الولادة ويدخل فيها الأولاد والوالدان ، وثانيها الاتصال الحاصل ابتداء من جهة الزوجية وهذا القسم متأخر في الشرف عن القسم الأول لأن الأول ذاتي والثاني عرضي ، والذاتي أشرف من العرضي ، وثالثها الاتصال الحاصل بواسطة الغير وهو المسمى بالكلالة ، وهذا القسم متأخر عن القسمين الأولين لوجوه : أحدها أن الأولاد والوالدين والأزواج والزوجات لا يعرض لهم السقوط بالكلية ، وأما الكلالة فقد يعرض لها السقوط بالكلية ، وثانيها أن القسمين الأولين ينتسب كل واحد منهما إلى الميت بغير واسطة ، والثابت ابتداءً أشرف من الثابت بواسطة ، وثالثها أن مخالطة الإنسان بالوالدين والأولاد والأزواج والزوجات أكثر وأتم من مخالطته بالكلالة وكثرة المخالطة مظنة الألفة والشفقة وذلك يوجب شدة الاهتمام بأحوالهم ، فلهذه الأسباب وأشباهها أخر الله سبحانه ذكر ميراث الكلالة عن ذكر القسمين الأولين فما أحسن هذا الترتيب ". [2]

قال القرطبي : " إن قيل ما الحكمة في تقديم ذكر الوصية على ذكر الدين ، والدين مقدم عليها بإجماع ، وقد روى الترمذي عن الحارث عن علي ﷺ أن النبي ﷺ قضى بالدين قبل الوصية وأنتم تقرأون الوصية قبل الدين قال: والعمل على هذا عند عامة أهل العلم أنه يبدأ بالدين قبل الوصية ، وروى الدارقطني من حديث عاصم بن ضمرة عن علي ﷺ قال : قال رسول الله : {**الدين قبل الوصية وليس لوارث وصية**} رواه عنهما أبو إسحاق الهمداني .

---

(١) مفاتيح الغيب ج٩ ص٢٢٤.

(٢) روح المعاني ج٣ ص٢٣٣.

فالجواب من أوجه خمسة :

- **الأول** : إنما قصد تقديم هذين الفصلين على الميراث و لم يقصد ترتيبـــهما في أنفسهما ، فلذلك تقدمت الوصية في اللفظ.
- **الثاني** : لما كانت الوصية أقل لزوماً من الدين قدمها اهتماماً بـــها كما قال تعالى : **{ لا يغادر صغيرة ولا كبيرة }**
- **الثالث** : قدمها لكثرة وجودها ووقوعها فصارت كاللازم لكل ميت مع نص الشرع عليها وأخر الدين لشذوذه، فإنه قد يكون وقد لا يكون فبدأ بذكر الذي لابد منه وعطف بالذي يقع أحياناً ويقوي هذا العطف بأو ولو كان الدين راتباً لكان العطف بالواو.
- **الرابع** : إنما قدمت الوصية إذ هي حظ مساكين وضعفاء ، وأخر الدين إذ هو حظ غريم يطلبه بقوة وسلطان وله فيه مقال .
- **الخامس** : لما كانت الوصية ينشئها من قبل نفسه قدمها والدين ثابت مؤدى ذكره أو لم يذكره". [1]

وذكر الزركشي عن السهيلي وجهين للتقديم :

- **أحدهما** : أنـــها قربة إلى الله تعالى بخلاف الدين الذي تعوذ الرسل منه فبدئ بـــها للفضل .
- **الثاني** : أن الوصية للميت والدين لغيره ، ونفسك قبل غيرك، تقول هذا لي وهذا لغيري ولا تقول في فصيح الكلام هذا لغيري وهذا لي .

﴿ أُولَٰئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾(النساء:١٨) .

قدم الجار والمجرور على المفعول به لإظهار الاعتناء بأن العذاب مهيئاً لهم، ففيه من التهديد والتخويف ما لا يوجد لو أخر عنه .

يقول الزمخشري: "فإن قلت : فهلا قيل : للأنثيين مثل حظ الذكر أو للأنثى نصف حظ الذكر، قلت: ليبدأ ببيان حظ الذكر لفضله، كما ضوعف حظه لذلك ولأن قوله: **{للذكر مثل حظ الأنثيين}** قصد إلى بيان فضل

---

(١) روح المعاني ج٣ ص٢٣٣.

الذكر ، وقولك: للأنثيين مثل حظ الذكر، قصد إلى بيان نقص الأنثى. وما كان قصداً إلى بيان فضله، كان أدل على فضله من القصد إلى بيان نقص غيره عنه ولأنــهم كانوا يورثون الذكور دون الإناث" .[1]

ويرد على ذلك بأن الله تعالى قد ذكر المرأة و لم يذكر الرجل في نفس الآية لحالتين أخريين من حالات الميراث:﴿ **فَإِن لَّمْ يَكُن لَّهُ وَلَدٌ وَوَرِثَهُ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ الثُّلُثُ فَإِن كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ السُّدُسُ** ﴾ (النساء:١١) فبدأ بالأم ، وعُرِف نصيب الأب بدلالة التضمن بعد معرفة نصيب الأم، وقد بدئ هنا أيضاً بحق الزوجة على حق الوالدين مع أن حق الوالدين أعظم وأشرف من حق الزوجة، فما هو السبب في ذلك ؟ هنا يجيب صاحب المنار جواباً شافياً كافياً فيقول: "ومن الاعتبار في هذا أن الحقوق الزوجية مقدمة في الإرث على حقوق الوالدين فإن الوالدين إنما يتقاسمان ما يبقى بعد أخذ الزوج حصته ثم يذكر صاحب المنار قول من قال بأن هذا التقديم من باب تقديم الوصية مفنداً هذا الرأي بما لا يمكن مدافعته بقوله: " لو كان ذلك لاطرد تقديم فرض الزوج مع الأولاد والإخوة ، فقدم كالوصية وقسم الباقي بين الأولاد أو الإخوة ، وليس الأمر كذلك، وإنما وجهه عندي أن حق الأزواج في الأموال والنفقات آكد من حق الوالدين ، وإن كانا أشرف وأجدر من حق الزوج بالاحترام ، ذلك أن الوالدين يكونان عند زواج الولد عريقين في الاستقلال بأنفسهما في المعيشة من جهة ، وأقل حاجة إلى المال من الأولاد ..أما الزوجان فإنــهما يعيشان مجتمعين كل منــهمامتمم لوجود الآخر حتى كأنه نصف ماهيته..ولهذا تقرر في الشريعة أن يكون حق المرأة على الرجل في النفقة هو الحق الأول".[2]

﴿ **مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصَى بِــهَا** ﴾ (النساء:١٢)

قال الزمخشري: "فإن قلت : لم قدمت الوصية على الدين والدين مقدم عليها في الشريعة ؟ قلت: لما كانت الوصية مشبهة للميراث في كونــها مأخوذة من غير عوض ، كان إخراجها مما يشق على الورثة ويتعاظمهم

(١) القرطبي ج٥ ص٤٩ ، ٥٠.   (٢) تفسير المنار ج٤ ص٤١٨، ٤١٩ .

ولا تطيب أنفسهم بـــها ، فكان أداؤها مظنة للتفريط ، بخلاف الدين فإن نفوسهم مطمئنة إلى أدائه ، فلذلك قدمت على الدين بعثاً على وجوبـــهما والمسارعة إلى إخراجها مع الدين ، ولذلك جيء بكلمة أو للتسوية بينـــهم في الوجوب" .[1]

وقد استدل بتقديم الوصية في الذكر في هذه الآية من قال بتقديمها على الدين في التركة وأجاب من أخرها بأنـــها قدمت لئلا يتهاون بـــها.

وقد نقل القاسمي عن الحافظ ابن كثير إجماع أهل العلم من السلف والخلف على أن الدين مقدم على الوصية" [2]

وقد ذهب جماهير المفسرين والفقهاء وعلماء القرآن إلى أن الذكر أفضل من الأنثى لأن التقديم للتفضيل ويستدلون أيضاً بقوله تعالى :

﴿ **وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَالِيَ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالأَقْرَبُونَ** ﴾ (النساء:٣٣) .

في الآية تقديم وتأخير والتقدير ولكل شيء مما ترك الوالدان والأقربون جعلنا موالي أي: ورثة ، وفائدة التقديم الاهتمام ببيان أحكام المواريث وأن إعطاءهم إنما هو بشرع الله الذي يجب أن يتبع فلا يتهاون فيه .

أقول: ما ذكره العلماء من أن تقديم الذكر على الأنثى في هذه الآية لأن الذكر أفضل غير مُسَلم له على علاته ، فهو تفضيل غير مطلق بل مقيد وأنا أنقل أولاً ما ذكره صاحب المنار نقلاً عن الشيخ محمد عبده في قوله تعالى: { **للذكر مثل حظ الأنثيين** } قال الأستاذ الإمام : " جملة مفسرة لا محل لها من إعراب واختير لها هذا التعبير للإشعار بإبطال ما كانت عليه الجاهلية من منع توريث النساء كما تقدم ، فكأنه جعل إرث الأنثى مقرراً معروفاً وأخبر أن للذكر مثله مرتين أو جعله هو الأصل في التشريع وجعل إرث الذكر محمولاً عليه ، يعرف بالإضافة إليه ، ولولا ذلك لقال للأنثى مثل حظ الذكر، وإذاً لا يفيد هذا المعنى ولا يلتئم السياق بعده كما ترى ، أقول : - والكلام لصاحب المنار - ويؤيد هذا ما تلاه في بقية الفرائض في الآيتين من تقديم بيان ما للإناث بالمنطوق الصريح مطلقاً، أو مع مقابلته بما للذكور كما ترى في فرائض الوالدين والأخوات والأخوة ". [3]

---

(١) الكشاف ج١ ص٤٧٣،٤٧٤. (٢) القاسمي ج٣ ص٤١. (٣) المنار ج٤ ص٤٠٦.

بعض أحكام الميراث من خلال الأمثلة التالية :

١- إذا ترك الميت أولاداً وأباً وأماً ورث كل من أبويه سدس التركة دون تفريق بين ذكورة الأب وأنوثة الأم ودون وجود أي سلطان للدستور الوهمي المطلق :

{للذكر مثل حظ الأنثيين} وذلك عملاً بقوله تعالى: **{ولأبويه لكل واحد منــهما السدس}**

٢- إذا ترك الميت أخاً لأمه وأختاً لأمه، ولم يكن ثمة من يحجبــهما من الميراث، فإن كلاً من الأخ والأخت يرث السدس، دون أي فرق بين الذكر والأنثى ودون نظر إلى **{للذكر مثل حظ الأنثيين}** وذلك عملاً بقوله تعالى:**{وله أخ أو أخت فلكل واحد منــهما السدس }**

٣- إذا ترك الميت عدداً من الاخوة للأم ، اثنين فصاعداً ، وعدداً من الأخوات للأم ، اثنتين فصاعدا، فإن الإخوة يرثون الثلث مشاركة، والأخوات أيضاً يرثون الثلث مشاركة، دون تفريق بين الإناث والذكور، ودون نظر إلى ما يظن بعضهم أنه دستور وقانون مطلق ، وهو**{للذكر مثل حظ الأنثيين}**وذلك بموجب قوله عز وجل:**{فإن كانوا أكثر من ذلك فهم شركاء في الثلث}** .

٤- إذا تركت المرأة المتوفاة زوجها وابنتها ، فإن ابنتها ترث النصف ويرث والدها الذي هو زوج المتوفاة الربع . أي أن الأنثى هنا ترث ضعف ما يرثه الذكر.

٥- إذا ترك الميت زوجة وابنتين وأخاً له، فإن الزوجة ترث ثمن المال وترث الابنتان الثلثين، مما بقي فهو لعمهما ، وهو شقيق الميت وبذلك يرث كل من البنتين أكثر من عمهما .

مما سبق يظهر جلياً أن الذكورة والأنوثة لا مدخل لهما، من حيث ذاتــهما ، في تفاوت الأنصباء، ولو كان الأمر كذلك لاطرد الحكم، ولكان نصيب كل ذكر من الوارثين ضعف نصيب كل أنثى من الوارثات .

فالحكم يدور حول محور آخر، وهو مدى حاجة الوارث ، ونوع العلاقة السارية بينه وبين مورثه .

وأرى أن سر التقديم في هذه الآية يرجع إلى ما قاله: صاحب التحرير والتنويرعن قوله تعالى: {**للذكر مثل حظ الأنثيين**} جعل حظ الأنثيين هو المقدار الذي يقدر به حظ الذكر، و لم يكن قد تقدم تعيين حظ للأنثيين حتى يقدر به ، فعلم أن المراد تضعيف حظ الذكر من الأولاد على حظ الأنثى منـــهم ، وقد كان هذا المراد صالحاً لأن يؤدى بنحو : للأنثى نصف حظ ذكر أو للأنثيين مثل حظ ذكر، إذ ليس المقصود إلا بيان المضاعفة . ولكن قد أوثر هذا التعبير لنكت لطيفة وهي الإيماء إلى أن حظ الأنثى صار في اعتبار الشرع أهم من حظ الذكر، إذ كانت مهضومة الجانب عند أهل الجاهلية فصار الإسلام ينادي بحظها في أول ما يقرع الأسماع قد علم أن قسمة المال تكون باعتبار عدد البنين والبنات "[1]

أما الاستدلال بآية القوامة فمن خير من تكلم فيها فيما قرأت الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي قال: " فالقوامة على الأسرة في نظام الإسلام وشرعه ، قوامة رعاية وإدارة ، وليست قوامة هيمنة وتسلط .. ثم هي ليست عنواناً على أفضلية ذاتية عند الله عز وجل ، يتميز بـــها الأمير أو المدير ، وإنما ينبغي أن تكون عنواناً على كفاءة يتمتع بـــها القائم بأعباء هذه المسئولية .

ثانياً : لك أن تقول : فإذا كان الأمر كذلك ، فلماذا جعل الشارع القوامة ، أي إدارة شئون الأسرة سلفاً بيد الرجال ، وهلا ترك الأمر إلى أعضاء الأسرة يتخيرون لهذه المهمة من يشاءون ؟ ..ثم لماذا برر هذا الاختيار بقوله : { **بما فضل الله بعضهم على بعض** } وهو يكاد يكون نصاً على أفضلية الرجال على النساء من حيث الذات ، بقطع النظر عن العوارض ؟

والجواب: أن فهم الأفضلية الذاتية للرجال على النساء ، مما يتناقض بشكل حاد مع صريح كتاب الله تعالى في نصوص كثيرة منه فالله عز وجل يقرر ويؤكد أن النساء والرجال متساوون في ميزان القرب من الله ، وإنما يتفاوت بين ذلك في درجاتـــهم في ذلك تفاوت أعمالهم الصالحة التي يقومون بـــها ابتغاء مرضاة الله عز وجل .

---

(١) التحرير ج٤ ص٢٥٧.

فهو عز وجل يقول :﴿ **اسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّـهم أَنِّي لاَ أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى بَعْضُكُم مِّنْ بَعْضٍ**﴾ (آل عمران:١٩٥) .

ويقول أيضاً :﴿ **مَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّـهم أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ**﴾ (النحل:٩٧) أقول: وفي آية الميراث تقدم الإيصاء بالأولاد لضعفهم إذ كانوا صغاراً، ولما كان الوالد أقرب الناس إلى الولد وأحقهم بصلته وأشدهم اتصالاً به أتبعه حكمه فقال {ولأبويه} .

ويقول عز وجل:﴿ **وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ من ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَئِكَ يَدْخُلُونَ الجَنَّةَ وَلاَ يُظْلَمُونَ نَقِيراً**﴾ (النساء:١٢٤)، ويقول في تفصيل وبيان لا يقبل الريب:﴿**إِنَّ المُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيراً وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْراً عَظِيماً** ﴾ (الأحزاب:٣٥) فقد أسقط قرار الله عز وجل فوارق الذكورة والأنوثة واختلاف الأقوام والقبائل وتمايز ما بين الشعوب المتنوعة ، عن الاعتبار في ميزان القرب إلى الله أو البعد عنه ، بعبارة محددة حاسمة ، بعد أن أثبت هذه الحقيقة ذاتـها بأساليب متنوعة شتى في الآيات السابقة .

فهل من الممكن بعد هذا ، تفسير الأفضلية في قوله عز وجل ، في آية القوامة {**بما فضل الله بعضهم على بعض**} بأفضلية الرجل من حيث إنه رجل على المرأة من حيث إنـها امرأة ؟ بل هل يتسنى ، حتى مع شيء من التمحل، الجنوح إلى هذا التفسير الذي تقف منه هذه النصوص القرآنية التي أوردناها ، موقف النقيض من النقيض ؟

إن قرار كتاب الله تعالى ، يحيل هذا التصور إلى وهم باطل ، ويطرده من مجال أي فهم صحيح للمعنى المراد من هذه الجملة في آية القوامة .

إذن،فما المعنى من قوله عز وجل :﴿ **بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ** ﴾ (النساء:٣٤) .

نقول بكلمة جامعة وجيزة : {**إنـها أفضلية التناسب المصلحي مع الوظيفة التي يجب النهوض بأعبائها**}.[1]

---

(١) المرأة بين طغيان النظام الغربي ولطائف التشريع الرباني ١٩٩٦ص٩٩ ، ١٠٠.

وتحت عنوان المرأة ارتقاء في خلق الله قال العلامة الشعراوي : "عمل الرجل هو التعامل مع أجناس الحياة ، فهو يمكن أن يكون زارعاً يتعامل مع الأرض ، وما إلى ذلك من أشياء أخرى ، وهذه الأشياء كلها لخدمة الإنسان، والإنسان أرفع هذه الأجناس كلها .

ومهمة المرأة هي التعامل مع ذلك الجنس الراقي وهو الإنسان كزوج ، وكجنين،كجنين في بطنها، وكوليد تحمله وتعطي له المثل والتربية إذاً..فالرجل يتعامل مع الأشياء التي دون الإنسان ،والمرأة تعاملها الأساسي هو مع الإنسان، وحين ننظر إلى طفولات الحيوانات نجدها كلها قليلة ، وأطول طفولة هي الإنسان .. الطفولة هذه هي ميدان عمل المرأة ، وما دامت الطفولة زادت فهي تزيد بقدر المهمة .

والحيوانات الأخرى مهمتها دون مهمة الإنسان ، وطفولة الإنسان تتناسب مع مهمته ، لأن همته عالية ، فهو أرفع الأجناس على الأرض ليستطيع أن يمد بكل المبادئ ، والقيم والأشياء التي تعينه على هذه المهمة " .[1]

قال صاحب المنار في تفسيره لقوله تعالى :﴿ **فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لاَ أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى** ﴾(آل عمران:١٩٥) ، وذكر أن الذكر والأنثى متساويان عند الله تعالى في الجزاء متى تساويا في العمل حتى لا يغتر الرجل بقوته ورياسته على المرأة فيظن أنه أقرب إلى الله منها ولا تسيء المرأة الظن بنفسها فتتوهم أن جعل الرجل رئيساً عليها يقتضي أن يكون أرفع منزلة عند الله منها ، وقد بين تعالى هذه المساواة بقوله :{ **بعضكم من بعض** } فالرجل مولود من المرأة والمرأة مولودة من الرجل فلا فرق بينهما في البشرية ولا تفاضل بينهما إلا بالأعمال ، أي وما تترتب عليه الأعمال ويترتب عليها هو من العلوم والأخلاق أقول: - الكلام لصاحب المنار- وفيه وجه آخر ، وهو أن كلاً منهما صنو وزوج وشقيق للآخر، وفي معنى ذلك حديث {**النساء شقائق الرجال**} قالوا أي مثلهم في الطباع والأخلاق كأنهن مشتقات منهم ، أو لأنهن معهم من أصل واحد ووجه ثالث

---

(١) مكانة المرأة في الإسلام ، ص٢٧،٢٨.

أنه بمعنى حديث {**سلمان منا**} وحديث {**ليس منا من دعا إلى عصبية**} فمعنى {**منا**} على طريقتنا وما نحن عليه لا فرق بيننا وبينه، وهذه الآية ترفع قدر النساء المسلمات في أنفسهن عند الرجال المسلمين.[١]

وأقول لمن يقول بتفضيل الرجل على المرأة : ما قولكم في حديث النبي ﷺ الذي رواه البخاري ومسلم في صحيحهما عن أبي هريرة ﷺ أن رجلا سأل النبي ﷺ {**من أحق الناس بحسن صحابتي ؟ قال: أمك قال : ثم من ؟ قال:أمك قال:ثم من ؟ قال : أمك قال ثم من ؟ قال: أبوك**} [٢]

وما قولهم في قياس الفقهاء أمر الممات على أمر الحياة في مسألة إيصال الخير للوالدين كالحج عنهما حيث يقولون يبدأ بالأم قبل الأب مستدلين بالحديث السابق ؟

وقد تقدم ذكر الإناث على الذكور في قوله تعالى:﴿ **يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَاثاً وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذُّكُورَ** ﴾ (الشورى:٤٩) ولا يسلم لقول الزركشي في **هذه الآية**: بأنها لجبرهن،إذ هن موضع الانكسار، ولهذا جبر الذكر بالتعريف بالإشارة إلى ما فاتهم من فضيلة التقديم . وأي انكسار هذا الذي **يعنيه** ؟

وأقول: التقديم هنا قد يكون لكثرة الإناث عن الذكور، إما بالولادة، وإما لأن الموت أسبق وأكثر في الرجال من الإناث ،وقد يستدل لذلك بحديث النبي ﷺ عن أنس بن مالك ﷺ قال : ألا أحدثكم حديثاً سمعته من رسول الله ﷺ لا يحدثكم به أحد بعدي سمعته منه {**إن من أشراط الساعة أن يرفع العلم ويظهر الجهل ويفشو الزنى ويُشرب الخمر ويذهب الرجال ويبقى النساء حتى يكون لخمسين امرأة قيم واحد**} [٣]

وقريباً مما ذكرته قول العلامة الشعراوي: في قوله تعالى:﴿ **وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً** ﴾(النساء:١) واكتفى بأن يقول {**نساء**} ولم يقل كثيرات لماذا؟ لأن المفروض في كل ذكورة أن تكون أقل في العدد من الأنوثة ، وأنت

---

(١) المنار ج٤ ص ٣٠٧.

(٢) صحيح البخاري كتاب الأدب رقم { ٥٥١٤ } صحيح مسلم كتاب البر والصلة رقم { ٤٦٢١ }.

(٣) سنن ابن ماجه ، باب الفتن حديث رقم ٤٠٤٥.

إذا نظرت مثلاً في حقل فيه نخل ، تجد كم ذكراً وكم أنثى ؟ ستجد ذكراً أو اثنين .

إذن القلة في الذكورة مقصودة ، لأن الذكر مخصب ويستطيع الذكر أن يخصب آلافاً فإذا قال الله : **{ وبث منـــهما رجالاً كثيرا}** فالذكورة هي العنصر الذي يفترض أن يكون أقل كثيرا،فماذا عن العنصر الثاني وهو الأنوثة؟ لابد أن يكون أكثر. [١]

وأما قوله : ويحتمل أن تقديم الإناث لأن المقصود بيان أن الخلق كله بمشيئة الله تعالى لا على وفق أغراض العباد .

فأقول: هذا مما يستوي فيه التقديم والتأخير فليس لتقديمهم ميزة على هذا الاحتمال إذ يؤدي قوله: **{ يهب لمن يشاء ذكوراً ويهب لمن يشاء الإناث }** نفس المعنى.

وهناك احتمال آخر: أن الآية تخاطب هؤلاء الذين يكرهون البنات من الجاهليين الذين قال الله فيهم:**﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالأُنثَى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدّاً وَهُوَ كَظِيمٌ، يَتَوَارَى مِنَ القَوْمِ مِن سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَى هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلاَ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾** (النحل:٥٨،٥٩) قال القاسمي: "وحكي أن عمرو بن العاص دخل على معاوية وعنده ابنته فقال : من هذه يا معاوية ؟ فقال : هذه تفاحة القلب وريحانة العين وشمامة الأنف فقال أمطها عنك قال ولم؟ قال : لأنـــهن يلدن الأعداء ويؤثرن الشحناء ويثرن البغضاء قال لا تقل ذلك يا عمرو فو الله ما مرض المرضى ولا ندب الموتى ولا أعان على الزمان ولا أذهب جيش الأحزان مثلهن وإنك لواجد خالاً قد نفعه بنو أخته وأباً قد رفعه نسل بنيه فقال : يا معاوية دخلت عليك وما على الأرض شيء أبغض إلي منهن وإني لأخرج من عندك وما عليها شيء أحب إليّ منهن .

وفي رقعة للصاحب بالتهنئة بالبنت : أهلاً وسهلاً بعقيلة النساء وأم الأبناء وجالبة الأصهار والأولاد الأطهار والمبشرة بإخوة يتناسقون ونجباء يتلاحقون .

---

(١) الشعراوي ج٤ ص١٩٨٩ ميلادية.

فلو كـــان النِّساءُ كمنْ ولـــْدنَ لفُضِّلت النِّساءُ على الرِّجـــال
وما التأنيثُ لاسمِ الشمسِ عيبٌ ومـــــا التَّذكيرُ فخرٌ للهـــلالِ

والله تعالى يعرفك البركة في مطلعها والسعادة بموقعها فادّرع اغتباطاً واستأنف نشاطاً، فالدنيا مؤنثة والرجال يخمونـــها والذكور يعبدونـــها والأرض مؤنثة ومنها خلقت البرية وفيها كثرت الذرية والسماء مؤنثة وقد زينت بالكواكب وحيلت بالنجم الثاقب والنفس مؤنثة وهي قوام الأبدان وملاك الحيوان والحياة مؤنثة ولولاها لم تتصرف الأجسام ولا عرف الأنام والجنة مؤنثة وبـــها وعد المتقون وفيها يتنعم المرسلون فهنيئاً لك هنيئاً بما أوتيت وأوزعك الله شكر ما أعطيت .

ونسختُ رقعة لأبي الفرج الببغاء: اتصل خبر المولودة المسعودة كرم الله عرقها وأنبتها نباتاً حسناً وما كان منك عند تغير الخبر وإنكارك ما اختاره الله لك في سابق القدر ، وقد علمت أنـــهن أقرب من القلوب ، وأن الله بدأ بـــهن في الترتيب فقال عز من قائل: **{ يهب لمن يشاء إناثاً ويهب لمن يشاء الذكور}** وما سماه الله تعالى هبة فهو بالشكر أولى وبحسن التقبل أحرى فهنأك الله بورود الكريمة عليك وثمرتـــها إعداد النسل الطيب لديك ".[1]

﴿ وَلاَ تَنكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُم مِّنَ النِّسَاءِ إِلاَّ مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَمَقْتاً وَسَاءَ سَبِيلا ۝ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ وَعَمَّاتُكُمْ وَخَالاَتُكُمْ وَبَنَاتُ الأَخِ وَبَنَاتُ الأُخْتِ وَأُمَّهَاتُكُمُ اللاَّتِي أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَاتُكُم مِّنَ الرَّضَاعَةِ وَأُمَّهَاتُ نِسَآئِكُمْ وَرَبَائِبُكُمُ اللاَّتِي فِي حُجُورِكُم مِّن نِّسَآئِكُمُ اللاَّتِي دَخَلْتُم بِهِنَّ فَإِن لَّمْ تَكُونُوا دَخَلْتُم بِهِنَّ فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلاَئِلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلاَبِكُمْ وَأَن تَجْمَعُواْ بَيْنَ الأُخْتَيْنِ إَلاَّ مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّ اللّهَ كَانَ غَفُوراً رَّحِيماً ۝ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ إِلاَّ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ﴾ (النساء:٢٢:٢٤)

التقديم والتأخير في هذه الآية جاء مرتباً على الأعظم حرمة من الرجل فبدأ بالأقرب فالأقرب .

قال البقاعي: " ولما ابتدأ بتعظيم الآباء واحترامهم في أن ينكح الأبناء أزواجهم على العموم ثنى بخصوص الأم بقوله: **{حرمت عليكم}**..

---

(١) القاسمي ج٩ ص ٤١٩ ، وسنان المذكورات للمحبي ، الجزء الثاني ص٢٤.

ولما انقضى أمر النسب وهو سبعة أصناف أتبعه أمر السبب وهو ثمانية: أوله أزواج الآباء، أفردها وقدمها تعظيماً لحرمتها لما كانوا استهانوا من ذلك ،وآخره المحصنات ، وبدأ من هذا القسم بالأم من الرضاع ،كما بدأ بالنسب من الأم فقال: { **وأمهاتكم اللاتي أرضعنكم** } تنـــزيلاً له منـــزلة النسب ، ولذلك سماها أماً ....ولما انقضى ما هو كلحمة النسب أتبعه أمر ما بالمصاهرة فقال{ **وأمهات نسائكم** } أي دخلتم بـــهن أو لا لما في ذلك من إفساد ذات البين غالباً ، {**وربائبكم**} وذكر سبب الحرمة فقال :{**اللاتي في حجوركم** } ..ولما أشعر هذا القيد بحل بنت من عقد عليها و لم يدخل بـــها أفصح به تنبيهاً على عظيم حرمة الإرضاع فقال : { **فإن لم تكونوا دخلتم بـــهن**} أي الأمهات{ **فلا جناح عليكم**} أي في نكاحهن ، ولما افتتح المحرمات على التأبيد بزوجة الأب ختمها بزوجة الولد فقال: { **وحلائل أبنائكم الذين من أصلابكم** } أي وإن سفلوا ..ولما انقضى التحريم المؤبد أتبعه المؤقت فقال { **وأن** } أي وحرم عليكم أن { **تجمعوا بين الأختين** }.[1]

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ إِلاَّ أَن تَكُونَ تِجَارَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ وَلاَ تَقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيماً ﴾(النساء:٢٩)

تقدم النهي عن أكل الأموال على النهي عن قتل النفس ، مع أن الثاني أخطر ، إما لأن مناسبة ما قبله أفضت إلى النهي ، حيث الأمر بإتيان النساء مهورهن أحراراً كانوا أو إماء ، فاستحق التقديم لذلك، وإما لأن المخاطبين كانوا قريبي عهد بالجاهلية ، وكان أكل الأموال أسهل عليهم ، وهم أشد استخفافاً به منـــهم بقتل الأنفس ، حيث كان يقع في مواقع الضعف حيث لا يدفع صاحبه عن نفسه كاليتيم والمرأة والزوجة فأكل أموال هؤلاء في مأمن من التبعات بخلاف قتل النفس فإن تبعاته لا يسلم منها أحد، وإن بلغ في الشجاعة والعزة في قومه كل مبلغ ، وكذلك أتبعه النهي عن قتل النفس من باب تقديم السبب على الفعل، لأن أكل المال بالباطل سبب في إثارة النفس والحمية دفاعاً عن المال مما يؤدي للقتال .

---

(١) نظم الدرر ص ٢٣٣.

﴿ وَلاَ تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبُوا لِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبْنَ ﴾(النساء:٣٢) تأخرت هذه الآية عن النهي عن أكل أموال الناس بالباطل مع أنـــها اسبق منها وجوداً فإن تمني مال الغير هو الدافع لأكل أموال الناس بالباطل ، وبدأ هنا بالنهي عن الفعل مع كونه متأخراً وجوداً لكونه أخطر وأقبح جرماً .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَقْرَبُوا الصَّلاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ وَلا جُنُباً إِلاَّ عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّى تَغْتَسِلُوا وَإِنْ كُنتُم مَّرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ الْغَائِطِ أَوْ لامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيداً طَيِّباً فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوّاً غَفُوراً﴾(النساء:٤٣).

قال الزمخشري: "فإن قلت : كيف نظم في سلك واحد بين المرضى والمسافرين والمحدثين والمجنبين ، والمرض والسفر سببان من أسباب الرخصة والحدث سبب لوجوب الوضوء والجنابة سبب لوجوب الغسل؟ قلت : أراد سبحانه أن يرخص للذين وجب عليهم التطهر وهم عادمون الماء في التيمم بالتراب فخص أول من بينـــهم مرضاهم وسفرهم لأنـــهم المتقدمون في بيان استحقاق الرخصة لهم بكثرة المرض والسفر وغلبتـــهما على سائر الأسباب الموجبة للرخصة ثم عم كل من وجب عليه التطهر وأعوزه الماء لخوف عدو أو سبع أو عدم آلة استقاء أو إرهاق في مكان لاماء فيه وغير ذلك بما لا يكثر كثرة المرض والسفر " .[1]

قال العلامة أبو السعود: "لعل تقديم الاستثناء على قوله **{حتى تغتسلوا}** للإيذان من أول الأمر بأن حكم النهي في هذه الصورة ليس على الإطلاق ، كما في صورة السكر ، تشويقاً إلى البيان وروماً لزيادة تقرره في الأذهان".[2]

وأقول: في هذه الآية أيضاً الترتيب بين الوجه واليدين في التيمم ، حيث قدم الوجه على اليدين وهذا ما فعله رسول الله ففي حديث عمار ﷺ قال:أجنبت فلم أصب الماء فتمعكت في الصعيد وصليت فذكرت ذلك للنبي ﷺ فقال: { **إنما كان يكفيك هكذا** } وضرب النبي بكفيه الأرض**{وتنفخ فيهما ثم مسح بـــهما وجهه وكفيه }**[3]

---

(١) الكشاف ج١ ص٥٠٥

(٢) تفسير أبي السعود أو إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، ج١ ص٢٤.

(٣) فقه السنة ص٧٩.

هذا الترتيب في التيمم نظير الترتيب في آية الوضوء في سورة المائدة وسوف نذكره في موضعه .

﴿ وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلاَ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً وَبِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَى وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنْبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللهَ لاَ يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالاً فَخُوراً ﴾ (النساء:٣٦).

قال صاحب التحرير والتنوير: والخطاب للمؤمنين ، ولذلك قدم الأمر بالعبادة على النهي عن الإشراك ، لأنـــهم قد تقرر نفي الشرك بينـــهم وأريد منـــهم دوام العبادة لله ، والاستزادة منها ، ونـــهوا عن الشرك تحذيراً مما كانوا عليه في الجاهلية . ومجموع الجملتين في قوة صيغة حصر ، إذ مفاده : اعبدوا الله ولا تعبدوا غيره فاشتمل على معنى نفي وإثبات . كأنه قيل : لا تعبدوا إلا الله . والعدول عن طريق القصر في مثل هذا طريقة عربية جاء عليها قول السموأل أو عبد الملك بن عبد الرحيم الحارثي :

تسيل على حد الظُبات نفوسُنا وليستْ على غيرِ الظُبات تسيلُ

وإنما يصار إليها عندما يكون الغرض الأول هو طرف الإثبات، ثم يقصد بعد ذلك نفي الحكم عما عدا المثبت له ، لأنه إذا جيء بالقصر، كان المقصد الأول هو نفي الحكم عما عدا المذكور وذلك غير مقتضى المقام هنا . ولأجل ذلك لما خوطب بنو إسرائيل بنظير هذه الآية خوطبوا بطريقة القصر في قوله : **{ وإذ أخذنا ميثاق بني إسرائيل لا تعبدون إلا الله وبالوالدين إحسانا}** الآية لأن المقصود الأول إيقاظهم إلى إبطال عبادة غير الله لأنـــهم قالوا لموسى **{اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة}** ولأنـــهم عبدوا العجل في مدة مناجاة موسى ربه ، فأخذ عليهم الميثاق بالنهي عن عباد غير الله ".[(١)]

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الأَمْرِ مِنكُمْ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ ﴾(النساء:٥٩) يقول الرازي: " اعلم أن هذه الآية آية شريفة مشتملة على أكثر علم أصول الفقه، وذلك لأن الفقهاء زعموا أن أصول الشريعة أربع : الكتاب والسنة والإجماع

---

(١) التحرير والتنوير جـ٥ ص٤٨.

والقياس، وهذه الآية مشتملة على تقرير هذه الأصول الأربعة بـــهذا الترتيب. أما الكتاب والسنة فقد وقعت الإشارة إليهما بقوله:{**أطيعوا الله وأطيعوا الرسول** } ...اعلم أن قوله: {**فإن تنازعتم في شيء فردوه إلى الله والرسول**} يدل عندنا على أن القياس حجة . .

المسألة الخامسة : هذه الآية دالة على أن الكتاب والسنة مقدمان على القياس مطلقاً فلا يجوز ترك العمل بـــهما بسبب القياس ،... الثاني :أنه تعالى أخر ذكر القياس عن ذكر الأصول الثلاثة ،وهذا مشعر بأن العمل به مؤخر عن الأصول الثلاثة.

الثالث : أنه ﷺ اعتبر هذا الترتيب في قصة معاذ حيث أخر الاجتهاد عن الكتاب ، وعلق جوازه على عدم وجدان الكتاب والسنة بقوله :

{ **فإن لم تجد** } والحديث الذي ذكره الرازي مختصراً أخرجه أحمد وأبو داود والترمذي وابن ماجه عن معاذ بن جبل رضي الله عنه حيث قال له النبي ﷺ حين بعثه إلى اليمن { **بم تحكم؟ قال بكتاب الله تعالى قال فإن لم تجد ؟ قال بسنة رسول الله ﷺ قال فإن لم تجد ؟ قال أجتهد رأيي فضرب في صدره وقال الحمد لله الذي وفق رسول رسول الله ﷺ لما يرضي رسول الله**} .[1]

وما ذكره الرازي في هذا الترتيب من حيث الحجية هو رأي العلماء كافة باستثناء النظامية والظاهرية في عدم اعترافهم بحجية القياس .

﴿ **مَن يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقاً** ﴾ (النساء:٦٩) التقديم في الآية للشرف ، فإن النبي أشرف من الصديق ، والشهيد أعلى درجة من غيره من أهل الصلاح.

﴿ **وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَسِيباً** ﴾(النساء:٨٦) هذا من باب تقديم الأفضل على المفضول ، فقد قدم رد التحية بأحسن منها على ردها بمثلها لأن الأول أفضل وأكرم وأولى بأهل الفضل والإحسان والثاني فعل أهل العدل والإنصاف .

---

(١) مفاتيح الغيب ج١٠ ص١٤٨-١٥٢ .

﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِناً إِلاَّ خَطَئاً وَمَن قَتَلَ مُؤْمِناً خَطَئاً فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ إِلاَّ أَن يَصَّدَّقُوا فَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ عَدُوٍّ لَّكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ فَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِّنَ اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيماً حَكِيماً ﴾ (النساء:٩٢) قال صاحب الغرائب: "وهاهنا سؤال وهو أنه لم قدم تحرير الرقبة على الدية في الآية الأولى وفي الأخيرة عكس الترتيب ؟ ويمكن أن يقال : الفائدة فيه أن يعلم أنه لا ترتيب بين التحرير والدية ، وأيضاً ليقع الافتتاح والاختتام بحق الله تعالى "[١]

وقال الأستاذ عبد الكريم الخطيب في قوله تعالى: **{وإن كان من قوم بينكم وبينهم ميثاق فدية مسلمة إلى أهله وتحرير رقبة مؤمنة }** ذلك أن الوفاء بالعهد الذي بين المؤمنين، ومن عقدوا العهد معهم ، أمر أوجبه الإسلام على المسلمين ،ولم يحلهم منه لأي سبب حتى ولو كان العهد مع الذين لم يدخلوا في دين الله، ولهذا قدم تقديم الدية هنا على تحرير الرقبة، لأن العهد في ذمة المسلمين جميعاً لا تبرأ ذمتهم إلا بالوفاء به إن لم يسعه مال القاتل خرج من بيت مال المسلمين..أما تحرير الرقبة فهو في ذمة القاتل وحده له فيه فسحة من الوقت ونظرة إلى ميسرة .[٢]

قال محمد رشيد رضا في قوله: **{ فدية مسلمة إلى أهله وتحرير رقبة مؤمنة }**

وقد قدم هنا ذكر الدية وأخر ذكر الكفارة وعكس في قتل المؤمن ولعل النكتة في ذلك الإشعار بأن حق الله تعالى في معاملة المؤمنين مقدم على حقوق الناس، ولذلك استثنى هنالك في أمر الدية فقال: **{إلا أن يصدقوا}** .. ومن محاسن نظم الكلام وتأليفه أن يؤخر المعطوف الذي له متعلق على ما ليس له متعلق وما متعلقاته أكثر على ما متعلقاته أقل وهذه نكتة لفظية لتأخير ذكر الدية في حق المؤمن إذ تعلق بها الوصف وهو قوله: **{مسلمة إلى أهله}** والاستثناء وهو قوله: **{ إلا أن يصدقوا }**[٣]

---

(١) غرائب القرآن ورغائب الفرقان ج٣ ص ٤٧٤.　　(٢) التفسير القرآني ج٥ ص٨٦٤.

(٣) المنار ج٥ ص٣٣٤، ٣٣٥.

﴿ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلاً وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى ﴾(النساء:٩٥) تقدم المفعول به الأول { كلاً } لإفادة القصر وتأكيداً للوعد.

﴿ إِلاَّ الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لاَ يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلاَ يَهْتَدُونَ سَبِيلاً ﴾ (النساء٩٨)

بدأ بذكر الرجال ، وألحق بذكرهم النساء ثم الصبيان ، لبيان أن من الرجال مستضعفين ، وأن وجود النساء والصبيان في العائلة عذر لوليهم إذا كان لا يجد حيلة ، أو بيان عظيم عفو الله حيث بدأ بالضعفاء و هم الرجال ثم الأضعف منهم وهن النساء ثم الأشد ضعفاً وهم الولدان.

﴿ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلاَ يُظْلَمُونَ نَقِيراً ﴾ (النساء:١٢٤) قال الأستاذ عبد الكريم الخطيب: " وفي تقديم دخولهم الجنة هنا على استيفاء حقهم كاملاً -في هذا تطمين لقلوب المؤمنين وأنهم سيدخلون الجنة على أي حال فضلاً وكرماً من الله عليهم ..أما مناقشتهم الحساب ، فإنه لكي يروا ما عملوا من خير وكيف نَمّاه الله لهم وأجزل لهم الثواب عليه".[1]

أقول: ما قاله الأستاذ عبد الكريم الخطيب : "هو مذهب العلماء" ، وقد بوب الإمام مسلم في صحيحه باباً بعنوان { **باب الدليل على أن مات على التوحيد دخل الجنة قطعاً** } ثم ذكر بإسناده عن عثمان قال : قال رسول الله ﷺ: {**من مات وهو يعلم أنه لاإله إلا الله دخل الجنة**} قال النووي: " واعلم أن مذهب أهل السنة وما عليه أهل الحق من السلف والخلف ، أن مات موحداً دخل الجنة قطعاً . على كل حال فإن كان سالماً من المعاصي ، كالصغير والمجنون والذي اتصل جنونه بالبلوغ ، والتائب توبة صحيحة من الشرك أو غيره من المعاصي إذا لم يحدث معصية بعد توبته ، والموفق الذي لم يبتل بمعصية أصلاً فكل هذا الصنف يدخلون الجنة ولا يدخلون النار أصلاً لكنهم يردونها ، على الخلاف المعروف في الورود ، والصحيح أن المراد به المرور على الصراط ، وهو منصوب على ظهر

---

(١) التفسير القرآني ج٥ ص٩١٠.

جهنم أعاذنا الله منها ومن سائر المكروه ، وأما من كانت له معصية كبيرة ومن مات من غير توبة فهو في مشيئة الله تعالى فإن شاء عفا عنه وأدخله الجنة، أو لا،وجعله كالقسم الأول وإن شاء عذبه القدر الذي يريده سبحانه وتعالى، ثم يدخله الجنة ، فلا يخلد في النار أحد مات على التوحيد ولو عمل من المعاصي، كما أنه لا يدخل الجنة أحد كان على الكفر ولو عمل من أعمال البر ما عمل ، هذا مختصر جامع لمذهب أهل الحق في هذه المسألة .
وقد تظاهرت أدلة الكتاب والسنة وإجماع من يعتد به من الأمة على هذه القاعدة وتواترت بذلك نصوص تحصِّل العلم اليقيني ".[1]

﴿ وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطاً ﴾ (النساء:١٢٦) قال صاحب الغرائب: "وإنما قدم القدرة على العلم لأن الفعل بحدوثه يدل على القدرة وبما فيه من الإحكام والإتقان يدل على العلم ، ولا ريب أن الاعتبار الأول مقدم على الثاني " .[2]

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَى أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ إِن يَكُنْ غَنِيّاً أَوْ فَقِيراً فَاللَّهُ أَوْلَى بِهِمَا فَلاَ تَتَّبِعُوا الْهَوَى أَن تَعْدِلُوا وَإِن تَلْوُوا أَوْ تُعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيراً ﴾ (النساء:١٣٥) .

وقال في سورة المائدة: **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلاَّ تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾** (المائدة:٨) .

هنا سؤال: ما الفائدة في تقديم قوله:{**بالقسط**}على قوله :{**شهداء لله** } في الآية الأولى وتأخيره عنها في الثانية ؟ الجواب أن يقال : إن الآية الأولى في الشهادة أمر عز وجل من عنده شهادة أن يقوم بالحق فيها ويشهد لله على كل من عنده حق لغيره يمنعه إياه حتى يصل إليه، فقال قوموا بالقسط، أي بالعدل في حال شهادتكم لله على كل ظالم حتى يؤخذ الحق منه ، فقدم القسط لأنه من تمام {**قوامين**} إذ فعله يتعدى إلى مفعوله بالباء .. وأما شهداء فإنها إذا كانت حالاً من الضمير في قوامين فإن حقها أن تجيء بعد تمام قوامين ،

---

(١) صحيح مسلم بشرح النووي ج١ ص٣٠٠-٣٠١.

(٢) غرائب القرآن ورغائب الفرقان ج٣ ص ٥٠٤.

وكذلك إذا كانت خبراً ثانياً وإن كانت صفة لقوامين فإن حقها أن تجيء بعده وأما قوله: { لله } بعد {**شهداء**} فلتعلقه بالشهادة كأنه قال كونوا شهداء لله لا للهوى والميل إلى ذوي القربى ، والدليل على ذلك أنه قال ولو على أنفسكم ، وشهادة الإنسان على نفسه أن يقر بالحق لخصمه، أي افعلوا ذلك لله وإن كان عليكم أو على الوالدين وذوي القربى منكم .

قال صاحب الغرائب: "وإنما قدم الأمر بالقيام بالقسط على الأمر بالشهادة لله عكس قوله:﴿ **شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ وَالْمَلائِكَةُ وَأُولُوا الْعِلْمِ قَائِماً بِالْقِسْطِ** ﴾ (آل عمران :١٨) لأن شهادة الله تعالى عبارة عن كونه خالقاً للمخلوقات، وقيامه بالقسط عبارة عن رعاية قوانين العدل في تلك المخلوقات، والأول مقدم على الثاني ، وأما في حق العباد فالعدالة مقدمة على الشهادة تقدم الشرط على المشروط}. [١]

أما الرازي فيقول تحت عنوان {**المسألة الرابعة**}: إنما قدم الأمر بالقيام بالقسط على الأمر بالشهادة لوجوه :

- **الأول** : إن أكثر الناس عادتـــهم أنـــهم يأمرون غيرهم بالمعروف، فإذا آل الأمر إلى أنفسهم تركوه حتى إن أقبح القبيح إذا صدر عنـــهم كان في محل المسامحة وأحسن الحسن، وإذا صدر عن غيرهم كان في محل المنازعة فالله سبحانه نبه في هذه الآية على سوء هذه الطريقة ، وذلك أنه سبحانه أمرهم بالقيام بالقسط أولاً ، ثم أمرهم بالشهادة على الغير ثانياً تنبيهاً على أن الطريقة الحسنة أن تكون مضايقة الإنسان مع نفسه فوق مضايقته مع الغير.
- **الثاني**: إن القيامين بالقسط عبارة عن دفع ضرر العقاب عن الغير، وهو الذي عليه الحق ، ودفع الضرر عن النفس مقدم على دفع الضرر عن الغير.
- **الثالث**: إن القيام بالقسط فعل، والشهادة قول، والفعل أقوى من القول فإن قيل : إنه تعالى قال: {**شهد الله أنه لا إله إلا هو**

---

(١) غرائب القرآن ورغائب الفرقان ج٣ ص٥١٢.

والملائكة وأولوا العلم قائماً بالقسط} ، فقدم الشهادة على القيام بالقسط، وهاهنا قدم القيام بالقسط فما الفرق؟

قلنا: "شهادة الله تعالى عبارة عن كونه تعالى خالقاً للمخلوقات، وقيامه بالقسط عبارة عن رعاية القوامين بالعدل في تلك المخلوقات ، فيلزم هناك أن تكون الشهادة مقدمة علي القيام بالقسط ، أما في حق العباد فالقيام بالقسط عبارة عن كونه ، مراعياً للعدل ومبايناً للجور ، ومعلوم أنه ما لم يكن الإنسان كذلك لم تكن شهادته على الغير مقبولة ، فثبت أن الواجب في قوله: {**شهد الله**} أن تكون تلك الشهادة مقدمة على القيام بالقسط والواجب هنا أن تكون الشهادة متأخرة عن القيام بالقسط".[1]

أقول :ولما كان أعظم مباني هذه السورة العدل قدمه فقال: {**بالقسط**} بخلاف ما يأتي في المائدة فإن النظر فيها إلى الوفاء الذي إنما يكون بالنظر إلى الموفى له .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنزَلَ مِن قَبْلُ وَمَن يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا ﴾ (النساء:١٣٦) وفي الآية سؤالات :

{**السؤال الأول**} لم قدم في مراتب الإيمان ذكر الرسول على ذكر الكتاب ، وفي مراتب الكفر قلب القضية؟

الجواب : لأن في مرتبة النـــزول من معرفة الخالق إلى الخلق كان الكتاب مقدمً على الرسول وفي مرتبة العروج من الخلق إلى الخالق يكون الرسول مقدماً على الكتاب. **﴿ قُلْ آلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الْأُنثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأُنثَيَيْنِ ﴾** (الأنعام:١٤٣) ، هذه الآية جاءت في صورة الإنكار التكذيبي ، وهو إنكار المفعول فالمقصود هنا هو نفي الفعل ، - وهو التحريم لشيء مما ذكر- ولكن لم يقدم الفعل عقب الهمزة بل أخرج الكلام في صورة نفي المفعول دون الفعل ليكون أبلغ في نفي الفعل فإن نفيه حينئذ ، يكون بطريق الكناية واللزوم وذكر الدعوى مع دليلها كأنه قيل : لو كان هناك تحريم لكان

---

(١) مفاتيح الغيب ج١ ص٧٤، ٧٥.

متعلقاً بواحد من هذه الأمور، لكنّ واحداً منه ليس بمحرم فليس هناك إذن تحريم ، وذلك أنـــهم كانوا تارة يحرمون ذكور الأنعام ، وتارة إناثها وتارة ما في بطون الإناث ذكوراً كانت أم إناثاً أم مختلفة ، وينسبون ذلك إلى الله فرد الله عليهم إفكهم بإنكار محل التحريم .

﴿مَايَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَآمَنتُمْ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِراً عَلِيماً﴾(النساء:١٤٧) .

قال الزمخشري: " لم قدم الشكر على الإيمان ؟

قلت: لأن العاقل ينظر إلى ما عليه من النعم العظيمة في خلقه وتعريضه للمنافع فيشكر شكراً مبـــهماً فإذا انتهى به النظر إلى معرف المنعم آمن به ثم شكر شكراً متقدماً على الإيمان وكأنه أصل التكليف ومداره ". (١)

أقول: والوقف على مقطع ءامنتم أجمل وأحسن لوجود الغنة في آخر الكلمة عكس كلمة شكرتم فيكون أجمل في الأداء على ءامنتم .

وقد ذكر الألوسي إشارة صوفية حسنة للعارف بالله أبي إسماعيل الأنصاري وهي أن الشكر في الأصل اسم لمعرفة النعمة لأنـــها السبيل إلى معرفة المنعم ، وله ثلاث درجات ، لأنه إذا نظر إلى النعمة كالرزق والخلق ينبعث منه شوق إلى معرفة المنعم وهذه الحركة تسمى باليقظة ، والشكر القلبي والشكر المبـــهم لأن منعمه لا يتضح له تعيينه ، وإنما عرف منعماً ما فهو منعم عليه فإذا تيقظ لـــهذا وفق لنعمة أكبر منها ، وهي المعرفة بأن المنعم عليه هو الصمد الواسع الرحمة المثيب المعاقب فتتحرك جوارحه لتعظيمه ، ويضيف إلى شكر الجنان شكر الأركان ، ثم ينادي على ذلك الجميل باللسان، ويقول :

أفادتكُم النَّعماءُ منيِّ ثلاثةً يدي ولساني والضميرَ المحَجبا

فالمذكور في الآية هو الشكر المبـــهم وهو مقدم على الإيمان ، وقد يكون في الآية تقديم وتأخير على ما ذكره الإمام الرازي أي آمنتم وشكرتم ضمن أحد الوجوه التي ذكرها في تقديم الشكر على الإيمان ، وقد ذهب إلى ما ذهب إليه الزمخشري في سر تقدم الشكر على الإيمان وأظنه قد نقله عنه (٢) ،

---

(١) مفاتيح الغيب ج١ ص٥٦٩.

(٢) روح المعاني ج٥ص ١١٧٥ ، مفاتيح الغيب ج١١ ص٩٠.

أما البقاعي فيرى أن تقديم الشكر على الإيمان لأنه هو الحامل عليه ولما كان لا يقبل إلا به قال:

{**وءامنتم**} أي أنه يرى أن التقديم هنا للسببية[1]

وقال الخازن: "قال أهل المعاني: فيه تقديم وتأخير تقديره إن آمنتم وشكرتم لأن الإيمان مقدم على سائر الطاعات ولأن الشكر لا ينفع مع عدم الإيمان، ولأن الواو لا توجب الترتيب وقيل هو على أصله والمعنى أن العاقل ينظر بعين بصيرته أولاً إلى ما عليه من النعمة العظيمة في إيجاده وخلقه فيشكر على ذلك شكراً عظيماً مبــهماً ، ثم إذا تم النظر ثانياً انتهى به النظر إلى معرفة المنعم عليه فآمن به فشكر شكراً مفصلاً فكان ذلك الشكر المبــهم مقدماً على الإيمان فلذلك قدم الشكر على الإيمان في الذكر ".[2]

قال الأستاذ عبد الكريم الخطيب: "وفي تقديم الشكر على الإيمان هنا..{ **إن شكرتم وءامنتم**} إشعار بأن الإيمان لا يقوم إلا على مشاعر الولاء لله ذلك الولاء الذي يتخلق من النظر في ملكوت السموات والأرض ، ومن التدبر في آيات الله المبثوثة في كل ذرة من ذرات الوجود. وهنا يجد العبد نفسه وقد صار لساناً شاكرا لله مسبحاً بحمده .

فالشكر هو المدخل الذي يجد فيه الإنسان طريقه إلى الله والتعرف إليه ، ومن هنا كانت دعوة الإسلام إلى الله قائمة أولاً على النظر إلى هذا الوجود وإلى ما فيه من موجودات ينتظمها نظام وتمسك بــها قدرة ويدبرها علم ثم نسبة هذا الوجود وما اشتمل عليه إلى الصانع الذي صنعه فأبدع صنعته وأحكم وجوده وبــهذا تتفتح الطرق إلى الله في خشوع وولاء وفي لهج بالحمد والثناء ، ومن هنا قام الشكر مقام الإيمان ،واعتبر في ذاته إيماناً كاملا وهذا ما يشير إليه قوله تعالى : { **إن تكفروا فإن الله غني عنكم ولا يرضى لعباده الكفر وإن تشكروا يرضه لكم**} .[3]

﴿ فَبِظُلْمٍ مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيراً ﴾ (النساء:١٦٠) .

---

(١) نظم الدرر ج٢ ص٣٤١.   (٢) الخازن ج٢ ص١٨٤.   (٣) التفسير القرآني ج٥ ص٩٤٦.

تقدم قوله: { **بظلم** } وقوله: { **وبصدهم** } من باب ذكر الأسباب على مسبباتها ولبيان أن ما فعله الله بهم إنما هو من جهتهم وبسبب ما ارتكبوه للتأكيد على صفة العدل الإلهية وأنه سبحانه لا يعذب إلا بذنب ، وتقديم هنا الظلم على الصد عن سبيل الله مع أن الصد عن سبيل الله أعظم جرماً ، من باب تقديم العام على الخاص ، إذ إن الظلم يشمل كل المعاصي من أصغرها إلى أكبرها .

﴿ **لَكِنِ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُم وَالْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَالْمُقِيمِينَ الصَّلاَةَ وَالْمُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالْمُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ أُوْلَئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْراً عَظِيماً** ﴾ (النساء:١٦٢) ، تقدم في هذه الآية الإيمان بما أنزل إلى النبي ﷺ وما أنزل من قبله على الإيمان بالله واليوم الآخر لأنه المقصود من هذه الآية أولاً ، وهو الإيمان بالأنبياء دون تفريق بينهم ولذا جاءت الآية التالية تؤكد على تلك القضية ﴿ **إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِن بَعْدِهِ** ﴾ (النساء:١٦٣)، الأمر الثاني: أن الآية تخاطب اليهود وهم يؤمنون جملة بالله واليوم الآخر .

قال صاحب المنار: "وقد يرد هنا سؤال وهو أن من سنة القرآن أن يذكر الإيمان بالله قبل العمل الصالح سواء ذكر الإيمان غفلاً مطلقاً أو ذكرت أركانه كلها أو بعضها كقوله تعالى: ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلاً** ﴾(الكهف : ١٠٧) ، ومثلها كثير وكقوله: ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحاً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِم وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ**﴾(البقرة: ٦٢) ، والجواب أن القاعدة الأساسية في التقديم والتأخير هي أن يقدم الأهم الذي يقتضيه السابق لا الأهم في ذاته، ولذلك قال تعالى في سياق تخطئة المفاخرين بدينهم بالأماني ﴿ **وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلاَ يُظْلَمُونَ نَقِيراً** ﴾(النساء : ١٢٤).

بعدما قال في الآية التي قبلها :{ **ليس بأمانيكم ولا أماني أهل الكتاب من يعمل سوءاً يجز به** } فالسياق لبيان أن العبرة بالعمل بالدين لا بالانتماء إليه وإلى الرسول الذي جاء به والفخر بذلك، فقدم ذكر العمل على الإيمان ، والسياق الذي نحن فيه هو بيان أحوال أهل الكتاب في عصر نبينا ﷺ فكان

المهم أولاً بيان إيمان خيارهم بما أنزل إليه كإيمانـــهم بما أنزل إلى أنبيائهم من قبله ثم ختم الكلام ، بوصفهم بأول صفات الكمال ، أي بالإيمان بالله واليوم الآخر [1].

﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِ وَأَمَّا الَّذِينَ اسْتَنكَفُوا وَاسْتَكْبَرُوا فَيُعَذِّبُـــهُم عَذَاباً أَلِيماً وَلاَ يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ وَلِياً وَلاَ نَصِيراً ﴾ (النساء: ١٧٣) .

تقدم هذه الآية الحديث عن المتكبرين على عبادة الله غير الخاضعين له ، فلماذا جاءت الآية التالية مبتدئة بالحديث عن جزاء المؤمنين و لم تبدأ بالحديث عن جزاء المستكبرين ليكون الكلام موصولاً وأشد ترابطاً في ظاهره ؟ عن ذلك السؤال أجاب الشعراوي فقال: " ذلك أن الحق ساعة يتكلم عن جماعة خرجت عن المنهج فهو لا يمنحهم ثواب هؤلاء الذين لم يخرجوا عن المنهج ، فيأتي أولاً بثواب الطائعين ليستشرف إليه الخارجون عن طاعة الله ، ثم يحرمهم من هذا الثواب لتكون حسرة الخارجين عن المنهج أشد " والضد يظهر حسنه الضد " [2].

وأقـــول : ويظهر لي أن هناك سراً آخر للتقديم ، وهو أن الآية السابقة علـــى هـــذه الآيـــة إنما كانت تتحدث عن المسيح والملائكة وكونـــهم ممن لا يستكبر عن عبادة الله فهذا في حقهم محال فكما هو معلوم أن الرسول عن المعـــصية معـــصوم ، والملك على الطاعة مفطور ، فلما استبعد منـــهم ذلك ناسب أن يبدأ بجزائهم ومن على شاكلتـــهم .

ثم ذكـــر بعد ذلك أحوال المستكبرين ، كما لا يخفى أن ذكر ثوابـــهم مقـــدماً ناسب تقدم ذكرهم في الآية نفسها ، ومن ثم جاء الجزاء على ترتيب الفريقين في الذكر.

---

(١) المنار ج٦ ص٦٥ ،٦٦

(٢) الشعراوي ج٥ ص٢٨٧٤.

سورة المائدة

لما دارت سورة النساء حول الحقوق المتعلقة بين البشر بعضهم بعضاً وبينـــهم وبين الله عز وجل بما تضمنته من أحكام اليتامى والمواريث والزواج والتيمم والجهاد وغيرها وكلها مواثيق بين الله وبين عباده الذين ءامنوا به جاءت سورة المائدة لبيان الوفاء بـــهذه الحقوق المتعلقة بين الله وعباده **﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ الأَنْعَامِ إِلاَّ مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّي الصَّيْدِ وَأَنتُمْ حُرُمٌ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ ۔ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تُحِلُّوا شَعَائِرَ اللَّهِ وَلاَ الشَّهْرَ الْحَرَامَ وَلاَ الْهَدْيَ وَلاَ الْقَلاَئِدَ وَلاَ آمِّينَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ ﴾** (المائدة:٢،١)، ولما ذكر في سورة النساء حكاية الشيطان في تضليله بني ءادم وأمرهم بتغيير أوامر الله **﴿ وَلآمُرَنَّـــهُم فَلَيُبَتِّكُنَّ آذَانَ الأَنْعَامِ وَلآمُرَنَّـــهُم فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللَّهِ﴾** (النساء:١١٩) ، جاءت سورة المائدة بتفصيل هذا الإجمال **﴿ مَا جَعَلَ اللَّهُ مِن بَحِيرَةٍ وَلاَ سَائِبَةٍ وَلاَ وَصِيلَةٍ وَلاَ حَامٍ﴾** (المائدة:١٠٣).

قال تعالى :

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ الأَنْعَامِ إِلاَّ مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّي الصَّيْدِ وَأَنتُمْ حُرُمٌ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ ۔ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تُحِلُّوا شَعَائِرَ اللَّهِ وَلاَ الشَّهْرَ الْحَرَامَ وَلاَ الْهَدْيَ وَلاَ الْقَلاَئِدَ وَلاَ آمِّينَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّن رَّبِّـــهِم وَرِضْوَاناً وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَن تَعْتَدُوا وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبرِّ وَالتَّقْوَى وَلاَ تَعَاوَنُوا عَلَى الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ۔ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلاَّ مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَأَن تَسْتَقْسِمُوا بِالأَزْلاَمِ ذَلِكُمْ فِسْقٌ الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن دِينِكُمْ فَلاَ تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِيناً فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۔يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أُحِلَّ لَهُمْ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ الْجَوَارِحِ

مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللَّهُ فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ۝ الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَهُمْ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ وَمَنْ يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ۝ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ وَإِنْ كُنْتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَّرُوا وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا﴾
(المائدة: ١ – ٦).

وللرازي كلام بديع عن ترتيب هذه الآيات السبع قال: "اعلم أنه افتتح السورة بقوله :{ **يا أيها الذين ءامنوا أوفوا بالعقود** } وذلك لأنه حصل بين الرب وبين العبد عهد الربوبية وعهد العبودية فقوله: { **أوفوا بالعقود** } طلب تعالى من عباده أن يفوا بعهد العبودية ، فكأنه قيل : إلهنا العهد نوعان : عهد الربوبية منك ، وعهد العبودية منا فأنت أولى بأن تقدم الوفاء بعهد الربوبية والإحسان ، فقال تعالى نعم أنا أوفي أولاً بعهد الربوبية والكرم وعُلم أن منافع الدنيا محصورة في نوعين : لذات المطعم ولذات المنكح ، فاستقصى سبحانه في بيان ما يحل ويحرم من المطاعم والمناكح، ولما كانت الحاجة إلى المطعوم فوق الحاجة إلى المنكوح ، لا جرم قدم بيان المطعوم على المنكوح ، وعند تمام هذا البيان كأنه يقول : قد وفيت بعهد الربوبية فيما يطلب في الدنيا من المنافع واللذات ، فاشتغل أنت في الدنيا بالوفاء بعهد العبودية ولما كانت أعظم الطاعات بعد الإيمان الصلاة ، وكانت الصلاة لا يمكن إقامتها إلا بالطهارة ، لا جرم بدأ تعالى بذكر شرائط الوضوء فقال: { **ياأيها الذين ءامنوا إذا قمتم إلى الصلاة فاغسلوا وجوهكم وأيديكم إلى المرافق** } .[١]

وقد جاءت الآية الثانية على طريقة اللف والنشر فجاء البر في مقابلة الإثم والتقوى في مقابلة العدوان ، وقد جاء البر في مقابلة الإثم في حديث النواس

---

(١) مفاتيح الغيب ج١١ ص١٥٣.

ابن سمعان ﷺ عن النبي ﷺ قال: **{البر حسن الخلق والإثم ما حاك في نفسك وكرهت أن يطلع عليه الناس}**[١].

قال صاحب الغرائب :

السادسة : قال مالك وأبو حنيفة : الترتيب غير مشروط في الوضوء لأن الواو لا تفيد الترتيب ، فلو قلنا بوجوبه كان من الزيادة على النص وهو نسخ غير جائز . وقال الشافعي : إنه واجب لأن فاء التعقيب في قوله **{ فاغسلوا }** توجب تقديم غسل الوجه ثم سائر الأعضاء على الترتيب. وقال: ﷺ في حديث الصفا **{ ابدؤوا بما بدأ الله به }** وأيضاً الترتيب المعتبر في الحس هو الابتداء من الرأس إلى القدم أو بالعكس ، والترتيب العقلي إفراد العضو المغسول عن الممسوح ، ثم إنه تعالى أدرج الممسوح في المغسول، فدل هذا على أن الترتيب المذكور في الآية واجب لأن إهمال الترتيب في الكلام مستقبح فوجب تنـــزيه كلام الله تعالى عنه ...وقد أوجبنا رعاية الترتيب في الصلاة مع أن أركان الصلاة غير مذكورة في القرآن مرتبة ، فرعاية الترتيب في الوضوء مع أن القرآن ناطق به أولى". [٢]

قال ابن قدامة: " ويأتي بالطهارة عضواً بعد عضو كما أمر الله تعالى : وجملة ذلك أن الترتيب في الوضوء على ما في الآية واجب عند أحمد لم أر عنه فيه اختلاف وهو مذهب الشافعي ، وأبي ثور وأبي عبيد ...ولنا أن في الآية قرينة تدل على أنه أريد بـــها الترتيب فإنه أدخل ممسوحاً بين مغسولين ، والعرب لا تقطع النظير عن نظيره إلا لفائدة والفائدة هاهنا الترتيب ، فإن قيل فائدته استحباب الترتيب قلنا : الآية ما سيقت إلا لبيان الواجب ، ولهذا لم يذكر فيها شيئاً من السنن ، ولأنه متى اقتضى اللفظ الترتيب كان مأموراً به ، والأمر يقتضي الوجوب ، ولأن كل من حكى وضوء رسول الله ﷺ حكاه مرتباً وهو مفسر لما في كتاب الله تعالى ، وتوضأ مرتباً وقال :

{ هذا وضوء لا يقبل الله الصلاة إلا به } أي بمثله .[٣]

---

(١) جامع العلوم والحكم ج٢ ص٧١.

(٢) غرائب القرآن ورغائب الفرقان ج٣ ص٥٥٣،٥٥٤.

(٣) المغني ج١ ص١١٧.

قال الخازن: "وذهب الشافعي ومالك وأحمد إلى وجوب الترتيب في الوضوء ، وهو أن يغسل الأعضاء في الوضوء على الولاء ، كما ذكره الله في هذه الآية ، فيغسل أولاً وجهه ثم يده ثم يمسح رأسه ثم يغسل رجليه ، فصار الترتيب فرضاً سادساً ، وذهب أبو حنيفة إلى أن الترتيب في الوضوء غير واجب ، احتج الشافعي على وجوب الترتيب بـهذه الآية ، وذلك أن الله تعالى أمر بغسل الوجه ثم اليدين ثم بمسح الرأس ثم بغسل الرجلين فوقع أن يقع الفعل مرتباً كما أمر الله تعالى وقوله ﷺ في حجة الوداع { **أبدأ بما بدأ الله به**} وهذا الحديث وإن ورد في قصة السعي بين الصفا والمروة ،فإن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب ولأن أفعال النبي ﷺ في الوضوء ما وردت إلا مرتبة كما ورد في نص الآية و لم ينقل عنه ولا عن غيره من الصحابة أنه توضأ منكساً أو غير مرتب فثبت أن ترتيب أفعال الوضوء ،كما أمر الله تعالى ونص عليه في الآية واجب واحتج أبو حنيفة لمذهبه بـهذه الآية، وأن الواو لا توجب الترتيب ، فإذا قلنا بوجوب الترتيب صار ذلك زيادة على النص وذلك غير جائز وأجيب عنه بأنه لم ينقل عن النبي ﷺ أنه توضأ إلا مرتباً كما ذكر وبيان الكتاب إنما يؤخذ من السنة". [1]

قال الشيخ سيد سابق : "الفرض السادس - من فرائض الوضوء - الترتيب ، لأن الله تعالى قد ذكر في الآية فرائض الوضوء مرتبة مع فصل الرجلين عن اليدين - وفريضة كل منـهما الغسل - بالرأس الذي فريضته المسح ، والعرب لا تقطع النظير عن نظيره إلا لفائدة ، وهي هنا الترتيب ، فالآية ما سبقت إلا لبيان الواجب ولعموم قوله : ﷺ في الحديث الصحيح { **ابدءوا بما بدأ الله**} ومضت السنة العملية على هذا الترتيب بين الأركان فلم ينقل عن رسول الله ﷺ أنه توضأ إلا مرتباً" . [2]

وتقديم الوجه على سائر الأعضاء للشرف ، وهو محل ظهور أثر الإنعام والإكرام والإهانة والإذلال ، وفي سورة آل عمران { **يوم تبيض وجوه وتسود وجوه فأما الذين اسودت وجوههم أكفرتم بعد إيمانكم فذوقوا**

---

(١) الخازن ج٢ ص٢٢٩.
(٢) فقه السنة ج١ ص٤٤.

العذاب بما كنتم تكفرون • وأما الذين ابيضت وجوههم ففي رحمة الله هم فيها خالدون} وفي سورة عبس **{وجوه يومئذ مسفرة • ضاحكة مستبشرة • ووجوه يومئذ عليها غبرة • ترهقها قترة • أولئك هم الكفرة الفجرة}** وإلى تفضيل الوجه وشرفه على بقية الأعضاء ذهب كل من الزركشي وصاحب الطراز قال: "فإن الوجه أشرف من اليد ، والرأس أفضل من الرجل ". (١)

قال صاحب التحرير: " وقوله : **{ وأرجلكم }** قرأه نافع ، وابن عامرٍ والكسائي وحفص عن عاصم ، وأبو جعفر، ويعقوب - بالنصب - عطفا على **{وأيديكم}** وتكون جملة **{وامسحوا برؤوسكم}** معترضة بين المتعاطفين. وكأن فائدة الاعتراض إشارة إلى ترتيب أعضاء الوضوء لأن الأصل في الترتيب الذكري أن يدل على الترتيب الوجودي ، فالرجل يجب أن تكون مغسولة". (٢)

وعن سر الترتيب في آية الوضوء قال الفخر الرازي : "والوجه الثاني : أن نقول وقعت البداءة في الذكر بالوجه ، فوجب أن تقع البداءة به في العمل لقوله :**{فاستقم كما أمرت}** ولقوله عليه الصلاة والسلام:**{ ابدؤوا بما بدأ الله به }** وهذا الخبر وإن ورد في قصة الصفا والمروة إلا أن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب ، .. والثالث : أنه تعالى ذكر هذه الأعضاء لا على وفق الترتيب المعتبر في الحس، ولا على وفق الترتيب المعتبر في الشرع، وذلك يدل على أن الترتيب واجب ، بيان المقدمة الأولى أن الترتيب المعتبر في الحس أن يبدأ من الرأس نازلاً إلى القدم ، أو من القدم صاعداً إلى الرأس والترتيب المذكور في الآية ليس كذلك ، وأما الترتيب المعتبر في الشرع فهو أن يجمع بين الأعضاء المغسولة، ويفرد الممسوحة عنها، والآية ليست كذلك ، فإنه تعالى أدرج الممسوح في أثناء المغسولات، إذا ثبت هذا فنقول هذا يدل على أن الترتيب واجب، والدليل عليه أن إهمال الترتيب في الكلام مستقبح، فوجب تنـــزيه كلام الله تعالى عنه". (٣)

قال صاحب المنار: "تلك فرائض الوضوء العملية المنصوصة ، وقد ذكرت مرتبة مع فصل الرجلين عن اليدين وفريضة كل منـــهما الغسل

---

(١) الطراز ص٢٣٢، البرهان ج٣ ص٢٢٣. (٢) التحرير ج٦ ص١٣٠. (٣) مفاتيح الغيب ج١١ ص١٥٧.

بالرأس الذي فريضته المسح ، ومضت السنة العملية في هذا الترتيب فدل ذلك على اشتراطه فيها ، وصح حديث {**أبدأ - وفي رواية- ابدؤوا بما بدأ الله به**} وهو عام وإن كان سببه خاصاً لوروده في السعي بين الصفا والمروة ".[1]

أقول: لقد أشار صاحب المنار هنا إلى لفتة جميلة بحسن نظره في أسلوب القرآن ، حيث قال :إن البداءة بما بدأ الله به في القرآن الكريم عام وإن كان سببه خاصاً .

﴿ يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ للَّه شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ ولا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ على أَلاَّ تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى ﴾ (المائدة:٨) .

قال السمين الحلبي: " تقدم نظيرها في النساء إلا أنه هناك قدم لفظة {**القسط**} وهنا أخرت ، وكأن الغرض في ذلك - والله أعلم - أن آية النساء جيء بـــها في معرض الإقرار على نفسه ووالديه وأقاربه فبدئ فيها بالقسط الذي هو العدل من غير محاباة نفس ولا والد ولا قرابة ، والتي هنا جيء بـــها في معرض ترك العداوة فبدئ فيها بالأمر بالقيام لله ، لأنه أردع للمؤمنين ، ثم ثنى بالشهادة بالعدل ، فجيء في كل معرض بما يناسبه" .[2]

﴿ وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَبَعَثْنَا منـــهم اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيباً وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلاةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَآمَنتُم بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً ﴾ (المائدة:١٢).

قال صاحب الغرائب: "وهاهنا أسئلة : لم أخر الإيمان بالرسل عن إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة مع أن الإيمان مقدم على الأعمال ؟وأجيب بعد تسليم أن الواو للترتيب بأن اليهود كانوا معترفين بأن النجاة مربوطة بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة إلا أنـــهم كانوا مصرين على تكذيب بعض الرسل ، فذكر أنه لابد بعد الصلاة والزكاة من الإيمان بجميع الرسل وإلا لم تكن لتلك الأعمال أثر .قلت : يحتمل أن يكون التقدير وقد آمنتم أو أخر الإيمان عن العمل تنبيهاً على أن الإيمان إنما يقع معتداً به إذا اقترن به العمل كقوله:**﴿ وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِمَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً ثُمَّ اهْتَدَى﴾** (طه:٨٢)، وهو من القلب الذي يشجع

---

(١) المنار ج٦ ص٢٤٤.

(٢) الدر المصون ج٢ ص٤٩٨.

عليه أمن الإلباس ، أو لعل اليهود كانوا مقصرين في الصلاة والزكاة فكان ذكرهما أهم ".[1]

﴿ إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الأَرْضِ فَسَاداً أَن يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلافٍ أَوْ يُنفَوْا مِنَ الأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ (المائدة:٣٣).

قَالَ الشعراوي: "وهل {أو} هنا تخييرية أو أن هنا - كما يقال - لف ونشر؟ واللف هو الطي والنشر هو أن تبسط الشيء وتفرقه ،
فما اللف والنشر إذن ؟ مثل ذلك ما يقوله الشاعر :

قَلبي وجَفني واللِّسان وخالقي ..

لقد ذكر متعدد ولكن الأحكام غير مذكورة ، هذا هو اللف ، فجمع المبتدءات دون أن يذكر لكل واحد منها خبره ، ثم جاء بالأحكام على وفق المحكوم عليه فأكمل بيت الشعر بقوله :

راضٍ وباكٍ شاكرٌ وغفور

ولنقرأ البيت كاملاً :

قلبي وجَفني واللِّسانِ وخالقي راضٍ وباكٍ شاكرٌ وغفور

والحق يقول :

﴿ وَمِن رَّحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ (القصص:٧٣).

فقوله: { **لتسكنوا فيه** } راجع إلى الليل وقوله: { **ولتبتغوا من فضله**} راجع إلى النهار ، وهنا جاء باللف ثم جاء بالنشر".[2]

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ (المائدة:٣٥).

قال صاحب الغرائب: "اتقوا الله إشارة إلى ترك المنهيات وقوله: { **وابتغوا إليه الوسيلة** } عبارة عن فعل المأمورات وإن كان ترك المناهي أيضاً من جملة الوسائل، إلا أن هذا التقرير مناسب ،والفعل والترك يعتبران أيضاً في الأخلاق الفاضلة والذميمة وفي الأفكار الصائبة والخاطئة ، وأهل

---

(١) غرائب القرآن ورغائب الفرقان ج٣ ص٥٦٨.
(٢) الشعراوي ج٥ ص٣٠٩٥.

التحقيق يسمون الترك والفعل بالتخلية والتحلية أو بالمحو والحضور أو بالنفي والإثبات أو بالفناء والبقاء، والأول مقدم على الثاني ، فما لم ينف عما سوى الله لم يرزق البقاء بالله ".[1]

وفي الآية لفتة أخرى من الرازي يرشدنا من خلالها إلى أن التقديم والتأخير هو الذي حدد المعنى المراد في أنه تعالى أمر بابتغاء الوسيلة إليه بعد الإيمان به قال: "والإيمان به عبارة عن المعرفة به فكان هذا أمراً بابتغاء الوسيلة إليه بعد الإيمان وبعد معرفته ، فيمتنع أن يكون هذا أمراً بطلب الوسيلة إليه في معرفته فكان المراد طلب الوسيلة إليه في تحصيل مرضاته وذلك بالعبادات والطاعات ".[2]

أقول: وقد يكون قوله تعالى:**{وابتغوا إليه الوسيلة وجاهدوا في سبيله}** تفسير للأمر بتقوى الله في قوله : { **اتقوا الله** } وتكون الوسيلة هنا هي الطريقة الموصلة إلى محبة الله بفعل مرضاته واجتناب مساخطه ، ثم ذكر الجهاد بعد وخصه الذكر لأنه ذروة سنام الإسلام ، أو لأنه لا يصل إليه إلا من تحلى بفعل الأوامر واجتناب المناهي وهو جهاد النفس الذي إن تحقق ارتقى بصاحبه إلى جهاد العدو.

﴿ وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالاً مِّنَ اللَّه وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ۔ فَمَن تَابَ مِنْ بَعْد ظُلْمه وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْه إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۔ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْض يُعَذِّبُ مَن يَشَاءوَيَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾(المائدة:٣٨-٤٠) .

تقدم السارق على السارقة لأن السرقة في الرجال أغلب منها في النساء ، لما تحتاجه السرقة من جرأة نفسية وقوة بدنية وغلظة شعور وتبلد عاطفة ، وذلك في الرجال أكثر .

يقول الزمخشري: "فإن قلت : لم قدم التعذيب على المغفرة قلت: لأنه قوبل بذلك تقدم السرقة على التوبة".[3]

---

(١) غرائب القرآن ورغائب الفرقان ج٣ ص٥٨٥. (٢) مفاتيح الغيب ج١١ص٢٢٦. (٣) الكشاف ج١ ص٦١٩.

وأقول: ويضاف إلى ما ذكره الزمخشري هو أن السياق للوعيد لكل ممن سبق ذكرهم من قطّاع الطريق ، والمحاربين، والسّراق فيناسب ذلك تقديم ما يليق به من الزواجر.

قال الزمخشري: { **والصابئون**} رفع على الابتداء وخبره محذوف والنية به التأخير عما في حيز إن من اسمها وخبرها كأنه قيل: إن الذين ءامنوا والذين هادوا والنصارى حكمهم كذا والصابئون كذلك .

وأنشد سيبويه شاهداً له:

وإلا فاعلموا أنّا وأنتم بغاةٌ ما بقينا في شقاق

أي فاعلموا أنا بغاة وأنتم كذلك ، فإن قلت هلا زعمتً أن ارتفاعه للعطف على محل إن واسمها ؟ قلت: لا يصح ذلك قبل الفراغ من الخبر ، لا تقول : إن زيداً وعمرًا منطلقان فإن قلت لم لا يصح والنية به التأخير ، فكأنك قلت: إن زيداً منطلق وعمرًا ؟ قلت : لأني إذا رفعته عطفاً على محل إن واسمها والعامل في محلهما هو الابتداء ، فيجب أن يكون هو العامل في الخبر لأن الابتداء ينتظم الجزأين في عمله كما تنتظمها **[إن]** في عملها فلو رفعت الصابئون المنوي به التأخير بالابتداء وقد رفعت الخبر بأن لأعملت فيها رافعين مختلفين فإن قلت: فقوله والصابئون معطوف لا بد له من معطوف عليه فما هو؟ قلت: هو مع خبره المحذوف جملة معطوفة على جملة قوله:﴿ **إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا**﴾ (البقرة:٦٢) ولا محل لها كما لا محل للتي عطفت عليه ، فإن قلت: ما التقديم والتأخير إلا لفائدة فما فائدة هذا التقديم؟ قلت فائدته التنبيه على أن الصابئين يتاب عليهم إن صح منــــهم الإيمان والعملِ الصالح ، فما الظن بغيرهم. وذلك أن الصابئين أبين هؤلاء المعدودين ضلالاً وأشدهم غياً وما سموا صابئين إلا لأنـــهم صبئوا عن الأديان كلها أي خرجوا ، كما أن الشاعر قدم قوله: {**وأنتم**} تنبيهاً على أن المخاطبين أوغل في الوصف بالبغاة من قومه حيث عاجل به قبل الخبر الذي هو {**بغاة**} لئلا يدخل قومه في البغي قبلهم ، مع كونه أوغل فيه منـــهم وأثبت قدماً فإن قلت : فلو قيل والصابئين وإياكم لكان التقديم حاصلاً. قلت: لو قيل هكذا لم يكن من التقديم في شيء، لا إزالة فيه عن موضعه،وإنما يقال مقدم ومؤخر للمزال لا للقار في مكانه .[1]

---

(١) الكشاف ج١ ص٦٤٧،٦٤٨.

قال الأستاذ عبد الكريم الخطيب: "وفي تقديم العذاب على المغفرة هنا نظر .. إذ كانت رحمة الله تسبق غضبه وعذابه أبداً ، ولكن إذ كان الموقف هنا محاسبة للمذنبين ثم مغفرة ورحمة لمن تاب ورجع منـــهم،كان ذكر العذاب مقدماً على ذكر المغفرة بالنسبة لهم ولو تقدمت المغفرة على العذاب هنا لما كان لعقاب المذنبين -مع سبق الرحمة- مكان ولشملتـــهم الرحمة قبل أن يؤخذوا بجرمهم ، ويقام الحد عليهم وإلا لسقطت الحدود واضطرب نظام المجتمع .

فكان تقديم العقاب أخذاً لحق الله وحق العباد أولاً ثم تجيء مغفرة الله ورحمته فتمحو آثار هذا العقاب وتعفي عليه لمن وجه وجهه إلى الله وطلب الصفح والمغفرة .وقدم السارق على السارقة لأن الرجل أجرأ من المرأة على السرقة وأكثر تمرساً بـــها "[1]

﴿ فَلاَ تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ وَلاَ تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَناً قَلِيلاً ﴾(المائدة:٤٤) .

بدأ بنهيهم عن خشية الناس فيتركوا الحكم بالتوراة لأنه أشد تأثيراً وأدعى لترك حكم الله ، ثم ثنى بالطمع أي أكل الحرام من رشوة وسحت لترك الحكم بما أنزل الله أو تغييره.

﴿ وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالأَنفَ بِالأَنفِ وَالأُذُنَ بِالأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أنزَلَ اللّهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ (المائدة:٤٥) التقديم هنا للأهمية فالنفس أهم من العين والعين أهم من الأنف ...

﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْماً لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ (المائدة:٥٠)

قدم المفعول به { **أفحكم** } على الفاعل { **يبغون**} للإنكار

﴿ فَسَوْفَ يَأْتِي اللّهُ بِقَوْمٍ يُحِبـــهم وَيُحِبُّونَهُ ﴾ (المائدة:٥٤) قدم حبه لهم على حبـــهم له لسبق علمه بـــهم واختياره لهم بـــهذه الأوصاف كقوله تعالى: **﴿ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا﴾**وكقوله تعالى:**﴿ رَّضِيَ اللّهُ عَنـــهم وَرَضُوا عَنْهُ﴾** (المائدة:١١٩).

---

(١) التفسير القرآني ج٦ ص١٠٩٧

﴿وَإِذَا جَاءُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَقَد دَّخَلُوا بِالْكُفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا بِهِ﴾(المائدة:٦١).

تقدم هنا المسند إليه على الفعل في قوله: { **وهم قد خرجوا به** } فأفاد تقوية الحكم وتوكيده ودفع الشك عنه ، لا قصره عليه ، ليثبت معنى خروجهم بالكفر وعدم استفادتهم شيئاً من سماع الوحي بسبب غلظ قلوبهم وقسوة أفئدتهم وتكذيبهم فيما ادعوه .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئُونَ وَالنَّصَارَى مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحاً فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ (المائدة:٦٩).

قال صاحب المنار: "وأما تقديم الصابئين هنا على النصارى فمن قال إن المراد بالذين آمنوا هنا المنافقون الذين ادعوا الإيمان بألسنتهم ولم تؤمن قلوبهم ، يرى أن نكتة الترتيب بين هذه الأصناف بالترقي من الجدير بالقبول توبته إذا صح إيمانه ودعم بالعمل الصالح إلى الأجدر بذلك ، ويجعل النصارى أقربها إلى القبول ويليهم عنده الصابئون ، فاليهود فالمنافقون ، وأنت تعلم أن العطف بالواو لا يفيد الترتيب بل مطلق الجمع فلا حاجة إلى تكلف النكتة للتقديم والتأخير" .[1]

وأقول: إذا كان هناك نكتة تفيد معنى يستقيم والسياق لا يأباه فليس هذا من باب التكلف بل من باب الغوص في معاني القرآن الكريم واستخراج كنوزه بالفهم السليم

قال الثعالبي: " ومذهب الخليل وسيبويه ونحاة البصرة أنه من المقدم الذي معناه التأخير ، كأنه قال الذين ءامنوا والذين هادوا من ءامن بالله واليوم الآخر وعمل صالحاً فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون ، والصابئون والنصارى كذلك" .[2]

أقول: هذا قول جيد ومما يقويه معنى عدم الانفصال بين هذه الطوائف ليتم الحديث عنها جملة واحدة ، فإن الانفصال يخل بحلاوة الترتيب ونغم الاتصال،ثم يذكر الجزاء عن الجميع بعد ذلك جملة واحدة فيعود على الجميع لفظاً بدلاً من أن يعود على بعضهم لفظاً والآخر تقديراً.

---

(١) المنار ج٦ ص٤٧٩.

(٢) الجواهر الحسان ج١ ص٤٤٣.

﴿ لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَأَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ رُسُلاً كُلَّمَا جَاءَهُمْ رَسُولٌ بِمَا لاَ تَهْوَى أَنفُسُهُمْ فَرِيقاً كَذَّبُوا وَفَرِيقاً يَقْتُلُونَ ﴾ (المائدة: ٧٠).

قال صاحب التحرير: "وتقديم { كلما} على العامل استعمال شائع لا يكاد يتخلف لأنهم يريدون بتقديمه الاهتمام به ، ليظهر أنه محل الغرض المسوقة له جملته ، فإن استمرار صنيعهم ذلك مع جميع الرسل في جميع الأوقات دليل على أن التكذيب والقتل صارا سجيتين لهم لا تتخلفان، إذ لم ينظروا إلى حال رسول دون آخر ولا إلى زمان دون آخر، وذلك أظهر في فظاعة حالهم، وهي المقصود هنا ... وتقديم المفعول في قوله:**{فريقاً كذبوا }** لمجرد الاهتمام بالتفصيل لأن الكلام مسوق مساق التفصيل لأحوال رسل بني إسرائيل باعتبار ما لاقوه من قومهم ، ولأن في تقديم مفعول**{ يقتلون }** رعاية على فاصلة الآي ، فقدم مفعول **{ كذبوا }** ليكون المفعولان على وتيرة واحدة". [(١)]

﴿ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُم قِسِّيسِينَ وَرُهْبَاناً وَأَنَّهُم لاَ يَسْتَكْبِرُونَ ﴾ (المائدة:٨٢) . تقدم ذكر اليهود في هذه الآية على الذين أشركوا لشدة عداوتهم إذ إنه لم يُحارب الإسلام كما حورب من اليهود ، ولم يعاد الإسلام أحد كما عاداه اليهود ، وذلك من بداية الدعوة الإسلامية عندما ظهر أن النبي ﷺ من العرب وليس منهم ، كما كانوا يؤملون ،وفي سيرة ابن هشام عن ابن إسحاق بسنده حيث ذكر سبب عداوة اليهود للنبي ﷺ .

قالوا إنه قد تقارب زمان نبي يبعث الآن نقتلكم معه قتل عاد وإرم فكنا كثراً ما نسمع ذلك منهم -أي من اليهود- فلما بعث الله رسوله أجبناه حين دعانا إلى الله تعالى وعرفنا ما كانوا يتوعدوننا به فبادرناهم إليه فآمنا به، وكفروا به، ففينا وفيهم نزل هؤلاء الآيات **{ولما جاءهم كتاب من عند الله مصدق لما معهم وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به فلعنة الله على الكافرين}**[(٢)]

---

(١) التحرير ج٦ ص٢٧٣، ٢٧٥.

(٢) السيرة النبوية لابن هشام ج١ ص٢١١.

ومظاهر عداوة اليهود كثيرة جدا، وفيها نزل كثير من آي القرآن الكريم، وقد حفلت السيرة بالشيء الكثير عن مظاهر تلك العداوة، أكتفي بذكر العناوين التي أوردها ابن هشام في سيرته ثم أتبعها بذكر أسباب غزوات النبي ﷺ ضد اليهود، ولولا الخروج عن مضمون الرسالة بالإطالة لكتبت فصلاً خاصاً عن هذا الموضوع .

ذكر ابن هشام عن ابن إسحاق تحت عنوان "الأعداء من يهود" قال: ونصبت عند ذلك أحبار يهود لرسول الله ﷺ العداوة بغياً وحسداً وضغناً لما خص الله تعالى به العرب من أخذه رسوله منـــهم .

ثم ذكر مواقفهم العدائية أكتفي منها بذكر العناوين :

إسلام عبد الله بن سلام –من أحبار اليهود– قومه يكذبونه ولا يتبعونه.
من اجتمع إلى اليهود من منافقي الأنصار .
من أسلم من أحبار اليهود نفاقا من منافقي بني قينقاع.
ما نزل في البقرة في منافقين ويهود.
سؤال اليهود الرسول وإجابته لهم ﷺ.
إنكار اليهود نبوة داود ورد الله عليهم.
كتابه ﷺ إلى يهود خيبر .
كفر اليهود به ﷺ بعد استفتاحهم به وما نزل في ذلك.
ما نزل في نكران مالك بن الصيف العهد إليهم بالنبي ﷺ.
ما نزل في قول أبي صلوبا : ما جئتنا بشيء نعرفه.
ما نزل في قول ابن حريملة ووهب .
ما نزل في صد حيي وأخيه الناس عن الإسلام.
ما نزل في سؤال ابن صوريا للنبي ﷺ أن يتهود.
مقالة اليهود عند صرف القبلة إلى الكعبة.
كتمانـــهم ما في التوراة من الحق.
جوابـــهم للنبي ﷺ حينما دعاهم للإسلام .
فيما نزل فيما همّ به بعضهم من الإيمان غدوة والكفر عشية.
ما نزل في قول أبي رافع والنجراني أتريد أن نعبدك كمـــا تعبـــد النصـــارى عيسى عليه السلام

ما نزل في أخذ الميثاق عليهم.
سعيهم في الوقيعة بين الأنصار.
ما نزل في قولهم ما آمن إلا شرارنا.
ما كان بين أبي بكر وفنحاص.
جحدهم الحق.
النفر الذين حزبوا الأحزاب.
إنكارهم التنـــزيل.
اجتماعهم على طرح الصخرة على رسول الله ﷺ.
إدعاؤهم أنـــهم أحباء الله.
إنكارهم نزول كتاب بعد موسى.
ظلمهم في الدية.
قصدهم الفتنة برسول الله ﷺ.
جحودهم نبوة عيسى ﷺ.
سؤالهم عن قيامة الساعة.
سؤالهم له ﷺ عن ذي القرنين . [1].

وأقول: وهناك مظاهر عداوة أخرى لم يذكرها ابن هشام منها :

قولهم:إن دين المشركين -عبّاد الأصنام والأوثان -خير من دين محمد. وقد نزل في ذلك قوله تعالى:﴿ **أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيباً مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِيـــنَ كَفَرُوا هَؤُلاءِ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلاً** ﴾ (النساء:٥١)

استباحة فعل الحرام مع غير اليهود من أكل الأموال وخيانة العهود :

وفي ذلك نزل قوله تعالى :﴿ **ذَلِكَ بِأَنـــهم قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ** ﴾ (آل عمران:٧٥).

دعاؤهم على النبي ﷺ والمؤمنين بالموت عند التسليم بقولهم:**[السام عليك]**

وأرى إضافة لما سبق ذكر أسباب الغزوات التي قامت بين النبي ﷺ وبين يهود لنقف على حقيقة عدائهم .

---

(١) سيرة ابن هشام ج٢ ص٥١٣.

غزوة بني قينقاع:

عمد صائغ يهودي إلى طرف ثوب مسلم في السوق فعقده إلى ظهرها وهي لا تشعر به فلما قامت انكشفت سوأتـــها فضحكوا بـــها فقتل المسلم اليهودي وقتل اليهود المسلم وأعلنوا العداء والحرب.

بنو النضير:

خرج إليهم النبي ﷺ يستعين في دية العامريّين فأتمروا بقتله على أن يعلو رجل سطح بيت ويلقي بصخرة فوق رسول الله ﷺ.

خيبر:

أبدى يهود خيبر العداء سافراً بعدما لحق بـــهم زعماء بني النضير فألبوا القبائل ضد المسلمين وسعوا في إقناع بني قريظة للانضمام إليهم والغدر بالمسلمين .

الأحزاب:

خرج أشراف اليهود سلام بن أبي الحُقيق ، سلام بن مشكم، كنانة بن الربيع إلى قريش وقبائل العرب يحرضونـــهم على حرب المسلمين.

بنو قريظة:

نقضوا العهد الذي بينـــهم وبين رسول الله ﷺ وتحالفوا مع المشركين في غزوة الأحزاب ضد النبي ﷺ وجاهروا بالعداوة والسباب ونالوا من النبي ﷺ[١]

وعن سر تقديمهم قال الزمخشري أن تقديم اليهود على الذين أشركوا في عداوتـــهم للمؤمنين لقدمهم فيها وهو نفس السبب الذي يراه في تقدمهم على الذين أشركوا في قوله تعالى:

﴿ وَلَتَجِدَنـــهم أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاة ﴾ (البقرة:٩٦) .

أقول: وفي الآية تقديم الخبر **{ أشد الناس عداوة }** على المبتدأ **{اليهود}** إذ إن أصل الجملة لتجدن اليهود أشد الناس عداوة للذين ءامنوا ، فقدم الخبر للتشويق لما بعده إذ هو محط الفائدة .

(١) غزوات الرسول ص ١٦١-١٦٥، وص ص١٩٥-٢٢٨ وص ص٢٧١-٢٠٤.

﴿ لاَ يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ الأَيْمَانَ فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَاكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلاثَةِ أَيَّامٍ ﴾(المائدة:٨٩) ، بدأ بأقل ما يكفي في الكفارة من أجل التخفيف والرحمة بعباده ، ثم جاء العطف على سبيل الترقي.

{ أو كسوتهم أو تحرير رقبة فمن لم يجد فصيام ثلاثة أيام } وليس التقديم للتفضيل كما ذهب إلى ذلك الكبيسي عندما قال عن هذه الآية: "وفيها أن الله تعالى رتب الكفارة على اليمين ، فجعل الإطعام أولاً ، والكسوة ثانياً وتحرير رقبة ثالثاً وصيام ثلاثة أيام رابعاً ، إذا تعذرت الثلاثة الأول ، فالذي يشعر به هذا السياق استحباب الإتيان بالكفارة وفق ترتيبها في الآية ، فقدم الأولى فالأولى ، فهذا الترتيب لبيان الأفضل ، والله أعلم وهو يشبه قوله ﷺ **{نبدأ بما بدأ الله به}** ويعني قوله تعالى: **{إن الصفا والمروة من شعائر الله}** فابتداء السعي يكون من الصفا وانتهاؤه بالمروة كما جاء ذكرها في الآية،وهكذا أفادنا السياق بيان ترتيب الأفعال ومعرفة الأولى بالتقديم".[1]

أقول: وليس الأمر كما ذهب إليه الكبيسي من أن التقديم للتفضيل حيث إنه من المعلوم أن تحرير الرقبة أفضل عند الله عز وجل ثواباً وأعظم نفعاً للبشر من إطعام عشرة مساكين أو كسوتهم ، ففيه تحرير إنسان من رق العبودية وهل يستوي إطعام عشرة بطون يقوم لهم الكثيرون بالإطعام أو بالكساء مع تحرير إنسان من رق العبودية طوال حياته ؟ فتفضيل العتق ثابت فضله بالنقل وبالعقل ، ولعظم ثواب العتق في تكفير الذنوب كان العتق تكفيراً لكبائر الذنوب ، وليس الإطعام ، من ذلك الآية الثانية والتسعون من سورة النساء

﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِناً إِلاَّ خَطَئاً وَمَن قَتَلَ مُؤْمِناً خَطَئاً فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ إِلاَّ أَن يَصَّدَّقُوا فَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ عَدُوٍّ لَّكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ فَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ﴾ (النساء:٩٢) .

---

(١) مجلة الحكمة ، ص ٧٩.

وقد جاءت الكفارة بالعتق على سبيل الترتيب في الفضل واضحاً وجلياً في سورة المجادلة في قوله تعالى:﴿ **وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِن نِّسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَاسَّا ذَلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ. فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِن قَبْلِ أَن يَتَمَاسَّا فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِيناً**﴾ (المجادلة:٣،٤) . ويبقى الأمر كما زعمنا والله الأعلم بالصواب ، وأما القياس على الصفا والمروة فليس منه في شيء ، فإن البداءة بالصفا مشروع لكون أم إسماعيل بدأت بـــها حيث كانت عندها قبل المروة فكان ذلك تأسياً بـــها في فعلها، فالترتيب في الآية لسبق الوجود والله أعلم .

وهناك رأي وجيه للرازي مال إليه القاسمي فذكره قال: "حكمة تقديم الإطعام على العتق -مع أنه أفضل- من وجوه : {**أحدها**} : التنبيه من أول الأمر على أن هذه الكفارة وجبت على التخيير لا على الترتيب وإلا لبدئ بالأغلظ {**ثانيها**}: كون الطعام أسهل لأنه أعم وجوداً والمقصود منه التنبيه على أنه تعالى يراعي التخفيف والتسهيل في التكاليف { **وثالثها**} :كون الإطعام أفضل ، لأن الحر الفقير قد لا يجد الطعام ولا يكون هناك من يعطيه الطعام فيقع في الضر،أما العبد فإنه يجب على مولاه إطعامه وكسوته ".[1]
والرازي هنا وإن ذهب كما ذكرت بأن الإعتاق أفضل بوجه عام إلا أنه يرى أنه هنا أفضل في هذا المقام .

﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأَنصَابُ وَالأَزْلامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ** ﴾ (المائدة:٩٠) .

صدرت الآية الكريمة بــ{ **إنما** } وذلك لأن هذه الكلمة للحصر فكأنه تعالى قال :لا رجس ولا شيء من عمل الشيطان إلا الخمر والميسر وما ذكر معهما.

لماذا تقدم الخمر في هذه الآية على الميسر والأنصاب والأزلام ومعلوم أن الأنصاب أشد إثماً فلا إثم أعظم من الشرك ؟

يجيب الرازي قائلاً: "لأن الخطاب مع المؤمنين وإنما نـــهاهم عما كانوا يتعاطونه من شرب الخمر واللعب بالميسر وذكر الأنصاب والأزلام لتأكيد

---

(١) القاسمي ج٤ ص٢٤٢.

تحريم الخمر والميسر. وإظهار أن ذلك جميعاً من أعمال الجاهلية وأهل الشرك ، فوجب اجتنابه بأسره، وكأنه لا مباينة بين من عبد صنماً وأشرك بالله في علم الغيب وبين من شرب خمراً أو قامر ، ثم أفردهما بالذكر ليرى أن المقصود بالذكر الخمر والميسر".[1]

﴿ لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا إِذَا مَا اتَّقَوْا وَآمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ثُمَّ اتَّقَوْا وَآمَنُوا ثُمَّ اتَّقَوْا وَأَحْسَنُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾ (المائدة:٩٣).

لقد ذكر الفيروزابادي في هذه الآية معان ثلاث للتقوى ،و الذي يرجّح ما بينها فيما نرى القول بالتقديم والتأخير، قال: "ومنازل التقوى ثلاثة على ما ذكره الشيوخ الأجلّة تقوى عن الشرك ، وتقوى عن البدعة ، وتقوى عن المعاصي الفرعية ، وقد ذكرها الله في آية واحدة **{ ليس ... }** التقوى الأولى تقوى عن الشرك والإيمان في مقابلة التوحيد والتقوى الثانية عن البدعة، والإيمان المذكور معها إقرار السنة والجماعة ، والتقوى الثالثة عن المعاصي الفرعية والإقرار في هذه المنـــزلة قابلها بالإحسان وهو الطاعة والاستقامة عليها" .[2]

وفيما ذكره الفيروزابادي يكون التقديم هنا للأهمية مبتدئاً من الأهم فالمهم من الأعظم ضرراً إلى الأقل .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَيَبْلُوَنَّكُمُ اللَّهُ بِشَيْءٍ مِّنَ الصَّيْدِ تَنَالُهُ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ﴾ (المائدة:٩٤).

تقدمت الأيدي على الرماح ، لأن ما يؤخذ بالأيدي أيسر، لأنه في العادة يكون أصغر وأقرب، والصائد عليه أقدر ، فبدئ به ، لأن التلبس به أكثر وصيده أسرع من الذي تناله الرماح ، فيكون التقديم للتحذير حتى لا يتهاون به ظناً أن المحرم هو ما ينال بالرماح فقط .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنْتُمْ حُرُمٌ وَمَن قَتَلَهُ مِنكُم مُّتَعَمِّداً فَجَزَاءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنْكُمْ هَدْياً بَالِغَ الْكَعْبَةِ أَوْ كَفَّارَةٌ طَعَامُ مَسَاكِينَ أَوْ عَدْلُ ذَلِكَ صِيَاماً ﴾ (المائدة:٩٥) .

---

(١) مفاتيح الغيب ج ص٦٦١.

(٢) بصائر ذوي التمييز ج٥ ص٢٥٨.

اختلف الفقهاء في حكم الكفارة في هذه الآية هل هو على الترتيب المذكور في الآية وهو ذبح المثل من النعم أولاً فإن لم يجد أخرج القيمة فإن لم يجد صام عن كل مد من الطعام وهذا الاختلاف راجع إلى معنى الواو فمن قال إنـــها للترتيب كأحمد وزفر من أصحاب أبي حنيفة أوجب الترتيب في الكفارة كما ذكر في الآية ومن ذهب أنها للتخيير لم يلزم أحد بكفارة بعينها بل يختار ما يشاء .[1]

﴿ جَعَلَ اللَّهُ الكَعْبَةَ البَيْتَ الحَرَامَ قِيَاماً لِّلنَّاسِ وَالشَّهْرَ الحَرَامَ وَالْهَدْيَ وَالْقَلائِدَ ذَلِكَ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَأَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ۰ اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ العِقَابِ وَأَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ (المائدة:٩٧،٩٨).

تقدم قوله: { **اعلموا أن الله شديد العقاب** } على قوله: {**وأن الله غفور رحيم**} لمناسبة ما قبله وهو التذكير بعقابه فلا ينتهكون محارمه السابق ذكرها وهي البيت الحرام والشهر الحرام والتعرض لما يهدى للبيت الحرام ، فناسب أن تبدأ الآية بـــهذا تخويفاً وتـــهديداً لمن أراد أن ينتهك حرمة البيت أو حرمة الشهر أو حرمة ما يهدى للبيت الحرام .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا شَهَادَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ المَوْتُ حِينَ الوَصِيَّةِ اثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ أَوْ آخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ إِنْ أَنتُمْ ضَرَبْتُمْ فِي الأَرْضِ فَأَصَابَتْكُم مُّصِيبَةُ المَوْتِ تَحْبِسُونَـــهُمَا مِنْ بَعْدِ الصَّلاةِ فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ إِنِ ارْتَبْتُمْ لا نَشْتَرِي بِهِ ثَمَناً وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى وَلا نَكْتُمُ شَهَادَةَ اللَّهِ إِنَّا إِذاً لَّمِنَ الآثِمِينَ فَإِنْ عُثِرَ عَلَى أَنَّـــهُمَا اسْتَحَقَّا إِثْماً فَآخَرَانِ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا مِنَ الَّذِينَ اسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ الأَوْلَيَانِ فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ لَشَهَادَتُنَا أَحَقُّ مِن شَهَادَتِـــهِمَا وَمَا اعْتَدَيْنَا إِنَّا إِذاً لَّمِنَ الظَّالِمِينَ﴾ (المائدة:١٠٦،١٠٧) .

قال الأستاذ عبد الكريم الخطيب: "والملاحظ في هذه الآيات أنـــها جاءت على نظم خاص وأسلوب يكاد يكون فريداً في القرآن الكريم ، فقد كثر فيها الخروج على مألوف النظم القرآني خروجاً متعمداً ،فهناك تقديم وتأخير بحيث تبدو الجمل وكأنما يدفع بعضها بعضاً ليزيله عن موضعه قسراً ..

---

(١) الخازن جـ٢ ص٣٢٤

إلى أن قال فقوله تعالى : {**شهادة بينكم** } مبتدأ خبره { **اثنان**} والجملة الخبرية هنا مراد بـــها الأمر والإلزام : والتقدير إذا حضر أحدكم الموت فشهادة قائمة بينكم لـــهذا المحتضر يشهد اثنان ذوا عدل منكم ..أي من المؤمنين {**أو آخران من غيركم**} أي غير المؤمنين عند الضرورة".[1]

وأنا أتناول هذه الآية بمزيد من الإيضاح حول أسلوب التقديم والتأخير فيها فأقول: أولاً تقدم الأمر بالشهادة على ما يشهد عليه مع أن حقه التقدم إذ هو السابق في الوجود ، وأصل الترتيب هو ما سبق ذكره ، والسبب في ذلك تعظيم أمر الشهادة للاهتمام بـــها والاعتناء بأمرها حتى تؤدى ولا تكتم تـــهاوناً بـــها ولا سيما الشهادة عندما تتعين .ثم تأخر الخبر { **اثنان** } بالجملة الاعتراضية

{**إذا حضر أحدكم الموت**} لتعظيم الشهادة وإدخال الهيبة عليها، تلك الهيبة المستمدة من تقديم ذكر الموت الذي لا مفر لأحد منه ، وقد تقدم المفعول به {**أحدكم**} على فاعله{**الموت**} للاهتمام باستشعار نازلة الموت التي خصته بالمجيء ، ثم تقدم الضمير على المسند الفعلي {**إن أنتم ضربتم**} وذلك للاهتمام ،وقد تقدم أيضاً القسم في قوله: { **فيقسمان بالله إن ارتبتم لا نشتري به ثمناً ولو كان ذا قربى**} مع أن القسم متأخر وجوداً بعد وجود الريبة وذلك لتعظيم أمر القسم وعدم النكول عنه .

وعلى قراءة { **شهادة الله** } بالإضافة ليس هنا تقديم ولا تأخير ، وعلى القراءة بتنوين {**شهادةً**} يكون في الآية تقديم وتأخير إذ الترتيب { **ولا نكتم الله شهادة** } فقدمت الشهادة على لفظ الجلالة للاهتمام بـــها فإنـــها المُحَدثُ عنها .

﴿ وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي قَالُوا آمَنَّا وَاشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ ۝ إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِّنَ السَّمَاءِ قَالَ اتَّقُوا اللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۝ قَالُوا نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ ۝

---

(١) التفسير القرآني جـ٧ ص٦٥-٦٧.

قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِّنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِّأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا وَآيَةً مِّنكَ وَارْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴾ (المائدة:١١١-١١٤) .

قدم ذكر الإيمان على الإسلام ، لأن الإيمان من أعمال القلوب والإسلام هو الانقياد والخضوع في الظاهر ، والإيمان أسبق في وجوده والإسلام أثره الناتج عنه ، ولهذا قدم الإيمان على الإسلام.

قال الفخر الرازي: "المسألة الثانية: تأمل في هذا الترتيب فإن الحواريين لما سألوا المائدة ذكروا في طلبها أغراضاً ، فقدموا ذكر الأكل فقالوا : { **نريد أن نأكل منها** } وأخروا الأغراض الدينية الروحانية، فأما عيسى فإنه لما طلب المائدة وذكر أغراضه فيها قدم الأغراض الدينية الروحانية وأخر غرض الأكل حيث قال: {**وارزقنا**} وعند هذا يلوح لك مراتب درجات الأرواح في كون بعضها روحانية وبعضها جسمانية، ثم إن عيسى عليه السلام لشدة صفاء دينه وإشراق روحه لما ذكر الرزق بقوله: {**وارزقنا**} لم يقف عليه بل انتقل من الرزق إلى الرزاق فقال :

{**وأنت خير الرازقين**} فقوله: {**ربنا**} ابتداء منه بذكر الحق سبحانه وتعالى، وقوله: {**وأنزل علينا**} انتقال من الذات إلى الصفات، وقوله: {**تكون لنا عيدا لأولنا وآخرنا**} إشارة إلى ابتهاج الروح بالنعمة لا من حيث أنها نعمة، بل من حيث أنها صادرة عن المنعم وقوله: {**وآية منك**} إشارة إلى كون هذه المائدة دليلاً لأصحاب النظر والاستدلال وقوله: {**وارزقنا**} إشارة إلى حصة النفس وكل ذلك نزول من حضرة الجلال . فانظر كيف ابتدأ بالأشرف فالأشرف نازلاً إلى الأدون فالأدون ثم قال: {**ورازقنا وأنت خير الرازقين**} وهو عروج مرة أخرى من الخلق إلى الخالق ومن غير الله إلى الله ومن الأخس إلى الأشرف، وعن ذلك تلوح لك شمة من كيفية عروج الأرواح المشرقة النورانية الإلهية ونزولها، اللهم اجعلنا من أهله".[1]

وحول هذا المعنى قال العلامة الشعراوي: "لقد قال عيسى ابن مريم داعياً الله : {**اللهم ربنا أنزل علينا مائدة من السماء**} وألزم عيسى نفسه بنداء

---

(١) مفاتيح الغيب ج١٢ ص ١٤

الألوهية أولاً معترفاً بالعبودية لله ملتزماً بالتكليف القادم منه ثم جاء بنداء الربوبية ، فيا من أنزلت علينا التكليف ، ويا من تتولى تربيتنا ، نحن ندعوك أن تنـــزل علينا مائدة من السماء، وأخذ نداءه زاوية القيم ثم زاوية المادية وهي الرزق ، لكن الحواريين قدموا بشريتـــهم فطلبوا من المائدة الأكل والطعام فقالوا : " نريد أن نأكل منها وتطمئن قلوبنا ونعلم أن قد صدقتنا ونكون عليها من الشاهدين} أما عيسى ابن مريم بصفائية اختياره رسولاً فقد أخر الطعام عن القيم فقال : { **اللهم ربنا أنزل علينا مائدة من السماء تكون لنا عيداً لأولنا وآخرنا وآية منك وارزقنا وأنت خير الرازقين** } .[1]

﴿ **وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَـهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِن كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلاَ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ عَلاَّمُ الْغُيُوبِ** ﴾ (المائدة:١١٦) تقدم الضمير { **أأنت** } لإظهار التأكيد على براءة عيسى- عليه السلام - مما نسب إليه ، وفي تقديم قوله:{ **تعلم مافي نفسي**} على قوله: {**ولا أعلم ما في نفسك**} إظهار أدب عيسى - عليه السلام - في خطابه مع ربه سبحانه وتعالى وكذلك لمناسبة الجواب في إثبات علم الله ببراءته مما نسب إليه .

---

(١) الشعراوي ج ٦ ص٣٤٦٤.

سور الأنعام

لما ختم سبحانه سورة المائدة بتحميد عيسى – عليه السلام- لجلال الله وثنائه عليه يوم القيامة، ثم حمد سبحانه نفسه بشمول الملك والقدرة افتتح سبحانه هذه السورة بالإخبار أن ذلك الحمد وغيره من المحامد مستحق له استحقاقاً ثابتاً دائماً قبل إيجاد الخلق وبعد إيجاده سواء شكره العباد أم كفروه لما له من صفات الجلال والكمال ، ولما فصلت سورة النساء شيئاً عن محرمات الأنعام التي اخترعها الشيطان وأمر بـــها أولياءه جاءت سورة الأنعام ببيان مزيد من التفصيل حول هذه الافتراءات من الآية ١٣٥ وحتى الآية ١٤٠ والآيتان ١٤٣ و ١٤٤ ، ولما ذكرت سورة المائدة العقائد الباطلة ومقالات أصحابـــها جاءت سورة الأنعام لتتحدث عن التوحيد وعقيدة التوحيد وضرب المثل له بخليل الله إبراهيم-عليه السلام-.

﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّـــهِم يَعْدِلُونَ ﴾ (الأنعام:١) .

إذا فسرت الظلمة والنور على حقيقتـــهما كما ذهب جمهور المفسرين فإن تقدم ذكر الظلمات على النور مع أن النور أشرف مراعاة للترتيب الوجودي ، لأن الظلمة أسبق في الخلق من النور ، ويؤيد ما ذهبت إليه من أن الترتيب للوجود ما رواه أبو هريرة ﷺ قال: { **أخذ رسول الله بيدي فقال : خلق الله التربة يوم السبت ، وخلق فيها الجبال يوم الأحد ، وخلق الشجر يوم الإثنين ، وخلق المكروه يوم الثلاثاء ، وخلق النور يوم الأربعاء ، وبث فيها الدواب يوم الخميس ،وخلق آدم عليه السلام بعد العصر من يوم الجمعة في آخر الخلق في آخر ساعة من ساعات الجمعة فيما بين العصر إلى الليل**}[١]، وقد ذهب البعض إلى أن هذا الحديث موقوف على كعب وليس مرفوعاً إلى النبي ﷺ .وقد ذكر ذلك البقاعي وتابعه محقق الكتاب بشيء من التفصيل .[٢]

---

(١) مسلم كتاب صفة القيامة والجنة والنار رقم { ٤٩٩٧ }.

(٢) نظم الدرر ج١ ص٩٦.

وقد أحسن الزمخشري في تعريفه النور بما قد أثبته العلم الحديث اليوم، بينما أخطأ في تعريفه الظلمة حيث قال: "ليست الظلمة كيفية وجودية مضادة للنور ، والدليل عليه ، أنه إذا جلس اثنان بقرب السراج ، وآخر بالبعد منه ، فالبعيد يرى القريب ، ويرى ذلك الهواء صافياً مضيئاً ، والقريب لا يرى البعيد ، ويرى ذلك الهواء مظلماً فلو كانت الظلمة كيفية وجودية لكانت حاصلة بالنسبة إلى هذين الشخصين المذكورين، وحيث لم يكن الأمر كذلك، علمنا أن الظلمة ليست كيفية وجودية ، وإذا ثبت ذلك ، فنقول: عدم المحدثات متقدم على وجودها فالظلمة متقدمة في التحقيق على النور ، فوجب تقديمها عليها في اللفظ ، ومما يقوي ذلك ما روي في الأخبار الإلهية { **أنه تعالى خلق الخلق في ظلمة ، ثم رش عليهم من نوره** }.

وروى ابن عمرو عن النبي ﷺ أنه قال : إن الله خلق الخلق في ظلمة ، ثم ألقى عليهم النور ، فمن أصابه يومئذ من ذلك النور فقد اهتدى ، ومن أخطأه ضل ". [1]

فقوله في الظلمة غير مسلم له فهي كيفية وجودية ، والدليل على ذلك قوله تعالى : {**وجعل الظلمات والنور**} والعدم لا يقال فيه جعل .وإلى مراعاة الترتيب الوجودي ذهب أيضا الطاهر بن عاشور كذلك " .[2]

ومما يؤيد كلامنا ما ذكره البغوي عن قتادة أنه قال : " خلق الله السموات قبل الأرض وخلق الظلمة قبل خلق النور ، والجنة قبل النار ثم ذكر حديث عبد الله بن عمرو السابق ". [3] وإلى إثبات كون الظلمة مخلوقة ذهب الخازن والبغوي حيث قالا:

" إن الجعل بمعنى الخلق "[4].

وإلى ما ذهبنا إليه ذهب الثعالبي واعتبره هو الوجه الوحيد الصحيح، حيث قال "وجعل" هاهنا بمعنى خلق ، ولا يجوز غير ذلك ".[5]

---

(١) مفاتيح الغيب {١} سورة الأنعام. (٢) التحرير والتنوير {١} الأنعام.

(٣) معالم التنزيل في التفسير والتأويل ج٧ص ١٢٧ ، الكشاف ج٤ ص٧٣.

(٤) الخازن ج٢ ص٣٥٤ ، معالم التنزيل ج٢ ص٣٥٤. (٥) الجواهر الحسان ج١ ص٤٦٦.

أما صاحب المنار فقال: " وأما جعل الظلمات والنور فهو في الحسيات بمعنى إيجادهما لأن هذا هو معنى الجعل المتعدي إلى مفعول واحد ".[1] أما على تفسير الظلمة بأنـــها ظلمة معنوية فالمقصود بـــها هنا ظلمة الجهل فقط وليس ظلمة الجهل والكفر كما ادعى صاحب الطراز حيث قال: " فإن الظلمة سابقة على النور لأن الحق أن الظلمة هي عدم النور ، وليست أمراً ثبوتياً ، فإذا كان الأمر فيها كما قلناه فلا شك أن عدم الشيء سابق على وجوده لأن العدم بلا أول والوجود يتلوه فلهذا كان تقدم الظلم على الأنوار من باب تقدم الأزمنة وهكذا القول في الظلمة المعنوية لأنـــها إذا أريد بـــها الجهل والكفر فإنـــها تكون سابقة على النور المعنوي وهو العلم والإسلام .

ويؤيد ما قلناه قوله تعالى: ﴿ **وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لاَ تَعْلَمُونَ شَيْئاً وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ** ﴾ (النحل:٧٨) . فانتفاء العلم ظلمة معنوية مجازية فهي متقدمة بالزمان على نور الإدراكات الخمسة كلها.[2]

أقول: لقد أخطأ صاحب الطراز في جمعه بين الجهل والكفر في قوله: " لأنـــها إذا أريد بـــها الجهل والكفر " وجعل ذلك هو الظلمة المعنوية التي تقدمت زماناً على النور ، فالآية التي أوردها إنما هي دليل على تقدم ظلمة الجهل على نور العلم وليس فيها ما يشير إلى الكفر إطلاقاً بل العكس هو الصحيح فنصوص القرآن والسنة تثبت تقدم نور الإيمان على ظلمة الكفر قال تعالى :﴿ **وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَـــهم وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ . أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنْ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ** ﴾ (الأعراف:١٧٢،١٧٣). وقوله تعالى:﴿ **فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا** ﴾ (الروم:٣٠) .

روى الإمام أحمد في مسنده من رواية جابر بن عبد الله قال : قال رسول الله ﷺ { **كل مولود يولد على الفطرة حتى يعرب عنه لسانه، فإذا أعرب عنه لسانه إما شاكراً وإما كفوراً** }[3]

---

(١) المنار ج٧ ص٢٩٢. (٢) الطراز المتضمن لأسرار وعلوم حقائق الإعجاز ص٢٣١-٢٣٤.

(٣) مسند الإمام أحمد باقي مسند المكثرين رقم ١٤٢٧٧.

قال السمين الحلبي: في قوله: { ثم الذين كفروا بربهم يعدلون} { ثم} هذه ليست للترتيب الزماني وإنما هي للتراخي بين الرتبتين والمراد استبعاد أن يعدلوا به غيره مع ما أوضح من الدلالات ".[1]

﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن طِينٍ ثُمَّ قَضَى أَجَلاً وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُ ثُمَّ أَنتُمْ تَمْتَرُونَ ﴾ (الأنعام:٢). خولف الاستعمال الغالب من تقديم الخبر الظرف على كل مبتدأ نكرة موصوفة نحو قوله تعالى :{ ولي نعجة واحدة } وذلك لإظهار الاهتمام بالمسند إليه لأن تقديمه منكراً أفاد معنى التعظيم، أي : وأجل عظيم مسمى عنده .

قال السمين الحلبي في قوله: {ثم قضى}"إن كان قضى بمعنى أظهر ، فثم للترتيب الزماني على أصلها ، لأن ذلك متأخر عن خلقنا وهي صفة فعل ، وإن كان بمعنى كتب وقدر فهي للترتيب في الذكر، لأنها صفة ذات ، وذلك مقدم على خلقنا " .[2]

﴿وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَفِي الأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ﴾ (الأنعام:٣) .

قال الخازن نقلاً عن الزجاج : " فيه تقديم وتأخير ، تقديره وهو الله يعلم سركم وجهركم في السموات وفي الأرض".[3]

أقول: وهنا احتمال آخر للتقديم والتأخير وهو أن يكون الجار والمجرور في قوله: { في السموات وفي الأرض } متقدم على متعلقه وهو الفعل {ويعلم ما تكسبون } وقد راجعت رواية ورش عن نافع . هل هناك فيها وقف عند لفظ الجلالة { الله } فوجدت فيها وقفاً لتكون الجملة من بعد قوله:{هو الله} جملة مستأنفة.[4]﴿ وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ آيَةٍ مِّنْ آيَاتِ رَبِّهِم إِلاَّ كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ ۝ فَقَدْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنْبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ﴾(الأنعام:٥،٤).

قال الرازي: " اعلم أنه تعالى: رتب أحوال هؤلاء الكفار على ثلاث مراتب:

- فالمرتبة الأولى: كونهم معرضين عن التأمل في الدلائل والتفكر في البينات.

---

(١) الدر المصون ج٣ ص٤.
(٢) الدر المصون ج٣ ص٥.
(٣) تفسير الخازن ج٢ ص٣٥٦.
(٤) القرآن الكريم رواية ورش عن نافع مؤسسة الحسن الثاني.

- **والمرتبة الثانية**: كونــهم مكذبين بــها وهذه المرتبة أزيد مما قبلها، لأن المعرض عن الشيء قد لا يكون مكذباً به بل يكون غافلاً عنه غير متعرض له ، فإذا صار مكذباً به فقد زاد على الإعراض .
- **والمرتبة الثالثة** : كونــهم مستهزئين بــها لأن المكذب بالشيء قد لا يبلغ تكذيبه به إلى حد الاستهزاء، فإذا بلغ إلى هذا الحد فقد بلغ الغاية القصوى في الإنكار ، فبين تعالى أن أولئك الكفار وصلوا إلى هذه المراتب الثلاثة على هذا الترتيب"[1] وما ذكره الرازي هو التقديم والتأخير الوجودي .

﴿ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْــهم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾ (الأنعام:١٠) .

الأصل ما كانوا يستهزئون به ، فقدم الجار والمجرور للاهتمام بما كذبوا به وتعظيم أمره مع ما فيه من جمال الفاصلة .

﴿ وَلَهُ مَا سَكَنَ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ (الأنعام:١٣).

تقديم الجار والمجرور { **وله** } للدلالة على الحصر ، وهو حصر الساكنين في كونــها له لا لغيره ، أي في كون ملكها التام له ، كما تقدم في قوله:**﴿ قُل لِّمَن مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ قُل لِّلَّهِ﴾** (الأنعام:١٢) .

وتقدم الليل على النهار لأن السكون في الليل أغلب منه في النهار، قال الرازي في معرض حديثه عن الآيتين السابقتين وأقول: "هاهنا دقيقة أخرى وهو أن الابتداء وقع بذكر المكان والمكانيات ، ثم ذكر عقيبه الزمان والزمانيات ، وذلك لأن المكان والمكانيات أقرب إلى العقول والأفكار من الزمان والزمانيات لدقائق مذكورة في العقليات الصرفة ، والتعليم الكامل هو الذي يبدأ فيه بالأظهر ، فالأظهر مترقياً إلى الأخفى فالأخفى ".[2]

﴿ قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِياً فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلاَ يُطْعَمُ﴾ (الأنعام: ١٤).

تقدم المفعول الأول ل{**أتخذ**} وهو قوله: {**أغير الله**} للاهتمام به، إذ هو محط الإنكار وهو ما يسمى بالاستفهام الإنكاري حيث حُصر المفعول هنا فتوجه الإنكار إليه ومثاله قوله تعالى في الآية الأربعين {**قل أرأيتكم إن أتاكم**

---

(١) مفاتيح الغيب ج١٢ ص١٦٦ (٢) مفاتيح الغيب ج١٢ ص١٦٧

عذاب الله أو أتتكم الساعة أغير الله تدعون } فتقديم المفعول هنا أفاد من الحسن والمزية والفخامة ما لو أخر فقيل:{ **قل أتخذ غير الله ولياً** } و{**أتدعون غير الله** } وذلك لأنه قد حصل بالتقديم معنى قولك: أويكون غير الله بمثابة أن يتخذ ولياً ؟ أيرضى عاقل من نفسه أن يفعل ذلك ؟ و أويكون جهل أجهل وعمى أعمى من ذلك؟ ولا يكون شيء من ذلك إذا قيل : أأتخذ غير الله وليا ، وذلك لأنه حينئذ يتناول الفعل أن يكون فقط ولا يزيد على ذلك . ومن ذلك الحكم في قوله تعالى:﴿ **فَقَالُوا أَبَشَراً مِّنَّا وَاحِداً نَّتَّبِعُهُ إِنَّا إِذاً لَّفِي ضَلالٍ وَسُعُرٍ**﴾ (القمر:٢٤) وذلك لأنـــهم بنوا كفرهم على أنه من كان مثلهم بشراً لم يكن بمثابة أن يتبع ويطاع ويُنتهى إلى ما يأمر ويُصدق أنه مبعوث من الله تعالى ، وأنـــهم مأمورون بطاعته كما جاء في قوله تعالى : ﴿ **قَالُوا إِنْ أَنتُمْ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا**﴾ (إبراهيم:١٠) وكذلك قوله تعالى:﴿**فَقَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ مَا هَذَا إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لأَنزَلَ مَلائِكَةً**﴾ (المؤمنون:٢٤).

وقد بسط صاحب التحرير القول في هذه الآية قال: " وشأن همزة الاستفهام بجميع استعمالاته أن يليها جزء الجملة المستفهم عنه كالمنكر هنا ، فالتقديم للاهتمام به ، وهو من جزئيات العناية التي قال فيها عبد القادر أن لابد من بيان وجه العناية وليس مفيداً للتخصيص في مثل هذا لظهور أن داعي التقديم هو تعيين المراد بالاستفهام فلا يتعين أن يكون لغرض غير ذلك . فمن جعل هنا التقديم مفيداً للاختصاص ، أي انحصار إنكار اتخاذ الولي في غير الله كما مال إليه بعض شرَّاح الكشاف فقد تكلف ما يشهد الاستعمال والذوق بخلافه، وكلام الكشاف بريء منه بل الحق أن التقديم هنا ليس إلا للاهتمام بشأن المقدم- ليلي أداة الاستفهام فيعلم أن محل الإنكار هو اتخاذ غير الله ولياً، وأما ما زاد على ذلك فلا التفات إليه من المتكلم ، ....ثم إن كان المشركون قد سألوا من النبي ﷺ أن يتخذ أصنامهم أولياء ، كان لتقديم المفعول نكتة اهتمام ثانية ، وهي كونه جواباً لكلام هو المقصود منه كما في قوله: ﴿ **أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَأْمُرُونِّي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ** ﴾ (الزمر:٦٤) وقوله : ﴿ **قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَل لَّنَا إِلَهاً كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ٠ إِنَّ هَؤُلاءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ٠ قَالَ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِيكُمْ** ﴾ (الأعراف:١٣٨-١٤٠)،

وأشار الزمخشري في قوله: { **أغير الله أبغي رباً** } الآتي في آخر السورة إلى أن تقديم { **غير الله** } على { **أبغي** } لكونه جواباً عن ندائهم له إلى عبادة آلهتـــهم" .[1]

﴿ **إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ** ﴾ (الأنعام :١٥) .

تقدم هنا ذكر الخوف على شرطه الذي من شأنه أن يتقدمه ، وهذا التقديم مسوغه الاهتمام به ، لأنه المقصود بالذكر .

﴿ **وَإِن يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلاَ كَاشِفَ لَهُ إِلاَّ هُوَ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ** ﴾ (الأنعام:١٧) .

تقدم هنا ذكر الضر على الخير، وذلك راجع إلى وقت نزول السورة ، فسورة الأنعام سورة مكية نزلت آياتـــها مخبرة عن حال الكفار من معارضتـــهم وتكذيبـــهم للرسالة وصاحبـــها وما تعرض لهﷺ من الاستهزاء به والسخرية منه كما في الآية العاشرة {**ولقد استهزئ برسل من قبلك فحاق بالذين سخروا منـــهم ما كانوا به يستهزئون**} وكذلك الأمر له أن يخبرهم بأثر المعصية وعقوبة الشرك في الآيتين السابقتين على هذه الآية { **قل إني أخاف إن عصيت ربي عذاب يوم عظيم. من يصرف عنه يومئذ فقد رحمه وذلك الفوز المبين** } ولما كان ذلك كله ضرر في الدنيا حاصل من المشركين وضرر في الآخرة لمن تنكب الصراط المستقيم ، ولما كان الله تعالى وحده هو القادر على كشف ذلك ، وكانت التخلية مقدمة على التخلية تقدم الضر على الخير في هذه الآية .

قال الأستاذ عبد الكريم الخطيب: "وفي تقديم الشر هنا على الخير ما يملأ مشاعر الإنسان خوفاً من الله وتعلقاً به واتجاهاً إليه فإن الإنسان في الخير كثيراً ما يذهل عن الله ويغفل عن ذكره ،ولكنه في حالة الشدة والضر يذكر الله . ويهتف به ويمد يده إليه كما يقول سبحانه:

﴿ **وَإِذَا مَسَّ الإِنسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيباً إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُو إِلَيْهِ مِن قَبْلُ**﴾ (الزمر:٨).

---

(١) التحرير ج٧ ص ١٥٧ ، الكشاف ج٢ ص٩.

وكما يقول :﴿ **وإذا أنعمنا على الإنسان أعرض ونأى بجانبه وإذا مسه الشر كان يئوساً** ﴾ (الإسراء:٨٣) . فما أقل أولئك الذين يجدون في نعم الله طريقاً يصلهم إلى الله ويقربـــهم منه والله سبحانه وتعالى يقول:﴿ **وقليلٌ منْ عبَاديَ الشكُورُ**﴾ (سبأ :١٣) .

أما في البلاء وأما في الشدة فإن الناس جميعاً مؤمنـــهم وكافرهم يذكرون الله ويهتمون به حتى فرعون فإنه حين أدركه الغرق قال آمنت .. وهكذا الناس تدنيهم الشدائد من الله وتقربـــهم منه .. وإنـــها لنعمة تلك الشدائد التي توجه الإنسان إلى الله لو أنه استقام على طريقه إلى الله ولم يكن من الخائنين لنفسه الذين يمكرون بآيات الله ". [1]

قال صاحب المنار :" وقد بدأ بذكر الضر لأن كشفه مقدم على نيل مقابله كما أن صرف العذاب في الآخرة مقدم على النعيم فيها " .[2]

﴿ **وَمَا الحَيَاةُ الدُّنْيَا إلاَّ لَعِبٌ ولَهْوٌ** ﴾ (الأنعام:٣٢) .

تقدم اللعب علي اللهو في الأنعام في موضعين في هذه الآية وفي قوله تعالى :
﴿ **وذَرِ الَّذينَ اتَّخذُوا دينـــهم لعباً ولَهْواً** ﴾(الأنعام:٧٠) وكذلك في سورة محمد {**إنَّمَا الحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ ولَهْوٌ**} (محمد:٣٦) وفي سورة الحديد﴿ **أنَّمَا الحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌولَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وتَكَاثُرٌ فيالأَمْوَالِ وَالأَوْلادِ**﴾(الحديد:٢٠)، وقدم اللهو على اللعب في الأنعام ﴿**الَّذينَ اتَّخَذُوا دينـــهم لَعباً ولَهْواً وَغَرَّتـــهم الحَيَاةُ الدُّنْيَا**﴾ (الأنعام:٧٠). وفي العنكبوت ﴿ **وَمَا هَذِهِ الحَيَاةُ الدُّنْيَا إلاَّ لَهْوٌ ولَعِبٌ**﴾ (العنكبوت:٦٤) .

يرى الفيروزابادي أن التقديم هنا تقديم وجودي حيث قال: " وإنما قدم اللعب في الأكثر لأن اللعب زمانه الصبا واللهو زمانه الشباب ، وزمانه الصبا مقدم على زمان الشباب يبينه ما ذكر في الحديد {**اعلموا أنما الحياة الدنيا لعب**} كلعب الصبيان {**ولهو**} كلهو الشبان {**وزينة**} كزينة النسوان { **وتفاخر**} كتفاخر الإخوان {**وتكاثر**} كتكاثر السلطان ، وقريب من هذا في تقديم لفظ اللعب على اللهو قوله:

---

(١) التفسير القرآني ج٧ ص١٤٣، ١٤٤.
(٢) المنار ج٧ ص٣٣٥

{ وما بينـــهما لاعبين ٠لو أردنا أن نتخذ لهواً لاتخذناه من لدنا } وقدم اللهو في الأعراف لأن ذلك في القيامة ، فذكر على ترتيب ما انقضى ، وبدأ بما به الإنسان انتهى من الحالتين ، وأما العنكبوت فالمراد بذكرها زمان الدنيا ، وأنه سريع الانقضاء قيل البقاء ، وإن الدار الآخرة لهي الحيوان أي الحياة التي لا بداية لها ، ولا نـــهاية لها فبدأ بذكر اللهو لأنه في زمن الشباب وهو أكثر من زمان اللعب وهو زمان الصبا" . [1]

وكلام الفيروزابادي مقبول إلا قوله عن حياة الآخرة : " أي الحياة التي لا بداية لها كيف ؟ وهي مخلوقة ، وكل مخلوق بالعدم مسبوق ، والله تعالى وحده هو الذي لا بداية له فهو الأول والآخر والظاهر والباطن ، روى مسلم في صحيحه عن سهل قال : " كان أبو صالح يأمرنا إذا أراد أحدنا أن ينام أن يضطجع على شقه الأيمن ثم يقول: اللهم رب السموات ورب الأرض ورب العرش العظيم ربنا ورب كل شيء فالق الحب والنوى ومنـــزل التوراة والإنجيل والفرقان أعوذ بك من شر كل شيء أنت آخذ بناصيته اللهم أنت الأول فليس قبلك شيء وأنت الآخر فليس بعدك شيء وأنت الظاهر فليس فوقك شيء وأنت الباطن ، فليس دونك شيء اقض عنا الدين وأغننا من الفقر وكان يروي ذلك عن أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ اللهم أنت الأول فليس قبلك شيء وأنت الآخر فليس بعدك شيء}. [2]

﴿ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِي الظُّلُمَاتِ مَن يَشَأِ اللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ (الأنعام:٣٩). تقدم هنا الصمم على البكم بينما تأخر في قوله تعالى: **﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى وُجُوهِهِمْ عُمْياً وَبُكْماً وَصُمّاً مَّأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيراً﴾** (الإسراء:٩٧).

فأقول: أما الآية الأولى فهي تبين حالة هؤلاء المعرضين عن الحق في الدنيا، فإن أول ما يفعلونه هو الصدود والإعراض بعدم السماع كما قال تعالى: **﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لاَ تَسْمَعُوا لِـــهذا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾** (فصلت:٢٦)، وفي قوله تعالى : **﴿ وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا وَلَّى مُسْتَكْبِراً كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِي أُذُنَيْهِ وَقْراً﴾** (لقمان:٧)

---

(١) بصائر ذوي الألباب جـ١ ص١٩٢ ، ١٩٣.

(٢) صحيح مسلم كتاب الذكر والدعاء رقم { ٤٨٨٨ }.

وكما قال تعالى:﴿ **وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَاراً**﴾ (نوح:٧) ويترتب على صدودهم وإعراضهم عدم الدعوة للخير أو الثناء عليه وعلى أهله ، فهم بكم عن كل خير ، أما في آية سورة الإسراء فهي تتحدث عن أحوالهم في الآخرة في أوقات مختلفة في يوم الحشر فيكونون تارة عمياً هائمين على وجوههم في الظلمات على عكس المؤمنين وذلك عند دخول الجنة حيث قال الله فيهم : ﴿**يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَى نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِم** ﴾ (الحديد :١٢)،ويكونون بكماً في موطن آخر قال الله فيه:﴿**هَذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ**﴾ (المرسلات:٣٥،٣٦)، ويكونون صماً في موطن آخر، وهو عندما يبشر المؤمنون بمغفرة الله ورضوانه والفوز بدار كرمه وإحسانه، وقد يكون البكم والصمم هنا عندما يوضعون في الجحيم فيطلبون من الله التخفيف ثم يطلبون الموت فيختم على أفواههم ثم على سمعهم كما في قوله تعالى: ﴿ **قَالَ اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ**﴾ (المؤمنون:١٠٨).

﴿ **قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ السَّاعَةُ أَغَيْرَ اللَّهِ تَدْعُونَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ۝ بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِن شَاءَ وَتَنسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ** ﴾ (الأنعام:٤٠،٤١) وتقديم المفعول في قوله: { **بل إياه تدعون** } للقصر قصر إفراد للرد على المشركين في زعمهم أهم يدعون الله ويدعون أصنامهم .

وقدرأى أبوحيان أن التقديم للاعتناء وأن الحصر فهم من سياق الكلام.
وأقول : إن رأي أبي حيان لا يستقيم إلا على ربط الآية السابقة وهي قوله تعالى :{**أغير الله تدعون**}وقد تقدم فيها { **أغير الله** } على عامله وهو قوله: { **تدعون** } لتكون الجملة المستفهم عنها جملة قصر ، لحكاية حالهم في دعائهم غير الله . والآيتان مستقلتان إعراباً وإن كان المعنى مترابطاً، وحينئذ كان الأولى بأبي حيان أن يقول بقول الرازي والزمخشري مع ما ذكره من إفادة الحصر من المفهوم أيضاً كما ذكر.[1]

---

(١) البحر المحيط ج٤ ص١٣٢.

﴿ وَلاَ تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّــهم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِــهِم مِّن شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ (الأنعام:٥٢) قال أبوحيان: "وانظر إلى حسن اعتنائه تعالى بنبيه ، وتشريفه بخطابه ، حيث بدأ به في الجملتين معاً فقال :{**ما عليك من حسابــهم من شيء** } ثم قال : { **وما من حسابك عليهم من شيء** } فقدم خطابه في الجملتين ، وكان مقتضى التركيب الأول لو لوحظ ، أن يكون التركيب الثاني وما عليهم من حسابك من شيء لكنه قدم خطاب الرسول وأمره تشريفاً له عليهم ، واعتناء بمخاطبته ". [(١)]

وقد ذهب إلى ذلك السمين الحلبي أيضاً قال: " وقدم خطابه ﷺ في الجملتين تشريفاً له ، ولو جاءت الجملة الثانية على نمط الأولى لكان التركيب: وما عليهم من حسابك من شيء ، فتقدم المجرور بـــ{ **على** } ، كما قدمته في الأولى ، لكنه عدل عن ذلك لما تقدم ، وفي هاتين الجملتين ما يسميه أهل البديع رد الأعجاز على الصدور كقولهم: " عادات السادات سادات العادات" ومثله في المعنى قول الشاعر:

وليس الذي حللته بمُحلَّل وليس الذي حرَّمته بحرام[(٢)]

قال صاحب التحرير: "وتقديم المسندين على المسند إليهما في قوله: {**ما عليك من حسابــهم من شئ وما من حسابك عليهم من شيء** } تقديم غير واجب لأن للابتداء بالنكرة هنا مسوغاً ، وهو وقوعهما في سياق النفي ، فكان تقديم المجرورين هنا اختيارياً فلا بد له من غرض والغرض يحتمل مجرد الاهتمام ويحتمل الاختصاص ، وحيث تأتى معنى الاختصاص هنا فاعتباره أليق بأبلغ كلام ولذلك جرى عليه كلام الكشاف ، وعليه فمعنى الكلام قصر نفي حسابــهم على النبي ﷺ ليفيد أن حسابــهم على غيره وهو الله تعالى وذلك هو مفاد القصر الحاصل بالتقديم إذا وقع في سياق النفي، وهو مفاد خفي على كثير لقلة وقوع القصر بواسطة التقديم في سياق النفي ومثاله المشهور قوله تعالى : {**لا فيها غول**} .[(٣)]

---

(١) البحر المحيط جـ٤ ص١٤١. (٢) الدر المصون جـ٣ ص٦٩،٧٠. (٣) التحرير جـ٨ ص٢٥٠.

قال الألوسي: "وتقديم خطابه ﷺ في الموضعين قيل للتشريف له – عليه أفضل الصلاة وأفضل السلام –وإلا كان الظاهر وما عليهم من حسابك من شيء بتقديم على ومجرورها كما في الأول ، وقيل إن تقديم عليك في الجملة الأولى للقصد إلى إيراد النفي على اختصاص حسابهم به ﷺ " [1]

وقد ذهب صاحب المنار إلى أن التقديم في الوضعين جاء على الأصل العام في اللغة وهو تقديم الأهم بحسب سياق الكلام ،والأهم في الأول النفي ، وفي الثاني المنفي ،أي الهم في كل موضع ما يتعلق به ﷺ لأنه تعليل لانتفاء عمل له وهو الطرد مترتب على ذلك النفي ، ولو كان الثاني تعليلاً لعمل لهم لقال:**{وما من حسابك عليهم من شيء فيطردوك}**.[2]

أقول: وفي الآية تقديم آخر وهو تقديم الغدو على العشي ، وهو تقديم لسبق الوجود سواء فسر الغدو بصلاة الصبح والعشي بصلاة العصر أو المغرب أو العشاء ،أو فسر الغدو والعشي بطرفي النهار.

﴿ قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ قُل لاَّ أَتَّبِعُ أَهْوَاءكُمْ قَدْ ضَلَلْتُ إِذاً وَمَا أَنَاْ مِنَ الْمُهْتَدِينَ ﴾ (الأنعام:٥٦) .

تقدم جواب { **إذن** } وهو قوله :{ **قد ضللت** } وذلك للاهتمام بالجواب وهو تيئيسهم أن يتبع النبي ﷺ أهواءهم .

﴿ قُلْ إِنِّي عَلَى بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَكَذَّبْتُم بِهِ مَا عِندِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلَّهِ يَقُصُّ الْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ ﴾ (الأنعام:٥٧) .

تقدم الظرف { **عندي** } فأفاد القصر لأنــهم توهموا من توعد النبي ﷺ لهم بالعذاب أن ذلك في مقدرته هو أو من عنده فجعلوا تأخر الوعيد إخلاف فرد عليهم أن الوعيد بيد الله وحده مقصوراً عليه، ولذا تقدم الظرف.

﴿ وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لاَ يَعْلَمُهَا إِلاَّ هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلاَّ يَعْلَمُهَا وَلاَ حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الأَرْضِ وَلاَ رَطْبٍ وَلاَ يَابِسٍ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴾ (الأنعام:٥٩). تقدم الظرف{ **عنده**} لإفادة الاختصاص أي عنده لا عند غيره ، أيضاً في هذه الآية تقدم العلم بما في البر على العلم بما في البحر، وإن كان البحر أعظم وأوسع لأن الناس إنما يعيشون في البر وليس

---

(١) روح المعاني ج٧ص١٦٠.

(٢) المنار ج٧ ص٤٤١.

البحر أو لأن مخلوقات البر أكثر وعجائبه أعظم أو لأن ظهور معجزات البر أقرب ظهوراً من معجزات البحر ومن هذا الباب جاء قوله تعالى في نفس السورة

﴿ قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعاً وَخُفْيَةً لَّئِنْ أَنجَانَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ (الأنعام:٦٣).

قال الخازن: " فقدم ذكر البر والبحر لما فيهما من العجائب والغرائب من المدن والقرى والمفاوز والجبال وكثرة ما فيها من المعادن والحيوان ، وأصناف الخلق مما يعجز الوصف عن إدراكها ، ثم ذكر بعد ذلك ما هو أقل من ذلك وهو مشاهد لكل أحد لأن الورقة الساقطة والثابتة يراها كل أحد لكن لا يعلم عددها وكيفية خلقها إلا الله تعالى ثم ذكر بعد ذلك ما هو أصغر من الورقة وهي الحبة ثم ذكر بعد ذلك مثالاً يجمع الكل وهو الرطب واليابس" .[1]

﴿ وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَى أَجَلٌ مُّسَمًّى ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ٠وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لاَ يُفَرِّطُونَ ﴾ (الأنعام:٦٠،٦١) ، تقدم الجار والمجرور **{ إليه }** على متعلقه المبتدأ المؤخر **{ مرجعكم }** للحصر والاختصاص ، وكذا تقدم المفعول به **{ أحدكم }** على فاعله **{ الموت}** للتخويف لتستعد النفس لـــهذا الموت الذي سوف يأتيها ولا محيد لها عنه .

قال السمين الحلبي :"وقدم التوفي بالليل ، لأنه أبلغ في المنّة عليهم ، ولا سيما عند من يخص الجرح بكسب الشر دون الخير ".[2]

﴿وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَــهم لَعِباً وَلَهْواً وَغَرَّتْــهم الْحَيَاةُ الدُّنْيَا ﴾(الأنعام:٧٠).

قال صاحب درة التنـــزيل: ، وقال في سورة الأعراف :**﴿ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ ٠الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَــهم لَهْواً وَلَعِباً وَغَرَّتْــهم الْحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾** (الأعراف:٥٠،٥١) .

وقال في سورة العنكبوت :**﴿ وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ لَهْوٌ وَلَعِبٌ﴾** (العنكبوت:٦٤) . فقدم اللعب على اللهو كما قدمه في سورة الأنعام .

---

(١) الخازن ج٢ ص ٣٨٨.　　(٢) الدر المصون ج٣ ص٨١.

للسائل أن يسأل فيقول: إذا كانت الواو للجمع بين الشيئين والأشياء بلا ترتيب ، فهل لتقديم أحد الاسمين على الآخر في موضع دون موضع ، وتقديم الآخر عليه في غير ذلك الموضع فائدة تختصه أم كان جائز في كل مكان تقديم أيهما شاء المتكلم لا لغرض يختصه ؟

الجواب ، أن يقال : أما الآية الأولى التي في السورة فإنها في قوم من الكفار كانوا إذا سمعوا آيات الله هزلوا عندها واستهزءوا بـــها، فهذا اتخاذهم دين الله لعباً ولهوا، وهو كما قال في آية أخرى: ﴿ **وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الكتاب أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِـــهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِـــهَا فَلاَ تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنكُمْ إِذاً مِّثْلُهُمْ** ﴾ (النساء: ١٤٠) فقوله عز وجل {**وذر الذين اتخذوا دينـــهم لعباً ولهواً** } كقوله:

{ **فلا تقعدوا معهم** } فهؤلاء قوم حضروا النبي ﷺ وسمعوا القرآن وعبثوا عند سماعه وتلاعبوا بآياته وأجروها مجرى أفعال يستروح إليها ولا نفع في عقباها ، ثم شغلوا بدنياهم عن تدبرها وألهتـــهم بحلاوتـــها عن الفكر في صحتها ، فأول أفعالهم لعب وثانيها لهو ، واللعب فعل في طاعة الجهل تتعجل منه مسرة ، واللهو قال فيه صاحب العين { **ما شغل الإنسان من هوى وطرب** } فهؤلاء لما فعلوا عند سماع القرآن من الاستهزاء والعبث أطلق على فعلهم اسم اللعب ، ثم لما شغلوا عنها باستحلاء الدنيا كان هذا لهواً منـــهم بعد اللعب ، وكان أول دينـــهم لعباً وما بعده لهواً ، فلذلك قدم لعب على لهو في هذه الآية ، وأما قوله تعالى في سورة الأعراف : ﴿ **وَنَادَى أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ المَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الكَافِرِينَ ٠ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَـــهم لَهْواً وَلَعِباً وَغَرَّتْـــهم الحَيَاةُ الدُّنْيَا** ﴾ (الأعراف: ٥٠،٥١). وتقديم اللهو على اللعب في هذه الآية فلأن المقصود بالكافرين هنا عامة الكفار غير مختص لمن سمع الآيات ، فقدم فعل أكثرهم على فعل أقلهم وهم الذين شغلتـــهم الدنيا وحلاوتـــها والولادة وعادتـــها واستحلاء ما مرت عليه طباعها وهذا هو اللهو ، ثم كانت أفعالهم التي اقتدوا فيها بآبائهم لما طابت لهم و لم يجدوا في العاقبة نفعاً عليهم كاللعب الذي ينطوي على أفعال تبطل في الآجل وإن سرت في العاجل وهذا بعد الأول ، وأكثر الكفار داؤهم اللهو وإن شغلهم الحال التي استصحبوها عن

الفكر فيما يطرأ عليها، فوجب هنا تقديم ذكر اللهو لوجهين لتقدمه على ما هو كاللعب، ولأنه فعل أكثرهم ، واللعب الذي أريد في الآية الأولى فعل أقلهم ، وهو هناك أول وهو ما رد به ما جاء به الرسول ﷺ وأما قوله تعالى في سورة الحديد :﴿ **اعْلَمُوا أَنَّمَا الحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ ولَهْوٌ وَزِينَةٌ وتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وتَكَاثُرٌ فِي الأَمْوَالِ والأَوْلادِ**﴾ (الحديد:٢٠) . وتقديم اللعب فيه على اللهو فلأن معناه الحياة الدنيا لمن اشتغل بـــها ولم يتعب لغيرها من أعمال الآخرة مقسومة من الصبا وهو وقت اللعب، وبعده اللهو وهو الترويح عن النفس بملاعبة النساء ويتبع ذلك أخذ الزينة لـــهن ولغيرهن ، ومن أجل الزينة نشأت مباهاة الأكفاء ومفاخرة الأشكال والنظراء ، ثم بعده المكاثرة بالأموال والأولاد ، فترتبت الحياة على هذه الأحوال ، فوجب تقديم حال اللعب على حال اللهو " .[1]

﴿ **وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَاماً آلِهَةً إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلالٍ مُّبِينٍ** ﴾ (الأنعام:٧٤) . تقدم قوله: { **أصناماً** } على قوله: { **ءالهة** } لأنـــها المقصودة بالإنكار والاستغراب.

﴿ **فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَباً قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لا أُحِبُّ الآفِلِينَ ۝ فَلَمَّا رَأَى القَمَرَ بَازِغاً قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لأَكُونَنَّ مِنَ القَوْمِ الضَّالِّينَ ۝ فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ** ﴾ (الأنعام: ٧٦-٧٨).

تقدم الجار والمجرور{ **عليه** } على متعلقه {**الليل**} للاهتمام به لأنه هو المقصود ببيان حاله وليس الليل ، ثم إن الترتيب المذكور في نظر إبراهيم – عليه السلام – في ملكوت السموات إنما هو ترتيب وجودي حيث نظر أولاً في الكوكب ثم في القمر ثم في الشمس وعن سر هذا الترتيب قال الأستاذ عبد الكريم الخطيب : " وسؤال آخر : لماذا كان أول ما نظر إليه إبراهيم من ملكوت الله هو الكوكب أي النجم ثم القمر ثم الشمس ؟ ولَمَ لم يتجه نظره أولاً إلى الشمس إذ كانت أعظم ما يوجه الإنسان في هذه المخلوقات ؟

---

(١) درة التنزيل ص٦٥،٦٦.

والجواب .. أن وحشة الليل ، ورهبة ظلامه تجعل لأي لمعة من لمعات الأنوار وقعاً على النفس وتأثيراً على المشاعر، وليست كذلك النظرة إلى الشمس التي تكاد سطوة أضوائها تذهب بكل إحساس وجودها .

وهذا ما نراه في نظر إبراهيم إلى هذا الكوكب أولاً ثم إلى القمر ثانياً ذلك أن هذا الكوكب وهو نجم من تلك النجوم التي يتلألأ ضوؤها كلما اشتد ظلام الليل وأطبقت حلكته ، هو في تلك الحال أفعل في النفس وأكثر إلفاتاً للنظر من القمر الذي يغمر نوره ما احتواه الليل كله، وإذ لم ير إبراهيم في ملكوت الله وما يبزغ فيه من نجم أو قمر إذ لم ير في هذا الملكوت إلهه الذي ينشده شخص ببصره إلى ملكوت النهار فرأى الشمس تبسط سلطانـــها فعلق بـــها نظره واحتواها عقله وقلبه وقال:{**هذا ربي هذا أكبر**}.[1]

﴿ **أُولَئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ** ﴾ (الأنعام:٨٢) تقدم الجار والمجرور { **هم** } علي متعلقه { **الأمن** } لإفادة اختصاصه بغير العصاة.

﴿ **قُلْ أَغَيْرَ اللّهِ أَتَّخِذُ وَلِيّاً** ﴾ (الأنعام:١٤).

في هذا الاستفهام الإنكاري تقدم المفعول {**غير**} فليس الإنكار موجهاً إلى اتخاذ الولي أو إلى الدعاء ، وإنما هو موجه إلى أن يكون غير الله بمثابة أن يتخذ ولياً ، أو يدعى فإن ذلك لا يرضى به عاقل ولو قدِّم الفعل في ذلك لتوجه الإنكار إليه ، وكان المعنى نفي حصوله، ، ولم يفد في المفعول ذلك المعنى الذي أفاده تقديم المفعول .

﴿ **وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلاًّ هَدَيْنَا وَنُوحاً هَدَيْنَا مِن قَبْلُ وَمِن ذُرِّيَّتِهِ دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ • وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَى وَعِيسَى وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِّنَ الصَّالِحِينَ • وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطاً وَكُلاًّ فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ** ﴾ (الأنعام:٨٤-٨٦) .وفي هاتين الآيتين لم يراع الترتيب الزمني ولا الترتيب بحسب الفضل وعلو الدرجة فما هو السر في هذا الترتيب ؟ يجيب عن ذلك الفخر الرازي بتوجيه حسن لسر الترتيب في هاتين الآيتين فيقول:

---

(١) التفسير القرآني جـ٧ ص٢٢٤،٢٢٥.

فإن قيل: رعاية الترتيب واجبة ، والترتيب إما أن يعتبر بحسب الفضل والدرجة ، وإما أن يعتبر بحسب الزمان والمدة ، والترتيب بحسب هذين النوعين غير معتبر في هذه الآية فما السبب فيه؟

قلنا: الحق أن حرف الواو لا يوجب الترتيب ، وأحد الدلائل على صحة هذا المطلوب هذه الآية ، فإن حرف الواو حاصل هنا مع أنه لا يفيد الترتيب البتة ، لا بحسب الشرف ولا بحسب الزمان وأقول عندي فيه وجه من وجوه الترتيب، وذلك لأنه تعالى خص كل طائفة من طوائف الأنبياء بنوع من الإكرام والفضل .

فمن المراتب المعتبرة عند جمهور الخلق : الملك والسلطان والقدرة ، والله تعالى قد أعطى داود وسليمان من هذا الباب نصيباً عظيماً .

والمرتبة الثانية البلاء الشديد والمحنة العظيمة ، وقد خص الله أيوب بـــهذه المرتبة والخاصية .

والمرتبة الثالثة من كان مستجمعاً لهاتين الحالتين ، وهو يوسف - عليه السلام- فإنه نال البلاء الشديد الكثير في أول الأمر ، ثم وصل إلى الملك في آخر الأمر .

المرتبة الرابعة من فضائل الأنبياء -عليهم السلام- وخواصهم قوة المعجزات وكثرة البراهين والمهابة العظيمة والصولة الشديدة وتخصيص الله تعالى إياهم بالتقريب العظيم والتكريم التام ، وذلك كان في حق موسى وهارون.

المرتبة الخامسة الزهد الشديد والإعراض عن الدنيا ، ترك مخالطة الخلق ، وذلك كما في حق زكريا ويحي وعيسى وإلياس ، ولهذا السبب وصفهم الله بأنه من الصالحين .

والمرتبة السادسة الأنبياء الذين لهم فيما بين الخلق أتباع وأشياع ، وهم إسماعيل واليسع ، ويونس ، ولوط ، فإذا اعتبرنا هذا الوجه الذي راعيناه ظهر أن الترتيب حاصل في ذكر هؤلاء الأنبياء - عليهم السلام- بحسب هذا الوجه الذي شرحناه ".[1]

---

(١) مفاتيح الغيب ج٣ ص٦٨، ٦٩.

قال البقاعي: "ولما كانا مع ذلك ملكين- يقصد داود وسليمان- تلاهما بمن شابههما في الملك أو الحكم علة الملوك فقال: {**وأيوب**} وقدمه لمناسبة ما بينه وبين سليمان في أن كلاً منهما ابتلي بأخذ كل ما في يده ثم رده الله إليه { **ويوسف** }، وكل من هؤلاء الأربعة ابتلي فصبر واغتنى فشكر ..ولما كان يوسف- عليه السلام- ممن أعلى الله كلمته على كلمة ملك مصر وأعز ملكها وأهلها وأحياهم به أتبعه من أعلى الله كلمتهما على كلمة ملك مصر وأهلها وأهلكهم بهما ، فكأن بعض قصصهم وفاق وبعضها تقابل وطباق فقال: {**وموسى وهارون**}..ولما كان المذكوران قبله ممن سلطهما على الملوك ، أتبعهما من سلط الملوك عليهما بالقتل فقال: { **وزكريا ويحي**} ثم أتبعهما من سلط الملوك عليهما بالقتل وأدام الله سبحانه حياتهما إلى أن يريد سبحانه فقال: { **وعيسى وإلياس** } ولما كان هؤلاء الأربعة من الصابرين قال مادحاً لهم على وجه يعم من قبلهم { **كل** } أي من المذكورين { **من الصالحين**} ثم أتبعهم من لم يكن بينهما وبين الملوك أمر وهدى بهما من كان بين ظهرانيه فقال:{**وإسماعيل واليسع**} .. ولما كان إسماعيل واليسع ممن هدى الله قومهما من غير عذاب أتبعهما من هدى الله قومه بالعذاب وأنجاهم بعد إتيان مخايله فقال { **ويونس** }أي هديناه ولما انقضت ذرية إبراهيم -عليه السلام-، ختم بابن أخيه الذي ضل قومه فهلكوا بغتة فبين قصة هذين الآخرين طباق من جهة الهلاك والنجاة ، ووفاق من حيث إن كلاً منهما أرسل إلى غير قومه فقال: { **ولوطاً** }."[1]

وقد ذهب الخازن إلى نحو ما ذهب إليه الرازي قال: "واعلم أن الله تعالى ذكر هنا ثمانية عشر نبياً من الأنبياء - عليهم السلام- من غير ترتيب لا بحسب الزمان ولا بحسب الفضل ، لأن الواو لا تقتضي الترتيب ، ولكن هنا لطيفة أوجبت هذا الترتيب، وهي أن الله تعالى خص كل طائفة من طوائف الأنبياء - عليهم السلام- بنوع من الكرامة والفضل ، فذكر أولاً نوحاً وإبراهيم وإسحق ويعقوب لأنهم أصول الأنبياء وإليهم ترجع

(١) نظم الدرر ج٢ ص٦٦٧، ٦٦٨.

أنسابــهم جميعاً ثم إن المراتب المعتبرة بعد النبوة الملك والقدرة والسلطان قد أعطى الله داود وسليمان من ذلك حظاً وافراً من المراتب : الصبر عند نزول البلاء والمحن والشدائد وقد خص الله بــهذه أيوب - عليه السلام- ثم عطف على هاتين المرتبتين من جمع بينــهما وهو يوسف - عليه السلام - فإنه صبر على البلاء والشدة إلى أن أعطاه الله ملك مصر مع النبوة ثم من المراتب المعتبرة في تفضيل الأنبياء عليهم السلام كثرة المعجزات وقوة البراهين ، وقد خص الله موسى وهارون من ذلك بالحظ الوافر ثم من المراتب المعتبرة الزهد في الدنيا والإعراض عنها ، وقد خص الله بذلك زكريا ويحيى وعيسى وإلياس - عليهم السلام — ولــهذا السبب وصفهم بأنــهم من الصالحين ثم ذكر الله من بعد هؤلاء الأنبياء من لم يبق له أتباع ولا شريعة وهو إسماعيل واليسع ويونس ولوط ، فإذا اعتبرنا هذه اللطيفة على هذا الوجه كان هذا الترتيب من أحسن شيء يذكر ، والله أعلم بمراده وأسرار كتابه ". [1]

قال الأستاذ عبد الكريم الخطيب: "وأمر هنا نحب أن نقف عنده ونلتفت إليه وهو أن الترتيب الزمني لم يكن هو الأساس الذي قام عليه النظم القرآني في ذكر هؤلاء الأنبياء ، من ذرية نوح وإبراهيم والملحظ الذي نود أن نشير إليه ، هو أن إسماعيل لم يذكر مع إسحاق ، مع أنــهما ولدا إبراهيم ، لم يكن له ولد غيرهماومنــهما كانت جميع ذريته وإسماعيل هو البكر وولد له بعده إسحاق.هذه حقيقة لا خلاف عليها عند أهل الكتاب من يهود ونصارى ، كما أنــها حقيقة مقررة في القرآن الكريم فلمَ لمْ يجيء النظم القرآني هكذا { **ووهبنا له إسماعيل وإسحاق ويعقوب** }؟ ولا جواب لــهذا إلا أنه كلام رب العالمين وأنه لو كان من عمل بشر لما جاء هكذا في النظم القرآني بل لالتزم فيه واضعه الترتيب الزمني .أما {**محمد**} فلو أن هذا الكلام كان وضعه ، لكان أول ما يعمله هو أن يبدأ بإسماعيل لأنه أبوه أولاً ولأنه أسبق من إسحاق ثانياً أليس في هذا عبرة لمعتبر ؟ أليس في هذا إخراس لكل مقولة تقال في القرآن الكريم ، إنه من قول بشر؟ ذلك هدى الله يهدي به من

---

(١) الخازن ج٢ ص٤٠٧،٤٠٨.

يشاء من عباده " [1]وقد تقدم في الآية المفعول به { **كلاً** } على فاعله { **هدينا** } وقد أفاد هذا التقديم القصر لا بالنسبة إلى غيرهما بل بالنسبة إلى أحدهما أي كل واحد منـــهما { **هدينا** } لا أحدهما دون الآخر .

وقد ادعى صاحب المنار السبق إلى معنى لم يسبق إليه عن سر الترتيب في هذه الآية عندماذهب إلى أن الترتيب إما على أساس فضيلة دنيوية أو أخروية.

وأقول: وأنّى له ادعاء السبق ؟ وقد سبقه إلى ذلك من ذكرنا آنفاً الخازن والرازي[2]

﴿ وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَى مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّــهم فِيكُمْ شُرَكَاءُ لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴾ (الأنعام:٩٤) .

قال صاحب التحرير: "وتقديم المجرور في قوله: **{فيكم شركاء}** للاهتمام الذي وجهه التعجيب من هذا المزعوم إذ جعلوا الأصنام شركاء لله في أنفسهم ،وقد علموا أن الخالق هو الله تعالى فهو المستحق للعبادة وحده فمن أين كانت شركة الأصنام لله في استحقاق العبادة ، يعني لو ادعوا للأصنام شيئاً مغيباً لا يعرف أصل تكوينه لكان العجب أقل ، لكن العجب كل العجب من ادعائهم لهم الشركة في أنفسهم ، لأنــــهم لما عبدوا الأصنام وكانت العبادة حقاً لأجل الخالقية ، كان لزمهم من العبادة أن يزعموا أن الأصنام شركاء لله في أنفس خلقه ، أي في خلقهم". [3]

أقول: وهنا تقدم أيضاً الجار والمجرور{ **معكم** }على قوله:{**شفعاءكم** } لأن المقصود هنا تبكيتــــهم وتوبيخهم بعدم نفع الشفعاء لهم ولإعظام الحسرة في قلوبــــهم حيث لا ناصر ولا شفيع ، وتقدم الجار والمجرور في الآية التالية في عدة مواضع {**فأخرجنا منه خضرا نخرج منه حباً متراكباً ومن النخل من طلعها قنوان دانية**} أيضاً لإظهار الالتفات إلى عجيب القدرة بالنظر إلى الشيء المخلوق منه .

﴿ فَالِقُ الإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَناً وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَاناً ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ٠وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِــها فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ ﴾ (الأنعام: ٩٦،٩٧).

---

(١) التفسير القرآني جـ٧ ص٢٣٠. (٢) المنار جـ٧ ص ٥٨٧، ٥٨٨ (٣) التحرير والتنوير جـ٧ ص٣٨٤

ذكر أولاً خلق الليل ثم ذكر في الآية التالية جعل النجوم للاهتداء لمناسبة الترتيب الوجودي والتذكير بمنة خلق النجوم وبيان رحمة الله بعباده والتي منها خلق النجوم التي يحتاج إليها علم الجغرافية الفلكية بكل تخصصاته. وقد أشار إلى ذلك المراغي في معرض تفسيره لسورة البقرة .[1]

أقول: وقد تقدم ظلمات البر على ظلمات البحر لأن السير في البر أكثر من السير في البحر فكانت حاجة المسافرين إلى الاهتداء بالنجوم أكثر منها في البر.

﴿ وَهُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِراً نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبّاً مُّتَرَاكِباً وَمِنَ النَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهاً وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ انظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَلِكُمْ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ (الأنعام:٩٩) هذه الآية تقدمت في الذكر على الآية الواحدة والأربعين بعد المائة**﴿ وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَ جَنَّاتٍ مَّعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفاً أُكُلُهُ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُتَشَابِهاً وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ كُلُوا مِن ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ وَلاَ تُسْرِفُوا إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾** (الأنعام:١٤١) .

وأقول :إن السر في تقدم الآية الأولى أنها سيقت للاستدلال بها على الصانع الحكيم لإثبات قضية الربوبية ، والآية الثانية سيقت لبيان الإذن في الانتفاع بها فتقدم الاستدلال بالسعادة الروحية الناشئة من النظر على السعادة الجسمانية المترتبة على الانتفاع بهذه المطعومات.

قال الخازن: " في هذه الآية السابقة : واعلم أن الله تعالى ذكر في هذه الآية أربعة أنواع من الشجر بعد ذكر الزرع ، وإنما قدم الزرع على سائر الأشجار لأن الزرع غذاء وثمار الأشجار فواكه والغذاء مقدم على الفواكه، وإنما قدم النخلة على غيرها أن ثمرتها تجري مجرى الغذاء ، وفيها من المنافع والخواص ما ليس في غيرها من الأشجار وإنما ذكر العنب عقب النخلة ، لأنها من أشرف أنواع الفواكه ثم ذكر عقبه الزيتون لما فيه من البركة

(١) المراغي ج٢ ص٣٥.

والمنافع الكثيرة في الكل وسائر وجوه الاستعمال ثم ذكر عقيبه الرمان لما فيه من المنافع أيضاً لأنه فاكهة ودواء ".[1]

أقول: وقد أثبت الدراسات الحديثة ما في ثمرات النخيل من فوائد عظام وألفت فيه المؤلفات التي كشفت عن أهمية هذه الثمرة العظيمة وما فيها من منافع غذائية وعلاجية من هذه الكتب [**كتاب الأسودان التمر والماء بين القرآن والسنة والطب الحديث**] تأليف الدكتور حسان شمسي باشا تحدث فيه عن التمر عبر التاريخ وأطوار ثمرة النخيل ، تركيب التمور،الرطب والولادة، نظرات في آيات الرطب.[2]

وقال صاحب المنار "وعطف عليه – يقصد الحب المتراكب– ما يخرجه تعالى من طلع النخل،من القنوان المشابه لسنابل القمح،في نضد ثمره وتركيبها،ومنافعها وغرائبها، فإن في كل منهما أفضل غذاء للناس ، وعلف للدواب والأنعام، وذكر بعده جنات الأعناب لأنها أشبه بالنخيل في هذه الأبواب ، فالعناقيد تشبه العناقيد في تكوينها ،وتراكب حبها وألوان ثمرها كما تشبهها في درجات تطورها ، فالحصرم كالبسر والعنب كالرطب والزبيب كالتمر ويخرج من كل منهما عسلٍ وخل وخمر، ثم ذكر الزيتون والرمان معطوفاً على نبات كل شيء أو منصوباً على الاختصاص لا على قبله من النخيل والأعناب ، لأن ما بينهما من التشابه في الصورة ، محصور في الورق دون الثمرة ،وأما مكانهما من المنفعة والفائدة ، فالأول في الدرجة الثالثة والآخر في الدرجة الرابعة ، ذلك بأن الزيتون وزيته غذاء فقط ولكنه تابع للطعام غير مستقل بالتغذية ، والرمان فاكهة وشراب فقط ولكنهما دون فواكه النخيل والأعناب وأشربتهما في المرتبة ، فناسب جعله بعدهما والإشارة باختلاف الإعراب إلى رتبة كل منهما، وبناء على اختلاف المراتب قدم نبات الحب على الجميع لأنه الغذاء العظم الأعم لأكثر الناس وأكثر أنواع الحيوان الأهلية التي تقوم أكثر مرافقهم ومنافعهم بها فسبحان من هذا كلامه".[3]

---

(١) الخازن ج٢ ص٤١٩ ، ٤٢٠. (٢) الأسودان التمر والماء بين القرآن والسنة والطب الحديث انظر الفصل الأول

(٣) المنار ج٧ ص ٦٤٤،٦٤٥.

وأقول: ما أجمل هذه اللفتة التي تنم عن ذوق راق رائع لـــهذا العلامة الذي فتح لنا باباً جديداً في أسلوب التقديم والتأخير يعتمد على التمعن في الصور الجمالية التي تحلل هذا التركيب ، وكأننا أمام لوحة طبيعية يقوم فنان عظيم بتحليل عناصرها ولله المثل الأعلى ولكلامه المقام الأسنى والأعلى الذي لا يقايسه كلام ولا يدانيه تصور أو يرقى إليه مرام .

﴿ **وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ** ﴾ (الأنعام:١٠٠)

على إعراب { **شركاء الجن** } مفعولي جعل قلنا بالتقديم كما ذكره الزمخشري وفائدة التقديم كما قال : "استعظام أن يتخذ لله شريك من كان ملكاً أو جنياً أو إنسياً أو غير ذلك ولذلك قدم اسم الله على الشركاء " .[١]

وهذه الآية التي استدل بـــها ابن أبي الأصبع على قوله : "ولقد ينتقل بالتقديم والتأخير المعنى إلى ضده ومن أغفل مراعاة ذلك أغفل أصلاً عظيماً من علم البيان وجهل جملاً من آي القرآن "[٢]

﴿ **ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ** ﴾(الأنعام:١٠٢).

قال صاحب درة التنــــزيل: وقال في سورة المؤمن:﴿ **ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ** ﴾ (غافر:٦٢) .

لماذا قدم في سورة الأنعام لا إله إلا هو على خالق كل شيء ؟ وقدم في سورة المؤمن خالق كل شيء على قوله لا إله إلا هو ؟

والجواب أن يقال : لأن ما في هذه السورة جاء بعد قوله تعالى: { **وجعلوا لله شركاء الجن وخلقهم وخرقوا له بنين وبنات بغير علم** } فلما قال: { **ذلكم الله ربكم** } ، أتى بعده بما يدفع قول من جعل له شريكاً فقال: لا إله إلا هو ، ثم قال خالق كل شيء ، وفي سورة المؤمن جاء هذا بعد قوله لخلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس ولكن أكثر الناس لا يعلمون ، فكان الكلام على تثبيت خلق الإنسان لا على نفي الشريك عنه كما كان في الآية الأولى ، فكان تقديم خالق كل شيء هاهنا أولى وإلى مثل هذا القول ذهب الفيروزابادي ولعله استفاده من الإسكافي " .[٣]

---

(١) الكشاف ج٢ ص٥٠. (٢) تحرير التحبير ص٢٢٩. (٣) درة التنزيل ص٦٧ ؛ بصائر ذوي التمييز ج١ ص١٩٧.

قال الشعراوي: " انظر التقديم بكلمة رب قبل { **لا إله إلا هو** } كلمة { **رب**} هذه هي حيثية { **لا إله إلا هو** } لأن إلها تعني معبوداً ومعبوداً يعني مطاعاً ومطاعاً يعني له أوامر ونواه ولماذا ولأي سبب؟ السبب أنه الرب المتولي الإيجاد والتربية ، ومن الواجب والمعقول أن نسمع كلامه لأنه هو الرب والخالق وهو الذي يرزق " [(١)]

﴿ **قَدْ جَاءَكُم بَصَائِرُ مِن رَّبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ** ﴾ (الأنعام:١٠٤)، وقد أحسن صاحب التحرير في التفاتته عن سبب التقديم في هذه الآية، إذ يقول : "وإنما نسج نظم الآية على هذا النسج لإيذان بأن { **لنفسه**} مقدم في التقدير على متعلقه المحذوف ، والتقدير : فلنفسه أبصر ، ولولا قصد الإيذان بــهذا التقديم لقال : فمن أبصر أبصر لنفسه كما قال: { **إن أحسنتم أحسنتم لأنفسكم**} والمقام يقتضي تقديم المعمول هنا ليفيد القصر ، أي فلنفسه أبصر لا لفائدة غيره ".[(٢)]

أقول : وقد تقدم الجار والمجرور { **عليكم** } على الخبر { **بوكيل** }، وهذا التقديم هنا للاهتمام والاعتناء بنفي الوكالة عنــهم خاصة سواء أكانت الوكالة هنا بمعنى وكالته بــهدايتــهم أو بمعنى الوكالة بحفظهم ، إذ كل ذلك من خصائص الله عز وجل دون من سواه .

﴿ **وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوّاً شَيَاطِينَ الإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُوراً** ﴾(الأنعام:١١٢) تقدم شياطين الإنس على شياطين الجن هنا مع أن شياطين الجن أسبق في العداوة زماناً حيث ابتدأت من زمن خلق آدم وعدم سجود إبليس له ، والتقديم هنا راجع في نظري إلى أمرين:

الأول: أن يكون تقديم شياطين الإنس هنا لأنــهم الأظهر في العداوة، أو أنــهم الأعظم خطراً والأشد أثراً، وقد ذكر الرازي حديثاً بغير أن يسنده ،فلو صح هذا الحديث لكان قاطعاً في أن التقديم للثاني لا للأول وهو ما روي عن النبي ﷺ أنه قال لأبي ذر هل تعوذت بالله من شر شياطين الجن والإنس ؟

---

(١) الشعراوي ج٦ ص٣٨٣٨. (٢) التحرير ج٧ ص٤٢٠.

قال قلت، وهل للإنس من شياطين ؟قال: {**نعم هم شر من شياطين الجن**}[1]
وقد ذكرالخازن أن الطبري قد أسنده وإلى ما ذهبت إليه من سر التقديم ذهب إليه الخازن حيث قال: " قالوا: وشياطين الإنس أشد تمرداً من شياطين الجن لأن شيطان الجن إذا عجز عن إغواء المؤمن الصالح وأعياه ذلك استعان على إغوائه بشيطان الإنس ليفتنه ، ويدل على صحة هذا القول ما روي عن أبي ذر قال : قال رسول الله ﷺ{ **هل تعوذت بالله من شيطان الجن والإنس قلت يا رسول الله وهل للإنس من شيطان ؟ قال نعم هم شر من شياطين الجن**} ذكره البغوي بغير سند وأسنده الطبري . وقال مالك بن دينار إن شيطان الإنس أشد عليَّ من شيطان الجن وذلك أني إذا تعوذت بالله ذهب شيطان الجن وشيطان الإنس يجيئني فيجرني إلى المعاصي ". [2]

وقد عكس هذا التقديم في الآية الثلاثين بعد المائة في قوله تعالى : {**يا معشر الجن والإنس ألم يأتكم رسل منكم يقصون عليكم ءاياتي وينذرونكم لقاء يومكم هذا ..**}

وهذا التقديم للجن راجع إلى أن الحديث كان معهم وليس مع الإنس لأن استمتاع الإنس بالجن إنما كان بسبب الجن الذين تقدموا في الخطاب وكان الاستمتاع والاستكثار منـــهم أولاً كما ورد في الآية الثامنة والعشرين بعد المائة في قوله تعالى : ﴿ **وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً يَا مَعْشَرَ الجِنِّ قَدِ اسْتَكْثَرْتُم مِّنَ الإِنسِ وَقَالَ أَوْلِيَاؤُهُم مِّنَ الإِنسِ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَا أَجَلَنَا الَّذِي أَجَّلْتَ لَنَا** ﴾ (الأنعام:١٢٨) وسوف ألقي عليه مزيداً من الضوء في سورة الناس .

﴿ **أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكَماً** ﴾ (الأنعام:١١٤) وتقديم { **أفغير** } على {**أبتغي**} لأن المفعول هو محل الإنكار فهو أحق بموالاة همزة الاستفهام الإنكاري، فالتقديم لكونه مصب الإنكار فكان أولى بالتقديم وأهم .

﴿ **وَذَرُوا ظَاهِرَ الإِثْمِ وَبَاطِنَهُ إِنَّ الَّذِينَ يَكْسِبُونَ الإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُوا يَقْتَرِفُونَ** ﴾ (الأنعام:١٢٠) لماذا قدم ظاهر الإثم على باطنه ؟ السر في التقديم هنا

---

(١) مفاتيح الغيب ج١٣ ص١٦١، ١٦٢ . (٢) الخازن ج٢ ص٤٣١.

يترتب على معنى ظاهر الإثم وباطنه وما المقصود بـــهما ؟ فإذا كان المقصود بالظاهر هو ما أعلن به والباطن ما أسر به فيكون التقديم هنا للاهتمام ، لأن الإعلان بالمحرمات أعظم ذنباً وأقبح فعلاً قال تعالى : ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ** ﴾(النور:١٩)، روى مسلم عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ { **كل أمتي معافى إلا المجاهرين وإن من الإجهار أن يعمل العبد بالليل عملاً ثم يصبح قد ستره الله فيقول يا فلان قد عملت البارحة كذا وكذا وقد بات يستره ربه فيبيت يستره ربه ويصبح يكشف ستر الله عنه** }[1]، وقد يكون ظاهر الإثم هو المحرمات ، وباطنه هو الدافع إلى ارتكابـــها من عمل الباطن فيما يتصل بالقلب والفكر من إرادة هم وعزم فيكون التقديم من باب الترقي من الأعلى إلى الأدنى للتأكيد على الترك كما تقول : لا تضرب فلاناً ولا تقترب منه بأذى.أما إذا فسر الظاهر بالمحرمات الظاهرة من أفعال الجوارح ، والباطن بالمحرمات الباطنة من أعمال القلب والعقل من اعتقاد وظن ونظر وتمني وحقد ورياء وحسد .. فتقديم الظاهر هنا من باب تقديم الأعرف فالأعرف إذ لا يخفى على أحد المحرمات الظاهرة ، بينما يخفى على الكثيرين المحرمات الباطنة.

﴿**لَهُمْ دَارُ السَّلَامِ عِندَ رَبِّـــهِمْ وَهُوَ وَلِيُّهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ**﴾(الأنعام:١٢٧).

تقدم الجار والمجرور {**لهم**} على متعلقه المبتدأ المؤخر {**دار السلام**} لإفادة الاختصاص بأنـــها لهم وحدهم لا يشاركها فيها غيرهم ، فالجنة حرام دخولها على المشركين كما في الآية الثانية والسبعين من سورة المائدة {**وقال المسيح يا بني إسرائيل اعبدوا الله ربي وربكم إنه من يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة ومأواه النار وما للظالمين من أنصار**}.

قال الشعراوي: "وهو أسلوب مكون - كما يقال من مبتدأ وخبر - إلا أن المبتدأ أخر هنا والخبر تقدم وكان المنطق أن يقال: { **دار السلام هؤلاء**} ولكن الأسلوب القرآني جاء ليقدم الخبر المكون من الجار والمجرور

---

(١) صحيح مسلم كتاب الزهد والرقائق رقم ٥٣٠٦.

ومتعلقه ويؤخر المبتدأ وذلك لخصوصية أرادها الحق ، وهي أن هذه الدار لهم وحدهم دون غيرهم فهي خالصة لهم يوم القيامة". [١]

﴿ وَكَذَلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلادِهِمْ شُرَكَاؤُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُوا عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴾ (الأنعام:١٣٧) .

{**شركاؤهم**} فاعل {**زين**} أخر عن المفعول به اعتناءً بالمقدم واهتماماً به ، لأنه موضع التعجب ، فالتعجب هنا ليس في أمر الشركاء بقتل الأبناء ، ولكن التعجب كيف استجاب الآباء لأمر الشركاء فقتلوا أبناءهم بما لُبس عليهم من هذا الدين الباطل مع أن غريزة الأبوة وعاطفة الوالدية تدفع الآباء إلى افتداء الأبناء بكل ما يملكون ولو كان بذواتهم فيستعذبون موت أنفسهم في سبيل حياة أبنائهم فهذا هو موطن التعجب ولهذا تقدم في الذكر .

﴿ وَمِنَ الأَنْعَامِ حَمُولَةً وَفَرْشاً كُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ وَلاَ تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴾ (الأنعام:١٤٢).

تقدم الجار والمجرور { **ومن الأنعام** } على المفعول الذي هو أولى بالتقديم لقصد الاهتمام بأمر الأنعام لأنها المقصود الأصلي من سياق الكلام، وهو إبطال تحريم بعضها وإبطال جعل نصيب منها للأصنام.

﴿ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ مِّنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْمَعْزِ اثْنَيْنِ ﴾ (الأنعام:١٤٣) .

قال أبوحيان : " قدم الضأن على المعز لغلاء ثمنه ، وطيب لحمه وعظم الانتفاع بصوفه". [٢]

أقول: والتقديم هنا على ما ذكر أبو حيان وهو صحيح للاهتمام حيث بدأ بالأهم بالنسبة لهم.

﴿ قُل لاَّ أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّماً عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلاَّ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَماً مَّسْفُوحاً أَوْ لَحْمَ خِنْزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقاً أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ ﴾ (الأنعام:١٤٥) بدأ بالمحرم لعينه – الميتة والدم والخنزير- على المحرم لعارض وهو ما أهل به لغير الله لأن التحريم فيه عارض بينما التحريم فيما تقدم ذاتي .

﴿ وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٍ وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا إِلاَّ مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوِ الْحَوَايَا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُم بِبَغْيِهِمْ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴾(الأنعام:١٤٦) .

---

(١) تفسير الشعراوي ج١ ص ٣٩٣٧

(٢) تفسير البحر المحيط ج٤ ص٢٤٢.

تقدم المجرور { وعلى الذين هادوا} على متعلقه { حرمنا } لإفادة الاختصاص ، أي عليهم وحدهم ليس على أحد آخر من الأمم . وكذلك هي نفس علة التقديم في قوله تعالى: ﴿ قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾(الأنعام:١٤٩)﴿ قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلاَّ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً وَلاَ تَقْتُلُوا أَوْلادَكُم مِّنْ إِمْلاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ، وَلا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لا نُكَلِّفُ نَفْساً إِلاَّ وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ، وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ وَلا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ (الأنعام١٥١-١٥٣).

بدأ سبحانه وتعالى في هذه الآيات بالنهي عن أكبر المحرمات وأشدها إفساداً للدنيا والآخرة ومخالفة للعقل والنقل ، وهو قوله تعالى : {ألا تشركوا به شيئاً} ، ثم بدأ بأعظم الحقوق للخلق ، وهو حق الوالدين ، حيث إن عقوقهما من أكبر المحرمات بعد حق الله ، وقد تكرر في القرآن كثيراً النهي عن الشرك بالله مقروناً بالنهي عن عقوق الوالدين .

قال صاحب الدرة: " وقال في سورة بني إسرائيل ﴿ وَلاَ تَقْتُلُوا أَوْلادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ ﴾ (الإسراء:٣١) للسائل أن يسأل فيقول قوله عز وجل : نحن نرزقكم وإياهم هو ما عليه الاختيار في كلام العرب من تقديم ضمير المخاطب على ضمير الغائب بناء على قولك : أعطيتكه ، والآية في سورة بني إسرائيل قدم فيها ضمير الغائب على ضمير المخاطب فكأنها بنيت على قوله: أعطيتهوك ، وهذا ليس بمختار ، فما الذي أوجب اختصاص الأول بتقديم ضمير المخاطب وأوجب اختصاص الثاني بتقديم ضمير الغائب ؟ والجواب أن يقال : ليس الضمير إذا اتصلا بالفعل كالضميرين إذا انفصل أحدهما وعطف على الآخر ، لأن قولهم أكرمته وإياك ، مثل قولهم أكرمته وإياه ، في أن كل واحد منهما مختار في مكانه الذي يوجب تقديم ما قدم وتأخير ما أخر بخلاف ما يختار إذا اتصلا بالفعل في مثال أعطيتكه ، فأما قوله في سورة الأنعام { نحن نرزقكم وإياهم } فلأن قبله { ولا تقتلوا

أولادكم من إملاق } أي من أجل إملاق وانقطاع مال وزاد ،وهذا نـــهي عن قتلهم مع فقرهم وخوفهم على أنفسهم إذا لزمتـــهم مئونة غيرهم ، فكأنه قال الذي يدعو إليه من حالكم في أنفسكم ثم في غيركم لا يجب أن تشفقوا منه فإني أرزقكم وإياهم، وأما الآية الثانية فإنه قال فيها خشية إملاق - والإملاق - غير واقع ، فكأنه قال: خوف الفقر على الأولاد ، وكان عقيب هذا إزالة الخوف عنـــهم، ثم عن القاتلين ، أي لا تقتلوهم لما تخشون عليهم من الفقر فالله يرزقكم وإياهم ، فقدم في كل موضع من الموضعين ما اقتضى تقديمه وأخر ما اقتضى الموضع تأخيره .[1]

قال السمين الحلبي :"وفي هذه الآية الكريمة {**نحن نرزقهم وإياكم**} فقدم المخاطبين وفي الإسراء قدم ضمير الأولاد عليهم، فقال:{**نحن نرزقهم وإياكم**} فقيل للتفنن في البلاغة ، وأحسن منه أن يقال : الظاهر من قوله: {**من إملاق**} حصول الإملاق للولد لا توقعه وخشيته فبدئ أولاً بالعدَة برزق الآباء ، بشارة لهم بزوال ما هم فيه من الإملاق وأما في آية [**سبحان**] فظاهرها أنـــهم موسرون وإنما يخشون حصول الفقر ، ولذلك قال: { **خشية إملاق**} وإنما تخشى الأمور المتوقعة ، فبدئ فيها بضمان رزقهم ، فلا معنى لقتلكم إياهم . فهذه الآية تفيد النهي للآباء عن قتل الأولاد ، وإن كانوا متلبسين بالفقر ، والأخرى عن قتلهم وإن كانوا موسرين ، ولكن يخافون وقوع الفقر. وإفادة معنى جديد أولى من ادعاء كون الآيتين بمعنى واحد للتأكيد }.[2]

﴿ **وَلاَ تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لاَ نُكَلِّفُ نَفْساً إِلاَّ وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ**﴾ (الأنعام:١٥٢).

وقد تقدمَ الأمر بحفظ حق اليتيم على سائر الحقوق في هذه الآية لأنه أضعفهم لا يستطيع الدفع عن حقه في ماله . وقد مر بنا من قبل في آيات الصدقات الأمر به قبل المساكين لنفس العلة ، وتقدم أيضاً في هذه الآية الجار والمجرور { **وبعهد الله** } على عامله { **أوفوا** } للاهتمام بالعهد ، وكذلك للتشويق وصرف ذهن السامع إليه .

---

(١) درة التنزيل ص٧٤ (٢) الدر المصون ج٣ ص٢١٦

وللأستاذ عبد الكريم الخطيب كلمات ما أروعها عند تعرضه لتفسير هذه الآيات قال:"وننظر في الآيات الكريمة فنرى: أولاً قوله تعالى: {**قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم**} يمثل الرسول الكريم وقد جاء ، وبين يديه وعلى لسانه كتاب الله الذي معه يتلو منه ما حرم الله على عباده من منكرات، ثم ها هو ذا رسول الله يتلو عليهم ما حرم الله من منكرات فيبدأ بقوله تعالى :{**ألا تشركوا به شيئاً** } ، فهذا أول ما يجده الرسول الكريم من منكر نـــهى الله عنه في آيات كثيرة أنزلها الله عليه واستودعها قلبه . مثل قوله تعالى: { **وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحساناً** } وقوله سبحانه:{ **فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملاً صالحاً و لا يشرك بعبادة ربه أحداً** }

فهذا هو أول ما يتلوه الرسول من كتاب ربه{**ألا تشركوا به شيئاً** }...

وثانياً : قوله تعالى: { **وبالوالدين إحساناً** } بالعطف على النهي قبله { **ألا تشركوا به شيئاً**} هو من لوازم هذا النهي ومن مقتضياته فإن النهي في حقيقته أمر سلبي يقتضي الوقوف من المنهي عنه موقفاً مجانباً له أو منسحباً منه ومن تمام الحكمة أن يعقب تجنب المنهي عنه الخروج به من هذا الموقف السلبي إلى ما يقابله من عمل إيجابي، فإذا امتثل الإنسان النهي عن الشرك بالله وانخلع عن عبادة من عبدهم من دون الله وأن يتقبل أوامره ويعمل بـــها .

ومن إعجاز القرآن الكريم هنا أن يجيء الأمر بالإحسان إلى الوالدين عقب النهي عن الشرك بالله ليملأ هذا الفراغ الذي وجد بإجلاء الشرك عن قلوب المشركين ، أو بغروب شخصه من آفاق المؤمنين ..

فالأمر بالإحسان إلى الوالدين هنا هو في المكان الذي كان من المنتظر أن يحل فيه الإيمان بالله ..أما الإيمان بالله هنا فهو واقع لا شك فيه بعد أن جلا الشرك الذي كان هو الحاجز الذي يحول بين المشركين وبين الإيمان بالله .

ثالثاً: قوله تعالى :{**ولا تقتلوا أولادكم من إملاق نحن نرزقكم وإياهم ...تعقلون**} هو استكمال لما حرمه الله من منكرات مما يتلو الرسول الكريم من كتاب ربه.

وفي النهي عن قتل الأولاد خشية الفقر بعد أمر الأبناء ببر الآباء -في هذا ما يكشف عن تلك المفارقة البعيدة بين ما يكون من الأبناء من برهم

بآبائهم ، وبين ما يأتيه هؤلاء الآباء من قتل أولئك الأنباء ، وفي هذا ما فيه ضلال وسفه وخروج على مألوف الطبيعة ، فيما بين الكائن الحي ومواليده من حيوان ونبات .

وفي قوله تعالى: {**ولا تقتلوا أولادكم من إملاق نحن نرزقكم وإياهم**} قُدم رزق الآباء على الأبناء لأن الآباء هنا في فقر واقع بـــهم وفي ضيق استولى عليهم فقتل فيهم مشاعر الإنسانية ، حتى طوعت لهم أنفسهم قتل أولادهم شفقة عليهم وإراحة لهم من آلام الجوع وقسوة المسغبة فجاء قوله تعالى: { **نحن نرزقكم وإياهم**} ليشعر الآباء بأن الله متكفل برزقهم ورزق أبنائهم معاً ، وأن هذا الضيق الذي هم فيه فعلاً هو قسمة بينـــهم وبين أبنائهم فهم فيه سواء وأنه ليس للآباء أن يقتلوا أولادهم وهم شركاؤهم في هذا الرزق المحدود الذي في أيديهم ..

وقد جاء قوله تعالى في سورة الإسراء { **ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق نحن نرزقهم وإياكم** } بتقديم رزق الأبناء على الآباء لأن الآباء في تلك الحال ليسوا في حال ضيق وفقر وإنما هم على شعور الخوف من الفقر مستقبلاً فهم يقتلون أولادهم في تلك الحال لا لفقر وقع وإنما خشية الفقر المتوقع الذي قد يكون الأبناء سبباً في التعجيل به فجاء قوله تعالى: {**نحن نرزقهم وإياكم**} ليدفع هذا الشعور وليقيم مكانه شعوراً مضاداً له وهو أن الأبناء لهم رزقهم عند الله، وأن هذا الرزق مقدم على رزق الآباء وأن قتلهم حينئذ يكون عدواناً عليهم، وحبساً لـــهذا الرزق الذي سيرزقهم الله إياه ".[1]

أقول: وفي الآية تقدم الجار والمجرور { **وبعهد الله** } الذي هو في معنى المفعول به على فاعله أوفوا ، للاعتناء بشأنه والاهتمام بأمره ولما له من شرف نسبة الإضافة إلى الله عز وجل ، روى البيهقي في شعب الإيمان عن ميمون بن مهران قال " ثلاثةٌ ، المسلم والكافر فيهن سواء - من عاهدته فوف بعهده مسلماً كان أو كافراً فإنما العهد لله ومن كانت بينك وبينه رحم فصلها مسلماً كان أو كافراً ومن ائتمنك على أمانة فأدها إليه مسلماً كان أو كافراً".

---

(١) التفسير القرآني جـ٨ ص ٣٤٤، ٣٤٥.

﴿ مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَن جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلاَ يُجْزَى إِلاَّ مِثْلَهَا وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ﴾ (الأنعام:١٦٠).

تقدم ذكر المجازاة بالحسنة على المجازاة بالسيئة لأن الحسنة أشرف من السيئة ، فقدمت لشرف المجازاة ، وكذلك ما فيه من الترغيب بعمل الحسنات وذكر حسن جزائها إغراء بفعلها وحضاً عليها.

﴿ لاَ شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴾ (الأنعام:١٦٣).

تقدم المفعول {**أغير الله**} على فاعله {**أبغي**} لأنه المقصود من الاستفهام الاستنكاري إنكار ابتغاء رباً سوى الله لخلقه .

﴿ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ ٠قُل لاَّ أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعاً وَلاَ ضَرّاً إِلاَّ مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لاَسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلاَّ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾(الأعراف:١٨٧،١٨٨).

قال صاحب الدرة: " وقال في سورة يونس :**﴿ وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ٠ قُل لاَّ أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرّاً وَلاَ نَفْعاً إِلاَّ مَا شَاءَ اللَّهُ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ إِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَلاَ يَسْتَئْخِرُونَ سَاعَةً وَلاَ يَسْتَقْدِمُونَ ﴾** (يونس:٤٨،٤٩).

للسائل أن يسأل عن الآيتين وتقديم النفع على الضرر في الأولى وتأخيره عنه في الأخرى ،وهل لذلك فائدة أوجبت في الاختيار تقديم المقدم وتأخير المؤخر.

والجواب أن يقال : إن الآية الأولى بعد قوله :**﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي ﴾** (الأعراف: ١٨٧) وبعده {**قل إنما علمها عند الله ولكن أكثر الناس لا يعلمون**} فكان معنى قوله : {**قل لا أملك لنفسي نفعاً ولا ضراً**}لا أملك تعجيل ثواب ولا عقاب لها إلا ما ملكنيه الله ، فلا أملك إلا ما ملكت ولا أعلم إلا ما علمت والذي تسألون عن أخفى الغيوب، وأنا لا أعلم منها ما هو أقرب إلى رجم الظنون، فكيف ما يخص به علام الغيوب ، ولو علمت الغيب لاستكثرت في السنة المخصبة ما يدفع كلب المجدبة وقيل لاستكثرت من العمل الصالح الذي أتحقق أنه أرفع عند الله تعالى درجة ، لأن من علم الغيب وعرف الأفضل عند الله لم يتركه إلى ما هو دونه وقوله: { **ما مسني السوء** } أي ما بي جنون كما زعم المشركون، وقيل الفقر لاستكثاري من الخير الذي يتدارك به الفقر عند شدة الزمان، وأما الآية

في سورة يونس فإنـــها فيما كان يستعجله الكفار من عذاب الله تعالى ، وقبلها

﴿ وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ اللَّهُ شَهِيدٌ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ﴾ (يونس : ٤٦)، أي أن أريناك بعض ما نتوعد به الكفار من العذاب في عاجل الدنيا حتى تراه نازلاً بـــهم في حياتك ، أو أخرنا ذلك عنـــهم إلى بعد وفاتك ووفاتـــهم ، فإن ذلك لا يفوتـــهم لأن مرجعهم إليَّ حيث يجازى فيه العباد ولا يملك بعضهم أمر بعض ، ويقول الكفار {**متى هذا الوعد إن كنتم صادقين**} قل لا أملك ما وعدكم الله من هذا العذاب ولا أن أدفع عنكم سوء العقاب ، كما { **لا أملك لنفسي ضراً ولا نفعاً إلا ما شاء الله** } أن يملكنيه منـــهما . فتقديم ضر على نفع في هذه الآية بخروجها على ذكر العذاب الذي قال الله تعالى فيه بعدها : **﴿ أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ آمَنتُم بِهِ آلآنَ وَقَدْ كُنتُم بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ ﴾** (يونس:٥١) ، ثم إن اللفظة التي تزاوج لفظة الضر هي لفظة النفع ، ومعناه في أنه لا يملك إلا ما يملك الله منه عباده فلذلك أتبع ذكره.[1]

﴿ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ (الأنعام: ١٦٥).

تقدم ذكر العقاب على ذكر الرحمة لأن سورة الأنعام كلها مناظرة للكفار ووعيد لهم خصوصاً في أواخرها من الآية رقم ١٥٩- ١٦٥حيث أفسدوا دينـــهم وتفرقوا فكان المناسب تقديم ذكر العقاب ترهيباً للكفار وزجراً لهم عن الكفر والتفرق .

---

(١) درة التنزيل ص ١٠١.

سورة الأعراف

لما كانت سورة الأنعام في مجملها تتحدث عن التوحيد وحقوق الله على العبيد ووجوب شكره على نعمائه وبيان فسائد عقائد المشركين وسوء صنيعهم في نعم الله عز وجل جاءت هذه السورة لتخبر عن حال أولئك المشركين وما صنع الله بـــهم في الدنيا وما توعدهم به في الآخرة وجاءت بداية الأعراف في تمام الموافقة مع خاتمة الأنعام وكأنـــهما سورة واحدة فآخر الأنعام قوله تعالى:﴿ **إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ**﴾ (الأنعام:١٦٥) وفي بداية الأعراف﴿ **كِتَابٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ فَلاَ يَكُن فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِتُنذِرَ بِهِ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ**﴾ (الأعراف:٢) ونلاحظ هنا التناسب بين قوله: {**إن ربك لسريع العقاب**} في الأنعام وبين قوله {**لتنذر به**} في الأعراف وبين قوله: {وإنه لغفور رحيم} الأنعام وبين قوله {**وذكرى للمؤمنين**} الأعراف .

﴿**كِتَابٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ فَلاَ يَكُ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِتُنذِرَ بِهِ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ**﴾ (الأعراف:٢) .

إن التقديم هنا هو في الجملة الاعتراضية {**فلا يكن في صدرك حرج منه**} حيث اعترضت بين متصلين وهو قوله تعالى: {**كتاب أنزل إليك**} وقوله : {**لتنذر به**} فأصل ترتيب الكلام {**كتاب أنزل إليك لتنذر به وذكرى للمؤمنين فلا يكن في صدرك حرج منه** } ونرى أن التقديم هنا للأهمية - أي أهمية رفع الحرج .

وإلى التقديم والتأخير مال الرازي إلى قول الفراء أنَّ {**لتنذر به**} متعلق بقوله : {**أنزل إليك**} على التقديم والتأخير ، والتقدير : كتاب أنزل إليك لتنذر به فلا يكن في صدرك حرج منه . فإن قيل فما فائدة هذا التقديم والتأخير ؟ قلنا: لأن الإقدام على الإنذار والتبليغ لا يتم ولا يكمل إلا عند زوال الحرج عن الصدر ، فلهذا السبب أمره تعالى بإزالة الحرج عن الصدر ، ثم أمره بعد ذلك بالإنذار والتبليغ.[1]

---

(١) مفاتيح الغيب ج١٤ ص١٨.

أقول: هذا قول له وجاهته اتباعا لذلك الوجه الإعرابي ، أما على عدم إعرابـها كجملة إعتراضية أي أن المعنى قد تم عند قوله : { **كتاب أنزل إليك**} يكون قوله :{**فلا يكن في صدرك حرج منه**} متصل بقوله: {**لتنذر به**} في المعنى ويكون رفع الحرج ليس من أجل الكتاب بل من أجل الإنذار به.[1]

﴿**وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بَأْسُنَا بَيَاتاً أَوْ هُمْ قَائِلُونَ**﴾(الأعراف :٤).

تقدمت هذه الآية في سورة الأعراف لبيان إجمال العذاب والعقوبات التي أهلك الله بـها الأمم والذي سوف يأتي ذكره في السورة فيما بعد بالتفصيل عند ذكر هلاك كل أمة على حدة في قصة نوح وهود وصالح ولوط وشعيب وفرعون وجنوده والممسوخين من بني إسرائيل .

قال الأستاذ عبد الكريم الخطيب: "كيف قدم الإهلاك على مجيء البأس { **أهلكناها فجاءها بأسنا** } مع أن البأس هو عامل الإهلاك وأداته؟

والجواب ، أن الإهلاك حكم واقع مقرر قبل مجيء البأس ،وأن هذه القرى الظالمة كانت تحت حكم الإهلاك قبل أن تـهلك بزمن طويل لما كان عليه أهلها من ضلال وعناد وإفساد في الأرض وأن الله سبحانه وتعال أمهلهم وبعث فيهم الرسل مبشرين ومنذرين فلم يلتفتوا إلى هدى الله و لم يقبلوا على دعوته بل صدوا عنه وازدادوا كفراً إلى كفر وضلالاً إلى ضلال ..حتى إذا بلغ الكتاب أجله جاءهم بأس الله ، فأخذهم العذاب وهم ظالمون " .[2]

قال الشعراوي: "وأيهما يأتي أولاً : الإهلاك أم يأتي البأس أولاً فيهلك؟ الذي يأتي أولاً هو البأس فيهلك ؟ فمظاهر الكونيات في الأحداث لا يأتي أمرها ارتجالاً ، وإنما أمرها مسبق أزلاً ، وكأن الحق يقول هنا : وكم من قرية حكمنا أن نـهلكها فجاءها بأسنا ليتحقق ما قلناه أزلاً ، أي أن تأتي الأحداث على وفق المرادات ، حتى ولو كان هناك اختيار للذي يتكلم عنه الحق " .[3]

﴿**فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ**﴾ (الأعراف :٦) .

---

(١) التحرير ج٨ ص٢١ (٢) التفسير القرآني ج٨ ص٣٦٧. (٣) الشعراوي ج٧ ص٤١٤٠.

تقدم هنا سؤال المرسل إليهم على سؤال المرسلين وهذا التقديم تقديم وجودي لأن الأمم تسأل أولاً عن إرسال الرسل إليهم فيكذبوا فعندئذ يسأل الله الرسل ليقيم على الأمم الكافرة الحجة ويظهر عدله في تعذيبـــهم ، ونظير هذه الآية قوله تعالى :

﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلاءِ شَهِيداً﴾ (النساء:٤١) ، **﴿ يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ﴾** (المائدة:١٠٩) وقوله:**{ فلنسألن الذين أرسل إليهم ولنسألنّ المرسلين }**.

يرى صاحب التحرير أن التقديم للاهتمام فيقول: " ولما كان المقصود الأهم من السؤال هو الأمم لإقامة الحجة عليهم في استحقاق العقاب قدم ذكرهم على ذكر الرسل". [1]

﴿وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُم بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَظْلِمُونَ﴾ (الأعراف: ٩) .

تقدم الجار والمجرور **{بآياتنا}** على متعلقه **{يظلمون}** للاهتمام مع ما فيه من حسن الفاصلة ، وليس كما ذكر صاحب التحرير بالشك بين للاهتمام أو مراعاة للفاصلة. [2]

﴿ وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ قَلِيلاً مَّا تَشْكُرُونَ﴾ (الأعراف:١٠).

تقدم الظرفان هنا **{لكم فيها}** على المفعول به للاعتناء بشأن المقدم والتشويق إلى المؤخر، فإن النفس عند تأخير ما حقه التقديم تبقى مترقبة لورود المؤخر فيتمكن في النفس أفضل تمكن، وقد تقدم الظرف الأول **{لكم}** على الظرف الثاني **{فيها}** للاهتمام حيث إنـــهم هم المقصودون بـــهذا الجعل، ويؤيد ما ذكرته قوله تعالى :

﴿ أَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقاً أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا ۚ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّاهَا ۚ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا ۚ وَالأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا ۚ أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا ۚ مَتَاعاً لَّكُمْ وَلأَنْعَامِكُمْ ﴾ (النازعات:٢٧-٣٣) .ومن ذلك قوله تعالى: **{هو الذي خلق لكم ما في السموات وما في الأرض جميعاً منه }** ؟؟ وقد تقدم هنا الظرف على المفعول **{ما}** الاسم الموصول .

---

(١) التحرير، الآية السابقة. (٢) التحرير، ج٣ ص٣٢.

﴿ **ولَقَدْ خلَقْناكُمْ ثُمَّ صوَرْناكُمْ ثُمَّ قُلْنا لِلْمَلائكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ**﴾ (الأعراف:١١).

قال السمين الحلبي: "اختلف الناس في { **ثم**} في هذين الموضعين، فمنـــهم من لم يلتزم فيها ترتيباً ، وجعلها بمنـــزلة الواو فإن خلقنا وتصويرنا بعد قوله تعالى للملائكة : {**اسجدوا**} ومنــــهم من قال: هي للترتيب لا في الزمان، بل للترتيب في الإخبار ولا طائل في هذا ومنـــهم من قال : هي للترتيب الزماني ، وهذا موضوعها الأصلي". [(١)]

أقول: والترتيب هنا ترتيب وجودي إذ خلق الإنسان يكون سابقاً وتصويره لاحقاً كما سوف نبينه بشيء من التفصيل فيما بعد .

﴿ **قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ** ﴾ (الأعراف:١٦) .

قدم الجار والمجرور { **فبما أغويتني** } على متعلقه { **لأقعدن** }، أما من جهة التركيب فهو قريب من معنى الشرط لأنه تعليل لإرادة الشيطان إضلال البشر فذكر إبليس السبب أولاً الذي دفعه لذلك الفعل .

﴿ **فَرِيقاً هَدَى وَفَرِيقاً حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلالَةُ إِنـــهم اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ من دُونِ اللَّه وَيَحْسَبُونَ أَنــــهم مُهْتَدُونَ**﴾ (الأعراف:٣٠) تقدم مفعول { **هدى** } وهو { **فريقاً** } للدلالة على الاختصاص كما في الآية الثانية والسبعين بعد المائتين من سورة البقرة { **ليس عليك هداهم ولكن الله يهدي من يشاء**}.

﴿ **وَلاَ تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفاً وَطَمَعاً** ﴾(الأعراف:٥٦).

تقدم الخوف على الطمع وهو مذهب أكثر العلماء ، لأن الإنسان ينبغي أن يغلب خوفه رجاءه طول الحياة فإنه إذا جاء الموت غلّب الرجاء.

﴿ **أَوَ عَجِبْتُمْ أَن جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ** ﴾ (الأعراف:٦٣) التقديم في هذه الآية تقديم وجودي ، فإن الإنذار مقدم ، لأنه حمل لهم على الإقلاع عن الشرك أو الوثنية ، وهو التقوى المرادة من الإنذار ثم تأتي بعد ذلك ثمرة التقوى ، وهي الرحمة التي ترجى للمتقين.

﴿ **فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنــهم كَانُوا قَوْماً عَمِينَ** ﴾ (الأعراف:٦٤) تقدم الإخبار بإنجائه على الإخبار

---

(١) الدر المصون ج٣ ص٢٣٨

بالإغراق مع أن مقتضى مقام الاعتبار أن يقدم ذكر الإغراق ، فقدم أمر الإنجاء للتعجيل بالمسرة والاهتمام بإنجاء المؤمنين ، بالإضافة إلى كونه مفهما أيضاً إهلاكهم ، إذ إن الإنجاء لا يكون إلا من هلاك. وهو نفس التقديم في الآيتين الثالثة والثمانين والرابعة والثمانين في قصة لوط - عليه السلام - في قوله تعالى: { **فأنجيناه وأهلَه إلا امرأتَه كانت من الغابرين • وأمطرنا عليهم مطراً فانظرْ كيف كان عاقبةُ المجرمين** }.

﴿ **وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُوداً** ﴾ (الأعراف:٦٥) تقديم الجار والمجرور لإفادة الاختصاص إذ إنه لم يرسل إلا إلى قومه ، وكذلك تقدم هنا ذكر قرابته على ذكر اسمه ، فقال: { **أخاهم هوداً** } ولم يقل: هوداً أخاهم، وهذا فيه نوع من التقريب واستمالة قلوبهم للإيمان بذكر العلاقة التي تربطهم به من إخوة الإنسانية، وكذا ذكر الاهتمام بأمر هدايتهم والاعتناء بأمر دعوتهم حيث أرسل إليهم رسولُ منهم ليس بغريب عنهم، ويكون التقديم هنا للاهتمام والاعتناء بهم ، وقد جاء هذا التقديم في الآية الثالثة والسبعين في قوله تعالى: { **وإلى ثمود أخاهم صالحاً** } والآية الخامسة والثمانين في قوله تعالى: { **وإلى مدين أخاهم شعيباً** } وكذا في سورة الشعراء الآية السادسة بعد المائة {**إذ قال لهم أخوهم صالح**} والآية الرابعة والعشرون بعد المائة { **إذ قال لهم أخوهم هود** } والآية الثانية والأربعين بعد المائة {**إذ قال لهم أخوهم صالح**} والآية الواحدة والستون بعد المائة من سورة الشعراء {**إذ قال لهم أخوهم لوط ألا تتقون**}

﴿ **قَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِن قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحاً مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ • قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِي آمَنتُم بِهِ كَافِرُونَ** ﴾ (الأعراف: ٧٥،٧٦) .

قال صاحب التحرير: "ثم إن تقديم المجرورين في قوله: { **بما أرسل به** } و{ **بالذي ءامنتم به**} على عامليهما يجوز أن يكون من نظم حكاية كلامهم وليس له معادل في كلامهم المحكي، وإنما هو لتتقوم الفاصلتان، ويجوز أن يكون من المحكي : بأن يكون في كلامهم ما دل على الاهتمام بمدلول الموصولين فجاء في نظم الآية مدلولاً عليه بتقديم المعمولين".[1]

---

(١) التحرير ج٨ ص٢٢٤.

أقول: وهذا الأخير هو أرجح لأن سؤالهم المستضعفين إنما كان عن الرسالة ولهذا قدمت في السؤال وفي الجواب .

﴿ وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْباً قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلاَ تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلاَ تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاحِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ . وَلاَ تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِهِ وَتَبْغُونَهَا عِوَجاً وَاذْكُرُوا إِذْ كُنتُمْ قَلِيلاً فَكَثَّرَكُمْ وَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴾ (الأعراف:٨٥،٨٦).

قال صاحب التحرير: "وإنما أخر النهي عن الصد عن سبيل الله بعد جملة { ذلكم خير لكم إن كنتم مؤمنين} و لم يجعله في نسق الأوامر والنواهي الماضية ثم يعقبه بقوله: { ذلكم خير لكم} لأنه رتب الكلام على الابتداء بالدعوة إلى التوحيد ، ثم إلى الأعمال الصالحة لمناسبة أن الجميع فيه صلاح المخاطبين ، فأعقبها ببيان أنها خير لهم ، إن كانوا مؤمنين ، فأعاد تنبيههم إلى الإيمان ، وإلى أنه شرط في صلاح الأعمال وبمناسبة ذكر الإيمان عاد إلى النهي عن صد الراغبين فيه فهذا مثل الترتيب في قول امرئ القيس:[1]

كأنيَ لمْ أركبْ جواداً للذة ولم أتبطَّن كاعباً ذاتَ خلخال
ولم أسبأْ الراحَ الكُميت ولم أقلْ لخيلي كُرِّي كَرةً بعد إجفالَ[2]

روى الواحدي في شرح ديوان المتنبي أن المتنبي لما أنشد سيف الدَولة قوله فيه :

وقفتَ وما في الموت شكٌ لواقف كأنك في جفن الردى وهو نائمُ
تمُـرُ بك الأبطالُ كَلمى حزينةً ووجهُك وضَّاحٌ وثغرُك باسمُ

أنكر عليه سيف الدولة تطبيق عجُزي البيتين على صدريهما ، وقال له كان ينبغي أن تجعل العجز الثاني عجُزاً للأول والعكس وأنت في هذا مثل امرئ القيس في قوله : كأني لم أركب جواداً للذة ، البيتين ووجه الكلام على ما قاله العلماء بالشعر: أن يكون عجز البيت الأول للثاني وعجز البيت الثاني

---

(١) ديوان امرئ القيس قصيد رقم ٥٣ ص١٢٧.
(٢) المتنبي سبق الإشارة إليه.

للأول ليكون ركوب الخيل مع الأمر للخيل بالكر، ويكون سباء الخمر مع تبطن الكاعب، فقال أبو الطيب : " إن صح أن الذي استدرك على امرئ القيس هذا أعلم منه بالشعر ، فقد أخطأ امرئ القيس وأخطأت أنا ، ومولانا أمير المؤمنين يعلم أن الثوب لا يعرفه البزاز معرفة الحائك لأن البزاز لا يعرف إلا جملته ، والحائك يعرف جملته وتفصيله ، لأنه أخرجه من الغزلية إلى الثوبية وإنما قرن امرئ القيس لذة النساء بلذة الركوب للصيد وقرن السماحة في شراء الخمر للأضياف بالشجاعة في منازلة الأعداء ، وأنا لما ذكرت الموت في أول البيت أتبعته بذكر الردى لتجانسه ولما كان وجه المنهزم لا يخلو من أن يكون عبوساً وعينه من أن تكون باكية قلت : "ووجهك وضاح وثغرك باسم} لأجمع بين الأضداد في المعنى" .[1]

﴿قَدِ افْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِباً إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللَّهُ مِنْهَا ﴾ (الأعراف:٨٩) .

تقدم جواب الشرط { **قد افترينا على الله كذباً** } على فعل الشرط { **إن عدنا في ملتكم** } لاستبعاد حدوث رجوع المؤمنين إلى ملة الكفر حيث بدؤوهم بـــهذا الجواب لإظهار عظم الجرم المترتب على الفعل الذي يريدونه منـــهم .

﴿ الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْباً كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْباً كَانُوا هُمُ الْخَاسِرِينَ ﴾ (الأعراف:٩٢) .

قال الزمخشري: "وفي هذا الابتداء معنى الاختصاص ، كأنه قيل :الذين كذبوا شعيباً هم المخصوصون بأن أهلكوا واستؤصلوا ، كأن لم يقيموا في دارهم، لأن الذين اتبعوا شعيباً قد أنجاهم الله ، الذين كذبوا شعيباً المخصوصون بالخسران العظيم دون أتباعه فإنـــهم الرابحون "[2]

أقول: ولا يخفى ما في التقديم أيضاً من التشوق والإثارة فعندما يقرأ القارئ { **الذين كذبوا شعيباً** } يرد على خاطره تواً ما لهم ؟ وما شأنـــهم ؟ فيأتي الجواب في الأولى {**كأن لم يغنوا فيها**} وفي الثانية {**كانوا هم الخاسرون**}.

---

(١) التحرير ج٨ ص٢٤٧، ٢٤٨ (٢) الكشاف ج٢ ص١٢٦

﴿ **أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَاتاً وَهُمْ نَائِمُونَ أَوَ أَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ** ﴾ (الأعراف:٩٧،٩٨) . تقدم التهديد بمجيء البأس بياتاً على الضحى لأنه يكون أشد وفي غاية الصعوبة ، لأنه أتى وقت الغفلة والنوم وفيه هول المفاجأة عند السكون وشدة الخوف عند حلول الظلام.

تقدم قوله: {**قد افترينا**} مع كونه متأخرا حدوثه في المعنى ، وذلك لتيئيس قومه من العودة في ملتـــهم حيث علق ذلك على حدوث المستحيل وهو صدور الافتراء منــهم على الله لاسيما والأنبياء معصومون من المعصية فصدور الكفر منــهم أبعد .

﴿**ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِم مُّوسَى وَهَارُونَ** ﴾ (يونس:٧٥) .

تقدم الجار والمجرور {**من بعدهم**} على المفعول الصريح {**موسى**} للتشويق إلى المؤخر، ولمناسبة ما قبله حيث كان الحديث عن أمم الأنبياء السابقين { **وما وجدنا لأكثرهم من عهد وإن وجدنا أكثرهم لفاسقين**} .

﴿**فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ.قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ. رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ**﴾ (الشعراء:٤٦-٤٨) .

قال الرازي في المسألة الثالثة: " أنه تعالى ذكر أولاً أنـــهم صاروا ساجدين ثم ذكر بعده أنـــهم قالوا: { **ءامنا برب العالمين** } فما الفائدة فيه مع أن الإيمان يجب أن يكون متقدماً على السجود ؟

وجوابه من وجوه : الأول : أنـــهم لما ظفروا بالمعرفة سجدوا لله تعالى في الحال، وجعلوا ذلك السجود شكراً لله تعالى على الفوز بالمعرفة والإيمان ، وعلامة أيضاً على انقلابـــهم من الكفر إلى الإيمان وإظهار الخضوع والتذلل لله تعالى فكأنـــهم جعلوا ذلك السجود الواحد علامة على هذه الأمور الثلاثة على سبيل الجمع.[1]

وإلى ما ذهب إليه الرازي ذهب الخازن حيث قال: " فإن قلت كان يجب أن يأتوا بالإيمان قبل السجود ، فما فائدة تقديم السجود على الإيمان ؟ قلت : لما قذف الله عز وجل في قلوبـــهم الإيمان بالله وتصديق رسوله، ثم

---

(١) مفاتيح الغيب ج١٤ ص٢١٥.

أظهروا بعد ذلك إيمانـــهم، وقيل: لما رأوا عظيم قدرة الله تعالى وسلطانه في أمر العصا ،وأنه ليس يقدر على ذلك أحد من البشر وزالت كل شبهة كانت في قلوبـــهم بادروا إلى السجود لله تعظيماً لشأنه، لما رأوا من عظيم قدرته ، ثم إنـــهم أظهروا الإيمان باللسان ، قال ابن عباس : - رضي الله عنـــهما- لما رأت السحرة ما رأت عرفت أن ذلك من أمر السماء وليس بسحر فخروا سجداً وقالوا آمنا برب العالمين رب موسى وهارون".[1]

قال السمين الحلبي: "وقدموا موسى في الذكر على هارون وإن كان هارون أسن منه لكبره في الرتبة ، أو لأنه وقع فاصلة هنا ، ولذلك قال في سورة طه : { **رب هارون وموسى** } لوقوع موسى فاصلة ، أو لكون كل طائفة منـــهم قالت إحدى المقالتين ، فنسب فعل البعض إلى المجموع في سورة وفعل بعض آخر إلى المجموع في أخرى .[2] وسوف يأتي تفصيل ذلك وردنا عليه في سورة طه.

﴿ **فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ آيَاتٍ مُفَصَّلَاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْماً مُجْرِمِينَ** ﴾ (الأعراف:١٣٣) ، ابتدأ الله عز وجل بالطوفان الذي يفسد الزرع ويهدم المساكن ولما كان ذلك ربما أخصبت به الأرض بعد ذلك فينمو زرعهم من جديد أحسن من ذي قبل أو أنه يبقى من الزرع بعد الطوفان مالم يفسد به أرسل عليهم عذاباً آخر يفسد ذلك كله فقال:{**والجراد**} وربما طار الجراد وقد أبقى شيئاً على وجه الأرض أو كان عندهم ما يخزنونه على ظهرها أتبع عذاب السماء بعذاب الأرض فقال:{**والقمل**} وهي الدواب الصغيرة التي تلتصق بالأرض وبالإنسان وبالحيوان وتأكل ما دق وما صغر من الطعام فلا يبقى ما ينتفعون به من كبير أو صغير، ثم أتبع ذلك العذاب بما يعيش في الماء وفي البر لإفادة عموم العذاب في كل مكان وإمكان سقوط الضفدع فيما بقي من طعام ومشاركتـــهم لهم

---

(١) الخازن ج٢ ص٥٦٢.

(٢) الدر المصون ج٣ ص٣٢٣.

في معايشهم وجميع أماكنــهم ، ولما تم ما يضر بالمأكل أتبعه ما يفسد المشرب فقال: {والدم} حيث انقلبت مياههم كلها دما عبيطا منتنا .

﴿ إِنَّ هَؤُلاءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ (الأعراف:١٣٩)،

قال الزمخشري: "وفي إيقاع هؤلاء اسماً لـ{إنَّ} وتقديم خبر المبتدأ من الجملة الواقعة خبرا لها - يقصد الزمخشري تقديم الخبر {متبرٌ}على مبتدأه {ما} الموصول والجملة خبر {إنّ}- وسم لعبادة الأصنام بأنــهم هم المعرضون للتبار ، وأنه لا يعدوهم البتة ، وأنه لهم ضربة لازب ، ليحذرهم عاقبة ما طلبوا ويبغِّض إليهم ما أحبوا ".[1]

أقول: وفي تقديم {متبر} هنا ربط لفظي بين التبار وبين أصحابه {هؤلاء} وإن كان المقصود الأساسي هو الربط المعنوي الذي أفاده الحكم الإعرابي ، وذلك ليكون التبار لاحقا بأصحابه لفظاً وبأعمالهم معنى .

﴿وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ﴾ (الأعراف:١٤٣) .

لم يقل موسى أرني يارب أنظر إليك، وإنما قال :رب، وهذا من باب الأدب في التخاطب ، حيث بدأ بذكر ربه بصفات الربوبية الناظرة إلى العطف والتربية والإصلاح والرحمة ، كما أن تقديم الثناء بين يدي الدعاء أحرى بالقبول ، وبــهذا قد صح الحديث عن النبي ﷺ روى النسائي بإسناده عن فضالة بن عبيد يقول : سمع رسول الله ﷺ رجلاً يدعو في صلاته لم يمجد الله ولم يصل على النبي ﷺ فقال رسول الله ﷺ عجلت أيها المصلي ثم علمهم رسول الله ﷺ وسمع رسول الله ﷺ رجلاً يصلي فمجّد الله وحمده وصلى على النبي ﷺ فقال رسول الله ﷺ أدع تجب وسل تعط}[2]

﴿قَالَ يَا مُوسَى إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالاتِي وَبِكَلامِي﴾ (الأعراف:١٤٥).

قال السمين الحلبي: "وقدم الرسالة على الكلام ، لأنــها أسبق ، أو للترقى إلى الأشرف".[3]

---

(١) الكشاف ج٢ ص١٤٥.
(٢) النسائي كتاب السهو رقم ١٢٦٧.
(٣) الدر المصون ج٣ ص٣٤٠.

﴿ **وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى الْغَضَبُ أَخَذَ الأَلْوَاحَ وَفِي نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ** ﴾ (الأعراف:١٥٤) تقدم المفعول هنا للاختصاص أي لا يرهبون إلا الله .

قال الشعراوي: " ولقائل أن يقول : ألا يمكن لأحد أن يدعي الرهبة ظاهراً وأنه ممتثل لأمر الله رياء أو سمعة ، حتى يقول الناس : إن فلاناً حسن الإسلام ويأخذون في الثناء عليه ؟ ولكن هنا نجد التخصيص الذي يدل على أن العبد لا يرهب أحداً غير الله، وأن الرهبة خالصة لله وليست رياء ولا سمعة ولا لقصد الثناء". [١]

﴿ **وَاخْتَارَ مُوسَى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلاً لِّمِيقَاتِنَا فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّايَ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا إِنْ هِيَ إِلاَّ فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَاءُ وَتَهْدِي مَن تَشَاءُ أَنْتَ وَلِيُّنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ** ﴾(الأعراف:١٥٥)، وفي هذه الآية تقديم وتأخير .. فاختيار موسى لمن اختارهم من بني إسرائيل لميقاته مع ربه كان قبل أن تقع الأحداث التي وقعت في بني إسرائيل ،من عبادة العجل وما كان بين موسى وهارون من لوم ومؤاخذة ، وفي هذا إلفات إلى ما ينبغي الالتفات إليه من أمر القوم على حسب ما يقع للناظر إليهم، وما يطلع على منكراتهم وآثامهم.

قال الشعراوي: "ونعلم من هذا أنه يطلب درء المفسدة أولاً، لأن درءها مقدم على جلب المصلحة ، - فقدم موسى - عليه السلام - طلب غفر الذنب ، ثم طلب ودعا ربه أن يرحمهم ، وهذه جلب منفعة ، وقد قال ربنا في مجال درء المفسدة : {**فمن زحزح عن النار**} وهذا درء مفسدة وهو البعد عن النار: {**وأدخل الجنة**} : وهذا جلب منفعة ومصلحة. إذن فدرء المفسدة مقدم على جلب المصلحة، وعلى سبيل المثال - إنك ترى تفاحة على شجرة، وتريد أن تمد يديك لتأخذها ثم التفت فوجدت شاباً يريد أن يقذفك بطوبة فماذا تصنع ؟ أنت في مثل هذه الحالة الانفعالية تدفع الطوبة أولاً : ثم تأخذ التفاحة من بعد ذلك: وهذا هو درء المفسدة المقدم على جلب المصلحة : وهنا درء المفسدة متمثل في قول موسى : { **فاغفر لنا**} ثم قال بعد ذلك

---

(١) الشعراوي ج٧ ص٤٣٧٢

{**وارحمنا**} وهذا جلب مصلحة، والقرآن يقول :﴿ **ونُنَزِّلُ مِنَ القُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ**﴾ (الإسراء:٨٢) لأن الداء يقع أولاً وحين تذهب لمنهج القرآن يشفيك من هذا الداء". [١]

﴿ **وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ**﴾ (الأعراف:١٥٦) ، تقدم الجار والمجرور {**بآياتنا**} على متعلقه {**يؤمنون**} لإفادة القصر أي أنهم يؤمنون بجميع آياتنا لا ببعضها دون بعض، أو للتعريض بقوم موسى لأنهم كانوا أكثر الناس إعطاء للآيات وأسرع الناس كفراً بها .

﴿ **الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ** ﴾ (الأعراف:١٥٧) التقديم هنا للشرف حيث تقدم وصف الرسالة على وصف النبوة وكلاهما على كونه أمياً.

﴿ **فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الأُمِّيِّ** ﴾ (الأعراف:١٥٨) تقدم الإيمان بالله على الإيمان بالرسول لأن الإيمان بالله أصل والنبوة فرع عليه.

﴿ **وَقَطَّعْنَاهُمُ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطاً أُمَماً وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى إِذِ اسْتَسْقَاهُ قَوْمُهُ أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانبَجَسَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْناً قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ الْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ** ﴾(الأعراف:١٦٠)، بدأ بذكر الأهم ، وهو تبريد الأكباد بالماء {**وأوحينا إلى موسى إذ استسقاه قومه أن اضرب بعصاك الحجر فانبجست منه اثنتا عشرة عينا**} ثم أتبعه بالتالي في الأهمية وهو الظل الذي يحميهم من حرارة الشمس القاتلة في هذه الصحراء {**وظللنا عليهم الغمام**} ولما أتم تبريد الأكباد ، ثم تبريد الأجساد ، جاء تسكين جوع الباطن وقوام الأجساد بما أنزل لهم من غذاء ، {**وأنزلنا عليهم المن والسلوى**} .

﴿ **وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ اسْكُنُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ وَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا حِطَّةٌ وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّداً نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَاتِكُمْ سَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ**﴾ (الأعراف:١٦١).

قال الشعراوي: " وقال الحق هنا في سورة الأعراف: { **وقولوا حطة وادخلوا الباب سجداً**} أي أنه قدم قولهم {**حطة**} على السجود ، وفي آية

---

(١) الشعراوي ج٧ ص٤٣٧٧.

سورة البقرة قدم السجود فقال: { **وادخلوا الباب سجداً وقولوا حطة**} جاء الحق بـــهذا الاختلاف لأنه علم أن انفعالات السامعين تختلف ساعة الدخول، فهناك من ينفعل للقول ، فيقول أول دخوله ما أمر به من طلب الحطة وغفران الذنب من الله ، وهناك آخر ينفعل للفعل فيسجد من فور الدخول تنفيذاً لأمر الله " (١)

﴿ **وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْـــهم لِمَ تَعِظُونَ قَوْماً اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُـــهم عذاباً شَدِيداً قَالُوا مَعْذِرَةً إِلَى رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ** ﴾ (الأعراف:١٦٤) لماذا تقدم قولهم: { **معذرة إلى ربكم** } على قولهم: { **ولعلهم يتقون** } مع أن الثانية أشرف من الأولى.

أقول: هنا احتمالان :

الأول: أن اهتمام الإنسان بنفسه ونجاتـــها مقدم على اهتمامه بغيره ومنه قوله تعالى:﴿ **وَكَذَّبَ بِهِ قَوْمُكَ وَهُوَ الحَقُّ قُل لَّسْتُ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ**﴾ (الأنعام:٦٦) لـــهذا بدأوا بتقديم العذر لأنفسهم.

الثاني : أن يكون قد غلب على ظنـــهم استبعاد حصول الهداية لقومهم فأخروها من أجل ذلك .

﴿ **إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ العِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ** ﴾ (الأعراف:١٦٧) تقدم العقاب هنا على نحو ما تقدم في آخر الأنعام ، لأن هذه الآية في سياق ذكر معصية أصحاب السبت وتعذيبه إياهم ، فتقديم العذاب مناسب .

﴿ **سَاءَ مَثَلاً القَوْمُ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَأَنفُسَهُمْ كَانُوا يَظْلِمُونَ** ﴾ (الأعراف:١٧٧) .

قال الشعراوي: "وحين تجد معمولاً قد تقدم على عامله – قاعدة نحوية– فاعلم أن هناك ما يسمى بالقصر في علم البلاغة ، وقد نقول : {**يظلمون أنفسهم**} ويصح أن تعطف قائلاً : ويظلمون الناس ولكن حين نقول : أنفسهم يظلمون فمعنى ذلك أنه لا يتعدى ظلمهم أنفسهم ، ويكون الكلام فيه قصر وتخصيص ، مثلما نقول {**لله الأمر من قبل ومن بعد**} أي أن الأمر لا يتعدى إلى غيره أبداً". (١)

---

(١) الشعراوي ج٧ ص٤٤٠١

(١) الشعراوي ج٧ ص٤٤٦٩.

{ ولقد ذرأنا لجهنمَ كثيراً من الجن والإنس.. }[1]

تقدم ذكر الجن على الإنس في دخول النار لأن عصاة الجن أكثر من عصاة الإنس والكفر منـــهم أعظم وأكثر ، فإذا كان من الإنس مسلمون وكافرون وكان لكل واحد من الإنس قرين كافر من الجن هذا عدا بقية من كفر منـــهم علمنا يقيناً أن أهل النار من الجن أكثر من الإنس قال تعالى:{**وكل إنسان قيضنا له شيطاناً فهو له قرين**} روى مسلم وأحمد والدارمي عن عبد الله بن مسعود ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ { **ما منكم من أحد إلا وقد وكل به قرينه من الجن قالوا وإياك يا رسول الله قال وإياي إلا أن الله أعانني عليه فأسلم فلا يأمرني إلا بخير** }.[2]

يرى الألوسي أن تقديم الجار والمجرور {**لجهنم**} على المفعول الصريح {**كثيراً**} لما في توابعه من نوع طول يؤدي توسيطه بما بينـــهما وتأخيره عنـــهما إلى الإخلال بجزالة النظم الجليل .. وتقديم الجن لأنـــهم أعرف من الإنس في الاتصاف بما ذكر من الصفات وأكثر عدداً وأقدم خلقاً .

﴿ فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾(الأعراف:١٤٣)، قدم موسى تسبيح الله وتنـــزيهه عن الرؤية في الدنيا على قوله:{**تبت إليك**} لما فيه من البداءة بتعظيم الله وهذا منه أدب واعتراف يمهد لطلب المغفرة وقبول التوبة .

﴿ وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنـــهم لِمَ تَعِظُونَ قَوْماً اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُـــهم عَذَاباً شَدِيداً قَالُوا مَعْذِرَةً إِلَى رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾ (الأعراف:١٦٤) ، تقدم قولـــهم: {**معذرة إلى ربكم**} على قولهم: {**ولعلهم يتقون**} وأرى أن ذلك راجع إلى أمرين:

الأول : البراءة من التقصير خوفاً على أنفسهم من المؤاخذة بعدم النهي عن المنكر ودفع الشر عن النفس مقدم على دفعه عن الغير .

الثاني : قلة رجائهم في رجوع قومهم عن غيهم ، لغلبة ظنـــهم في عدم استجابة قومهم لهم ، ولهذا قدموا الاعتذار على طمع التوبة من قومهم .

---

(١) صحيح مسلم كتاب صفة القيامة والجنة رقم {٥٠٣٤{ ومسند أحمد كتاب مسند المكثرين من الصحابة رقم {٣٤٦٦} {٣٦١١} {٤١٦٠} سنن الدارمي كتاب الرقاق رقم{ ٢٦١٨}.

(٢) روح المعاني جـ٩ ص١١٩.

﴿ وَلِلَّهِ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا ﴾ (الأعراف:١٨٠).

تقدم الجار والمجرور لإفادة الحصر أي أن الأسماء الحسنى ليست إلا لله تعالى.

قال الرازي: "والبرهان العقلي يدل على صحة هذا المعنى وذلك لأن الموجود إما واجب الوجود لذاته ، وإما ممكن لذاته والواجب لذاته ليس إلا الواحد وهو الله سبحانه، وأما ما سوى ذلك الواحد، فهو ممكن لذاته، وكل ممكن لذاته فهو محتاج في ماهيته وفي وجوده وفي جميع صفاته الحقيقية والإضافية والسلبية إلى تكوين الواجب لذاته وكمال كل ما سواه فهو حاصل بوجوده وإحسانه ، فكل كمال وجلال وشرف ، فهو له سبحانه بذاته ولذاته وفي ذاته ولغيره على سبيل العارية " .[1]

﴿قُل لاَّ أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعاً وَلاَ ضَرّاً إِلاَّ مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلاَّ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ (الأعراف:١٨٨).

أكثر الآيات التي وردت في القرآن الكريم من لفظ الضر والنفع تقدم فيها الضر على النفع ، لأن العابد يعبد معبوده خوفاً من عقابه أولاً ، ثم طمعاً في ثوابه ثانياً ويؤيد ذلك قوله سبحانه :

﴿ يَدْعُونَ رَبَّهُم خَوْفاً وَطَمَعاً ﴾ (السجدة:١٦) ، ومن هنا جاء قول أهل العلم : بأن العبد ينبغي أن يغلب خوفه رجاءه في حال الحياة، ويغلب رجاؤه خوفه عند الممات ، وعندما يتقدم النفع نجد أنه تقدم لمناسبة ما قبله، وقد جاءت في ثمانية مواضع ثلاثة منها بلفظ الاسم منها هذا الموضع وقوله سبحانه:

﴿ قُلْ أَفَاتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ لاَ يَمْلِكُونَ لأَنفُسِهِمْ نَفْعاً وَلاَ ضَرّاً﴾ (الرعد:١٦) .

وقوله: ﴿ فَالْيَوْمَ لاَ يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَّفْعًا وَلاَ ضَرًّا ﴾(سبأ :٤٢) وخمسة بلفظ الفعل وهي قوله سبحانه:﴿قُلْ أَنَدْعُو مِن دُونِ اللَّهِ مَا لاَ يَنفَعُنَا

---

(١) مفاتيح الغيب ج١٥ ص٧٢.

وَلاَ يَضُرُّنَا﴾ (الأنعام:٧١) ، وقوله: ﴿ وَلاَ تَدْعُ من دُونِ اللّهِ مَا لاَ يَنفَعُكَ وَلاَ يَضُرُّكَ﴾(يونس :١٠٦) و قوله: ﴿ قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ من دُونِ اللّهِ مَا لاَ يَنفَعُكُمْ شَيْئاً وَلاَيَضُرُّكُمْ ﴾ (الأنبياء:٦٦)، وقوله: ﴿ وَيَعْبُدُونَ من دُونِ اللّهِ مَا لاَ يَنفَعُهُمْ وَلاَ يَضُرُّهُمْ وَكَانَ الْكَافِرُ عَلَى رَبِّهِ ظَهِيراً﴾ (الفرقان:٥٥) وقوله: ﴿أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ ﴾ (الشعراء:٧٣) في سورة الأعراف هذه تقدمت الهداية على الضلال في قوله: ﴿ مَن يَهْدِ اللّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِي وَمَن يُضْلِلْ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ (الأعراف:١٧٨) قدم الخير على السوء ولذلك قدم النفع على الضر وقوله : ﴿وَلِلّهِ يَسْجُدُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ طَوْعاً وَكَرْهاً﴾ (الرعد:١٥) ، قدم الطوع وقدم بسط الرزق على تقديره فقال:﴿ قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ﴾ (سبأ :٣٦) وفي يونس قدم الضر على الأصل ولأن قبله قوله تعالى :﴿وَإِذَا مَسَّ الإِنسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنبِهِ أَوْ قَاعِداً أَوْ قَائِماً فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرٍّ مَّسَّهُ كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾(يونس:١٢) أما في تقديم النفع على الضر فتبعاً لما قبلها ففي سورة الأنعام ﴿ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ اللّهِ وَلِيٌّ وَلاَ شَفِيعٌ وَإِن تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لاَّ يُؤْخَذْ مِنْهَا ﴾ (الأنعام:٧٠) هذ كله في نفي النفع فلا نفع عند ولي ولا شفيع ولا فدية ولهذا وصلها بقوله:﴿ قُلْ أَنَدْعُومِن دُونِ اللّهِ مَا لاَ يَنفَعُنَا وَلاَ يَضُرُّنَا ﴾ (الأنعام:٧١).

أما في سورة يونس فقد تقدم قوله: ﴿ ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا كَذَلِكَ حَقّاً عَلَيْنَا نُنجِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (يونس:١٠٣) ثم قال :﴿ وَلاَ تَدْعُ مِن دُونِ اللّهِ مَا لاَ يَنفَعُكَ وَلاَ يَضُرُّكَ﴾ (يونس :١٠٦) ، وفي سورة الأنبياء تقدم قول الكفار لإبراهيم في مجادلتهم الله :﴿ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلاء يَنطِقُونَ ٠قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لاَ يَنفَعُكُمْ شَيْئاً وَلاَيَضُرُّكُمْ﴾ (الأنبياء:٦٥،٦٦) ، وفي سورة الفرقان تقدم قوله :﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ﴾ (الفرقان:٤٥) وعد نعماً جمة من الآيات ثم قال :﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لاَ يَنفَعُهُمْ وَلاَ يَضُرُّهُم وَكَانَ الْكَافِرُ عَلَى رَبِّهِ ظَهِيراً﴾(الفرقان:٥٥) .

قال أبو حيان: "وقدم هنا النفع على الضر، لأنه تقدم﴿ مَن يَهْدِ اللّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِي وَمَن يُضْلِلْ ﴾ (الأعراف:١٧٨) قدم الهداية على الضلال . وبعده

﴿ **لاستَكْثرْتُ من الخيْر وما مستني السُوءُ** ﴾ (الأعراف:١٨٨) فناسب تقديم النفع ، وقدم الضر في يونس ، لأن العبادة لله تكون خوفاً من عقابه أولاً ، ثم طمعاً في ثوابه ، ولذلك قال :

﴿ **يَدْعُونَ رَبـــهم خَوْفاً وطَمَعاً** ﴾ (السجدة:١٦)، فإذا تقدم النفع فلسابقة لفظ تضمنه . وأيضاً في يونس موافقة ما قبلها ففيها{ما لا ينفعنا ولا يضرنا} لأنه موصول بقوله: ﴿ **لَيْسَ لهَا من دُونِ اللّه وَليٌّ وَلاَ شَفِيعٌ وَإِن تَعْدِلْ كُلَّ عدْلٍ لاَّ يُؤْخَذْ منْها** ﴾(الأنعام :٧٠) وفي يونس﴿ **ولا تدْعُ من دُون اللّه مالا ينفعُكَ ولا يَضُرُّكَ**﴾ (يونس :١٠٦) وتقدمه ﴿ **ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَالَّذين آمنُوا كذَلكَ حقاً عَلَيْنَا نُنْجِ المُؤْمنينَ** ﴾ (يونس:١٠٣)، وفي الأنبياء قال :﴿ **أَفَتعْبُدُونَ منَ دُونِ اللَّه مَا لاَ يَنفَعُكُمْ شَيْئاً وَلاَيَضُرُّكُمْ**﴾ (الأنبياء:٦٦) وتقدمه قول الكفار لإبراهيم في المحاجة﴿ **لَقَدْ عَلمْتَ مَا هَؤُلاء يَنطِقُونَ**﴾ (الأنبياء:٦٥) ، وفي الفرقان: ﴿ **وَيَعْبُدُونَ من دُونِ اللّه مَا لاَ يَنفَعُهُمْ وَلاَ يَضُرُّهُمْ** ﴾(الفرقان:٥٥) .
وتقدمه :﴿ **أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ**﴾ (الفرقان:٤٥) .

وقال صاحب التحرير: "وقدم النفع في الذكر هنا على الضر : لأن النفع أحب إلى الإنسان ، وعكس في آية المائدة لأن المقصود تــهوين أمر معبوداتـــهم وأنـــها لا يخشى غضبـــها ".[1]

أقول: وناسب تقديم {**لاستكثرت من الخير**} على{**وما مسني السوء**} لمناسبة ما قبله من تقديم النفع على الضر.

وقد ذهب الكرماني إلى ما ذكرناه آنفاً من علة اختلاف تقديم النفع والضر نظراً لسوابق الآيات التي تدعو إلى هذا التركيب حيث قال: اختلفت هذه المواضع الثمانية فتقدم النفع على الضر ، لأن السوابق من الآيات تدعو إلى هذا التركيب ، حرصاً على النظام القرآني البديع المعجز من حيث لا يمكن بأي حال أن يستمر الناس في كتاباتـــهم على مراعاة هذا النظام بل تعمهم الغفلة غالباً ، ففي سورة الأنعام جاءت الآية بعد قوله تعالى : {**ليس لها من دون الله ولي ولا شفيع وإن تعدل كل عدل لا يؤخذ منها**}[2] فالولاية

---

(١) البحر المحيط ج٤ ص٤٣٤.　　(٢) التحرير ج٩ ص٢٠٧.

والشفاعة تناسب النفع وعدم أخذ العدل يناسب الضر فجاءت الآية على هذا النسق :﴿قُلْ أَنَدْعُو مِن دُونِ اللَّهِ مَا لاَ يَنفَعُنَا وَلاَ يَضُرُّنَا﴾ (الأنعام:٧١) وفي يونس ﴿ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا ﴾ (يونس:١٠٣) فناسب تقديم النفع رعاية للنجاة ، وهي نفع وفي الأنبياء جادل الكفار إبراهيم في أصنامهم فقالوا﴿ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلاءِ يَنطِقُونَ﴾ (الأنبياء:٦٥) حرصاً على بقائهم لمنفعتهم في زعمهم فقال تعالى : ﴿ قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لا يَنفَعُكُمْ شَيْئاً وَلايَضُرُّكُمْ ﴾ (الأنبياء:٦٦) وقال تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ﴾ (الفرقان:٤٥)، واستمرت الآيات في سياق يعدد نعم الله الجليلة في عشر آيات ، ثم قال: ﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لاَ يَنفَعُهُمْ وَلاَ يَضُرُّهُمْ ﴾(الفرقان:٥٥) [١].

﴿ أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ﴾ (الأعراف:١٩٥) تقديم الحديث عن هذه الآية في سورة البقرة الآية[٢]. وأضيف هنا ما ذكره الألوسي عن سبب هذا الترتيب نقلاً عن شيخ الإسلام : "وتأخير هذا عما قبله لما أن المشي حالهم في أنفسهم، والبطش حالهم بالنسبة إلى غيرهم وأما تقديم ذلك على قوله تعالى: {أم لهم أعين} الآية مع أن الكل سواء في أنها من أحوالهم بالنسبة إلى الغير، فلمراعاة المقابلة بين الأيدي والرجل ولأن انتفاء المشي والبطش أظهر، والتبكيت به أقوى ،وأما تقديم الأعين على الآذان فلأنها أشهر منها وأظهر عيناً وأثراً" .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لاَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ يَسْجُدُونَ ﴾ (الأعراف :٢٠٦).

وفي تقديم قوله تعالى : {**لا يستكبرون**} على قوله: {**ويسبحونه وله يسجدون**} أمور :

الأول : لبيان العلة المانعة من الخضوع لله رب العالمين في شأن أولئك المشركين الذين سبقت الإشارة إليهم من الآية الثالثة والتسعين بعد المائة إلى الآية الثامنة والتسعين بعد المائة ، وأنهم ما منعهم من الإيمان إلا الكبر .

---

(١) أسرار التكرار في القرآن ص٤٩-٥٠.

(٢) روح المعاني ج٩ ص٥١٢.

الثاني: من باب تقديم أعمال الباطن على الظاهر، أو المعارف على الأعمال إذ إن الأصل في العبادة أعمال القلوب ، فلا تقبل العبادة من قلب غير سليم ، إذا شابه كفر أو شرك أو رياء أو كبر أو فخر أو عجب إلى غير ذلك من أمراض القلوب التي تحبط العبادة أو تنقص ثوابها ، وسوف يأتي ذلك أيضاً بمزيد بيان في صدر سورة الأنفال التالية .

ولصاحب المنار رأي عن سبب التقديم هنا يقول: "ومن نكت البلاغة في القرآن بتقديم اللفظ على ما يقابله في آية وتأخيره في أخرى تقديم النفع على الضر في هذه الآية وتأخيره وتقديم الضر عليه في آية سورة يونس المذكورة آنفا ، والفرق المحسِّن لذلك أن آية الأعراف جاءت بعد السؤال عن الساعة أيان مرساها؟ وأكبر فوائد العلم بالساعة وهو من علم الغيب الاستعداد لها بالعمل الصالح واتقاء أسباب العقاب فيها، فاقتضى ذلك البدء بنفي ملك النفع لنفسه بمثل هذا الاستعداد وتأخير ملك الضر المراد به ملك دفعه واتقاء وقوعه، وأن يستدل على ذلك بما ذكر من أنه لو كان يعلم الغيب حتى فيما دون الساعة زمناً وعظم شأن لاستكثر من الخير الذي يتعلق بالاستعداد للمستقبل واتقى أسباب ما يمسه من السوء فيه كالأمثلة التي ذكرناها.

وأما سورة يونس فقد وردت في سياق تماري الكفار فيما أوعدهم الله من العقاب على التكذيب بما جاءهم به رسوله من البينات والهدى واستعجالهم إياه تهكماً ومبالغة في الجحود، فناسب أن يذكر في جوابهم أنه لا يملك لنفسه ولا لهم ضراً كتعجيل العذاب الذي يكذبون به ولا نفعاً كالنصر الذي يترتب علي تعجيل العذاب لهم في الدنيا ". [1]

---

(١) تفسير المنار ج٩ص ٥١٢.

سورة الأنفال

وفي مناسبة الأنفال مع ما قبلها أن سورة الأعراف لما كان حديثها عن قصص الأنبياء السابقين مع أممهم ناسب أن تأتي سورة الأنفال لتذكر قصة النبي ﷺ وقد تناسب آخر الأعراف مع أول الأنفال تناسباً شديداً ، ففي أواخر الأعراف بين الله تعالى السبل الكفيلة لسد باب الخلاف وبيان ما يحدث به الائتلاف ﴿ **خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ** ﴾ (الأعراف:١٩٩،٢٠٠)، وفي بداية الأنفال الأمر بإصلاح ذات البين إذا ما حدث الشقاق والخلاف.

﴿ **يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأَنفَالِ قُلِ الأَنفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بِيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ** ﴾ (الأنفال:١)، وفي نــهاية الأعراف الأمر بالإنصات للقرآن ﴿ **وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ** ﴾ (الأعراف:٢٠٤)، ثم الأمر بذكره ﴿ **وَاذْكُر رَّبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعاً وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ وَلاَ تَكُن مِّنَ الْغَافِلِينَ**﴾ (الأعراف:٢٠٥) ، وفي بداية الأنفال الثناء على أهل الذكر وأهل الاستماع للذكر أيضاً كما في الأعراف﴿ **إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبــهم وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتــهم إِيمَاناً وَعَلَى رَبــهم يَتَوَكَّلُونَ**﴾ (الأنفال:٢) ، وفي نــهاية الأعراف الثناء على أهل العبادة والسجود﴿ **إِنَّ الَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لاَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ يَسْجُدُونَ**﴾(الأعراف:٢٠٦) وقوله :﴿ **يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأَنفَالِ قُلِ الأَنفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بِيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ** ﴾ (الأنفال:١) .

تقدم الأمر بتقوى الله لأنــها أصل الطاعات وغايتها ، ثم أمر بإصلاح ذات البين ، فهي الثمرة المطلوبة من التقوى في ذلك الوقت الذي تشاجر فيه الصحابة - رضي الله عنــهم - ثم جاء الأمر بطاعة الله ورسوله فيما أمروا فية من التقوى والإصلاح.

﴿ **إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبــهم وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتــهم إِيمَاناً وَعَلَى رَبــهم يَتَوَكَّلُونَ** ﴾ (الأنفال:٢) .

قال أبوحيان: " لما تقدمت ثلاث صفات ، قلبية ، وبدنية ، ومالية، يقصد أبو حيان بالصفة القلبية الآية السابقة وفيها صفة وجل القلب ، وزيادة الإيمان عند سماع القرآن، وصفة التوكل ، ويقصد بالبدنية قوله تعالى: {**الذين يقيمون الصلاة**} وبالمالية قوله: {**ومما رزقناهم ينفقون**} -ترتب عليها ثلاثة أشياء ، فقوبلت الأعمال القلبية بالدرجات ، والبدنية بالغفران ، وفي الحديث {**إن رجلاً أتى من امرأة أجنبية ما يأتيه الرجل من أهله غير الوطء فسأله الرسول ﷺ لما أُخبر بذلك أصليت معنا فقال نعم فقال له غفر الله لك** } وقوبلت المالية بالرزق الكريم" .[1]

أقول: وتقديم الجار والمجرور للاختصاص ، أي يتوكلون عليه وحده لا على غيره ، وكذلك مع ما فيه من فائدة الاهتمام والتعريض بالمشركين الذين يتوكلون على غير الله .

قال الشعرواي: "ومتعلق الجار والمجرور دائماً يكون متأخراً ، بينما هنا يتقدم الجار والمجرور ، لذلك ففي الأسلوب حصر وقصر مثلما نقول { **لزيد المال**} أي أن المال ليس لغيره وقول الحق: { **وعلى ربـــهم يتوكلون**} أي لا يتوكلون على غيره بل قصروا توكلهم على الله سبحانه وتعالى".[2]

أقول: فيما أشرت إليه في خاتمة الأعراف أن الله تعالى وصفهم بالإيمان أولاً ثم بخوف القلب ثانياً ثم بالتوكل ثالثاً ، وفي هذا الترتيب سر ، وهو أن الإيمان أصل كل الأعمال أعمال القلب والجوارح ، ثم بدأ من أعمال القلب بذكر الخوف عند سماع القرآن ،هذا الخوف الناشئ عن معرفة الله رب العالمين والذي طرد معه كل خوف من دون الله وحينئذ صح منـــهم التوكل على الله ولذا ثلث به ، ثم بعد ذكر أعمال الباطن شرع في ذكر أعمال الظاهر التي تبنى على عمل الباطن فقال:﴿ **الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ**﴾ (الأنفال:٣).

﴿ **وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلاَّ بُشْرَى وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِندِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ**﴾ (الأنفال: ١٠) تقدم الجار والمجرور { **به قلوبكم** }

---

(١) البخاري كتاب التفسير ٢٠٦/٨ ، البحر ج٤ ص٤٥٥.

(٢) الشعراوي ج٥ ص ٤٥١٣

بينما تأخر في سورة آل عمران في قوله تعالى: ﴿ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلاَّ بُشْرَى لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم ﴾ (آل عمران: ١٢٦)، بالنظر في السورتين يتبين لنا سر التقديم والتأخير في آل عمران ، نجد أن بشرى النبي ﷺ بإنزال الله ثلاثة آلاف من الملائكة قد سبقت وتقدمت، ومن ثم اطمأنت القلوب ، وذهب الخوف، عنها فتقدمت في الذكر، بينما في الأنفال نجد السياق يذكر حال خوف الصحابة - رضي الله عنهم - واستغاثتهم بربهم في قوله:{**إذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم أني ممدكم بألف من الملائكة مردفين**}، فلما تعلقت قلوبهم بالنصر وانتظروا المدد والغوث من الله تقدم الضمير {**به**} لأنهم كانوا في انتظاره .

﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الأَقْدَامَ﴾ (الأنفال:١١).

تقدم قوله: {**يغشيكم النعاس**} مع أنه متأخر زمانياً عن نزول الغيث حيث كان النعاس وهم صفوف للقتال وذلك لأهميته ، إذ هم أشد حاجة لتثبيت قلوبهم وإذهاب الخوف عند ملاقاة العدو ، فالرعب هو سلاح المعركة النافذ إلى القلب قبل نفوذ الطعان والحراب فصاحبه مهزوم قبل أن يقتل ، ولهذا قال تعالى في الآية التالية لها، {**سألقي في قلوب الذين كفروا الرعب**} والدليل على أن النعاس كان متأخراً في الوجود ما رواه الإمام أحمد بسنده إلى أنس بن مالك أن أبا طلحة ، قال :غشينا النعاس ونحن في مصافنا يوم بدر ، فكنت فيمن غشيه النعاس يومئذ فجعل سيفي يسقط من يدي وآخذه ويسقط وآخذه.[1]

ثم يمضي الترتيب في الآيات ترتيباً وجودياً فينـزل الغيث فيحدث أولاً التطهر به جسدياً ، لأن معظمهم قد أصابته الجنابة ومعنوياً لأن الشيطان وسوس لهم كيف تُقتَلون على غير طهارة ،ليوهن عزائمهم فجاء قوله : { **ويذهب عنكم رجز الشيطان** }، فإذا ما تطهروا وذهب رجز الشيطان ، جاء تثبيت القلب وطمأنينته ، فعندئذ يثبت في الصف ويقدم للقتال ولذا جاءت الآية على هذا الترتيب{ **وليربط على قلوبكم ويثبت به الأقدام** } .

---

(١) السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصيلة ص٣٤٤.

وفي تقديم الجار والمجرور في قوله :{ويذهب عنكم رجز الشيطان} دليل العناية الإلهية بـــهم، مع إفادة التخصيص لهم حيث لم يتعد الغيث مكان معسكر المؤمنين .

قال الشعرواي : " وهنا النعاس مفعول به ، وهو أمنة من الله ، وسبحانه يقول في آية أخرى:﴿ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنْ بَعْدِ الغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاساً﴾(آل عمران:١٥٤).
هنا في آية الأنفال نعاس وأمنة ، وهناك في آية آل عمران أمنة ونعاس لأن الحالتين مختلفتان - فتوضح آية آل عمران أن النعاس قد غشى طائفة واحدة من المقاتلين في غزوة أحد بعد أن أصابـــهم الغم في هذه الغزوة وهؤلاء هم المؤمنون الصادقون الملتفون حول رسول الله ﷺ أما في سورة الأنفال فتبين الآية أن النعاس قد غشي الجيش كله حيث كان الجميع على قلب رجل واحد والإيمان يملأ قلوبـــهم جميعاً ولا يوجد بينـــهم منافق أو مرتاب فغشيتـــهم جميعاً هذه الأمنة بالنعاس ، لأنه يزيل الخوف ، ومن دلائل الأمن والطمأنينة والثقة بنصر الله"[١].

﴿ أُوْلَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ وَفِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ ﴾ (التوبة:١٧) تقدم الجار والمجرور {وفي النار} على الجملة الاسمية { هم خالدون } للاهتمام والتخويف مع ما فيه من حسن الفاصلة .

﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ المَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾(الأنفال: ٢٤).

تقدم قوله : {واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه} على قوله :{ وأنه إليه تحشرون} من باب تقديم التخويف بالحال قبل المآل وأن ذلك الحال قد يفضي إلى شر مآل .

والمجرور{إليه} على متعلقه {تحشرون} ليفيد الاختصاص في أن الحشر ليس إلا لله وحده .

ويرى صاحب التحرير أن الاختصاص يفيد الكناية عن انعدام ملجأ أومخبأ يلجئون إليه من الحشر، وهذا رأي وجيه لا يمنع القول من أن الاختصاص قد لا يكون للقصر على المكان بل على المحاسب الحكم العدل في ذلك اليوم فلا مجازي إلا الله.[٢]

---

(١) الشعراوي ج٨ ص٤٥٩٧. (٢) التحرير ج٩ ص٣١٦.

﴿ **وَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلادُكُمْ فِتْنَةٌ** ﴾ (الأنفال: ٢٨) تقدم ذكر المال على الولد، لأن الآية السابقة تنهاهم عن الخيانة في قوله : ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ**﴾(الأنفال:٢٧). وأكثر ما يحمل على الخيانة إنما هو المال ، ثم الولد ، ولذا جاءت هذه الآية من باب بيان السبب المفضي للمنهي عنه في الآية السابقة .

وللشعراوي لفتة جميلة عن التقديم والتأخير في هذه الآية حيث قال : "والمتتبعون لأسرار الأداء القرآني يعرفون أن لكل حرف حكمة ، وكل كلمة بحكمة ، وكل جملة بحكمة ، لذلك نجد من يتساءل لماذا قدم الحق تبارك وتعالى الأموال على الأولاد ؟ ونقول : لأن لكل واحد مال ولو لم يكن له إلا ملبسه وبطبيعة الحال ليس لكل واحد أولاد ثم إن الأبناء ينشئون من الزواج ، ومجيء الزواج يحتاج إلى المال ، لذلك كان من المنطق أن يأتي الحق بالأموال أولاً ثم يأتي بذكر الأولاد".[1]

﴿ **إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ** ﴾(الأنفال:٧٢).

قال صاحب الدرة: " وقال في سورة براءة :﴿**الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوافِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِنْدَ اللَّهِ**﴾ (التوبة:٢٠).

للسائل أن يسأل فيقول : ما الذي قدم له في الآية الأولى ذكر أموالهم وأنفسهم على قوله في سبيل الله ، ثم ما له قدم ذكر في سبيل الله في سورة براءة على ذكر أموالهم وأنفسهم ؟

والجواب أن يقال : إن آية الأولى في سورة الأنفال عقيب ما أنكره الله تعالى على من قال لهم: { **تريدون عرض الدنيا والله يريد الآخرة والله عزيز حكيم**} وهم أصحاب النبي ﷺ لما أسروا المشركين و لم يقتلوهم طمعاً في الفداء ، فقال الله تعالى : { **لولا كتاب من الله سبق لمسكم فيما أخذتم عذاب عظيم**} أي فيما أخذتم من هؤلاء الأسرى من الفداء ، ثم قال الله تعالى لما غفر لهم ما كان منـــهم من ترك القتل إلى الأسر: {**فكلوا مما غنمتم حلالاً طيباً**} أي استمتعوا بما نلتم من أموال المشركين وبما أخذتم من فدائهم ،

---

(١) الشعراوي ج٨ ص٤٦٧٠.

فعقب ذلك بـــهذه الآية والتي مدح فيها من أنفق أمواله في سبيل الله لا من يجاهد طلباً للنفع العاجل فقال : **{إن الذين ءامنوا وهاجروا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله }** فقدم بأموالهم وأنفسهم على في سبيل الله ليعلموا أن ذلك يجب أن يكون أهم لهم وأولى بتقديمه عندهم صرفاً لهم عما حرصوا عليه من فائدة الفداء ، ولم تكن كذلك الآية التي في سورة براءة لأنـــها بعد ما يوجب تقديم قوله في سبيل الله على ذكر المال لأنه قال تعالى : **{أم حسبتم أن تتركوا ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم}** ثم قال في إبطال ما أتى به المشركون من عمارة المسجد الحرام وسقاية الحاج مع المقام على الكفر: **{أجعلتم سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام كمن ءامن بالله واليوم الآخر وجاهد في سبيل الله لا يستوون عند الله}** فكان المندوب إليه في هذه الآية بعد الإيمان بالله الجهاد في سبيله ، فقال بعده مادحاً لمن تلقى بالطاعة أمره **{الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا في سبيل الله}** ثم ذكر بأموالهم وأنفسهم لما قدم ذكر ما اقتضى الموضع تقديمه ، وأن يجعل أهم إليهم من غيره فخالف هذا المكان قوله في سورة الأنفال فقدم فيه ما أخرهناك" وهذا القول عينه الذي ذهب إليه الكرماني في **{أسرار التكرار}** ولعله أخذه من الإسكافي.[1]

قال أبوحيان: " قسم الله المؤمنين إلى المهاجرين، والأنصار، والذين لم يهاجروا ، فبدأ بالمهاجرين، لأنـــهم أصل الإسلام، وأول من استجاب لله، فهاجر قوم إلى المدينة، وقوم إلى الحبشة، وقوم إلى ابن ذي يزن، ثم هاجروا إلى المدينة، وكانوا قدوة لغيرهم في الإيمان، وسبب تقوية الدين **{من سن سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بـــها}** وثنى بالأنصار لأنـــهم ساووهم في الإيمان ، وفي الجهاد بالنفس، والمال لكنه عادل الهجرة الإيواء والنصر وانفرد المهاجرون بالسبق . وذكر ثالثاً من ءامن ولم يهاجر ولم ينصر ففاتـــهم هاتان الفضيلتان ، وحرموا الولاية حتى يهاجروا ".[2]

---

(١) درة التنزيل ص١٠٤، أسرار التكرار في القرآن ص١٣٢،١٣٣.
(٢) البحر المحيط ج٤ ص٥١٧.

أقول: وهذا التفسير من أبي حيان جيد إلا قوله: " لكنه عادل الهجرة الإيواء والنصر وانفرد المهاجرون بالسبق "

فليس هناك دليل على أن الإيواء والنصر عادل الهجرة ، وكيف يعادل الإيواء الهجرة والبون بينهما بعيد ؛ هذا أُخرج من بلده وأهله وماله وذا سالم ءامن في أهله وماله وبلده ، هل يستطيع الإيواء أن يعوض المهاجرين هذا الحرمان أو أن يبدلهم أهلاً بأهل ، الجواب عند كل ذي فطرة سوية مستحيل، ولهذا قرن الله تعالى بين قتل الإنسان نفسه وبين إخراجه من بلده في قوله تعالى:﴿ **وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ أَوِ اخْرُجُوا مِن دِيَارِكُم مَّا فَعَلُوهُ إِلاَّ قَلِيلٌ مِّنْهُم وَلَوْ أَنَّهُم فَعَلُوامَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْراً لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتاً**﴾ (النساء: ٦٦) .

وفي تقديم قوله: **{في سبيل الله}** على **{أموالهم وأنفسهم}** على عكس التقديم من قوله تعالى:﴿ **إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّه** ﴾ (الأنفال:٧٢).

قال البقاعي: "وأيضاً ففي هذا الوقت كان المال قد كثر ، ومواضع الجهاد قد بعدت فناسب الاهتمام بالسبيل فلذا قدم **{في سبيل الله}** .[(١)]

﴿ **إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ** ﴾ (الأنفال:٥٥) .

تقدم المسند إليه وهو الضمير **{هم}** على الجملة الفعلية **{لا يؤمنون}** لتأكيد نفي الإيمان عنهم وتقوية الحكم ودفع الشك عن ثبوته لمن هذه صفته وهذا ما أفاده التقديم الذي لو أخر فيه الضمير عن الفعل ما أفاد هذا الحكم .

---

(١) نظم الدرر ج٣ ص٠ ٢٩.

سورة التوبة

من أنسب سور القرآن الكريم في الترتيب سورتا التوبة والأنفال ، فقد تشابهتا في كثير من الأمور فقد تضمنت الأنفال الأمر بقتال الكافرين المعتدين، وتضمنت التوبة الحث على قتالهم وفضح المنافقين وبينت الأنفال أحكام الفرار من الزحف وحكم النسبة المطلوب فيها بالثبوت ولحوق الإثم بالفار وحكم الأسرى وحكم ولاية المؤمنين، ثم ذكر في سورة التوبة حكم العهود مع المشركين وبيان مدة العهد وحكم الموفين والناكثين والخائنين، وحكم من تخشى خيانتــهم وحكم المستجيرين ، وقد تطابقت أواخر الأنفال مع بداية التوبة تطابقاً شديداً ، فلما ذكر سبحانه في آخر الأنفال العهد تارة بنبذه لمن خيفت خيانته ﴿فَانبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لاَ يُحِبُّ الخَائِنِينَ﴾(الأنفال:٥٨)، وتارة بالتمسك به عند الأمن من ذلك﴿إِلاَّ عَلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَــهُم مِّيثَاقٌ﴾ (الأنفال:٧٢)، وبين من يصلح للموالاة ومن لا يصلح ثم ختمت بالإخبار بشمول علمه سبحانه وإحاطته ﴿ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾(الأنفال:٧٥)، ابتدأت سورة التوبة بالأمر بالنبذ إلى ناس بأعيانــهم نقضوا العهد أو خيف منــهم ذلك وهو شرح لآيات الموالاة في سورة الأنفال .لقد بلغ من اشتباه سورة الأنفال بالتوبة أن ظن بعض الصحابة أنــهما سورة واحد ، وأن التوبة هي تكملة لسورة الأنفال قال البقاعي : " قدمت الأنفال مع قصرها على براءة –التوبة – مع طولها واشتباه أمرها على الصحابة في كونــها سورة مستقلة أو بعض سورة ، كما قدمت آل عمران مع قصرها على النساء لمثل ذلك من المناسبة، فكان ما ذكر في براءة من البراءة والتولي شرحاً لآخر الأنفال، روى الإمام أحمد في المسند وأبو داود في السنن والترمذي في الجامع وحسنه ابن ماجه وابن حبان في صحيحه وإسحق بن راهويه وأبو يعلى والبزار والبيهقي والإمام أبو محمد إسحق بن إبراهيم البستي القاضي في تفسيره بسند الترمذي والبيهقي–والإمام أبو جعفر النحاس بغير سند عن ابن عباسرضي الله عنه

قال : قلت لعثمان بن عفان ﷺ : ما حملكم على أن عمدتم إلى الأنفال وهي من المثاني وإلى براءة وهي من المئين فقرنتم بينـــهما و لم تكتبوا بينـــهما سطر بسم الله الرحمن الرحيم ووضعتموها في السبع الطوال ما حملكم على ذلك؟ فقال عثمان ﷺ : كان رسول الله ﷺ مما- وقال البستي -ربما- يأتي عليه الزمان وهو تتنـــزل عليه السور ذوات العدد فكان إذا نزل عليه الشيء دعا بعض من كان يكتب فيقول ضعوا هذه الآيات في السورة التي يذكر فيها كذا وكذا ، ومات الأنفال من أوائل ما نزل بالمدينة ، وكانت براءة من آخر القرآن نزولاً ، وكانت قصتها شبيهة بقصتها فظننت أنـــها منها فقبض رسول الله ﷺ و لم يبين أنـــها منها"[1]

﴿ وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ ﴾ (التوبة :٦) تقدم { أحد } على استجارك لتشويق السامع إلى المسند فيقع موقع التمكن .

﴿ مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللَّه شَاهِدِينَ عَلَى أَنفُسِهِم بِالْكُفْرِ أُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ وَفِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ ﴾ (التوبة:١٧). تقديم الجار والمجرور {وفي النار} لإفادة الحصر وأنـــهم لا يخلدون إلا في النار، وكذلك ما يفيده التقديم بذكرها من التهديد والتخويف الذي يباشر نفس المتلقي بالبداءة به.

﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّه بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ اللَّه وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ • يُبَشِّرُهُمْ رَبُّـــهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ •خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾ (التوبة :٢٠-٢٢).

تقدم هنا { في سبيل الله } على { بأموالهم وأنفسهم } وهذا التقديم لمناسبة ما قبله وهو قوله: { وهاجروا و جاهدوا} إذ لا عبرة بالأعمال كلها إلا ما كان في سبيل الله، فعلى النية مدار قبول كل الأعمال، فصلاح العمل وفساده بحسب النية المقتضية لإيجاده، والآيات في الموضوع كثيرة ، وكذلك الأحاديث أكتفي من الآيات بقوله تعالى في الآية الخامسة من سورة البينة: {وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين} ، أما الأحاديث فأقتصر منها

---

(١) نظم الدرر ج٣ ص٢٥٨.

على موضوع الآية في الهجرة والجهاد، فأذكر الحديث المشهور الذي رواه عمر بن الخطاب ﵁ قال : قال رسول الله ﷺ{ **إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه** } رواه البخاري ومسلم [1]وعن عائشة – رضي الله عنها – قالت: قال النبي ﷺ{**لاهجرة بعد الفتح ولكن جهاد ونية وإذا استنفرتم فانفروا**}[2] البخاري ومسلم وعن أبي موسى ﵁ أن أعرابياً أتى النبي ﷺ فقال يا رسول الله ﷺ الرجل يقاتل للمغنم ، والرجل يقاتل ليذكر، والرجل يقاتل لُيرى مكانه فمن هو في سبيل الله ؟ فقال رسول الله ﷺ {**من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله**} [3]البخاري ومسلم.

وقد جاءت آيات أخر على غير هذا الترتيب حيث تارة يتقدم قوله: {**في سبيل الله**} على المجاهدة بالمال والنفس وتارة يتقدم ذكر المال والنفس فما هو السر في ذلك ؟

أقول: السر في ذلك يرجع إلى السياق أو الموضوع الذي في شأنه الآية فبحسب الموضوع ومناسبة النـــزول يكون التقديم والتأخير، أذكر من ذلك الآية الواحدة والأربعين من سورة التوبة {**انفروا خفافاً وثقالاً وجاهدوا بأنفسكم وأموالكم في سبيل الله**} تقدم هنا ذكر النفس والمال على قوله: {**في سبيل الله**} لأن السياق يتحدث في بداية الآية عن وجوب الخروج مع اختلاف الظروف والأحوال ، ثم ذكر النفس والأموال وأياً كان المعنى في قوله خفافاً وثقالاً فكلها تدور حول المجاهدين وأحوالهم .

وقد بسط القرطبي في معناها عشرة أقوال منها : {**انفروا ثبات**} سرايا متفرقين نشاطاً وغير نشاط ، الغني والفقير، الشاب والشيخ، مشاغيل وغير مشاغيل، الذي له عيال والذي ليس له عيال، الذي له ضيعة والذي ليس له ضيعة، الرجال والفرسان المقدمة وسائر الجيش، الشجاع والجبان، ثم قال القرطبي بعد استعراضه لتلك الأقوال :

---

(١) البخاري رقم ٢١١٨ مسلم رقم ٢٨٨٤.

(٢) البخاري رقم ٣٩٠٠ مسلم رقم ١٨٦٤.

(٣) البخاري رقم ٢٨١٠ مسلم رقم ١٩٠٤.

" وهذه الأقوال إنما هي على معنى المثال في الثقل والخفة" .[1]

ومن هنا كان من المناسبة جداً أن يأتي ذكر النفس والمال اتباعاً لذكر العدد بذكر العُدة ثم جاء قوله: **{في سبيل الله}** ليشمل ذلك كله وأنه ينبغي أن يكون خالصاً لوجه الله.وقد تقدم قوله: **{في سبيل الله}** على ذكر المال والنفس في سورة النساء الآية الخامسة والتسعين **﴿ لاَ يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُوْلِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ﴾** (النساء:٩٥).

أقول: إن تقديم **{في سبيل الله}** إنما هو تزكية لهؤلاء الذين خرجوا لا يريدون من الحياة الدنيا عرضاً وإنما خرجوا طالبين من ربهم ثواباً وأجراً، وإنما قلت ذلك لأنه في مقام المقابلة مع الذين خرجوا لعرض الدنيا والحصول على الغنيمة في الآية السابقة عليها في قوله تعالى: **﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا وَلاَ تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلاَمَ لَسْتَ مُؤْمِناً تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَعِندَ اللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ كَذَلِكَ كُنتُم مِّن قَبْلُ فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوا إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيراً ﴾** (النساء:٩٤).

ومنه قوله تعالى في سورة الصف في الآية الحادية عشرة **﴿ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾.**

فقد حسّن تقديم في سبيل الله هنا مجاورتها لقوله: **{تؤمنون بالله ورسوله}** فمن لوازم الإيمان بالله الإخلاص له ومن لوازم الإيمان برسوله ملازمته في الجهاد والدفاع عنه وعن دعوته، كما أن الآية تقدمها قوله: **{هل أدلكم على تجارة تنجيكم}** والإنسان إنما يطلب الربح المضمون ما أمكن ويبعد عن المخاطرة ما أمكن ، ولما كان البيع ثميناً تتقاصر عنه همم غير المؤمنين قدم قوله في سبيل الله لتنبعث الطمأنينة والثقة ويحدث الإقبال بيقينهم في عظيم النوال عند ذي الجلال .

قال أبوحيان: "ولما كانت الأوصاف التي تحلوا بها ، وصاروا بها عبيده حقيقة هي ثلاثة، الإيمان والهجرة والجهاد بالمال والنفس، قوبلوا في

---

(١) تفسير القرطبي ، الجزء الثامن ص ٩٨.

التبشير بثلاثة الرحمة والرضوان والجنات، فبدأ بالرحمة لأنـــها الوصف الأعم الناشئ عنها تيسير الإيمان لهم ، وثنى بالإحسان لأنه الغاية من إحسان الرب لعبده ، وهو مقابل الجهاد، إذ هو بذل النفس والمال ، وقُدِّم على الجنات لأن رضا الله عن العبد أفضل من إسكانـــهم الجنة، وفي الحديث الصحيح إن الله تعالى يقول يا أهل الجنة هل رضيتم؟ فيقولون يا ربنا كيف لا نرضى وقد باعدتنا عن نارك ، وأدخلتنا جنتك ، فيقول لكم عندي أفضل من ذلك فيقولون : وما أفضل من ذلك ؟ قال أحل عليكم رضائي فلا أسخط عليكم بعده} [1]وأتى ثالثاً بقوله: **{جنات لهم فيها نعيم مقيم}** أي دائم لا ينقطع ، وهذا مقابل لقوله:**{وهاجروا}** ، لأنـــهم تركوا أوطانـــهم التي نشئوا فيها ، وكانوا فيها منعمين ، فآثروا الهجرة على دار الكفر أي مستقر الإيمان والرسالة، فقوبلوا على ذلك بالجنات ذوات النعيم المقيم، فجاء الترتيب في أوصافهم على حسب الواقع، الإيمان ثم الهجرة ثم الجهاد ، وجاء الترتيب في المقابل على حسب الأعم ، ثم الأشرف ثم التكميل" .[2]

﴿ قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا ﴾ (التوبة:٢٤).

قال أبوحيان: "وقدم الآباء لأنـــهم الذين يجب برهم وإكرامهم وحبـــهم ، وثنى بالأبناء لكونـــهم أعلق بالقلوب ، ولما ذكر الأصل والفرع ذكر الحاشية ، وهي الإخوان ، ثم ذكر الأزواج ، وهن في المحبة والإيثار كالأبناء ، ثم الأبعد بعد الأقرب في القرابة فقال:**{وعشيرتكم}** ..ثم ذكر **{وأموال اقترفتموها}** أي اكتسبتموها، لأن الأموال يعادل حبـــها حب القرابة بل حبـــها أشد، وكانت الأموال في ذلك الوقت عزيزة وأكثر الناس كانوا فقراء ، ثم ذكر **{وتجارة تخشون كسادها}**.

والتجارة لا تتهيأ إلا بالأموال وجعل تعالى التجارة سبباً لزيادة الأموال ونمائها .. ثم ذكر**{ومساكن ترضونـــها}**.[1]ولم يذكرأبو حيان سبب مجيء

---

(١) البخاري في الرقاق، باب صفة الجنة والنار، حديث رقم ٢٤٥٨ ، مسلم، باب الجنة وصفة نعيمها حديث رقم ٩.

(٢) البحر المحيط ج٥ ص٢٣.

{ومساكن ترضونـــها} متأخراً بعد الأموال والتجارة ، وأقول إن السبب في ذلك أن الأموال والتجارة سبب لشراء المساكن ووجودها مترتب على وجود الأموال والتجارة .

وقد أحسن الرازي وأجاد في تعرضه لسر الترتيب في هذه الآية حيث قال: {واعلم أنه تعالى ذكر الأمور الداعية إلى مخالطة الكفار،وهي أمور أربعة:

أولــها: مخالطة الأقارب ، وذكر منـــهم أربعة أصناف على التفصيل وهم الآباء والأبناء والإخوان والأزواج ، ثم ذكر البقية بلفظ واحد يتناول الكل ، وهي لفظ العشيرة .

وثانيها : الميل إلى إمساك الأموال المكتسبة .

وثالثهاً : الرغبة في تحصيل الأموال بالتجارة .

ورابعها :الرغبة في المساكن ، ولاشك أن هذا الترتيب ترتيب حسن ، فإن أعظم الأسباب الداعية إلى المخالطة القرابة ثم إنه يتوصل بتلك المخالطة إلى إبقاء الأموال الحاصلة ، ثم إنه يتوصل بالمخالطة إلى اكتساب الأموال التي هي غير حاصلة ، وفي آخر المراتب الرغبة في البناء في الأوطان والدور التي بنيت لأجل السكنى فذكر تعالى هذه الأشياء على هذا الترتيب الواجب ".[1]

﴿ لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئاً وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ. ثُمَّ أَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُوداً لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ. ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِن بَعْدِ ذَلِكَ عَلَى مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ (التوبة:٢٥-٢٧).

جاء الترتيب في هذه الآيات على حسب الترتيب الزمني للقصة بأسلوب بلاغي أعطى القصة بعداً زمانياً وشعورياً غير ما يجري عادة في الأسلوب القصصي الذي ينتهجه الكتاب ، فقد جاء الحرف -ثم- والذي هو حرف عطف للترتيب والتراخي مكرراً ثلاث مرات في الحديث عن غزوة حنين.

{وضاقت عليكم الأرض بما رحبت ثم وليتم مدبرين}

---

(١) مفاتيح الغيب ج١٦ ص٢٠.

{ثم أنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين}
{ثم يتوب الله من بعد ذلك على من يشاء}
والعطف بثم هنا في هذه المواضع الثلاثة أفاد أمرين :

أولهما: الترتيب الزمني في وقوع هذه الأحداث ..فقد وقع المسلمون أولاً في اضطراب وذعر والتمسوا الخلاص مما هم فيه من بلاء ، و لم يكن ذلك بالميسور لهم ..ثم كان الفرار وتولية الدبر هما طريق النجاة ثم كان من الله توبة ومغفرة لمن فر منـــهم .

ثانيهما : التغاير بين وجوه هذه الأحداث المتعاطفة بحيث يبدو أن عنصر الزمن لا بد أن يكون عاملاً هنا في تحريك الأحداث حتى تتغير وتبلغ الصورة التي جاءت عليها .

فالناظر للمعركة من الظاهر يحسبـــها معركة واحدة متلاحقة الأحداث، بينما يجد الناظر في أسلوب ترتيبـــها وعرضها أنـــها معارك متعددة وأحداث شبه منفصلة ، فالمسلمون وقعوا في ضيق وركبـــهم الركب ثم جاء قوله: **{ثم وليتم مدبرين}** معطوفاً على الحدث السابق عليه بما يشعر أنه حدث مستقل من باب عطف حدث على حدث أو قصة على قصة ، من ذلك قوله: **{ ثم أنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين }** من باب عطف قصة على قصة وكذلك جاء قوله: **{ ثم يتوب الله من بعد ذلك على من يشاء }** ليوحي إلى المستمع والقارئ أن هذا ليس من قبيل ترتيب السبب على مسببه أو العلة على معلولها ، وإنما هو من قبيل قراءة حدث أو قصة جديدة وناهيك ما أعطته من إحساس بأن تلك المغفرة ليست متعلقة بما فعلوا ولكنها جاءت بعلم الله وحكمته في إعطاء المغفرة والرحمة التي هي عادة بعيدة عن الفارين والمدبرين كما قال تعالى:**﴿ وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلاَّ مُتَحَرِّفاً لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزاً إِلَى فِئَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾** (الأنفال:١٦)، لماذا بدأ بأكلهم الناس بالباطل مع أن جريمة الصد عن سبيل الله أشنع وأعظم جرماً؟

أقول: هذا من باب تقديم السبب على النتيجة ، فإن الإقبال على الدنيا وحب جمع المال كان من نتيجته الصد عن سبيل الله .

﴿ يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ ﴾ (التوبة:٣٥) . هذا الترتيب في الكي على حسب الترتيب الوجودي في الدنيا، لأن الغني صاحب المال إذا أتاه السائل يطلب تبدو منه آثار الكراهة والمنع، فعند ذلك يقطب وجهه ويكلح، وتجتمع أسارير وجهه ، فيتجعد جبينه ، ثم إن كرر السائل الطلب، وألح في السؤال ، مال عن جهته ، وتركه جانباً، ثم إن كرر الطلب وألح في السؤال ولاه ظهره ،وأعرض عنه ، واستقبل جهة أخرى، وهي النهاية في الرد، والغاية في المنع الدال على كراهية الإعطاء والبذل ، وهذا دأب مانعي البر والإحسان ، وعادة البخلاء، فلذلك خص هذه الأعضاء الثلاثة بالكي يوم القيامة ، وذكرها على هذا الترتيب .

﴿ انفِرُوا خِفَافاً وَثِقَالاً وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾(التوبة:٤١)

قال أبوحيان: "وقدمت الأموال لأنـــها أول مصرف وقت التجهيز".[1]

بينما يرى صاحب التحرير أن الإبداء بالأموال للاعتناء أو التنبيه حيث يقول: وتقديم الأموال على الأنفس هنا: لأن الجهاد بالأموال أقل حضوراً بالذهن عند سماع الأمر بالجهاد ، فكان ذكره أهم بعد ذكر الجهاد مجملاً .[2]

أقول: وهذا التقديم يشبه تقديم الوصية على الدين كما مر بنا في سورة النساء ، ويحتمل أيضا أنـــها من باب البداءة بالأسهل ثم الأصعب على النفس عند التكليف ولا سيما وقد بدأت الآية بالأخف عند طلب النفرة في سبيل الله فبدأت بقوله :

{ **خفافاً** } ثم جاء قوله: { **ثقالاً** } كما في قوله تعالى في سورة النساء: ﴿ **لاَ يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُوْلِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً** ﴾ (النساء :٩٥). فقد أجاب الرازي بقوله : لقائل أن يقول : إنه تعالى قال : {**إن الله اشتري من المؤمنين أنفسهم وأموالهم**} فقدم ذكر النفس على المال ، وفي الآية التي نحن فيها وهي قوله: {**والمجاهدون بأموالهم وأنفسهم**} قدم ذكر المال على النفس ، فما السبب؟

---

(١) البحر المحيط ج٥ ص ٤٧.
(٢) مفاتيح الغيب ج١١ ص٨.

وجوابه: أن النفس أشرف من المال، فالمشتري قدم ذكر النفس تنبيهاً على أن الرغبة فيها أشد، والبائع أخر ذكرها تنبيهاً على أن المضايقة فيها أشد، فلا يرضى ببذلها إلا في آخر المراتب" .[1]

أقول: وقد عكس هذا التقديم في نفس السورة في قوله تعالى : ﴿ **إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ** ﴾ (التوبة:١١١). وكقوله تعالى: ﴿ **إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ** ﴾(الحجرات:١٥). في الآية الحادية عشرة بعد المائة تقدم شراء النفس على المال في سياق ذكر الثواب والجزاء ، فقدم أعظم الأمرين وأنفسَهُما في مقابل أعظم الثواب وهو الجنة، بينما نجد أن الآيات الأخريات إما آمرة بالجهاد أو مخبرة عن حال المؤمنين في جهادهم وتضحياتهم، وفي ضوء ذلك إما أن يكون التقديم للمال على النفس تقديماً وجودياً لأنه لا يتم الجهاد بالنفس إلا بالجهاد بالمال لأنه موقوف عليه ومترتب حدوثه بعده لأن الجهاد يحتاج إلى الأموال والنفقات من عتاد وسلاح ...فيكون الذكر للترتيب الوجودي.

الاحتمال الثاني : هو أنه بدأ بأخف الأمرين في التكليف من باب الترقي من الصعب إلى الأصعب .

الاحتمال الثالث : وهو يتعلق بمناسبة النزول حيث يتقدم ذكر المال على النفس عندما يكون الجهاد يحتاج إلى المال أكثر وتتقدم النفس على المال إذا كان الاحتياج إلى النفس أشد وأعظم ، وآية التوبة { **إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم** } نزلت في البيعة الثانية لما كان الإسلام يحتاج إلى النفوس المؤمنة التي تدافع عنه وتحمل رايته وتضحي بدمائها من أجله فلم تكن الحاجة إلى المال بقدر ما كانت بحاجة إلى الرجال ، وتفصيل ذلك في كتب السيرة فإذا رجعنا إلى بيعة العقبة الثانية نجد أنها تمت في موسم الحج من العام الثالث عشر من البعثة ، حيث قدم مكة لأداء مناسك الحج مجموعة كبيرة من مسلمي المدينة وكان زعيمهم البراء بن معرور ، وقد تساءل مسلمو

---

(١) التحرير والتنوير ج١٠ ص٢٠٧.

الأنصار فيما بينـــهم حتى متى يتركون رسول الله ﷺ يطوف ويطرد في جبال مكة ويخاف وجرت بينـــهم وبين الرسول ﷺ اتصالات سرية أدت إلى إبرام أهم اتفاق في تاريخ الإسلام وعن نتائج هذا الاتفاق يقول الدكتور مهدي رزق الله: " كانت بيعة العقبة الثانية شاملة للمبادئ التي ستتم مشروعيتها بعد الهجرة إلى المدينة ، وفي مقدمتها الجهاد والدفاع عن الدعوة " [1]

قال القرطبي: " ونزلت الآية في البيعة الثانية ، وهي بيعة العقبة الكبرى وهي التي أناف فيها رجال الأنصار على السبعين وكان أصغرهم سناً عقبة ابن عمرو، وذلك أنـــهم اجتمعوا إلى رسول الله ﷺ عند العقبة فقال عبد الله ابن رواحة للنبي ﷺ : اشترط لربك ولنفسك ما شئت ، فقال النبي ﷺ : **{ أشترط لربي أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئاً وأشترط لنفسي أن تمنعوني مما تمنعون منه أنفسكم وأموالكم }** قالوا : فإذا فعلنا ذلك فما لنا؟ قال : **{ الجنة }** قالوا : ربح البيع، لا نُقيل ولا نستقيل فنـــزلت **{إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة }** [2]

وللأستاذ عبدالكريم الخطيب رأي آخر وجيه أشبه بما نسميه التقديم للسببية أو لأنه علة لما بعده قال: "وقدم الجهاد بالمال على الجهاد بالنفس، لأن المال عند من يحرص على المال أحب إليه من نفسه ، وهو القوة الغالبة التي تثقل الإنسان وتبطئه عن الجهاد ، فإذا سخا بالمال وبذله في سبيل الله خفت نفسه إلى الجهاد وانطلق من القيد الذي كان يمسك به عن أن يكون في المجاهدين". [3]

﴿ عَفَا اللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ ﴾ (التوبة:٤٣) . تقدم العفو على العتاب لإدخال البشرى والسرور على قلب النبيﷺ لعظيم مكانته عنده سبحانه ، فتقدم العفو من أجل تخفيف العتاب .

بدأ بقوله: **{عفا الله عنك}** قبل قوله :**{ لم أذنت لهم}** لبيان لطف الله بنبيه وبيان عظيم شرفه ومكانته عند الله مع ما فيه من إدخال البشر والسرور على قلبه قبل العتاب .

---

(١) السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية من ص٢٤٨-٢٥٥.

(٢) تفسير القرطبي ج٨ ص١٦٩.

(٣)التفسير القرآني ج١٠ ص٧٧٨.

قال الخازن: "**وقال سفيان بن عيينة**: انظروا إلى هذا اللطف بدأه بالعفو قبل أن يعيره بالذنب قال الخازن: استدل بـــهذه الآية من يرى جواز صدور الذنوب من الأنبياء وبيانه من وجهين : أحدهما : أنه سبحانه وتعالى قال : عفا الله عنك والعفو يستدعي سابقة الذنب ، الوجه الثاني: أنه سبحانه وتعالى قال لم أذنت لهم وهذا استفهام معناه الإنكار .

والجواب عن الأول : إنّا لا نسلم أن قوله تعالى عفا الله عنك يوجب صدور الذنب بل نقول إن ذلك يدل على المبالغة في التعظيم والتوقير ، فهو كما يقول الرجل لغيره إذا كان معظماً له عفا الله عنك ما صنعت في أمري رضي الله عنك ما جوابك عن كلامي وعافاك الله وغفر الله لك كل هذه الألفاظ في ابتداء الكلام وافتتاحه تدل على تعظيم المخاطب به قال علي بن الجهم يخاطب المتوكل :

عفا الله عنك ألا حُرمةٌ تعود بفضلك أن أبعدا [1]

﴿قُل لَّن يُصِيبَنَا إِلاَّ مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلاَنَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ (التوبة :٥١). تقدم الجار والمجرور { **على الله** } على متعلقه { **فليتوكل**} ليفيد الحصر .

﴿ فَلاَ تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلاَ أَوْلاَدُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَـــهُم بِـــهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ ﴾ (التوبة:٥٥)

قال الرازي تحت {**المسألة الثانية**}: "قال مجاهد والسدي وقتادة : في الآية تقديم وتأخير، والتقدير، فلا تعجبك أموالهم ولا أولادهم في الحياة الدنيا، إنما يريد الله ليعذبـــهم بـــها في الآخرة وقال القاضي: وهاهنا سؤالان : الأول : وهو أن يقال: المال والولد لا يكونان عذاباً ،بل هما من جملة النعم التي منَّ الله بـــها على عباده ، فعند هذا التزم هؤلاء التقديم والتأخير ، فكيف يكون المال والولد عذاباً ؟ فلا بد لهم من تقدير حذف في الكلام بأن يقولوا أراد التعذيب بـــها من حيث كانت سبباً للعذاب، وأيضاً فلو أنه قال: { **فلا تعجبك أموالهم ولا أولادهم في الحياة الدنيا**} لم يكن لـــهذه الزيادة

---

(١) الخازن ج٣ ص١٣٠.

كثير فائدة ، لأن من المعلوم أن الإعجاب بالمال والولد لا يكون إلا في الدنيا وليس كذلك حال العذاب ، فإنـــها قد تكون في الدنيا كما تكون في الآخرة، فثبت بـــهذا القول أن التقديم والتأخير ليس بشيء " [1]

قال الخازن : "قال مجاهد وقتادة : في الآية تقديم وتأخير،وتقديرها **فلا تعجبك** أموالهم ولا أولادهم في الحياة الدنيا ، إنما يريد الله ليعذبـــهم بـــها في الآخرة ، وقد مال إلى وجود التقديم والتأخير السمين الحلبي ، ولم يوافق أبا حيان في اعتراضه حيث قال :

" إلا أن تقييد الإعجاب المنهي عنه الذي يكون في الدنيا كما يكون في الآخرة ، وممن رأى أن هذا التقديم فيه نوع من التكلف ولا حاجة إلى القول به الخازن ، حيث قال: "وقيل : إن سبب كون المال والولد عذاباً في الدنيا هو ما يحصل من المتاعب والمشاق في تحصيلهما فإذا حصلا ازداد التعب وتحمل المشاق في حفظهما ويزداد الحزن والغم بسبب المصائب الواقعة فيهما ، فعلى هذا القول لا حاجة إلى التقديم والتأخير في نظم الآية وأورد على هذا القول بأن هذا التعذيب حاصل لكل أحد من بني آدم مؤمنـــهم وكافرهم فما فائدة تخصيص المنافقين بـــهذا التعذيب في الدنيا وأجيب عن هذا الإيراد بأن المنافقين مخصوصون بزيادة من هذا العذاب وهو أن المؤمن علم أنه مخلوق للآخرة وأنه يثاب بالمصائب الحاصلة له في الدنيا فلم يكن المال والولد في حقه عذاباً في الدنيا، وأما المنافق فإنه لا يعتقد كون الآخرة له وإنه ليس فيها ثواب فبقي ما يحصل له في الدنيا فثبت بـــهذا الاعتبار أن المال والولد عذاب على المنافقين في الدنيا دون المؤمنين " .[2]

﴿لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَأً أَوْ مَغَارَاتٍ أَوْ مُدَّخَلاً لَوَلَّوْا إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ﴾(التوبة:٥٧).

بدأ بالملجأ ، إذ هو أول مطلوب لمن أراد الاحتماء ، فيبدأ بالبحث عن حصن أو جبل أو قوم يمنعونه ، فإن تعسر، ذهب يبحث عن المغارات، وهي النقوب الواسعة في الجبال حيث الوصول إليها سهل ، وفرص العيش فيها أحسن ، ثم بعد ذلك إن لم يجد إلا المدخل أي المكان الذي يدخلونه بغاية

---

(١) مفاتيح الغيب ج١٦ ص٩٥.

(٢) الخازن ج٣ ص١٣٥،١٣٦.

العسر والصعوبة لضيقه أو لمانع في طريقه لفعلوا ذلك ، وفي هذا التدرج بيان حال هؤلاء المنافقين في طلبـــهم الاحتماء لإظهار كفرهم وعداوتـــهم .

قال السمين الحلبي: "وهذا من أبرع العلم ذكر أولاً الأمر الأعم وهو الملجأ من أي نوع كان ، ثم ذكر الغيران التي يختفي فيها في أعلى الأماكن وفي الجبال، ثم الأماكن التي يختفى فيها في الأماكن السافلة وهي السروب التي عبر عنها بالمدّخل"[(١)]

قال أبوحيان: "بدئ أولاً بالأعم وهو الملجأ ، إذ ينطلق علي كل ما يلجأ إليه الإنسان ثم ثنى بالغارات وهي الغيران في الجبال ، ثم أتى ثالثاً بالمدخل وهو النفق باطن الأرض".[(٢)]

﴿ إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُـــهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ (التوبة:٦٠)، والترتيب هنا على حسب الأهمية ولبيان الأحق بأخذ الصدقة من المذكور بعده ولهذا أرى أن الفقير هو أشد فقراً من المسكين لأنه ذكر قبله في نص التنـــزيل، وكان النبي ﷺ يستعيذ منه في الصباح والمساء ، قارناً إياه مع الكفر بالله قائلاً : **{اللهم إني أعوذ بك من الكفر والفقر وأعوذ بك من عذاب القبر}** فالفقير أسوأ حالاً من المسكين والدليل على ذلك الآية التاسعة والسبعين من سورة الكهف **{أما السفينة فكانت لمساكين يعملون في البحر}** فأثبت لهم صفة المسكنة مع ملك السفينة وهي تساوي جملة من المال،وأما قول القرطبي: **{لأنه يحتمل أن تكون مستأجرة لهم}** فغير مسلم له ، لأن الأصل أن اللام للملك إلا بدليل من السياق يصرفها عن الملك لغيره كما في الآية التاسعة والأربعين من سورة الشورى **{لله ملك السموات والأرض يخلق ما يشاء}**، وكما في الآية السادسة والخمسين بعد المائة من سورة البقرة **{الذين إذا أصابتـــهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون}** أي إنا ملك لله رب العالمين نقر بأنه يفعل في ملكه ما يشاء، والقرطبي نفسه قد قال في هذه الآية في قوله: **{ إنا لله }** توحيد وإقرار

---

(١)الدر المصون جـ٣ ص٤٧٤.   (٢) البحر المحيط جـ٥ ص٥٦.

بالعبودية والملك.[1] وقد استحسن القرطبي قول أصحاب مالك والشافعي أنـــهما سواء ، مع أن ظاهر الأدلة التي ذكرها ترجح أن الفقير أسوأ حالاً من المسكين، قال القرطبي: " قالوا : والفقير معناه في كلام العرب المفقور الذي نزعت فِقرُه من ظهره من شدة الفقر فلا حال أشد من هذه . وقد أخبر الله عنـــهم بقوله:﴿ **لاَ يَسْتَطِيعُونَ ضَرْباً فِي الأَرْضِ**﴾(البقرة:٢٧٣)، واستشهدوا بقول الشاعر :

لما رأى لبدَ النسور تطايرت ... رفعَ القوادمِ كالفقير الأعزلِ

أي لم يطقَ الطيران فصار بمنـــزلة من انقطع صلبه ولصق بالأرض ثم قال: وأما قوله تعالى: { **للفقراء الذين أحصروا في سبيل الله لا يستطيعون ضرباً في الأرض** } فلا يمتنع أن يكون لهم شيء ."[2]

وأقول: ليس كل شيء بشيء ، وقد ورد الكثير من أن القراء لم يكونوا يملكون شيئاً أيام النبي ﷺ ومن أشهر هؤلاء أهل الصفة الذين لم يكن لهم سكن ولا مال ولا حرفة ولا طعام ، وإنما كانوا يأكلون من الصدقات ، ولو كان الفقير والمسكين سواء لما كان للتكرار معنى ، وإنما القول في مسألة الفقير والمسكين كالقول في الإسلام والإيمان والتوبة والاستغفار : إذا اجتمعا افترقا وإذا افترقا اجتمعا، ولذ أرى أن الترتيب هنا في هذه الآية بحسب الأولوية في الإعطاء.

وكما قال صاحب المنار: " فالفقراء والمساكين أحق من غيرهم بـــهذه الصدقات لأنـــهم المقصودون بـــها أولاً وبالذات ، بدليل الحديث المتقدم { **تؤخذ من أغنيائهم فترد في فقرائهم** } ويليهم العاملون عليها ، لأنـــهم هم الذين يقومون بجمعها وحفظها ويليهم المؤلفة قلوبـــهم عند الحاجة إليهم، وهم يعطون من الغنائم أيضاً ، فالحاجة إليهم عارضة لا كالعاملين على الصدقات ويليهم مصلحة فك الرقاب والعتق وهي من المصالح الاجتماعية الكمالية لا الضرورية، فإن تأخيرها لا يرهق معوزاً كالفقير ولا يضيع مصلحة تشتد الحاجة إليها كتأليف القلوب ، ويليها مساعدة الغارم على الخروج من

---

(١) تفسير القرطبي ج٢ ص١١٩.

(٢) تفسير القرطبي ج٨ ص١٠٧-١٠٩.

غرمه فهو دون مساعدة الرقيق على الخروج من رقه ، ويليهم المصلحة العامة المعبر عنها بسبيل الله ، وأما ابن السبيل فهو دون جميع ما قبله لندرة وجوده.

ولولا إرادة الترتيب لذكر المستحقون من الأفراد بأوصافهم التي اشتقت منها ألقابهم نسقاً وهم **{الفقراء والمساكين والعاملون والمؤلفة قلوبهم والغارمون وفي سبيل الله}** ثم ذكرت بعدهم المصالح التي أدخل عليها **{ في}** وهي الرقاب وسبيل الله "[1]

﴿وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ (التوبة:٧٢) . جاء هذا الوصف للجنَّة أولاً بما يستميل به القلوب، حيث ذكر أولاً الجنة وأنها من جنس أبهى الأماكن التي تعرفونها، ثم ارتقى في الوصف بأن هذه الجنات ليست كجنات الدنيا بل جنات تجري من تحتها الأنهار مخلّصة صافية من شوائب الأكدار، ولما كانت الجنة لا تصلح بلا سكن ، ذكر أن هذا السكن سكن طيب خالص من الكدر، ولما كان الساكن في مثل هذا المكان المريح يخشى منه التحول، ذكر أنهم فيها مقيمون، لا ينتقلون ، فهي جنات عدن أي جنات الإقامة ولما ذكر النعيم ، تدرج ليصل إلى ما هو أعظم من النعيم نفسه ، إذ إن النعيم صنعة المنعم ومحض فضله ، ولم يوصل إليها إلا برضاه عنهم أن يدخلوها ولا بقاء لهم ، ولا تحول عنها إلا برضاه عنهم أن يخلّدوها ، ثم إذا كان هذا كله أثر من المنعم وفيض من عطائه وكرمه فليس من شك أن تجليات صفات رحمته وكرمه ورضاه أعظم وأجمل وأحسن وأكبر، ولهذا ختم هذا النعيم بقوله:

{ورضوان من الله أكبر} وهذا ما جاءت به السنة : فقد روى الإمام مالك والشيخان عن أبي سعيد الخدري ﷺ أن رسول الله ﷺ قال : **{إن الله عز وجل يقول لأهل الجنة يا أهل الجنة فيقولون لبيك ربنا وسعديك والخير في يديك فيقول هل رضيتم ؟ فيقولون وما لنا لا نرضى وقد أعطيتنا ما لم تعط أحداً من خلقك ؟ فيقول: ألا أعطيكم أفضل من ذلك ؟ فيقولون:**

---

(١) المنار ج١٠ ص٥٠٦، ٥٠٧.

يا رب وأي شيء أفضل من ذلك؟ فيقول أحل عليكم رضواني فلا أسخط عليكم بعده أبداً} .[1]

﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ المَصِيرُ ﴾ (التوبة :٧٣) .

قال أبوحيان: "ولما ذكر أمر الجهاد وكان الكفار غير المنافقين أشد شكيمة وأقوى أسباباً في القتال، وإنكاء -هزيمة- بتصديهم للقتال قال **{جاهد الكفار والمنافقين}** فبدأ بـــهم". [2]

تقدم ذكر الكفار على المنافقين في أمر جهادهم مع كون المنافقين أعظم كفراً وأخبث عقيدة ، لـــهذا تقدم ذكرهم على الكفار في الوعيد بعذاب جهنم كما في قوله تعالى :﴿ وَعَدَ اللَّهُ المُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا هِيَ حَسْبُـــهم ولَعَنَـــهم اللَّهُ ولَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ (التوبة:٦٨).

بينما تأخر ذكرهم هنا عند الأمر بالجهاد ،لأنـــهم لم يكونوا يحاربون الإسلام علانية ولا يظهرون عداوة ولا يحملون على أهله سلاحاً .

﴿ إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَاءُ ﴾ (التوبة :٩٣).

تقدمت **{إنما}** هنا على الجملة الاسمية، حيث حكمها كحكم تقدمها على الفاعل والمفعول حيث يقع الاختصاص على المتأخر منـــهما، فالاختصاص هنا وقع على قوله: **{على الذين}** حيث هم المخصوصون بالعقوبة والمأثم .

﴿ وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ المُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ رَّضِيَ اللَّهُ عَنـــهم وَرَضُوا عَنْهُ ﴾(التوبة :١٠٠) . تقدم ذكر المهاجرين على الأنصار وذكر المهاجرين والأنصار على التابعين ،وذلك التقديم تقديم للشرف فإن المهاجرين أفضل بالهجرة والأنصار أفضل من التابعين وتقدم ذكر المهاجرين على الأنصار في قوله تعالى:﴿ لَقَد تَّابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ ﴾ (التوبة: ١١٧) . وهذا هو عين الترتيب المذكور في سورة الحشر في قوله تعالى:

﴿ لِلْفُقَرَاءِ المُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَاناً وَيَنصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴾ (الحشر:٨)

ثم قال في الأنصار:

---

(١) سبق تخريجه. (٢) البحر ج٥ ص٧٣.

﴿**وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلاَ يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ**﴾ (الحشر:٩)، ثم قال في التابعين ﴿ **وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالإِيمَانِ وَلاَ تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلاً لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ** ﴾ (الحشر:١٠)، أما الدليل من السنة فقول النبي ﷺ{ **لولا الهجرة لكنت امرأً من الأنصار** }[١].

روى الإمام أحمد في مسنده عن أبي سعيد الخدري قال لما توفي رسول الله ﷺ قام خطباء الأنصار فجعل منهم من يقول يا معشر المهاجرين إن رسول الله ﷺ كان إذا استعمل رجلاً منكم قرن معه رجلاً منا فنرى أن يلي هذا الأمر رجلان أحدهما منكم والآخر منا قال فتتابعت خطباء الأنصار على ذلك فقام زيد بن ثابت فقال : {**إن رسول الله ﷺ كان من المهاجرين وإنما الإمام يكون من المهاجرين ونحن أنصاره كما كنا أنصار رسول الله ﷺ فقام أبو بكر فقال جزاكم الله خيراً من حي يا معشر الأنصار وثبت قائلكم ثم قال والله لو فعلتم غير ذلك لما صالحناكم**}[٢]

وقد استدل أبو بكر الصديق - رضي الله عنه - بآية سورة التوبة على تقديم المهاجرين على الأنصار عندما قال في خطبة يوم السقيفة مخاطباً الأنصار {أسلمنا قبلكم وقدمنا في الكتاب عليكم فقال تعالى: {**والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار**} فنحن الأمراء وأنتم الوزراء، وفي صحيح البخاري عن ابن عباس -رضي الله عنهما - أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه خطب الناس في خلافته فذكر حديث بيعة أبي بكر فقال : {إنه قد كان من خيرنا حين توفى الله نبيه ﷺ إلا أن الأنصار خالفونا واجتمعوا بأسرهم في سقيفة بني ساعدة واجتمع المهاجرون إلى أبي بكر فقلت لأبي بكر : يا أبا بكر انطلق بنا إلى إخواننا هؤلاء من الأنصار فانطلقنا حتى أتيناهم فقال قائلهم نحن أنصار الله وكتيبة الإسلام - أي التي ينتمي إليها آحاد الناس - فمنا أمير ومنكم أمير

---

(١) السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصيلة دراسة تحليلية ص٥٩٨ .

(٢) مسند أحمد كتاب مسند الأنصار رقم { ٢٠٦٣١ }.

فقال أبو بكر: {ما ذكرتم فيكم من خير فأنتم له أهل ولا يعرف هذا الأمر إلا لـــهذا الحي من قريش هم أوسط العرب نسباً وداراً ..} [1]

﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِــهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلاتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ (التوبة:١٠٣) تقدم التطهير على الزكاة لأن التخلية قبل التحلية ، فإذا تطهروا من أمراض البخل والشح وطابت نفوسهم بأموالهم قربة لله زكت النفوس وطابت وارتقت في الفضيلة.

﴿ أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾ (االتوبة:١٠٤) تقدمت صفة التواب على صفة الرحيم لأن الرحمة مترتبة على حدوث التوبة ، وقد تقدم قبوله للتوبة في الآية فجاء الترتيب في غاية المناسبة .

﴿ التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ (التوبة:١١٢) .

قال أبوحيان: "وترتيب هذه الصفات في غاية من الحسن ، إذ بدأ أولاً بما يخص الإنسان ، مرتبة على ما سعى ، ثم يتعدى من هذه الأوصاف من الإنسان لغيره وهو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، ثم بما شمل بما يخصه في نفسه وما يتعدى إلى غيره ، وهو الحفظ لحدود الله" .[2]

﴿ لَقَد تَّابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ﴾ (التوبة :١١٧).

لقد أفاد تقديم ذكر النبي ﷺ قبل المهاجرين والأنصار في تحقيق توبة الله على المهاجرين والأنصار حيث إنه ﷺ مغفور له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، فدل ذلك التقديم على عظم شأن هذه التوبة وإتيانــها على كل الذنوب .

﴿ وَعَلَى الثَّلاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَن لاَّ مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلاَّ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾ (التوبة:١١٨) .

---

(١) حدائق الأنوار ومطالع الأسرار في سيرة النبي المختار-ﷺ - وعلى آله المصطفين الأخيار ، الجزء الثاني ص ٧٦٠.
(٢) البحر المحيط جـ٥ ص١٠٧.

قال أبو حيان:"وجاءت هذه الجمل في كنف إذا في غاية الحسن والترتيب، فذكر أولا : ضيق الأرض عليهم، وهو كناية عن استيحاشهم ونبوة الناس عن كلامهم ، وثانيا :{**وضاقت عليهم أنفسهم**} وهو كناية عن تواتر الهم والغم على قلوبهم ، حتى لم يكن فيها شيء من الانشراح والاتساع ، فذكر أولا ضيق المحل ، ثم ثانيا ضيق الحال فيه ، لأنه قد يضيق المحل وتكون النفس منشرحة : سَمُّ الخياط مع المحبوب ميدانُ . ثم ثالثاً: لما يئسوا من الخلق علقوا أمورهم بالله وانقطعوا إليه ، وعلموا أنه لا يخلص من الشدة إلا هو تعالى" .[1]

﴿ أَوَلاَ يَرَوْنَ أَنهم يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لاَ يَتُوبُونَ وَلاَ هُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ (التوبة :١٢٦).

تقدم الاستفهام على حرف العطف للإنكار والتعجب من عدم رؤيتهم فتنتهم فلا تعقبها توبة ولا يتذكرون أمر الله .

﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ (التوبة :١٢٨).

تقدم الجار والمجرور { **بالمؤمنين**} على متعلقه { **رءوف رحيم** } للاهتمام بالمؤمنين في توجيه صفتي الرأفة والرحمة بهم ، وليس ذلك للاختصاص بدليل قوله تعالى :**﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾** (الأنبياء:١٠٧) .

(١) البحر ج٥ ص١١٣.

سورة يونس

لما ختمت سورة التوبة بوصف النبي ﷺ وما حازه من كريم السجايا وعظيم الأخلاق، جاءت الآيات في سورة يونس موصولة بآخر التوبة ، ففي آخر التوبة الحديث عن أن هذا الرسول من أنفسهم حريص على ما ينفعهم حزين على ما يضرهم﴿ **لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ** ﴾ (التوبة:١٢٨)، وفي أول يونس بيان تعجب الكفار من كون هذا النبي بشراً منـــهم﴿ **أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَباً أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِّنْهُمْ**﴾ (يونس:٢)، ولما ختمت سورة التوبة بالحديث عن المنافقين الذين في قلوبـــهم مرض﴿ **وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْساً إِلَى رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ**﴾(التوبة :١٢٥) ، ثم جاءت الآية الأخيرة للحديث عن المعرضين ﴿ **فَإِن تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ** ﴾ (التوبة:١٢٩) ، أتبعت آية سورة يونس التي ذكرت عجبـــهم من كونه بشراً منـــهم بالحديث عن مصير هؤلاء المعرضين ، وبدأت بالإنذار قبل التبشير مراعاة لسبق الحديث عن هؤلاء المعرضين في خاتمة التوبة﴿ **أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَباً أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا** ﴾(يونس:٢).

قال الأستاذ عبد الكريم الخطيب: " فناسب لذلك أن تجيء سورة يونس بعد سورة التوبة إذ كانت خاتمة التوبة أشبه بسؤال وكان بدء يونس أشبه بجواب لـــهذا السؤال. أو كانت خاتمة التوبة تقريراً لحكم وكان بدء يونس تعقيباً على هذا الحكم"[(١)]

﴿ **أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَباً أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِّنْـــهم أَنْ أَنذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّـــهم**﴾ (يونس:٢)، تقدم هنا خبر كان

---

(١) التفسير القرآني ج١١ ص٩٢٩.

{عجباً} على اسمها **{أن أوحينا}** لكون التعجب هو مصب الإنكار والتعجيب كما فيه التشويق إلى المتأخر ، وتقدمت النذارة على البشارة لأن الحديث موجهٍ إلى أولئك المنكرين لنبوة النبي - ﷺ - ، فهم المقصودون بالخطاب ابتداء .

وقد تقدم الخبر **{لهم}** على اسم إنّ **{قدم}**، وهذا التقديم للاختصاص بالمؤمنين دون من سواهم ، فهم الذين لهم تقدم شرف وعزة عند الله دون من سواهم .

﴿ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً وَعْدَ اللَّهِ حَقّاً إِنَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴾ (يونس:٤) ، تقديم الجار والمجرور لإفادة القصر، أي أن المرجع إلى الله وحد لقطع مطامع المشركين الذين يزعمون بأن هناك وسائط أو شفعاء مع الله. ثم ابتدأ عند ذكر الجزاء بالمؤمنين لشرفهم وفضلهم.

﴿ دَعْوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُم فِيهَا سَلَامٌ وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ (يونس:١٠) .

قال الألوسي: "وظاهر الآية أنهم يقدمون نعته تعالى بنعوت الجلال ، ويختمون دعاءهم بوصفه بصفات الإكرام لأن الأولى متقدمة على الثانية لتقدم التخلية على التحلية ، ويرشد إلى ذلك قوله سبحانه: **{ليس كمثله شيء وهو السميع البصير}** والمختار عندي كون فاعل التحية هو الله تعالى أو الملائكة -عليهم السلام- وحينئذ لا يبعد أن يكون الترتيب الذكري حسب الترتيب الوقوعي ، وذلك بأن يقال : إنهم حين يشرعون بالدعاء يسبحون الله تعالى وينزهونه فيقابلون بالسلام وهو دعاء بالسلامة عن كل مكروه ، فإن كان من الله سبحانه فهو مجاز لا محالة لاستحالة حقيقة الدعاء عليه تعالى ، وإن كان من الملائكة -عليهم السلام- فلا مانع من بقائه على حقيقته لكن يوجه الطلب فيه إلى الدوام لأن أصل السلامة حاصل لهم وإن قلنا : إنها تقبل الزيادة فلا بُعْد في أن يوجه إلى طلبها ، وما ألطف مقابلة التسبيح والتنزيه بالسلامة عن المكر لقربها من ذلك معنى كما لا يخفى على المنصف ثم يختمون دعاءهم بالحمد لله رب العالمين ". [1]

---

(١) روح المعاني ج١١ص ٧٦.

أقول:وما ذكره الألوسي توجيه سليم في معنى التقديم والتأخير إلا قوله: "فإن كان من الله سبحانه فهو مجاز لا محالة ". ولو أنه عفا الله عنه نظر في معنى السلام على أنه من باب التحية والإكرام ، وليس من باب الدعاء لكان أولى ، وهذا ما يشهد له نص التنــزيل بقول ربنا الجليل في سورة يس: **{ سلام قولاً من رب رحيم}**.

﴿ وَإِذَا مَسَّ الإِنسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنْبِهِ أَوْ قَاعِداً أَوْ قَائِماً ﴾ (يونس:١٢)، هذا الترتيب المذكور على عكس الترتيب المذكور في سورة آل عمران في قوله تعالى:**﴿ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللّهَ قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَى جُنُوبِــهِم﴾** (آل عمران:١٩١)، وقد سبق القول في هذه الآية وأنه باعتبار حال قدرة المصلين من القيام ، فإن لم يستطع فالقعود ، فإن لم يستطع فعلى جنب ، أما هذه الآية فقد بدأت بــهذا الترتيب لأنــها تذكر حال الإنسان في دعائه إلى الله لرفع وكشف الضر ، ومن المعلوم أنه كلما كان البلاء أشد والضر أعظم كلما كان دعاء الإنسان وتضرعه أكثر، ولهذا بدأت الآية بــهذا الترتيب تبعاً لشدة البلاء والضر فأشدهم حالاً صاحب الفراش وهو المقصود بقوله:**{دعانا لجنبه}**، ومنــهم من هو أخف وهو القادر على القعود ، وهو المقصود بقوله: **{أو قاعدا}**، ومنــهم من هو أخف وهو المستطيع على القيام وهو المقصود بقوله: **{أو قائما}** فالترتيب هنا لمراعاة الحال .

﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللّهِ مَا لاَ يَضُرُّهُمْ وَلاَ يَنفَعُهُمْ ﴾ (يونس:١٨) .

قال صاحب الدرة: "وقال في سورة الفرقان**﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لاَ يَنفَعُهُمْ وَلاَ يَضُرُّهُمْ﴾** (الفرقان:٥٥).

للسائل أن يسأل عن تقديم **{يضرهم}** على **{ينفعهم}** في الآية الأولى ، وتقديم **{ينفعهم}** على**{ يضرهم }** في الآية الثانية ، وهل صلح أحدهما مكان الآخر ؟

والجواب أن يقال: إنما قدم يضرهم على ينفعهم في الآية الأولى ، لأن العبادة تُقام للمعبود خوفاً من العقاب أولاً ، ثم رجاء للثواب ثانياً ، وقد تقدم في هذا المكان ما أوجب تقديم يضرهم على ينفعهم في الآية الأولى ،وهو قوله:

{ **قل إني أخاف إن عصيت ربي عذاب يوم عظيم**} فكأنه قال: ويعبدون من دون الله ما لا يخافون ضرراً في معصيته ولا يرجون نفعاً في عبادته ، وقدم ما لا يضرهم على ما لا ينفعهم في هذا المكان لـــهذا المعنى ولهذا اللفظ، وأما في سورة الفرقان فقد تقدمت قبلها آيات قدم فيها الأفضل على الأدون، كقوله عز وجل﴿**:وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ**﴾ (الفرقان:٥٣) . وقوله بعده : { **ويعبدون من دون الله ما لا ينفعهم** } أي يتكلفون المشقة بعبادة ما لا يرجونه لنفع ولا يخشونه لضر ، فقدم الأفضل على الأدون لـــهذا المعنى وللبناء على ما تقدم من الآيات ، فجاء في كل موضع على ما اقتضاه ما تقدمه وصح في المعنى الذي اعتمد له "[(١)]

أقول: وقد فات صاحب الدرة قوله تعالى في نفس السورة﴿ **وَلاَ تَدْعُ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لاَ يَنفَعُكَ وَلاَ يَضُرُّكَ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذاً مِّنَ الظَّالِمِينَ • وَإِن يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلاَ كَاشِفَ لَهُ إِلاَّ هُوَ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلاَ رَادَّ لِفَضْلِهِ يُصِيبُ بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ** ﴾ (يونس :١٠٦،١٠٧) .

وتقدم النفع على الضر في هذه الآية لأنه تقدمه قوله تعالى حكاية عن قوم يونس : ﴿ **فَلَوْلاَ كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلاَّ قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنــهم عَذَابَ الخِزْيِ فِي الحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ**﴾ (يونس:٩٨) .

قال أبوحيان في الآيتين السابقتين:"ولما تقدم قوله {**ولا تدع من دون الله مالا ينفعك ولا يضرك**} فأخر الضر ناسب أن تكون البداء بجملة الشرط المتعلقة بالضر، وأيضاً فإنه لما كان الكفار يتوقع منـــهم الضر للمؤمنين ، والنفع لا يرجى منـــهم،كان تقديم جملة الضر آكد في الإخبار فبدأ بـــها.[(٢)]

ولصاحب التحرير رأي آخر يقول : "وقدم ذكر نفي الضر على نفي النفع لأن المطلوب من المشركين الإقلاع عن عبادة الأصنام وقد كان سدنتها يخوفون عبدتـــها بأنـــها تلحق بـــهم وبصبيانـــهم الضر كما قالت امرأة طفيل بن عمرو الدوسي حين أخبرها أنه أسلم ودعاها إلى أن تسلم فقالت :

---

(١) درة التنزيل ١٠٦٥.

(٢) البحر المحيط ج٥ ص ١٩٦.

{أما تخشى على الصبية من ذي الشرى} - صنم كان يعبده بن دوس - فأريد الابتداء بنفي الضر لإزالة أوهام المشركين في ذلك الصادة لكثير منهم عن نبذ عبادة الأصنام"[1]

وقد تقدم الضر على النفع في قوله تعالى: ﴿ وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ۝ قُل لاَّ أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَراً وَلاَ نَفْعاً إِلاَّ مَا شَاءَ اللَّهُ ﴾ (يونس:٤٨،٤٩) .

وتقدم الضر على النفع لأنه أنسب بالغرض ، إذ قبلها استعجال الكفار لعذاب الله تعالى ، كما يفيد التقديم نوع من الترقي المفيد للتبري من الحول والقوة ، حيث بدأ بالأخف وهو استطاعته إضرار نفسه،ثم ارتقى نافياً جلب النفع لها.

﴿ هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي البَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنتُمْ فِي الفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ ﴾(يونس:٢٢) . بدأ بذكر البر لأن سير الإنسان فيه أكثر وأسبق ، وإن كان سير البحر أعجب، ولهذا جاء التفصيل بالسير للبحر دون البر .

﴿فَلَمَّا أَنجَاهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الحَقِّ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَى أَنفُسِكُم مَّتَاعَ الحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (يونس:٢٣)، تقديم الجار والمجرور في قوله: {إلينا مرجعكم} لإفادة الاختصاص، وأن الرجوع لن يكون إلا لله رب العالمين .

﴿ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا لاَ يَعْقِلُونَ ﴾ (يونس:٤٢) ، ونظير هذه الآية قوله تعالى:﴿أَفَأَنتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ أَوْ تَهْدِي العُمْيَ﴾ (الزخرف:٤٠) ، وقد مر الحديث عن تقدم الاستفهام على الاسم في الباب الرابع {أثر التقديم والتأخير في علم المعاني} حيث ذكرت في هذه الآية : ليس إسماع الصم مما يدعيه كل أحد فيكون ذلك للإنكار وإنما المعنى في هذا التمثيل والتشبيه هو أن ينزل الذي يُظن بهم أنهم يسمعون ، أو أنه يستطيع إسماعهم منزلة من يرى أنه يسمع الصم ، أو يهدي العمي والمعنى في تقديم الاسم وإن لم يقل {أسمع الصم} هو أن يقال للنبي ﷺ أأنت

---

(١) التحرير والتنوير ج١١ص ١٢٥.

خصوصاً أوتيت أن تسمع الصم وأن يجعل في ظنه أنه يستطيع إسماعهم بمثابة من يظن أنه قد أوتي قدرة على إسماع الصم ومن ذلك قول ابن أبي عيينة السابق ذكره :

فدَعِ الوعيدَ فما وعيدُك ضائري　　أطنينُ أجنحة الذُّباب يَضيرُ

﴿إنَّ اللَّهَ لا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئاً ولَكنَّ النَّاسَ أنفُسَهُمْ يَظْلمُونَ﴾(يونس:٤٤).
تقدم المفعول به {**أنفسهم**} على الفعل والفاعل{**يظلمون**} لإفادة الاختصاص بأن ضرر كفرهم وظلمهم لا يعود إلا عليهم ، ونظيره قوله تعالى:

﴿ قُلْ هَلْ مِن شُرَكَائكم مَّن يَبْدَأُ الخَلْقَ ثُمَّ يُعيدُهُ قُلِ اللَّهُ يَبْدَأُ الخَلْقَ ثُمَّ يُعيدُهُ فَأَنَّى تؤفَكونَ ٭ قُلْ هَلْ مِن شُرَكَائِكم مَّن يَهْدي إلَى الحَقِ قُلِ اللهُ يَهْدِي للْحَقِ أَفمَن يَهْدي إلى الحَق أَحَق أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لا يَهدِّي إلا أَن يُهْدَى فَمَا لَكمْ كَيْفَ تَحكُمُونَ ﴾ (يونس:٣٤،٣٥) ، ابتدأ الله سبحانه وتعالى في الاستدلال على وجوده بتقديم دليل الخلق أولاً ثم دليل الهداية ثانياً ، وهذه عادة مطردة في القرآن في قوله تعالى على لسان الخليل إبراهيم-عليه السلام- :**﴿ الَّذي خَلَقَني فَهُوَ يَهْدين﴾** (الشعراء:٧٨) وعلى لسان موسى -عليه السلام - **﴿ رَبُّنَا الَّذي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى﴾**(طه:٥٠)وأمر محمداً ﷺ بذلك فقال:**﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى ٭ الَّذي خَلَقَ فَسَوَّى ٭ وَالَّذي قَدَّرَ فَهَدَى﴾**(الأعلى:١-٣)

قال الرازي: "فالاستدلال على وجود الصانع بأحوال الجسد هو الخلق ، والاستدلال بأحوال الروح هو الهداية فهاهنا أيضاً لما ذكر دليل الخلق في الآية الأولى {**أم من يبدأ الخلق ثم يعيده**} أتبعه بدليل الهداية في هذه الآية .واعلم أن المقصود من خلق الجسد حصول الهداية، للروح ، كما قال تعالى: { **والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئاً وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون** } وهذا كالتصريح بأنه تعالى إنما خلق الجسد وإنما أعطى الحواس لتكون آلة في اكتساب المعارف والعلوم ، وأيضاً فالأحوال الجسدية خسيسة يرجع حاصلها إلى الالتذاذ بذوق شيء من الطعوم أو لمس شيء من الكيفيات الملموسة .

أما الأحوال الروحانية والمعارف الإلهية، فإنـــها كمالات باقية أبد الآباد مصونة عن الكون والفساد ، فعلمنا أن الخلق تبع للهداية ، والمقصود الأشرف الأعلى حصول الهداية ".[1]

---

(١) مفاتيح الغيب ج١٧ ص ٩٤.

﴿ وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنتُم بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ (يونس :٤١) .

قال أبوحيان: "وبدأ في المأمور بقوله : **{لي عملي}** لأنه آكد في الانتفاء منـــهم وفي البراءة بقوله: **{ أنتم بريئون مما أعمل}** لأن هذه الجملة جاءت كالتوكيد ، والتتميم لما قبلها ، فناسب أن تلي قوله : **{ولكم عملكم}** ولمراعاة الفواصل، إذ لو تقدم ذكر براءة كما تقدم ذكر **{لي عملي}** لم تقع الجملة فاصلة ، إذ كان يكون التركيب وأنتم بريئون مما أعمل "[(١)]

أقول: وفي تقديم قوله: **{أنتم بريئون مما أعمل}** على قوله: **{وأنا بريء مما تعملون}** أدب من آداب الدعوة الإسلامية عند مخاطبة المخالفين ، وهو نفي مسؤوليتـــهم عن غير أعمالهم وتطمينـــهم بعدم مجازاتـــهم بجرم غيرهم، فمن أجل ذلك بدأ بنفي براءتـــهم أولاً لأنـــهم هم المعنيون هنا بالخطاب ، ولذا تقدم نسبة العمل إليه ﷺ في قوله **{لي عملي}** على قوله **{لكم عملكم}** لنفس الغرض .

﴿ وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ اللَّهُ شَهِيدٌ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ ﴾ (يونس :٤٦) تقدم الجار والمجرور **{إلينا}** على المبتدأ **{مرجعهم}** للحصر والاختصاص أما **{ثمّ}** فليست هنا للترتيب الزماني ، بل هي للترتيب الإخباري لا لترتيب القصص نفسها

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ (يونس:٥٧) ، وصف القرآن في هذه الآية بأربع صفات ، جاءت على هذا الترتيب موعظة شفاء ، هدى ، رحمة للمؤمنين ، هذا الترتيب جاء في غاية الإبداع لتأثير القرآن الكريم في قلوب المؤمنين فبدأ بذكر الموعظة أولاً لماذا ؟

أقول: إن الموعظة هي الكلمات الموجهة إلى القلب بـــهدف التأثير عليه واستمالته لما يلقى عليه ، ولهذا فرق القرآن الكريم بينها وبين الحكمة وبين الجدال في الآية الخامسة والعشرين بعد المائة من سورة النحل في قوله تعالى:

---

(١) البحر المحيط ج٥ ص١٦١.

{ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن }
ثلاث وسائل أمر النبي ﷺ وكل من قام بدعوته أن يلتزمها عند دعوة الآخرين أولها : الحكمة. وثانيها: الموعظة. وثالثها: الجدال بالتي هي أحسن ، فالحكمة وهي موافقة المقال لمقتضى الحال ، وذلك يكون قبل الشروع ابتداء في الدعوة من اختيار المقال وكيف يقال ومتى يقال ، أما عند الدعوة والقيام بها فتأتي الموعظة وهي الكلمات الموجهة للقلب للتأثير عليه من أجل أن يقبل الحق فكم من أناس علموا وفهموا وعقلوا وتبين لهم الحق من الباطل والخير من الشر إلا أنهم لم ينقادوا ولم يهتدوا بسبب حُجُب قلوبهم وآفات نفوسهم وأغلال عواطفهم والآيات في القرآن كثيرة تدل على أن سبب الإعراض إنما هو ناشئ من أمراض القلوب وشهوات النفوس من ذلك الآية الرابعة عشرة من سورة النمل﴿ **وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْماً وَعُلُوّاً**﴾ ، والآية التاسعة بعد المائة من سورة البقرة ﴿ **وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّاراً حَسَداً مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ**﴾، والآية السبعون بعد المائة من سورة البقرة ﴿ **وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا** ﴾، والآية الرابعة عشرة من سورة المطففين.﴿**كَلاَّ بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ**﴾ ، وقد ورد في السنة ما يؤيد قولنا ففي حديث العرباض بن سارية ﷺ قال : وعظنا رسول الله ﷺ موعظة وجلت منها القلوب وذرفت منها العيون ..} رواه أبو داود والترمذي وقال حسن صحيح ، فهذا يؤيد ما ذكرناه من أن الموعظة ميدان عملها القلوب ، ثم تأتي بعد ذلك مرحلة الجدال وهو صراع الأدلة ومقارعة البراهين وإزالة الشبهات ودمغ الباطل بقذائف الحق لتزال الغشاوة من الأبصار وتنجلي شمس الحقيقة في ضوء النهار، ومن هنا بدأت الآية بالموعظة والتي هي بمثابة الدواء الناجع والعلاج النافع حتى إذا ما قبله البدن وتأثر به واستقبله الجسد استقبالاً جيداً وهو هنا القلب حدث الشفاء ثم يحدث الاهتداء بعد ذلك، حيث يسير البدن سيراً طبيعياً في عمل وظائفه وهكذا المؤمن المهتدي الذي طاب عمله وقوله وصلح باطنه وظاهره ، فتأتي أنوار الهداية بطيب عمل وحسن سعاية فحينئذ يكون مؤهلاً للرحمة من الله عز وجل .

وقد وجدت كلام الرازي عن السر في هذا الترتيب شبيها مما قلته ، وأنا أذكره باختصار حيث قال: "إن محمداً كان كالطبيب الحاذق ، وهذا القرآن عبارة عن مجموع أدويته التي بتركيبـــها تعالج القلوب المريضة ، ثم إن الطبيب إذا وصل إلى المريض فله معه مراتب أربعة .

- **المرتبة الأولى:** أن ينهاه عن تناول ما لا ينبغي ويأمره بالاحتراز عن تلك الأشياء التي بسببـــها وقع في ذلك المرض ، وهذا هو الموعظة..
- **المرتبة الثانية** : الشفاء وهو أن يسقيه أدوية تزيل عن باطنه تلك الأخلاط الفاسدة الموجبة للمرض، فكذلك الأنبياء – عليهم السلام – إذا منعوا الخلق عن فعل المحظورات صارت ظواهرهم مطهرة عن فعل ما لا ينبغي فحينئذ يأمرونـــهم بطهارة الباطن وذلك بالمجاهدة في إزالة الأخلاق الذميمة وتحصيل الأخلاق الحميدة ، وأوائلها ما ذكره الله تعالى في قوله :**﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾**(النحل: ٩٠).
- **المرتبة الثالثة** : حصول الهدى ، وهذه المرتبة لا يمكن حصولها إلا بعد المرتبة الثانية وقد أفاض الرازي بعباراته الصوفية في هذه المرتبة والتي تليها حيث ذكر أن حصول الهدى إنما يكون بانقشاع ظلمة المعصية التي إن زالت فقد زال العائق عن وصول نور الهدى .
- **المرتبة الرابعة** :ورحمة للمؤمنين فقد أكد على أن هذه الرحمة الخاصة بالمؤمنين إنما يتفاوتون فيها على حسب قبول وقرب هذه النفوس من الوحي وأعطى على ذلك مثالاً بقرب الأجسام وتباعدها من أشعة الشمس، ثم قال : فهذه درجات عقلية ومراتب برهانية مدلول عليها بـــهذه الألفاظ القرآنية لا يمكن تأخير ما تقدم ذكره ،ولا تقديم ما تأخر ذكره } .[1]

﴿ قُلْ أَرَأَيْتُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَاماً وَحَلالاً قُلْ آللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ ﴾ (يونس:٥٩) . تقدم الحديث عن هذه الآية في الفصل الرابع بعنوان "صورة الاستفهام الدال على الإنكار"

---

(١) مفاتيح الغيب ج١٧ ص ١٢٢ ، ١٢٣

وقلنا : إن إنكار الفعل إنكارا تكذيبيا له صورتان :

الأولى أن يقع الفعل عقب الاستفهام .

الثانية: أن ينحصر الفعل ، أو مفعوله ، أو غيرهما من متعلقاته عقب الهمزة ويعطف عليه غيره بـــ {أم} إن وجد وحينئذ يتوجه الإنكار إلى الاسم المقدم، بحسب الظاهر فيلزم من إنكاره إنكار الفعل لأن الفعل إذا نفي فاعله ، الذي لا فاعل له غيره ، أو مفعوله الذي لا مفعول له غيره ، أو ظرفه الذي لا ظرف له غيره لزم انتفاؤه حتماً ، ومن أمثلة ذلك هذه الآية الكريمة فالمقصود هنا هو نفي الإذن من أصله ، فإنه لا آذن في التحليل والتحريم إلا الله ، فإذا نفى أن يكون الله آذناً ، فقد انتفى الإذن وأتى الكلام في صورة نفي الفعل لا الفاعل ليكون أبلغ .

﴿ وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِن قُرْآنٍ وَلاَ تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلاَّ كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُوداً إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلاَ فِي السَّمَاءِ وَلاَ أَصْغَرَ مِن ذَلِكَ وَلاَ أَكْبَرَ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴾ (يونس :٦١) .

قال **الزمخشري**: "فإن قلت : لم قدمت الأرض على السماء ، بخلاف قوله في سورة سبأ **﴿ عَالِمِ الْغَيْبِ لا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلاَ فِي الأَرْضِ ﴾**(سبأ :٣)، **قلت**: حق السماء أن تقدم على الأرض ، ولكنه لما ذكر شهادته على شؤون أهل الأرض وأحوالهم وأعمالهم ، ووصل بذلك قوله : **{لا يعزب عنه}** لاءم ذلك لأن قدم الأرض على السماء ."[1] وقد نقل الرازي هذا القول عن الزمخشري و لم ينسبه إليه.[2]

ولصاحب الطراز توجيه جميل في شأن هذا التقديم قال: " والتفرقة بينـــهما هو أنه أراد في الثانية ذكر إحاطة علمه وشموله لكل المعلومات الجزئية والكلية ، فلا جرم صدر بالسموات قبل الأرض لاشتمالها على لطائف الحكمة وعجائب الصنعة ومحكم التأليف وكثرة المعلومات كما قال تعالى : **﴿ وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ﴾** (الأنعام:٧٥)، وأما الأولى فإنـــها كانت مسوقة من شأن أهل الأرض كما قال تعالى : **{ ولا تعملون من عمل**

---

(١) الكشاف ج٢ ص ٣٤٢. (٢) مفاتيح الغيب ج١٧ ص ١٢٩.

إلا كنا عليكم شهوداً} فقدم ذكر الأرض تنبيهاً على ذلك لما كان له اختصاص به"[1]

﴿ فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَمَن مَّعَهُ فِي الفُلْكِ وَجَعَلْنَاهُمْ خَلائِفَ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ المُنذَرِينَ ﴾ (يونس :٧٣).

قال الأستاذ عبدالكريم الخطيب: " وقدم هنا نجاة نوح ومن معه ووراثتهم الأرض بعد قومهم الهالكين – قدم ذلك على هلاك القوم ، خلافاً للظاهر الذي يقضي به قوله تعالى: { **فكذبوه**} إذ المتوقع هنا الإجابة عن هذا السؤال : ماذا كان جزاؤهم إذ كذبوه ؟ وهذا سؤال يسأله المؤمنون الذين ينتظرون ما يحل بالمكذبين فكان الجواب المنتظر هو **{فأغرقناهم}** ولكن الإجابة جاءت عن سؤال يسأله الذين يكذبون بآيات الله ويحادون رسل الله فيقولون وماذا جرى لنوح والمؤمنين بعد أن كذبه قومه وأبعدوه من بينهم ؟ فجاء الجواب لقد نصره الله ومن معه ونجاهم وأورثهم أرض القوم المكذبين وديارهم فموتوا بغيظكم أيها المكذبون ، فإن رسل الله وأولياءهم هم المنصورون ، وهم الفائزون المفلحون .. أما المكذبون فلهم الويل والخزي في الدنيا والآخرة ".[2]

وأقول: إن لفظة النجاة تعني أن هناك مكروهاً قد تم السلامة والنجاة منه، فلا تكون النجاة إلا من المكروه ، بينما ذكر الإهلاك لا يتضمن معنى النجاة ولهذا بدأ بالمؤمنين لشرفهم مع ما فيه من تضمن معنى هلاك المكذبين، وقد سبق الإشارة إلى ذلك في الفصل الثالث **{ دوافع التقديم والتأخير}** فتحت عنوان الدافع الأول : تعجيل المسرة ذكرت قوله تعالى : **{ عفا الله عنك لم أذنت لهم }**

وقول ابن الدمينة :

أبيني أفي يُمنَى يديكَ جعلتَني أم صيرَّتني في شمالِكَ

وقول أبي الحسن الجياب:

عدوك مقهور وحزبك غالب وأمرك منصور وسهمك صائب

---

(١) الطراز ص٢٣٩.

(٢) التفسير القرآني ج١١ ص١٠٥٢.

﴿قَالَ مُوسَى أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَكُمْ أَسِحْرٌ هَذَا وَلاَ يُفْلِحُ السَّاحِرُونَ﴾ (يونس:٧٧)، تقدم الخبر {أسحر} على المبتدأ {هذا} للإيذان بأنه مصب الإنكار حيث أنكر عليهم ادعاءهم أن معجزات الله سحر .

﴿ قَالُوا أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا الْكِبْرِيَاءُ فِي الأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ ﴾ (يونس:٧٨) تقدم {لكما} على متعلقه {بمؤمنين} للتشويش والإلباس بإيهام الناس أن عدم الإيمان سببه موسى وهارون .

﴿ وَقَالَ مُوسَى يَا قَوْمِ إِن كُنتُمْ آمَنتُم بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ. فَقَالُوا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لاَ تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ (يونس :٨٤،٨٥) .

هذا الآية تدخل ضمن آيات القرآن الكريم التي يتعلق فيها التقديم والتأخير بفقه وآداب الدعوة الإسلامية ، حيث بدأ المسلمون في دعائهم إلى الله عز وجل ألا يكونوا فتنة للكافرين ، ويظهر لي فيها معنيان الأول منهما : حرص المؤمنين على إيمان الكافرين كان أقوى وأولى وأهم عندهم من أمر نجاتهم، فبدءوا بذكره أولاً طمعاً منهم ألا يكونوا فتنة في عدم إيمان الكافرين .

ثانياً : خوفهم على أنفسهم واتهامها بالتقصير من أن يكونوا حجر عثرة وموضع شبهة في عدم إيمان الكافرين طلباً للبراءة والسلامة من التهمة.

كما أن البدء منهم بقولهم: {**على الله توكلنا**} كان من أشد المناسبة في استحقاق الصدارة لأنه جاء رداً على أمر متعلق بشرط الغرض منه بعث الغيرة الإيمانية والتحلي بالمحاسن الأخلاقية في اختبار صفة الصبر والتوكل في مقام العبودية عند نزول الرزية والبلية ، فبدءوا بإثبات صفات الإيمان وما فيه من البدار إلى الطاعة والامتثال بدون مانع أو اعتلال .

قال الرازي : " واعلم أن هذا الترتيب يدل على أنه كان اهتمام هؤلاء بأمر دينهم فوق اهتمامهم بأمر دنياهم ، وذلك لأنّا إن حملنا قولهم: { **ربنا لا تجعلنا فتنة للقوم الظالمين**} على أنهم سلطوا على المسلمين صار ذلك شبهة لهم في أن هذا الدين باطل ، فتضرعوا إليه تعالى في أن يصون أولئك الكفار عن هذه الشبهة، وقدموا هذا الدعاء على طلب النجاة لأنفسهم ،

وذلك يدل على أن عنايتـــهم بمصالح دين أدائهم فوق عنايتـــهم بعناية مصالح أنفسهم ، وإن حملناه على أن لا يمكنِ الله تعالى أولئك الكفار من أن يحملوهم على ترك هذا الدين كان ذلك أيضاً دليلاً على أن اهتمامهم بمصالح أديانـــهم فوق اهتمامم بمصالح أبدانـــهم ، وعلى جميع التقديرات فهذه لطيفة شريفة". [1]

أقول: ونظير هذه الآية قوله تعالى :﴿ **رَبَّنَا لاَ تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا وَاغْفِرْ لَنَا رَبَّنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ** ﴾ (الممتحنة:٥)﴿ **وَلَوْلاَ رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ**﴾ (هود:٩١).

في هذه الآية تقدم النفي على الفاعل المعنوي {**أنت**} وإن كان الخبر {**عزيـــز**} ليس فعلاً بل هو صفة مشبهة ، والقصد بتقديم هذا الضمير الحصر والاختـــصاص أي اختـــصاص النفـــي بمعـــنى أن عدم العزة مقصور عليك لا يتجاوزك إلى رهطك لا بمعنى نفي الاختصاص بمعنى لست منفرداً بالعزة ، والدليل على ذلك من الآية هو جوابه - عليه السلام﴿ **قَالَ يَا قَوْمِ أَرَهْطِي أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ**﴾(هود :٩٢) ، فدل جوابه على أن المراد من قولهم هو اختصاصه بنفي العزة عنه ، وقد سبق الحديث عن التقديم والتأخير في الباب الرابع تحت عـــنوان التقديم والتأخير في النفي ، الصورة الثانية: نفي فعل ثبت أنه مفعول ، ومنه قول المتنبي:

وما أنا أسقمتُ جسمِي بهِ ولا أنا أضْرمتُ في القلبِ ناراً [2]

وقوله:

وما أنا وحدي قلتُ ذا الشعرَ كلَّه ولكنَّ شعري فيهِ من نفسِك شعرُ [3]

---

(١) مفاتيح الغيب ج١٧ ص ١٥٣.

(٢) سبق تخريجه من ديوان المتنبي.

(٣) سبق تخريجه من ديوان المتنبي.

سورة هود

لقد تشابه صدر سورتي يونس وهود تشابـــها كبيراً، فقد وصف الكتب في يونس بالحكمة وكذلك في هود مع زيادة وصفه بتفصيل ءاياته ، ووصف النبي بأنه بشير ونذير مع تقدم النذارة على البشارة وكذلك الأمر في هود ثم ذكر الوعد الحسن للمؤمنين قال تعالى في سورة يونس:﴿ **الـــر تلْكَ آيَاتُ الكتَابِ الحَكيمِ . أَكَانَ للنَّاسِ عَجَباً أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِّنْـــهم أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّـــهِمْ قَالَ الكَافِرُونَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ مُّبِينٌ**﴾ (يونس:١،٢) ، وفي سورة هود ذكر نعيم الآخرة مع زيادة ذكر المتاع الحسن لهم في الدنيا قبل الآخرة ﴿ **الـــر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ . أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ اللَّهَ إِنَّنِي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ .وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَاعاً حَسَناً إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ وَإِن تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ** ﴾(هود: ١-٣). ثم ذكرت سورة يونس أن ذلك الإله الموصوف بـــهذا الصفات مرجع الخلق كله إليه ﴿ **إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً وَعْدَ اللَّهِ حَقّاً**﴾ (يونس:٤)، وفي هود في نفس رقم الآية ﴿ **إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ**﴾ (هود :٤).

﴿ **أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ اللَّهَ إِنَّنِي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ** ﴾ (هود: ٢)تقدمت صفة النذارة على البشارة لأن الخطاب موجه إلى الكفار فناسب تقديم الوعيد والتهديد لأنـــهم على شفا حفرة من النار فإن أعرضوا وقعوا فيها.

قال الثعالبي : "وقدم النذير لأن التحذير من النار هو الأهم "[1]

وأقول: وليته أكمل فقال بأنه الأهم في شأن هؤلاء المعرضين والتقديم إنما يكون بحسب السياق .

﴿ **وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَاعاً حَسَناً إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ وَإِن تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ**﴾ (هود :٣) .تقدم الاستغفار على التوبة في هذه الآية وفي مواضع أخر

---

(١) الجواهر الحسان ج٢ ص١١٦.

من القرآن الكريم منها قوله تعالى :**﴿ وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَاراً﴾** (هود :٥٢) ، وقوله تعالى: **﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ﴾** (هود :٦١).

وقوله تعالى:**﴿وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ﴾** (هود: ٩٠).

وقد قرنت في الآيات السابقات مع الاستغفار فدل على أنهما معنيان مختلفان وأنهما كما أشرت سابقاً إذا اجتمعا افترقا وإذا افترقا اجتمعا، فالاستغفار المفرد كالتوبة بل هو التوبة بعينها مع تضمنه طلب المغفرة من الله وهو محو الذنب وإزالة أثره ووقاية شره ، أما عند اقتران الاستغفار بالتوبة فالاستغفار طلب وقاية شر ما مضى والتوبة طلب وقاية شر ما يخافه في المستقبل ، فهنا أمران مفارقة الشيء والرجوع إلى غيره ، وكما يقول صاحب المدارج : " فخصت التوبة بالرجوع والاستغفار بالمفارقة ولهذا جاء - والله أعلم- الأمر بهما مرتباً بقوله: {**استغفروا ربكم ثم توبوا إليه**} فإنه الرجوع إلى طريق الحق بعد مفارق الباطل وأيضاً فالاستغفار من باب إزالة الضرر والتوبة طلب جلب للمنفعة فالمغفرة أن يقيه شر الذنب والتوبة أن يحصل له بعد هذه الوقاية ما يحبه".[1]

وأقول: إن تقديم الاستغفار هنا على التوبة ظاهر بين أنه من باب تقديم المتحقق على المتعلق ،فإذا تحقق من العبد صدق الرجوع والندم على زلات الوقوع مد له ربه أسباب التوفيق وفتح له باب الاستقامة والتوبة وملازمة الخضوع ، فلا يرجى لعاص استقامة ما لم يسبقها استغفار وندامة ، هذا الترتيب بين الاستغفار والتوبة هو الذي جاءت به السنة النبوية في كيفية استغفار النبي ﷺ فقد كان أصحابه يعدون له في المجلس الواحد {**رب اغفر لي وتب علي إنك أنت التواب الغفور مائة مرة**}.

وعن سر هذا الترتيب يقول الرازي: "الوجه الأول : أن معنى قوله: {**وأن استغفروا**} اطلبوا من ربكم المغفرة لذنوبكم ، ثم بين الشيء الذي

---

(١) تهذيب مدارج السالكين ، ابن قيم الجوزية، هذبه عبد المنعم صالح العلي العزي، دار المطبوعات الحديثة جدة المملكة العربية السعودية ص ١٧٧،١٧٨.

يطلب به ذلك وهو التوبة ، فقال {**ثم توبوا إليه**} لأن الداعي إلى التوبة والمحرض عليها هو الاستغفار الذي هو عبارة عن طلب المغفرة ، وهذا يدل على أنه لا سبيل إلى طلب المغفرة من عند الله إلا بإظهار التوبة ، والأمر في الحقيقة كذلك، لأن المذنب معرض عن طريق الحق، والمعرض المتمادي في التباعد ما لم يرجع عن ذلك الإعراض لا يمكنه التوجه إلى المقصود بالذات، فالمقصود بالذات هو التوجه إلى المطلوب إلا أن ذلك لا يمكن إلا بالإعراض عما يضاده فثبت أن الاستغفار مطلوب بالذات ، وأن التوبة مطلوبة لكونها من متممات الاستغفار وما كان آخراً في الحصول كان أولاً في الطلب ، فلهذا السبب قدم ذكر الاستغفار على ذكر التوبة.

الوجه الثاني: في فائدة هذا الترتيب أن المراد : استغفروا من سالف الذنوب ثم توبوا إليه في المستأنف .

الوجه الثالث: وأن استغفروا من الشرك والمعاصي، ثم توبوا من الأعمال الباطلة.

الوجه الرابع: الاستغفار طلب من الله لإزالة ما لا ينبغي ، فقدم الاستغفار ليدل على أن المرء يجب أن لا يطلب الشيء إلا من مولاه فإنه هو الذي يقدر على تحصيله ثم بعد الاستغفار ذكر التوبة لأنها عمل يأتي به الإنسان ويتوسل به إلى دفع المكروه والاستعانة بفضل الله مقدمة على الاستعانة بسعي النفس، واعلم أنه تعالى لما ذكر هذه المراتب الثلاثة [1] ذكر بعدها ما يترتب عليها من الآثار النافعة والنتائج المطلوبة" [2]

﴿ **وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ إِلاَّ عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا** ﴾ (هود :٦) ، تقديم {**على الله**} على متعلقه وهو{**رزقها**} لإفادة القصر أي أن رزقها على الله ، لا غيره ، ونظير ذلك أيضاً قوله تعالى في نفس السورة:﴿ **وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الأَمْرُ كُلُّهُ**﴾ (هود :١٢٣)، حيث قصر علم الغيب ورجوع الأمر كله إليه وحده سبحانه.

﴿ **مَثَلُ الفَرِيقَيْنِ كَالأَعْمَى وَالأَصَمِّ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلاً أَفَلاَ تَذَكَّرُونَ** ﴾ (هود:٢٤)، شبه فريق الكافرين بالأعمى والأصم ، وفريق

---

(١) والأصوب الثلاث ولعله خطأ مطبعي.

(٢) مفاتيح الغيب ج١٧ ص ١٨٨ ، ١٨٩.

المؤمنين بالبصير والسميع ، والسؤال المطروح هنا لم قدم ذكر الكافرين على المؤمنين؟ أقول: تبعاً للسياق، فالآيات السابقات بدأت بذكر الكافرين وأحوالهم ثم ثنت بالمؤمنين ولهذا جاءت الآية على الترتيب السابق ، في هذاالأسلوب البلاغي المعروف باللف والطباق .

قال أبوحيان: "ولما تقدم ذكر الكفار، وأعقب بذكر المؤمنين ، جاء التمثيل هنا مبتدأ بالكافر، فقال : كالأعمى والأصم .....ولم يجئ التركيب : كالأعمى والبصير والصم والسميع ، فيكون مقابلة في لفظ الأعمى وضده ، وفي لفظة الأصم وضده، لأنه تعالى لما ذكر انسداد العين أتبعه بانسداد السمع، ولما ذكر انفتاح البصر أتبعه بانفتاح السمع ، وذلك هو الأسلوب في المقابلة والأتم في الإعجاز".[1]

قال السمين الحلبي:" فإن قلت: لم قدّم تشبيه الكافر على المؤمن؟

أجيب: بأن المتقدم ذكر الكفار ، فلذلك قدّم تمثيلهم فإن قيل: ما الحكمة في العدول عن هذا التركيب، فلو قيل: كالأعمى والبصير والأصم والسميع لتقابلت كل لفظة مع ضدها ويظهر بذلك التضاد؟ أجيب بأنه تعالى لما ذكر انسداد العين أتبعه بانسداد الأذن، ولما ذكر انفتاح العين أتبعه انفتاح الأذن وهذا التشبيه أحد الأقسام وهو تشبيه أمر معقول بأمر محسوس ، وذلك أنه شبّه عمى البصيرة بعمى البصر،وصم السمع ذاك متردد في ظلم الضلالات، كما أن هذا متحير في الطرقات ، وهذه فوائد علم البيان"[2]

﴿ قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَآتَانِي رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَارِهُونَ ﴾ (هود:٢٨) قال صاحب الدرة : وقال في قصة صالح -عليه السلام - في هذه السورة **﴿ قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَآتَانِي مِنْهُ رَحْمَةً ﴾** (هود :٦٣) ، للسائل أن يسأل عن مخاطبة النبيين نوح وصالح - عليهما السلام - قوميهما باللفظين اللذين تساويا إلا فيما اختلفا فيه من تقديم المفعول الثاني في الآية الأولى على الجار والمجرور وتأخيره عنـــهما في الآية الثانية .

---

(١) البحر المحيط ج٥ ص ٢١٤.　　(٢) الدر المصون ج٤ ص ٩٠.

والجواب أن يقال إن المعنيين واحد في الموضعيين ، وقولاهما سواء للأمتين ، وإنما اختلفا باختيار الله في موضع خبراً قدم فيه المفعول الثاني على الجار والمجرور لإجراء هذا الفعل ومفعوليه على ما جرى عليه الفعل الذي قبله وهو {**ما نراك إلا بشراً مثلنا**} فبشراً مفعول ثان من نراك ، وقوله:{**ما نراك اتبعك**} في موضع المفعول الثاني من نراك ، ثمّ بعده {**بل نظنكم كاذبين**} فلما تقدمت أفعال ثلاثة كل منها يتعدى إلى مفعولين ، والمفعول الثاني منها لا يحجزه عن الأول مفعول فيه ، كان إجراء هذا الفعل الذي هو {**آتاني رحمة من عنده**} مجرى تلك الأفعال التي وقعت آتاني في جوابـــها ، وجاءت من كلام نوح – عليه السلام- في مقابلتها أولى . وأما في قصة صالح – عليه السلام- ، فإنه بإزاء قول قومه له : {**يا صالح قد كنت فينا مرجواً قبل هذا**} فوقع خبر كان الذي هو كالمفعول لكان وقد تقدمه الجار والمجرور ، فجرى جواب صالح – عليه السلام- فيما صار منه بالعربية مجرى الابتداء في هذا المعنى ، فترجح في هذا المكان تقديم الجار والمجرور في قوله: {**وآتاني منه رحمة**} على المفعول الثاني ، كما ترجح هناك تقديم المفعول الثاني على الجار والمجرور". [(١)]

وقد تقدم أيضاً المجرور {**لها**} على قوله: { **كارهون**} للاهتمام بأمر الرسالة فهي لب الحوار وصلب القضية ، مع ما فيه من حسن الوقف وتناسب الفواصل .

وفي هذه الآية استفهام إنكاري ، ولما كان الغرض هو إنكار فعل الإلزام قُدِّم الفعل على الاسم ، وللكرماني رأي عن سر هذا التقديم لا يخلو من وجاهة قال : قوله : {**وآتاني رحمة من عنده**} وبعده {**وآتاني منه رحمة**} وبعدهما {**ورزقني منه رزقاً حسناً**} لأن {**عنده**} وإن كان ظرفاً فهو اسم ، فذكر الأولى بالصريح والثانية والثالثة بالكناية ، لتقدم ذكره ، فلما كنى عنه قدمه ، لأن الكناية يتقدم عليها الظاهر، نحو : ضرب زيد عمراً فإن كنيت عن عمر قدمته ، نحو عمرو ضربه زيد، وكذلك:زيد أعطاني درهماً من ماله، فإن كنيت عن المال قلت :المال زيد أعطاني منه درهما"[(٢)]

---

(١) درة التنزيل ص ١٢٠.

(٢) أسرار التكرار في القرآن ص ١٤٤.

﴿ وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَك وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءُ وَقُضِيَ الأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْداً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾(هود: ٤٤).

قال القاسمي: "وأما من حيث النظر إلى ترتيب الجمل : فذلك أنه قدم النداء على الأمر فقال: {**يا أرض ابلعي ويا سماء أقلعي**} دون أن يقال : ابلعي يا أرض وأقلعي يا سماء ، جرياً على مقتضى اللازم فيمن كان مأموراً حقيقة من تقديم التنبيه ليمكن الأمر الوارد عقيبه في نفس المنادى ، قصداً بذلك لترشيح المعنى ، ثم قدم أمر الأرض على أمر السماء ، وابتدئ به لابتداء الطوفان منها وبنـــزولها لذلك في القصة منـــزلة الأصل والأصل بالتقديم أولى، ثم أتبعها بقوله:{**وغيض الماء**} لاتصاله بقصة الماء ، وأخذه بحجزتـــها، ألا ترى أصل الكلام { **قيل يا أرض ابلعي ماءك ، فبلعت ماءها ويا سماء أقلعي عن إرسال الماء فأقلعت عن إرساله وغيض الماء النازل من السماء فغاض**} ثم أتبعه ما مقصود من القصة وهو قوله: {**وقضي الأمر**} أي أنجز الموعود من إهلاك الكفرة، وإنجاء نوح ومن معه في السفينة ، ثم أتبعه حديث السفينة، وهو قوله :{ **واستوت على الجودي** } ثم ختمت القصة بما ختمت. وما ذكره القاسمي ذكره صاحب المنار ويبدو النقل عنه واضحاً "[(١)]

﴿ قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلامٍ مِّنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ ﴾(هود:٤٨) تقدم السلام على البركة ، لأن طلب السلامة من الآفات مقدم على حصول البركات، فالنفس تطلب إزالة الخوف والاغتمام، وهو عندها أهم من حصول النعم والإكرام ونظير هذا التقديم قوله تعالى : ﴿فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتاً فَسَلِّمُوا عَلَى أَنفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُبَارَكَةً طَيِّبَةً﴾ (النور :٦١) ، وقد ترجم النبي ﷺ الآية بتعليمه أمته كيفية السلام { **السلام عليكم ورحمة الله وبركاته**}.

وهناك تفسير آخر ذكره الرازي حيث قال: "المسألة الثانية : أنه تعالى وعده عند الخروج بالسلامة أولاً ، ثم بالبركة ثانياً ، أما الوعد بالسلامة فيحتمل وجهين : الأول : أنه تعالى أخبر في الآية المتقدمة أن نوحاً – عليه السلام – تاب عن زلته وتضرع إلى الله تعالى بقوله: { **وإلا تغفر لي وترحمني**

---

(١) القاسمي ج٦ ص ١٠٠ ، المنار ج١٢ ص ٩٧ ، ٩٨.

أكن من الخاسرين}، وهذا التضرع هو عين التضرع الذي حكاه الله تعالى عن آدم - عليه السلام- عند توبته من زلته وهو قوله :{ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين }، فكان نوح - عليه السلام- محتاجا إلى أن بشره الله تعالى بالسلامة من التهديد والوعيد فلما قيل له : { يا نوح اهبط بسلام منا } حصل له الأمن من جميع المكاره المتعلقة بالدين، والثاني : أن ذلك الغرق لما كان عاماً في جميع الأرض فعندما خرج نوح -عليه السلام- من السفينة علم أنه ليس في الأرض شيء مما ينتفع به من النبات والحيوان ، فكان كالخائف في أنه كيف يعيش وكيف يدفع جميع الحاجات عن نفسه من المأكول والمشروب ، فلما قال الله تعالى {اهبط بسلام منا} زال عنه ذلك الخوف ، لأن ذلك يدل على حصول السلامة من الآفات ولا يكون ذلك إلا مع الأمن وسعة الرزق ، ثم إنه تعالى لما وعده بالسلامة أردفه بأن وعده بالبركة وهي عبارة عن الدوام والبقاء والثبات ونيل الأمل ومنه بروك الإبل ، ومنه البركة لثبوت الماء فيها".[1]

﴿ وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْباً قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَه غَيْرُهُ وَلاَ تَنقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِنِّي أَرَاكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ ﴾ (هود :٨٤) ، بدأ بدعوتهم أولاً إلى التوحيد كشأن جميع الأنبياء ، حيث يبتدئون الأهم فالأهم ، ولما كان المعتاد من أهل مدين البخس في المكيال والميزان دعاهم إلى ترك هذه العادة ، فالتقديم هنا للاهتمام.

قال الزمخشري: "فإن قلت: النهي عن النقصان أمر بالإيفاء فما فائدة قوله: {أوفوا}؟

قلت: نهوا أولاً عن عين القبيح الذي كانوا عليه من نقص المكيال والميزان ، لأن في التصريح بالقبيح بغيا على المنهي ، وتعييراً له ثم ورد الأمر بالإيفاء ، الذي هو حسن في العقول مصرحا بلفظه لزيادة ترغيب فيه، وبعث عليه".[2]

﴿ بَقِيَّتُ اللَّه خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ وَمَا أَنَا عَلَيْكُم بِحَفِيظ ﴾ (هود:٨٦) تقدم جواب الشرط { بقيت الله } على فعل الشرط { إن كنتم مؤمنين } ، وهذا التقديم للترغيب ولإطماعهم فيما عند الله .

---

(١) مفاتيح الغيب ج١٨ ص٧.

(٢) الكشاف الجزء الثاني ص٤٠١.

﴿ **وَمَا تَوْفِيقِي إِلاَّ بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ** ﴾ (هود:٨٨)، تقديم المجرورين { **عليه وإليه** } لإفادة الاختصاص .

﴿ **وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ** ﴾ (هود:١٠٢).

تقدم الخبر { **كذلك** } على المبتدأ { **أخذ ربك** } إذ أصل الترتيب وأخذ ربك كذلك، وإنما قدم الخبر للفت الأذهان إلى ما تقدم من قصص الأمم السابقة لتكون حاضرة في الذهن .

﴿ **وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلاَ يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ . إِلاَّ مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ** ﴾ (هود:١١٨،١١٩) .

تقدم المعمول هنا على عامله في قوله: { **ولذلك خلقهم** }، والتقديم هنا للاهتمام وليس للقصر، فلا يمنع من وجود علل أخرى لخلقهم كما في قوله تعالى : ﴿ **وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ** ﴾ (الذاريات :٥٦).

﴿ **وَكُلاًّ نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ** ﴾ (هود :١٢٠) . تقدم المفعول به { **كلاً** } على الجملة الفعلية للاهتمام بما تقدم ذكره من قصص الأنبياء أجمعين وأنها جميعاً إنما سيقت من أجل تثبيت فؤاد النبي ﷺ .

سورة يوسف

لما أخبر سبحانه في أول سورة هود عن القرآن بأنه محكم الآيات ومفصلة في قوله :﴿**الــر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ** ﴾ (هود:١)

ابتدأت سورة يوسف بوصف الكتاب بوصف أخص مما سبق وهو البيان ، وأنه بلسان العرب حتى يعقلوا معانيه فقال تعالى:﴿ **الــر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ ۰ إِنَّا أَنزَلْنَاهُ قُرْآناً عَرَبِياً لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ** ﴾(يوسف:١،٢)، ولما ختم آخر سورة هود بتمام علمه وشمول قدرته وخاصة علم الغيب ﴿ **وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ**﴾ (هود:١٣٢) جاءت سورة يوسف لتخبر عن بعض هذا الغيب بما حدث من قصة يوسف التي قال الله بعد تمام حكايتها: ﴿ **ذَلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ** ﴾ (يوسف:١٠٢) .﴿**إِنَّا أَنزَلْنَاهُ قُرْآناً عَرَبِياً لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ۰ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ** ﴾ (يوسف:٢،٣)

لقد حلل صاحب المنار قصة يوسف- عليه السلام- تحليلاً أدبياً وبلاغياً رائعاً حيث قال عند تفسيره للآية الثامنة : " هذا شروع في القصة بعد مقدمتين أولاهما في صفة القرآن وكونه تنـــزيلاً من الله دالاً على رسالة من أنزل عليه وكونه عربياً يقوم به الحجة على العرب الذين يعقلونه وكان النبي ﷺ كان من قبله غافلا عما جاءه فيه لا يدري منه شيئا ،ونتيجة هاتين القضيتين تأتي بعد تمام القصة في قوله تعالى: ﴿ **ذَلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ** ﴾ (يوسف:١٠٢).

والمقدمة الثانية رؤيا يوسف وما فهمه منها أبوه إجمالياً كلياً كما بيناه آنفا وبنى عليه أن حذره وأنذره ما يستهدف له قبله من كيد إخوته ، وبشره بحسن عاقبته،ونتيجة هاتين القضيتين ما قال لأبيه بعد دخولهم عليه وسجودهم له﴿ **يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقّاً**﴾ (يوسف:١٠٠)، فمثل هذا الترتيب المنطقي البديع يتوقف نظمه وسرده على

سبق العلم بالقصة وتتبع حوادثها والإحاطة بدقائقها ،ثم على وضع ترتيب ينسق عليه الكلام كالقصص الفنية المتكلفة ، ثم توضع له المقدمة والخاتمة في الغاية التي ألفت القصة لأجلها،فتجعل الأولى براعة مطلع ، والآخرة براعة مقطع [1].

أقول: تقدم الضمير {نحن} على الخبر {نقص} ليفيد الاختصاص أي أن الذي يقص هو الله وحده لا غيره رداً على افتراءات المشركين في قولهم إنما يعلمه بشر أو أنها أساطير الأولين تملى عليه.

﴿ إِذْ قَالَ يُوسُفُ لأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَباً وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ ﴾ (يوسف:٤) ، إذا كان الشمس والقمر ليسا مندرجين في الأحد عشر كوكباً فإن تأخيرهما إثباتاً لفضلهما واستبدادهما بالميزة على غيرهما من الكواكب ، كما أخر جبريل وميكال عن الملائكة في سورة البقرة ثم عطفهما عليهما بعد ذلك .

قال أبو حيان:"ويظهر أن التأخير من باب الترقي من الأدنى إلى الأعلى، ويرى أن اجتماع الشمس مع القمر في القرآن الكريم وتقديم الشمس على القمر لسطوع نورها وكبر جرمها ، وغرابة سيرها ، واستمداده منها وعلو مكانها ، وذكر الآيات الدالة على ذلك نحو قوله تعالى :**﴿ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ﴾** (الرحمن :٥) **﴿ وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ﴾** (القيامة:٩) **﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُوراً ﴾**(يونس:٥) [2].

أقول: وهناك تقدم آخر للشمس على القمر في ءايات أخر منها قوله تعالى : **﴿ وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ• وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّى عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ﴾** (يس :٣٨،٣٩)، وقوله تعالى : **﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَمَن فِي الأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ وَمَن يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن مُّكْرِمٍ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ ﴾** (الحج :١٨) وقوله تعالى:**﴿تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجاً وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجاً وَقَمَراً مُّنِيراً ﴾**

---

(١) المنار ج١٢ ص ٢٥٨.　　(٢) البحر المحيط ج٥ ص٢٨١.

(الفرقان:٦١)، وقوله تعالى:﴿وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي إِلَىٰ أَجَلٍ مُسَمًّى﴾ (لقمان:٢٩) ، وقد وجدت قول الرازي قريباً مما ذكرت ، حيث قال :

السؤال الثالث: لم أخر الشمس والقمر ؟ قلنا : أخرهما لفضلهما على الكواكب، لأن التخصيص بالذكر يدل على مزيد الشرف كما في قوله: { **وملائكته ورسله وجبريل وميكال** }.[1]

﴿ **وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَىٰ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ** ﴾ (يوسف:٦) ، تقدم قوله {**عليم**} على قوله {**حكيم**} لأن اختياره على علم بمن يستحق الاجتباء حكيم في إعطائه من يستحقه.

﴿ **قَالُوا يَا أَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ ۝ أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ** ﴾ (يوسف:١١،١٢) .

قال صاحب التحرير: "وتقديم له في { **له ناصحون** } و{**له حافظون**} يجوز أن يكون لأجل الرعاية للفاصلة والاهتمام بشأن يوسف- عليه السلام - في ظاهر الأمر، ويجوز أن يكون للقصر الإدعائي ، جعلوا أنفسهم لفرط عنايتهم به بمنزلة من لا يحفظ غيره ولا ينصح غيره " [2]

أقول: والقصر الادعائي هو المناسب في هذه الحالة ، فقد ظهر من حرصهم على قتله ما يجعلهم يستميلون قلب أبيهم ببيان شدة خوفهم عليه وحفظهم له، مع ما فيه من تحسين الفاصلة التي جاءت للمعنى تابعاً .

﴿ **وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ** ﴾(يوسف: ٢٣).

قال الرازي: "هذا الترتيب في غاية الحسن ، وذلك لأن الانقياد لأمر الله تعالى وتكليفه أهم الأشياء لكثرة إنعامه وألطافه في حق العبد فقوله: { **معاذ الله** } إشارة إلى أن حق الله تعالى يمنع عن هذا العمل ، وأيضاً حقوق الخلق واجبة الرعاية ، فلما كان هذا الرجل قد أنعم في حقي يقبح مقابلة إنعامه وإحسانه بالإساءة ، وأيضاً صون النفس عن الضرر واجب ، وهذه اللذة لذة قليلة يتبعها خزي في الدنيا وعذاب شديد في الآخرة واللذة القليلة إذا لزمها

---

(١) مفاتيح الغيب : ج١٨ ص٨٩. (٢) التحرير ج١٢ ص٢٢٩.

ضرر شديد ، فالعقل يقتضي تركها والاحتراز عنها فقوله :{**إنه لا يفلح الظالمون**} إشارة إليه فثبت أن هذه الجوابات الثلاثة مرتبة على أحسن وجوه الترتيب"[1]

﴿ **وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلا أَن رَّأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ** ﴾ (يوسف :٢٤).

في هذه الآية الكريمة نزاع بين أهل العلم،من قائل بتقديم جواب الشرط، ومخالف لهذا الرأي .

قال الزمخشري: " فإن قلت : لم جعلت جواب لولا محذوفاً يدل عليه هم بها ، وهلا جعلته هو الجواب مقدماً ؟ قلت : لأن لولا لا يتقدم عليها جوابها ، من قبل أنه في حكم الشرط ، وللشرط صدر الكلام وهو مع ما في حيزه من الجملتين مثل كلمة واحدة ، ولا يجوز تقديم بعض الكلمة على بعض ". [2]

وما ذكره الزمخشري من عدم تقدم الجواب متنازع فيها فليس هناك دليل على امتناع ذلك ، وقد ذهب إلى ذلك الكوفيون ومن أعلام البصريين أبو زيد الأنصاري وأبو العباس المبرد .[3]

وإلى ذلك مال صاحب التحرير والتنوير حيث قال: " قدم الجواب على شرطه للاهتمام به ولم يقرن الجواب باللام التي يكثر اقتران جواب {**لولا**} بها لأنه ليس لازماً ولأنه لما قدم على {**لولا**} كره قرنه باللام قبل ذكر حرف الشرط ، فيحسن الوقف على قوله: {**ولقد همت به**} ليظهر معنى الابتداء بجملة{**وهم بها**} واضحاً وبذلك يظهر أن يوسف - عليه السلام- لم يخالطه هم بامرأة العزيز لأن الله عصمه من الهم بما أراه من البرهان . قال أبو حاتم: كنت أقرأ غريب القرآن على أبي عبيدة فلما أتيت على قوله: {**ولقد همت به وهم بها**}، قال أبو عبيدة هذا على التقديم والتأخير، أي تقديم الجواب وتأخير الشرط ، كأنه قال : ولقد همت به ولولا أن رأى برهان ربه لهم بها .

---

(١) مفاتيح الغيب ج١٨ ص ١١٧. (٢) الكشاف ج٢ ص٤٣٩. (٣)إعراب القرآن وبيانه ج١٢ ص٤٧١.

وطعن في هذا التأويل الطبري بأن جواب {لولا} لا يتقدم عليها . ويدفع هذا الطعن أن أبا عبيدة لما قال ذلك علمنا أنه لا يرى منع تقديم جواب لولا ، على أنه قد يجعل المذكور قبل{ لولا} دليلاً للجواب والجواب محذوفاً لدلالة ما قبل {لولا} عليه" [١]

ويؤكد ما ذهب إليه أبو عبيدة علماء القراءات في الوقوف على قوله تعالى: {**ولقد همت به**} في قراءة ورش عن نافع مصحف المدينة النبوية بمجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف حيث وضعت اللجنة العلمية المكونة من ثمانية علماء سبعة منـــهم من علماء القراءات بكلية القرآن الكريم بالجامعة الإسلامية وثامنـــهم من هيئة مراقبة النص بالمجمع ، قالت اللجنة في بيان عملها في نهاية المصحف الشريف : وأُخذ بيان وقوفه مما قررته اللجنة المشرفة على مراجعة هذا المصحف على حسب ما اقتضته المعاني مسترشدة في ذلك بأقوال المفسرين وعلماء الوقف والابتداء كالداني في كتابه [**المكتفى في الوقف والابتداء**] وأبي جعفر النحاس في كتابه [**القَطع والائتلاف**]" .[٢]

ولتقدم السوء على الفحشاء هنا فائدة عظيمة تؤكد ما ذهب إليه من قال بتقديم جواب {لولا} وينبغي أن نعرف ما هو المقصود بالسوء والفحشاء أولاً قبل الحديث عن التقديم والتأخير فيها ، فالمقصود بالفاحشة هو الزنى ، وكذلك سماه الله تعالى بالفاحشة في قوله تعالى: ﴿ **وَلاَ تَقْرَبُوا الزِّنَى إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلاً** ﴾ (الإسراء:٣٢).

والمقصود بالسوء هنا مقدماته ، من قبلة ونظر بشهوة ، ولمس وسعي وغير ذلك من سائر مقدماته الفعلية والقولية والفكرية ، وهو السبيل إليه والمذكور قبله في قوله تعالى :{**وساء سبيلا**} أي الطريق الموصل إليه هو طريق السوء ، إذا ثبت هذا فتقديم كلمة السوء على الفحشاء أفادت تبرئة نبي الله يوسف من الزنى ومقدماته.

أقول: والناظر في الآية متدبراً يقطع يقيناً ببراءة يوسف -عليه السلام- من الزنى ومقدماته ، وهذا بين واضح في قوله تعالى: {**كذلك لنصرف عنه**

---

(١) التحرير والتنوير ج١٢ ص٢٥٣.

(٢)القرآن الكريم برواية ورش عن نافع ، طبعة الملك فهد.

السوء والفحشاء}، فهناك فرق كبير بين هذا السياق الذي ذكر الله فيه حفظه لنبيه وعصمته له من السوء والفحشاء فصرفهما عنه ، وفي هذا دليل على أنه ما أرادهما ولا خطر بباله شيء منـــهما وهو ما يصار إليه لو أن الآية جاءت على هذا النحو : {**كذلك لنصرفه عن السوء والفحشاء**}، ففي الثانية هو مريد ولكنه صُرف عنـــهما، أما الأولى فالله صرفهما عنه فلما يتلبس بـــهما ابتداء ، كذلك التقديم في هذه الآية له مدلول عظيم حيث تقدم الظرف {**عنه**} على المفعول والمعطوف {**السوء والفحشاء**}، وهذا التقديم للاعتناء والاهتمام بأمره هو عليه السلام إذ هو محور القصة وصاحب الحدث فبدأ الله به اهتماماً بأمر براءته وإظهاراً لعفته وتنويهاً بمنـــزلته وكرامته .

﴿قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءاً إِلاَّ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (يوسف:٢٥).

وفي هذه الآية لطيفة في تقديم السجن على العذاب الأليم ، وذلك لأن حب امرأة العزيز الشديد ليوسف والذي قد وصل شغاف قلبـــها حملها في هذا الموضع أن تبدأ بذكر السجن وتؤخر ذكر العذاب ، لأن المحب لا يسعى في إيلام المحبوب .

﴿ يَا أَيُّهَا الْمَلأُ أَفْتُونِي فِي رُؤْيَايَ إِن كُنتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ ﴾ (يوسف:٤٣).

تقديم { **للرؤيا** } على عامله { **تعبرون** } للاهتمام بشأنها فهي محل اهتمام الملك ومصدر قلقه .

﴿ قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَاوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِ قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوءٍ قَالَتِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ الآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ (يوسف:٥١).

تقدم الضمير أنا وهو المسند إليه على المسند الفعلي راودته في جملة {**أنا راودته**} للقصر لتثبيت وتأكيد براءته وقصر المراودة عليها لا على أحد سواها.

﴿ قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴾ (يوسف:٥٥).

تقدمت هنا صفة الحفظ على صفة العلم لأنـــها الأهم في إسناد الوظائف والأعمال، فالأعمال إنما تسند إلى الأكفاء ، والكفاءة يشترط لها أمران: أولاهما: الأمانة. وثانيهما: العلم فإذا عدمت الأمانة وحلت مكانه

الخيانة فليس من شك أن العلم بلا أمانة لا يرجى منه نوال بل هو وبال ونكال فإنه يستخدم في غير مصلحة المستأمن، أما الأمانة مع عدم العلم أو قلته فليس فيها من الخسارة ما هو في حالة فقدها ،ولذا قدم الحفظ على العلم .

وأقول: هنا سؤال إذا كان الأمر ما ذكرتَ فلم قدمت صفة القوة على صفة الأمانة في قوله تعالى: ﴿ **قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ الجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ** ﴾ (النمل:٣٩).

والجواب: أن سليمان - عليه السلام - قد أوتي من الملك والعلم بأمور مملكته وتسخير كل شيء فيه صلاح ملكه والقيام بشئون مملكته ومراقبة رعيته ما لا يستطيع أحد أن يخونه ولو حدث فإنه لن يفلت من عقابه والمجيء به والتمكن منه بما أعطاه الله من أسباب التمكن وهو المبين في قوله تعالى: ﴿ **وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الفَضْلُ المُبِينُ• وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الجِنِّ وَالإِنسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ** ﴾ (النمل :١٦،١٧)، وقوله تعالى:﴿ **وَمِنَ الشَّيَاطِينِ مَن يَغُوصُونَ لَهُ وَيَعْمَلُونَ عَمَلاً دُونَ ذَلِكَ وَكُنَّا لَهُمْ حَافِظِينَ**﴾ (الأنبياء:٨٢)، وقوله تعالى:﴿ **قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكاً لاَّ يَنْبَغِي لأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنْتَ الوَهَّابُ• فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ• وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وَغَوَّاصٍ•وَآخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الأَصْفَادِ** ﴾ (ص :٣٥-٣٨)، وقد كان - عليه السلام - يتفقد أمور مملكته ويتعاهدها وهذا بين من تفقده للطير في قوله تعالى: ﴿ **وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لاَ أَرَى الهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ الغَائِبِينَ** ﴾ (النمل :٢٠)، كل ذلك مع ما عرف من عقابه للعصاة والمخالفين لأمره كما في قوله: ﴿ **لأُعَذِّبَنَّهُ عَذَاباً شَدِيداً أَوْ لأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ**﴾ (النمل:٢١).

وأخيراً إن السؤال من نبي الله يوسف -عليه السلام- إنما كان دائراً حول القوة والقدرة على المجيء بالعرش، ولهذا كان من المناسبة أن يجيء الجواب لمضمون السؤال أولاً وهذا كاف في الإجابة، لو اقتصر العفريت عليه، ولكنه جاء بما لم يسأل عنه طمعاً في نيل رضا نبي الله سليمان -عليه السلام-.

يرى الأستاذ عبد الكريم الخطيب أن تقديم الحفظ هنا على العلم للاهتمام به، لأنه أهم من العلم في هذا الموضع ، قال: " فالصفتان وإن كانتا مطلوبتين

لمواجهة هذا الأمر هنا ، إلا أن الحفظ أولى وأهم من العلم ..إذ قد يستغني الحفظ هنا عن العلم ويتحقق للناس بعض الخير ، أو كثير منه ..على حين أنه لو استغنى العلم عن الحفظ لما تحقق للناس في هذه الحالة خير أبداً ، ولكان العلم مجرد حقائق مرسومة في كلمات أو مودعة في كتاب ، فإذا اجتمع الحفظ والعلم اجتمع الخير كله ، وفي القرآن الكريم موقف شبيه بـــهذا الموقف فيما كان بين موسى وشعيب- عليهما السلام- حين دعت ابنة شعيب أباها إلى أن يستأجر موسى ويستعمله في تدبير شئونه إذ قالت: **{يا أبت استأجره ..إن خير من استأجرت القوي الأمين}** .

فوصفت موسى بالصفتين المطلوبتين في الأمر الذي هو مطلوب له ،وهو القيام على رعي أغنام شعيب ورعايتها وتثميرها ، وهذا أمر يحتاج إلى يد قوية عاملة ترتاد مواقع العشب والماء دون أن يدفعها عنها أحد ، كما أنه يحتاج إلى الأمين الذي يرعى هذه الأمانة في يديه، وأن يعطيها من جهده وإخلاصه ما يعطيه لما هو في ملكه وخاصة شئونه". (١)

﴿ فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْه قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَاعَةٍ مُزْجَاةٍ فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ﴾ (يوسف :٨٨).

قال القاسمي : "في الآية إرشاد إلى أدب جليل وهو تقديم الوسائل أمام المآرب، لأنـــها أنجح لها ، وهكذا فعل هؤلاء : قدموا من رقة الحال ، والتمسكن ، وتصغير العوض ولم يفجؤوه بحاجتـــهم ليكون ذريعة إلى إسعاف مرامهم ببعث الشفقة ، وهز العطف والرأفة وتحريك سلسلة الرحمة - كما قدمنا- ومن ثم رق لهم ، وملكته الرحمة عليهم ، فلم يتمالك أن عرفهم بنفسه". (٢)

وأقول: وهذا أمر طبيعي فطري أن الإنسان يقدم بين يدي حاجته ما يستعطف به استجابة من يُطلب منه ، ومن ذلك أيضاً تقديم الثناء بين يدي الدعاء ، وقد مر في سورة الأعراف ، وكذلك ما درج عليه الشعراء من ذكر

---

(١) التفسير القرآني ج١٣ ص٧٠٦.

(٢) القاسمي ج٦ ص ٢١٢.

النسيب وألم الفراق وطول السهر وما يكابدونه من لوعة وحرقة على فراق الحبيب أو صدوده من أجل استمالة قلب المحبوب والنيل بالوصال المطلوب .

﴿ فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ آوَى إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِن شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ ﴾ (يوسف:٩٩)

إن تقدم الجار والمجرور {**إليه**} على المفعول به {**أبويه**} ليحمل هنا معان عظيمة تتدفق من ذلك الإحساس الفياض الممتزج بالشوق الشديد الذي أحدثه فراق السنين والحب الأكيد الذي يحمله قلب ولد بار لأب من فرط حبه لولده اتـــهم بالتفنيد ، ورحمة وعطف بإسناد الإيواء إليه هو دون من سواه ليعوض أباه كل حرمان وألم ومعاناة لازمت في سلم الشدائد كل تصعيد، فيقابل ذلك كله بعطف وإكرام ، لا يدانيه أحد وليس فوقه من مزيد، ومن ثم قدم قوله: {إليه} حيث يفهم منه أن هذا هو الركن الشديد .

﴿رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِماً وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾ (يوسف: ١٠١) .

تقدم قوله: {**رب**} بين يدي الدعاء وفي تقديم الثناء على الله أدب عظيم يقتضيه المقام.

سورة الرعد

لما ختمت سورة يوسف بالحديث عن آيات الله عز وجل في قوله تعالى: **﴿ وَكَأَيِّن مِّنْ آيَةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ . وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّه إِلاَّ وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴾** (يوسف:١٠٥،١٠٦)، جاءت سورة الرعد لبيان هذه الآيات فبيان آي السموات في قوله تعالى: **﴿ اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لأَجَلٍ مُّسَمًّى يُدَبِّرُ الأَمْرَ يُفَصِّلُ الآيَاتِ لَعَلَّكُم بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ﴾** (الرعد:٢) ، وبيان آي الأرض في قوله: **﴿ وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَاراً وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ﴾** (الرعد :٣) ، ثم جاء البيان فيما يكون من الآيات بينهن {**يغشي الليل النهار**}، ثم زاد بيان آيات الأرض**﴿ وَفِي الأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ﴾** (الرعد:٤)، ثم نبه تعالى على أعظم الآيات وهو القرآن الكريم**﴿ وَلَوْ أَنَّ قُرْآناً سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتَى ﴾** (الرعد: ٣١)، والمراد لكان هذا القرآن وأما قوله تعالى: **﴿ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّه إِلاَّ وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴾** (يوسف:١٠٦)، فقد أشار إليه قوله تعالى: **﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُــهم بِذِكْرِ اللَّه أَلاَ بِذِكْرِ اللَّه تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾** (الرعد:٢٨) .

﴿ وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَئِذَا كُنَّا تُرَاباً أَئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّــهِم وَأُوْلَئِكَ الأَغْلالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَأُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ. وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِمُ الْمَثُلاتُ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ﴾(الرعد :٥،٦).

قال أبوالسعود: "والأنسب بقوله :{ **ويستعجلونك بالسيئة**} هو الأول و{**عجب**} خبر مقدم على المبتدأ للقصر ، والتسجيل من أول الأمر بكون قولهم ذاك أمر عجيب".[1]

---

(١) تفسير أبي السعود أو إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم ج٣ ص١٤٨.

وأقول: إن في تقديم الخبر { **فعجب**} على المبتدأ {**قولهم**} فائدة ما كان لها أن تكون لو جاءت الجملة على حسب ترتيبـــها الطبيعي ، وذلك أننا إذا نظرنا في كلمة عجب نجد أنـــها جاءت لتحدث لنا اتصالين ، اتصال بما قبلها من حدوث ذلك التناغم بين {**تعجب**} و{**عجب**} ومجيئها خلف الفعل مباشرة أعطى إحساساً عميقاً بأن ذلك هو العجب الذي ليس بعده عجب ليقطع الجواب التفكير عن المتلقي والسامع أنه بدون أدنى شك ما سيلقى عليه سوف يتعجب منه لا محالة ، الأمر الثاني : هو اتصال كلمة قولهم بجملة القول بحيث لو اختلف الترتيب وجاءت الجملة هكذا

{**فقولهم عجيب أإذا كنا تراباً أإنا لفي خلق جديد**} لكان هناك انفصال بين {**قولهم**} وجملة القول بسبب البعد بينـــهما أما وقد جاء الخبر مؤخراً فقد أحدث اتصالاً مباشراً بينـــهما فجاءت الجملة كلها متماسكة كلحمة واحدة.

﴿ **هُوَ الَّذِي يُرِيكُمُ البَرْقَ خَوْفاً وَطَمَعاً وَيُنْشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ** ﴾ (الرعد :١٢) .

تقدم الخوف على الطمع ،لأنه أول ما يعتري الإنسان عند رؤية البرق ، ثم بعد ذلك يرجو سقوط الغيث ، فالتقديم لسبق الوجود وعلى هذا المعنى جاء كلام الزمخشري حيث قال : "ومعنى الخوف والطمع : أن وقوع الصواعق يُخاف عند لمع البرق ويطمع في الغيث" .

قال أبو الطيب :

فتىً كالسَحَاب الجُون تُخْشَى وتُرْتَجَى يُرْجَى الحَيا منهاويُخْشَى الصواعقُ[1]

وعلى ترتيب القرآن جاء بيت المتنبي في تقديم الخوف على الطمع .

﴿**أنزَلَ منَ السَّمَاء مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَداً رَّابِياً وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْه فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَة أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُ كَذَلكَ يَضْرِبُ اللّهُ الحَقِّ وَالْبَاطلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الأَرْضِ كَذَلكَ يَضْرِبُ اللّهُ الأَمْثَالَ**﴾ (الرعد :١٧).

قبل التحدث عن التقديم والتأخير ، لابد من تفسير هذه الآية وبيان المراد من هذه الأمثال حتى يتبين وجه التقديم والتأخير منها .

---

(١) العرف الطيب ج١ ص١٩٦.

قال الزمخشري : "هذا مثل ضربه الله للحق وأهله والباطل وحزبه ، كما ضرب{ **الأعمى والبصير**} و {**الظلمات والنور**} مثلاً لهما ، فمثل الحق وأهله بالماء الذي ينــزل من السماء ، فتسيل به أودية للناس فيحيون به ، وينفعهم أنواع المنافع وبالفلز الذي ينتفعون به في صوغ الحلي منه ، واتخاذ الأواني والآلات المختلفة ولو لم يكن إلا الحديد الذي فيه البأس الشديد لكفى فيه ، وأن ذلك ماكث في الأرض باق بقاء ظاهراً يثبت الماء في منافعه، وتبقى آثاره في العيون والآبار والحبوب والثمار التي تنبت به ما يدخر ويكثر ، وكذلك لجواهر تبقى أزمنة متطاولة وشبه الباطل في سرعة اضمحلاله ووشك زواله وانسلاخه عن المنفعة بزبد السيل الذي يرمى به وبزبد الفلز الذي يرمى به إذا أذيب "[1]

قال أبوحيان: " فبدأ بالزبد إذ هو المتأخر في قوله : {**زبداً رابيا**} وفي قوله:{**زبد مثله**} ولكون الباطل كناية عنه وصف متأخر، وهي طريقة فصيحة يبدأ في التقسيم بما ذكر آخراً كقوله:﴿ **يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ**﴾ (آل عمران :١٠٦)، والبداءة بالسابق فصيحة مثل قوله: ﴿ **فَمِنْــهم شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ ، فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَفِي النَّارِ** ﴾ (هود:١٠٥،١٠٦)، وكأنه - والله أعلم - يبدأ في التفصيل بالأهم في الذكر".[2]

هذا الاهتمام الذي لم يفسره أبوحيان أوضحه البقاعي بقوله: " ولما نبه بـــهذا الفصل على علو رتبة هذا المثل ، شرع في شرحه فقال مبتدئاً بما هو الأهم في هذا المقام ، وهو إبطال الباطل الذي أضلهم" .[3]

قال القاسمي: " بدأ بالزبد في البيان في قوله: { **فأما الزبد** } وهو متأخر في الكلام السابق ، لأن في التقسيم يبدأ بالمؤخر كما في قوله :﴿ **يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ** ﴾(آل عمران :١٠٦)، وقد راعى الترتيب فيه ، ولك أن تقول النكتة فيه أن الزبد هو المنظور أولاً، وغيره باق متأخر في الوجود لاستمراره".[4]

﴿ **اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ** ﴾(الرعد : ٢٦).

---

(١) تفسير الكشاف ج٢ ص٣٠٥. (٢) البحر المحيط ج٥ ص ٣٥٣.

(٣) نظم الدرر ج٤ ص١٦١. (٤) القاسمي ج٦ ص٢٧٧.

تقدم بسط الرزق ، إذ هو محض النعمة والإكرام المستوجبة للشكر على أمر التقدير الذي هو محض الابتلاء المستوجب للصبر ، وهذا نظير قوله تعالى في سورة الفجر:﴿ **فَأَمَّا الإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ .وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ**﴾(الفجر:١٥،١٦).

وقدم الصبر على الشكر في قوله تعالى: ﴿ **وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَذَكِّرْهُم بِأَيَّامِ اللَّهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ** ﴾ (إبراهيم :٥) ، فناسب تقديم الصبر في سورة إبراهيم لمناسبة حال المخاطبين وهم قوم موسى الذين عانوا من فرعون عظيم البلاء .

﴿ **كَذَلِكَ أَرْسَلْنَاكَ فِي أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهَا أُمَمٌ لِّتَتْلُوَ عَلَيْهِمُ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ قُلْ هُوَ رَبِّي لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ. وَلَوْ أَنَّ قُرْآناً سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتَى بَل لِّلَّهِ الأَمْرُ جَمِيعاً** ﴾ (الرعد :٣٠،٣١) .

قال القرطبي: "وفي الآية تقديم وتأخير، أي وهم يكفرون بالرحمن لو أنزلنا القرآن وفعلنا بـــهم ما اقترحوا". [(١)]

أقول: وفيما ذكره القرطبي – رحمه الله – تكلف واضح لا يصار إليه حيث إن المعنى على الترتيب المذكور واضح وجلي ومستقيم غير خفي فقوله تعالى:{**لتتلوا عليهم الذي أوحينا إليك**} يتناسب مع ما بعده تناسباً شديداً إذ المقصود بيان حال صدودهم وكفرهم أثناء تنـــزل الوحي، وهذا يستقيم مع الإعراب فجملة {**وهم يكفرون بالرحمن**} حال من الضمير هم في قوله: {**عليهم**}.

وقد تقدم الجار والمجرور في قوله :{ **عليه توكلت**} وقوله: { **وإليه متاب**} لإفادة الاختصاص .

﴿ **يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُ أُمُّ الْكِتَابِ** ﴾ (الرعد :٣٩).

تقدم المحو على الإثبات مع أن الكتابة وهي الإثبات أسبق فلا محو إلا لمكتوب، وذلك لأن قبلها قوله تعالى : { **لكل أجل كتاب** }، فالكتابة متقدمة في الآية السابقة.

---

(١) القرطبي ج٩ ص٢٠٩

﴿ وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاَغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ ﴾ (الرعد : ٤٠) ، تقدم {**إنما**} هنا على الجملة الاسمية ، وهو كحكم تقدمها على الفاعل والمفعول ، حيث يقع الاختصاص على المتأخر منـــهما ، حيث إن ما أوعد الله به الكفار ليس من شأن النبي ﷺ حيث إن اختصاص رسالته هو في البلاغ وفي تقديم الجاروالمجرور{**علينا**} على متعلقه{**الحساب**} إفادة الحصر والاختصاص بأن الحساب على الله تعالى دون غيره .

﴿ وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلاً قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيداً بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ ﴾ (الرعد :٤٣) ، تقدم الظرف هنا {**عنده**} على قوله: {**علم الكتاب**} لإفادة الاختصاص بأن ذلك العلم محصور في هاتين الطائفتين دون من سواهما ، وقد ذكر ذلك التأويل الألوسي .

أقول: ويؤيد صحة هذا التوجيه قوله تعالى في سورة الأنعام :**﴿ أَن تَقُولُوا إِنَّمَا أُنزِلَ الْكِتَابُ عَلَى طَائِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِـــهِمْ لَغَافِلِينَ﴾** (الأنعام :١٥٦) فقد حصرت الآية صفة أهل الكتاب في اليهود والنصارى فقط.ويؤيد ذلك أيضاً ما رواه ابن جرير الطبري من طريق العوفي عن ابن عباس أن المقصود بمن عنده علم الكتاب اليهود والنصارى.[1]

---

١) جامع البيان عن تأويل القرآن ، ج٨ ص ١٧٦.

سورة إبراهيم

لما سبق ذكر الآيات والبراهين السماوية والأرضية وما بينـــهما من آيات ثم أعظم آية وهي القرآن الكريم في سورة الرعد جاءت سورة إبراهيم لتبين أن هذه الآيات إنما تنفع المتبصرين بـــها من أجل إخراجهم من الظلمات إلى النور ﴿ **كتَابٌ أنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لتُخرِجَ النَّاسَ منَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بإِذْنِ ربِّـــهم** ﴾ (إبراهيم:١) ، ولما سبق قوله في سورة الرعد:﴿ **إِنَّمَا أَنْتَ مُنذِرٌ ولِكُلِّ قَوْمٍ هَاد** ﴾ (الرعد :٧)، جاء التذكير بذلك في سورة إبراهيم بقوله: {**بإذن ربــــهم**} ثم ذكر سبحانه أن كل الآيات المذكورة في سورة الرعد إنما هي لله رب العالمين وفي ملكه فقال في سورة إبراهيم:﴿**اللَّه الَّذي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ**﴾ (إبراهيم :٢) ولما قال تعالى في سورة الرعد:﴿ **وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلاً مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجاً وَذُرِّيَّةً**﴾ (الرعد :٣٨)،جاءت سورة إبراهيم لإتمام ذلك المعنى بقوله تعالى:﴿ **وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ بِلِسَانِ قَوْمِه**﴾ (إبراهيم :٤) .

﴿ **الـــر كتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّـــهِم إِلَى صِرَاطِ العَزِيزِ الحَمِيدِ. اللهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ** ﴾ (إبراهيم :١،٢)٠

قال أبوحيان: " ولما تقدم شيئان أحدهما: إسناد إنزال هذا الكتاب إليه، والثاني : إخراج الناس من الظلمات إلى النور بإذن ربـــهم ، ناسب ذكر هاتين الصفتين صفة العزة المتضمنة للقدرة والغلبة ، وذلك من حيث إنزال الكتاب، وصفة الحمد المتضمنة استحقاقه الحمد من حيث الإخراج من الظلمات إلى النور، إذ الهداية إلى الإيمان هي النعمة التي يجب على العبد الحمد عليها، والشكر،وتقدمت صفة العزيز لتقدم ما دل عليها".[1]

وتقدم الجار والمجرور {**له**} لإفادة الاختصاص، أي أن ما في السموات وما في الأرض له لا لغيره .

---

(١) البحر المحيط ج٥ ص ٣٩٣.

أقول: وفي الآية تقديم وتأخير آخر لم يذكره أبوحيان ، وهو تقدم النعت على المنعوت ، حيث تقدمت صفة العزيز الحميد على لفظ الجلالة {**الله**} ، وكما ذكرنا فإن كل الأسماء الحسنى إنما ترجع إلى لفظ الجلالة ، ولهذا التقديم سر في أن أمر العزة والحمد إنما هما لله رب العالمين لا يعرف غير الله بـــهما ، كما إذا اشتهر إنسان بالظرف مثلاً ، فتبدأ بذكر صفته قبل ذكر اسمه لما فيه من شيوع الصفة واشتهاره بـــها، فنقول مثلاً:مررنا بالظريف زيد وبالشجاع عنترة وبالعاشق جميل وهكذا ، وأما تقدم صفة العزيز على الحميد فقد ناسب تقدمها نوع المخاطَبين فسورة إبراهيم سورة مكية ، تخاطب هؤلاء المعاندين المستكبرين حال إعراضهم وصدودهم ، فناسب تقدم صفة العزيز لأمرين :

أولـــهما : أن الأمر بالإيمان نفعه لهم عائد عليهم ، فالله تعالى ما طلب منـــهم الإيمان ليقوى من ضعف أو يعز من ذل - سبحانه وتعالى- بل هو العزيز في ربوبيته وألوهيته .

ثانيهما: يتعلق بالكافرين المكذبين الذين غلب عليهم الكفر وفرحوا بنعمة الأمن ونعمة المال {**الذي أطعمهم من جوع وآمنـــهم من خوف**}، فكان ذلك سبب الإعراض والجحود والنكران اغتراراً بما حباهم الله من نعم فجاءت صفة العزيز التي تبين لهم أنـــهم غير ممتنعين عن الله، وأن ذلك كله لا يغني عنـــهم من الله شيئاً إذ إنـــهم تحت قهره وقدرته ، ويؤيد ما ذهبت إليه أن الآية التي تلتها جاءت مهددة ومخوِّفة {**الله الذي له ما في السموات وما في الأرض وويل للكافرين من عذاب شديد**}، ثم جاءت الآيات التاليات تتحدث عن إهلاك الله لفرعون الذي اعتز بسلطانه وجنوده وأخذته العزة بالإثم ،فكان ذلك سبب هلاكه وسلب الله منه ملكه .

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَذَكِّرْهُم بِأَيَّامِ اللَّه إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴾ (إبراهيم :٥).

بالنظر والتمعن في تفسير المقصود بقوله: {**أيام الله**} ندرك سر تقديم {**صبار**} على {**شكور**}، وأيام الله على القول المختار هي ما فعل الله بـــهم من النقمة والنعمة فبهذا المعنى جاء الحديث الذي ذكره القرطبي ، حيث قال: وروى سعيد بن جبير عن ابن عباس عن أبي بن كعب قال سمعت رسول الله ﷺ

يقول:{ **بينا موسى عليه السلام في قومه يذكرهم بأيام الله وأيام الله بلاؤه ونعماؤه**}[1]، وهنا قد تقدم ذكر البلاء على النعماء ، ومن المعلوم أنه من أعظم النعماء إزالة البلاء ، ومنها تقدم صبار أي على البلاء على شكور أي في النعماء التي اتبعت هذا البلاء ، ومما يؤيد أن هذا التقديم للترتيب الوجودي ، هو أن الآية التالية لهذه الآية جاءت مفصلة لمجملها مبينة لمبـــهمها ، حيث قال تعالى مبيناً قيام موسى بالاستجابة لأمر الله بالتذكير بأيام الله ﴿ **وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنجَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُم بَلاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ** ﴾ (إبراهيم :٦) .

ثم أعقب التذكير بالبلاء التذكير بشكر النعماء في الآية التالية :

﴿**وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ**﴾(إبراهيم:٧).

بدأ سبحانه بذكر الشكر قبل الكفر وما يتبعه من ذكر زيادة النعمة قبل المؤاخذة بالنقمة ، وذلك من باب البداءة بالترغيب قبل الترهيب ولسبق رحمته عذابه وحب الخير وإرادته من عباده .

﴿ **أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ• تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّـــهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ• وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ الأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ** ﴾ (إبراهيم :٢٤-٢٦).

قال أبوحيان: " ولما تقدم تشبيه الكلمة الطيبة على الكلمة الخبيثة تقدم في هذا الكلام من نسبت إليه الكلمة الطيبة ،وتلاه من نسبت إليه الكلمة الخبيثة ".[2]

﴿ **وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِناً وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الأَصْنَامَ**﴾ (إبراهيم :٣٥)، ابتدأ إبراهيم في دعائه بطلب نعمة الأمن، لأنه لا يتم شيء من مصالح الدين والدنيا إلا به.

﴿ **فَلاَ تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ** ﴾ (إبراهيم :٤٧).

---

(١) القرطبي ج٩ ص ٢٤٤.

(٢) البحر المحيط ج٥ ص ٤١٢.

قال الزمخشري: "فإن قلت : هلا قيل: مخلف رسله وعده؟ و لم قدم المفعول الثاني على الأول ؟ قلت: قدم الوعد ليعلم أنه لا يخلف الوعد أصلاً ، كقوله: ﴿ **إِنَّ اللَّهَ لاَ يُخْلِفُ الْمِيعَادَ** ﴾ (الرعد:٣١)، ثم قال: {**رسله**} ليؤذن أنه إذا لم يخلف وعده أحداً - وليس من شأنه إخلاف المواعيد- كيف يخلف رسله الذين هم خيرته وصفوته". [١]

أقول: وهذا التقديم للاعتناء وكونه المقصود بالإفادة .

﴿ **سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ وَتَغْشَى وَجُوهَهُمُ النَّارُ** ﴾ (إبراهيم :٥٠).

تقدم المفعول به {**وَجوهَهم**} على الفاعل {**النار**} لمناسبة ما بعده وهو **قوله تعالى : {ليجزي الله كل نفس ما كسبت إن الله سريع الحساب}**، فالنار هي جزاء كفرهم، ولهذا أخرت لتناسب{**ليجزي الله**} في بداية الآية التي تليها.كما فيها حسن الفاصلة وعُكس هذا الترتيب في قوله تعالى: ﴿ **يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَى وَجُوهِهِمْ** ﴾ (القمر:٤٨) .

---

(١) الكشاف جـ٢ ص٥٤٤.

سورة الحجر

لما سبق ذكر أحوال الكفار في جهنم ووصف عذابــهم فيها في سورة إبراهيم من قوله تعالى:﴿ **وَلاَ تَحْسَبَنَّ اللّهَ غَافِلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الأَبْصَارُ** ﴾ (إبراهيم :٤٢) إلى قوله تعالى في آخر السورة :﴿ **هَذَا بَلاَغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُواْ بِهِ وَلِيَعْلَمُواْ أَنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُوْلُواْ الأَلْبَابِ**﴾ (إبراهيم : ٥٢) أعقب ذلك بقوله تعالى في سورة الحجر: ﴿ **رُّبَمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ كَانُواْ مُسْلِمِينَ** ﴾ (الحجر :٢) أي عند معاينة العذاب ومشاهدة تلك الأهوال ثم أكد سبحانه ذلك بقوله:﴿ **ذَرْهُمْ يَأْكُلُواْ وَيَتَمَتَّعُواْ وَيُلْهِهِمُ الأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ**﴾ (الحجر:٣) ،ثم أعقب سبحانه وتعالى أن ثواب الناس وعقابــهم له أجل مسمى لا يحيد عنه﴿ **وَمَا أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلاَّ وَلَهَا كِتَابٌ مَّعْلُومٌ**﴾ (الحجر:٤)، وقد زادت هذه الآية المعنى إيضاحاً في سورة إبراهيم ﴿ **إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الأَبْصَارُ**﴾ (إبراهيم :٤٢)، وقوله: ﴿ **وَأَنذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ** ﴾ (إبراهيم :٤٤) وقوله:﴿ **يَوْمَ تُبَدَّلُ الأَرْضُ غَيْرَ الأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ وَبَرَزُواْ للّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ** ﴾ (إبراهيم :٤٨). وهناك مناسبة أخرى أشار إليها الأستاذ عبد الكريم الخطيب بقوله: "مناسبة هذه السورة لما قبلها ، هي أن ختام السورة السابقة كان قوله تعالى : {**هذا بلاغ للناس ولينذروا به وليعلموا أنما هو إله واحد وليذكر أولو الألباب** } وهذا الختام يحدث عن القرآن الكريم بأنه بيان مبين للناس وبلاغ يبلغ بـــهم طريق الحق والإيمان فكان مفتتح هذه السورة – سورة الحجر حديثاً آخر عن القرآن الكريم بأنه كتاب وقرآن كريم، فكان هذا البدء مؤكداً لـــهذا الختام" [(١)]

﴿ **وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاء بُرُوجاً وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ. وَحَفِظْنَاهَا مِن كُلِّ شَيْطَانٍ رَّجِيمٍ .إِلاَّ مَنِ اسْتَرَقَ السَّمْعَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ مُّبِينٌ. وَالأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ. وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ وَمَن لَّسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ. وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ عِندَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ**

---

(١) التفسير القرآني ج١٤ ص٢٠٩، ٢١٠.

إلاّ بقَدَرٍ مَعْلُومٍ. وأرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ فَأنْزَلْنَا منَ السَّمَاءِ مَاءً فَأسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أنْتُمْ لَهُ بخَازنينَ﴾ (الحجر:١٦-٢٢).

بدأ بالآيات السماوية لأنـــها أكثر وأعجب، ثم ثنى بالأرض لأنـــها أقرب ، وذكر قابليتها للمعيشة قبل وجود أسباب المعيشة إذ بدون استقرارها تستحيل الحياة ولبيان حسن التدبير من الخلاق العليم الحكيم الذي أحسن كل شيء صنعاً وإتقاناً ولذا قال: {وألقينا فيها رواسي} قبل ذكر الرياح المحملة بالماء ثم إنزال الماء {وأرسلنا الرياح لواقح فأنزلنا من السماء ماءً فأسقيناكموه وما أنتم له بخازنين}.

﴿فَلَمَّا جَاءَ آلَ لُوطٍ المُرْسَلُونَ. قَالَ إنَّكُمْ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ. قَالُوا بَلْ جئْنَاكَ بمَا كَانُوا فيه يَمْتَرُونَ. وَأتَيْنَاكَ بالْحَقّ وَإنَّا لَصَادقُونَ. فَأسْرِ بأهْلكَ بقطعٍ مّنَ اللّيْلِ وَاتَّبعْ أدْبَارَهُمْ وَلاَ يَلْتَفتْ منكُمْ أحَدٌ وَامْضُوا حَيْثُ تُؤْمَرُونَ. وَقَضَيْنَا إلَيْه ذَلكَ الأمْرَ أنَّ دَابرَ هَؤُلاء مَقْطُوعٌ مُصْبحينَ. وَجَاءَ أهْلُ المَدينَة يَسْتَبْشرُونَ. قَالَ إنَّ هَؤُلاء ضَيْفي فَلاَ تَفْضَحُونِ. وَاتَّقُوا اللّهَ وَلاَ تُخْزُونِ. قَالُوا أوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ العَالَمينَ. قَالَ هَؤُلاءِ بَنَاتي إن كُنتُمْ فَاعلينَ﴾ (الحجر:٦١-٧١).

جاء أسلوب التقديم والتأخير في هذه الآيات على غير ما جاء به في سورة هود فبينما تقدم المفعول به هنا {آل لوط} على فاعله {المرسلون} نجد الفاعل قد جاء على وفق ترتيبه الطبيعي في سورة هود في قوله تعالى : {ولما جاءت رسلنا لوطاً} فما السر في ذلك ؟

أقول: بالنظر في أحداث القصتين ندرك ذلك حيث إن تقدم المفعول به {آل لوط} على فاعله {المرسلون} لأنه هو المقصود بالذكر والمعني بالحديث عنه حيث كان الحديث عن نبي الله لوط ومقابلته للرسل وتصرفه معهم ورده عليهم {قال إنكم قوم منكرون} فردوا عليه { قالوا بل جئناك بما كانوا فيه يمترون. وأتيناك بالحق وإنّا لصادقون }، بينما نجد في سورة هود أن الفاعل {رسلنا} جاء على وفق ترتيبه الطبيعي ، لأنـــهم كانوا عقدة القصة ومحورها وسبب ما حصل له في قوله تعالى : {سيء بـــهم وضاق بـــهم ذرعاً وقال هذا يوم عصيب} ثم {وجاءه قومه يهرعون إليه} إنما كان بسببـــهم أيضاً ثم الحوار بينه وبين قومه إنما كان في شأنـــهم إلى آخر القصة ، ولذا لم يكن من ريب أن تصدر الفاعل لموقعه إنما كان من أجل ذلك والله أعلم.

قال الأستاذ عبد الكريم الخطيب: " وقد جاء النظم القرآني لقصة لوط هنا مخالفاً لما جاء عليه في مواضع أخرى .. وذلك أن الملائكة هنا أخبروه بـهلاك القوم وبما ينبغي أن يفعله هو وأهله حتى لا ينـزل بـهم ما ينـزل بأهل القرية من دمار وهلاك ..قبل أن يعلم أهل القرية بـهم ، وقبل أن يجيئوا إلى لوط يريدون الفاحشة في هؤلاء الضيوف..هكذا تحدث الآيات هنا..

وفي مواضع أخرى جاء النظم القرآني على غير هذا كما يقول الله تعالى في سورة هود مثلاً ﴿ **وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطاً سِيءَ بِـهِم وَضَاقَ بِـهِم ذَرْعاً وَقَالَ هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ. وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِن قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ قَالَ يَا قَوْمِ هَؤُلاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلاَ تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ. قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيد.قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيد قَالُوا يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوا إِلَيْكَ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ وَلاَ يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلاَّ امْرَأَتَكَ إِنَّهُ مُصِيبُـهَا مَا أَصَابَـهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيب** ﴾ (هود :٧٧-٨١) .

وترتيب الأحداث هنا غير ترتيبـها في النظام السابق ..كما ترى..فما جواب هذا؟

قال: والجواب - والله أعلم- هو أن الملائكة في هذه الآيات قد ألقوا بالبشرى إلى لوط حين التقوا به ورأوا ما دخل عليه منـهم من خوف وفزع فقالوا له :{ **لا تخف إنّا منجوك وأهلك إلا امرأتك كانت من الغابرين** } ثم جاءه قومه بعد ذلك وكان ما كان منـهم معه ومع الملائكة فكان من لوط كرب وضيق مما حل بالملائكة وتشبث قومه بـهم ومحاولة الاعتداء عليهم فكان حديث الملائكة له بقولهم: {**إنّا رسل ربك**} توكيداً لما حدثوه به من قبل وأنـهم إذا كانوا على تلك الصفة فلن ينالهم أحد بمكروه..ثم كان من تمام ذلك أن أعادوا تذكيره بما حدثوه من قبل ، وهو أن يسري بأهله بقطع من الليل ولا يلتفت منـهم أحد إلى هؤلاء القوم الذين خلفوهم وراءهم ليلاقوا مصيرهم".[1]

---

(١) التفسير القرآني ج١٤ ص٢٥٥،٢٥٦.

سورة النحل

هذه السورة بيان لما تقدم في خاتمة سورة الحجر، فلما ذكر سبحانه **﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ • عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾** (الحجر :٩٢،٩٣) ثم أعقب ذلك بذكر وعيد المستهزئين {**فسوف يعلمون**} افتتحت سورة النحل ببيان هذا الوعيد **﴿ أَتَى أَمْرُ اللَّهِ فَلاَ تَسْتَعْجِلُوهُ ﴾** (النحل:١)ونزه سبحانه نفسه عن شركهم هذا الشرك المذكور في آخر سورة الحجر**﴿ إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ • الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾** (الحجر : ٩٥،٩٦) .

قال تعالى :**﴿يُنَزِّلُ الْمَلائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنذِرُوا أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاتَّقُونِ﴾** (النحل:٢) .

تقدم الأمر بتوحيد الله على الأمر بالتقوى إذ هو أساس المعرفة بالله وأول مطالب العلم كما قال تعالى : **﴿ فَاعْلَمْ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ ﴾** (محمد :١٩)، وكذلك هو شرط قبول العمل وما بعده فرع عليه لا يقبل إلا به ، وسوف يأتي مزيد من البيان حول هذا المعنى في سورة محمد.

قال الرازي في هذه الآية: "ولما كانت القوة النظرية أشرف من القوة العملية لا جرم قدم الله تعالى كمالات القوة النظرية ،وهي قوله :{ **لا إله إلا أنا**} على كمالات القوة العملية وهي قوله:{**فاتقون**}"[1]

﴿ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ تَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ • خَلَقَ الإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴾ (النحل:٣،٤)، وعند تفسيره لهذه الآية يتناول الرازي طريقة القرآن في دلائل الإلهيات وأن الطريق المذكور في كتب الله المنــزلة هو التمسك بطريقة حدوث الصفات وتغير الأحوال قال: ثم هذا الطريق يقع على وجهين : أحدهما: أن يتمسك بالأظهر فالأظهر مترقياً إلى الأخفى فالأخفى، وهذا الطريق هو المذكور في أول سورة البقرة فإنه تعالى

---

(١) مفاتيح الغيب ج١٩ ص٢٢٧.

قال: {**اعبدوا ربكم الذي خلقكم**}، فجعل تعالى تغير أحوال النفس كل واحد دليلاً على احتياجه للخالق ثم ذكر عقيبه الاستدلال بأحوال الآباء والأمهات وإليه الإشارة بقوله {**والذين من قبلكم**} ثم ذكر عقيبه الاستدلال بأحوال الأرض وهي قوله: {**الذي جعل لكم الأرض فراشاً**} لأن الأرض أقرب إلينا من السماء ، ثم ذكر في المرتبة الرابعة قوله: {**والسماء بناء**} ثم ذكر في المرتبة الخامسة الأحوال المتولدة من تركيب السماء بالأرض فقال: {**وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقاً لكم**}.

الثاني: من الدلائل القرآنية : أن يحتج الله تعالى بالأشرف فالأشرف نازلاً إلى الأدنى فالأدنى ، وهذا الطريق هو المذكور في هذه السورة ، وذلك لأنه تعالى ابتدأ في الاستدلال على وجود الإله المختار بذكر الأجرام العالية الفلكية ثم ثنى بذكر الاستدلال بأحوال النبات ، ثم ثلث بذكر الاستدلال بأحوال العناصر الأربعة وهذا الترتيب في غاية الحسن ".[1]

أقول: وقد تقدم ذكر خلق السموات والأرض على خلق الإنسان مع كونه أشرف منـــهما لسبقهما في الوجود، وذكر الإمام البقاعي أن خلق السموات والأرض غيباً لتقدمه وكان خلق الإنسان على هذه الصفة شهادة ، وكأنه يقول هذا من قبيل تقديم الغيب على الشهادة.[2]

﴿ وَالأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ۞ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ﴾ (النحل :٥،٦) .

لماذا تقدم المفعول { **الأنعام** } على فاعله { **خلقها**} أقول: لمناسبة ما بعده فإن بعدها الجار والمجرور{ **لكم**} فأفادت معنىً زائداً وهو إشعارهم بمدى العناية والمنة، كأنه قال خلقتها لكم لا لغيركم، وهذا ما لا يكون إن أخرت فقيل :{**خلق الأنعام لكم**} أو يكون الابتداء بالمفعول به للتشويق ، كأن القارئ والسامع عندما يقرأ الآية {**والأنعام خلقها**} يتبادر إلى ذهنه سؤالاً فيقول لماذا؟ فيأتيه الجواب.وقد تقدم ذكر الأنعام في هذه السورة على سائر الحيوانات .

---

(١) مفاتيح الغيب ج١٩ ص٢٢٧،٢٢٨.

(٢) نظم الدرر ج٤ ص٢٥٤.

ويرى الرازي أن التقديم هنا للشرف، حيث إن الإنسان أكمل وأشرف المخلوقات فما كان انتفاع الإنسان به أكمل وأكثر كان أكمل وأشرف والحيوان الذي ينتفع به الإنسان إما أن ينتفع به في ضروريات معيشته مثل الأكل واللبس أو لا يكون كذلك، وإنما ينتفع به في أمور غير ضرورية مثل الزينة وغيرها ، والقسم الأول أشرف من الثاني ، وهذا القسم هو الأنعام ، فلهذا السبب بدأ الله بذكره في هذه الآية ، فقال: {**والأنعام خلقها لكم**}

المسألة الثانية : أنه تعالى لما ذكر أنه خلق الأنعام للمكلفين أتبعه بتعديد تلك المنافع ، واعلم أن منافع النعم منها ضرورية ومنها غير ضرورية والله تعالى بدأ بذكر المنافع الضرورية .

فالمنفعة الأولى : قوله: {**لكم فيها دفء**} وقد ذكر هذا المعنى في آية أخرى فقال: {**ومن أصوافها وأوبارها وأشعارها**} ..

المنفعة الثانية : قوله: {**ومنافع**} قالوا : المراد نسلها ودرها ، وإنما عبر الله تعالى عن نسلها ودرها بلفظ المنفعة وهو اللفظ الدال على الوصف الأعم ، لأن النسل والدر قد ينتفع به في الأكل وقد ينتفع به في البيع بالنقود، وقد ينتفع به بأن يبدل الثياب وسائر الضروريات فعبر عن جملة هذه الأقسام بلفظ المنافع ليتناول الكل .

المنفعة الثالثة: قوله:{**ومنها تأكلون**} يفيد الحصر وليس الأمر كذلك ، فإنه قد يؤكل من غيرها، وأيضاً منفعة الأكل مقدمة على منفعة اللبس ، فلم أخر منفعته في الذكر؟

قلنا: الجواب عن الأول : إن الأكل منها هو الأصل الذي يعتمده الناس في معايشهم، وأما الأكل من غيرها كالدجاج والبط وصيد البر والبحر، فيشبه غير المعتاد وكالجاري مجرى التفكه، ويحتمل أيضاً أن غالب أطعمتكم منها لأنكم تحرثون بالبقر والحب والثمار التي تأكلون منها ، وأيضاً تكتسبون بإكراء الإبل وتنتفعون بألبانها ونتاجها وجلودها، وتشترون بها جميع أطعمتكم.

والجواب عن السؤال الثاني : أن الملبوس أكثر بقاء من المعلوم فلهذا قدمه عليه في الذكر".[1]

---

(١) مفاتيح الغيب جـ ١٩ ص ٢٣٢، ٢٣٣

وقد وجدت أن الزمخشري قد نقل قول الرازي بعينه حول سر التقديم ولم ينسبه إليه أيضاً ، وقد آثرت أن أذكر ما سطره هنا فقط في هذه الآية كمثال على ذلك .

قال الزمخشري: "فإن قلت : تقديم الظرف في قوله : **{ومنها تأكلون}** مؤذن بالاختصاص، وقد يؤكل من غيرها قلت : الأكل منها هو الأصل الذي يعتمده الناس في معايشهم ، وأما الأكل من غيرها من الدجاج والبط وصيد البر والبحر فكغير المعتد به وكالجاري مجرى التفكه ، ويحتمل أن طعمتكم منها ، لأنكم تحرثون بالبقر فالحب والثمار التي تأكلون منها بإكراء الإبل وتبيعون نتاجها وألبانـــها وجلودها . وإلى هذا ذهب الألوسي أيضاً وأشار إلى ما في الآية من حسن الفاصلة ". [1]

أقول: ومن المحتمل أن الخطاب خاص بالعرب الذين كانوا يعيشون في هذه البيئة فقد كانت الأنعام هي مصدر غذائهم ، بينما هناك شعوب كثيرة مصدر غذائها ليس من الأنعام كاليابانيين مثلاً جل طعامهم من البحر .

﴿ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ﴾ (النحل:٦) .

قال الزمخشري: "فإن قلت : لم قدمت الإراحة على التسريح ؟ قلت: لأن الجمال في الإراحة أظهر، إذا أقبلت ملأى البطون حافلة الضروع، ثم أوت إلى الحظائر حاضرة لأهلها ". [2]

﴿ هُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴾ (النحل :١٠)، تقدم الجار والمجرور **{من السماء}** على المفعول به الصريح **{ماءً}** لبيان عجيب القدرة وإلفات الذهن إلى حكمة الصنعة ليتمكن في النفس حسن التفكر وعظيم التبصر بأحوال هذا الماء ، كيف أنشئ في السماء ، ثم حمل على الريح ، ثم صرف إلى حيث أراد الله ، ثم أسقطه ، وأنزله بحساب معلوم وميزان محكوم ، كما فيه ذكر بيان النعمة حيث النظر في هذه القدرة التي أنزلت الماء من مكان لا يستطيع أحد أن ينــزله منه مهما أوتي من قدرة ، فيتولد في النفس شعور تقابلي بمدى العجز والضعف الذي

---

(١) الكشاف ج٢ ص٥٧٠.

(٢) الكشاف ج٢ ص٥٧١.

يمليه أيضاً المد المتصل الذي في كلمة السماء والذي يضيف بعداً زمانياً آخر إضافة إلى البعد النفسي .

وقد ذكر الألوسي معنى آخر وهو الشوق إلى المتأخر من أجل التمكن الذهني

قال: " وتأخير المفعول الصريح عنه ليظمأ الذهن إليه فيتمكن أتم تمكن عند وروده عليه" .[1]

أقول: وفي الآية تقديم الخبر **{لكم}** على المبتدأ **{شراب}** قد يكون للاهتمام والعناية ولا يبعد قول من قال أنه للحصر باعتبار أن أصل كل ماء في الأرض إنما هو من ماء السماء بنص قوله تعالى: **{فسلكه ينابيع في الأرض}** وقوله تعالى : **{فأسكناه في الأرض}** .

﴿ وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْماً طَرِياً وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ (النحل : ١٤) .

قال صاحب درة التنـزيل : وقال في سورة الملائكة-فاطر- **﴿وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْماً طَرِياً وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾** (فاطر:١٢) .

للسائل أن يسأل فيقول: أية فائدة خصت في الآية الأولى أن تقدم فيه مواخر على قوله فيه ، وأن تدخل فيه الواو على ولتبتغوا ؟ وأية فائدة خصت في الآية الثانية من سورة الملائكة أن يقدم فيها قوله فيه على مواخر وأن تحذف الواو من قوله لتبتغوا ؟ ...وأما تقديم مواخر في هذا المكان على قوله فيه ، فلقوة حكم الفعل الذي اعتد الله بذكره على عباده في هذه الآية لأنها مصدرة بقوله: **{وهو الذي سخر البحر}** ، وإذا قوي حكم الفعل في مكان وجب أن يرتب ما يتعدى إليه على ما يقتضيه في الأصل ، وهو أن يقدم في الفعل المتعدي إلى مفعولين : مفعوله الأول الذي أصله أن يكون معرفة ،

---

(١) روح المعاني جـ١٤ ص ١٠٥ .

ثم أصـــله الـــثاني الذي أصله أن يكون نكرة ، ثم الظرف الذي هو كالفضلة فجاء على هذا الأصل .

فأمـــا تقديم فيه في الآية الأخرى على مواخر فلأن الفعل الذي قدم فيها وعطف هذا عليه بولغ في تقديم الجار والمجرور فيه مبالغة لا مدى وراءها ولا زيادة عليها ، ألا ترى أنـــهما قدما على الفعل نفسه وهو : ومن كل تأكلون لحماً طرياً فلما عرض قوله : وترى الفلك بعد فعل هذه صفته وقد حصل فيه مفعـــولان وجار مجرور قوي تقديم الجار والمجرور فيه على أحد مفعوليه ليعلم أنه من جملة كلام بني الفعل فيه على تقديم الجار والمجرور عليه.[1]

وقـــد أفاد الفيروزابادي بنحو ما ذهب إليه الإسكافي والنقل فيه ظاهر حيث قال عن آية سورة النحل:"ما في هذه السورة جاء على القياس فإن {**الفلك**} المفعـــول الأول لتـــرى ،و{**مواخر**} المفعول الثاني ، و{**فيه**} ظرف، وحقها لتأخر والواو في {**ولتبتغوا**} للعطف على لام العلة في قوله : {**لتأكلوا منه**} وأما في الملائكة فقدم {**فيه**} موافقة لما قبله ، وهو{ **لتأكلوا منه لحماً طرياً**} فقدم الجار والمجرور، على الفعل والفاعل ".[2]

أقـــول: ولي هنا رأي في تقديم مواخر وتأخيرها ، ففي تقديمها كما في سورة النحل {**مواخر فيه**} لفت الأنظار إلى قدرة الله في الفعل وكيفية شق الفلك عباب الماء فكأن القرآن يستدعي منا النظر في الآلة وكيفية جريانـــها، أما تقديم { **فيه مواخر**} فالنظر هنا في المحل وهو الماء السائل وقدرة الله الذي سخر هذا الماء وجعله صالحاً لأن يسار فيه .

﴿ وَعَلامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ﴾ (النحل :١٦).

تقديم الجار والمجرور {**وبالنجم**} للاهتمام بيان عظيم هذه النعمة وليس للفاصلة كما ادعى القاسمي وقد تكلمنا عن ذلك، ورددنا على من ادعى بأن الترتيب لمراعاة الفواصل ، ولسنا مع القاسمي في رفض دعوى الزمخشري أن تقـــديم الضمير {**هم**} للتخصيص بقوم هم قريش لكونـــهم أصحاب رحلة ســـفر لأن الخطـــاب في الآيـــات السابقة عاماً فكذا يكون في لاحقها .[3] فهذا الخصوص بـــهم في الخطاب لا يفيد الحصر كما فهمه القاسمي ، بل كما

---

(١) درة التنزيل ص١٣٦،١٤٥. (٢) بصائر ذوي التمييز ج١ ص٢٨١. (٣) القاسمي ج٦ ص ٣٦٠.

قال الزمخشري: "وبالنجم خصوصاً هؤلاء خصوصاً ، فغيرهم داخل معهم في الاهــتداء بالنجوم ولكن ليس كمثلهم في كثرة الاعتماد عليه والاهتداء به ، وقــد ذهب إلى ما ذكره الزمخشري السمين الحلبي حيث قال : {**وتقديم كل من الجار والمبتدأ مفيد للاختصاص**} .[1]

﴿ **وَقَالَ اللَّهُ لاَ تَتَّخِذُوا إِلَهَيْنِ اثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ** ﴾ (النحل :٥١)، تقديم الضمير {**إياي**} وهو المفعول به للاختصاص أي لا ترهبوا غيري ، وقد مضى ذلك في سورة البقرة .

﴿ **وَإِنَّ لَكُمْ فِي الأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِ مِن بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَناً خَالِصاً سَائِغاً لِلشَّارِبِينَ ، وَمِن ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَراً وَرِزْقاً حَسَناً إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ** ﴾ (النحل:٦٦،٦٧) .

قال أبوحيان: " ولما كانت المشروبات من اللبن وغيره هو الغالب في الناس أكثر من العسل ، قدم اللبن وغيره عليه ، وقدم اللبن على ما بعده ، لأنه المحتاج إليه كثيراً ، وهو الدليل على الفطرة ، ولذلك اختاره الرسول ﷺ حين أسري به وعرض عليه اللبن والخمر والعسل ، وجاء ترتيبـــها في الجنة لهذه الآية قال تعالى:﴿ **مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِّن مَّاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى** ﴾ (محمد :١٥)[2] تقدم قوله: { **من بين فرث ودم** } على قوله:{ **لبناً** } وإنما قدم لأنه موضع العبرة فهو أحرى بالتقديم فهذا التقديم للالتفات .

قال الأستاذ عبد الكريم الخطيب: " وفي تقديم قوله تعالى : {**من بين فرث ودم**} على قوله سبحانه: {**لبناً**} الذي هو مطلوب للفعل {**نسقيكم**} - في هذا التفات إلى الفرث والدم ، وما يخرج من بينــهما ،وهو اللبن الخالص السائغ للشاربين ، فإنه قبل أن يقع لنظر الناظر هذا اللبن يلتقي نظره أولاً بالفرث والدم الذي لا يتصور أن يخرج منــهما إلا ما يشاكلهما ، فإذا رأى بعد هذا أن ذلك اللبن الخالص السائغ يخرج من بين هذين الشيئين :

---

(١) الدر المصون ج٤ ص٣١٨ (٢) البحر المحيط ج٥ ص٥٩٥

الفرث والدم ، عجب لذلك كل العجب وحمله ذلك أن يقف عند هذه الظاهرة وقوفاً طويلاً ، يشهد فيها لمحات من قدرة الله وعلمه وحكمته" .[١]

وقد فات أبا حيان أن يذكر علة تقدم السكر على الرزق الحسن .

وأقول: وقد تقدم السَكَر على الرزق الحسن للاهتمام حيث كانوا يصنعون منه الخمر ، والخمر فيها منافع لهم ببيعها وشرائها وشربها كما قال تعالى : **﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا ﴾** (البقرة:٢١٩) **﴿ وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الجِبَالِ بُيُوتاً وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴾** (النحل:٦٨)، تقدم ذكر بيوت النحل في الجبال على ما بعدها وكذلك بيوتها في الشجر على البيوت التي ابتناه الإنسان ، وهذا الترتيب للأفضلية إذ إن عسل النحل القاطن في الجبال أحسن من اللذَين من بعده ، كما أن عسل النحل القاطن في الشجر أفضل من القاطن في البيوت.

وتحت عنوان {**كيف يجمع النحل الرحيق**} النحل هو الحشرة الوحيدة التي أوحى الله تعالى إليها وأرشدها إلى إقامة بيوتها وأماكن سكنها فأمرها أن تتخذ من الجبال بيوتاً وهو أفضل أنواع سكنها وفيه ينتج أجود أنواع عسلها ، النوع الثاني: إقامة سكنها في الأشجار وهو مرتبة ثانية في نوع السكن وجودة العسل .

النوع الثالث: إقامة سكنها في ما يعرشه الإنسان وهو المرتبة الثالثة من أنواع السكن وجودة العسل أيضاً نظراً لتدخل يد الإنسان ثم أمرها سبحانه أن تأكل من الثمرات و لم يقيدها بنوع معين".[٢]

وللقاسمي رأي آخر وجيه قال: " وأكثر بيوتها ما كان في الجبال ، وهو المتقدم في الآية، ثم في الشجر دون ذلك ثم في الثالث أقل ، وقد التفت القاسمي إلى التقديم اللطيف في تقديم السكن على الأكل حيث قال: فالنحل إذاً نوعان : جبلية تسكن في الجبال والفيافي التي لا يتعهدها أحد من الناس ، وأهلية تأوي إلى البيوت ، وتتعهدها في الخلايا ومن بديع الإلهام فيها اتخاذها البيوت قبل المرعى فهي تتخذها أولاً فإذا استقر لها بيت خرجت منه ،

---

(١) التفسير القرآني ج١٤ ص٣٢١.

(٢) عسل النحل غذاء وشفاء ص١٤.

فرعت، وأكلت من الثمرات ، ثم أوت إلى بيوتـــها وقد أشار تعالى إلى ذلك بقوله: { **ثم كلي من كل الثمرات** }.[1]

ولقد ذكر الشعراوي عن أحد العلماء الأمريكان الذي رصد حياته في دراسة النحل وأطواره وأجناسه وبيئاته قوله : أول إنتاج للنحل كان في الجبال وأقدم عسل وجده الإنسان للنحل كان في الخلايا التي عثر عليها في الجبال وبعد ذلك وجد الإنسان النحل وعسله في الشجر العالي الذي لا يملكه ، ثم استأنس الإنسان النحل وأقام له البساتين والبيوت والخلايا ومما يعرشون ،ولم يقرأ هذا العالم القرآن ليعرف المراحل الثلاث التي جاءت به لكنه درس بصدق البحث التجريبي وخرج بالنتيجة نفسها التي جاء بـــها القرآن ". [2]

﴿ **أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ** ﴾ (النحل:٧٢) ، قدم الجار والمجرور{ **أفبالباطل** } على متعلقه { **يؤمنون** } لإفادة الحصر في كون هؤلاء لا يؤمنون إلا بالباطل وكذا التقديم في قوله : { **وبنعمة الله هم يكفرون** } ، ويجوز أن يكون التقديم للاهتمام لأن المقصود بالإنكار الذي سيق الكلام لأجله تعلق كفرانـــهم بنعمة الله تعالى واعتقادهم الباطل لامطلق الإيمان والكفران مع ما فيه من حسن الفاصلة .

﴿ **وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لاَ تَعْلَمُونَ شَيْئاً وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ. أَلَمْ يَـــرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوِّ السَّمَاءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلاَّ اللَّهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ .وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِمَّا خَلَقَ ظِلالاً وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الجِبَالِ أَكْنَاناً وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الحَرَّ وَسَرَابِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ كَذَلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ**﴾(النحل:٧٨-٨١).

لما ذكرهم سبحانه بنعمه في هذه السورة ابتدأ بذكر نعمة الخلق والإيجاد، إذ هي أول نعمة ظهرت في الوجود –{**والله أخرجكم من بطون أمهاتكم**} ثم ذكرهم بنعمة الإدراك التي بـــها تم الخلق وحسُن ، { **وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة**} ثم ثلث بنعمة الاستقرار والشعور بالأمان والمأوى لكل ما هو من جنس الحيوان {**والله جعل لكم من بيوتكم سكناً**}

---

(١) القاسمي ج٦ ص ٣٨٤ ، ٣٨٥ .

(٢) الشعراوي ج٥ ص٢٨٢٢.

وهي الأعم والأغلب ثم ذكر البيوت السريعة التبدل والتحول والتي يكون فيها الاستقرار أقل ، {**وجعل لكم من جلود الأنعام بيوتاً**} ثم ذكر ما يصلح هذا البيت ويكمله ويجمله { **ومن أصوافها وأوبارها وأشعارها أثاثاً ومتاعاً إلى حين**} ولما ذكرما يخصهم لشرفهم أتبعه ما يشترك فيه الإنسان وسائر الحيوان، {**والله جعل لكم مما خلق ظلالاً وجعل لكم من الجبال أكناناً**} .

وفي تقديم {**لكم**} على ما بعدها، للاعتناء والاهتمام بأن هذا الجعل من أجلهم ومن أجل مصلحتهم والعناية بهم، مع ما فيه من التشوق إلى المتأخر وتقدم الظعن على الإقامة مع أن الإقامة هي الأصل في اتخاذها وهي الأطول زمناً لأن الامتنان هنا في خفتها لأن المنة فيها في السفر أتم وأقوى إذ لا يهم المقيم أمرها .

وتقدّم ذكر الصوف على الوبر والوبر على الشعر من باب تقديم الأفضل، وقد استدل بعض الصوفية بهذه الآية على تفضيل لبس الصوف .

﴿**وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَداً مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ**﴾ (النحل :١٠٢) قال أبو حيان : ولما تقدم ذكر الأمن وإتيان الرزق قابلهم بالجوع الناشئ عن انقطاع الرزق وبالخوف،وقدم الجوع ليلي المتأخر،وهو إتيان الرزق ، كقوله:﴿ **يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ**﴾(آل عمران :١٠٦).[1]

وأقول: إن تقديم الجوع على الخوف في هذه الآية قد يكون لمناسبة الاستعمال في لفظة {**أذاق**} إذ إنها حقيقة في التذوق الطعامي مجازاً في التذوق الأمني ، فلهذا قدم ما كون تذوقه حقيقياً على ما كان تذوقه مجازياً ، أما تقديم نعمة الإطعام من الجوع على الأمن من الخوف في سورة قريش في قوله تعالى: {**الذي أطعمهم من جوع وءامنهم من خوف**}، فقد يكون بسبب أن الجوع في هذه البيئة الصحراوية التي ليس عندهم من أسباب الحياة ما يدفعون به عن أنفسهم ، فكان هو الأعظم خطراً والأشد أثراً على عكس الخوف الذي قد يدفعونه بشيء من أسباب الحيلة والقوة ، سبب آخر أراه

---

(١) البحر المحيط ج٥ ص٥٢٥.

وهو أن الجوع أشد أثراً وأعظم فتكاً ، فمعه الموت والهلاك ، بينما الخوف لا تذهب به الحياة كلية فقد تستمر ولكنها لا تستقيم ولا تستقر ، سبب آخر هو أن الجوع قدم لأنه الأظهر والأبين ، وهو المحسوس الملموس ، كما أن الخوف قد يدارى عن الصغير ، ويعمى عليهم أمره بينما الجوع ساكن معه ملتصق به لا بد من دفعه دفعاً وإخراجه قسراً ، وقد عكس هذا التقديم في سورة إبراهيم في قوله تعالى: **{رب اجعل هذا البلد ءامناً وارزق أهله من الثمرات}** فإن إبراهيم - عليه السلام - إنما دعا قبل أن تسكن البلد أو يحل بـها أحد وأول ما يبحث عنه الإنسان في السكنى والمقام، إنما هو الأمن والسلام قبل الغذاء والطعام ، فإذا ما آمن على نفسه ومن معه فلا خوف يزيله ولا هم يفزعه طاب المقام ، وحسن الاستقرار على العكس من ذلك أن يجد الطعام ويحرم الاستقرار ، فإنه يعيش بغير قرار ، ويبدأ في التحول كما الليل والنهار ، وهذه البلدة قد أسكنها إبراهيم أهله بوحي من ربه لتكون هذه البلدة موطن أفئدة ومهوى الأنفس ومقصد العالمين وقبلة الناسكين العابدين فلهذا كله قدم الدعاء بالأمن على الدعاء بالطعام لتكون مقراً لأهلها ومنـزلاً لقاصديها الذين لو هددوا في المجيء إليه لما قصدها أحد ولأصبحت مهجوراً كعشيرة بلا سند وبيت بلا عمد .

وفي الآية تقديم وتأخير التفت إليه أبوالسعود في تقديم المفعول الأول **{قرية}** على المفعول الثاني **{مثلاً}** قال: " وتأخير **{قرية}** مع كونـها مفعولاً أولا لئلا يحول المفعول الثاني بينها وبين صفتها وما يترتب عليها إذ التأخير عن الكل مخل بتجاذب أطراف النظم وتجاوبـها ، ولأن تأخير ما حقه التقديم مما يورث النفس ترقباً لوروده وتشوقاً إليه، لا سيما إذا كان في المقدم ما يدعو إليه فإن المثل مما يدعو إلى المحافظة على تفاصيل أحوال ما هو مثل فيتمكن المؤخر عند وروده لديها فضل تمكن".[1]

﴿ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴾ (النحل :١٢٥). قدم العلم بمن ضل عن سبيله لأنـهم المقصودون بالدعوة ، والصبر عليهم أوكد، وقد يكون التقديم لكونـهم أكثر.

---

(١) تفسير أبي السعود ج٣ ص٢٩٧.

﴿ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ ﴾ (النحل :١٢٦). تقدم هنا الإخبار عن العقاب على الأمر بالصبر مع أن الصبر مرتبته أفضل والتحلي به أجمل وقد ذكره الله في هذه الآية بأنه الأفضل .

وأقول : إن تقديم العقاب هنا مع كونه مفضولاً راجع إلى ثلاثة أمور :

الأول : كون الآية إنما نزلت لبيان المماثلة في العقاب ، قال القرطبي : " أطبق أهل التفسير أن هذه الآية مكية ، نزلت في شأن التمثيل بحمزة يوم أحد، ووقع ذلك في صحيح البخاري وفي كتاب السير ..روى الدارقطني عن ابن عباس قال : لما انصرف المشركون عن قتلى أحد انصرف رسول الله ﷺ فرأى منظراً ساءه رأى حمزة قد شق بطنه ، واصطلم أنفه وجدعت أذناه فقال : {**لولا أن يحزن النساء أو تكون سنة بعدي لتركته حتى يبعثه الله من بطون السباع والطير لأمثلن مكانه بسبعين رجلاً**}، ثم دعا ببردة غطى بها وجهه ، فخرجت رجلاه فغطى رسول ﷺ وجهه وجعل على رجليه من الإذخر، ثم قدمه فكبر عليه عشراً، ثم جعل يجاء بالرجل فيوضع وحمزة مكانه حتى صلى عليه سبعين صلاة وكان القتلى سبعين ، فلما دفنوا وفرغ منهم نزلت هذه الآية {**ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة**} - إلى قوله - {**واصبر وما صبرك إلا بالله**}.[1]

الثاني : أن الأمر بالصبر قد اقترن بلام التأكيد {**ولئن صبرتم**}، بينما اقترن الإخبار عن العقاب بـ{**إن**} التي هي بمعنى الشك {**وإن عاقبتم**}.

الثالث: أن الآية التالية فيها الأمر بالصبر وعدم الحزن عليهم وعدم الضيق من مكرهم.

﴿ وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلاَّ بِاللَّهِ وَلاَ تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلاَ تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴾ (النحل :١٢٧) **﴿ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوا وَالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴾** (النحل :١٢٨) .

تقدم ذكر صفة التقوى قبل صفة الإحسان مع أن رتبة الإحسان أعلى مراتب الإيمان كما جاء في حديث جبريل، وأقول : بأن التقدم هنا للترقي من المفضول إلى الأفضل ومن الحسن إلى الأحسن .

---

(١) القرطبي ج١٠ ص١٣٢.

سورة الإسراء

تتصل سورة الإسراء بسورة النحل اتصالاً شديداً لما ختمت سورة النحل بذكر إبراهيم – عليه السلام – والثناء عليه ثم جاء الأمر للنبي ﷺ باتباع ملة إبراهيم– عليه السلام– وكان ظاهر ذلك تفضيل إبراهيم على محمد ﷺ وعلى سائر الأنبياء – عليه السلام – أعقب ذلك بسورة الإسراء التي تضمنت من خصائص نبينا – صلى الله عليه سلم – وعظيم منـــزلته وشرف مقامه الذي لم يصل إليه سابق ولن يدركه لاحق ، ويكفي لإثبات ذلك قصة الإسراء والمعراج وإمامته بكل الأنبياء .وقد ناسب ذكر الإسراء بعد خاتمة النحل مناسبة شديد فخاتمة النحل تأمر النبي ﷺ بالدعوة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة وتأمر بالعدل عند المعاقبة بمثل ما يعاقب به وتحثه على الأفضل بعدم مجازاة العقوبة بمثلها، وأن الصبر دائماً عاقبته إلى خير في الدنيا والآخرة**﴿وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ﴾** (النحل :١٢٦) تأمره بالصبر وتنهاه عن الحزن وعدم الضيق من مكرهم وصدودهم **﴿ وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلاَّ بِاللَّهِ وَلاَ تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلاَ تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴾** (النحل :١٢٧) . ثم تختم بإثبات معية الله ونصره له ولكل محسن اتبع سبيل المحسنين**﴿ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوا وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ﴾** (النحل :١٢٨).

ثم تأتي سورة الإسراء ببيان تحقيق الله لـــهذا الخير الموعود به في سورة النحل حيث جاء الإسراء كما هو معلوم من القصة في كل كتب السير بعدما خرج النبي ﷺ من مكة وقد لاقى منـــهم كل شر وصدود وإعراض وتكذيب وسخرة واستهزاء فيذهب إلى الطائف ليجدهم شراً حالاً من أهل مكة فسلطوا عليه السفهاء وضربوه بالحجارة حتى أدموه ونالوه بالأذى وأسمعوه كل قبيح ، ثم يرجع إلى مكة فينـــزل عليه جبريل صحبة ملك الجبال ويعرض عليه أن يطبق على الكفار الأخشبين فيقول : **{بل أرجو أن يخرج الله من أصلابـــهم من يعبده ولا يشرك به شيئاً}** فلم يقابل العقوبة بمثلها بل صبر وتحمل فساق الله إليه الخير بـــهذه الرحلة العظيم.

﴿ وَقَضَى رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً ﴾ (الإسراء :٢٣)، تقدم الأمر بإفراد الله بالعبادة ، لأنه حق الله وحق المعبود مقدم على حق العابد فالوالد والولد كل مأمور بعبادة الله ، وإذا كان البر بالوالدين من أجل أنـــهما أصل الإيجاد ولعظيم نعمتـــهما على الأبناء فحق الله أولى ، إذ هو خالق الجميع من العدم وما بأحد من نعمة إلا من الله، كذلك من أسرار التقديم أن عبادة غير الله خلل في التفكير ، وعقوق الوالدين خلل في العمل ، وإصلاح الخلل في التفكير مقدم على إصلاح الخلل في العمل، وقدم المجرور{**وبالوالدين**} على متعلقه {**إحساناً**} اهتماماً بشأنـــهما .

وقد تقدم الأمر ببر الوالدين على الأقارب والمحتاجين الذين ذكروا في الآية السادسة و العشرين من نفس السورة ، { **وآت ذا القربى حقه والمسكين وابن السبيل ولا تبذر تبذيراً** }.

قال الرازي: "وليس لأحد من الخلائق نعمة على الإنسان مثل ما للوالدين وتقريره من وجوه :

أحدها:أن الولد قطعة من الوالدين قال عليه السلام{**فاطمة بضعة مني**}.

وثانيها: أن شفقة الوالدين على الولد عظيمة، وجدهما في إيصال الخير إلى الولد كالأمر الطبيعي واحترازهما عن إيصال الضرر إليه كالأمر الطبيعي ، ومتى كانت الدواعي إلى لإيصال الخير متوفرة ، والصوارف عنه زائلة لا جرم كثر إيصال الخير فوجب أن تكون نعم الوالدين على الولد كثيرة أكثر من كل نعمة تصل من إنسان إلى إنسان .

وثالثها : أن الإنسان حال ما يكون في غاية الضعف ونـــهاية العجز ، يكون في إنعام الوالدين في ذلك الوقت ، ومن المعلوم لأن الإنعام إذا كان واقعاً على هذا الوجه كان موقعه عظيماً .

ورابعها : أن إيصال الخير إلى الغير قد يكون بداعية إيصال الخير إليه وقد يمتزج بـــهذا الغرض سائر الأغراض ، وإيصال الخير إلى الولد ليس لـــهذا الغرض فقط فكان الإنعام فيه أتم وأكمل فثبت أنه ليس لأحد من المخلوقين نعمة على غيره مثل ما للوالدين على الولد فبدأ الله تعالى بشكر نعمة الخالق وهو قوله:

{**وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه**} ثم أردفه بشكر نعمة الوالدين وهو قوله: {**وبالوالدين إحسانا**} والسبب فيه ما بينا أن أعظم النعم بعد إنعام الإله الخالق نعمة الوالدين".[1]

أقول: وهناك تقديم آخر في الآية وهو تقديم معمول المصدر {**وبالوالدين**} على المصدر {إحساناً} وهذا التقديم للاهتمام لأنه هو مطلوب الإحسان وغايته وأصل النظم وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه وإحساناً بالوالدين .

﴿ **وَلاَ تَقْتُلُوا أَوْلادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئاً كَبِيراً** ﴾ (الإسراء:٣١) تقدم هنا رزق الأبناء على الآباء إشارة إلى أنهم جميعاً في الرزق سواء عند الله لا يملك هؤلاء ولا هؤلاء رزقاً لأنفسهم وإنما يرزقون جميعاً من فضل الله .

﴿ **وَلاَ تَقْرَبُوا الزِّنَى إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلاً ۝ وَلاَ تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ وَمَن قُتِلَ مَظْلُوماً فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَاناً فَلاَ يُسْرِف فِّي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنصُوراً ۝ وَلاَ تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولاً ۝ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً**﴾(الإسراء:٣٢-٣٥).

لقد تقدم الزنى على القتل مع أن القتل أعظم ذنباً عند الله بعد الكفر والشرك ، وقد ورد من الوعيد في ذنب القتل في القرآن والسنة ما لم يرد في أي معصية أخرى، قال تعالى : ﴿ **وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِناً مُّتَعَمِّداً فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِداً فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَاباً عَظِيماً** ﴾ (النساء: ٩٣)، وقال تعالى : ﴿ **مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْساً بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعاً وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعاً** ﴾(المائدة : ٣٢)، وقد قدم القتل على الزنى في سورة الفرقان في قوله تعالى : ﴿ **وَالَّذِينَ لاَ يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ وَلاَ يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ وَلاَ يَزْنُونَ** ﴾ (الفرقان : ٦٨) .

أقول: السبب في ذلك راجع لأمرين : الأول: الحث عليه خيفة التهاون به كما مر بنا من قبل في تقديم الأمر بالوصية على الدين في سورة النساء فلم

---

(١) مفاتيح الغيب ج٢٠ ص١٨٦.

يتربص القتل من أولياء المقتول.

الثاني : وهو الذي ذكره الرازي في جوابه على السؤال الذي افترضه حيث قال : "القائل أن يقول: إن أكبر الكبائر بعد الكفر بالله القتل ، فما السبب بأن الله تعالى بدأ أولاً بذكر النهي عن الزنى وثانياً بذكر النهي عن القتل ؟

وجوابه : أنا بينا أن فتح باب الزنى يمنع من دخول الإنسان في الوجود ، والقتل عبارة عن إبطال الإنسان بعد دخوله في الوجود ، ودخوله في الوجود مقدم على إبطاله وإعدامه بعد وجوده ، فلهذا السبب ذكر الله تعالى الزنى أولاً ثم ذكر القتل ثانياً" .[1]

ولما نـــهى سبحانه عن الإغارة على الأبضاع والأرواح ، أتبعه بالنهي عن نـــهب ما هو عديلها لأن به قوامها ، وهو الأموال، وبدأ بأحق ذلك بالنهي لشدة الطمع فيه لضعف مالكه وهو مال اليتيم ولما كانت الوصية نوع من أنواع العهد أمر بالوفاء بما هو أعم منها وتكون هي داخلة فيه فقال: {**وأوفوا بالعهد**} ولما كان التقدير بالكيل أو الوزن من جملة الأمانات الخفية كالتصرف لليتيم أتبع بقوله: {**وأوفوا الكيل إذا كلتم وزنوا بالقسطاس المستقيم** } .

﴿ **وَلاَ تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً** ﴾ (الإسراء : ٣٦) .

قدم السمع هنا لعلة ترتبط مع بداية الآية ، وهي النهي عن القول بلا علم ، لأنه أكثر ما ينسب الناس أقوالهم إليه ، كما قدم الجار والمجرور { **عنه** } للاهتمام به .

﴿ **كُلُّ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهاً** ﴾(الإسراء : ٣٨) .

﴿ **أَفَأَصْفَاكُمْ رَبُّكُم بِالْبَنِينَ وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلآئِكَةِ إِنَاثاً إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلاً عَظِيماً** ﴾ (الاسراء : ٤٠) .

---

(١) مفاتيح الغيب ج٢٠ ص٢٠٠،٢٠١

تقدم الفعل هنا على الاسم في الاستفهام الإنكاري ، لأن الغرض هنا هو إنكار الفعل وليس إنكار الاسم ، فقد أنكر عليهم سبحانه هو ادعاء اصطفاءهم بالبنين ، ولذا ولي المراد إنكاره الهمزة كما بينا في الرابع .

﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلاَّ كُفُوراً ﴾(الاسراء : ٨٩).

وقال في سورة الكهف : **﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ وَكَانَ الْإِنسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلاً ﴾** (الكهف : ٥٤) . تقدم قوله للناس في الآية الأولى على{ في هذا القرآن} بعكس الثانية والسبب في ذلك .كما يرى صاحب الدرة أن الآيات التي سبقتها تخويف وتحذير للنبي ﷺ كتحذير الناس كلهم إذ يقول : {**وإن كادوا ليفتنونك عن الذي أوحينا إليك لتفتري علينا غيره**} إلى قوله : **﴿ إِذاً لَّأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لاَ تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيراً ﴾**(الإسراء : ٧٥) ، فقال بعده وقدم الناس: {**ولقد صرفنا في هذا القرآن للناس من كل مثل**} تنبيهاً للناس وليهتموا بتفهمه ويعنوا بتدبره ويقفوا عند أوامره وينتهوا عن زواجره ، فكان موضع الآية يقتضي تقديم الناس على عادة العرب في تقديم ما عنايتهم بذكره أتم ..وأما الثانية فإنها وقعت في السورة التي تقدم فيها ذكر أصحاب الكهف وما سئل النبي - ﷺ- عن الإخبار به مما لم يقدر عليه إلا بأن يوحى إليه ، وكان جميع ذلك من خبر موسى - عليه السلام ... وقصة ذي القرنيين بعدهما مما أودع القرآن وتضمنه الكتاب ، فقال في هذا المكان : {**ولقد صرفنا في هذا القرآن للناس من كل مثل** } للدلالة على ما طلبوه من النبي ﷺ وما قد أوحى الله به إليه في كتابه، فكان تقديم ذلك في هذا المكان أولى}[1] .

قال الكرماني: "وقدمه على قوله : {**في هذا القرآن**} كما قدمه في قوله: **﴿ قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ**

---

(١) درة التنزيل ص ١٥٣.

لاَ يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً ﴾ (الإسراء : ٨٨)، ثم قال:
﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ ﴾ (الإسراء : ٨٩).

وأما في الكهف فقدم { **في هذا القرآن** } لأن ذكره جل الغرض ، وذلك أن اليهود سألته عن قصة أصحاب الكهف وقصة ذي القرنين فأوحى الله إليه في القرآن ، فكان تقديمه في هذا الموضع أجدر ، والعناية بذكره أحرى "[١]

﴿ انظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلاَ يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلاً ٠ وَقَالُوا أَئِذَا كُنَّا عِظَاماً وَرُفَاتاً أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقاً جَدِيداً ﴾ (الإسراء: ٤٨-٤٩).

تقدم الأمر بالنظر إلى الأمثال التي ضربوها على الأمثال نفسها ، وهذا التقديم من أجل تـــهيئ الناظر إليها ، ويخلي نفسه من كل نظر إلى غيرها ، وذلك لما فيها من فتنة وضلال الأمر الذي يدعو إلى إمعان النظر فيها حتى يتوقى الناظر ما فيها من مكر وكيد ، كما أنـــها أفادت هذا التشوق لمعرفة ما أمر بالنظر إليه .

قال صاحب التحرير: "وتقديم الظرف من قوله :**{أإذا كنا عظاماً}** للاهتمام به ، لأن مضمونه هو دليل الاستحالة في ظنـــهم ، فالإنكار متسلط على جملة **{أإنا لمبعوثون}** وقوة إنكار ذلك مقيد بحالة الكون عظاماً ورفاتاً، وأصل تركيب الجملة: أإنا لمبعوثون إذا كنا عظاماً ورفاتاً"[٢]

﴿ قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيداً ٠ أَوْ خَلْقاً مِّمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَى هُوَ قُلْ عَسَى أَن يَكُونَ قَرِيباً ﴾ (الإسراء : ٥٠ – ٥١).

التقديم هنا من باب الترقي من الصلب إلى الأصلب لإثبات القدرة على الإعادة ، فبدأ بالحجارة ثم بما هو أصلب منها وهو الحديد ، ثم تركهم وأفكارهم ، لتجول فيما هو أصلب من الحديد .

﴿ أَقِمِ الصَّلاَةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُوداً ﴾(الإسراء : ٧٨) .

---

(١) أسرار التكرار في القرآن ص١٦٤،١٦٥.   (٢) التحرير والتنوير ج١٥ ص١٢٢.

ابتدأت الآية عند ذكر مواقيت الصلاة بذكر ميقات صلاة الظهر ، ويدخل فيه صلاة العصر ،ثم ذكرت صلاة المغرب والعشاء ثم الفجر ، وهذا الترتيب المذكور في هذه الآية هو الذي نــزل به جبريل عملاً ، كما أخبر به النبي ﷺ به قولاً ، ففي حديث إمامة جبريل بالنبي ﷺ ونزوله عند مواقيت الصلاة نزل أولاً حين زالت الشمس ، ثم جاءه عند العصر ثم عند المغرب ثم عند العشاء ثم عند الفجر وهو نفس الترتيب المذكور في هذه الآية وعلى هذا فالترتيب في الآية ترتيب وجودي، ففي حديث جابر بن عبد الله - رضي الله عنــهما- عن النبي ﷺ أمّني جبريل - عليه السلام- عند البيت مرتين فصلى الظهر في الأولى منــهما حين كان الفيء مثل الشراك ثم صلى العصر ..}[1] أما السنة القولية في بيان مواقيت الصلاة فقد جاء الحديث عن النبي ﷺ مرتباً أيضاً كما في هذه الآية فعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال:{ **وقت الظهر إذا زالت الشمس وكان ظل الرجل كطوله ما لم يحضر العصر ووقت العصر ما لم تصفر الشمس ووقت المغرب ما لم يغب الشفق وقت العشاء إلى نصف الليل الأوسط،ووقت صلاة الصبح من طلوع الفجر وما لم تطلع الشمس فإذا طلعت الشمس فأمسك عن الصلاة فإنــها تطلع بين قرني شيطان**} رواه مسلم ،وهذا الترتيب هو الترتيب المعتمد عند ذكر مواقيت الصلاة في كل كتب الفقه فيبدأ العلماء بذكر وقت صلاة الظهر ثم العصر ثم المعرب ثم العشاء ثم الفجر .

وفيما ذهبت إليه قال القرطبي: "ولم يختلفوا في أن جبريل- عليه السلام- هبط صبيحة ليلة الإسراء عند الزوال فعلم النبي ﷺ الصلاة ومواقيتها"[2].

قال الشعراوي: " ولماذا بدأ بدلوك الشمس ؟ وهل النهار يبدأ بالظهر أو يبدأ بالصبح ؟ إن الإسراء والمعراج كان ليلاً ورسول الله جاء صباحاً إلى مكة ، وقد فرضت الصلاة في المعراج ، فكانت أول فريضة هي الظهر ، وكأن الحق يعني خذ الغاية وخذ البداية ، وكانت البداية هي صلاة الظهر والعصر

---

(١) الترمذي كتاب الصلاة حديث رقم {١٣٨} ومسلم كتاب المساجد ومواضع الصلاة رقم {١٧٣}.
(٢) تفسير القرطبي ج١٠ ص١٣٨.

والمغرب والعشاء وبقي الفجر وجاء فيه { **وقرآن الفجر إن قرآن الفجر كان مشهوداً** }[1]

﴿ **وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلْطَاناً نَّصِيراً** ﴾ (الإسراء : ٨٠) .

لماذا تقدم قوله: {**أدخلني**} على قوله: {**أخرجني**} أقول : بالنظر في معنى الدخول والخروج ندرك سر هذا الترتيب، فإذا كان الدخول والخروج لمعنى واحد، فالترتيب هنا ترتيب وجودي، كما فسر البعض الدخول والخروج بقوله : أي أدخلني في أمرك الذي أرسلتني به من النبوة مدخل صدق، وأخرجني من الدنيا ،وقد قمت بما وجب عليَّ من حق النبوة مخرج صدق، وإذا كان أمر الخروج والدخول بين أمرين مختلفين في عموم الخروج والدخول فإن تقديم الدخول وإن كان متأخراً زماناً لأنه لا بد أن يسبق الدخول خروج كما فسر الخروج بخروجه ﷺ من مكة مهاجراً ودخوله إلى المدينة ، فتقديم الدخول هنا للاهتمام لأنه يتعلق بالغير وهم المدخول عليهم ودخول الصدق والكذب عائد عليهم ، أما الخروج فعائده على الخارج فحسب لا على المخرج منه.

﴿ **قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَياًّ مَّا تَدْعُوا فَلَهُ الأَسْمَاءُ الحُسْنَى** ﴾ (الإسراء: ١١٠) .

تقدم لفظ الجلالة {**الله**} على اسم {**الرحمن**} لأن مرجع الأ سماء الحسنى كلها إلى اسم الله ، فهو الاسم الجامع لجميع صفات الكمال ، وقد مر بنا ذلك في تفسير سورة الفاتحة وفي تقديم الجار والمجرور الخبر {**فله**} على المبتدأ {**الأسماء الحسنى**} للحصر والاختصاص به سبحانه ، حيث لا يشاركه في هذه الصفات أحد وأقول: ليس هنا سبيل لمعترض في قوله أن من الأسماء الحسنى أسماء قد شاركه فيها غيره سبحانه من مثل قوله: {**فجعلناه سميعاً بصيراً**} وقوله: {**بالمؤمنين رءوف رحيم**} وقوله: {**إن خير من استأجرت القوي الأمين**} إلى غير ذلك من الصفات التي أطلقها الله تعالى على عباده ، فنقول إن الاشتراك هنا ليس في حقيقة الاسم والصفة وما يتعلق بهما

---

(١) الشعراوي ج٧ ص ٤٣٤٠

وإنما هو اشتراك لفظي لا يدل على حقيقة الاسم والصفة وكيفيتـــهما ، ولنا في صفات المخلوقات كالحيوانات مثلاً دليل على ذلك، فالإنسان والفيل كلاهما له أذن وله قدم وله سمع وله بصر دون أن يكونا متساويين في شيء من ذلك وهكذا ولله المثل الأعلى فصفاته الحسنى خاصة به محصورة فيه **{ليس كمثله شيء وهو السميع البصير}** .

سورة الكهف

من المعلوم أن التسبيح مقدم على التحميد فيقال سبحان الله والحمد لله في الذكر المطلق أو المقيد بأدبار الصلوات ، وهنا تقدم التسبيح في سورة الإسراء فجيء بـــها أولاً ثم جيء بالكهف المبدوءة بالحمد ثانياً ، وكما قيل التخلية مقدمة على التحلية،

ثانياً : لقد تضمنت سورة الإسراء صفات التسبيح والتنــزيه لله رب العالمين عن كل المعائب والنقائص وجاءت سورة الكهف بالحمد على صفات كماله وإنعامه ، فقد ختمت سورة الإسراء بإثبات الحمد لله رب العالمين لتنــزهه عن كل صفات النقص**﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَداً وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُ وَلِيٌّ مِّنَ الذُّلَّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيراً﴾** (الإسراء:١١١) . بدأت سورة الكهف بالحمد لله رب العالمين على صفات الكمال والبراءة من كل نقص وعيب، ومن هذه الصفات رعايته لعباده بإنزاله الكتب التي فيها خير عاجلهم وآجلهم ، ولما ختمت الإسراء بتنــزيهه عن اتخاذ الولد جاءت سورة الكهف لإنذارهم وبيان أن ذلك القول لا دليل عليه ولا برهان.

﴿وَيُنذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَداً مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلاَ لآبَائِهِمْ﴾ (الكهف:٤،٥) .

المدقق هنا يلاحظ تناسقاً عجيباً في الترتيب بين هاتين السورتين من حيث التسبيح والتحميد وكيف أن الابتداء بسورة الإسراء وبعدها الكهف كان وراءه سر عجيب لمن تأمله .

﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُ عِوَجاً. قَيِّماً لِّيُنذِرَ بَأْساً شَدِيداً مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْراً حَسَناً ﴾ (الكهف :١،٢) .

تقدم قوله: {**ولم يجعل له عوجاً**} على قوله: {**قيماً**} وهذا التقديم من باب الأمر بالالتفات إليه بحسن التفكير فيه والتدبر إليه وإمعان النظر فيه والتدقيق في نظمه هل فيه من عوج ، وكأنه تحد لهؤلاء المشركين الذين

لم يؤمنوا به، وصارخاً في وجوههم فتشوا فيه ما استطعتم لن تجدوا فيه خللاً، ويؤيد ما ذكرناه هو أن سورة الكهف سورة مكية ، وقد نزلت جواباً لأسئلة تحدى بـــها الكفار النبي ﷺ فأجابت عن أصحاب الكهف، وذكرت قصتـــهم، ثم ذكرت قصة ذي القرنين ، فناسب أن تبدأ السورة بنفي العوج والاختلاف عن هذا الكتاب الذي لم يؤمن به الكفار استكباراً وعناداً .

قال الألوسي: " وروي القول بالتقديم والتأخير عن ابن عباس ومجاهد وذكر السمين أن ابن عباس حيث وقعت جملة معترضة في النظم يجعلها مقدمة من تأخير ، ووجه ذلك أنـــها وقعت في لفظين مرتبطين فهي في قوة الخروج من بينـــهما ولما كان {**قيما**} يفيد استقامة ذاتية أو ثابتة لكونه صفة مشبهة وصيغة مبالغة ، وما من شيء كذلك إلا وقد يتوهم فيه أدنى عوج ذكر قوله تعالى : {**ولم يجعل**} إلخ. للاحتراس وقدم للاهتمام كما في قوله :

ألا يا اسلمي يا دارَ مَيّ على البلا ولا زال منهَّلاً بجرعائك القَطرُ

وقد اعترض الزمخشري على ادعاء التقديم والتأخير في الآية دون تفنيد علمي لما ذُهب إليه اللهم قوله : وأن ما ذكروه من التقديم والتأخير فاسد يمتنع العقل من الذَهاب إليه .

وما قيل في التقديم والتأخير لا يمتنع عقلاً بل هو منسجم والعقل السليم والمعنى الصحيح وما كان له على جلالة قدره أن يذهب إلى التجريح ولو بالإشارة والتلميح.

قال الألوسي رداً على الزمخشري : "ولعمري أن هذا الكلام لا ينبغي من الإمام إن صح عنده أن القول المذكور مروي عن ابن عباس ومجاهد، فإن الأول ترجمان القرآن وناهيك به جلالة ومعرفة بدقائق اللسان ، وقد قيل في الثاني إذا جاءك التفسير عن مجاهد فحسبك".[1]

وفيما ذكره الألوسي عن السمين إيهام بأنه يذهب إلى القول بالتقديم والتأخير في هذه الآية ،وهذا عكس ما ذكره السمين في هذه الآية حيث قال: "وقال الأهوازي: ليس هو وقفاً مختاراً لأن في الكلام تقديماً وتأخيراً معناه :

---

(١) روح المعاني ج١٤ ص ٢٠١ ٢٠٢.

أنزل على عبده الكتاب قيماً و لم يجعل له عوجاً قلت : - والكلام هنا للسمين - دعوى التقديم والتأخير، وإن كان قال بـــها غيره إلا أنـــها مردودة بأنـــها على خلاف الأصل".[1]

﴿ وَقُلِ الحَقُّ من رَبِّكُمْ فمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ إنَّا أَعْتَدْنَا للظَّالمينَ نَاراً أَحَاطَ بـــهم سُرَادِقُهَا وَإِن يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بمَاء كَالْمُهْلِ يَشْوِي الوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقاً. إنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالحاتِ إنَّا لا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلاً. أُوْلَئِكَ لَهُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي من تَحْتـــهم الأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنَ ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَاباً خُضْراً مِّن سُنْدُس وَإِسْتَبْرَق ﴾ (الكهف:٢٩-٣١).

لَمَا تقدم الإيمان والكفر ، ذكر بعدهم الجزاء وبيان ما أعد الله للفريقين المؤمنين والكافرين ، وقد أعقب ذكر ما أعد للكافرين أولاً مخالفة لتقدم ذكر الإيمان على الكفر في الآية السابقة ليلي جزاء الكافرين قوله تعالى: **{ومن شاء فليكفر}**، فكان الكلام عن الكفار وفي سياق ما طلبوا من الرسول ﷺ ولذلك كانت البداءة بـــهم أهم وآكد .

قال السمين الحلبي : "وقدَّم التحلِّي على اللباس لأنه أشهى للنفس"[2] .

وأقول: لا يكون التحلي أشهى للنفس إلا بعد اللبس، فما فائدة التحلي مع التعري!

ولكن إذا ثبت التحلي وبدئ به ، أفاد وجود اللبس ضمناً وإن لم يذكر، وقد قدِّم هاهنا من باب إدخال البشارة والسرور بذكر فائق الإكرام وعظيم الإنعام، وهنا تقديم آخر وهو تقديم السندس على الإستبرق ، وهو من بيان تقديم الأشرف في اللباسين ، على المعنى الذي ذكره الفيروزابادي حيث قال: "السندس بالضم ، ضرب من البُزيون أو ضرب من رقيق الديباج "[3] والإستبرق للغليظ من الديباج ،[4] وذكر القرطبي ذلك نقلاً عن الكسائي.

قال: "**السندس**: الرقيق النحيف واحدها سندسة قاله الكسائي والإستبرق : ما ثخن منه - عن عكرمة- وهو الحرير"[5] ويؤيد ما ذكرته من

---

(١) الدر المصون ج٤ ص٤٣١.

(٢) الدر المصون ج٤ ص ٤٥٣.

(٣) القاموس المحيط ج٢ ص٣٥٠.

(٤) القاموس المحيط ج٣ ص٣٣٢.

(٥) روح المعاني : ج١٤ ص٢٧٤.

سبب التقديم قوله تعالى: ﴿ **مُتَّكِئِينَ عَلَى فُرُشٍ بَطَائِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ وَجَنَى الْجَنَّتَيْنِ دَانٍ** ﴾ (الرحمن :٥٤). حيث إنه من المعلوم أن كساء الفُرُش ظاهرا أفخم منه باطناً ، والبطانة المذكورة هنا من الإستبرق وليس من السندس .

﴿ **كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْئاً وَفَجَّرْنَا خِلالَهُمَا نَهَراً** ﴾ (الكهف:٣٣).

قال الألوسي: "ولعل تأخير ذكر التفجير عن ذكر الإيتاء مع أن الترتيب الخارجي على العكس للإيذان باستقلال كل من إيتاء الأكل وتفجير النهر في تكميل محاسن الجنتين كما في قصة البقرة ونحوها ، ولو عكس لانفهم أن المجموع خصلة واحدة بعضها مترتب على بعض ، فإن إيتاء الأكل متفرع على السقي عادة ، وفيه إيماء إلى أن إيتاء الأكل لا يتوقف على السقي كقوله تعالى : {**يكاد زيتها يضيء**} قاله شيخ الإسلام" .[1]

﴿ **الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَاباً وَخَيْرٌ أَمَلاً** ﴾ (الكهف:٤٦) .

قال القاسمي: "تقديم المال على البنين لعراقته فيما نيط به من الزينة والإمداد ، ولكون الحاجة إليه أمس ولأنه زينة بدونـــهم من غير عكس ".[2]

أقول: نعم كما ذكر أن تقديم المال لأنه أعرق في الزينة ، أما لكونه زينة بدونـــهم من غير عكس فغير مسلم له في ذلك ، فالمشاهدة والواقع يخبران غير ذلك فكم من أصحاب أموال ودوا لو رزقوا البنين بكل ما يملكون وآخرون تزينوا بصالح أولادهم وافتخروا بـــهم بما حازوه من علم وفضل وحسنٍ ذكر بما لم يزين المال من ابتلي بنسل سوء و لم يدفع عنه مقالة السوء .

﴿ **وَعَلَّمْنَاهُ من لَّدُنَّا علماً** ﴾ (الكهف:٦٥).

تقدم قوله: {**مَن لدنا**} على المفعول به {**علماً**} هذا التقديم يفيد أمرين أولهما أنه تقديم بشرف النسبة حيث أضيف إلى الله سبحانه وتعالى ولهذا بدئ بـــ{**من لدنا**} الثاني : أن يكون للاختصاص أي أن هذا العلم يختص بالله تعالى ويتعلم منه وقفاً عليه سبحانه .

﴿**قَالَ لَهُ مُوسَى هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْداً**﴾(الكهف:٦٦).

---

(١) تفسير القرطبي ج١٠ ص٢٥٨.

(٢) القاسمي ج٧ ص ٣٩.

تقدم قول موسى -عليه السلام - {**هل أتبعك**} على طلبه {**أن تعلمن**}، ليثبت كونه تابعاً له أولاً ، وهذا منه ابتداء بالتواضع والخدمة وتعظيمه لأرباب العلم ، وهذا منه غاية في الأدب، وخير شفيع لإجابة طلبته ونواله حاجته .

﴿ **أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْباً** ﴾(الكهف :٧٩) .

قال الزمخشري: "فإن قلت : قوله: {**فأردت أن أعيبها**} مسبب عن خوف الغصب عليها فكان حقه أن يتأخر عن السبب ، فلم قدم عليه ؟ قلت: النية به التأخير، وإنما قدم للعناية ، ولأن خوف الغصب ليس هو السبب وحده ، ولكن مع كونها للمساكين وقد علق بعض شراح الزمخشري بقوله: "وكأنه جعل السبب في إعابتها كونها لمساكين ثم بين مناسبة هذا السبب للمسبب بذكر عادة الملك في غصب السفن وهذا هو حد الترتيب في التعليل أن يرتب الحكم على السبب ثم يوضح المناسبة فيما بعد، فلا يحتاج إلى جعله مقدماً والنية تأخيره ". [1]

أقول: إن التفاتة الزمخشري لا تخلو من وجه حسن من وجوه البلاغة لايتعارض مع ما ذكره الشارح ، نعم نحن في حياتنا عندما يلام الإنسان على أمر من الأمور فإنه لتمكنه من براءته فيما نسب إليه ، يقر بفعله أولاً ، ثم يبدأ بعد ذلك في ذكر السبب والدافع فيقول مثلاً : نعم أنا هاجمت فلاناً ، أو لم أجب دعوة فلان لسبب كذا وكذا وهذا فيما يبدو لي ، يؤيد القول بالتقديم والتأخير الذي ذهب إليه الزمخشري ، لما فيه من الإثارة والتشويق لمعرفة سبب الفعل ، ولهذا قدم قوله : {**أما السفينة فكانت لمساكين يعملون في البحر فأردت أن أعيبها**} ليثير الفضول، ويشوق المستمع لمعرفة السبب.

﴿ **وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَاناً وَكُفْراً ۝ فَأَرَدْنَا أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْراً مِّنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْماً ۝ وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحاً فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْراً** ﴾ (الكهف:٨٠-٨٢) .

---

(١) الكشاف ج٢ ص٧١٢.

جاء الترتيب في هذه الآيات ترتيباً زمانياً حسب الوقائع والأحداث التي مرت مع موسى والخضر ، فبدأ أولاً بقصة ما وقع له أولاً وهو ذكر السفينة ثم الغلام ثم الجدار .

﴿قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْماً﴾ (الكهف :٩٥)، تقدم هنا إضافة الظرف إلى ضمير المخاطبين في قوله: {**بينكم**} على إضافته إلى ضمير يأجوج ومأجوج {**بينهم**} لإظهار كمال العناية بمصالحهم كما في قولهم: ﴿ **بَيْنَنَا وَبَيْنَهُم سَدّاً** ﴾ (الكهف:٩٤) .

سورة مريم

لما ذكر الله سبحانه تعالى في سورة الكهف قوله:﴿ **أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَباً**﴾ (الكهف:٩)، ثم أورد خبرهم ثم قصة الرجلين صاحب الجنة وصاحبه ثم قصة موسى والخضر ثم قصة ذي القرنين أتبع سبحانه في سورة مريم قصصاً أخرى تضمنت من العجائب ما هو أشد عجبا، فافتتح سورة مريم بيحيي وزكريا وبشارة زكريا به بعد الشيخوخة وانقطاع الرجاء حتى أنه سأل متعجباً﴿ **أَنَّى يَكُونُ لِي غُلامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِراً وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الكِبَرِ عِتِياً**﴾ (مريم:٨) فجاء الجواب ﴿ **قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئاً** ﴾ (مريم:٩)، ثم ذكر ما هو أعجب وهو قصة عيسى - عليه السلام - في خلقه بغير أب وهذا أشد إعجازاً .

﴿ **ذِكْرُ رَحْمَةِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا** ﴾ (مريم :٢)، تقدمت هنا الصفة على {**عبده**} على المسمى{ **زكريا**} وهذا التقدم للثناء عليه وتشريفه بالإضافة إلى ربه إضافة العبودية والتسليم والطاعة وما تثمره من موالاة الرب لمن هذه صفته من عباده .

﴿ **فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِياً** ﴾ (مريم:٥) .

تقدم الجاران {**لي**} و {**من لدنك**} على المفعول به {**ولياً**} ، أما تقديم الأول {**لي**} لكون مدلوله أهم عند زكريا - عليه السلام - وأما قوله من {**لدنك**} فإن تقدمه هنا للاستعطاف والتعرض لكرمه سبحانه بما فيه من طمع في رحمته وحسن ظن بربه وإيمان بأنه سبحانه وحده هو القادر على ذلك الإعطاء لا غيره كما فيه نوع من التشويق لمعرفة المستوهَب المتأخر .

﴿ **فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْناً** ﴾ (مريم:٢٦) .

تقدم الأكل على الشرب كما هو متبع في عادة الناس من تقديم الأكل على الشرب وخاصة بالنسبة للنفساء التي هي أحوج للغذاء منها للشراب، وكذلك لمجاورة قوله تعالى :{ **تساقط عليك رطباً جنياً**} .

قال الرازي في المسألة السادسة: "قدم الأكل على الشرب لأن احتياج النفساء إلى أكل الرطب أشد من احتياجها لشرب الماء لكثرة ما سال منها من الدماء ثم قال : {**وقري عينا**} وههنا سؤال وهو أن مضرة الخوف أشد من مضرة الجوع والعطش والدليل عليه أمران:

أحدهما : أن الخوف ألم الروح، والجوع ألم البدن وألم الروح أقوى من ألم البدن.

الثاني : ما روي أنه أجيعت شاة ثم قدم العلف إليها وربط عنده ذئب فبقيت الشاة مدة مديدة لا تتناول العلف مع جوعها الشديد خوفاً من الذئب ثم كسرت رجلها وقدم العلف إليها فتناولت العلف مع ألم البدن، فدلت هذه الحكاية على أن ألم الخوف أشد من ألم البدن.

إذا ثبت هذا فنقول: فلم قدم الله في الحكاية دفع ضرر الجوع والعطش على دفع ضرر الخوف؟ والجواب أن هذا الخوف كان قليلاً لأن بشارة جبريل - عليه السلام - كانت قد تقدمت فما كانت تحتاج إلى التذكير مرة أخرى". [1]

وأقول: ما كان أغنى الرازي عن ذكر هذه الحكاية التي رواها بصيغة التمريض ليثبت من خلالها أن ألم الروح أشد من ألم الجوع ، فما ذكره عن الحيوان معروف مشهور عند بني الإنسان من ذهاب الشهية وعدم الرغبة في الطعام والشراب عند الخوف وذهاب الأمن.

﴿ إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴾ (مريم : ٤٠).

تقديم الجار والمجرور{**إلينا يرجعون**}لإفادة القصر: أي لا يرجعون إلا إلى الله وحمله التهديد لغير المسلمين والتذكير والاهتمام للمسلمين .

﴿ يَا أَبَتِ لاَ تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِياً ﴾(مريم: ٤٤).

تقدم الجار والمجرور {**للرحمن**} على خبر كان {**عصيا**} وهذا التقديم فيه من الجمال ما يأتي، البداءة بذكر من عُصي لتعظيم الجرم فعظمة الجرم والذنب تكون بعظمة من يُعصى، الإنكار والاستغراب أن يعصى الرحمن ولهذا

---

(١) مفاتيح الغيب ج٢١ ص٢٠٧.

قدم في الذكر، فكأنه يقول له: إن معصية غير الله قد يكون لها ما يبررها ، أما معصية الله فهذا ما لا يتصور ، كما أن فيه حسن فاصلة تناغمت بـها السورة من أولها إلى آخرها.

﴿ يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِياً ﴾ (مريم:٤٥)، يرتبط التقديم والتأخير في هذه الآية بتفسير كلمة {**وليا**} وما هو المعنى المقصود بـها فإذا قلنا بأن {**ولياً**} هنا معنى بمعنى متابعاً ومصادقاً وناصراً ، ومنه قوله تعالى في الآية الواحدة والخمسين من سورة المائدة: {**ومن يتولهم منكم فإنه منـهم**} ففي الآية تقديم وتأخير تقديره [**إني أخاف أن تكون ولياً للشيطان بمعنى فيمسك عذاب من الرحمن**] ، وإذا فسر {وليا} هنا بمعنى قريناً تليه ويليك في العذاب ، وهذا إنما يكون في الآخرة ، فليس في الآية تقديم ولا تأخير .

وفي الآية تقديم وتأخير آخر سواء قلنا بالمعنى الأول أو الثاني لكلمة {**وليا**} وهو تقديم قوله :{**للشيطان**} على خبر تكون {**ولياً**}، وهذا التقديم للتنفير والاستقباح بتقديم ذكر الشيطان الذي ينبغي أن يطلب الفرار منه كل أحد وأن يعاديه كل أحد قال تعالى: **﴿ وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ﴾** (المؤمنون:٩٧،٩٨) .

﴿ قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ ﴾ (مريم :٤٦) .

قدم الخبر {**أراغب**} على المبتدأ {**أنت**} لأنه الأهم والأعنى عند أبي إبراهيم، وفيه ضرب من التعجب والإنكار لرغبته عن آلهته، وأن آلهته ما ينبغي أن يرغب عنها أحد .

﴿ قَالَ سَلَامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِياً ﴾ (مريم:٤٧) .

لم تقدم قول إبراهيم : {**سلام عليك**} على قوله: {**سأستغفر لك ربي**} مع أن سلام الآخرة وهو الاستغفار أهم من سلام الدنيا ؟

وأقول: بأن إبراهيم – عليه السلام– إنما بدأ بالعاجل القريب استعجالاً لتطمين أبيه ، وثانياً : لأن أباه كان كافراً لا يؤمن بنبوة إبراهيم ولا بإله إبراهيم ومن هنا أخر الاستغفار لكونه غير مقدم في الاهتمام بالنسبة إلى أبيه . وقد تقدم في الآية الجار والمجرور {**لك**} على المفعول به {**ربي**} لبيان شدة اعتنائه بأبيه واهتمامه به ، ولهذا قدم ذكره إذ إنه من المعلوم أن إبراهيم – عليه السلام – لا يستغفر إلا ربه .

﴿ وَيَقُولُ الإِنسَانُ أَئذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَياً ۰ أَوَلا يَذْكُرُ الإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئاً ﴾ (مريم :٦٦،٦٧) .

توسطت همزة الإنكار هنا بين العاطف **{أولا يذكر الإنسان}** وبين المعطوف عليه **{ويقول الإنسان}** مع أن الأصل أن يتقدم الإنكار المعطوف والمعطوف عليه وإنما توسط الإنكار هنا للدلالة على أن المنكر هنا هو المعطوف وأن المعطوف عليه إنما نشأ منه .

سورة طه

لما ذكر سبحانه قصة إبراهيم - عليه السلام- وما منحه وأعطاه ثم عقب بعده بذكر قصص الأنبياء وما حباهم به من التكريم والتشريف وأعقب ذلك بقوله:﴿ **أُوْلَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ مِن ذُرِّيَّةِ آدَمَ**﴾ (مريم :٨٥)، ثم جاء قوله تعالى : ﴿ **فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلاَةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَياً** ﴾ (مريم :٥٩)، وكان هذا مظنة إشفاق وخوف فجاءت سورة طه بياناً لرحمة الله بالنبي - عليه السلام - وبيان شرف منــــزلته عند الله سبحانه وتعالى ولما ختمت سورة مريم بقوله: ﴿ **وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هَلْ تُحِسُّ مِنــــهُم مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزاً** ﴾ (مريم :٩٨) .
﴿ **وَتُنذِرَ بِهِ قَوْماً لُّداً** ﴾ (مريم:٩٧) فقد أشفق النبي ﷺ من تأخر قريش عن الإسلام أن يدركهم الهلاك واعتراه لذلك القلق والخوف فجاءت سورة{ **طه** }مصدرة بتطمينه ﴿**مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى**﴾(طه :٢).

وفي ختام سورة مريم بقوله تعالى: ﴿ **فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِ قَوْماً لُّداً . وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هَلْ تُحِسُّ مِنــــهُم مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزاً** ﴾ (مريم:٩٧،٩٨)، وبدئت سورة طه بــ ﴿ **مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى ،إِلاَّ تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَى**﴾ (طه:٢،٣).

والختام والبدء هنا على سواء في تذكير النبي- صلوات الله وسلامه عليه بأنه ليس مسؤولاً عن هداية الناس وحملهم على الإيمان قسراً وإنما دعوته هي تبليغ رسالة ربه.

﴿ **تَنزِيلاً مِّمَّنْ خَلَقَ الأَرْضَ وَالسَّمَوَاتِ الْعُلَى** ﴾ (طه :٤) .

تقدم ذكر الأرض على السماء هنا لأنــــها سيقت في مجال ذكر الرحمة بتنــــزيل الكتاب لأهل الأرض وما فيه من الترفق بأهلها ، ثم أتبعها بذكر السماء على سبيل الترقي، ولذلك قدمت السموات على الأرض عند نسبة ملكها إلى الله عز وجل من باب تقديم الأشرف﴿ **لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَمَا بَيْنَــــهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَى**﴾ (طه:٦).

وللبيضاوي رأي آخر قال : فبدأ بخلق الأرض والسموات التي هي أصول العالم ، وقدم الأرض لأنـــها أقرب إلى الحس وأظهر عنده من السموات العلى.[1]

{ واجعلْ لي وزيراً منْ أهلي • هارونَ أخي} .

وعلى وجه إعراب – وزيرا و هارون– مفعولين لجعل ، فقد قدم الثاني اعتناء بأمر الوزارة .

﴿ كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيراً • وَنَذْكُرَكَ كَثِيراً ﴾ (طه :٣٣،٣٤) .

قال الألوسي: "و تقديم التسبيح على الذكر من باب تقديم التخلية على التحلية ، قال: وقيل: لأن التسبيح تنـــزيه عما لا يليق ومحله القلب والذكر ثناء بما يليق ومحله اللسان والقلب مقدم على اللسان".

وأقول: لا يستقيم القول بأن هذا من باب تقديم القلب على اللسان لأن التسبيح محله القلب والذكر محله اللسان، لأن حقيقة الذكر إنما هو الذكر النابع من القلب والذي يترجم عنه اللسان فالذكر محله القلب أيضاً ،ثم إن التسبيح نوع من الذكر أيضاً ورد في فضله الكثير من الأحاديث، إذن لماذا تقدم التسبيح على الذكر وإن كان من جملته؟

أقول: إن التسبيح له معنيان معنى الذكر ومنه قوله سبحانه :**﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ ﴾**(الإسراء:٤٤) **﴿ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلاً﴾**(الأحزاب :٤٢) وقوله تعالى: **﴿ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلاً﴾** (الفتح:٩) وصدر سورة الحديد والحشر والصف والجمعة والتغابن ومعنى تنـــزيه الله عن كل ما لا يليق به سبحانه ، تنـــزيهه عن كل عيب ونقص ، هذا التنـــزيه يكون بالفعل والقول والاعتقاد، وقد جاء بذلك كثير من آي القرآن التي تنـــزه الله عما اعتقده أو قاله أو فعله الجاهلون ، فمنه قوله تعالى : **﴿ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلاَّ بَشَراً رَّسُولاً ﴾**(الإسراء:٩٣)، **﴿ سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾** (الصافات:١٨٠) ويجمع الأصناف الثلاثة :

قوله تعالى:**﴿ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾** (الزمر:٦٧) ، فالشرك يتضمن القول والاعتقاد والعمل ، ولما كان موسى وهارون – عليهما السلام– في

---

(١) البيضاوي ج٤ ص١٤

زمان ومكان غلب على أهله الشرك والغفلة فلا جرم أن قُدم التسبيح لما له من مزية الاختصاص أو ندرة المشاركة معهما في هذه المقام وهو تنـــزيه الله عن الشرك الذي وقع فيه معظم أهل هذا الزمان .(١)

﴿ **اذْهَبْ أَنْتَ وَأَخُوكَ بِآيَاتِي وَلاَ تَنِيَا فِي ذِكْرِي** ﴾ (طه:٤٢).

تقدم الضمير {**أنت**} العائد على موسى على قوله :{**أخوك**} العائد على هارون وذلك من باب تقديم الفاضل على المفضول .

﴿ **مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى** ﴾ (طه:٥٥).

قال صاحب التحرير: "وتقديم المجرورات الثلاثة على متعلقاتـــها ، فأما المجرور الأول والمجرور الثالث فللاهتمام بكون الأرض مبدأ الخلق الأول والخلق الثاني وأما تقديم {**وفيها نعيدكم**} فللمزاوجة مع نظيريه " .(٢)

وأقول: وقد يكون التقديم لمناسبة ما قبله وهو قوله تعالى: ﴿ **الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ مَهْداً وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلاً وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجاً مِّن نَّبَاتٍ شَتَّى** ﴾ (طه:٥٣) .

﴿**قَالُوا يَا مُوسَى إِمَّا أَن تُلْقِيَ وَإِمَّا أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَى قَالَ بَلْ أَلْقُوا**﴾ (طه:٦٥،٦٦).

قال الرازي : "لم قدمهم في الإلقاء على نفسه مع أن تقديم استماع الشبهة على استماع الحجة غير جائز، فكذا تقديم إيراد الشبهة على إيراد الحجة وجب ألا يجوز، لاحتمال أنه بما أدرك الشبهة ثم لا يتفرغ إدراك الحجة بعده فيبقى حينئذ في الكفر والضلال ، وليس لأحد أن يقول: إن ذلك كان بسبب أنـــهم لما قدموه على أنفسهم ، فهو عليه السلام قابل ذلك بأن قدمهم على نفسه لأن أمثال ذلك إنما يحسن فيما يرجع إلى حظ النفس، فأما ما يرجع إلى الدليل والشبهة فغير جائز والجواب : أنه عليه السلام كان قد أظهر المعجزة مرة واحدة والقوم إنما جاءوا لمعارضته فقال عليه السلام: لو أني بدأت بإظهار المعجزة أولاً فكنت كالسبب في إقدامهم على إظهار السحر وقصد إبطال المعجزة ، وذلك غير جائز، ولكني أفوض الأمر إليهم حتى أنـــهم باختيارهم

---

(١) روح المعاني ج١٦ ص١٨٦.

(٢) التحرير ج١٦ ص٢٤٠.

يظهرون ذلك السحر ،ثم أنا أظهر المعجز الذي يبطل سحرهم ، فيكون على ذلك التقدير سبباً لإزالة الشبهة، وأما على التقدير الأول فإنه يكون سبباً لوقوع الشبهة فكان ذلك أولى ".[1]

﴿ **فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُّوسَى** ﴾ (طه:٦٧).

لما كان المقام هنا لإظهار الخوارق على يديه هو فربما أفهم أنه وقع الخوف في نفس أحد غيره ، فكان المقام للاهتمام بالمتعلق فلذا قال: {**في نفسه**} فقدم ما المقام له والاهتمام به .

ويرى الزركشي أن للتأخير حكمة أخرى ، وهي أن النفس تتشوق لفاعل {**أوجس**} فإذا جاء بعد أن أُخر وقع بموقع .[2]

﴿ **فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سُجَّداً قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَى** ﴾ (طه:٧٠) .

ليس التقديم هنا لمراعاة الفواصل كما ادعاه الزركشي في برهانه ووافقه السيوطي وذهب إليه الألوسي والسمين الحلبي حيث أوغلا في هذا الباب كثيراً وذلك لجملة من الأسباب :

إن القرآن في أسلوبه ونظمه خارج عن كونه شعراً وقد نفى القرآن عن نفسه ذلك في كثير من آي القرآن الكريم ومنه قوله تعالى في سورة يس: ﴿ **وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُّبِينٌ** ﴾(يس :٦٩).

ومنه قوله تعالى في سورة الطور:﴿**أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ** ﴾ (الطور:٣٠)، وقوله تعالى في سورة الحاقة : ﴿ **وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلاً مَّا تُؤْمِنُونَ** ﴾ (الحاقة :٤١)، وهذا لا خلاف فيه لا من جهة النقل ولا من جهة النظر ، ثانياً : إن القول بمراعاة الفاصلة حيث تقديم كلمة وتأخير أخرى من أجل ذلك فحسب يعني ببساطة شديدة الاهتمام بالأسلوب على حساب المعنى ، وهو دليل عدم تمكن ونقص إبداع من ناحية أخرى ، وهذا إن جاز في الشعر ضرورة فلا يجوز على من هذا كلامه وهو الله سبحانه وتعالى الذي

---

(١) مفاتيح الغيب ج٢٠ ص[illegible]   (٢) البرهان ج٤ ص٩٣.

لا يعجزه شيء فهل يليق به سبحانه أن نقول عنه إنما قدم هذه وأخر تلك من أجل السجع كيف ؟هل أعوزته الكلمات أو صعب عليه التركيب ؟ حاشاه تعالى عن ذلك كله كيف ؟ وهو القائل عن نفسه في سورة لقمان:﴿ **وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ** ﴾ (لقمان:٢٧) ،ولا يفهم من كلامنا أن الفاصلة ليس لها اعتبار كيف وإنما حسن الشعر بالفاصلة وهو الذي أعطاه مع الوزن جمال الموسيقى، وكذلك نجد طعم الفاصلة في القرآن الكريم حلو المذاق عذب الاستماع بما توحيه مع أحكام التلاوة ومراعاة الوقف والابتداء لتتكاتف كل تلك العوامل في إعطاء الجمال الصوتي والمعنوي أبعاداً تأثيرية مضافة إلى إعجاز القرآن الكريم ، ومن هنا نجد أن القرآن كله في معظمه إنما جاء على الفاصلة ولكنها لم تكن أبداً كفاصلة الشعراء من حيث التكلف والاحتياج أو الحشو والزيادة أو التقديم والتأخير على حساب المعنى .

إن القول بمراعاة الفصل -كما أرى - مع عظيم احترامنا لجلالة وقدر بعض القائلين به لهو ضرب من الخروج عن الفهم الحقيقي لقضية الإعجاز البلاغي للقرآن الكريم والذي عبر عنها الخطابي - رحمه الله - بـهذا التعريف الدقيق حيث قال:" فتفهّم الآن واعلم أن القرآن إنما صار معجزاً لأنه جاء بأفصح الألفاظ في أحسن نظوم التأليف مضمناً أصح المعاني ..ثم يشير الخطابي بعد ذلك إلى سر الإعجاز وأساس البلاغة الذي يكمن في ترتيب الكلام حيث قال: "ثم اعلم أن عمود هذه البلاغة التي تجمع لها هذه الصفات هو وضع كل نوع من الألفاظ التي تشتمل عليها فصول الكلام موضعه الأخص الأشكل به، الذي إذا أبدل مكانه غيره جاء منه إما تبدل المعنى الذي يكون منه فساد الكلام وإما ذهاب الرونق الذي يكون معه سقوط البلاغة ".[١]

وقد حاول مثبتو السجع القائلون بمراعاة الفاصلة إثبات صحة مذهبهم بهذه الآية فهي أقوى ما يستدلون به على صحة مذهبهم

---

(١) بيان إعجاز القرآن الكريم ، ص٢٤-٢٦.

حيث إن الجميع متفق على أن موسى أفضل من هارون ولأجل السجع قيل في هذه الآية التي معنا {هارون وموسى}، ولما كانت الفواصل في موضع آخر بالواو والنون قيل ﴿ وَمُوسَىٰ وَهَارُونَ ﴾ (الأنعام:٨٤)، وقد ذكروا بما أشرت إليه من أن القرآن فيه من السجع الكثير فلابد أن يكون مقصوداً .

وقد عقد الرمّاني باباً في رسالته **{النكت في إعجاز القرآن}** بعنوان باب الفواصل، وقد أبان وأجاد وشرح فأفاد كاشفاً عن ضعف مذهب القائلين بالسجع في القرآن الكريم .والناظر في كلام الرمّاني يدرك للوهلة الأولى أنه فرّق بين الفاصلة وبين السجع ليظهر لنا بوضوح من كلامه أن القائلين بمراعاة الفواصل الذين يرون أن ختام الآية إنما جيء به من أجل الفاصلة هم القائلون بالسجع ، وإن قالوا بالفاصلة حيث إن تعريف الفاصلة عند الرمّاني يتفق تماماً مع ما ذكرناه من أن الفاصلة ما جاءت إلا لمعنى جيء مختوماً به ختاماً حسُن شكله ومبناه كما حسُن مضمونه ومحتواه .ولمثل هذا الذي ذهبت إليه وجدت قول ابن الأثير في حديثه عن السجع حيث عرفه بأنه **[تواطؤ الفواصل في الكلام المنثور على حرف واحد]**، ثم يفرق ابن الأثير بين السجع المذموم والمحمود رداً على الذين أنكروه وذموه مستشهداً بما ورد في القرآن الكريم بالآيتين ٦٤، ٦٥من سورة الأحزاب والآيات من ١- ٨من سورة طه والآيات من ٥-٧ سورة ق ، والآيات من ١- ٥سورة العاديات ، ثم يقول- وهو معنى ما ذكرته سابقاً- :

" فإذا صفي الكلام المسجوع من الغَثاثة والبَرْد فإن وراء ذلك مطلوباً آخر، وهو أن يكون اللفظ فيه تابعاً للمعنى ، لا أن يكون فيه المعنى تابعاً للفظ، فإنه يجيء عند ذلك كظاهر مموه ، على باطن مشوه، ويكون مثله كغمد من ذهب على نصل من خشب ، وكذلك يجري الحكم في الأنواع الباقية الآتي ذكرها من التجنيس والترصيع ، وغيرهما"[١]

ومع أن ابن الأثير قد أحسن في تعريف السجع ، وأجاد في بيان المحمود فيه من المذموم إلا أنه عند تطبيق ذلك في القرآن نجده لم يخرج عن مذهب

---

(١) النكت في إعجاز القرآن ص ٨٩-٩٠.

القائلين بالسجع فعند حديثه عن النوع التاسع - التقديم والتأخير - نجده يعترض على الزمخشري في دعوى الاختصاص ما في الآيات٦٤، ٦٥، ٦٦من سورة الزمر والآيتان ٦٧، ٦٨من سورة طه والآيات ٣٠،٣١،٣٢ من سورة الحاقة وما كان جوابه عند اعتراضه إلا القول بمراعاة نظم الكلام وتحسينه بالتقديم والتأخير، فجاء بالإعادة والتكرير لقول سابقيه من علماء البلاغة والتفسير .

وكذا يقول الرمّاني:"الفواصل حروف متشاكلة في المقاطع توجب حسن إفهام المعاني والفواصل بلاغة والأسجاع عيب ، وذلك أن الفواصل تابعة للمعاني، وأما الأسجاع فالمعاني تابعة لها ".

يتبين لنا من خلال قول الرمّاني مدى الخلط الذي وقع فيه القائلون بالفواصل وهم في الحقيقة إنما يقولون بالسجع ، يتابع الرمّاني حديثه عن الأسجاع قائلاً: وهو قلب ما توجبه الحكمة في الدلالة ، إذ كان الغرض الذي هو حكمة إنما هو الإبانة عن المعاني التي الحاجة إليها ماسة ، فإذا كانت المشاكلة وصلة إليه فهو بلاغة ، وإذا كانت المشاكلة على خلاف ذلك فهو عيب ولُكنة ، لأنه تكلف من غير الوجه الذي توجبه الحكمة ومثَله مثل من رصع تاجاً ثم ألبسه زنجياً ساقطاً أو نظم قلادة در ثم ألبسها كلباً وقبح ذلك وعيبه بيّن لمن له أدنى فهم ...وفواصل القرآن كلها بلاغة وحكمة لأنـــها الطريق إلى إفهام المعاني التي يحتاج إليها في أحسن صورة يدل بـــها عليها. ثم يعرف الرمّاني السجع بقوله: "وإنما أخذ السجع في الكلام من سجع الحمامة ، وذلك أنه ليس فيه إلا الأصوات المتشاكلة ، كما ليس في سجع الحمامة إلا الأصوات المتشاكلة". [1]

وقد عقد أبو بكر الباقلاني فصلاً في كتابه - إعجاز القرآن - للرد على القائلين بذلك، وقد اختصرت ما ذكره في هذه النقاط التي وجدتني قد ذكرت طرفاً منها آنفاً :

---

(١) المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر ج١ ص٢١٠ ،٢١٣ ، وينظر في النوع التاسع من ص٢١٠- ٢١٩.

- لو كان القرآن سجعاً لكان غير خارج عن أساليب كلامهم ، ولو كان داخلاً فيها لم يقع بذلك إعجاز ، ولو جاز أن يقولوا سجع معجز لجاز أن يقولوا شعر معجز .

نفى القرآن عن كونه شعراً ومن باب أولى أن نفي السجع الذي كان يتعاطاه الكهان .

- إنكار النبي ﷺ السجع لمن كلموه به في شأن الجنين كيف ندي من لا شرب ولا أكل ولا صاح ولا استهل أليس دمه قد يُطَلّ ؟ فقال {**أسجاعة كسجاعة الجاهلية ؟** } وفي بعضها {**أسجعاً كسجع الكهان؟**}.

- السجع من الكلام يتبع المعنى فيه اللفظ وليس ذلك مما هو في تقدير السجع في القرآن .

متى ارتبط المعنى بالسجع ، كانت لإفادة السجع كإفادة غيره ومتى انتظم المعنى بنفسه دون السجع كان مستجلباً لتحسين الكلام دون تصحيح المعنى .

-على افتراض وقوع شيء من ذلك في القرآن فإنه لا يعد سجعاً كالبيت الواحد من الشعر والبيتين من الرجز وكذلك حال ما يزعمونه من السجع .

- لو كان ما في القرآن سجع لكان من السجع المرذول لأن السجع له منهج مرتب والخروج عنه خروج عن الفصاحة وهذا مما ينــزه عنه القرآن الكريم .

وتقديم موسى على هارون ثابت في القرآن في مواضع عديدة لما له من الأفضلية ، فهو رسول الله من أولي العزم من الرسل بعث معه هارون مصدقاً ومعيناً ، وقد سبق الإشارة إلى ذلك في الآية الثانية والأربعين ومنه أيضاً قوله تعالى في سورة الأنعام بعدما ذكر إبراهيم -عليه السلام- :

﴿ **وَمِن ذُرِّيَّتِهِ دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ** ﴾ (الأنعام:٨٤)، ومنه قوله تعالى في سورة الأعراف : ﴿ **قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ** ﴾ (الأعراف:١١١)، ومنه قوله تعالى في الآية ١٢٢ من نفس السورة {**رب موسى وهارون** } حيث قدم ذكر موسى على هارون .

وقد ذكر السيوطي أن جمهور أهل العلم لا يقولون بالسجع حيث قال: "وهل يجوز استعمال السجع في القرآن ؟ خلاف: الجمهور على المنع لأن أصله من سجع الطير ، فشُرِّف القرآن أن يستعار لشيء منه لفظ أصله مهمل ، ولأجل تشريفه عن مشاركة غيره من الكلام الحادث في وصفه بذلك،ولأن القرآن من صفاته تعالى ، فلا يجوز وصفه بصفة لم يرد الإذن بـــها".[1]

وقد ذهب صاحب المنار إلى ما ذهبنا إليه ، فقد نقل قول الباقلاني عن وجوه إعجاز القرآن الكريم حيث قال: "وبقي علينا أن نبين أنه - يقصد القرآن الكريم - ليس من باب السجع ولا فيه شيء منه ، وكذلك ليس من قبيل الشعر لأن من الناس من زعم أنه كلام مسجع" .[2]

وعن التقديم والتأخير في هذه الآية قال البيضاوي: " قدم هارون لكبر سنه أو لروي الآي ، أو لأن فرعون ربى موسى في صغره فلو اقتصر على موسى أو قدم ذكره لربما توهم أن المراد فرعون وذكر هارون على الاستتباع ".[3]

﴿ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ قَدْ أَنجَيْنَاكُم مِّنْ عَدُوِّكُمْ وَوَاعَدْنَاكُمْ جَانِبَ الطُّورِ الأَيْمَنَ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى ﴾ (طه:٨٠) .

قال أبوحيان: "وبدأ بإزالة ما كانوا فيه من الضرر من الإذلال والخراج والذبح وهي آكد أن تكون مقدمة على المنفعة الدنيوية ، لأن إزالة الضرر أعظم من النعمة بإيصال تلك المنفعة، ثم أعقب ذلك بذكر المنفعة الدينية وهو قوله : **{وواعدناكم جانب الطور الأيمن} {إذ أنزل على نبيهم موسى كتاباً فيه بيان دينـــهم وشرح شريعتـــهم}**.[4]

﴿ وَلَوْلا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَكَانَ لِزَاماً وَأَجَلٌ مُّسَمًّى ﴾ (طه :١٢٩).

قال ابن عطية: " فإنَ قوله: **{وأجلَ مسمى}** معطوف على **{كلمة}** ولهذا رفع والمعنى **{ولولا كلمة سبقت من ربك}** في التأخير **{وأجل مسمى}** لكان العذاب لزاماً لكنه قدم وأخر لتشتبك رءوس الآي".[5]

---

(١) معترك الأقران في إعجاز القرآن ، ج١ ص٢٥.

(٢) المنار ج٥ ص٢٩١.

(٣) البيضاوي ج٤ ص٦١.

(٤) البحر المحيط ج٦ ص٢٤٦.

(٥) المحرر الوجيز ج١٠ ص١١١.

سورة الأنبياء

لما ختمت سورة { طه} بإنذارهم بأنـــهم سيعلمون الشقي من السعيد **﴿ قُلْ كُلٌّ مُّتَرَبِّصٌ فَتَرَبَّصُوا فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَابُ الصِّرَاطِ السَّوِيِّ وَمَنِ اهْتَدَى ﴾** (طه :١٣٥)، وهذا العلم قد يكون في الدنيا بكشف الغشاوة عن العين والظلمة عن القلب فيدركون بالإيمان صدق ذلك ، وقد يكون بمعاينة ظهور الدين وأخرى عند معاينة الموت ليعلم كل فريق حقيقة ما يؤول إليه، وتارة أخرى ببعثها يوم الدين ، افتتحت هذه السورة بأبين ذلك وهو يوم الدين الذي يكشف فيه الغطاء عن كل شيء ويصير الخبر حقيقة مرئية ولهذا بدأت سورة الأنبياء بقوله:**﴿ اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُــهم وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ﴾** (الأنبياء : ١)، قال تعالى :**﴿ لاَ يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ . يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلاَ يَشْفَعُونَ إِلاَّ لِمَنِ ارْتَضَى وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ ﴾**(الأنبياء:٢٧،٢٨) .

تقديم الجار والمجرور {**وهم بأمره يعملون**} لإفادة القصر أي لا يعملون عملاً إلا عن أمر الله تعالى، وكذلك الجار والمجرور{**من خشيته**} على خبر المبتدأ {**مشفقون**} لإفادة القصر مع ما فيه من تحسين الفواصل، ونظيره قوله تعالى في نفس السورة :**﴿ كُلٌّ إِلَيْنَا رَاجِعُونَ﴾** (الأنبياء:٩٣)، وقوله:**﴿ وَإِنَّا لَهُ كَاتِبُونَ﴾** (الأنبياء:٩٤)، **﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجاً سُبُلاً لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴾**(الأنبياء:٣١) .

قدم فجاجاً وهو وصف حيث إن أصل التركيب {**سبلاً فجاجا**} أي واسعة فلما قدم صار حالاً ليدل على أنه حين خلقها خلقها كذلك .

أما قوله :**﴿ وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفاً مَّحْفُوظاً وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ﴾** (الأنبياء:٣٢) .

تقديم الجار والمجرور{**عن ءاياتــها**} على خبر المبتدأ { **معرضون** } ليس للإفادة القصر فقد ثبت إعراضهم عن غيرها من الآيات، فالتقديم هنا لمراعاة الفواصل،ونظيره قوله تعالى: **﴿ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ﴾**(الأنبياء:٩٦).

﴿ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ ﴾ (الأنبياء:٣٣).

تقدم ذكر الشمس على ذكر القمر في أغلب المواضع في القرآن في هذا الموضع وفي قوله تعالى في الأعراف: ﴿ **وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ**﴾ (الأعراف:٥٤) ، وفي سورة إبراهيم ﴿ **وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ والْقمر دَائِبَيْنِ** ﴾ (إبراهيم :٣٣) ، وفي سورة فصلت﴿ **وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ**﴾ (فصلت:٣٧)، وفي سورة الرحمن ﴿ **الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ** ﴾ (الرحمن:٥)، وسبب هذا التقديم والله أعلم أن الشمس ظهورها أكثر من ظهور القمر الذي يختفي محاقاً ثم يظهر هلالاً غير مرئي بينما الشمس ظاهرة على الدوام ، كما أن الشمس ترى أكثر للناظرين حيث الناس في اليقظة، بينما في الليل لا يرى القمر في الغالب الأعم إلا للقليل من الناس حيث إن أكثرهم نائمون ، وقد يكون التقدم لأن الشمس أكبر من القمر وضياؤها أقوى أو أن خلقها أسبق، أو أن انتفاع الناس بالشمس أكثر أو كما يقول علماء الفلك إن صح قولهم إن القمر إنما يستمد نوره من نور الشمس ، فإن قيل فما السبب في مخالفة هذا الترتيب في سورة نوح في قوله تعالى: ﴿ **وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُوراً وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجاً** ﴾ (نوح:١٦) .

أقول: إن مخالفة هذا الترتيب بتقديم القمر على الشمس إنما جاء لعدة اعتبارات، أولاً : إن الليل كان أسبق من النهار في الذكر في الآية الخامسة { **قال رب إني دعوت قومي ليلاً ونـــهاراً** }، ومن أجل ذلك ناسب تقديم القمر على الشمس ليكون على طريقة اللف والنشر ،وفي هذا التقديم مناسبة شديدة لحال نوح الذي أرسله الله وقد أطبق الكفر وأظلم على وجه الأرض كلها ، ولم يكن هناك مؤمن غيره ، فكان هو كالقمر المنير في ظلام هذا الليل المستطير فناسب تقديم أولى الأمرين شبـــها به . ولسنا مع الكبيسي من أن التقديم من أجل موافقة السجع وأيد كلامه بأن الآية الثامنة عشرة وهي قوله : {**ثم يعيدكم فيها ويخرجكم إخراجاً**} والآية العشرين{**لتسلكوا منها سبلاً فجاجاً**} تنتهي بنفس قافية كلمة سراجاً. [(١)]

أقول: ولو عكس التقديم فتقدمت الشمس على القمر وانتهت الآية بكلمة {**نوراً**} وليس{**سراجاً**} كما هي لوجدنا سجعاً آخر يستقيم مع

---

(١) مجلة الحكمة ص٩٣.

كلمة{**نوراً**} حيث انتهت كثير من الآيات بنفس حرف الراء{**الراء المفتوحة**} وهي من الآية الخامسة وحتى الآية الثالثة عشرة ومن الآية الواحدة والعشرين وحتى الثالثة والعشرين ومن الخامسة والعشرين وحتى الثامنة والعشرين .

﴿ وَهَذَا ذِكْرٌ مُبَارَكٌ أَنزَلْنَاهُ ﴾ (الأنبياء:٥٠) .

تقدمت هنا الصفة المفرد {**مبارك**} على الصفة الجمع { **أنزلناه**}، وقد أفاد ذلك التقديم أيضاً أن البركة ثابتة له قبل النـــزول وبعده فهي ذاتية فيه .

﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِه عَالِمِينَ ٠إِذْ قَالَ لأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ﴾ (الأنبياء:٥١،٥٢)تقدم ذكر أبي إبرهيم. – عليه السلام – على قومه في قوله: {**إذ قال لأبيه وقومه**} وهذا التقديم يرتبط بفقه الدعوة الإسلامية حيث يبدأ الداعي بالأقرب فالقريب ، ومن ذلك الآية السادسة من سورة التحريم{ **يا أيها الذين ءامنوا قوا أنفسكم وأهليكم ناراً وقودها الناس والحجارة**} ولذا بدأ النبي ﷺ دعوته بأهل بيته أولاً ، ثم أقاربه وأصدقائه ثم أهل مكة ثم سائر العرب ثم إلى كافة الناس، وقد ذكر ابن القيم خمس مراتب للدعوة : الأولى : النبوة ، الثانية : إنذار عشيرته الأقربين ، الثالثة : إنذار قومه ، الرابعة : إنذار قوم ما أتاهم من نذير من قبله وهم العرب قاطبة ، والخامسة : إنذار جميع من بلغته دعوته من الجن والإنس إلى آخر الدهر.[1]

﴿ أَأَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ ﴾ (الأنبياء:٦٢) .

سبق أن ذكرت في الفصل الرابع من الباب الأول أن الاستفهام يدخل على الاسم والفعل، ويكون المبدوء به هو المشكوك فيه فإذا قلت أفعلت كذا؟ فبدأت بالفعل كان الشك في الفعل نفسه وكان غرضك من استفهامك أن تعلم وجوده وإذا قلت أأنت فعلت ؟ فبدأت بالاسم كان الشك في الفاعل من هو وكان التردد فيه ، وفي هذه الآية لا شبهة في أنـــهم لم يقولوا له ذلك عليه السلام وهم يريدون أن يقر لهم بأن كسر الأصنام قد كان ولكن أن يقر

---

(١) زاد المعاد جـ١ ص٨٦.

بأنه منه كان ، كيف ؟ وقد أشاروا إلي الفعل في قولهم: {**أأنت فعلت هذا**} فقال عليه السلام نفياً لما طلبوه من نسبة الفعل إليه دون غيره فدل ذلك أن المطلوب التقرير بالفاعل لا الفعل .

﴿ فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلاً آتَيْنَا حُكْماً وَعِلْماً وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ ﴾ (الأنبياء:٧٩)، قدَّم هنا الحكم على العلم مع أنه لا بد من سبق العلم على الحكم ، ولكن لمّا كان السياق في الحكم قدمه فإن قبلها **﴿ وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ ﴾** (الأنبياء:٧٨) .

قال الزمخشري: "**فإن قلت** : لم قدمت الجبال على الطير ؟ قلت: لأن تسخيرها وتسبيحها أعجب وأدل في القدرة وأدخل في الإعجاز لأنــها جماد والطير حيوان".[(١)]

﴿ وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ. فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِن ضُرٍّ وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَى لِلْعَابِدِينَ. وَإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ كُلٌّ مِّنَ الصَّابِرِينَ ﴾ (الأنبياء:٨٣-٨٥) .

وقدم أيوب على إسماعيل مع أنه فرع من إبراهيم وإسماعيل أصل ، لأن أيوب طالت محنته،وطال انتظاره في موقف البلاء سنين،وهو صابر، لم يضجر، أما إسماعيل فقد كان ابتلاؤه ساعة من الزمن ، ثم انجلى الكرب ، وزالت المحنة.

﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَى وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ﴾ (الأنبياء:٩٠).

وفي تقديم ذكر الهبة على إصلاح الزوج بيان بأنــها كانت المطلوب الأعظم لنبي الله زكريا – عليه السلام – فقدمت للاهتمام والاعتناء بمطلوبه ، هذا على تفسير إصلاح الزوج بأنه إصلاحها للإنجاب، ويكون هنا من باب تقديم الغايات على الوسائل ، أو أن الإصلاح هو إصلاح خلقها فيكون قد أخر من باب تقديم الأهم على المهم .

﴿ وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾ (الأنبياء:٩١) .

---

(١) الكشاف ج٣ ص١٢٧.

تقدم هنا ذكر مريم مع أن المسيح أفضل منها لأن السياق في ذكرها في قوله : {**والتي أحصنت فرجها فنفخنا فيها من روحنا**} ولذلك قدّم ابنها عليها في غير هذا الموضع في قوله تعالى :﴿ **وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً وَآوَيْنَاهُمَا إِلَى رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ**﴾ (المؤمنون:٥٠) .

﴿ **وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا يَا وَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ ، إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وَارِدُونَ** ﴾ (الأنبياء:٩٧،٩٨) .

تقدم الخبر على المبتدأ فلم يقل : أبصار الذين كفروا شاخصة ، وهذا التقديم راجع لأمرين:

أولاً: لأنه قدم الضمير {**هي**} ليدل به على أنهم مختصون بالشخوص دون غيرهم من سائر أهل المحشر .

وأما ثانياً: فلأنه إذا قدم الخبر أفاد أن الأبصار مختصة بالشخوص من بين سائر صفاتها من كونها حائرة أو مطموسة أو مزوّرة إلى غير ذلك من صفات العذاب .

تقدم الجار والمجرور{**لها**} على متعلقه {**واردون**} لبيان الاختصاص أي أنهم لا ورود لهم إلا إلى النار ، وليس كما قال السمين: "لتواخي رؤوس الآي" . [1]

﴿ **يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعْداً عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ** ﴾ (الأنبياء:١٠٤) .

قال صاحب التحرير: "وقد رتب نظم الجملة على التقديم والتأخير لأغراض بليغة وأصل الجملة : نعيد الخلق كما بدأنا أول خلق يوم نطوي السماء كطي السجل للكتاب وعدا علينا ، فحول النظم فقدم الظرف بادئ بدء للتشويق إلى متعلقه ، ولما في الجملة التي أضيف إليها الظرف من الغرابة والطباق إذ جعل ابتداء خلق جديد وهو البعث مؤقتاً بوقت نقض خلق قديم وهو طي السماء .

---

(١) الدر المصون ج[illegible] ص١٠١.

وقدم {**كما بدأنا أول خلق**} وهو حال من الضمير المنصوب في {**نعيده**} للتعجيل بإيراد الدليل قبل الدعوى لتتمكن في النفس فضل تمكن . وكل ذلك وجوه للاهتمام بتحقيق وقوع البعث ، فليس قوله : {**يوم نطوي السماء**} متعلقاً بما قبله من قوله تعالى: {**وتتلقاهم الملائكة**} .

وعقب ذلك بما يفيد تحقق حصول البعث من كونه وعداً على الله بتضمين الوعد معنى الإيجاب فعدي بحرف {**على**} في قوله تعالى :{ **وعداً علينا**} أي حقاً واجبا"[1]

(١) التحرير ج١٧ ص ١٥٨ ٢٢:٣٤.

سورة الحج

لما ختمت سورة الأنبياء بالحديث عن يوم القيامة والترهيب من حدوثه ووصفه بالفزع من الآية السادسة والتسعين وحتى الآية الرابعة بعد المائة. ابتدأت هذه السورة بالحديث عن يوم القيامة ووصف هوله وأحداثه الجسام العظام وبيان حجم هذا الفزع وشدته في قوله تعالى: {**يا أيها الناس اتقوا ربكم إن زلزلة الساعة شيء عظيم • يوم ترونـــها تذهل كل مرضعة عما أرضعت وتضع كل ذات حمل حملها وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد**} [1] وابتدأت الأمر بالتقوى المترتبة على حدوث ذلك الخوف من أهوال ذلك اليوم .

قال تعالى :﴿ **يا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ البَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ من نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ من مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّى وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ العُمُرِ لِكَيْلاَ يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئاً وَتَرَى الأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا المَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ** ﴾ (الحج:٥) .

الترتيب في هذه الآية ترتيب وجودي لابتداء خلق الإنسان وتطوره في سبع مراحل وهي التراب ، والنطفة ، والعلقة ،والمضغة ، والإخراج طفلاً ، وبلوغ الأشد والتوفي أو الرد إلى الهرم . وفيها تقدم قوله :{**منكم من يتوفى**} على قوله: {**ومنكم من يرد إلى أذل العمر**} لأن القليل هو الذي يرد إلى أرذل العمر وأغلبـــهم يموت قبل أن يدركه ، وبدأ بذكر المخلقة لأنـــها أدل على القدرة وأبين في الاستدلال على القدرة .

﴿**يَدْعُو مِن دُونِ اللَّهِ مَا لاَ يَضُرُّهُ وَمَا لاَ يَنفَعُهُ ذَلِكَ هُوَ الضَّلالُ البَعِيدُ** ﴾ (الحج :١٢).

---

(١) الكشاف جـ٣ ص١٥٤.

تقدم الضر على النفع إشارة إلى أنه أبى الإيمان توهماً أن سبب الضر الذي لحقه من الأصنام بسبب تركه لها وإقباله على الإسلام .

﴿يُصبُّ من فوقِ رُءُوسِهِمُ الحَميمُ يُصهَرُ به مَا في بُطونهم والجُلُود﴾ (الحج:١٩،٢٠) ، وفي تقديم البطون على الجلود هنا عدة اعتبارات ، منها أن يكون الحميم من شدة حرارته قد احترق الباطن أولاً عندما صب فوق رؤوسهم مع أن ملابستها على العكس ، أو لأن خراب الباطن من كفر وشرك ومعاصي كان هو الدافع لخراب الظاهر ومن ثم بدئ به .

أو كما ذكر الألوسي: أن التأثير في الظاهر غني عن البيان وإنما ذكر للإشارة إلى تساويهما ولذا قدم الباطن لأنه المقصود الأهم ".

﴿ شَيْئاً وَطَهِّرْ بَيْتِيَ للطَّائفِينَ وَالْقَائمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ﴾ (الحج:٢٦)، قدم الطائفين لأن سياق الآية في عظم العناية بالبيت والطائفون أقرب ما يكونون إليه فلهذا قدمهم ، ثم ثنى بالقائمين لأنه يلي الطواف في الرتبة لأن القيام يشملهما جميعاً.

﴿ وَأَذِّن في النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالاً وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ من كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴾ (الحج :٢٧).

تقدم الرجال على الركبان في هذه الآية وذلك راجع إلى أن أجر الراجل أعظم من أجر الراكب لما في حجه من عظم المشقة.

قال صاحب الطراز: " فتقديم رجالاً فيه وجهان ، أحدهما أن يكون مقدماً بالرتبة فإن الغالب أن الرجّالة إنما يأتون من الأمكنة القريبة والركبان يأتون من الأمكنة البعيدة فلهذا قدم الرجالة .وثانيهما: أن يكون تقديم الرجالة لأجل الفضل فإن من حج راجلاً أفضل ممن حج راكباً فلهذا قال ابن عباس – رضي الله عنـــهما– وددت لو حججت راجلاً فإن الله قدم الرجالة على الركبان في القرآن ، فدل ذلك على أنه فهم من التقديم في الآية الفضل والمعنيان محتملا في الآية كما ترى".

قال الثعالبي: "وفي تقديم رجالاً تفضيل للمشاة في الحج ، وإليه نحا ابن عباس"**﴿ لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَعْلُومَاتٍ عَلَى مَا رَزَقَهُم مِّنْ بَهِيمَةِ الأَنْعَامِ فَكُلُوا مِنْهَا وأَطْعِمُوا البَائِسَ الفَقِيرِ ﴾**(الحج:٢٨).

تقدم الأمر بالأكل منها على أمر إطعام الفقير وذلك لإدخال السرور على نفس المنفق ولحثه على الذبح روى مسلم في صحيحه {**أيام التشريق أيام أكل وشرب**} وعند النسائي من حديث عقبة بن عامر أن رسول الله ﷺ قال: "إن يوم عرفة ويوم النحر وأيام التشريق عيدنا أهل الإسلام وهي أيام أكل وشرب" .

وكان من فقه العلماء أنــهم قدموا الأكل على الإهداء والتصدق إما استحباباً وإما وجوباً حتى إنــهم بدءوا في متون الفقه بذكر الأكل مقدماً على الإهداء والتصدق تأسياً بالتقديم والتأخير في القرآن الكريم ، من ذلك قول الحجاوي المقدسي : "ويسن أن يأكل ويهدي ويتصدق" قال الشارح : "وقدم الأكل لأن الله تعالى قدمه فقال الله تعالى : { **فكلوا منها وأطعموا البائس الفقير**} وقوله : " ويسن أن يأكل" .

ظاهره: أنه لو تصدق بــها كلها فلا شيء عليه ولا إثم عليه ، وهذا بناء على أن الأكل من الأضحية سنة كما هو قول جمهور أهل العلم .

وقال بعض أهل العلم : بل الأكل منها واجب يأثم بتركه ، لأن الله أمر به وقدمه على الصدقة، ولأن النبي ﷺ في حجة الوداع "أمر أن يؤخذ من مائة بعير مائة قطعة فجعلت في قدر ، فطبخت فأكل من لحمها وشرب من مرقها"

قالوا: وتكلف هذا الأمر أن يأخذ من مائة بعير مائة قطعة تطبخ في قدر ويأكل منها يدل على أن الأمر في الآية الكريمة للوجوب ، ولأن هذا من باب التمتع بنعم الله عز وجل فيدخل في قوله ﷺ{**أيام التشريق أيام أكل وشرب وذكر لله عز وجل**}.

أقول: وهذا الترتيب المذكور في هذه الآية هو الترتيب الذي فعله النبي ﷺ ، وهو السنة المستحبة في الحج ، وقد بوب النووي في كتاب الحج أبواباً في هذا الترتيب المذكور .

[بيان أن السنة يوم النحر أن يرمي ثم ينحر ثم يحلق والابتداء في الحلق بالجانب الأيمن من رأس المحلوق]

[باب من حلق قبل النحر ، أو نحر قبل الرمي] باب [جواز تقديم الذبح على الرمي والحلق على الذبح وعلى الرمي وتقديم الطواف عليها كلها] [باب استحباب طواف الإفاضة يوم النحر] .[1]

﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكاً ﴾ (الحج:٣٤) تقديم الجار والمجرور للاختصاص وهذا اختيار الزمخشري على ما رواه عن مجاهد أي أنه سبحانه شرع لأهل كل دين أن يذبحوا له تعالى على وجه التقرب لا لبعض منــــهم .

﴿ وَالْبُدْنَ جَعَلْنَاهَا لَكُم مِّن شَعَائِرِ اللَّهِ ﴾ (الحج:٣٦) .

تقدم المفعول به الثاني {البدن} على عامله {جعلناها} للاهتمام بــــها تنويهاً بشأنــــها .

﴿ إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ اللَّهَ لاَ يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ ﴾ (الحج:٣٨) .

تقدم قوله: {خوان} على قوله: { كفور} مع أن أعظم الذنوب وأبغضها إلى الله تعالى هو الكفر و هذا التقديم من باب تقديم العام على الخاص، إذ يندرج تحت {خوان} كل أنواع الخيانة ، فالدين بكل ما فيه أمانة ، والإعراض عنه خيانة ، قال تعالى: {إنَّا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان إنه كان ظلوماً جهولاً}، وقد سمى الله عز وجل كفر زوجتي نوح ولوط -عليهما السلام- خيانة في قوله تعالى: ﴿ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَةَ نُوحٍ وَامْرَأَةَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا ﴾ (التحريم:١٠) وكذلك الكفر خيانة للميثاق الأول الذي أخذه الله تعالى على عباده في ظهر أبيهم آدم وهو المذكور في قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنفُسِهِمْ أَلَسْتَ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ ۝ أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنْ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ ﴾ (الأعراف:١٧٢،١٧٣) ﴿ وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيراً ﴾(الحج :٤٠) .

---

(١) البحر المحيط ج٦ ص٣٦.

تقدم ذكر أماكن عبادة اليهود والنصارى على ذكر المساجد- أماكن عبادة المسلمين- والتقديم هنا راعى الترتيب الزماني لأنـــها أقدم بناء وأسبق زمانا .وقد يكون التقديم هنا لأجل حمايتها وعدم التعرض لها خيفة التهاون بأمرها كما قدمت الوصية على الدين وإن كان أهم.

وقد تقدم أيضا الجار والمجرور {**فيها**} على لفظ الجلالة {**اسم الله**} فلم يقل - يذكر اسم الله فيها كثيرا - مع أنه أولى بالتقديم لشرف الذات ومن باب تقديم الغايات على الوسائل فالمساجد وسيلة للغاية التي هي ذكر الله.

وأقول: إن التقديم هنا للمكان هو الأولى في السياق حيث الحديث عن المكان وحرمته فناسب تقديمه في الذكر من أجل ذلك.

﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾(الحج:٤٦).

تقدم المسند إليه {**فإنـــها**} على الجملة الفعلية ، وذلك جار مجرى تكرير الإعلام في التأكيد والإحكام ، ولذا قال البلاغيون : إن الشيء إذا أضمر ثم فسر كان ذلك أفخم له من أن يذكر من غير تقدمة إضمار .

﴿ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَيَّ الْمَصِيرُ ﴾ (الحج:٤٨) .

تقدم الجار والمجرور {وإلي} على متعلقه لإفادة القصر بأن المصير إلى الله لا غيره.

﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾ (الحج:٤٩).

تقدم الجار والمجرور {**لكم**} على متعلقه {**نذير**} للتهديد والتخويف بأن العذاب متوجه إليهم على سبيل الخصوص.

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ (الحج:٥٢) .

تقدم الرسول على النبي من باب تقديم الفضل وذلك لشرف الرسالة على النبوة ومنه قوله تعالى: **﴿ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ ﴾** (الأعراف:١٥٧) .

وقوله تعالى : **﴿ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ﴾** (مريم:٥٤) .

﴿ **ذَلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنصُرَنَّهُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ** ﴾ (الحج:٦٠) .

تقدمت صفة العفو على صفة المغفرة في قوله: { **إن الله لعفو غفور** } وذلك من باب تقديم العام على الخاص ، فالتقديم هنا لشرف عمومه ، فالعفو هنا أي عمّا لم يؤاخذنا به ممّا نستحقه من ذنوبنا ، غفور لما أخذنا به في الدنيا فتقدم العفو على الغفور فإنه أعم وأخرت المغفرة لأنه أخص.

﴿ **إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ** ﴾ (الحج:٦٥) .

تقدم الجار والمجرور {**بالناس**} على متعلقه {**رءوف رحيم**} من باب العناية والاهتمام بـــهم ، وإذا كانت الرأفة بمعنى درء المضار والرحمة جلب المصالح ، فإن تقديم الرأفة على الرحمة من باب تقديم درء المفاسد على جلب المصالح .

﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ**﴾ (الحج:٧٧) .

بدأ سبحانه في هذه الآية بأمر الصلاة لأنـــها أهم العبادات بعد التوحيد، فهي الركن الثاني من أركان الإسلام ، وأول ما يحاسب عليه العبد من الأعمال ، فإن صلحت صلح سائر عمله وإن فسدت سائر عمله ، وقد ذكرت الصلاة مرتبة ترتيباً وجودياً الركوع فالسجود على حسب ترتيبها في الأداء فتقدمت للاهتمام والشرف ، ثم ذكرت سائر العبادات إجمالاً في قوله : {**واعبدوا ربكم**} أي فيما أمرتم به {**وافعلوا الخير**} نافلة منكم تتقربون بـــها إلى الله عز وجل ، فيكون تقديم قوله: {**واعبدوا ربكم**} من باب تقديم الفرائض على النوافل .

قال أبوحيان: "ويظهر في هذا الترتيب أنـــهم أمروا أولاً بالصلاة وهي نوع من العبادة وثانياً بالعبادة وهي نوع من فعل الخير ، وثالثاً بفعل الخير وهو أعم من العبادة فبدأ بخاص ، ثم بعام ، ثم بأعم". [1]

﴿**لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيداً عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ**﴾(الحج:٧٨).

---

(١) البحر المحيط ج٦ ص٣٦

قال صاحب التحرير: " وقدمت شهادة الرسول للأمة هنا ، وقدمت شهادة الأمة في آية البقرة {**وكذلك جعلناكم أمة وسطاً لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً**} لأن آية هذه السورة في مقام التنويه بالدين الذي جاء به الرسول، فالرسول هنا أسبق إلى الحضور فكان ذكر شهادته أهم، وآية البقرة صُدرت بالثناء على الأمة فكان ذكر شهادة الأمة أهم". [١]

(١) التحرير ج١٨ ص ١٠.

سورة المؤمنون

لما ختمت الحج بأمر المؤمنين بأمور الدين من عبادات مثل الصلاة والزكاة وكذلك أمور المعاملات وكذلك الأمر بالاعتصام به سبحانه افتتحت هذه السورة بذكر هذه الأمور السابقة وتعليق الفلاح على فعلها﴿ **قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ . الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِم خَاشِعُونَ . وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ . وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ**﴾ (المؤمنون:١-٤).

قال تعالى:﴿ **الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِـــهِم خَاشِعُونَ . وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ . وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ**﴾ (المؤمنون:٢-٤).

وتقديم {**فِي صَلَاتِــهِم**} على {**خاشعون**} للاهتمام بالصلاة للإيذان بأن لهم تعلقاً شديداً بالصلاة لأن شأن الإضافة أن تفيد شدة الاتصال بين المضاف والمضاف إليه لأنـــها على معنى لام الاختصاص . فلو قيل : الذين إذا صلوا خشعوا ، فات هذا المعنى وأيضاً لم يأت وصفهم بكونـــهم خاشعين إلا بواسطة كلمة أخرى نحو : كانوا خاشعين ، وإلا يفت ما تدل عليه الجملة الاسمية من ثبات الخشوع لهم ودوامه أي كون الخشوع خلقاً لهم بخلاف نحو: الذين خشعوا ، فحصل الإيجاز ، ولم يفت الإعجاز. ونظير هذا قوله تعالى في سورة هود:﴿ **إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَاماً قَالَ سَلَامٌ** ﴾ (الذاريات:٢٥)، فسلاما مفعول به لفعل محذوف تقديره نسلم ومن صفة الأفعال الحركة والانتقال ، أما سلام التي هي جواب إبراهيم فهي اسم مبتدأ أو خبر وعلى كلا الإعرابين يفيد الثبوت والاستمرار .

وقد ذكر الألوسي:عن بعض أهل العلم : من أن تقديم المعمول مع ضعف عامله لا للتخصيص بل لكونه مصب الفائدة ، ويجوز اعتبار التخصيص الإضافي أيضاً بالنسبة إلى الإنفاق فيما لا يليق ، ووصفهم بذلك بعد وصفهم بالخشوع في الصلاة للدلالة على أنـــهم لم يألوا جهداً بالعبادة البدنية والمالية ، وتوسيط حديث الإعراض بينـــهما لكمال ملابسته بالخشوع في الصلاة وإلا فأكثر ما تذكر هاتان العبادتان في القرآن معاً بلا فاصل.[1]

---

(١) روح المعاني ج١٨ ص٥

﴿ وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّاهُ فِي الأَرْضِ وَإِنَّا عَلَى ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ ﴾ (المؤمنون:١٨) تقديم الجار والمجرور {من السماء} على المفعول به الصريح {السماء} لإظهار القدرة وتعظيم النعمة والعناية بالمقدم والتشويق للمتأخر .

﴿ وَإِنَّ لَكُمْ فِي الأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ • وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴾ (المؤمنون:٢١،٢٢).

تقدم الجار والمجرور {لكم} لبيان كمال الاعتناء واختصاصهم بالنعمة والفضل وتقدم الجار والمجرور {منها} ليس للحصر فهم يأكلون منها ومن غيرها وإنما هي للحصر الإضافي لأن غالبية أكلهم منها ، وتقديم الحمل عليها أولاً قبل الفلك ، راجع إلى مناسبة ما قبلها وهو حسن التجاور بين الأكل منها والحمل عليها بلا فاصل أجنبي.

الثاني : أن غالبية الركوب إنما هو على الأنعام وليس على السفن لاسيما في السابق وعلى وجه الخصوص في البيئة الصحراوية التي أنزل فيها القرآن الكريم.

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلاَ تَتَّقُونَ﴾ (المؤمنون:٢٣).

تقدمت قصة نوح – عليه السلام – على سائر القصص المذكورة بعد وذلك باعتبار الزمان حيث كانت أسبق في الوجود ، كما أن إيرادها بعد قوله تعالى: ﴿ وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴾ (المؤمنون:٢٢) فيه من حسن الموقع والتلاحم والارتباط ما حسن معه هذا الترتيب ، كما أن تصديرها بالقسم لبيان كمال الاعتناء بمضمونـــها .

﴿ فَقَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ مَا هَذَا إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ ﴾(المؤمنون:٢٤) .

وفي الآية الثالثة والثلاثين من نفس السورة {**وقال الملأ من قومه الذين كفروا وكذَّبوا بلقاءِ الآخرةِ وأترفناهم في الحياةِ الدُّنيا ما هذا إلَا بشرٌ مثلُكم**} .

قال صاحب درة التنـــزيل: "للسائل أن يسأل عن تقديم {**من قومه**} في الآية الأخيرة وتأخيره في الآية الأولى ، وهل كان يصلح أحدهما مكان الآخر ؟ .

الجواب أن يقال: لما انقطعت صفة الملأ في الآية الأولى إلى المحكي من قولهم قرن الوصف بالذين إلى الموصوف ، ثم جيء بالجار والمجرور فكان منتهى بيان فاعل قال ولم يكن كذلك القصد في الآية الأخرى ، لأنه عددت أفعال عطفت على الفعل الذي هو صلة الذي ، فقدم الجار والمجرور لئلا يحال بين الصفة وما عطف عليها ، فقال:{ **وقال الملأ من قومه الذين كفروا وكذبوا بلقاء الآخرة وأترفناهم في الحياة الدنيا** } فكان كل ذلك مما أتبع قوله كفروا ، ولو قال : {**وقال الملأ الذين كفروا من قومه وكذبوا بلقاء الآخرة**} لم يكن على النظم المرتضي فيما يستفصح من الكلام وإن كان جائزاً ، فلذلك قدم الجار والمجرور في الأخيرة وأخر في الأولى.

قال الكرماني:" فقدم الجار والمجرور ، ولأن تأخيره ملتبس وتوسطه ركيك ، فخص بالتقديم" ووجه الإلتباس كما قال محقق الكتاب أنه لو قال : {**وأترفناهم في الحياة الدنيا من قومه ما هذا إلا بشر مثلكم**} لاحتمل أنه من قول الذين آمنوا وكانوا مترفين في معيشتهم كما هو مقول الكفار من هذا النوع ، وهذا التقديم في هذه الآية من براهين الإعجاز المبني على دقة مراعاة الملابسات" .[1]

﴿إِنْ هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾(المؤمنون:٣٧)، قد يكون في الآية تقديم وتأخير حيث إن الحياة أسبق في الحدوث من الموت ، فالموت هنا بلا شك المقصود به خروج الروح ، وهو ما يحدث بعد الحياة ، فلماذا قدم هؤلاء ذكر الموت على الحياة ؟ أقول: لأن الاعتراض منهم كان على قضية البعث بعد الموت فلذا بدؤوا بذكره أولاً لأنه المقصود بنفي حدوث الحياة من بعده وقد لا يكون هناك تقديم ولا تأخير كما تأول السمين فقال: "إن الظاهر من معناها تموت النفس منّا ويحيى آخرون هلم جرا ، يشيرون إلى انقراض العصر وخلف غيره مكانه ، وقيل نموت نحن ويحيا أبناؤنا ، وقيل القوم يعتقدون الرجعة أي نموت ثم نحيا بعد ذلك الموت ".[2]

﴿إِنَّ الَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ۔ وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ۔ وَالَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لاَ يُشْرِكُونَ﴾ (المؤمنون:٥٧-٥٩).

---

(١) درة التنزيل ص ١٧٥ ، أسرار التكرار في القرآن ص ١٨٤. (٢) الدر المصون ج٥ ص ١٧

تقدم هنا المسند إليه {**هم**} على الجملتين الفعليتين {**يؤمنون** ، **يشركون**} وهذا التقديم غرضه تقوية الحكم،وتوكيده على خلاف ما لو تقدم الفعل على المسند إليه فإنه لا يفيد ذلك ، كما تقدمت المجرورات الثلاثة على عواملها لإفادة الاهتمام مع ما فيه من حسن الفواصل .

﴿ **أُولَئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ** ﴾ (المؤمنون:٦١).

تقدم الجار والمجرور {**لها**} على متعلقه {**سابقون**} لإفادة الحصر والاختصاص في كون تسابقهم لم يكن إلا للخيرات .

﴿ **بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ مِّنْ هَذَا وَلَهُمْ أَعْمَالٌ مِّن دُونِ ذَلِكَ هُمْ لَهَا عَامِلُونَ** ﴾ (المؤمنون:٦٣).

تقدم هنا الجار والمجرور {**لها**} على متعلقه {**عاملون**} لبيان الاهتمام ببيان حفظ الله عز وجل لأعمالهم كبيرها وصغيرها فإن سيئة الكفر والاهتمام بذكرها ، لا يعني أن الله تعالى نسي ما ارتكبوه من سيئات أخر أدون من الكفر ، ولهذا عند ذكر كتاب الأعمال في الآخرة بدأ ذكر الصغيرة قبل الكبيرة﴿**مَا لِهَذَا الْكِتَابِ لاَ يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلاَ كَبِيرَةً إِلاَّ أَحْصَاهَا**﴾(الكهف:٤٩)، كذلك ناسب تقدم الجار هو كون الأعمال أقرب لفظاً من الضمير العائد عليها .

﴿**وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ قَلِيلاً مَّا تَشْكُرُونَ**﴾ (المؤمنون:٧٨).

قدم الإنشاء أولاً وهو الخلق العام للإنسان ، على إيجاد السمع والبصر والفؤاد إذ إن الوجود الإنساني مقدم على ظهور هذه الحواس فيه ، كما قدم السمع على البصر وقد مر القول فيه من قبل ، ولعل التقديم الوجودي هنا للسمع على البصر واضح بما تفيده كلمة {**أنشأ**} فحاسة السمع تسبق حاسة البصر عند مولد الطفل كما ثبت ذلك بالملاحظة ، وقد يكون أيضاً هذا السبق في مرحلة ما قبل الميلاد ، وقدم السمع والبصر على الفؤاد لأنه لا يكون للإنسان إدراك أو تمييز إلا بعد أن تعمل حواس الإنسان كلها ، وتتوثق الصلات بينها وبين خلايا المخ ، ومن هنا يبدأ الإدراك والتمييز حيث دور الفؤاد أو العقل .

﴿**وَهُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ وَلَهُ اخْتِلافُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ**﴾ (المؤمنون:٨٠) .

تقدم المجرور { له } لإفادة القصر أي أن اختلاف الليل والنهار له لا لغيره ، فغيره لا يستحق أن يكون إلهاً .

﴿ بَلْ قَالُوا مِثْلَ مَا قَالَ الأَوَّلُونَ • قَالُوا أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَاباً وَعِظَاماً أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ • لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا هَذَا مِن قَبْلُ إِنْ هَذَا إِلاَّ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ ﴾ (المؤمنون: ٨١-٨٣) .

وقال في سورة النمل : ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَئِذَا كُنَّا تُرَاباً وَآبَاؤُنَا أَئِنَّا لَمُخْرَجُونَ لَقَدْ وُعِدْنَا هَذَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا مِن قَبْلُ إِنْ هَذَا إِلاَّ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ ﴾ (النمل:٦٧،٦٨). للسائل أن يسأل عن تقديم توكيد المضمر المرفوع بقوله: {نحن} وتأخير المفعول وهو - هذا - في الآية الأولى وعكس ذلك في الآية الثانية ، وهل لذلك فائدة تقتضي لكل مكان ما خص به ؟

الجواب أن يقال : لما كان الأول في حكاية تظاهرت فيها أفعال أسندت إلى فاعليها متصلة بـــها ، وهي {**بل قالوا مثل ما قال الأولون**} فهذان فعلان تعلق بـــهما هذا المحكي وكل واحد مهما جاء بعده فاعله مواصلاً له غير منفصل عنه، ثم بعده {**قالوا أإذا متنا** } فكل هذه الأفعال قصد بـــها حكاية ما جاء بعدها ، فلما قال: {**لقد وعدنا**} وجب في البناء على الأفعال المتقدمة أن يتم حكم الفاعل وهو توكيده والعطف عليه فقدم {**نحن وءاباؤنا**} على المفعول الثاني وهو - هذا - لذلك ، ولأن الأصل إذا جرى عليه الشيء أولى من غيره .. وأما الآية الثانية من سورة النمل فإن الذي تقدمها {**وقال الذين كفروا أإذا كنا تراباً وءاباؤنا**} فأخر المعطوف على اسم كان الذي هو كالفاعل لها وهو قوله - وءاباؤنا- عن المنصوب الذي هو كالمفعول لها وهو قوله - تراباً - فصار ما هو كالمفعول مقدماً على ما هو معطوف على الفاعل فاقتضى البناء عليه تقدم المفعول ثم العطف على الفاعل المضمر فجاء {**لقد وعدنا هذا نحن وءاباؤنا من قبل**} لذلك .[1]

﴿قُلْ لِمَنِ الأَرْضُ وَمَن فِيهَا إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ • سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلاَ تَذَكَّرُونَ • قُلْ مَن رَّبُّ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ • سَيَقُولُونَ لِلَّه قُلْ أَفَلاَ تَتَّقُونَ • قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلاَ يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ • سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّى تُسْحَرُونَ ﴾ (المؤمنون: ٨٤-٨٩) .

---

(١) درة التنزيل ص١٧٧

جاء ترتيب نـــهاية هذه الآيات على النحو التالي: **{أفلا تتذكرون}** **{أفلا تتقون}** **{فأنى تسحرون}**.

والسر في هذا الترتيب فيما أراه والله أعلم بمراده أن الآية الأولى تستدعي لفت الانتباه إلى ما في الأرض من مخلوقات الله الدالة على عظمته والتفكر في عطايا ربوبيته والتي يتقلب فيها الإنسان بين نومه ويقظته وسكونه وحركته فهو محاط بكل ما يعرِّفه بربه ويذكره بفضله ومع ذلك يُرى الكافر مشغولاً بالنعمة عن المنعم منطرحاً قلبه في الأسباب لا يخرج عنها فأمر بالتذكر **{أفلا تتذكرون}** فإذا ما أتته من الله البصيرة وتذكر نعم الله كان حرياً به ألا يعصي الله بنعمه فيورَث قلبه الخوف والوجل من هذا الرب العظيم الذي هو رب السموات ورب العرش العظيم بما تحمله ربوبيته الخاصة للخلق العظيم بعظمته وقهره، ومن هنا جاء قوله: **{أفلا تتقون}** لأن العلم بعظمة الله يستدعي الخوف من الله ومحاولة اتقاء عذابه وأسباب غضبه ، فإذا ما طمست البصيرة وضاق الصدر وأظلمت النفس عن نور التوحيد وهداية الحميد المجيد مع كل ما نصبه الله من دلائل لهداية العبيد فحينئذ يأتي التعجب **{فأنى تسحرون}** .

قال صاحب التحرير: "وقد سلكت في ترتيب هذه الأدلة طريقة الترقي، فابتدئ بالسؤال عن مالك الأرض ومن فيها لأنـــها أقرب العوالم لإدراك المخاطبين، ثم ارتقى إلى الاستدلال بربوبية السموات والعرش ، ثم ارتقى إلى ما هو أعم وأشمل وهو تصرفه المطلق في الأشياء كلها ولذلك اجتلبت فيه أداة العموم وهي **{كل}**.[1]

﴿ وَمَن يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ لاَ بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِندَ رَبِّهِ إِنَّهُ لاَ يُفْلِحُ الكَافِرُونَ ﴾ (المؤمنون:١١٧) .

تقدم هنا المسند إليه **{إنه}** على الجملة الفعلية في قوله: **{إنه لا يفلح الكافرون}**، وهذا التقديم جار مجرى تكرير الإعلام في التأكيد والإحكام ، والشيء إذا أضمر ثم فسر كان أفخم له من أن يذكر من غير تقدمة إضمار .

---

(١) التحرير ج١٨ ص١١٣.

سورة النور

لما دار الحديث في سورة [**المؤمنون**] عن الأمر بحفظ الفروج وعدم الاعتداء فيها ﴿ **وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ** ﴾ (المؤمنون:٥) ﴿ **فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ**﴾ (المؤمنون:٧) جاءت سورة النور لبيان حكم هؤلاء العادين فأبان حكم الزناة ثم أتبعه بحكم اللعان والقذف ثم قصة الإفك ثم الوعيد لمحبي إشاعة الفاحشة ثم التحذير بدخول البيت إلا بعد الاستئذان من أجل العورات ثم النهي عن إبداء الزينة.

قال تعالى :﴿ **الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي** ﴾ (النور:٢).

قال أبوحيان: "وقدمت الزانية على الزاني لأن داعيتها أقوى، لقوة شهوتـــها ، ونقصان عقلها ، ولأن زناها أفحش وأكثر عاراً".[1]

أقول: ليس الأمر كما قال أبوحيان، فلو افترضنا أن كل امرأة زانية تعرض لها رجل زان لتساوى عدد الرجال مع النساء ، وإذا ما تعرض لها أكثر من رجل لزاد عدد الرجال على عدد النساء، أما إن زناها أفحش وأكثر عارا فنعم ولكنه عادة أقوام وليست شريعة الإسلام فكلاهما عند الله مأمور بغض بصره وحفظ فرجه وهما في العار والفحش سواء بسواء والدليل على ذلكم ما رواه مسلم من رواية عبد الله ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ {لا أحد أغير من الله ولذلك حرم الفواحش ما ظهر منها وما بطن ولا أحد أحب إليه المدح من الله}[2] ثم هما في العقاب كذلك سواء بسواء لا فرق بين ذكورة أو أنوثة، والمشاهد الملموس أن الرجال أجرأ على طلب الحرام وأكثر تعرضا لهتك حجاب النساء .

ولسنا مع الزمخشري أيضاً في قوله والذي يبدو واضحاً أنه نقله عن الرازي قال:" فإن قلت: كيف قدمت الزانية على الزاني أولاً ، ثم قدم عليها ثانيا ؟ ويقصد بذلك قوله تعالى :﴿ **الزَّانِي لا يَنكِحُ إِلا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لا يَنكِحُهَا إِلاَّ زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ**﴾(النور:٣).

---

(١) البحر ج٦ ص ٣٩٣.
(٢) صحيح مسلم باب غيرة الله تعالى وتحريم الفواحش حديث رقم [٢٧٦٠]

قلت: سيقت لتلك الآية لعقوبتهما على ما جنيا، والمرأة هي المادة التي نشأت منها الجناية لأنـــها لو لم تطمع الرجل ولم تومض له ولم تمكنه لم يطمع ولم يتمكن ، فلما كانت أصلاً وأولاً في ذلك بدئ بذكرها ، وأما الثانية فمسوقة لذكر النكاح والرجل أصل فيه ، لأنه هو الراغب والخاطب ومنه يبدأ الطلب ".[1]

وليس الأمر كما ادعى الزمخشري من أن المرأة هي المادة التي نشأت منها الجناية فالجناية منشؤها من كليهما ، ولكن المرأة الزانية سمحت وأذنت لمريد الزنى ، فعنده الاستعداد كما هي سواء بسواء وإنما قدمت لأن الأمر يتوقف على إذنـــها وسماحها أولاً، وأما الثانية فنحن معه في سبب التقديم لأن صفة الحياء أغلب على المرأة من الرجل وعادة الرجل هو الذي يبدأ بطلب المرأة للنكاح .

وإلى مثل ما ذكرت قال البيضاوي : "وإنما قدم {الزانية} لأن الزنى في الأغلب يكون بتعرضها للرجل وعرض نفسها عليه ولأن مفسدته تتحقق بالإضافة إليها" [2]

وقد ذكر صاحب التحرير: أن التقديم لمناسبة النـــزول في قصة الرجل الذي رغب في تزوج امرأة تعودت الزنى فكان المقام مقتضياً الاهتمام بما يترتب على هذا السؤال من مذمة الرجل الذي يزوج مثل تلك المرأة .[3]

أقول: والعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب: فتكون عامة في كل من هذه صفته من الرجال والنساء .وقد وجدت كلام الأستاذ عبد الكريم الخطيب متطابقاً مع ما ذكرته حيث قال في تفسيره لسورة المائدة : "كما قدمت المرأة على الرجل في جريمة الزنى في قول الله تعالى: **{الزانية والزاني فاجلدوا كل واحد منـــهما مائة جلدة}** لأن هذه الجريمة لا تتم إلا بالرجل والمرأة معاً والمرأة هي صاحبة الموقف هنا وبيدها الأمر فيه لأن الرجل طالب وهي مطلوبة فإذا لم تعطه نفسهاو لم تمكنه منها فاته مطلوبهو لم تقع الجريمة" [4]

---

(١) الكشاف ج٣ ص٢٠٨ ، مفاتيح الغيب ج٢٣ ص١٥٢.
(٢) البيضاوي ج٤ ص١٧٢.
(٣) التحرير ج١٨ ص١٥٧.
(٤) التفسير القرآني ج٦ ص١٠٩٧.

وقد وجدت قول السيد محمد رشيد رضا يتطابق أيضاً مع ما ذكرنا حيث قال:

" وقد أحسن البقاعي في توجيه الاهتمام بتقديم ذكر النساء هنا بعلاقته بالإرث على رأي الجمهور في تفسير الفاحشة بالزنى الذي يفضي إلى توريث ولد الزنى ولكننا لا نسلم له أن الفساد في النساء أكثر منه في الرجال بل الرجال أكثر جرأة على الفواحش وإتيانا بـــها ولو أمكن إحصاء الزناة والزواني لعرف ذلك كل أحد "

ويرى الدكتور عبد الوهاب التازي: أن المسئولية الأولى في عملية الزنى إنما تقع على الرجال وإن كان النساء شركاء في الجريمة فهم يراهم السبب الأول في الوقوع في هذه الفاحشة قال: وإذا نحن أمعنا النظر واستعرضنا الحال ، نجد أن المسؤول عن هذه الجناية هم أولئك الذئاب -ذئاب الطرق ولصوص الأعراض الذين لا شغل لهم إلا العمل على هدم كيان الأسرة الصالحة ، ولست أقصر الأمر على هؤلاء بل كذلك الأخريات اللائى يتسكعن في سيرهن .[1]

قال الماوردي: "قدم ذكر الزانية على الزاني لأمرين:

الأول: أن الزنى فيها أعر ، وهو لأجل الحبل أضر.

الثاني:أن الشهوة فيها أكثر وعليها أغلب .

أقول: وما ذكره الماوردي من أن الزنى فيها أعر عادة أقوام وليس شريعة إسلام فكلاهما في الخطأ أمام الله سواء بسواء ، والعار لازم لهما لا فرق بين المرأة والرجل إما لكونه لأجل الحبل أضر فهذا معنى نفيس أولى بحروف النور أن يسطر فإن زنى الرجل خاف مستتر وزنى المرأة بالحبل مظهر ويبقى العار وعدم النسب في الولد ملصق ومستمر.[2]

أقول:وهنا تقديم آخر ، وهو تقديم الزانية على المشركة ، وذلك التقديم للتنفير والتحذير من الزنى .

﴿ وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ شُهَدَاءُ إِلاَّ أَنفُسُهُمْ فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ ۝ وَالْخَامِسَةُ أَنَّ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَيْهِ

(١) تفسير سورة النور ، عبد الوهاب التازي ،ص١٨.

(٢) النكت والعيون تفسير الماوردي ج٤ ص٧١

إن كَانَ مِنَ الكَاذِبِينَ. وَيَدْرَأُ عَنْهَا العَذَابَ أَن تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الكَاذِبِينَ. وَالْخَامِسَةَ أَنَّ غَضَبَ اللهِ عَلَيْهَا إِن كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ (النور:٦-٩) .

ظاهر الآية يشعر بوجوب تقديم لعان الزوج وهو المأثور في السنة .

قال الألوسي: " فلو بدأ القاضي بها فلاعنت قبله فقد أخطأ السنة ولا يجب كما في الغاية أن تعيد لعانها بعد وبه قال مالك .وفي البدائع ينبغي أن تعيد لأن اللعان شهادة المرأة وشهادتها تقدح في شهادة الزوج فلا تصح إلا بعد وجود شهادته ولهذا يبدأ بشهادة المدعي في باب الدعوى ثم بشهادة المدعى عليه بطريق الدفع له ونُقل ذلك عن الشافعي وأحمد -عليهما الرحمة - وأشهب من المالكية . وقد ذهب الألوسي إلى خلاف ما ذكر وأنه ليس في الآية ما يدل على الترتيب". [1]

وتحت عنوان : من يبدأ الملاعنة ؟ قال الشيخ سيد سابق: " اتفق العلماء على أن السنة في اللعان تقديم الرجل فيشهد قبل المرأة .

فقال الشافعي وغيره هو واجب فإذا لاعنت المرأة قبله فإن لعانها لا يعتد به .

وحجتهم أن اللعان يشرع لدفع الحد فلو بدئ بالمرأة لكان دفعاً لأمر لم يثبت.

وذهب أبو حنيفة ومالك إلى أنه لو وقع الابتداء بالمرأة صح واعتد به وحجتهم أن الله سبحانه عطف في القرآن بالواو والواو لا تقتضي الترتيب بل هي لمطلق الجمع ".[2]

وأقول: أياً كان أمر التقديم للوجوب على قول الشافعي ومن وافقه أو ليس للوجوب كما عند مالك وأبي حنيفة فإن التقديم يدور بين الوجوب أو الاستحباب لأنه هو الذي بدئ به في القرآن الكريم وكذا في السنة المطهرة، فعند أحمد عن ابن عباس - رضي الله عنهما - إن رسول الله ﷺ لاعن بين العجلاني وامرأته وكانت حبلى فقال : والله ما قربتها منذ عفرنا والعفر أن يسقي النخل بعد أن يترك من السقي بعد الإبار بشهرين.

---

(١) روح المعاني ج١٨ ص١٠٩.

(٢) فقه السنة ج٢ ص٣٢١ مسند أحمد حديث رقم { ٢٩٤١ }.

وقد أشار محمد المكي الناصري إلى معنى حسن في تقديم لعان الرجل على المرأة بغض النظر عن الخلاف الفقهي في المسألة بين العلماء ، حيث قال: "وفي الخامسة يشهد أنه يستحق لعنة الله إن كان كاذباً ، وبذلك يبرأ من حد القذف ، ولا ينسب إليه الولد ، ثم تشهد الزوجة بالله أربع مرات على كذبه فيما رماها به ، وفي الخامسة تشهد أنـــها تستحق غضب الله إن كان زوجها صادقاً وبذلك تبرأ من حد الزنى ويفرق بينـــهما "[1]

﴿ لَوْلا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْراً وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُّبِينٌ ﴾ (النور:١٢) تقدم الظرف {إذ سمعتموه} على عامله وهو {قلتم} للاهتمام بمدلول ذلك الظرف تنبـــها على أنه كان الواجب عليهم أن يطرق ظن الخير قلوبـــهم بمجرد سماع الخير وأن يبرءوا من الخوض فيه فور سماعه ، وهو نظير قوله تعالى في الآية السادسة عشرة.

﴿ وَلَوْلا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَا أَن نَّتَكَلَّمَ بِـــهذا سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ ﴾ (النور:١٦) .

قال الزمخشري: "فإن قلت : فأي فائدة في تقديم الظرف حتى أوقع فاصلاً ؟ قلت: الفائدة فيه بيان أنه كان الواجب عليهم أن يتفادوا أول ما سمعوا بالإفك عن التكلم به ، فلما كان الواجب عليهم أن يتفادوا أول ما سمعوا بالإفك عن التكلم به ، فلما كان ذكر الوقت أهم وجب التقديم".[2]

﴿ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُـــهم وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ (النور:٢٤).

التقدم هنا باعتبار كثرة الأعمال الأكثر فالأقل منه ولذا قدمت شهادة الألسن لأن عمل اللسان أكثر ومن حسب كلامه من عمله قل كلامه إلا فيما يعنيه ، أو أنه تنوع الذنب وعظمه أخطر ، ابتداء من الكفر والشرك القولي وانتهاء بكلمة أف للوالدين وما بينـــهما من كذب وغيبة ونميمة وفحش وسباب وشهادة زور .إلخ . روى أحمد في مسنده عن معاذ بن جبل ﷺ قال: أقبلنا مع رسول الله ﷺ من غزوة تبوك فلما رأيته خلياً قلت : يا رسول الله أخبرني بعمل يدخلني الجنة قال: {بخ لقد سألت عن شيء عظيم وهو يسير

---

(١) التيسير في أحاديث التفسير ، ، ج٤ ص٢٥٠.

(٢) الكشاف ج٣ ص٢١٤.

على من يسره الله عليه تقيم الصلاة المكتوبة وتؤدي الزكاة المفروضة وتلقى الله عز وجل لا تشرك به شيئاً أو لا أدلك على رأس الأمر وعموده وذروة سنامه ، أما رأس الأمر فالإسلام، فمن أسلم سلم وأما عموده فالصلاة وأما ذروة سنامه فالجهاد في سبيل الله أولا أدلك على أبواب الخير ؟ الصوم جنة والصدقة وقيام العبد في جوف الليل يكفر الخطايا وتلا هذه الآية {**تتجافى جنوبــهم عن المضاجع يدعون ربــهم خوفاً وطمعاً ومما رزقناهم ينفقون**} أولا أدلك على أملك ذلك لك كله قال فأقبل نفر قال :فخشيت أن يشغلوا عني رسول الله ﷺ قال شعبته أو كلمة نحوها قال فقلت يا رسول الله قولك أولا أدلك على أملك ذلك كله قال فأشار رسول الله ﷺ بيده إلى لسانه قال قلت يا رسول الله وإنا لنؤاخذ بما نتكلم به؟ قال ثكلتك أمك يا معاذ وهل يكب الناس على مناخرهم في النار إلا حصائد ألسنتــهم }[1] ثم الأيدي لأن عملها أقل من الألسن وأكثر من الأرجل ، وقد يكون التقديم لمناسبة النــزول فإن الآيات نزلت في شأن حادثة الإفك التي كانت كلها بسبب اللسان ، ومن هنا قدم في الذكر لأن القصة كلها دائرة عليه.

﴿ الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ وَالْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ أُوْلَئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴾ (النور:٢٦)

قدم {**الخبيثات للخبيثين والخبيثون للخبيثات**} على {**الطيبات للطيبين والطيبون للطيبات**} .

وذلك لأن الخطاب موجه أولاً إلى أولئك الذين خبثوا نفساً وديناً فأطلقوا ألسنتــهم في الطيبات والطيبين من المؤمنين .

وقد قدمت المرأة هنا على الرجل في الحالين : الخبث والطيب وذلك لأن المرأة هي التي يطلب لها كفؤها من الرجال فلا يصح أن تتزوج بمن هو أنزل منها شرفاً وقدراً.

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَدْخُلُوا بُيُوتاً غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ (النور:٢٧).

---

(١) مسند الإمام أحمد مسند الأنصار رقم{ ٢١٠٥٤ }.

قال الرازي في جوابه عن تقدم الأمر بالاستئناس على الاستئذان مع كون الاستئذان أسبق في الوجود إذ إنه عبارة عن الأنس الحاصل من جهة المجالسة قال تعالى: {**ولا مستأنسين لحديث**} وإنما يحدث ذلك بعد الدخول والسلام، فكان الأولى تقديم السلام على الاستئناس ، فلم جاء العكس من ذلك؟... فذكر أجوبة منها ما ذكره عن الحسن البصري أنه قال: في الكلام تقديم وتأخير والمعنى حتى تسلموا على أهلها وتستأذنوا ، وذلك لأن السلام مقدم على الاستئناس ، وفي قراءة عبد الله حتى تسلموا على أهلها وتستأنسوا ، وهذا أيضاً ضعيف لأنه خلاف الظاهر، وثالثها أن تجري الكلام على ظاهره ثم في تفسير الاستئناس وجوه .

الأول: حتى تستأنسوا بالإذن وذلك لأنـــهم إذا استأذنوا وسلموا أنس أهل البيت ولو دخلوا بغير إذن لاستوحشوا وشق عليهم.

الثاني: تفسير الاستئناس بالاستعلام والاستكشاف استفعال من آنس الشيء إذا أبصره ظاهراً مكشوفاً ، والمعنى حتى تستعلموا وتستكشفوا الحال ، هل يراد دخولكم ، ومنه قولهم: استأنس هل ترى أحداً، واستأنست فلم أر أحداً: أي تعرفت واستعلمت ، فإن قيل: وإذا حمل على الأنس ينبغي أن يتقدمه السلام، كما روي أنه -عليه الصلاة والسلام- كان يقول{**السلام عليكم أأدخل؟**} قلنا المستأذن ربما لا يعلم أن أحداً في المنـــزل فلا معنى لسلامه ، والحالة هذه والأقرب أن يستعلم بالاستئذان هل هناك من يأذن ، فإذا أذن ودخل صار مواجهاً له فيسلم عليه .

والثالث:أن يكون اشتقاق الاستئناس من الإنس وهو أن يتعرف هل ثم إنسان، ولاشك أن هذا مقدم على السلام .

والرابع: لو سلمنا أن الاستئناس إنما يقع بعد السلام ولكن الواو لا توجب الترتيب فتقديم الاستئناس على السلام في اللفظ لا يوجب تقديمه عليه في العمل ".[1]

(١) مفاتيح الغيب ج٢٣ ص١٩٧ ، ١٩٨.

وأقول: إن الرأي الأول وهو أن الاستئناس بمعنى الإذن يعارض الحديث حيث تقدم فيه الإذن على السلام{ **السلام عليكم أأدخل؟**} وأما من جهة النظر فإن الاستئذان إنما يكون بعد الاستعلام والاستكشاف ومعرفة هل الدار مسكونة أم لا ، ومن ثم يأتي الإذن بعد العلم ، والرأي الثاني والثالث كلاهما بمعنى واحد سواء كان الاستئناس بمعنى الاستعلام من آنس أو بمعنى معرفة هل موجود إنسان من الإنسٍ فكلاهما استعلام واستكشاف، ومعلوم أن الإنسان لا يسلم إلا إذا آنس أحداً يسلم عليه.

إن لفظ الاستئناس يجمع بين أمرين لا تعارض بينـــهما وكلاهما بمعنى الاستعلام ليدخل فيه الأمران استعلام بوجود أهل البيت واستعلام بأنسهم أيضاً ، على أن الاستعلام بأنسهم إنما يكون قبل الاستعلام بوجودهم عن طريق معرفة أنسهم بطرائق الأحوال ودلائل الأقوال والفعال فلا يزورون من يكره منـــهم الزيارة ابتداء، أما الرأي الرابع الذي ذكره الرازي من أن التقديم في اللفظ لا يوجب التقديم في العمل قلنا له نعم ولكن ما السر في التقديم ؟ ولماذا لم يأت على الترتيب الطبيعي ؟ فلا بد من علة وحيث لا علة ظاهرة ، قلنا بأنه لا تقديم ولا تأخير وإنما الآية على ترتيبـــها الطبيعي .

﴿ قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ . وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولِي الْإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَاءِ ﴾ (النور:٣٠،٣١) .

بدأ بالأمر بغض البصر للرجال قبل النساء لأن نظر الرجل إلى المرأة أعظم فتنة من نظر المرأة للرجل ، وتقدم الأمر بغض البصر على حفظ الفرج لأن النظر بريد الزنى ورائد الفجور ، والبلوى فيه أشد وأكثر ، ولا يكاد يقدر على الاحتراس منه .

﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ .

أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُوراً فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ ﴾ (النور:٣٩،٤٠).

بدأ بالتشبيه الأول قبل الثاني لأنه إخبار بما يصيرون إليه في الآخرة من عقاب أبدي وعذاب سرمدي ، أما الثاني بيان حالتـــهم في الدنيا فبدأ بأخطر التشبيهين وأعظمهما تأثيراً .

﴿ وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِّن مَّاءٍ فَمِنْـــهُم مَّن يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ وَمِنْـــهُم مَّن يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ وَمِنْـــهُم مَّن يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (النور:٤٥)، قدم الله تعالى ما هو أعرف للقدرة وأعجب في المشي وهو الماشي بغير آلة مشي وهو قوله :{ **فمنهم من يمشي على بطنه**} ثم الماشي على رجلين ثم الماشي على أربع .

﴿ قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴾ (النور:٥٤).

قال الأستاذ عبد الكريم الخطيب عن ترتيب هذه الآية: "وقد كان مقتضى النظم أن يرد فيه ختام الآية على مطلعها مراعى فيه الترتيب الذي جاء عليه المطلع بمعنى أن يكون نظم الكلام هكذا :

فإن تولوا فإنما عليه ما حمل وعليكم ما حملتم وما على الرسول إلا البلاغ المبين وما عليكم إلا أن تطيعوه ..

ولكن هذا كلام وذاك قرآن وشتان بين القرآن وبين الكلام ، فقد جاء القرآن على هذا النظم فقد حمل المنافقين الأمانة ثم دعاهم إلى الوفاء بـــها لأنـــهم هم المطلوبون ، المنادى عليهم بالخيانة على حين أن الرسول قد أدى أمانته وليس في حاجة إلى تنبيه أو طلب وعلى هذا يكون قوله تعالى : {**وما على الرسول إلا البلاغ المبين**} توكيداً وشرحا لقوله تعالى: {**فإنما عليه ما حمل**} وليس دعوة جديدة للنبي أن يبلغ البلاغ المبين ، على حين أن قوله تعالى: {**وإن تطيعوه تـــهتدوا**} هو أمر مطلوب من المنافقين أداؤه ".[1]

---

(١) التفسير القرآني ج١٨ ص١٣١٤.

أقول: وما قاله الأستاذ عبد الكريم توجيه جميل ولكن حمل الكلام على أصلِ ترتيبه هو الأصل الأصيل طالما كان في السياق برهان ودليل وإلا كان نوعاً من التحميل والتثقيل الذي لا يحتمله نص التنـــزيل ، وإذا ما قرأنا الآية الكريمة مع سابقتها من الآيات الكريمات ابتداء من الآية السابعة والأربعين لوجدنا الآتي:

أولاً: ذكر ادعاء المنافقين الإيمان بالله والرسول والطاعة وتكذيبهم في ذلك {**ويقولون ءامنا بالله وبالرسول وأطعنا ثم يتولى فريق منـــهم من بعد ذلك وما أولئك بالمؤمنين**}.

ثانياً:مدح المؤمنين الصادقين بطاعتـــهم لله ورسوله والآية إخبار عن حال المهاجرين والأنصار في مقابلة المنافقين الفجار{ **إنما كان قول المؤمنين إذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينـــهم أن يقولوا سمعنا وأطعنا وأولئك هم المفلحون**}

ثالثاً: ذكر ثواب المطيعين {**ومن يطع الله ورسوله ويخش الله ويتقه فأولئك هم الفائزون**} .

رابعاً: بيان أن الطاعة إنما تكون بالفعال لا بالأيمان والأقوال {**وأقسموا بالله جهد أيمانـــهم لئن أمرتـــهم ليخرجن قل لا تقسموا طاعة معروفة إن الله خبير بما تعملون**} ثم تأتي الآية التي بين أيدينا في سياق الآيات الأخريات لتتم معنى الطاعة بالأمر بـــها { **قل أطيعوا الله وأطيعوا الرسول** } والتحذير من تركها { **فإن تولوا فإنما عليه ما حمّل وعليكم ما حملتم** } ثم الترغيب فيها والحث عليها {**وإن تطيعوه تهتدوا**} فجاءت الآيات متناغمة متناسقة على هذا الترتيب البديع ، ونلاحظ هنا أيضاً في الحديث مع المنافقين أن القرآن بدأ بذكر حمل الرسول على حمل المنافقين ، لبيان أن معصيتـــهم لرسول الله ﷺ وعدم طاعتـــهم له لا تضره أو تنقص من رتبته ، ولذا بدئ به ﷺ لشرفه .

﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا منكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَات لَيَسْتَخْلِفَنـــهم فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينهم الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ ﴾ (النور: ٥٥).

تقدم الجار والمجرور {لهم} على المفعول الصريح {دينهم} لبيان الاهتمام بــهم ، وأن ذلك لمصلحتهم ولأجل منفعتهم ، وكذا فيه التشويق إلى المتأخر، ولأن في تأخيره عن الوصف إخلال بجزالة النظم .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيَسْتَأْذِنكُمُ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الحُلُمَ منكمْ ثَلاثَ مَرَّات مِّن قَبْلِ صَلاةِ الفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكم مِّنَ الظَّهِيرَةِ وَمِنْ بَعْدِ صَلاةِ العِشَاءِ ثَلاثُ عَوْرَاتٍ لَّكمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلاَ عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَهُنَّ طَوَّافُونَ عَلَيْكم بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكمُ الآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ۝ وَإِذَا بَلَغَ الأَطْفَالُ مِنكمُ الحُلُمَ فَلْيَسْتَأْذِنُوا كَمَا اسْتَأْذَنَ الَّذِينَ من قَبْلِهِمْ ﴾ (النور:٥٨،٥٩) .

جاء ترتيب الأمر في هذه الآيات لبيان حكم الأطوع للأمر فجاء الأرقاء في البداية ثم الأطفال قبل سن الاحتلام ثم البالغون بعد ذلك .

﴿ لَيْسَ عَلَى الأَعْمَى حَرَجٌ وَلاَ عَلَى الأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلاَ عَلَى المَــرِيضِ حَرَجٌ وَلاَ عَلَى أَنفُسِكُمْ أَن تَأْكُلُوا مِنْ بُيُوتِكمْ أَوْ بُيُوتِ آبَائِكمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَاتِكمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَانِكمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَاتِكمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَامِكمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّــاتِكمْ أَوْ بُيُوتِ أَخْوَالِكمْ أَوْ بُيُوتِ خَالاتِكمْ أَوْ مَا مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُ أَوْ صَدِيقِكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَأْكُلُوا جَمِيعاً أَوْ أَشْتَاتاً فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتاً فَسَلِّمُوا عَلَى أَنفُسِكمْ تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُبَارَكَةً طَيِّبَةً كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُــمُ الآيَــاتِ لَعَلَّكُــمْ تَعْقِلُــونَ ﴾ (النور: ٦١).

الترتيب الذي جاءت عليه الآية في ذكر هذه الأصناف هو ترتيب تنازلي في رفع الحرج حسب درجة القرابة الآباء أولاً ، فالأمهــات ، فــالإخوة ، فالأخوات ، فالأعمام، فالعمات فالأخوال ،فالخالات.

سورة الفرقان

لما ختمت سورة النور ببيان عظيم مكانة النبي ﷺ والتنبيه على عظمة علم الله سبحانه وتعالى وإحاطته بكل شيء ابتدأت سورة الفرقان بالحديث عن صفة الله عز وجل الذي أنزل هذا القرآن المشتمل على هذه الأوامر العظيمة لا سيما تلك التي ذكرت في السورة من أولها لآخرها كحكم الزنى والقذف والاستئذان والحجاب..

﴿ وَاتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً لاَ يَخْلُقُونَ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلاَ يَمْلِكُونَ لأَنفُسِهِمْ ضَرّاً وَلاَ نَفْعاً وَلاَ يَمْلِكُونَ مَوْتاً وَلاَ حَيَاةً وَلاَ نُشُوراً ﴾ (الفرقان:٣).

تقدم في هذه الآية الكريمة المسند إليه على الفعل في قوله: **{هم يُخلَقون}** هذا التقدم من أجل ثبوت الفعل للفاعل وتوكيده ودفع الشك عنه، لا قصره عليه من أجل أن يتمكن في نفس السامع ، فجاء هذا التقديم لتكذيب المدعين، فإنهم وإن كانوا لا ينكرون أنها مخلوقة، فإن عبادتها تقتضي أنها غير مخلوقة، لأن العقل يقتضي أن يكون المعبود خالقاً،لا مخلوقاً.

قال صاحب درة التنزيل: "وقال قبله في سورة الرعد ، وكان حكم هذه الآية أن تذكر هناك **﴿ قُلْ مَن رَّبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ قُلِ اللَّهُ قُلْ أَفَاتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ لاَ يَمْلِكُونَ لأَنفُسِهِمْ نَفْعاً وَلاَ ضَرّاً قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ ﴾** (الرعد:١٦)، للسائل أن يسأل عن تقديم نفع على ضر في سورة الرعد ، وعكس ذلك في سورة الفرقان ، وما الذي أوجب هذا الاختلاف .

الجواب أن يقال: أما في سورة الرعد فإنه قدم فيه الأفضل على الأنقص لأن اجتلاب النفع أشرف من استدفاع الضر ، وهو رتبة فوقه ، فمن فاته كمال ذلك طلب دفع الضرر ، فهو على وجهه في الترتيب . وأما في سورة الفرقان فإنه بنى على ما قبله وهو **{لا يخلقون شيئاً وهم يخلقون}** وقوله : **{لا يخلقون}** نفي **{وهم يخلقون}** إثبات فقدم النفي على الإثبات ، وكان

الضر نفياً والنفع إثباتاً ، أي النفع إثبات المصالح وإيجادها والضر نفيها ، فكما قدم قبله ما نفي على ما أثبت ، حمل المعطوف عليه ليكون مشاكلاً له".[1]

أقول: وقد قدم الضر هنا أيضاً على النفع في قوله : { **ولا يملكون لأنفسهم ضراً ولا نفعاً** } . لمناسبته وصف القرآن بالنذير في الآية الأولى ﴿ **تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيراً** ﴾(الفرقان : ١) .
﴿ **وَكُلاً ضَرَبْنَا لَهُ الأَمْثَالَ وَكُلاً تَبَّرْنَا تَتْبِيراً** ﴾ (الفرقان:٣٩) .

تقدم المفعول به {**كلاً**} على فاعله {**ضربنا**} و{**تبرنا**} والتقديم هنا للعناية بذكرهم والاهتمام بما أخبر الله عن صنيعهم، لأن الآيات السابقة على هذه الآية تحدثت عما فعله الله بالأمم السابقة فذكرت قوم فرعون وقوم نوح وعاد وثمود وأصحاب الرس من قوله تعالى: ﴿ **فَقُلْنَا اذْهَبَا إِلَى الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَدَمَّرْنَاهُمْ تَدْمِيراً** ﴾ (الفرقان:٣٦).
إلى قوله تعالى: ﴿ **وَأَصْحَابَ الرَّسِّ وَقُرُوناً بَيْنَ ذَلِكَ كَثِيراً** ﴾ (الفرقان:٣٨).
﴿ **أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلاً** ﴾ (الفرقان:٤٢)، أصل الترتيب في هذه الآية هو: أفرأيت من اتخذ هواه إلهه ، فهواه هو المفعول الأول وإلهه هوالمفعول الثاني فما السبب في هذا التقديم ؟ هنا أقوال عدة لأهل العلم ذكرها الألوسي الذي يرى أن التقديم للاعتناء به من حيث إنه الذي يدور عليه أمر التعجيب لا من حيث إن الإله يستحق التعظيم والتقديم كما قيل : أي أرأيت الذي جعل هواه إلهاً لنفسه بأن أطاعه وبنى عليه أمر دينه معرضاً عن استماع الحجة الباهرة وملاحظة البرهان النير بالكلية على معنى انظر إليه وتعجب منه ، قال : "وقال ابن المنير في تقديم المفعول الثاني هنا نكتة حسنة وهي إفادة الحصر فإن الكلام قبل دخول{ **أرأيت** ، **واتخذ**} الأصل فيه هواه إلهه على أن هواه مبتدأ خبره إلهه فإذا قيل إلهه هواه كان من تقديم الخبر على المبتدأ وهو يفيد الحصر فيكون معنى الآية حينئذ أرأيت من لم يتخذ معبوده إلا هواه وذلك أبلغ في ذمه وتوبيخه .

ثم ذكر الألوسي قول صاحب الفرائد : تقديم المفعول الثاني يمكن حيث يمكن تقديم الخبر على المبتدأ والمعرفتان إذا وقعتا مبتدأ وخبراً ، فالمقدم

---

(١) درة التنزيل ص١٨١.

هو المبتدأ فمن جعل ما هنا نظير قولك : علمت منطلقاً زيداً فقد غفل عن هذا ، ويمكن أن يقال : المتقدم هاهنا يشعر بالثبات بخلاف المتأخر فتقدم {**إلــهه**} على هواه .

وتعقب ذلك الطيبي فقال: لا يشك في أن مرتبة المبتدأ التقديم وأن المعرفتين أيهما قدم كان المبتدأ لكن صاحب المعاني لا يقطع نظره عن أصل المعنى فإذا قيل : زيد الأسد فالأسد هو المشبه به أصالة ومرتبته التأخير عن المشبه بلا نزاع فإذا جعلته مبتدأ في قولك الأسد زيد فقد أزلته عن مقره الأصلي للمبالغة ، وما نعني بالمقدم إلا المزال عن مكانه لا القار فيه فالمشبه به هنا الإله والمشبه الهوى لأنــهم نزلوا أهواءهم في المتابعة منــزلة الإله فقدم المشبه به الأصلي وأوقع مشبــها ليؤذن أن الهوى في استحقاق العبادة عندهم أقوى من الإله عز وجل كقوله تعالى :{ **قالوا إنما البيع مثل الربا** }. تعقب الألوسي على الطيبي بأن الأمر دائر مع القرينة والقرينة هنا قائمة على أن {**إلهه**} الخبر وهي عقلية لأن المعنى على ذلك فلا حاجة إلى جعل ذلك من التقديم المعنوي ، ثم نقل عن شيخ الإسلام: من توهم أنــهما على الترتيب بناء على تساويهما فقد زل عنه لأن المفعول الثاني في هذا الباب هو الملتبس بالحالة الحادثة، وفي ذلك رد على أبي حيان حيث أوجب كونــهما على الترتيب ". [١]

﴿ وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ بُشْراً بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُوراً. لِنُحْيِيَ بِهِ بَلْدَةً مَّيْتاً وَنُسْقِيَهُ مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَاماً وَأَنَاسِيَّ كَثِيراً﴾

(الفرقان: ٤٨،٤٩)

قال أبوحيان: "وقدم إحياء الأرض وسقي الأنعام على سقي الناس لأن حياتــهم بحياة أرضهم، وحياة أنعامهم فقدم ما هو السبب في ذلك ، ولأنــهم إذا وجدوا ما يسقي أرضهم ومواشيهم وجدوا سقياهم ".[٢] وقد ذهب الرازي إلى ما ذهب إليه أبو حيان.

أقول:وقد يكون التقديم هنا من باب الأسبق بالانتفاع فإن أول ما يستفيد بالمطر هو الأرض ثم النبات ثم الأنعام ثم الإنسان .

---

(١) روح المعاني ج١٩ ص٢٢،٢٣.

(٢) البحر المحيط ج٦ ص ٣٦٣ ، مفاتيح الغيب ج٢٤ ص٩١.

﴿ وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الذينَ يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْناً وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الجاهلون قَالُوا سَلاماً . وَالَّذينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِم سُجَّداً وَقِيَاماً . وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَاماً . إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَراً وَمُقَاماً . وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَاماً . وَالَّذِينَ لاَ يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ وَلاَ يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ وَلاَ يَزْنُونَ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَاماً . يُضَاعَفْ لَهُ العَذَابُ يَوْمَ القِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَاناً . إِلاَّ مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صَالِحاً فَأُوْلَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِم حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَّحِيماً . وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَالِحاً فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَاباً . وَالَّذِينَ لاَ يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَاماً . وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِم لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمّاً وَعُمْيَاناً . وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَاماً ﴾ (الفرقان:٦٣-٧٤).

تقدمت في هذه الآيات الكريمات صفات الفعل على صفات الترك أو صفات التحلي على صفات التخلي ، وبدأت بذكر أول صفات عباد الرحمن وهي أنهم **{الذين يمشون على الأرض هونا}** وهي صفة أهل التواضع وأصحاب النفوس الطيبة التي سلمت من الكبر وهو المانع الأول والحجاب الأعظم عن قبول الحق الذي صد الكثير عن الإيمان وكان سبباً في ملازمتهم الكفر والطغيان من الذين قال الله فيهم: **{وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلماً وعلوا}**، فأهل التواضع هم أولى الناس بقبول الحق وعدم التكبر عليه، فقادهم ذلك إلى قبول الحق والإذعان لهم فكانوا من الذين قال الله فيهم **{تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علواً في الأرض ولا فساداً والعاقبة للمتقين}** فإذا ما أوذوا من قبل الجاهلين بسيئ القول لم يلتفتوا إلى إيذاء الخلق لانشغالهم بصفات الحق ، فقالوا سلاما ، هذا التواضع والذل ظهر في أعظم صوره بياناً عندما وضعوا جباههم خضعاناً وصفوا أقدماهم فرقاناً ، وهم مع ذلك لا يستطيلون بطاعة ولا يتيهون بعبادة، فالتقصير وخوف عدم الوفاء بحق العبودية لازم لقلوبهم ومن ثم قالوا : **{ربنا اصرف عنا عذاب جهنم}** فإذا ما التفتوا لحاجة نفوسهم وحاجات حياتهم كان منهج الاعتدال الذي يجنبهم الاعتلال ولا يصل إلى الاختيال ، فليست الدنيا

عندهم بمطلوب وإنما وراءها محبوب ومرغوب لم يصرفهم عن الوصول إليه انشغال بمركوب ، وقد تقدم السجود على القيام مع أن القيام قبله وقد مر بنا من قبل في سورة آل عمران في قوله تعالى :{ **يا مريم اقنتي لربك واسجدي واركعي مع الراكعين** } وأقرب الآراء أن التقديم لفضل السجود على القيام وفي الحديث{**أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد فأكثروا الدعاء**}.[1]

ولما كانت الصفات السابقة صفات تقبل الإشراك بين أهل الإيمان وأهل الإشراك فنجد من بعضهم تلك الخلال أخبر الله تعالى بأن كل ما سبق لا ينفع عند الله إلا إذا أفرد به وجه ذي الجلال و لم يشرك به في تلك أقوال والأعمال ومن ثم جاء قوله تعالى: {**والذين لا يدعون مع الله إلهاً ءاخر**} فيحبط كل ما صنعوا ، و { **ولا يقتلون النفس التي حرم الله إلا بالحق ولا يزنون** } فيغلب سيئه أحسن ما عملوا ، فلما طابت نفوسهم وطابت أعمالهم وصفت عبادتـــهم فيما بينـــهم وبين الله ، ذكر الله تعالى أن كل ما سبق أورثهم حباً لله أقوى من كل حب لغيره مهما مال له القلب أو علق ومن ثم قال تعالى: {**والذين لا يشهدون الزور وإذا مروا باللغو مروا كراما**} ولما كان عباد الرحمن بشراً تعتريهم صفات الغفلة والنسيان فقد يقصرون في حق أو يهملون في واجب ذكر الله تعالى أن ذلك صفة عارضة وسحابة عابرة سرعان ما تمر فيأتي ضوء الشمس المنتشر فقال تعالى: {**والذين إذا ذكروا بآيات ربـــهم لم يخروا عليها صماً وعميانا**} فلما عاشوا في ذلك النعيم وذاقوا حلاوة العبودية لربـــهم الكريم لم تسترح نفوسهم أو تقر عيونـــهم حتى يروا أقرب الناس منـــهم حباً وألصقهم بـــهم في الحياة سيراً إلا وقد ذاقوا ما ذاقوه وعاشوا ما عرفوه حتى يكونوا لهم في طريق العبودية عوناً فقالوا :{**والذين يقولون ربنا هب لنا من أزواجنا وذرياتنا قرة أعين**} في هذا القول منـــهم إشارة إلى أنه لما كمل نفعهم أحبوا أن يعود ذلك على أتباعهم وبدءوا بالزوجات للإشارة إلى أن في مدحهم صلاحاً للأبناء لأن من شأنـــهم أن يأتوا على نعت أبويهم ، ثم تاقت القلوب إلى السبق في الفضائل بعد الأنس بالذرية

---

(١) مسند أحمد كتاب باقي مسند المكثرين رقم {٩٠٨٣}.

والحلائل فعرفوا أن الريادة في ذلك هي منتهى الشرف وإمامة الناس في الخيرات إلا أصحاب الهمم العاليات دعوا ربـــهم **{ربنا هب لنا من أزواجنا وذرياتنا قرة أعين واجعلنا للمتقين إماما}** .

قال الرازي: " اعلم أنه سبحانه وتعالى ذكر أن من صفة عباد الرحمن الاحتراز عن الشرك والقتل والزنى، ثم ذكر بعد ذلك حكم من يفعل هذه الأشياء من العقاب ، ثم استثنى من جملتـــهم التائب وهاهنا أسئلة :

السؤال الأول : أنه تعالى قبل ذكر هذه الصفة نزه عباد الرحمن عن الأمور الخفية فكيف يليق بعد ذلك أن يطهرهم عن الأمور العظيمة مثل الشرك والقتل والزنى ، أليس أنه لو كان الترتيب بالعكس منه كان أولى ؟ الجواب أن الموصوف بتلك الصفات السالفة قد يكون متمسكاً بالشرك تديناً ومقدماً على قتل الموءودة تديناً وعلى الزنى تديناً فبين تعالى أن المرء لا يصير بتلك الخصال وحدها من عباد الرحمن ، حتى يضاف إلى ذلك كونه مجانباً لهذه الكبائر وأجاب الحسن -رحمه الله - من وجه آخر : فقال : المقصود من ذلك التنبيه على الفرق بين سيرة المسلمين وسيرة الكفار كأنه قال وعباد الرحمن هم الذين لا يدعون مع الله إلهاً آخر ، وأنتم تدعون ، ولا يقتلون النفس التي حرم الله إلا بالحق ، وأنتم تقتلون الموءودة ولا يزنون وأنتم تزنون ".[1]

وقد جاء نفي القتل بعد الشرك إذ إن قتل النفس بغير حق أعظم الذنوب بعد الشرك قال تعالى:**﴿ وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِناً مُتَعَمِّداً فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِداً فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَاباً عَظِيماً﴾** (النساء:٩٣) .

روى البخاري عن أنس بن مالك ﷺ قال سئل النبي ﷺ عن الكبائر قال: **{ الإشراك بالله وعقوق الوالدين وقتل النفس وشهادة الزور}** وفي سنن أبي داود عن واثلة بن الأسقع قال : أتينا رسول الله ﷺ في صاحب لنا أوجب يعني النار بالقتل فقال : **{أعتقوا عنه يعتق الله بكل عضو منه عضواً منه من النار}**[2].

---

(١) مفاتيح الغيب ج٢٤ ص ١١٠.

(٢) البخاري كتاب الشهادات حديث رقم{٢٤٥٩} سنن أبي داود كتاب العتق حديث رقم {٣٢٥١}.

وحول معنى الترتيب بين هذه الآيات قال شيخ الإسلام ابن تيمية: "أكبر الكبائر ثلاث، الكفر، ثم قتل النفس بغير حق، ثم الزنى ، كما رتبـــها الله في قوله: {**والذين لا يدعون مع الله إلهاً آخر ولا يقتلون النفس التي حرم الله إلا بالحق ولا يزنون** }وفي الصحيحين من حديث عبد الله بن مسعود قال: "قلت : يا رسول الله ﷺ أي الذنب أعظم ؟ قال: {**أن تجعل لله نداً وهو خلقك قلت ثم أي؟ قلت أن تقتل ولدك خشية أن يطعم معك قلت ثم أي؟ قال: أن تزاني حليلة جارك**} ولهذا الترتيب وجه معقول وهو أن قوى الإنسان ثلاث - قوة العقل وقوة الغضب وقوة الشهوة -فأعلاها القوة العقلية التي يختص بـــها الإنسان دون سائر الدواب...

ثم القوة الغضبية التي فيها دفع المضرة ثم القوة الشهوية التي فيها جلب المنفعة ..فالكفر متعلق بالقوة العقلية الناطقة الإيمانية ولهذا لا يوصف به من لا تمييز له والقتل ناشئ عن القوة الغضبية وعدوان فيها والزنى عن القوة الشهوية فالكفر اعتداء وفساد في القوة العقلية الإنسانية وقتل النفس اعتداء وفساد في القوة الغضبية والزنى اعتداء وفساد في القوة الشهوية .

وفيه وجه آخر ظاهر أن الخلق خلقهم الله لعبادته وقوام الشخص بجسده وقوام النوع بالنكاح والنسل فالكفر فساد في المقصود الذي له خلقوا وقتل النفس فساد النفس الموجودة والزنى فساد في المنتظر من النوع فذاك إفساد الموجود وذاك إفساد لما لم يوجد بمنـــزلة من أفسد مالاً موجوداً أو منع المنعقد أن يوجد وإعدام الموجود أعظم فساداً فلهذا كان الترتيب كذلك ، ومن وجه ثالث أن الكفر فساد القلب والروح الذي هو ملك الجسد والقتل إفساد للجسد الحامل له وإتلاف الموجود وأما الزنى فإفساد في صفة الوجود ولا في أصله ولكن هذا يختص بالزنى ومن هنا يتبين أن اللواط أعظم فساداً من الزنى" (١)

وقد تكلم الشيخ طنطاوي جوهري عن علة التقديم والتأخير بين الخصلة السادسة وهي عدم الإشراك بالله والخصلة الحادية عشرة وهي أنــهم إذا

---

(١) التفسير الكبير لابن تيمية ج٦ ص٣٠٥.

ذكروا بآيات ربـــهم لم يخروا عليها صماً وعمياناً ، ورأى أن التقديم هنا من باب تقديم النتيجة على المقدمة ودافع عن رأيه وأطال وأسهب مفسرا الآيات هنا بأنـــها الآيات الكونية والعلوم الطبيعية وعاب وذم من قصر نظره وتفسيره ووعظه على كلمتي الإيمان والصلاح داعياً إلى فتح الأعين لعجائب قدرة الله في خلقه عن طريق العلوم الطبيعية والتجريبية يقول: "فملخص السورة إخراج علماء في الإسلام يقرءون نظام السموات والأرض ويكونون حكماء هادين لذرياتـــهم وزوجاتـــهم وأمتـــهم فلولا ذكر التوحيد قبل التذكير بآيات الله وعدم الإعراض عنها ما تيسر لنا فهم هذه المعاني ، إن هذه المعاني استخرجت من تأخير وتقديم ،وكأن هذا كهرباء ومغناطيس بـــهما أشرق النور وبـــهر الفرقان، ثم يعلق بعد ذلك على ما ذكر من معان، وأن الباب الذي كشف له ذلك كله إنما هو باب التقديم والتأخير فيقول:" فانظر إلى أمر التقديم والتأخير في جملتين قد أثارا موضوعاً يتعلق بحياة أمتنا الإسلامية ويبين عيوبـــها ومخازيها ويفضح سر تأخرها وينير السبيل لتقدمها وارتقائها".[1]

أقول: لقد بالغ الشيخ رحمه الله في أمرين الأول سبب للثاني : أما أولاهما فحصره المعنى في قوله تعالى: **{الذين إذا ذكروا بآيات ربـــهم لم يخروا عليها صماً وعميانا}** بالآيات الكونية والعلوم الطبيعية والتجريبية ، أداه ذلك إلى الأمر الثاني وهو سحب الوصفين - الصمم والعمى- وهما الوصفان اللذان ضربـــهما الله مثلاً للكافر فقال: **{مثل الفريقين كالأعمى والأصم والبصير والسميع هل يستويان مثلا}** فألصقهما - غفر الله له - بأهل الإسلام بل أهل الدعوة والبيان ، وكأنه يطالب كل عالم ومفسر وواعظ ومحدث أن يكون عالما متخصصاً وباحثاً مدققاً في هذه العلوم إذا ما تحدث عن القرآن، ومع أن ما ذكره غوص في المعاني محمود غير أن ما رمى به غيره من الفهم المحدود غير سالم من الردود ، كيف وقد راجعت كتب أئمة أهل التفسير فوجدتـــهم قد ذهبوا إلى أن المقصود بالآيات هنا هو ما يفهم من

---

(١) الجواهر في تفسير القرآن الكريم ، المجلد السادس من ص٢٤٦-٢٥٤ .

ظاهر الآية أنها آيات القرآن الكريم ، منهم الطبري، والزمخشري والرازي والقرطبي وابن كثير وأبو الفرج ابن الجوزي والسيوطي والصاوي ومحمد الأمين الشنقيطي والشوكاني ومحمد محمود حجازي والمراغي والقاسمي وابن عاشور، وقد وجدت كلام الطبري والمراغي هنا متطابقاً مع ما ذكرته في كون الصمم والعمى في الآية المراد به الكفار .

قال الطبري: " فإن قال قائل وما معنى قوله : **{ لم يخروا عليها صماً وعميانا}** أو يخر الكافرون صماً وعمياناً إذا ذكروا بآيات الله ؟ قيل :نعم الكافر إذا تليت عليه آيات الله خر عليها أصم وأعمى ، وخره عليها كذلك إقامته على الكفر"

قال القاسمي: " وإنما عبر بنفي الضد تعريضاً بما يفعله الكفرة والمنافقون من شدة الإباء والنفرة".

قال المراغي: "هذا تعريض بما عليه الكفار والمنافقون إذا سمعوا كلام الله لم يتأثروا به ولم يتحولوا عما كانوا عليه بل يستمرون على كفرهم وعصيانهم وجهلهم وضلالهم وكأنهم صم لا يسمعون وعمي لايبصرون " (1)

قال الألوسي: في قوله تعالى: **{ربنا هب لنا من أزواجنا وذرياتنا قرة أعين }** ومن ابتدائية متعلقة بهب أي هب لنا من جهتهم ، وجوز أن تكون بيانية كأنه قيل : هب لنا قرة أعين ثم بينت القرة وفسرت بقوله سبحانه: **{من أزواجنا وذرياتنا}** وهذا مبني على مجيء من للبيان وجواز تقدم المبِين على المبيَن "(2)

---

(1) تفسير الطبري ، مجلد ١١ ص٥١،مفاتيح الغيب، ج٢٤ ص١١٤ ، الكشاف، ج٣ ص٢٨٧، القرطبي ج١٣ ص٥٥، ابن كثير ج٣ ص٤٠٠ ، فتح القدير ج٤ ص١١١، التفسير الواضح مجلد ٢ ص٧٤٠، حاشية الصاوي، المجلد الرابع ص٣٣٧ التحرير والتنوير ج١٩ ٨١، زاد المسير في علم التفسير مجلد ٦ ص٢٧ ، أضواء البيان ج٦ ص٢٤١،٢٤٠، القاسمي ج١٢ ص٢٨٣ المراغي مجلد٧ ص٤١.

(2) تفسير الألوسي، المجلد العاشر ص٥٢.

سورة الشعراء

لما ختمت سورة الفرقان بذكر الوعيد المترتب على كفر الكافرين **﴿فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَاماً﴾** (الفرقان: ٧٧) كان ذلك سبباً في إشفاق النبي ﷺ عليهم مما هو حالٌ بـــهم فجاء افتتاح سورة الشعراء بتسلية النبي ﷺ وأنه سبحانه لو شاء لأنزل آية تبهرهم وتذل جبابرتـــهم **﴿ لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ أَلاَّ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ۝ إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ ﴾** (الشعراء:٣،٤).

قال الأستاذ عبدالكريم الخطيب: "المناسبة بين هذه السورة والتي قبلها واضحة بحيث يمكن أن تتصل السورتان في سورة واحدة فقد كانت سورة الفرقان معرضاً لمقولات المشركين الحمقاء الطائشة في رسولَ الله وفي القرآن الكريم ، ثم كانت مقولتـــهم حين دعوا إلى أن يسجدوا للرحمن فأنكروا الرحمن وقالوا: **{وما الرحمن}** ثم كان ختام السورة كاشفاً عن الغاية التي خلق من أجلها الإنسان وهي عبادة الله والتسبيح بحمده، وأن هؤلاء المشركين لم يستجيبوا لله و لم يؤمنوا به وكذبوا رسوله، وإذن فهم في عداد السقط الذي لا يؤبه له ولا يحسب له حساب .

وقد جاء بدء سورة الشعراء متلاقياً مع هذه المعاني التي ضمت عليها سورة الفرقان..

فأولاً: في قوله تعالى : **{طسم تلك آيات الكتاب المبين}** هو رد على قول المشركين في سورة الفرقان **{إن هذا إلا إفك افتراه وأعانه عليه قوم آخرون}** .

وثانياً : قوله تعالى: **{لعلك باخع نفسك ألا يكونوا مؤمنين}** هو نتيجة لازمة لما تضمنه قوله تعالى في ختام سورة الفرقان **{قل ما يعبأ بكم ربي لولا دعاؤكم}** أي أنه لا وزن ولا حساب لمن لا يؤمن به ولا يقيم وجهه عليه ، إنه شيء تافه لا يحرص على الإمساك به ولا يحزن على فقده وهؤلاء المشركون وقد رضوا لأنفسهم أن يكونوا على هذا الوصف فإنـــهم

لا يستحقون منك أيها النبي هذا الحرص الشديد على هدايتـــهم ولا هذا النبي المضنى على ما هم فيه من ضلال، فإنك لو نظرت إليهم حسب وضعهم عند الله بين المخلوقات لوجدتـــهم في منـــزلة دون منـــزلة الهوام والحشرات فكيف تـــهلك نفسك أسى على هلاكهم وضياعهم ..

وثالثاً: في قوله تعالى:{**وما يأتيهم من ذكر من الرحمن محدث إلا كانوا عنه معرضين**} توكيد لتلك الصفة من صفات الله التي أنكرها المشركون حين قيل لهم اسجدوا للرحمن فقالوا: {**وما الرحمن**}.[1]

﴿ **وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ** ﴾ (الشعراء:٩).

تقدم ذكر العزيزعلى ذكر الرحيم ، لأنه لو لم يقدمه لكان ربما قيل إنه رحمهم لعجزه عن عقوبتـــهم ، فأزال هذا الوهم بذكر العزيز، وهو الغالب القاهر ومع ذلك فإنه رحيم بعباده ، فإن الرحمة إذا كانت عن القدرة الكاملة كانت أعظم وقعاً وكذلك في تقديم العزيز تناب الجوار لما قبله فقد جاء قبلها في الآية المكررة في كل قصة {**إن في ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين**} .

﴿ **وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ ۝ إِذْ قَالَ لأَبِيهِ وَقَوْمِه مَا تَعْبُدُون ۝ قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَاماً فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ ۝ قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ۝ أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ ۝ قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ ۝ قَالَ أَفَرَأَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُون ۝ أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمُ الأَقْدَمُونَ ۝ فَإِنـــهم عَدُوٌّ لِي إِلا رَبَّ الْعَالَمِين ۝ الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِين ۝ وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِين ۝ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِين ۝ وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِين ۝ وَالَّذِي أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّين ۝ رَبِّ هَبْ لِي حُكْماً وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِين ۝ وَاجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الآخِرِينَ ۝ وَاجْعَلْنِي مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ ۝ وَاغْفِرْ لأَبِي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ ۝ وَلا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ** ﴾ (الشعراء:٦٩-٨٧).

جاء الترتيب في هذه الآيات وفق الحكمة في الدعوة إلى الله تعالى حيث مناسبة المقال لمقتضى الحال فتتعدد الأساليب بتعدد الأحوال ، وهنا نجد أن نبي الله إبراهيم – عليه السلام- يخاطب قوما وثنيين ورثوا عقائدهم عن طريق الآباء والأجداد ، وتغلغلت هذه العقيدة في نفوسهم ، وأشربوها في قلوبـــهم

---

(١) التفسير القرآني ج١٩ ص٦٩- ٧١.

فكان المناسب أن يبدأهم أولاً بما يحطم هذه الحواجز والعوائق التي تعيق وصول الإيمان إلى قلوبــهم ، ثم راح يذكرهم بما جبل عليه الإنسان من طلب النفع ودفع الضرر ممن يعبده ، وذلك منتف في هذه المعبودات الباطلة ، وذلك أمر ثان يساعده في إقناعهم بالتخلي عنها فإذا ما أقنعهم بذلك ولفت الأذهان إلى فهمه والاقتناع به راح يدعوهم إلى العقيدة الأخرى والتي فيها من الأسباب التي تدعو إلى الإيمان بــها بينما هي منفية عن الأخرى فبدأ يعرفهم بالله عز وجل وذكر صفات الربوبية والإنعام والإكرام وجلب كل خير ودفع كل شر، ونجد في هذه الآيات أن إبراهيم -عليه السلام- بدأ في دعوته بالأقرب فتقدم ذكر أبيه على ذكر قومه في قوله تعالى: {**إذ قال لأبيه وقومه ما تعبدون**} كما في ورد في الآية الرابعة عشرة بعد المائة الثانية من نفس السورة {**وأنذر عشيرتك الأقربين**}، وكما في الآية السادسة من سورة التحريم {**يا أيها الذين ءامنوا قوا أنفسكم وأهليكم ناراً وقودها الناس والحجارة**}.

وحول هذا المعنى قال الزمخشري: "وما أحسن ما رتب إبراهيم – عليه السلام – كلامه مع المشركين حين سألهم أولاً عما يعبدون سؤال مقرر لا مستفهم ، ثم أنحى على آلهتــهم فأبطل أمرها بأنــها لا تضر ولا تنفع ولا تبصر ولا تسمع ، وعلى تقليدهم آباءهم الأقدمين فكسره وأخرجه أن يكون شبهة ، فضلاً أن يكون حجة ثم صور المسألة في نفسه دونــهم حتى تخلص منها إلى ذكر الله عز وعلا فعظم شأنه وعدد نعمته من لدن خلقه وإنشائه إلى حين وفاته مع ما يرجى في الآخرة من رحمته ثم أتبع ذلك بأن دعاه دعاء المخلصين وابتهل إليه ابتهال الأوابين، ثم وصله بذكر يوم القيامة وثواب الله وعقابه وما يدفع إليه المشركون يومئذ من الندم والحسرة على ما كانوا فيه من الضلال وتمني الكرة إلى الدنيا ليؤمنوا ويطيعوا".[1] .

قال أبوحيان: "وقدم إبراهيم -عليه السلام- الثناء على الله تعالى، وذكره بالأوصاف الحسنة بين يدي طلبته ومسألته ، ثم سأله تعالى فقال:

---

(١) الكشاف ج٧ ص٢٣.

{**رب هب لي حكماً**} فدل على أن تقديم الثناء على المسألة من المهمات" ، وإلى ذلك ذهب الرازي أيضاً .[1]

وهناك احتمال آخر وهو أن هذا الثناء لم يكن بقصد تقديمه بين يدي دعائه بل كان في معرض دعوة إبراهيم قومه إلى الله وتعريفهم به سبحانه وتعالى.

قال الزمخشري: "وإنما قدم قوله: {**رب هب لي حكماً**}على قوله: {**وألحقني**} لأن القوة النظرية مقدمة على القوة العملية ، لأنه يمكنه أن يعلم الحق وإن لم يعمل به ، وعكسه غير ممكن ، لأن العلم صفة الروح والعمل صفة البدن[2]

أقول: وكان ينبغي للرازي أن يقيد العلم الأفضل من الإصلاح بالعلم الذي يعمل به إذ إن كثيراً من آي القرآن قد ذمت الذين يعلمون ولا يعملون كما في قوله تعالى في نفس السورة:﴿ **أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ** ﴾ (الشعراء:٢٢٥،٢٢٦) ،وقوله تعالى:﴿ **كَبُرَ مَقْتاً عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ**﴾ (الصف:٣).

وفي **صحيح البخاري** عن أبي وائل قال : قيل لأسامة لو أتيت فلاناً فكلمته قال إنكن لترون أني لا أكلمه إلا أسمعكم أني أكلمه في السر دون أن أفتح باباً لا أكون أول من فتحه ولا أقول لرجل إن كان عليَّ أميراً إنه خير الناس بعد شيء سمعته من رسول الله ﷺ قالوا وما سمعته يقول ؟ قال سمعته يقول يجاء بالرجل يوم القيامة فيلقى في النار فتندلق أقتابه في النار فيدور كما يدور الحمار برحاه فيجتمع أهل النار عليه فيقولون : أي فلان ما شأنك؟ أليس كنت تأمرنا بالمعروف وتنهانا عن المنكر ؟ قال: كنت آمركم بالمعروف ولا آتيه وأنهاكم عن المنكر وآتيه" [3]، روى الدارمي في سننه عن معاذ بن جبل ﷺ قال : "لا يدع الله العباد يوم القيامة يوم يقوم الناس لرب العالمين حتى يسألهم عن أربع عما أفنوا فيه أعمارهم وعما أبلوا فيه أجسادهم وعما كسبوا فيما أنفقوا وعما عملوا فيما علموا".[4]

---

(١) مفاتيح الغيب ج٢٤ ص١٤٧ ، ١٤٨ ، البحر المحيط الشعراء ج٧ الآية٦٩-٨٧.

(٢) الكشاف ج٣ ص٣١٢،٣١٣.

(٣) صحيح البخاري كتاب بدء الخلق رقم{ ٣٠٢٧ }.

(٤) سنن الدارمي من كتاب المقدمة رقم { ٥٣٧ }.

﴿ **فَمَا لَنَا مِن شَافِعِينَ • وَلاَ صَدِيقٍ حَمِيمٍ** ﴾ (الشعراء:١٠٠،١٠١) .
لماذا تقدم الشفعاء على الأصدقاء ؟ أقول :الجواب لمناسبة ما قبله فإن قبلها ﴿ **تَاللَّهِ إِن كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ • إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ الْعَالَمِينَ** ﴾ (الشعراء:٩٧،٩٨).

حيث كان هؤلاء المشركين يتوجهون إلى معبوداتـــهم الباطلة باعتقادهم الفاسد فيها أنـــها تشفع عند الله، وكذلك لاستبعاد وجود ولاية بين المؤمنين وبينـــهم في الدنيا فهي أشد استبعاداً في الآخرة ، فإذا كانت مودتـــهم بين بعضهم البعض في الدنيا سوف تنقلب إلى عداوة يوم القيامة كما قال تعالى : ﴿ **الأَخِلاَّءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلاَّ الْمُتَّقِينَ** ﴾ (الزخرف:٦٧) فمن باب أولى أنه لن يكون هناك بينـــهم وبين المؤمنين ولاية في الآخرة .وقد عُكس هذا الترتيب في سورة غافر في قوله تعالى:﴿ **مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلاَ شَفِيعٍ يُطَاعُ**﴾ (غافر:١٨) نفى الله عنـــهم وجود الحميم قبل الشفيع لأنـــهم يئسوا من الشفاعة وطمعوا في الصلة والقرابة والصداقة .

﴿ **إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلاَ تَتَّقُونَ • إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ • فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ • وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ** ﴾ (الشعرتء:١٠٦-١٠٩).

قال أبوحيان: "وقدم الأمر بتقوى الله على الأمر بطاعته لأن تقوي الله سبب لطاعة نوح – عليه السلام–".(١)

أقول: وأيضاً من باب تقديم الغايات على الوسائل فإن التقوى هي مقصود الطاعة وتقدم قوله: {**إني لكم رسول أمين**} على قوله:{**وما أسألكم عليه من أجر**} ليثبت أمانته قبل نفي التـــهمة عنه ليكون أعظم في الإقناع وأدعى إلى طاعته وتصديقه وعدم تكذيبه .

ومثل ذلك ما ورد في السيرة النبوية عندما أُمر النبي ﷺ إنذار قومه بقوله تعالى: ﴿ **وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ** ﴾ (الشعراء:٢١٤)، فقد روى البخاري ومسلم من رواية ابن عباس {خرج رسول الله ﷺ حتى صعد الصفا فهتف يا صباحاه فقالوا من هذا فاجتمعوا إليه فقال أرأيتم إن أخبرتكم أن خيلاً تخرج

---

(١) البحر المحيط جـ٧ ص٣٠.

من سفح هذا الجبل أكنتم مصدقي ؟ قالوا ما جربنا عليك كذباً قال فإني نذير لكم بين يدي عذاب عظيم".[1]

﴿ وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ ۞ وَمَا يَنْبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ ۞ إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ ﴾ (الشعراء: ٢١٠-٢١٢).

يرى أبوحيان أن التقديم في هذه الآيات للترقي في النفي قال: "وما أحسن ما ترتب نفي هذه الجمل ، نفى أولاً تنـزل الشياطين به ، والنفي في الغالب يكون في الممكن ، وإن كان هنا لا يمكن من الشياطين التنـزل بالقرآن ، ثم نفى ابتغاء ذلك والصلاحية ، أي ولو فرض الإمكان لم يكونوا أهلا له ، ثم نفى قدرتهم على ذلك وأنه مستحيل في حقهم التنـزل به ، فارتقى من نفي الإمكان إلى نفي الصلاحية إلى نفي القدرة والاستطاعة وذلك مبالغة مترتبة في نفي تنـزيلهم به ".[2]

﴿ فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذَّبِينَ ۞ وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ۞ وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ۞ فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ ۞ وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ ﴾ (الشعراء: ٢١٣-٢١٧).

جاء الترتيب في هذه الآيات على حسب الأهمية حيث بدأت بالنبي ﷺ ثم بالأقرب فالأقرب ،حيث قال تعالى: **{وأنذر عشيرتك الأقربين }** ثم **{ واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين }** .

---

(١) السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصيلة ص١٦٣.

(٢) البحر المحيط ج٧ ص٤٣.

سورة النمل

لما ختمت سورة الشعراء بإثبات أن القرآن من عند الله ونفي الشبه الباطلة عنه من وصفه بالشعر وأن الشياطين تتنـــزل به ﴿**وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ ، وَمَا يَنبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ**﴾ (الشعراء: ٢١٠،٢١١) .

أتبع ذلك التنـــزيه في سورة الشعراء بالثناء والمدح في سورة النمل فقال تعالى: ﴿ **طس تِلْكَ آيَاتُ الْقُرْآنِ وَكِتَابٍ مُّبِينٍ ، هُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ** ﴾ (النمل: ١،٢).﴿**الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُم بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ. إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَالَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ** ﴾ (النمل:٣،٤) .

لما كان الإيمان بالبعث هو السبب الأعظم للسعادة ، جاء في هذا الأسلوب الشبه بأسلوب الاختصاص، فقدم أمر الآخرة لأهميتها ، ولما أفهم هذا الأسلوب أن ثم من يكذب بـــها وكان أمرها مركوزاً في الطباع تشوفت نفس السامع على سبيل التعجب.إلى حالهم فقال مجيباً له مؤكداً تعجيباً ممن ينكر ذلك {**إن الذين لا يؤمنون بالآخرة زينا لهم أعمالهم فهم يعمهون**} .

وذكر القاسمي عن صاحب {**الانتصاف**} وجهاً آخر قال: "لما كان أصل الكلام {**وهم يوقنون بالآخرة**} ثم قدم المجرور عامله عناية به ، فوقع فاصلاً بين المبتدأ والخبر فأريد أن يلي المبتدأ خبره وقد حال المجرور بينـــهما فجرى ذكره ليليه الخبر، ولم يفت مقصود العناية بالمجرور حيث بقي على حاله مقدماً"(١)

﴿ **فَلَمَّا جَاءَهَا نُودِيَ أَن بُورِكَ مَن فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ** ﴾ (النمل:٨) .

تقدم النداء بالبركة على تسبيح الله رب العلمين مع أنه أعظم، وذلك لمناسبة الحال من أجل تطمين موسى وإذهاب الروع عن فؤاده .

﴿**وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ**﴾ (النمل:١٧).

---

(١) القاسمي ج٧ ص٤٨٤.

ذكر في هذه الآية ما يعقل وبدأ به لشرفه وبدأ بالجن لعسر جمعهم ثم ثنى بالإنس لشرفهم.

﴿ وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لاَ أَرَى الْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ • لأُعَذِّبَنَّهُ عَذَاباً شَدِيداً أَوْ لأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ • فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ • إِنِّي وَجَدتُّ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ • وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ اللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لاَ يَهْتَدُونَ ﴾ (النمل: ٢٠-٢٤) .

قال أبوحيان: "وما أحسن انتقالات هذه الأخبار بعد تـهدد الهدهد وعلمه بذلك : أخبر أولاً باطلاعه على ما لم يطلع عليه سليمان تحصناً من العقوبة بزينة العلم الذي حصل له ، فتشوف السامع إلى علم ذلك ، ثم أخبر ثانياً بتعلق ذلك العلم وهو أنه من سبأ ، وأنه أمر متيقن لا شك فيه فزاد تشوف السامع إلى سماع ذلك النبأ، ثم أخبر ثالثاً عن المُلك الذي أوتيته امرأة ، وكان سليمان -عليه السلام- قد سأل الله أن يؤتيه ملكاً لا ينبغي لأحد من بعده ، ثم أخبر رابعاً ما ظاهره الاشتراك بينه وبين هذه المرأة التي ليس من شأنـها ولا من شأن النساء أن تملُك فحول الرجال وهو قوله: {**وأوتيت من كل شيء** } وقوله :{**ولها عرش عظيم**} وكان سليمان له بساط قد صنع له، وكان عظيماً ولما لم يتأثر سليمان للإخبار بـهذا كله، إذ هو أمر دنيوي، أخبره خامساً بما يهزه لطلب هذه الملكة ودعائها للإيمان ، وإفراده بالعبادة فقال : {**وجدتـها وقومها يسجدون للشمس من دون الله**}.[(١)]

﴿ أَلاَّ يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ﴾ (النمل:٢٥) .

قال الرازي :"فإن قيل إن إبراهيم وموسى -عليهما السلام- قدما دلالة النفس على دلالة الآفاق فإن إبراهيم قال: {**ربي الذي يحي ويميت**} ثم قال: { **فإن الله يأتي بالشمس من المشرق** } وموسى -عليه السلام- قال: {**ربكم ورب آبائكم الأولين**} ثم قال {**رب المشرق والمغرب**} فلم كان

---

(١) البحر المحيط ج٧ ص٦٥.

الأمر هاهنا بالعكس فقدم خبء السموات على خبء الأرض ؟ جوابه أن إبراهيم وموسى - عليهما السلام - ناظرا مع من ادعى إلهية البشر ثم انتقلا إلى إبطال إلهية السموات، وهاهنا المناظرة مع من ادعى إلهية الشمس لقوله: **{وجدتــها وقومها يسجدون للشمس من دون الله}** فلا جرم ابتدأ بذكر السماويات ثم بالأرضيات ". [1]

﴿ إِنَّهُ مِن سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾ (النمل: ٣٠).

قال أبوحيان: "والظاهر أن بداءة الكتاب من سليمان **{بسم الله الرحمن الرحيم}** إلى آخر ما قص الله منه خاصة فاحتمل أن يكون **{من سليمان}** مقدماً على **{بسم الله}** وهو الظاهر، وقدمه لاحتمال أن يندر منها ما لا يليق إذ كانت كافرة، فيكون اسمه وقاية لاسم الله تعالى، أو كان عنواناً في ظاهر الكتاب وباطنه فيه **{بسم الله}** إلى آخره ، واحتمل أن يكون مؤخراً في الكتابة عن **{بسم الله}** وأن ابتداء الكتاب بسم الله ، وحين قرأته عليهم بعد قراءها له في نفسها قدمته في الحكاية وإن لم يكن مقدماً في الكتابة" .

وقال أبو بكر بن العربي: "كانت رسل المتقدمين إذا كتبوا كتاباً بدأوا بأنفسهم : من فلان إلى فلان وكذلك جاءت الإشارة ، وعن أنس "ما كان أحد أعظم حرمة من رسول الله وكان أصحابه إذا كتبوا إليه كتابا بدؤوا بأنفسهم". [2]

وقد أحسن الرازي في قوله: " إذ كيف يغيب عن نبي كريم ابتداء الخطاب بذكر اسم الجليل وقد جاء الخبر الصحيح عن نبينا ﷺ **{ كل أمر ذي بال لا يبدأ فيه ببسم الله فهو أبتر}** حيث ذكر تحت عنوان البحث الثاني: يقال لم قدم سليمان اسمه على قوله: **{بسم الله الرحمن الرحيم}** ؟ وجوابه حاشاه من ذلك بل ابتدأ هو ببسم الله الرحمن الرحيم ، وإنما ذكرت بلقيس أن هذا الكتاب من سليمان ثم حكت ما في الكتاب والله تعالى حكى ذلك فالتقديم واقع في الحكاية". [3]

---

(١) مفاتيح الغيب ج٢٤ ص١٩٣. (٢) البحر المحيط ج٧ ص ٦٩. (٣) مفاتيح الغيب ج٢٤ ص ١٩٤

وفقد ذهب الخازن إلى ما ذهب إليه الرازي حيث قال: "فإن قلت لم قدم إنه من سليمان على بسم الله قلت : ليس هو كذلك بل ابتدأ سليمان ببسم الله الرحمن الرحيم وإنما ذكرت بلقيس ، أن هذا الكتاب من سليمان ثم ذكرت ما في الكتاب فقالت: وإنه {**بسم الله الرحمن الرحيم**}.[2]

﴿ **قَالَ هَذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ** ﴾ (النمل:٤٠)

بدأ كما هو عادة الصالحين بتقديم الأدب في الحديث عن الله سبحانه وتعالى ولذا قدم قوله: { **أشكر** } على { **أكفر** } .

﴿ **قُل لاَّ يَعْلَمُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ الْغَيْبَ إِلاَّ اللَّهُ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ·بَلِ ادَّارَكَ عِلْمُهُمْ فِي الآخِرَةِ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّنْهَا بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ** ﴾ (النمل:٦٥،٦٦) .

قال صاحب التحرير: "وترتيب هذه الإضرابات الثلاثة ترتيب لتنـــزيل أحوالهم، فوصفوا أولاً أنـــهم لا يشعرون بوقت البعث ، ثم بأنـــهم تلقفوا في شأن الآخرة التي البعث من شؤونـــها علماً مضطرباً أو جهلاً فخبطوا في شك ومرية ، فأعقبـــهم عمى وضلالة بحيث إن هذه الانتقالات مندرجة متصاعدة حتى لو قيل : بل ادارك علمهم في الآخرة فهم في شك منها فهم منها عمون لحصل المراد، ولكن جاءت طريقة التدرج بالإضراب الانتقالي أجزل وأبهج وأروع وأدل على أن كلاً من هذه الأحوال المترتبة جدير بأن يعتبر فيه المعتبر باستقلاله لا بكونه متفرعاً على ما قبله". [3]

وقدم الجار والمجرور {**منها**} على متعلقه {**عمون**} للاهتمام مع ما فيه من حسن الفاصلة .

﴿ **وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَئِذَا كُنَّا تُرَاباً وَآبَاؤُنَا أَئِنَّا لَمُخْرَجُونَ ·لَقَدْ وُعِدْنَا هَذَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا من قَبْلُ إِنْ هَذَا إِلاَّ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ**﴾ (النمل:٦٧،٦٨).

قال أبوحيان: "وجاء هنا تقديم الموعود به وهو {**هذا**} وتأخر في آية أخرى ، على حسب ما سيق الكلام لأجله ، فحيث تأكد الإخبار عنـــهم بإنكار البعث والآخرة عمدوا إليها بالتقديم على سبيل الاعتناء، وحيث لم يكن ذلك معزواً إلى إنكار إيجاد المبعوث فقدموه وأخروا الموعود به" [3]

---

(١) الخازن ج٤ ص٥٣. (٢) التحرير ج٢٠ ص ٢٣ ، المنار ج٢٠ ص ١٣. (٣) البحر المحيط ج٧ ص٨٩.

والآية الأخرى التي لم يذكرها أبوحيان هي قوله تعالى : ﴿ **لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا هَذَا مِن قَبْلُ إِنْ هَذَا إِلاَّ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ** ﴾ (المؤمنون:٨٣) .

وإلى ما ذهب أبوحيان ذهب الزمخشري حيث قال: "التقديم دليل على أن المقدم هو الغرض المتعمد بالذكر وإن الكلام إنما سيق لأجله ، ففي إحدى الآيتين دل على أن اتخاذ البعث هو الذي تعمد بالكلام ، وفي الأخرى على أن اتخاذ المبعوث بذلك الصدد" .[1]

---

(١) الكشاف ج٣ ص٣٦٨.

سورة القصص

لما ختمت سورة النمل بقوله تعالى :﴿ **وَقُلِ الحَمْدُ للَّهِ سَيُرِيكُمْ آيَاتِه فَتَعْرِفُونَهَا وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ** ﴾ (النمل:٩٣)، وقد سبقت الإشارة من قبل بإذلال الله تعالى للمشركين وقرب نصره لعباده المؤمنين والإشعار بقرب فتح مكة بقوله تعالى:﴿ **إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَذِهِ البَلْدَةِ الَّذِي حَرَّمَهَا وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ المُسْلِمِينَ** ﴾ (النمل:٩١)، اتبع سبحانه وتعالى في هذه السورة قصة بني إسرائيل مع فرعون وما تعرضوا له من بلاء والذي كان آخرها إهلاك فرعون وتمكين بني إسرائيل ولهذا أشار تعالى في كلتا القصتين بقوله في الأولى :﴿**سَيُرِيكُمْ آيَاتِه فَتَعْرِفُونَهَا** ﴾(النمل:٩٣)،وفي القصص بقوله ﴿**وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا منهم مَّا كَانُوا يَحْذَرُونَ**﴾(القصص:٦).

﴿ **إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلا فِي الأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعاً يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِّنْهُم يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ المُفْسِدِينَ** ﴾ (القصص:٤).

ابتدأت القصة بذكر أسبابها، لتكون عبرة للمؤمنين ، يتخذون منها عبراً ودروساً يعلمون بها سنن الله وكيف رتب الأشياء، وأن الأحكام الجارية في سنن الله الكونية تجري وفق علل معروفة وسنن معلومة ، فلولا تجبر فرعون وهو من قبيح الخلال ما حل به وبقومه من الاستئصال ولما خرج بنو إسرائيل من ذل العبودية .

﴿**إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ القَوِيُّ الأَمِينُ**﴾ (القصص:٢٦)، تقدم هنا صفة القوي على صفة الأمين ، وذلك راجع في نظري إلى ترتيب الأحداث في القصة ، حيث ظهرت صفة القوة أولاً ثم ظهرت فيما بعد صفة الأمانة وهذا يتفق وظاهر ورود القصة في القرآن الكريم كما قال تعالى: {**ولما ورد ماء مدين وجد عليه أمة من الناس يسقون ووجد من دونهم امرأتين تذودان قال ما خطبكما قالتا لا نسقي حتى يصدر الرعاء وأبونا شيخ كبير ٠ فسقى لهما ثم تولى إلى الظل فقال رب إني لما أنزلت إلي من خير فقير**}، قال الحافظ ابن كثير: "قال المفسرون: وذلك أن الرعاء كانوا إذا فرغوا من وِردهم وضعوا

على فم البئر صخرة عظيمة فتجيء هاتان المرأتان فيشرعان غنمهما في فضل أغنام الناس، فلما كان ذلك اليوم جاء موسى فرفع تلك الصخرة وحده ، ثم استقى لهما وسقى غنمهما ثم رد الحجر كما كان ، قال أمير المؤمنين عمر وكان لا يرفعه إلا عشرة وإنما استقى ذنوباً واحداً فكفاهما إلى أن قال والمقصود أنه لما أضافه وأكرم مثواه وقص عليه ما كان من أمره بشره بأنه قد نجا فعند ذلك قالت إحدى البنتين لأبيها يا أبت استأجره أي لرعي غنمك ثم مدحته بأنه قوي أمين قال عمر وابن عباس وشريح القاضي وأبو مالك وقتادة ومحمد بن اسحق وغير واحد لما قالت ذلك قال لها أبوها وما علمك بهذا فقالت إنه رفع صخرة لا يطيق رفعها إلا عشرة وإنه لما جئت معه تقدمت أمامه فقال كوني من ورائي فإذا اختلف الطريق فاقذفي لي بحصاة أعلم بها كيف الطريق" .[1]

قال الزمخشري: " فإن قلت : كيف جعل خير من استأجرت اسماً لإن ، والقوي الأمين خبراً ؟ قلت : هو مثل قوله :

ألا إنَّ خيرَ النَّاسِ حياً وهالكاً   أسيرُ ثقيفٍ عندَهم في السَّلاسِلِ

وقد تكلمت بشيء من الإيجاز عن سبب التقديم في قوله تعالى : {**القوي الأمين**} في سورة يوسف في أن العناية هي سبب التقديم ".[2] عند قوله تعالى : {**قال اجعلني على خزائن الأرض إني حفيظ عليم**} وأنا بحول الله تعالى أضيف شيئاً من التفصيل هنا عن سبب تقدم صفة القوي على صفة الأمين فأقول: جاء الترتيب هنا وفق أحداث القصة حيث كان العلم بقوته أسبق من العلم بأمانته.

﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَل لِّي صَرْحاً لَّعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴾ (القصص:٣٨).

أراد فرعون أن يصرف قومه عن دعوة نبي الله موسى لفرعون وقومه بتوحيد الله تعالى وخلع ما يعبد من دونه ، فأمر ببناء الصرح الذي -على

---

(١) البداية والنهاية ج١ ص٢٢٧،٢٢٨.

(٢) الكشاف ج٣ ص٣٩٠.

زعمه -سوف يطلع من خلاله إلى إله موسى هل هو موجود أم غير موجود، ولأنــها قضية غير عقلية فبدأ بصرف العقول عن التفكير فيها بالاهتمام بمشروع البناء، ومن هنا ابتدأ أمره بأول أشغال البناء للدلالة على العناية بالشروع من أول أوقات الأمر، لأن ابتداء البناء يتأخر إلى ما بعد إحضار مواده ، فلذلك أمره بالأخذ في إحضار تلك المواد التي أولها الإيقاد .

﴿ فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ الأَنْبَاءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لاَ يَتَسَاءَلُونَ ﴾ (القصص:٦٦).

تقدم هنا المسند إليه الضمير {**هم**} على الجملة الفعلية {**لا يتساءلون**}، وهذا التقديم إنما جاء لتقوية الحكم وتأكيد نفي التساؤل بينــهم ، والضمير إذا أضمر ثم فسر كان أوكد للمعنى وأقوى للحكم ، ولو قدم الفعل ما استفيد هذا الحكم .

﴿ وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ سُبْحَانَ اللَّهِ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ (القصص:٦٨).

تقدم خبر كان {**لهم**} على اسمها {**الخيرة**} ليفيد القصر أي أن الله وحده هو الذي يختار لا أنتم .

﴿ وَهُوَ اللَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ لَهُ الْحَمْدُ فِي الأُولَى وَالآخِرَةِ وَلَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ (القصص:٧٠).

تقدم الجار والمجرور{ **إليه**} على متعلقه{**ترجعون**} لإفادة الاختصاص .

﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَداً إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَاءٍ أَفَلاَ تَسْمَعُونَ • قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَداً إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلاَ تُبْصِرُونَ ﴾ (القصص:٧١،٧٢).

قال صاحب الدرة: "للسائل أن يسأل عن تقديم الليل على النهار ، وأنه لو قدم النهار هل كان على مقتضى الحكمة ..

والجواب عن ذلك أن يقال إن نسخ الليل بالنير الأعظم أبلغ في المنافع بما ضمن من المصالح من نسخ النهار بالليل ، ألا ترى أن الجنة نــهارها دائم لا ليل معه لأن الليل في دار التكليف للاستراحة والاستعانة بالجمام والراحة على ما يلزم من الكلف المتعبة والمشاق المنصبة ، ودار النعيم يستغنى فيها عن ذلك لأنــها مقصورة على نيل المشتهى وعلى ما تلتذ به النفس وتــهوى ،

فتقديم ذكر الليل لانكشافه عن النهار الذي يمكن من التصرف في المعايش والسعي في المصالح إلى ما لا يحصى كثرة من المنافع المتعلقة بالشمس أحق وأولى ".[1]

﴿ وَمِن رَّحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ (القصص:٧٣) .

قدم المجرور {**من رحمته**} على عامله { **جعل**} لإظهار المنة بالنعمة .

﴿ إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَى مَعَادٍ ﴾ (القصص:٨٥) .

قال صاحب التحرير :" وفي تقديم جملة {**إن الذي فرض عليك القرآن لرادك إلى معاد**} على جملة {**قل ربي أعلم من جاء بالهدى**} إعداد لصلاحية الجملة الثانية للمعنيين المذكورين. فهذا من الدلالة على معاني الكلام بمواقعه وترتيب نظامه وتقديم الجمل عن مواضع تأخيرها لتوفير المعاني".[2]

﴿ وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ (القصص:٨٨).

تقدم المجروران {**له**} و{**إليه**} لإفادة الاختصاص فلا حكم إلا له ولا رجوع إلا إليه ونظيره قوله : {**يعذب من يشاء ويرحم من يشاء وإليه تقلبون**}.

---

(١) درة التنزيل ص ١٩٢.

(٢) التحرير ج٢٠ ص ١٩٤.

سورة العنكبوت

لما دارت سورة القصص عن امتحان الله عز وجل لبني إسرائيل بفرعون من تذبيح أبنائهم واستحياء نسائهم وصبرهم على ذلك، ثم ذكر سبحانه وتعالى عاقبة أمرهم إلى الفرج والنجاة ثم التمكين في الأرض ،ثم ذكرت السورة ابتلاء نبي الله موسى - عليه السلام- بالقبطي وخروجه من مصر خائفاً ثم كانت عاقبة الخير ثم ابتلاء قارون بماله وافتتانه به وخسف الأرض به، ثم ذكر أحوال أهل الكفر من معارضة النبي ﷺ وتبشيره بفتح مكة ظافراً منتصراً ﴿ **إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَى مَعَادٍ** ﴾ (القصص:٨٥).

فأعقب سبحانه وتعالى ذلك كله بقوله: ﴿ **أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ** ﴾ (العنكبوت:٢).

﴿ **يُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَاءُ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ** ﴾(العنكبوت:٢١) .

قدم التعذيب في الذكرعلى الرحمة مع أن رحمته سابقة غضبه كما ورد في حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: { **إن الله لما قضى الخلق كتب عنده فوق عرشه إن رحمتي سبقت غضبي** }. [1]

وذلك راجع إلى أن ذكر الكفار هو السابق على هذه الآية فذكر العذاب لسبق ذكر مستحقيه بحكم الإيعاد وعقبه بعد ذلك بالرحمة .

﴿ **وَقَارُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَلَقَدْ جَاءَهُم مُّوسَى بِالْبَيِّنَاتِ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانُوا سَابِقِينَ** ﴾ (العنكبوت:٣٩) .

قال الألوسي: "وتقدم قارون لأن المقصود تسلية النبي ﷺ فيما لقي من قومه لحسدهم له ، وقارون كان من قوم موسى- عليه السلام- وقد لقي منه ما لقي ، أو لأن حاله أوفق بحال عاد وثمود لأنه كان أبصر الناس وأعلمهم بالتوراة ولم يفده الاستبصار شيئاً كما لم يفدهم كونهم مستبصرين شيئاً ،

---

(١) صحيح البخاري، كتاب التوحيد برقم {٦٨٧٢} وبمعناه في نفس الكتاب برقم {٦٨٩٩} {٦٩٩٩} ومسند أحمد من كتاب باقي مسند المكثرين رقم{٧١٨٧} {٧٢١٥}.

أو لأن هلاكه كان قبل هلاك فرعون وهامان فتقديمه على وفق الواقع ، أو لأنه أشرف من فرعون وهامان لإيمانه في الظاهر وعلمه بالتوراة وكونه ذا قرابة من موسى -عليه السلام- ، ويكون في تقديمه لذلك في مقام الغضب إشارة إلى أن نحو هذا الشرف لا يفيد شيئاً ولا ينقذ من غضب الله تعالى على الكفر". [1]

﴿ياعِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِيوَاسِعَةٌ فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ﴾(العنكبوت:٥٦).

تقدم ضمير النصب {**إياي**} على الجملة الفعلية {**فاعبدون**} لإفادة الاختصاص ونظيره تقديم الجار والمجرور {**إلينا**} على متعلقه {**ترجعون**} في قوله تعالى :

﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ المَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴾ (العنكبوت:٥٧) ومنه تقديم الجار والمجرور في قوله تعالى: **﴿ الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَى رَبِّهِم يَتَوَكَّلُونَ ﴾** (العنكبوت:٥٩).

ومن التقديم للاختصاص أيضاً تقديم المسند إليه على الخبر الفعلي في قوله {**الله يرزقها**} من قوله تعالى : **﴿ وَكَأَيِّن مِّن دَابَّةٍ لاَّ تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ وَهُوَ السَّمِيعُ العَلِيمُ ﴾** (العنكبوت:٦٠) .

والمعنى أن الله وحده لا غيره هو الذي يرزقها .ونظير هذا التقديم تقديم اسم الجلالة على المسند الفعلي في قوله تعالى :**﴿ اللَّهُ يَبْدَأُ الخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾** (الروم:١١) ،وتقدم فيها أيضاً الجار والمجرور لإفادة الاختصاص.

﴿ وَمَا هَذِهِ الحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الآخِرَةَ لَهِيَ الحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾ (العنكبوت:٦٤).

تقدم اللهو على اللعب في هذه الآية وعكس هذا التقدم في سورة الأنعام فقال هناك: **﴿ إِلاَّ لَعِبٌ وَلَهْوٌ ﴾**(الأنعام:٣٢) ، قال الرازي عن سر هذا التقديم: "لما كان المذكور هناك -يقصد- آية الأنعام- من قبل الآخرة وإظهارهم للحسرة ، ففي ذلك الوقت يبعد الاستغراق في الدنيا بل نفس الاشتغال بـــها فأخر الأبعد، وأما هاهنا لما كان المذكور من قبل الدنيا وهي خدَّاعة تدعو النفوس إلى الإقبال عليها والاستغراق فيها اللهم إلا لمانع يمنعه من الاستغراق

---

(١) روح المعاني ج٢٠ ص ١٥٨.

فيشتغل بـــها من غير استغراق فيها، ولعاصم يعصمه فلا يشتغل بـــها أصلاً، فكان هاهنا الاستغراق أقرب من عدمه فقدم الله".[1]

وقد تقدم اللعب على اللهو في الأنعام في موضعين ، وكذا تقدم في سورة {**محمد**}و{**الحديد**} ، وقدم اللهو على اللعب في الأعراف والعنكبوت، وعن سر هذا التقديم قال الكرماني: "وإنما قد اللعب في الأكثر ، لأن اللعب زمانه الصبا ، واللهو زمانه الشباب ،وزمان الصبا مقدم على زمان الشباب ، يبينه ما ذكر في الحديد : ﴿**اعْلَمُوا أَنَّمَا الحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ** ﴾(الحديد:٢٠) كلعب الصبيان ، {**ولهو**} كلهو الشبان {**وزينة**} كزينة النسوان{ **وتفاخر**} كتفاخر الإخوان} ، { **وتكاثر**} كتكاثر السلطان..

وقدم اللهو في الأعراف ، لأن ذلك في القيامة ، فذكر على ترتيب ما انقضى، وبدأ بما به الإنسان انتهى من الحالتين ، أما العنكبوت فالمراد بذكرها زمان الدنيا ، وأنه سريع الانقضاء ، قليل البقاء :﴿**وَإِنَّ الدَّارَ الآخِرَةَ لَهِيَ الحَيَوَانُ** ﴾ (العنكبوت:٦٤) أي : الحياة التي لا أمد لها ، ولا نـــهاية لأبدها ، بدأ بذكر اللهو لأنه في زمن الشباب ، وهو أكثر من زمان اللعب ، وهو : زمان الصبا".[2]

---

(١) مفاتيح الغيب ج٢٥ ص٩٢.

(٢) أسرار التكرار في القرآن ص١٠٧،١٠٨.

سورة الروم

لما ذكر الله عز وجل صنيع أهل مكة ومعارضتهم للنبي ﷺ وهم مع ذلك قليلو العدد قد أعطاهم الله الأمن ونفى عنهم طمع الناس ونهبهم وكف أيدي العتاة صوناً لحرمه حيث قال تعالى: ﴿أَوَ لَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَماً آمِناً وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ﴾ (العنكبوت:٦٧)، فلما ذكرهم بهذه النعمة أعقبها في سورة الروم بذكر طائفة هم أكثر قوة وأكثر عدداً وأوسع بلاداً فلم تغن عنهم قوتهم شيئاً ﴿الم . غُلِبَتِ الرُّومُ . فِي أَدْنَى الأَرْضِ وَهُم مِّنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ﴾ (الروم١-٣).

﴿فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ﴾ (الروم:١٧) .

قدم الإمساء على الإصباح هنا وأخره في قوله: ﴿وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلاً﴾ (الأحزاب:٤٢)، والجواب أن تقديم الليل على النهار كما هو عادة العرب في الاستعمال وقد مر ذكره، أو أن تقديم المساء هنا لأن قبله ذكر الحشر والإعادة من قوله {**الله يبدأ الخلق ثم يعيده**} إلى قوله: {**فأولئك في العذاب محضرون**} وآخر هذه الآية أيضاً ذكر الحشر والإعادة بقوله: {**وكذلك تخرجون**} والإمساء آخر فذكر الآخر ليذكر الآخرة .

﴿يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَيُحْيِي الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَكَذَلِكَ تُخْرَجُونَ . وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ . وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ . وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّلْعَالَمِينَ . وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُم مِّن فَضْلِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ . وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُحْيِي بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ (الروم:١٩-٢٤).

بدأ أولاً بذكر إخراج الحي من الميت على إخراج الميت من الحي ، لأنه أدل على القدرة وأبين في الإعجاز وما في إعطاء الحياة من المنة والفضل

ثنى بإحياء الأرض بعد موتـــها، لأنـــها أقل إعجازاً من إحياء الإنسان ، وبدأ أولا من الآيات بالنشأة الأولى ، وهي خلق الإنسان من تراب ثم كونه بشرا منشراً وهو خلق حي من جماد ، ثم أتبعه أن خلق له من نفسه زوجاً وجعل بينـــهما توادا وهذا خلق حي من حي ، فالترتيب هنا ترتيب وجودي ثم بدأ الترقي في الاستدلال بخلق السموات والأرض المشاهدة للعالم كله وأتبعها بذكر اختلاف الألسن والألوان، ثم أتبعه بذكر المنام بالليل والنهار ، وقدم الليل لأن أغلب المنام يكون فيه ، ثم ذكر البرق وأنه يُرى خوفاً وطمعاً ، وقدم الخوف لأنه أول حالات الشعور التي تعتري الرائي عند رؤيته وقدم البرق على إنزال الماء من السماء لأنه كالمبشر يجيء بين يدي القادم.

وللرازي نكت لطيفة عن سر هذا التقديم قال: "لما ذكر العرضيات التي للأنفس اللازمة والمفارقة ذكر العرضيات التي للأفاق وقال : **{يريكم البرق خوفاً وطمعاً وينـــزل من السماء ماءً}** وفي الآية مسائل .

إحداها: لما قدم دلائل النفس هاهنا ، قدم العرضيات التي للأنفس وأخر العرضيات التي للآفاق كما أخر دلائل الآفاق بقوله: **{ ومن آياته خلق السموات والأرض}** .

المسألة الثانية : قدم لوازم الأنفس على العوارض المفارقة حيث ذكر أولاً اختلاف الألسنة والألوان ثم المنام والابتغاء ، وقدم في الآفاق العوارض المفارقة على اللوازم حيث قال: **{يريكم البرق خوفاً وطمعاً وينـــزل}** وذلك لأن الإنسان متغير الحال والعوارض له غير بعيدة وأما اللوازم فيه فقريبة،وأما السموات والأرض فقليلة التغير فالعوارض فيها أغرب من اللوازم، فقدم ما هو أعجب لكونه أدخل في كونه آية ونزيده بياناً فنقول: الإنسان يتغير حاله بالكبر والصغر والصحة والسقم وله صوت يعرف به لا يتغير وله لون يتميز به عن غيره وهو يتغير في الأحوال وذلك لا يتغير وهو آية عجيبة والسماء والأرض ثابتان لا يتغيران ، ثم يرى في بعض الأحوال أمطار هاطلة وبروق هائلة والسماء كما كانت والأرض كذلك ، فهو آية دالة على فاعل مختار يديم أمراً مع تغير المحل ويزيل أمراً مع ثبات المحل .

المسألة الثالثة : كما قدم السماء على الأرض قدم ما هو من السماء وهو البرق والمطر على ما هو من الأرض وهو الإنبات والإحياء".[1]

﴿ وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الأَعْلَى فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ (الروم:٢٧)، وفي موضع آخر قال: **﴿ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ ﴾**(مريم:٩) وهنا {**وهو أهون عليه**} فقدم في سورة مريم كلمة {**على**} التي تأخرت هنا في سورة الروم فما السر في هذا التقديم والتأخير ؟

أقول:الأمر يتعلق بالمعنى وذلك لأن المعنى الذي قاله هناك في سورة مريم أنه هين هو خلق الولد من العجوز وأنه صعب على غيره وليس بهين إلا عليه فقال: {**هو علي هين** } يعني لا على غيري ، وأما هاهنا المعنى الذي ذكر أنه هو الإعادة والإعادة على كل مبدئ أهون فقال: {**وهو أهون عليه**} لا على سبيل الحصر ، فالتقديم هناك كان للحصر والاختصاص، أما هاهنا فكما يقول الألوسي:

"لا معنى للاختصاص كيف والأمر مبني على ما يعقلون من الإعادة أسهل من الابتداء فلو قدمت الصلة لتغير المعنى".[2]

﴿ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلاَةَ وَلاَ تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ (الروم:٣١).

قدم الأمر بالتقوى هنا على إقامة الصلاة، لأن التقوى التي هي خوف الله هي التي تجعل للصلاة ثمرتـــها ، فالصلاة مثل أي عبادة من العبادات لا ثمرة منها إلا إذا كانت عن إيمان بالله وخشوع لعظمته، وهذا ما يشير إليه قوله تعالى:**﴿ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾** (المائدة:٢٧) ،وقوله تعالى: **﴿ قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ،الَّذِينَ هُمْ فِي صَلاَتِـــهِم خَاشِعُونَ ﴾** (المؤمنون:١،٢) .

﴿ وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا رَبَهم مُنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا أَذَاقَهُم مِنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِنـــهم بِرَبِهم يُشْرِكُونَ ﴾ (الروم:٣٣).

تقدم ذكر الضر على ذكر الرحمة لمناسبة ما قبله وهو قوله :**﴿ مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَـــهم وَكَانُوا شِيَعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴾** (الروم:٣٢) .

---

(١) مفاتيح الغيب ج٢٥ ص١١٤.

(٢) روح المعاني ج٢١ ص٣٧.

فالفرقة عذاب وتستوجب العقاب ، كما قال تعالى: ﴿**قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَاباً مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعاً وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ**﴾ (الأنعام:٦٥)، بينما تقدم ذكر الرحمة في قوله تعالى:﴿ **وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا بِهَا وَإِن تُصِبْهُم سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ** ﴾ (الروم:٣٦) للاهتمام بحالتهم عند الرحمة والتي هي محل العبرة .

﴿ **فَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ ذَلِكَ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ** ﴾ (الروم:٣٨)، سبقت الإشارة من قبل إلى أن حق ذوي القربى مقدم على غيرهم ، وقد تقدموا هنا للاهتمام ، فحقهم في الصدقة أولى من المسكين وابن السبيل .

قال الألوسي: "وهو السر في تقديم المفعول الثاني على العطف والعدول عن وآت ذا القربى والمسكين وابن السبيل حقهم" .[1]

﴿ **مَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ ٠لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِن فَضْلِهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ**﴾(الروم:٤٤،٤٥).

وقد اعترض أبوحيان على الزمخشري- كما هي عادته دائما -في دعوى الاختصاص، حيث يرى أبوحيان أن تقديم الظرف {**فعليه كفره**} وتقديم المضاف والمضاف إليه {**فلأنفسهم**} إنما هو للاهتمام وأن التخصيص يفهم من آيات أخر ، وليس هناك ما يدعو لنفي الاختصاص ، كما أنه لا تعارض مع الذي ذكره الزمخشري من التقديم للاهتمام وأما قوله رداً على الزمخشري : وأما ما يدعيه من الاختصاص فمفهوم من آي كثيرة في القرآن منها ﴿**وَلاَ تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلاَّ عَلَيْهَا وَلاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى** ﴾ (الأنعام:١٦٤).

فذلك يؤيد ما ذهب إليه الزمخشري إذ خير ما يفسر به القرآن هو القرآن ولكن لابد من النظر في كل أسلوب بلاغي في ضوء التركيب الذي أوجد فيه .[2]

وقد ذهب صاحب التحرير إلى ما ذهب إليه أبو حيان من أن التقديم للاهتمام وللرعاية على الفاصلة لأن قرينة عدم الاختصاص واضحة، ولست

---

(١) روح المعاني ج٢١ ص٤٥ (٢) البحر [illegible] ج٧ ص١٧٢ ، الكشاف ج٣ ص٤٦٨.

أدري أين الوضوح الذي ادعاه ولماذا لم تخطه يداه ؟.[1]

والرازي لله دره فما أعظم درره حيث قال عن هذه الآيات : وفيه لطيفة وهي أنه عندما أسند الكفر والإيمان إلى العبد قدم الكافر فقال: **{من كفر فعليه كفره}** وعندما أسند الجزاء لنفسه قدم المؤمن فقال: **{ليجزي الذين ءامنوا}** ثم قال تعالى : **{إنه لا يحب الكافرين}** لأن قوله: **{من كفر}** في الحقيقة لمنع الكافر عن الكفر بالوعيد ونـهيه عن فعله بالتهديد وقوله: **{من عمل صالحاً}** لتحريض المؤمن والتحريض للتقرير والإيعاد مقدم عند الحكيم الرحيم ، وأما عندما ذكر الجزاء بدأ بالإحسان إظهاراً للكرم والرحمة، فإن قال قائل هذا إنما يصح أن لو كان الذكر في كل موضع كذلك وليس كذلك، فإن الله كثير من المواضع قدم إيمان المؤمن على كفر الكافر ، وقدم التعذيب على الإثابة ،.. ونحن نقول : بأن كل كلمة وردت في القرآن فهي لمعنى ، وكل ترتيب وجد فهو لحكمة ، وما ذكر على خلافه لا يكون في درجة ما ورد به القرآن فلنبين من جملته مثالاً وهو قوله تعالى : ﴿ **يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُون ، فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ** ﴾ (الروم:١٤،١٥) ،قدم المؤمن على الكافر ،وهاهنا ذكر مثل ذلك المعنى في قوله **{يومئذ يصدعون}** أي يتفرقون فقدم الكافر على المؤمن فنقول هناك أيضا قدم الكافر في الذكر لأنه قال من قبل :**{ويوم تقوم الساعة يبلس المجرمون }** فذكر الكافر وإبلاسه ثم قال تعالى :**{ويوم تقوم الساعة يومئذ يتفرقون}** فكان ذكر المؤمن وحده لا بد منه ليبين كيفية التفرق بجموع قوله: **{يبلس المجرمون}** وقوله في حق المؤمن: **{في روضة يحبرون}** لكن الله تعالى أعاد ذكر المجرمين مرة أخرى للتفصيل فقال ﴿ **وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا** ﴾ (الروم:١٦) [2]

وما ذكره الألوسي في هذه الآية من التقديم والتأخير منقول عن الزمخشري[3]

﴿ **وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ** ﴾ (الروم:٤٧).

تقدم خبر كان **{حقاً}** على اسمها **{ نصر}** للاهتمام به ، ولتطمين قلوب المؤمنين بإزالة الشك منها في أن الله لا ينصرهم فأفاد التقديم هنا أمرين: الاهتمام والتطمين.

---

(١) التحرير والتنوير ج٢١ ص ١١٧. (٢) روح المعاني ج٢٥ ص١٣١. (٣) روح المعاني ج٢١ ص٥١.

﴿ فَإِنَّكَ لاَ تُسْمِعُ المَوْتَى وَلاَ تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ . وَمَا أَنْتَ بِـــهادِ العُمْيِ عَن ضَلالَتِـــهِم إِن تُسْمِعُ إِلاَّ مَن يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ ﴾ (الروم:٥٢،٥٣) ، الترتيب هنا جاء على وجه البداءة من الأشد صعوبة إلى الأقل فإرشاد الميت محال والمحال أبعد من الممكن ثم إرشاد الأصم صعب فإنه لا يسمع الكلام وإنما يفهم ما يفهمه بالإشارة لا غير ، والإفهام بالإشارة صعب، ثم إرشاد الأعمى صعب ولكن الأصم أصعب منه .

سورة لقمان

لما ختمت الروم بالحث على العلم وهو ما تضمنه هذا الكتاب العظيم ، والأمر بالتمسك بما فيه ومجانبة أهل الاستخفاف، وكان ذلك هو الحكمة بدأت سورة لقمان بالإشارة إلى وصف الكتاب الحكمة ، ولما كان الإيمان بالبعث هو الحامل على وجوه الخير وأعمال الإيمان، وكان قد ختم الروم بالإعراض عن الكافرين والمتشككين بقوله: ﴿ **فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ** ﴾ (الروم:٦٠)، بدأت سورة لقمان بالثناء على أهل اليقين الذين وصفوا بكونهم محسنين بقوله: ﴿ **الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُم بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ** ﴾ (لقمان:٤) ،﴿ **وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ** ﴾ (لقمان:٦).

تقديم الجار والمجرور { **من الناس** } للتشويق إلى معرفة خبرهم .

﴿ **أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ** ﴾ (لقمان:١٤).

تقدم الجار والمجرور {**إليّ**} على مبتدئه {**المصير**} لإفادة الاختصاص ، ونظيره تقدم الجار والمجرور{ إليّ} في الآية التالية في قوله تعالى:﴿ **ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ**﴾ (لقمان:١٥) ﴿ **يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنكَرِ وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ**﴾ (لقمان:١٧) .

بدأ نصيحته بالأمر بإقامة الصلاة لأنها أهم فرض بعد الإيمان ، ولما فيها من صلاح نفسه، لأن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر، فإذا قام بحق إقامتها كان فاعلاً للمعروف منتهياً عن المنكر، وحينئذ يصير أهلاً لأن يأمر غيره وينهاه وتأخر الأمر بالصبر عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لما يجرانه غالباً من الأذى والبلاء فجيء بالصبر متأخراً عنهما لأجل ذلك .

قال البقاعي: " ولما ذكر سبحانه وتعالى ما أوصى به ولده من شكر المنعم الأول الذي لم يشركه في إيجاده أحد ، وذكر ما عليه الشرك من الفظاعة والشناعة والبشاعة أتبعه سبحانه وصيته للولد بالوالد لكونه المنعم

الثاني المتفرد سبحانه بكونه جعله سبب وجود لولد اعترافاً بالحق وإن صغر لأهله وإيذاناً بأنه لا يشكر الله من لا يشكر الناس ، وتفخيماً لحق الوالدين ، لكونه قرن عقوقهما بالشرك ،وإعلاماً بأن الوفاء شيء واحد متى نقص شيء منه تداعى سائره ".[1]

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ وَاخْشَوْا يَوْماً لاَّ يَجْزِي وَالِدٌ عَن وَلَدِهِ وَلاَ مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِ شَيْئاً ﴾ (لقمان:٣٣).

ابتدئ بالوالد هنا لأنه أشد شفقة وأعظم رحمة بابنه ، فحب الآباء فطري بينما حب الأبناء مكتسب ، أما عند الفرار من الأقرباء والاشتغال بالذات يوم القيامة فقد ذكر الولد و لم يذكر الوالد في قوله تعالى : **﴿ يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ۝ وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ ﴾**(عبس:٣٤،٣٥) أما في قوله تعالى :**﴿ يَوَدُّ الْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ بِبَنِيهِ ۝ وَصَاحِبَتِهِ وَأَخِيهِ ۝ وَفَصِيلَتِهِ الَّتِي تُؤْوِيهِ ۝ وَمَن فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً ثُمَّ يُنجِيهِ ﴾** (المعارج:١١-١٤) .

فذلك لبيان شدة العذاب وأن الكافر يبتدأ بأعز وأغلى قريب له وهم بنوه .**﴿ إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَداً وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾** (لقمان:٣٤).

في هذه الآية سؤال بلاغي : أليس إذا قيل إن علم الساعة عند الله أخصر من قوله تعالى {**إن الله عنده علم الساعة**} حيث حذف من الأولى الضمير المضاف إليه وزيد في الثانية ، والبلاغة مبناها على الاختصار؟

أقول: نعم ولكن ليس الأمر كما يبدو من أول وهلة أن الأولى أبلغ من الثانية، وذلك راجع إلى جملة من الفوائد أثبتت في الآية الكريمة ومنها في هذا المثال المفترض ، من ذلك البداءة باسم الله واسمه سبحانه أولى بالابتداء لما له من حق التعظيم والتبجيل وذلك منتف في الصورة الأخرى ، **أفاد** تقديم اسمه سبحانه وبناء الخبر عليه الحصر والاختصاص الذي أفاد أن علم الساعة وما ذكر بعدها لا يعلمه إلا الله وحده ، كما أفاد تقديم الظرف{**عند**} الاختصاص أيضاً .

---

(١) نظم الدرر ج٦ ص ١٤.

سورة السجدة

﴿ ذَلِكَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴾ (السجدة:٦).

قدم علم الغيب لكونه أعلى ، وللإشارة إلى أن علم الله مطلق لا تحدّه حدود فيستوي لديه القريب والبعيد والظاهر والخفي، إذ لا قرب ولا بعد ولا خفاء ولا ظهور لأن ذلك إنما يكون للعلم القاصر المحدود، أما علم الله فهو العلم الكامل المطلق .

قال البقاعي: "ولما قدم علم الغيب لكونه أعلى ، وكان العالم به قد لا يعلم المشهود لكونه لا يبصر قال **{والشهادة}**"[1] .

﴿ وَقَالُوا أَئِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ أَئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ بَلْ هُم بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ كَافِرُونَ ﴾ (السجدة:١٠) .

تقديم الجار والمجرور **{بلقاء}** على الخبر **{كافرون}** للاهتمام والتعظيم والرعاية على الفاصلة .

﴿رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحاً إِنَّا مُوقِنُونَ ﴾(السجدة:١٢).

قال الشعراوي: "هنا قدم الحق مادة الإبصار على مادة السمع ، لأن هول القيامة ساعة يأتي سنرى تغيراً في الكون قبل أن نسمع شيئاً" .[2]

﴿ أَوَ لَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعاً تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنفُسُهُمْ أَفَلَا يُبْصِرُونَ ﴾(السجدة:٢٧).

قال أبوحيان: "وقدمت الأنعام لأن أول ما ينبت يأكله الأنعام قبل أن يسبل والبرسيم والفصفصة ،وأمثال ذلك تبادره الأنعام بالأكل قبل أن يأكل بنو آدم حب الزرع ، أو لأنه غذاء الدواب والإنسان قد يتغذى بغيره من حيوان وغيره ، أو بدأ بالأدنى ثم ترقى إلى الأشرف وهو بنو آدم" .[3]وقد يكون التقديم كما أشار إليه الأستاذ عبد الكريم الخطيب بقوله : "وقدمت الأنعام

---

(١) نظم الدرر ج٦ ص٥٢.   (٢) الشعراوي ج٧ ص ٤٤١٥.   (٣) البحر المحيط ج٧ ص٢٠٠

على أصحاب الأنعام دلالة على أنه ليس للناس شيء في تقدير هذا الرزق الذي يسوقه الله إليهم وإلى أنعامهم وإنما هو من عند الله وأن الأنعام والناس سواء في الاحتياج إلى الله ، وأنــهم إنما يرزقون كما ترزق الأنعام﴿ **وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ إِلاَّ عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا** ﴾ (هود:٦) [1]

وقد عكس هذا الترتيب في سورة عبس وسوف يأتي بيانه عند الحديث عنها.

---

(١) التفسير القرآني ج٢١ ص٦٢٩ ، ٦٣٠.

سورة الأحزاب

لما ختمت سورة السجدة بقوله :﴿ **فَأَعْرِضْ عَنْهُم وَانتَظِرْ إِنَّهُم مُّنتَظِرُونَ** ﴾ (السجدة:٣٠) افتتحت هذه السورة بالنهي عن طاعتهم والإعراض عن أذاهم وعدم الالتفات إليه الذي هو أساس الإعراض بقوله: ﴿ **يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيماً حَكِيماً** ﴾ (الأحزاب:١) ﴿ **وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَاقاً غَلِيظاً** ﴾ (الأحزاب:٧).

ذكر ضمير محمد ﷺ قبل المذكورين من الرسل في هذه الآية إيماء إلى تفضيله عليهم جميعاً ، ثم جعل ترتيب ذكر البقية على ترتيبهم في الوجود.

﴿ **وَأَنزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقاً تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقاً** ﴾ (الأحزاب:٢٦).

وعن سبب تقدم{**فريقاً**} مع {**تقتلون**} وتأخرها مع {**تأسرون**} يقول الرازي: "والذي يظهر من هذا والله أعلم أن القائل يبدأ بالأهم فالأهم والأعرف فالأعرف والأقرب فالأقرب ، والرجال كانوا مشهورين فكان القتل وارداً عليهم والأسرى كانوا هم النساء والصغار و لم يكونوا مشهورين والسبي والأسر أظهر من القتل لأنه يبقى فيظهر لكل أحد أنه أسير فقدم من المحلين ما هو أشهر على الفعل القائم به وما هو أشهر من الفعلين قدمه على المحل الأخفى" .[1]

أقول: وإذا نظرنا في النظم يتبين لنا وجه آخر من وجوه التقديم والتأخير جاء على خلاف ترتب الأحداث ، حيث إنهم لم ينزلوا من حصونهم ويخرجوا منها مستسلمين إلا بعد أن وقع الرعب في قلوبهم أولاً ، هذا الرعب الذي أسلمهم إلى الهزيمة النفسية فالهزيمة العسكرية

---

(١) مفاتيح الغيب ج٢٥ ص٢٠٥.

حيث خارت القوى الداخلية فخارت قواهم كلها بعد ذلك ، هذا الترتيب الطبيعي في سبب الهزيمة يقابله نفس الترتيب في سبب النصر الذي نشاهده في قوله تعالى : ﴿ **وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلاَّ أَن قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ** ﴾ (آل عمران:١٤٧)، حيث تقدم قوله: {**ربنا اغفر لنا ذنوبنا وإسرافنا في أمرنا**} من باب التخلية عن عوائق الهزيمة والطهارة من أسبابها فإن الذنوب هي السبب الأعظم في الهزائم ثم بعد ذلك طلبوا {**وثبت أقدامنا**} فإذا ثبتت الأقدام بعدم الخوف ولزوم القتال والاستبسال والشجاعة نزل النصر، إذن فلماذا جاء السياق على خلاف الواقع مبتدئاً بالنتيجة قبل السبب الموصل إليها ؟

أقول: هذا من باب التقديم للبشارة وإدخال السرور على القلوب ، وكان هو الحدث الأهم فهو نتيجة المعركة بدئ بها ثم فصل الأسباب التي أدت إليها ، وقد أوجد هذا التقديم التناغم الناشئ عن التجاور بين الكلمتين تقتلون وتأسرون ، وقد يكون للترتيب الوجودي فإن الأسر إنما يقع بعد القتل والهزيمة حيث الفرار ومن ثم يأتي الأسر ولهذا أخر في الذكر.

ويرى الألوسي أن التقديم في قوله: {**فريقاً تقتلون**} للاعتناء بحالهم ولم يكن في المأسورين هذا الاعتناء بل الاعتناء هناك بالأسر أشد ، ولو قيل وفريقاً تأسرون لربما ظن قبل سماع تأسرون أنه يقال بعد تهزمون أو نحو ذلك.

﴿ **يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيراً ۝ وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ وَتَعْمَلْ صَالِحاً نُّؤْتِهَا أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقاً كَرِيماً** ﴾ (الأحزاب:٣٠،٣١).

بدأت الآية بالتخلية قبل التحلية وحسب القاعدة الأصولية {**درء المفاسد مقدم على جلب المصالح**}، ولذلك بدأت الآية بالنهي عن الفاحشة ثم أتبعتها بالأمر بالقنوت والطاعة .

﴿**إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيراً وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْراً عَظِيماً** ﴾ (الأحزاب:٣٥) .

قال البقاعي: " ولما كان الإسلام مع كونه أكمل الأوصاف وأعلاها يمكن أن يكون بالظاهر فقط ، أتبعه المحقق له وهو إسلام الباطن بالتصديق التام بغاية الإذعان ، فقال عاطفاً له ولما بعده من الأوصاف من كل وصف منها:{**المؤمنين والمؤمنات**} ولما كان المؤمن المسلم قد لا يكون في أعماله مخلصاً قال {**والقانتين**} أي المخلصين في إيمانــهم وإسلامهم {**والقانتات**} ولما كان القنوت كما يطلق على الإخلاص المقتضي للمداومة قد يطلق على مطلق الطاعة قال {**والصادقين**} في ذلك كله وذلك يقتضي الدوام ، ولما كان الصدق - هو إخلاص القول والعمل عن شوب يلحقه أو شيء يدنسه - قد لا يكون دائماً ، قال مشيراً إلى أن ما لا يكون دائماً لا يكون صدقاً في الواقع {**والصابرين والصابرات**} ولما كان الصبر قد يكون سجية ، دل على صرفه إلى الله بقوله : {**والخاشعين والخاشعات**} ولما كان الخشوع - وهو الخضوع والإخبات والسكون - لا يصح مع توفير المال فإنه سيكون إليه ، قال معلماً إنه إذ ذاك لا يكون على حقيقته : {**والمتصدقين**} أي المنفقين أموالهم في رضا الله بغاية الجهد من نفوسهم بما أشار إليه إظهار التاء فرضاً وتطوعاً سراً وعلانية بما أرشد إليه الإظهار أيضاً تصديقاً لخشوعهم {**والمتصدقات**} .

ولما كان بذل المال قد لا يكون مع الإيثار ، أتبعه ما يعين عليه فقال : {**والصائمين**} أي تطوعاً للإيثار بالقوت وغير ذلك {**والصائمات**} ولما كان الصوم يكسر شهوة الفرج وقد يثيرها قال :{ **والحافظين فروجهم** } أي عما لا يحل لهم بالصوم وما أثاره الصوم {**والحافظات**} ولما كان حفظ الفروج وسائر العمال لا تكاد توجد إلا بالذكر وهو الذي فيه المراقبة الموصلة إلى المحاضرة المحققة للمشاهدة بالفناء قال:{**والذاكرين الله**} أي مع استحضار ما له من الكمال بصفات الجلال والجمال ، { **كثيراً**} بالقلب واللسان في كل حالة { **والذاكرات** } ومن علامات الإكثار من الذكر اللهج عند الاستيقاظ من النوم }.[1]

---

(١) نظم الدرر ج٦ ص ١٠٥ ، ١٠٦.

﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْراً كَثِيراً وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلاً** ﴾ (الأحزاب:٤١،٤٢) التقديم هنا لسبق الوجود لأن ، البكرة أسبق من الأصيل .

قال صاحب التحرير: "وليس الأصيل جديراً بالتقديم في الذكر كما قدم لفظ {تمسون} في قوله في سورة الروم: ﴿ **فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ** ﴾ (الروم:١٧)، لأن كلمة المساء تشمل أول الليل فقدم لفظ {**تمسون**} هنالك رعياً لاعتبار الليل أسبق في حساب أيام الشهر عند العرب وفي الإسلام وليست كذلك كلمة الأصيل.[١]

﴿ **لا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِي آبَائِهِنَّ وَلا أَبْنَائِهِنَّ وَلا إِخْوَانِهِنَّ وَلا أَبْنَاءِ إِخْوَانِهِنَّ وَلا أَبْنَاءِ أَخَوَاتِهِنَّ وَلا نِسَائِهِنَّ وَلا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ وَاتَّقِينَ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيداً** ﴾ (الأحزاب:٥٥).

جاء التقديم والتأخير في هذه الآية على ترتيب الأقرب فالأبعد قرابة من النساء، أي الأبعد عن مظنة الشهوة والافتتان.

قال الرازي: " قدم الآباء لأن اطلاعهم على بناتهن أكثر ، وكيف وهم قد رأوا جميع بدن البنات في حال صغرهن ، ثم الأبناء ثم الإخوة وذلك ظاهر إنما الكلام في بني الإخوة حيث قدمهم الله تعالى على بني الأخوات ، لأن بني الأخوات آباؤهم ليسوا بمحارم إنما هم أزواج خالات أبنائهم ، وبني الإخوة آباؤهم محارم أيضاً ففي بني الأخوات مفسدة ما وهي أن الابن ربما يحكي خالته عند أبيه وهو ليس بمحرم ولا كذلك بنو الاخوة"[٢]

﴿ **هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيماً** ﴾ (الأحزاب:٤٣)، تقديم المسند إليه على الخبر الفعلي في قوله {**هو الذي يصلي عليكم**} لإفادة التقوي وتحقيق الحكم، والمقصود تحقيق ما تعلق بالفعل{**يصلي**}من قوله"{**ليخرجكم من الظلمات إلى النور**}.

﴿ **يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً** ﴾ (الأحزاب:٤٥).

تقدمت البشارة على النذارة لأن النبي ﷺ غلب عليه التبشير لأنه رحمة للعالمين ولكثرة عدد المؤمنين في أمته.

﴿ **يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ** ﴾ (الأحزاب:٥٩).

---

(١) التحرير والتنوير ج٢٢ ص٤٨ (٢) مفاتيح الغيب ج٢٥ ص٢٢٧.

ابتدئ بأزواج النبي ﷺ وبناته لأنـــهن أكمل النساء وابتدئ بالزوجات لأنـــهن الأصل في وجود البنات ، ولا يشترط أن يكون التقديم للفضل .

وللبقاعي رأي آخر لا يخلو من وجاهة قال في قوله: {**لأزواجك**}: {بدأ بـــهن لما لهن من الوصلة بالنكاح {**وبناتك**} ثنى بهن لما لهن من الوصلة ولهن في أنفسهم من الشرف ، وأخرهن عن الأزواج لأن أزواجه يكفونه أمرهن". [1]

﴿ **إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُوماً جَهُولاً لِيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ وَيَتُوبَ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَّحِيماً** ﴾ (الأحزاب:٧٢،٧٣) .

ذكر الله في الإنسان وصفين الظلم والجهل وذكر من أوصافه وصفين المغفرة والرحمة فقال: {**وكان الله غفوراً رحيما**} أي غفوراً للظلوم رحيما بالجهول فناسب ترتيب صفتيه سبحانه ما تقدم من صفتي الإنسان.

---

(١) نظم الدرر ج٦ ص١٣٥

سورة سبأ

لما ختمت سورة الأحزاب بقوله:﴿ **إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُوماً جَهُولاً**﴾ (الأحزاب:٧٢) .

ابتدأ هذه السورة بذكرأن السموات والأرض وما فيهما إنما هو ملك لله رب العالمين فابتدأ سورة سبأ بقوله: ﴿ **الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الْآخِرَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ**﴾ (سبأ:١)، حتى لا يظن ظان أن رفض قبول السموات والأرض للأمانة نقص في تمام ملكه بما يفهم خطأ من عدم قبول السموات والأرض للأمانة أنه خارج عن نطاق الربوبية .

﴿ **يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ الرَّحِيمُ الْغَفُورُ** ﴾ (سبأ :٢).

تقدم ما يلج في الأرض على ما يخرج منها تقديماً وجودياً ، حيث إن الولوج هو السابق على الإخراج ، فينـــزل فيها الماء ، وتبذر فيها البذور، وينـــزل فيه الحديد من الشهب المتساقطة ثم يخرج كل بعد ذلك، وهذا الذي ينـــزل كله من آثار الرحمة وكذلك ينـــزل من السماء الوحي الذي هو رحمة ثم يصعد إليها أعمال العباد السيئة والتي تقابل من الله بالمغفرة ، ولذا جاءت الصفتان على ترتيب ذكر قبلهما من حيث الولوج والإخراج وتقدم الرحمة على المغفرة .

وهنا سبب آخر لتقدم الرحمة على المغفرة ، وهو التقديم للعموم ، فالرحمة تشمل الجميع والمغفرة تخص بعضاً ، والعموم قبل الخصوص بالرتبة،

﴿ **عَالِمِ الْغَيْبِ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْغَرُ مِن ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ**﴾ (سبأ:٣) قال صاحب درة التنـــزيل: "و قال بعده في هذه السورة: ﴿ **قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْـــهُم مِّن ظَهِيرٍ** ﴾ (سبأ:٢٢).

وقال في سورة يونس: ﴿ **إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلاَ فِي السَّمَاءِ وَلاَ أَصْغَرَ مِن ذَلِكَ وَلاَ أَكْبَرَ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ**﴾ (يونس:٦١).

للسائل أن يسأل عن تقديم السموات على الأرض في الموضعين من سورة سبأ، وعن تقديم الأرض على السماء في سورة يونس ، .. والجواب عنه أن يقال إنما قدم ذكر السموات على الأرض في سورة سبأ لأن هذه الآية مبنية على مفتتح السورة وهو ﴿ **الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الآخِرَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ** ﴾ (سبأ:١)، فقدم ذكر السموات لأن ملكها أعظم شأناً وأكبر سلطاناً ، وكذلك الآية التي بعدها في نفس السورة.. وأما التي في سورة يونس فإنـــها جاءت عقيب قوله: **{وما تكون في شأن وما تتلو من قرآن ولا تعملون من عمل إلا كنا عليكم شهوداً إذ تفيضون فيه وما يعزب عن ربك من مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء}** فكان القصد إلى ذكر علمه بما يتصرف فيه العباد من خير أو شر وذلك في الأرض فأتمه بقوله: **{وما يعزب عن ربك من مثقال ذرة في الأرض}** واستوعب جميع ما في الأرض ثم أتبعه بذكر السماء لأن الابتداء وقع بما يتعلق بـــها ، وما يعمل العباد فيها ، فلذلك قدمت الأرض عليها.[1]

﴿ **يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِن مَّحَارِيبَ وَتَمَاثِيلَ وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَاتٍ اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ** ﴾ (سبأ:١٣) .

قال أبوحيان: " وقدمت المحاريب على التماثيل ، لأن النقوش تكون في الأبنية، وقدم الجفان على القدور ، لأن القدور آلة الطبخ ، والجفان آلة الأكل والطبخ قبل الأكل. وقد ذهب الرازي والبقاعي والألوسي إلى ما ذكره أبوحيان وزاد الرازي وأفاد قال: "لما بين الأبنية الملكية أراد بيان عظمة السماط الذي يمد في تلك الدور ، وأشار إلى الجفان لأنـــها تكون فيه ، وأما القدور فلا تكون فيه ، ولا تحضر هناك ، ولهذا قال: **{راسيات}** أي غير منقولات ، ثم لما بين حال الجفان العظيمة ، كان يقع في النفس أن

(١) درة التنزيل ص ٢١٥.

الطعام الذي يكون فيها في أي شيء يطبخ ، فأشار إلى القدور المناسبة للجفان" .[1]

﴿ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ ﴾ (سبأ:١٣) .

تقدم الخبر {قليل} على المبتدأ {الشكور} للاهتمام ببيان الكم وليس النوع ، مع ما فيه من مدح لــهذا القليل .

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ (سبأ: ٢٨)، هنا تقدم الحال {كافة} على صاحبه {الناس} ذهب ابن عطية إلى أن التقديم هنا للاهتمام ، وفي تقديم الحال على صاحبــها خلاف معروف بين النحويين، فهذا الإعراب على قول من يجيز ذلك ، وهذا الاهتمام الذي ذكره ابن عطية هو الاهتمام بوصول الهداية للناس جميعاً ومنه قوله تعالى﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾ (الأنبياء:١٠٧) ﴿ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا أَنَحْنُ صَدَدْنَاكُمْ عَنِ الْهُدَى بَعْدَ إِذْ جَاءَكُم بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ ﴾ (سبأ:٣٢)، تقدم المسند إليه على المسند الفعلي في سياق الاستفهام الإنكاري الذي هو في قوة النفي بل أشد في قوله {أنحن صددناكم} ليفيد تخصيص المسند إليه بالخبر الفعلي .

﴿ وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالاً وَأَوْلادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴾ (سبأ:٣٥)، قدموا الأموال لأن الاعتزاز بــها أكثر وقلوب الخلق بــها أعظم فخراً ، وقد يكون التقديم على ما ذكره البقاعي من أن التقديم للسببية لأن المال به يتزوج الرجال من النساء .[2]

﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلائِكَةِ أَهَؤُلاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ﴾ (سبأ:٤٠) .

يرى أبوحيان أن تقديم المفعول {إياكم} على الفعل {يعبدون} لأنه أبلغ في الخطاب ولكون يعبدون فاصلة.[3]

وأرى أن التقديم هنا للاعتناء والاهتمام ببراءة الملائكة التي جاء السؤال من أجلها وليس من أجل العبادة ذاتــها ، ولذا كان الجواب بتقديم التنــزيه لله

---

(١) البحر المحيط ج٧ ص ٢٥٥ ، مفاتيح الغيب ج٢٥ ص٢٤٩ ، روح المعاني ج٢٢ ص١٢٠.

(٢) نظم الدرر ج٦ ص١٨٥.

(٣) البحر المحيط ج٧ ص ٢٧٣.

رب العالمين أن يكونوا قد أشركوا أنفسهم مع عبادته بقولهم :{**قالوا سبحانك أنتَ وليُّنا من دونـــهم** } برؤوا أنفسهم مما نسب إليهم بعد ذلك في قوله:﴿ **قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنْتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِـــهِم بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الجِنَّ أَكْثَرُهُم بِـــهِم مُّؤْمِنُونَ**﴾(سبأ:٤١).

﴿ **فَالْيَوْمَ لا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَّفْعًا وَلاَ ضَرًّا وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنتُم بِـــهَا تُكَذِّبُونَ** ﴾ (سبأ:٤٢).

وقدم الظرف {**فاليوم**} على عامله لأن النفع والضر يومئذ قد اختصا برب العالمين بخلاف ما كان عليه الخلق في الدنيا من نفع بعضهم بعضاً وإضرار بعضهم بعضاً كما في قوله تعالى: {**مالك يوم الدين**} لانتفاء الملك يومئذ إلا لله . وتقدم النفع على الضر لأنه المقصود الأول حيث كان كل رجائهم في النجاة من العذاب بأن تنالهم شفاعة الشركاء فجاء التأييس من ذلك بتقديم نفي النفع، وكذلك تقدم المجرور {**بـــها**} على متعلقه {**تكذبون**} للتبكيت والاهتمام لتعظيم حسرتـــهم .

سورة فاطر

قال صاحب نظم الدرر فيما نقله عن الإمام أبي جعفر بن الزبير: "لما أوضحت سورة سبأ أنه سبحانه مالك السموات والأرض ، ومستحق الحمد في الدنيا والآخرة ، أوضحت هذه السورة أن ذلك خلقه كما هو ملكه ، وأنه الأهل للحمد والمستحق إذ الكل خلقه وملكه ولأن السورة الأولى تجردت لتعريف العباد بأن الكل ملكه وخلقه دارت آياتـــها على تعريف عظيم ملكه ، فقد أعطي داود وسليمان -عليهما السلام- ما هو كالنقطة من البحار الزاخرة ..فتجردت سورة سبأ لتعريف العباد بعظيم ملكه سبحانه ، وتجردت هذه الأخرى للتعريف بالاختراع والخلق" .[1]

﴿ الْحَمْدُ للَّه فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ جَاعِلِ المَلائكَةِ رُسُلاً أُولِي أَجْنحَةٍ مَثْنَى وثُلاثَ ورُبَاعَ ﴾ (فاطر:١)، وهذا الذي سماه الزركشي التقدم بالذات. أي ذات العدد الأقل لأن العدد الأقل أسبق بذاته من العدد الأكبر **{مثنى وثلاث ورباع}** .

وأقول: وقد يكون أيضاً التقدم للترقي إلى الأفضل ولذا كان جبريل وهو من أفضل الملائكة أكثر أجنحة فقد رآه النبي-ﷺ - في ليلة المعراج وله ستمائة جناح.

﴿ إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ ﴾ (فاطر:٦) وتقديم **{لكم}** على متعلقه **{عدو}** للاهتمام بعداوته والانتباه له وعدم التغافل عن عداوته .

﴿ إِلَيْهِ يَصْعَدُ الكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ ﴾ (فاطر:١٠).

تقديم الجار والمجرور **{إليه}** للاختصاص فلا ترفع الأعمال إلا إلى الله ليثيب عليها ويجازي بـــها ليفيد أن كل ما يقدم من عمل صالح وكلم طيب لغير الله فلا ثواب عليه ولا فائدة منه ، وليس تقدم الكلم على العمل لفضله

---

(١) نظم الدرر ج٦ ص٢٠١.

عليه بل لأنه وسيلة إليه والدليل على ذلك تغيير المساق، {**والعمل الصالح يرفعه**} حيث يتولى هو سبحانه رفع العمل لصاحبه .

﴿ وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْماً طَرِياً وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ (فاطر:١٢).

قال صاحب التحرير: "وتقديم الظرف في قوله : {**فيه مواخر**} على عكس آية سورة النحل - يقصد قوله تعالى:**﴿ وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْماً طَرِياً وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾** (النحل:١٤) ، لأن هذه الآية مسوقة مساق الاستدلال على دقيق صنع الله تعالى في المخلوقات وأدمج فيه الامتنان بقوله: {**يأكلون..وتستخرجون حلية**} وقوله : {**لتبتغوا من فضله**} فكان المقصد الأول من سياقها الاستدلال على عظيم الصنع : فهو الأهم هنا. ولما كان طفو الفلك على الماء حتى لا يغرق فيه أظهر في الاستدلال على عظيم الصنع من الذي ذكر من النعمة والامتنان قدم ما يدل عليه وهو الظرفية في البحر".[1]

﴿ وَمَا يَسْتَوِي الأَعْمَى وَالْبَصِيرُ ۝ وَلاَ الظُّلُمَاتُ وَلاَ النُّورُ ۝ وَلاَ الظِّلُّ وَلاَ الْحَرُورُ ۝ وَمَا يَسْتَوِي الأَحْيَاءُ وَلاَ الأَمْوَاتُ ﴾ (فاطر:١٩-٢٢).

قال أبوحيان: "وقدم الأشرف في مثلين وهو الظل والحر وأخر في مثلين وهما البصير والنور ، ولا يقال لأجل السجع ، لأن معجزة القرآن ليست في مجرد اللفظ بل فيه وفي المعنى ، والشاعر قد يقدم ويؤخر لأجل السجع والقرآن المعنى صحيح واللفظ فصيح ، وكانوا قبل المبعث في ضلالة فكانوا كالعمي وطريقهم الظلمة ، فلما جاء الرسول واهتدى به قوم صاروا بصيرين وطريقهم النور ، وقدم ما كان متقدما من المتصف بالكفر وطريقته على ما كان متأخرا من المتصف بالإيمان وطريقته ، - وهو يعني هنا التقدم بسبق الوجود - ثم لما ذكر المآل والمرجع قدم ما يتعلق بالرحمة على ما يتعلق بالغضب كما جاء {**سبقت رحمتي غضبي**} فقدم الظل على الحرور ، ثم إن الكافر المصر بعد

---

(١) التحرير والتنوير ج٢٢ ص٢٨٠.

البعثة صار أضل من العمى وشابه الأموات في عدم إدراك الحق فقال: {**وما يستوي الأحياء**} الذين آمنوا بما أنزل الله {**ولاالأموات**} الذين تليت عليهم الآيات البينات و لم ينتفعوا بـــها ، وهؤلاء كانوا بعد إيمان من آمن فأخرهم لوجود حياة المؤمنين قبل ممات الكافر . ومن يقرأ ما قاله الرازي في هذه الآية يبدو له نقل أبي حيان عنه واضحاً". [1]

بينما يرى صاحب التحرير: "أن الغرض الأهم من التقديم هو تفظيع حال الكافر ثم الانتقال إلى حسن حال ضده لأن هذا التشبيه جاء لإيضاح ما أفاده القصر في قوله: { **إنما تنذر الذين يخشون ربـــهم بالغيب** } ويرى أن تقديم حال المؤمنين في قوله: {**ولا الظل ولا الحرور وما يستوي الأحياء ولا الأموات**} لأجل الرعاية على الفاصلة". [2]

قال الألوسي: "وقدم الأعمى على البصير مع أن البصير أشرف لأنه إشارة إلى الكافر وهو موجود قبل البعثة والدعوة إلى الإيمان ، ولنحو هذا قدم الظلمات على النور فإن الباطل كان موجوداً فدمغه الحق ببعثته عليه الصلاة والسلام ، و لم يقدم الحرور على الظل ليكون على طراز ما سبق لمناسبته للعمى والظلمة من وجه أو لسبق الرحمة مع ما في ذلك من رعاية الفاصلة ، وقدم الأحياء على الموات و لم يعكس الأمر ليوافق الأوّلين في تقديم غير الشرف لأن الأحياء إشارة إلى المؤمنين بعد الدعوة والأموات إشارة إلى المصرين على الكفر بعدها ولذا قيل بعد {**إن الله يسمع من يشاء**} الخ ووجود المصرين بوصف الإصرار بعد وجود المؤمنين وقيل قدم ما قدم فيما عدا الأخير لأنه عدم وله مرتبة السبق وفي الأخير لأن المراد بالأموات فاقدوا الحياة بعد الاتصاف بـــها كما يشعر به أردا بذلك بقوله تعالى : {**وما أنت بمسمع من في القبور**} فيكون للحياة مع أنـــها وجودية رتبة السبق أيضاً ، وقيل إن تقديم غير أشرف على الأشرف مع انفهام أنه غير أشرف للإشارة إلى أن التقديم صورة لا يخل بشرف الأشرف.

فالنَّارُ يعلوها الدُّخانُ وربَّما   يعلوا الغبارُ عمائمَ الفُرسانِ[3]

---

(١) البحر المحيط ج٧ ص٢٩٥ ، مفاتيح الغيب ج٢٦ ص١٧.

(٢) التحرير والتنوير ج٢٢ ص١٨٧.

(٣) روح المعاني ج٢٢ص١٨٧.

وللأستاذ عبد الكريم تعليق وجيه على ترتيب هذه الأمثلة قال: " وثانيهما : تقديم الظل على الحرور والأحياء على الأموات وكان النظم يقتضي بتقديم الحرور على الظل والأموات على الأحياء لتتسق ألوان الصورة كلها فيكون الأسود المعتم {**الأعمى والظلمات والحرور والأموات**} في جانب والأبيض المشرق {**البصير والنور والأحياء والظل**} في جانب فما حكمة هذا ؟

نقول والله أعلم إن الجواب على هذا من وجهين :

أولاً: أن الظل هو نعمة في مقابلة الحرور وكذلك الحياة نعمة في مقابلة الموت..فقدمت هنا نعمتان على حين قدمت قبلهما آفتان هما العمى والظلمات وفي هذا التوزيع توازن لألوان الصورة حيث جاءت هكذا :

آفتان تقابل نعمتين العمى والبصر والظلام والنور .ونعمتان تقابل آفتين الظل والحرور والحياة والموت.

وثانيا: أن الأصل في نفي الاستواء -وهو التوازن بين الشيئين- أن يقع أولاً على الناقص منـــهما فيقدم المفضول على الفاضل كما في قوله تعالى :

﴿لاَ يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ (الحشر:٢٠)، وقوله سبحانه: **﴿ لاَ يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُوْلِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللّهِ﴾** (النساء:٩٥) .

هذا هو الاستعمال في أصل اللغة فإذا خرج الاستعمال عن هذا الأصل كان ذلك لغاية يراد بـــها كما في قوله تعالى : **﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ﴾** (الزمر:٩) ، وذلك حين لا يكون المراد هو تقوي حكم في المفاضلة بين أمرين ، وإنما المراد هو الإلفات إلى أن الأمور ليست على وجه واحد وإنما لكل أمر وجهان وجه وضد لـــهذا الوجه مثل الوجود والعدم والحق والباطل والإيمان والكفر والنور والظلام والظل والحر والعذب والملح وهكذا والمطلوب من الخصم أن يعترف به هنا هو أن الشيء الذي يمسك به ليس هو كل الشيء وإنما يقابله نقيضه الذي يجب أن ينظر فيه ويقابل الوجه الذي معه على الوجه الآخر لـــهذا الشيء ..

فإذا كان المشركون يمسكون بالشرك ولا يرون أن هناك معتقداً غيره فليعلموا أن هناك وجهاً آخر لا بد أن يقابل هذا الشرك دون التفات إلى أيهما

الفاضل وأيهما المفضول إن الأمور لا تكون إلا على هذا الازدواج الشيء وضده وليس الشرك الذي بين أيديهم بدعاً من الأشياء فليبحثوا عن الوجه الآخر المقابل له وهو الإيمان

وقد جاء الأمران الأولان على الأصل فقدم فيهما المفضول على الفاضل على حين جاء الأمران الآخران على غير الأصل فقدم فيهما الفاضل على المفضول وبهذا أخذ كل من الفاضل والمفضول مكانه في الصورة على قدم المساواة لأن الأمر -كما قلنا - لم يكن يراد منه المفاضلة وإنما المراد هو إثبات تلك الحقيقة التي لا خلاف عليها وهي الازدواج في الأشياء والتقابل بين الشيء وضده ..

وفي مجيء المقطع الأول من الصورة على أصل الوضع في اللغة الذي يتفق مع مجرى التفكير وذلك بتقديم المفضول على الفاضل في مقام المفاضلة والموازنة بينهما في هذا التقاء مع المشركين على أمر لا خلاف عليه بين مؤمن، وغير مؤمن وهذا من شأنه ألا يصدم تفكيرهم ولا يخرج بهم عن مألوفهم ، الأمر الذي يدعوهم إلى الاستماع إلى هذا الذي يعرض عليهم ، وإلى النظر فيه ..

فإذا وقع مقطع هذا الحديث من أنفسهم هذا الموقع واجههم المقطع الآخر من الصورة وهو ما قد انقلب فيه الوضع وانعكست فيه مواقع الأمور فقُدم ما حقه التأخير وأخر ما حقه التأخير وفي هذا إشارة إلى أمرين :

أولهما : أن المشركين قد انعكست في أنفسهم حقائق الأشياء وأنهم إنما ينظرون إلى الأمور وهم في وضع منكوس وأنهم لو اعتدلوا في وضعهم لرأوا هذا المقطع من الصورة على حقيقته .وإنهم يعيشون في الحرور ويحسبونه الظل وهم أموات ويحسبون أنهم أحياء هذا وضعهم فإذا شكوا في هذا فلينظروا فيه الصورة التي بين أيديهم وسيرون أن الحرور أفضل من الظل ، وأن الميت أكثر حياة من الحي وبهذا ينكشف لهم الوضع المقلوب الذي ينظرون فيه إلى الأشياء..

وثانيهما: أنهم لو أرادوا أن يقيموا الصورة كلها على وضع سليم لكان عليهم أن يغيروا بأيديهم هذا الوضع الذي أخذه المقطع الثاني من

الصورة وأن يجعلوه موافقاً للوضع الأول فيقدموا الحرور على الظل والأموات على الأحياء وبهذا يكون الحكم على المطلوب صادرا منهم فتجيء الصورة العامة هكذا {**وما يستوي الأعمى والبصير ولا الظلمات ولا النور ولا الحرور ولا الظل ولا الأموات ولا الأحياء**} إنها عملية تدعو إلى تحريك العقل وإلى أن يعمل عملاً جاداً على تسوية هذه المتناقضات فإذا اتجهت عقولهم إلى هذا الاتجاه ، كان من طبيعة الأمور ألا ترضى عقولهم بهذه المتناقضات التي تقوم في كيانهم حيث يؤثرون الضلال على الهدى والكفر على الإيمان ..وهكذا تجيء آيات الله بهذه الإيحاءات النفسية التي تدخل العقل في رفق ولطف إلى مواطن الهدى ومواقع الخير". (١)

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ٠وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَٰلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴾ (فاطر:٢٧،٢٨) .

سبق القول في الفصل الرابع : بأنه إذا دخلت **[إنما]** على الجملة الفعلية أفادت الاختصاص للمؤخر من الفاعل أو المفعول ، فتقديم اسم الله تعالى كما يقول الجرجاني: "إنما من أجل أن يُبين الخاشون من هم ويُخبَر بأنهم العلماء خاصة دون غيرهم ولو أُخر ذكر اسمه الله وقُدم العلماء فقيل إنما يخشى العلماء من الله لصار المعنى على ضد ما هو عليه الآن ، ولصار الغرض بيان المخشي من هو والإخبار بأنه تعالى دون غيره ، ولم يجب حينئذ أن تكون الخشية من الله تعالى مقصورة على العلماء ، وأن يكونوا مخصوصين بها كما هو الغرض في الآية ، ولا اللفظ بمحتمل له البتة ، ومن أجاز حملها عليه فقد أبطل فائدة التقديم ، وسوى بين قوله تعالى: {**إنما يخشى الله من عباده العلماء**} وبين أن يقال: إنما يخشى العلماء من الله .

قال صاحب التحرير: "وقدم الاعتبار باختلاف أحوال الثمرات لأن في اختلافها سعة تشبه سعة اختلاف الناس في المنافع والمدارك والعقائد . وفي الحديث {**مثل المؤمن الذي يقرأ القرآن كمثل الأترجة ريحها طيب وطعمها**

---

(١) التفسير القرآني ج٢٢ ص٨٧٢ –٨٧٥.

طيب ، ومثل المؤمن الذي لا يقرأ القرآن كمثل التمرة طعمها طيب ولا ريح لها ، ومثل المنافق الذي يقرأ القرآن كمثل الريحانة ريحها طيب وطعمها مر ، ومثل المنافق الذي لا يقرأ القرآن كمثل الحنظلة طعمها مر ولا ريح لها}[1]...

فالغربيب يدل على أشد من معنى أسود فكان مقتضى الظاهر أن يكون **{غرابيب}** متأخراً عن **{سود}** لأن الغالب أنهم يقولون: أسود غربيب ، كما يقولون : أبيض يقق وأصفر فاقع وأحمر قان ، ولا يقولون : غربيب أسود وإنما خولف ذلك للرعاية على الفواصل المبنية على الواو والياء الساكنتين ابتداء من قوله: **{والله هو الغني الحميد}**.[2]

قال الزمخشري في قوله {إنما يخشى الله من عباده العلماء}: فإن قلت: هل يختلف المعنى إذا قدم المفعول في هذا الكلام أو أخر ؟ قلت لابد من ذلك فإنك إذا قدمت اسم الله وأخرت العلماء كان المعنى إن الذين يخشون الله من بين عباده هم العلماء دون غيرهم ، وإذا عملت على العكس انقلب المعنى إلى أنهم لا يخشون إلا الله كقوله تعالى :**﴿ وَلاَ يَخْشَوْنَ أَحَداً﴾** (الأحزاب :٣٩) وهما معنيان مختلفان".[3]

وقال الرازي: "وكأن الله تعالى قسم دلائل الخلق في العالم الذي نحن فيه وهو عالم المركبات قسمين : حيوان وغير حيوان ، وغير الحيوان إما نبات وإما معدن والنبات أشرف وأشار إليه بقوله: **{فأخرجنا به ثمرات}** ثم ذكر المعدن بقوله: **{ومن الجبال}** ثم ذكر الحيوان وبدأ بالأشرف منها وهو الإنسان**{ومن الناس}** ثم ذكر الدواب".[4]

أقول: وهنا تقديم آخر لم يذكروه هاهنا وهو تقديم لفظ الجلالة الذي هو فاعل في الحقيقة على فعله في قوله : **{ألم تر أن الله أنزل}** وذلك للفت الأذهان بالقول إلى الفاعل الأعظم والمدبر الحكيم الذي قدرته وراء تلك كل الأشياء .

---

(١) البخاري كتاب فضائل القرآن حديث رقم {٤٦٣٢}.

(٢) التحرير والتنوير ج٢٢ ص٣٠١،٣٠٢.

(٣) الكشاف ج٣ ص٥٩٣.

(٤) مفاتيح الغيب ج٢٦ ص٢١.

قال البقاعي: "ولما ذكر تنوع ما عن الماء وقدمه لأنه في التلوين كما أنه الأصل في التكوين أتبعه التلوين عن التراب الذي هو أيضاً شيء واحد فقال ذاكراً ما هو أصلب الأرض وأبعدها عن قابلية التأثر وأبعدها عن قابلية التأثر وقطعه عن الأول لأن الماء لا تأثير له فيه ...**{مختلف ألوانـــها}** وهي من الأرض وهي واحدة ولما قدم ما كان مستغرباً في ألوان الأرض لأنه على غير لونه الأصلي ، أتبعه ما هو أقرب إلى الغبرة التي هي أصل لونـــها ، ولما كانت مادة **{عرب}** تدور على الخفاء الذي يلزمه الغموض أخذاً من غروب الشمس ، ويلزم منه السواد ، ولذلك يؤكد الأسود بغربيب مبالغة الغرب كفرح أي السود للمبالغة في سواده ،وكان المقصود الوصف بغاية السواد مخالفة لغيره قال تعالى عاطفاً على بيض : **{وغرابيب}** أي من الجدد أيضاً **{سود}** فقدم التأكيد لدلالة السياق على أن أصل العبارة **{ وسود غرابيب سود}** فاضمر الأول ليتقدم على المؤكد لأنه تابع ودل عليه بالثاني ليكون مبالغاً في تأكيده غاية المبالغة بالإظهار بعد الإضمار وهو معنى قول ابن عباس -رضي الله عنـــهما- أشد سواد الغرابيب". [1]رواه عنه البخاري.

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِراً وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَّن تَبُورَ﴾ (فاطر:٢٩).

تقدم السر على العلانية إشارة لفضله لكونه أبعد عن الرياء وأقرب إلى الإخلاص.

﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْـــهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْـــهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْـــهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ ﴾ (فاطر:٣٢).

قال الزمخشري: "فإن قلت لم قدم الظالم ؟ ثم المقتصد ثم السابق ؟ قلت: للإيذان بكثرة الفاسقين وغلبتـــهم ، وأن المقتصدين قليل بالإضافة إليهم والسابقون أقل من القليل" . [2]

وهناك رأي وجيه لصاحب التحرير وهو أن تقديم الظالم لنفسه لدفع توهم حرمانه من الجنة وتعجيلاً لمسرته.[3]

---

(١) نظم الدرر ج٦ ص ٢٢٠ ،٢٢١.   (٢) الكشاف ج٣ ص٥٩٥   (٣) التحرير والتنوير ج٢٢ ص٣١٢.

وفي تأخير السابقين معنى آخر جميل أشار إليه البقاعي بقوله: "وختم بالسابقين لأنه الخلاصة ، وليكونوا أقرب إلى الجنات وهو قوله تعالى :[١]

﴿ جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤاً وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴾ (فاطر:٣٣).

قال الرازي: "تقديم الفاعل على الفعل وتأخير المفعول عنه موافق لترتيب المعنى إذا كان المفعول حقيقياً كقولنا: **{الله خلق السموات}** وقول القائل: زيد بنى الجدار فإن الله موجود قبل كل شيء ، ثم له فعل وهو الخلق ، ثم حصل به المفعول وهو السموات ، وكذلك قبل البناء ثم الجدار من بنائه ، وإذا لم يكن المفعول حقيقياً كقولنا زيد دخل الدار وضرب عمراً فإن الدار في الحقيقة ليس مفعولاً للداخل وإنما فعل من أفعاله تحقق بالنسبة إلى الدار ، وكذلك عمرو فعل من أفعال زيد تعلق به فسمى مفعولاً لا يحصل هذا الترتيب ، ولكن الأصل تقديم الفاعل على المفعول ولهذا يعاد المفعول المقدم بالضمير تقول عمراً ضربه زيد فتوقعه بعد الفعل بالهاء العائدة إليه وحينئذ يطول الكلام فلا يختاره الحكيم إلا لفائدة ، فما الفائدة في تقديم الجنات على الفعل الذي هو الدخول وإعادة ذكر بالهاء في يدخلونها وما الفرق بين هذا وقول القائل يدخلون جنات عدن ؟ نقول السامع إذا علم أن له مدخلاً من المداخل وله دخول و لم يعلم عين المدخل فإذا قيل له أن تدخل فإلى أن يسمع الدار أو السوق يبقى متعلق القلب بأنه في أي المداخل يكون فإذا قيل له دار زيد تدخلها فبذكر الدار ، يعلم مدخله وبما عنده من العلم السابق بأن له دخولاً يعلم الدخول فلا يبقى له توقف ولا سيما الجنة والنار فإن بين المدخلين بوناً بعيداً".[٢]

﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ ﴾ (فاطر:٣٦).

تقدم الجار والمجرور هنا لعلتين: الأولى: هو التشويق لمعرفة ما لهم فيتمكن في النفوس ذكر المسند إليه . الثاني: هو تحقق كون العذاب لهم لا لغيرهم فيفيد التأكيد.

---

(١) التحرير والتنوير ج٢١ ص٣٠٢. (٢) نظم الدرر ج٦ ص٢٢٦. (٣) مفاتيح الغيب ج٢٦ ص ٢٦.

سورة يس

لما تقدم في سورة فاطر أنه سبحانه وتعالى الملك الأعلى لما ثبت له من تمام القدرة وشمول العلم ، وكان من أجل ثمرات الملك إرسال الرسل إلى الرعايا بأوامره ونواهيه جاءت سورة يس بإثبات تلك الرسالة في قوله تعالى: {**إنك لمن المرسلين**} ولما جاء في سورة فاطر من الآيات الباهرات الدالة على توحيد الله وعظيم ملكه جاءت سورة يس بذكر من اصطفاه الله لتبليغ تلك الآيات وإيضاح تلك البينات .

﴿ **لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَى أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ** ﴾ (يس:٧) تقدم المسند إليه {**هم**} على الجملة الفعلية {**يؤمنون**} من أجل تقوية الحكم وتوكيده والضمير إذا أضمر ثم فسر كان أفخم في الذكر وأحسن في إثبات التوكيد وأبعد عن التشكيك ، فتقديم الضمير هنا جاء من أجل تأكيد نفي الإيمان عنـــهم .

﴿ **إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ** ﴾ (يس:١٤) ،تقدم الجار والمجرور {**إليكم**} على متعلقه {**مرسلون**} لبيان الاعتناء بـــهم أي من أجلكم لا من أجل غيركم ، وفيه أيضاً معنى الاختصاص ويؤيد ذلك ما رواه البخاري عن جابر بن عبد الله – رضي الله عنـــهما – قال : قال رسول الله ﷺ : {**أعطيت خمساً لم يعطهن أحد من الأنبياء قبلي نصرت بالرعب مسيرة شهر وجعلت لي الأرض مسجدا وطهوراً وأيما رجل من أمتي أدركته الصلاة فليصل وأحلت لي الغنائم وكان النبي يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى الناس وأعطيت الشفاعة عامة**}(١)

﴿**وَجَاءَ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ**﴾ (يس:٢٠).

قال صاحب درة التنـــزيل: "وقال في سورة القصص:﴿ **وَجَاءَ رَجُلٌ**

---

(١) صحيح البخاري باب الصلاة حديث رقم { ٤١٩ }.

مِنْ أَقْصَا المَدِينَةِ يَسْعَى قَالَ يَا مُوسَى إِنَّ المَلأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ ﴾ (القصص:٢٠)، للسائل أن يسأل عن تقديم قوله: {من أقصا المدينة} على {رجل} الذي هو الفاعل في سورة يس وتأخيره في السورة التي قبلها .

الجواب أن يقال : إن الفاعل في الموضعين لما كان نكرة والمعنى جاء جاء ، وقد دل الفعل على جاء ، ولا يكون الجائي من أقصى المدينة في الأعم الأغلب إلا رجلاً ، وكان الذي يفيد المخاطب أن يعرف أنه جاء من مكان بعيد إلى مجتمع الناس في القرية وحيث لا يقرب من مجاري القصة ولا يحضر موضع الدعوة ومشهد المعجزة ، فقدم ما تبكيت القوم به أعظم والتعجب منه أكثر ، فقال: {**وجاء من أقصا المدينة رجل**} ينصح لهم ما لا ينصحون مثله لأنفسهم ولا ينصح لهم أقربوهم مع أنه لم يحضر جميع ما يحضرونه و لم يشهد من كلام الأنبياء ما يشهدونه ، فحثهم على اتباع الرسل المبعوثين إليهم وقبول ما يأتون به من عند مرسلهم .. وأما الآية الأولى من سورة القصص فإن المراد جاء من لا يعرفه موسى من مكان لم يكن مجاورا لمكانه ، فأعلمه ما فيه الكفار من ائتمارهم به فاستوى حكم الفاعل والمكان الذي جاء منه ، فقدم ما أصله التقديم وهو الفاعل

إذ لم يكن هنا تبكيت للقوم بكونه من أقصا المدينة كما كان ذلك في الآية المتقدمة".[1]

وذكر الزركشي أن التقدم هنا للتبكيت والتعجيب ، قال: " توبيخ لأهل المدينة الكافرين والمعرضين مع قربهم من الرسالة والدعوة وحصول الإيمان من ساكني الأطراف".[2]

قال صاحب التحرير: "وفائدة ذكر أنه جاء من أقصا المدينة الإشارة إلى أن الإيمان بالله ظهر في أهل ربض المدينة قبل ظهوره في الإنصاف والنظر في صحة ما يدعوهم إليهم الرسل ، وعامة سكانها تبع لعظمائها لتعلقهم بهم وخشيتهم بأسهم بخلاف سكان أطراف المدينة فهم أقرب إلى

---

(١) درة التنزيل ص ٢١٩.　　(٢) البرهان ج٣ ص٢٧٦.

الاستقلال بالنظر وقلة اكتراث بالآخرين لأن سكان الأطراف غالبهم عملة أنفسهم لقربهم من البدو وبهذا يظهر وجه تقديم {**من أقصا المدينة**} على {**رجل**} للاهتمام بالثناء على أهل أقصى المدينة ، وأنه قد يوجد الخير في الأطراف ما لا يوجد في الوسط ، وأن الإيمان يسبق إليه الضعفاء لأنهم لا يصدهم عن الحق ما فيه أهل السيادة من ترف وعظمة إذ المعتاد أنهم يسكنون وسط المدينة .

قال أبو تمام :

كانتْ هي الوسَطُ المَحْمِّي فاتَّصلتْ بها الحوادثُ حتىَّ أصبحتْ طَرفا[1]

وأما قوله تعالى: في سورة القصص {**وجاء رجل من أقصا المدينة يسعى**} فجاء النظم على الترتيب الأصلي إذ لا داعي إلى التقديم إذ كان ذلك الرجل ناصحاً و لم يكن داعياً للإيمان .[2]

﴿ **اتَّبِعُوا مَن لاَّ يَسْأَلُكُمْ أَجْراً وَهُم مُّهْتَدُونَ** ﴾ (يس:٢١).

قدم عدم سؤال الأجر على الاهتداء مع أن الاهتداء هو بغية المرسلين لحكمة الإقناع للوصول إلى الاهتداء بقطع العوارض الصارفة عنه وهي هنا ظن السوء بالمرسلين أنهم أرادوا بدعوتهم أجراً أو نفعاً دنيوياً .

﴿**لاَ الشَّمْسُ يَنبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلاَ اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ**﴾(يس:٤٠).

تقدم حرف النفي { **لا** } على قوله {**الشمس ينبغي**} لتمكين النفي وتقريره في ذهن السامع فيكون أقوى من قوله : الشمس لا ينبغي لها أن تدرك القمر .

﴿ **وَإِن نَّشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلاَ صَرِيخَ لَهُمْ وَلاَ هُمْ يُنقَذُونَ** ﴾ (يس:٤٣).

تقديم المسند إليه { **هم** } على المسند الفعلي { **ينقذون** } لتأكيد نفي الإنقاذ عنهم مما سوى الله وكذلك ما فيه من رعاية الفاصلة.

﴿**الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ** ﴾ (يس:٦٥). أثبت الكلام للأيدي أولاً لأنها كانت هي المباشرة للعمل وأثبت الشهادة للأرجل ثانياً والإقرار مقدم على الشهادة .

---

(١) ديوان أبي تمام ص١٩٢ من قصيد يمدح فيها أبا دلف القاسم بن عيسى العجلي.

(٢) التحرير والتنوير ج٢٢ ص٣٦٦.

﴿ وَلَوْ نَشَاءُ لَطَمَسْنَا عَلَى أَعْيُنِـــهِم فَاسْتَبَقُوا الصِّرَاطَ فَأَنَّى يُبْصِرُونَ . وَلَوْ نَشَاءُ لَمَسَخْنَاهُمْ عَلَى مَكَانَتِـــهِم فَمَا اسْتَطَاعُوا مُضِياً وَلاَ يَرْجِعُونَ﴾ (يس:٢٦،٢٧)

قال الرازي: "قدم الطمس والإعماء على المسخ والإعجاز ليكون الكلام مدرجاً كأنه قال إن أعماهم لم ير الطريق الذي هم عليه وحينئذ لا يهتدون إليه، فإن قال قائل الأعمى قد يهتدي إلى الطريق بأمارات عقلية أو حسية غير حس البصر كالأصوات والمشي بحس اللمس، فارتقى وقال فلو مسخهم وسلب قوتـــهم بالكلية لا يهتدون إلى الصراط بوجه من الوجوه .

الوجه الثالث : قدم المضي على الرجوع ، لأن الرجوع أهون من المضي لأن المضي لا ينبئ عن سلوك الطريق من قبل ، وأما الرجوع فينبئ عنه ، ولاشك أن سلوك طريق قد رؤي مرة أهون من سلوك طريق لم ير فقال: {**لا يستطيعون مضياً**}ولا أقل من ذلك وهوالرجوع الذيأهون من المضي"[1]

﴿أَوَ لَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَاماً فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ﴾ (يس:٧١) .

تقدم الجاران والمجروران {**لهم**} و {**مّما**} على المفعول به {**أنعاماً**} اعتناءً بمن خلق لهم ذلك وهم الناس ، مع ما فيه من التشويق للمتأخر وكذلك ما فيه من الجمع بين المتأخر{ **أنعاماً** } والأحكام المتعلقة به والمذكورة بعده ﴿فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ .وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُـــهُم وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ .وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَمَشَارِبُ أَفَلاَ يَشْكُرُونَ ﴾ (يس:٧١-٧٣). ﴿ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ (يس:٧٦).

تكلمنا من قبل عن سبب تقديم السر على العلن ، وقد ذكر الألوسي جملة من الفوائد غير ما ذكرنا قال: "وقيل : لأن مرتبة السر متقدمة على مرتبة العلن إذ ما من شيء يعلن إلا وهو أو مباديه مضمر في القلب قبل ذلك فتعلق علمه تعالى بحالته الأولى متقدم على تعلقه بحالته الثانية حقيقة ، وقيل : للإشارة إلى الاهتمام بإصلاح الباطن فإنه ملاك الأمر ولأنه محل الاشتباه المحتاج للبيان". [2]

---

(١) مفاتيح الغيب ج٢٦ ص ١٠٣.   (٢) روح المعاني ج٢٢ ص٥٢.

أقول : وفي تقديم السر على العلن في هذا السياق لطيفة أخرى ، فقد جاءت الآية لتطمين النبي ﷺ وأمره بعدم الحزن لسيئ قولهم ، فكان البدء بعلم السر هنا أحسن فإن أشد المكر وأعظمه ضررا ما كان بالسر، وخوف الناس من مكر السر أعظم مما يفعل بـــهم في الجهر فإذا كان النبي ﷺ في هذه الآية قد حزن مما يفعلونه في العلن فإن الله تعالى يقول له : إن نكفيك أمر كيدهم لك سراً كما نكفيك أمرهم علناً حيث لا يغيب عنا علم سرهم ولا علم جهرهم.

﴿ فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ (يس:٨٣).

تقدم الجار والمجرور **{بيده}** للاختصاص فالملكوت بيده لا بيد غيره وكذلك الجار والمجرور **{إليه ترجعون}** فلا رجوع إلا إليه .

سورة الصافات

لما كان آخر سورة يس يدور حول نفي الكفار البعث بعد الإماتة ثم إثبات الوحدانية لله واختصاصه بالملك والرجوع إليه ﴿ **فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ** ﴾ (يس:٨٣) ، بدأت سورة الصافات بالقسم منه سبحانه وتعالى في أول السورة وحتى الآية الثالثة لإثبات هاتين الصفتين الألوهية والملك فقال : ﴿ **إِنَّ إِلَهَكُمْ لَوَاحِدٌ ٠رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ الْمَشَارِقِ** ﴾ (الصافات:٤،٥) ﴿ **وَالصَّافَّاتِ صَفًّا ٠فَالزَّاجِرَاتِ زَجْرًا ٠ فَالتَّالِيَاتِ ذِكْرًا** ﴾ (الصافات:١-٣).

نقل أبوحيان والسمين عن الزمخشري: "إن الفاء العاطفة في الصافات إما أن تدل على ترتب معانيها في الوجود كقوله:

يا لهفَ زيابَة للحارث الصَّ بحِ فالغانمِ فالآيبِ

أي الذي صبح فغنم فآبَ وإما على ترتبها في التفاوت من بعض الوجوه ، كقولك : خذ الفضل فالأفضل ، واعمل الأحسن فالأجمل ، وإما على ترتب موصوفاتها في ذلك ، كقولك : رحم الله المحلقين فالمقصرين ، فأما هنا فإن وحدت الموصوف كانت للدلالة على ترتيب **{الصافات}** في التفاضل فإذا كان الموحد الملائكة فيكون الفضل للصف ، ثم للزجر ثم التلاوة ، وغما على العكس ، وإن تليت الموصوف فترتب في الفضل فتكون **{الصافات}** ذوات فضل **{والزاجرات}** أفضل **{والتاليات}** أبهر فضلاً ، أو على العكس . انتهى.

قال أبوحيان موضحاً: "ومعنى العكس في المكانين : أنك ترتقي من أفضل إلى فاضل إلى مفضول ، أو تبدأ بالأدنى ، ثم بالفاضل ثم بالأفضل .وهذا ما ذكره الألوسي والنقل فيه واضح عن الزمخشري". [1]

---

(١) البحر المحيط ج٧ ص٣٣٧ ، الكشاف ج٤ ص٣٣ ، روح المعاني ج٢١ ص٦٥،٦٦ ، الدر المصون ج٥ ص٤٩٥.

﴿ **بَيْضَاءَ لَذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ . لاَ فِيهَا غَوْلٌ وَلاَ هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ . وَعِندَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ عِينٌ** ﴾ (الصافات:٤٦-٤٨)، تقدم قوله: {**بيضاء لذة للشاربين**} لإثبات صفات الكمال لـها أولاً ثم جاء قوله :{ **لا فيها غول ولا هم عنها ينـزفون**} لنفي النقص عنها ثانياً ، وتقدم الجار والمجرور {**لا فيها**} على متعلقه {**غول**} وكذلك {**عنها**} على {**ينـزفون**} لتفضيل المنفي عنه على ما عداه وقد مر هذا المثال في الفصل الأول من الباب الثاني .

﴿ **أئفكاً آلِهَةً دُونَ اللَّهِ تُرِيدُونَ** ﴾ (الصافات:٨٦) تقدم الاستفهام بقوله: {**أئفكاً**} لبيان شدة الإنكار .

﴿**وَإِنَّ لُوطاً لَّمِنَ الْمُرْسَلِينَ . إِذْ نَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ . إِلاَّ عَجُوزاً فِي الْغَابِرِينَ . ثُمَّ دَمَّرْنَا الآخَرِينَ**﴾ (الصافات:١٣٣-١٣٦) ، تقدم الإخبار بأمر إنجائه أولاً {**إذ نجيناه وأهله أجمعين**} على الأمر بإهلاكهم { **ثم دمرنا الآخرين** } للبداءة بالتبشير وإدخال الطمأنينة على قلبه .

﴿ **سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ . وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ . وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ** ﴾ (الصافات١٨٠-١٨٢).

تقدم أمر التسبيح{**سبحان ربك**}على التحميد{**والحمد لله رب لعالمين**} لأن التسبيح نفي للنقص وتنـزيه عما لا يليق وهو تخلية والتحميد إثبات لصفات الحمد والاستحقاق وهو تحلية والتخلية مقدمة على التحلية ولهذا أخر الحمد، وكذلك ختمت الآية بالسلام على المرسلين جميعاً على سبيل الإجمال بعد أن ذكرتـهم على سبيل التفصيل فقدم سلم الله على إبراهيم في الآية ١٠٩ وموسى وهارون في الآية ١٢٠ وإلياس في الآية ٢٣٠ ولوط بذكر الإنجاء والذي هو في معنى السلامة في الآية ١٣٤ .

وحول معنى التقديم والتأخير قال الألوسي: "وقد يقال تقديم التنـزيه لأهميته ذاتاً ومقاماً ولما كان التنـزيه عما يصف المشركون وقد ذكر عز وجل إرشاد الرسل إياهم وتحذيرهم لهم من أن يصفوه سبحانه بما لا يليق به تعالى وضمّن ذلك الإشارة إلى سوء حالهم وفظاعة منقلبـهم أردف جل وعلا ذلك بالإشارة إلى حسن حال المرسلين الداعي إلى تنـزيهه تعالى عما يصفه به المشركون وفيه من الاهتمام بأمر التنـزيه ما فيه وأتى عز وجل بالحمد للإشارة إلى أنه سبحانه متصف بالصفات الثبوتية، كما أنه سبحانه

متصف بالصفات السلبية وهذا وإن استدعى إيقاع الحمد بعد التسبيح بلا فصل كما في قولهم : سبحان الله والحمد لله وهو المذكور في الأخبار والمشهور في الأذكار إلا أن الفصل بينـــهما هنا بالسلام على المرسلين مما اقتضاه مقام ذكرهم فيما مر وجدد الالتفات إليهم تقديم التنـــزيه عما يصفه به من يرسلون إليه، ولعل من يدقق النظر يرى أن السلام هنا أهم من الحمد نظراً للمقام وإن كان هو أهم منه ذاتاً والأهمية بالنظر للمقام أولى بالاعتبار عندهم ولذا تراهم يقدمون المفضول على الفاضل إذا اقتضى المقام الاعتناء به ولعله من تتمة جملة التسبيح وبـــهذا ينحل ما يقال من أن حمده أجل من السلام على الرسل – عليهم السلام – فكان ينبغي تقديمه عليهم على ما هو المنهج المعروف في الكتب والخطب ولا يحتاج إلى ما قيل : إن المراد بالحمد الشكر على النعم وهي الباعثة عليه ومن أجلّها إرسال الرسل الذي هو وسيلة لخيري الدارين فقدم عليه لأن الباعث على الشيء يتقدم عليه في الوجود وإن كان هو متقدماً على الباعث في الرتبة فتدبر" [1].

---

(1) روح المعاني ج٢٣ص١٥٨.

سورة ص

المقصود منها بيان ما ذكر في آخر الصافات من أن جند الله هم الغالبون وإن رئي أنـــهم ضعفاء وإن تأخر نصرهم لأنه سبحانه محيطاً بصفات الكمال كما أفهمه آخر الصافات ولما بين سبحانه حال الأمم السالفة مع أنبيائهم من العتو والتكذيب كان مظنة لتذكير حال مشركي العرب ليعلم أنه لا فرق بينـــهم وبين مكذبي الأمم السالفة في استحقاق العذاب ، وقد وقع ذلك التصريح في قوله تعالى: **{كذبت قبلهم قوم نوح وعاد وفرعون ذو الأوتاد}** إلى قوله : **{ إن كلٌ إلا كذب الرسل فحق عقاب}** .

﴿أَأُنزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِّن ذِكْرِي بَل لَّمَّا يَذُوقُوا عَذَابِ﴾ (ص:٨) ، تقدم متعلق الفعل **{عليه}** على فاعله **{الذكر}** إشارة إلى أن الإنكار للقرآن هنا ليس منظوراً إليه منـــهم بقدر إنكارهم لاختيار الرسول لـــهذا الأمر وترك ساداتـــهم ورجالاتـــهم ولهذا جاء قوله تعالى: **{بل هم في شك من ذكري}** إضراباً على إنكارهم لشخص الرسول فيهم فإن الأمر ليس أمر الرسول وإنما هو أمر ما أرسل به والذي كان أولى بالنظر فيه .

قال الكرماني:"قوله:**{أءنزل عليه الذكر من بيننا}** وفي القمر **﴿ أَؤُلْقِيَ الذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنْ بَيْنِنَا ﴾** (القمر:٢٥) لأن ما في هذه السورة حكاية عن كفار قريش يجيبون محمداً ﷺ حين قرأ عليهم: **{وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم}** فقالوا: **{أءنزل عليه الذكر من بيننا}** ومثله : **﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ ﴾**(الكهف:١) و **﴿ تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ ﴾** (الفرقان:١) وهو كثير"[١].

وما في القمر حكاية عن قوم صالح ، وكان يأتي الأنبياء يومئذ صحف مكتوبة ، وألواح مسطورة ، كما جاء إبراهيم وموسى ، فلهذا قالوا: **{أءلقي الذكر عليه}** ، مع أن لفظ الإلقاء يستعمل لما يستعمل له الإنزال" .

---

(١) أسرار التكرار في القرآن ص ٢١٦.

﴿ **فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ** ﴾ (ص:٧٢)، تقديم التسوية على الخلق تقديماً وجودياً يدل على أن تخليق البشر لا يتم إلا بأمرين : التسوية أولاً ثم نفخ الروح ثانياً، سواء في بداية خلق آدم حيث خلق أولاً من الطين وسوي على هيئة البشر ثم نفخت فيه الروح من بعد أو كان ذلك أمر خلق ذريته، حيث إن الجنين يتشكل أولاً في رحم أمه قبل نفخ الروح فيه ثم تنفخ الروح بعد مائة وعشرين يوماً وبـــهذا صح الخبر عن النبي ﷺ روى البخاري ومسلم عن أبي عبد الرحمن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال : حدثنا رسول الله ﷺ وهو الصادق المصدوق - قال : {**إن أحدكم يجمع خلقه في بطن أمه أربعين يوماً نطفة ، ثم يكون علقة مثل ذلك، ثم يكون مضغة مثل ذلك، ثم يبعث الله ملكاً ، فيؤمر بأربع كلمات ويقال له اكتب عمله ورزقه : وأجله، وشقي أو سعيد ، ثم ينفخ فيه الروح، فإن الرجل منكم ليعمل حتى ما يكون بينه وبين الجنة إلا ذراع ، فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار، ويعمل حتى ما يكون بينه وبين النار إلا ذراع فيعمل بعمل أهل الجنة**} .[1]

﴿ **قَالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقَّ أَقُولُ** ﴾ (ص:٨٤) ، تقدم المفعول {**فالحق**} على فاعله {**أقول**} لإفادة الاختصاص أي ولا أقول إلا الحق.

(١) صحيح البخاري كتاب بدء الخلق رقم{ ٢٩٦٩ } صحيح مسلم كتاب القدر{٤٧٨١} سنن الترمذي كتاب القدر رقم{ ٢٠٦٣} مسند أحمد كتاب مسند المكثرين من الصحابة رقم{ ٣٤٤١} و{٣٨٨٢}.

لما نفى الله عز وجل في سورة ص أن يكون القرآن من عند محمد ﷺ وأتبعه بالتهديد بقوله: { **ولتعلمن نبأه بعد حين** } جاء أول سورة الزمر ليثبت أن القرآن إنما هو من عند الله وأن تنـــزيله ليس إلى محمد وإنما ينـــزله الله وقت شاء فلا يستعجل المجرمون عذابه ، كذلك فإن سورة ص دار ذكرها حول المشركين وعنادهم واتخاذهم الأنداد والشركاء فناسب أن يأتي افتتاح سورة الزمر بالأمر بالإخلاص والنهي عن الإشراك الذي هو نقيض ما تقدم بقوله: ﴿ **أَلاَ لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَـــهُم فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ اللَّهَ لاَ يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ** ﴾ (الزمر:٣) ﴿**فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصاً لَّهُ الدِّينَ أَلاَ لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ**﴾ (الزمر:٢،٣) .

لم يتقدم هنا مفعول {**أعبد الله**} على عامله لأن الاختصاص قد استفيد من الحال في قوله: { **مخلصاً له الدين** } وهذا لا ينفي دعوى الاختصاص في قوله تعالى: {**قل اللهَ أعبدُ مخلصاً له ديني** } ونظائرها ، والتي حاول أبو حيان أن ينفيها مدعياً أنـــها للاهتمام فحسب.

ويذكر أبوحيان رأي الزمخشري في هذه الآية بأن تقديم لفظ الجلالة للاختصاص وكعادته يعترض على الزمخشري مدعياً أن التقديم للاهتمام .

وأقول: إن ما ذكره الزمخشري يؤيد دعوى الاختصاص قال: {ولدلالته على ذلك قدم المعبود على فعل العبادة وأخره في الأول فالكلام أولاً واقع في الفعل نفسه وإيجاده - ويقصد بذلك قوله تعالى :{ **قل إني أمرت أن أعبد الله مخلصاً له الدين**}.

وثانياً : فيمن يفعل الفعل لأجله ولذلك رتب عليه قوله ﴿ **فَاعْبُدُوا مَا شِئْتُم مِّن دُونِهِ**﴾ (الزمر:١٥)، والمراد بـــهذا الأمر الوارد على وجه التخيير المبالغة في الخذلان والتخلية} . [1]

---

(١) البحر المحيط ج٧ ص٤٠٣، الكشاف ج٤ ص١١٥.

أقول: ومما يؤيد رأي الزمخشري ولم يذكره هو تتمة الآية نفسها وهو قوله تعالى: { **مخلصاً له ديني** } فإن الإخلاص في الدين هو سلامته من الشرك الأصغر والأكبر في الأقوال والأفعال صغيرها وكبيرها فلا يراد بالطاعات إلا الله عز وجل، ولا يلزم من وجود قرينة الحال نفي ما ثبت بالمقال ، وقد تعرض لذلك صاحب التحرير في تفسيره للآية الثانية والثالثة من هذه السورة قال "ولما أفاد قوله: { **مخلصا له الدين** } معنى إفراده بالعبادة لم يكن هنا مقتض لتقديم مفعول { **أعبد الله** }على عامله لأن الاختصاص قد استفيد من الحال في قوله: { **مخلصاً له الدين** } وبذلك يبطل استناد الشيخ ابن الحاجب لهذه الآية في توجيه رأيه بإنكار إفادة تقديم المفعول على فعله التخصيص ، وبتضعيفه لاستدلال أيمة المعاني بقوله تعالى : { **بل الله فاعبد** } آخر السورة بأنه تقديم لمجرد الاهتمام لورود { **فاعبد الله**} قال في إيضاح المفصل في شرح قول صاحب المفصل في الديباجة { **الله أحمد** } على أن جعلني من علماء العربية الله أحمد على طريقة {**إياك نعبد** } تقديماً للأهم ، وما قيل إنه للحصر لا دليل عليه والتمسك فيه بنحو{**بل الله فاعبد**}ضعيف لورود {**فاعبد الله**}.

قال صاحب التحرير معلقاً: " وهو ضغث على إبالة فإنه لم يقتصر على منع دليل شهد به الذوق السليم عند أيمة الاستعمال وعلى سند منعه بتوهمه أن التقديم الذي لوحظ في مقام يجب أن يلاحظ في كل مقام ، كأن الكلام قد جعل قوالب يأتي بـــها في كل مقام ، وذلك ينبو عنه اختلاف المقامات البلاغية، حتى جعل الاختصاص بالعبادة مستفاداً من القرينة لا من التقديم ، كأن القرينة لو سلم وجودها تمنع من التعويل على دلالة النطق" .[1]

﴿ **ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ المُلْكُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ** ﴾ (الزمر:٦).

تقدم الجار والمجرور لإفادة الحصر أي أن الملك لله وحده دون نسبته لغيره ولو اسماً وصفة ولو حدث في الدنيا فملك الملوك في الدنيا ليس ملكاً حقيقياً لنقصه وزواله فهو بمنـــزلة العدم .

﴿ **أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِداً وَقَائِماً** ﴾ (الزمر:٩) .

---

(١) التحرير والتنوير جـ٢٣ ص٣١٦،٣١٧.

تقدم السجود على القيام وإن كان متأخرا عنه في الوجود لشرفه وقد تقدم ذلك في آل عمران .

﴿ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ ﴾ (الزمر:١٠).

تقديم المسند إليه { للذين أحسنوا } على المسند { حسنة } للاهتمام بالمحسنين بالإضافة إلى التشويق بانتظار ما لهم .

﴿ يَاعِبَادِ فَاتَّقُونِ﴾ (الزمر:١٦) قدم النداء { يا عباد } على الغرض منه {فاتقون} على عكس الترتيب في قوله تعالى : {واتقون يا أولي الألباب} في سورة البقرة من أجل إثارة الانتباه لأن المقام هنا مقام تحذير وترهيب ، وكذلك ما في جمال التعقيب والاتصال بين كلمة {عباده} التي قبلها و{ يا عباد } التي جاءت بعدها .

﴿ وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ لَهُمُ الْبُشْرَى فَبَشِّرْ عِبَادِ﴾ (الزمر:١٧) ، وقد تقدم الكلام في سورة البقرة حول معنى تقديم الكفر بالطاغوت في الآية٢٥٦ وفي تقديم المسند من قوله: { لهم البشرى } لإفادة القصر على من هذا وصفهم فغيرهم ليس داخلاً معهم ، وهذا يفيد أنه لا بشارة لأحد إلا إذا اجتنب عبادة غير الله تعالى وأقبل على الله تعالى ، وفي تقديم المسند من قوله: {لهم البشرى} إفادة القصر وهو مثل القصر في الآية التالية في قوله :﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُوا الأَلْبَابِ ﴾ (الزمر:١٨)، ﴿ أَفَأَنْتَ تُنقِذُ مَن فِي النَّارِ ﴾ (الزمر:١٩).

تقدم الضمير { أفأنت } على الخبر الفعلي { تنقذ} لتقوية الحكم وهو إنكار بأن يكون في مقدور النبي ﷺ هدايتـــهم وإنقاذهم من النار إذا لم يكن في تقدير الله ذلك ، ونظير هذا التقديم قوله تعالى : ﴿ اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَاباً مُّتَشَابِـــهاً ﴾ (الزمر:٢٣) ، والتقديم هنا للتقوي والاختصاص ، ومنه أيضاً تقديم المسند إليه على الخبر الفعلي في قوله: { أنت تحكم } من الآية السادسة والأربعين {قلِ اللهمَّ فاطرَ السَّموات والأرضِ عالمَ الغيبِ والشَّهادةِ أنتَ تحكمُ بين عبادكَ في ما كانوا يختلفونَ}.

﴿ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ قُرْآناً عَرَبِياً غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾ (الزمر:٢٧،٢٨) .

قال الخازن: " فإن قلت ما الحكمة في تقديم التذكر في الآية الأولى على التقوى في هذه الآية . قلت: سبب تقديم التذكر أن الإنسان إذا تذكر وعرف ووقف على فحوى الشيء واختلط بمعناه اتقاه واحترز منه.[1] فالتقديم هنا كما يراه الخازن لسبق الوجود .

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى وَأَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ (لقمان:٢٩)، تقدم ذكر الليل على ذكر النهار لأن الليل موطن الظلمة التي هي متقدمة على النور وجوداً وقد سبقت الإشارة إلى ذلك في سورة الأنعام ، وقدم الشمس على القمر في قوله: { **وسخر الشمس والقمر** } مع تقديم الليل الذي فيه سلطان القمر على النهار الذي فيه سلطان الشمس ، وذلك التقديم قد أشرنا إليه من قبل ومن جملة أسبابه أن نور القمر مستمد من نور الشمس فهي كالمبدأ له.

﴿ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ . وَمَن يَهْدِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن مُّضِلٍّ أَلَيْسَ اللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِي انتِقَامٍ ﴾ (الزمر:٣٦،٣٧).

تقدم الجار والمجرور { **له** } في الآيتين للاهتمام بالضمير نفياً للهدى عنـــهم إذا لم يرده الله وإثبات الهدى للمهتدين ولو عارضه كل ما سوى الله.

﴿ اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَى عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَى إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ (الزمر:٤٢).

تقدم لفظ الجلالة { **الله** } وهو المسند إليه على المسند { **يتوف** } وذلك التقديم له عدة اعتبارات إما أن يكون للحصر والاختصاص حيث إنه سبحانه هو الذي يتوفى حقيقة لا غيره ، وأن إسناد الوفاة إلى الملائكة في قوله تعالى:

﴿حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لاَ يُفَرِّطُونَ﴾ (الأنعام:٦١) ليس إسناداً حقيقياً بل لكونـــهم يباشرون أسباب الوفاة ، كما أن اسمه سبحانه تقدم للاهتمام به فهو أولى بالتقديم لما له من كل صفات الكمال ونعوت الجلال ، وفي الآية تقديم النفس المتوفاة على المرسلة ، وذلك اتباعاً

---

(١) الخازن جـ٥ ص٣٠٩.

للأصل لأن الآية سيقت للحديث عن الموت ، وكذلك بدأت الآية بذكر النفس المتوفاة مقدَّمة على المرسلة ولذا جاء الترتيب الثاني تابعاً للترتيب الأول.

﴿ **بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ** ﴾ (الزمر:٦٦)تقدم المفعول به { **الله**} على فاعله { **اعبد** } وقد أفاد هذا التقديم الاختصاص ، رداً على ما طلبوه منه في الآية السابقة { **قل أفغير الله تأمروني أعبد أيها الجاهلون**}

سورة غافر

مقصود هذه السورة هو الاستدلال على آخر التي قبلها من تصنيف الناس في الآخرة إلى فريقين أصحاب النار وأصحاب الجنة وتوفية كل صنف ما يستحقه من العذاب والرحمة على سبيل العدل الإلهي بأن فاعل ذلك له العزة الكاملة والعلم الشامل،وقد بين ما يغضبه وما يرضيه غاية البيان على وجه الحكمة وذكر صفتي العزة والعلم والمغفرة والرحمة وشدة العقاب والقوة المطلقة لتناسب ذكر حال الفريقين السابقين في سورة الزمر .

﴿ غَافِرِ الذَّنبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطَّوْلِ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ إِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴾ (غافر:٣) ، الكلام هنا على تقدم **{غافر الذنب}** على **{قابل التوب}** وتقدمهما على **{ شديد العقاب}** وذلك لمناسبة ما قبله من إسناد نزول الكتاب إلى الله تعالى وما أنزله إلا رحمة للناس فذكر صفة المغفرة وقبول التوبة متقدمة على صفة شديد العقاب لأن نزول الكتاب إنما هو للرحمة ، وكذلك تقدمت صفة **{غافر الذنب}** على صفة **{قابل التوب}** ليس من باب تقدم التخلية على التحلية فحسب كما ذكر الألوسي.[1]

أقول: بل هناك معنى آخر وهو أن المغفرة رحمة عامة وقبول التوبة رحمة خاصة فقدمت الرحمة العامة على الرحمة الخاصة ، فغفران الذنوب عدا الشرك- كما هو معلوم - يرجع إلى مشيئة الله الذي قد يغفر الذنوب تكرماً ولو لم يكن هناك توبة ، بينما قبول التوبة إنما يتعلق بالتائبين فحسب ، وهذا لا ينافي ما ذكره الألوسي من باب تقدم التخلية على التحلية .

﴿ الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْماً فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ ﴾ (غافر:٧).

---

(١) روح المعاني : ج٢٤ ص٤٢.

قال الرازي: "وفي الآية دقيقة أخرى ، وهي أن الملائكة قدموا ذكر الرحمة على ذكر العلم فقالوا: {**ربنا وسعت كل شيء رحمة وعلما**} وذلك لأن مطلوبـــهم إيصال الرحمة وأن يتجاوز عما علمه منـــهم ، والمطلوب بالذات مقدم على المطلوب بالعرض ، ألا ترى أنه لما كان إبقاء الصحة مطلوباً بالذات وإزالة المرض مطلوباً بالعرض لا جرم لما ذكروا حد الطب قدموا فيه حفظ الصحة على إزالة المرض فقالوا الطب علم يتعرف منه أحوال بدن الإنسان من جهة ما يصلح ويزول عن الصحة لتحفظ الصحة حاصلة وتسترد زائلة فكذا هاهنا المطلوب الذات هو الرحمة ، وأما التجاوز عما علمه منـــهم من أنواع العذاب فهو مطلوب بالعرض ، لأجل أن حصول الرحمة على سبيل الكمال لا يحصل إلا بالتجاوز عن الذنوب فلهذا السبب وقع ذكر الرحمة سابقاً على ذكر العلم".[1]

وللخازن وقفة مع تقديم وتأخير آخر لم يلتفت إليه أبو حيان قال: " فإن قلت قدم قوله يسبحون بحمد ربـــهم على قوله: {**ويؤمنون به**} ولا يكون التسبيح إلا بعد الإيمان فما فائدة قوله:{ **ويؤمنون به**} .

قال البيضاوي: "وتقديم الرحمة لأنها المقصودة بالذات ".[2]

قلت: فائدته التنبيه على شرف الإيمان وفضله والترغيب فيه . ولما كان الله عز وجل محتجباً عنـــهم بحجب جلاله وجماله وكماله وصفهم بالإيمان به.

﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنَادَوْنَ لَمَقْتُ اللَّهِ أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى الإِيمَانِ فَتَكْفُرُونَ ﴾ (غافر: ١٠).

قال الرازي : "المسألة الأولى في الآية حذف وفيها أيضاً تقديم وتأخير، أما الحذف فتقديره لمقت الله إياكم ، وأما التقديم والتأخير فهو أن التقدير أن يقال لمقت الله لكم حال ما تدعون إلى الإيمان فتكفرون أكبر من مقتكم أنفسكم ".[3]

أقول: ولا يلزم وجود التقديم والتأخير كما ذكر الرازي إذا كان المعنى المقصود بقوله تعالى:{ **إذ تدعون إلى الإيمان فتكفرون** } بيان سبب المقت الذي استحقوه حينئذ لا يكون في الآية تقديم ولا تأخير.

---

(١) مفاتيح الغيب ج٢٧ ص٣٧. (٢) البيضاوي ج٥ ص٨٥. (٣) مفاتيح الغيب ج٢٧ص٣٩.

﴿ **هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ آيَاتِهِ وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ السَّمَاءِ رِزْقاً** ﴾(غافر:١٣) .

تقديم الجار والمجرور{ **لَكم** } على مفعول ينـــزل وهو { **رزقاً** } لبيان كمال الامتنان وبيان الرعاية والإحسان ، فلو أن المجرور أخر فكان :ينـــزل رزقاً لكم من السماء ، لصار صفة لرزقاً فلا يفيد أن التنـــزيل لأجل المخاطبين بل يفيد أن الرزق صالح للمخاطبين ، ونظير هذه الآية قوله تعالى: ﴿ **اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَنْعَامَ لِتَرْكَبُوا مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ** ﴾ (غافر:٧٩).

﴿ **وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلاً أَن يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءكُم بِالْبَيِّنَاتِ مِن رَّبِّكُمْ وَإِن يَكُ كَاذِباً فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِن يَكُ صَادِقاً يُصِبْكُم بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ** ﴾ (غافر:٢٨).

تقدم قوله: { **من ءال فرعون**} على قوله: { **يكتم** } ليبين أن ذلك الرجل من ءال فرعون ، ولو أخر لم يفهم ذلك ، ولذا فالتقديم هنا لعدم الإخلال ببيان المعنى .

وفي تقديم { **كاذباً** } على { **صادقاً** } اتباعاً لأسلوب المداراة، حيث بدأ بما هو أقرب لتسليمهم وأدخل في تصديقهم ليسمعوا منه ولا يردوا عليه صحته وليريهم أنه ليس بكلام من أعطاه حقه وأثنى عليه ، فضلاً عن أن يكون متعصباً له .

وذكر القاسمي عن الناصر قوله: "ويناسب تقديم الكاذب على الصادق هنا قوله تعالى: ﴿ **وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا إِن كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الكَاذِبِينَ ۝ وَإِن كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ** ﴾ (يوسف:٢٧:٢٨).

فقدم الشاهد أمارة صدقها على أمارة صدق يوسف ، وإن كان الصادق هو يوسف دونها لرفع التـــهمة وإبعاد الظن ، وإدلالاً بأن الحق معه ولا يضره التأخير لهذه الفائدة، وقريب من هذا التصرف لإبعاد التـــهمة ما في قصة يوسف مع أخيه إذ بدأ بأوعيتـــهم قبل وعاء أخيه ".(١)

﴿**وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْماً لِّلْعِبَادِ**﴾ (غافر:٣١).

---

(١) تفسير القاسمي ج٨ ص٣٠٧.

تقدم اسم { الله } على الخبر الفعلي لإفادة قصر مدلول المسند على المسند إليه ، وحينئذ يكون المعنى أن الله لا يريد ظلماً لعباده بل غيره يرد الظلم لهم .

﴿ وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ • يَا قَوْمِ إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ • مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا وَمَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ (غافر:٣٨-٤٠) .

وفي ترتيب هذه الموعظة قال صاحب التحرير: "فابتدأ موعظته بندائهم ليلفت إليه أذهانهم ويستصغي أسماعهم ، وبعنوان أنهم قومه لتصغى إليه أفئدتهم ، ورتب خطبته على أسلوب تقديم الإجمال ثم تعقيبه بالتفصيل ، فبدأ بقوله: { **اتبعون أهدكم سبيل الرشاد**} وسبيل الرشاد مجمل وهو على إجماله مما تتوق إليه النفوس ، فربط حصوله باتباعهم إياه مما يقبل بهم على تلقي ما يفسر هذا السبيل ، ويسترعي أسماعهم إلى ما يقوله إذ لعله سيأتيهم بما ترغبه أنفسهم إذ قد يظنون أنه نقح رأيه ونخل مقاله وأنه سيأتي بما هو الحق الملائم لهم . وتقدم ذكر سبيل الرشاد آنفاً."[1]

﴿ وَإِذْ يَتَحَاجُّونَ فِي النَّارِ فَيَقُولُ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعاً فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيباً مِّنَ النَّارِ ﴾ (غافر:٤٧)

تقدم قولهم: { إنّا كنا لكم تبعاً} على طلب التخفيف عنهم من عذاب النار مع أنه هو الأهم لديهم لأنه مقدمة بين يدي طلبهم ليكون تعليلاً للطلب وشفيعاً لهم بتذكيرهم ما كان بين بعضهم البعض من ولاء في الدنيا .

﴿ وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَلَا الْمُسِيءُ قَلِيلاً مَّا تَتَذَكَّرُونَ ﴾ (غافر:٥٨) ، بدأ بذكر الأعمى لمناسبة ما قبله كما يرى أبو حيان قال: "وقدم {**والذين ءامنوا**} المجاورة قوله: { **والبصير**} وهما طريقان، أحدهما: أن يجاور المناسب هكذا والآخر أن يتقدم ما يقابل الأول ويؤخر ما يقابل الآخر ، كقوله: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ •

---

(١) التحرير والتنوير ج٢٤ ص١٤٨،١٤٩.

﴿ وَلاَ الظُّلُمَاتُ وَلاَ النُّورُ . وَلاَ الظِّلُّ وَلاَ الْحَرُورُ ﴾ (فاطر:١٩-٢١). وقد يتأخر المتماثلان، كقوله تعالى: ﴿ مَثَلُ الفَرِيقَيْنِ كَالأَعْمَى وَالأَصَمِّ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ ﴾ (هود:٢٤)، وكل ذلك تفنن في البلاغة وأساليب الكلام ،ولما كان تقدم { ولكن أكثر الناس لا يعلمون} فكان ذلك صفة ذم ناسب أن يبدأ في ذكر التساوي بصفة الذم فبدأ بالأعمى. [1] بينما يقول صاحب التحرير: "وإنما قدم ذكر العمى على ذكر البصير مع أن البصر أشرف من العمى بالنسبة لذات واحدة ، والمشبَّه بالبصير أشرف من المشبَّه بالأعمى إذ المشبه بالبصير المؤمنون ، فقدم ذكر تشبيه الكافرين مراعاة لكون الأهم في المقام بيان حال الذين يجادلون في الآيات إذ هم المقصود بالموعظة ، وأما قوله: { والذين ءامنوا وعملوا الصالحات ولا المسيء } فإنما رتب فيه ذكر الفريقين على عكس ترتيبه في التشبيه بالأعمى والبصير اهتماماً بشرف المؤمنين".[2] وما ذكره صاحب التحرير هو المفهوم من سياق الكلام.

﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا شُيُوخاً وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّى مِن قَبْلُ وَلِتَبْلُغُوا أَجَلاً مُّسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ (غافر:٦٧).

وهذه الآية نظير الآية الخامسة في سورة الحج وقد سبقت الإشارة إليها في السورة.

﴿ فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴾ (غافر:٧٧).

تقدم الجار والمجرور { فإلينا } على متعلقه { يرجعون} لاختصاص الرجوع إلى الله تعالى وحده وما يتضمنه أيضاً من معنى الاهتمام وكذلك للرعاية على الفاصلة.

---

(١) البحر المحيط ج٧ ص٤٥٢.　　(٢) التحرير والتنوير ج٢٤ص١٨٧.

سورة فصلت

لما ختمت غافر بأن الكفرة جادلوا في آيات الله بالباطل وفرحوا بما عندهم من علم ظاهر الحياة الدنيا وأنهم عند نزول عذاب الله بهم آمنوا حيث لا يقبل الإيمان ، وتبين أن العلم الذي لا ينفع صاحبه عند الشدة لا فائدة فيه وخاف النبى ﷺ أن يكون آخر أمر أمته الهلاك وأن يكون أغلب أحواله في دعوته النذارة افتتح سبحانه هذه السورة بأن هذا القرآن رحمة لمن كان له علم وله عمل ينتفع بذلك العلم،وكرر الرحمة في صفة العموم والخصوص فقال :﴿ **تَنزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ** ﴾ (فصلت:٢)، ثم كرر صفة البشارة قبل النذارة ﴿ **بَشِيراً وَنَذِيراً فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لا يَسْمَعُونَ** ﴾ (فصلت:٤).

﴿ **قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ** ﴾ (فصلت:٦).

قال الرازي: " فإن قيل المقصود من الاستغفار والتوبة إزالة ما لا ينبغي وذلك مقدم على فعل ما ينبغي فلم عكس هذا الترتيب هاهنا وقدم ما ينبغي على إزالة ما لا ينبغي ؟ قلنا ليس المراد من هذا الاستغفار عن الكفر ، بل المراد منه أن يعمل ثم يستغفر بعده لأجل الخوف من وقوع التقصير في العمل الذي أتى به كما قال ﷺ{ **وإنه ليغان إلى قلبي وإني لأستغفر الله في اليوم والليلة سبعين مرة** }.[1]

﴿ **قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَاداً ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ٭وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ٭ ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ٭ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَاوَلِلأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ** ﴾ (فصلت:٩-١١).

سبق الحديث عن هذه الآيات في الآية الواحدة والعشرين من سورة البقرة وهنا إضافة لأبي حيان يقول فيها: "والظاهر من هذه الآية أنه خلق

---

(١) مفاتيح الغيب ج٢٧ : ١٠٠.

الأرض وجعـــل فـــيها الرواســـي وبارك فيها ، ثم أوجد السماء من الدخان فـــسواها سبع سموات فيكون خلق الأرض متقدماً على خلق السماء، ودحو الأرض غير خلقها وقد تأخر عن خلق السماء ، ثم يذكر أبوحيان قول الرازي بأن الخلق هنا بمعنى للتقدير من غير شريطة وجود الشيء حالاً من غير أن يرد علـــيه مكتفـــياً بذكر سبب التقديم كما يرى هو فيقول : والذي نقوله : إن الكفار وبخوا وقرعوا بقولهم بمن صدرت عنه هذه الأشياء كلها من غير ترتيب زمـــاني وإن { ثم } لتـــرتيب الأخبار لا ترتيب الزمان والمهلة ، كأنه قال : فالـــذي أخبركم أنه خلق الأرض وجعل فيها رواسي من فوقها، وبارك فيها ،وقدر فيها أقواتـــها ، ثم أخبركم أنه استوى إلى السماء فلا تعرض في الآية لتـــرتيب أي ذلـــك وقع الترتيب الزماني له ، ولما كان خلق السماء أبدع في القـــدرة من خلق الأرض ألف الإخبار فيه بـــ { ثم } فصار كقوله:﴿ **ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا**﴾ (البلد:١٧) بعد قوله فلا اقتحم العقبة ومن ترتيب الأخبار.

﴿ **ثُـمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ** ﴾ (الأنعام:١٥٤) بعد قوله:﴿ **قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ** ﴾ (الأنعـــام:١٥١) ...ويدل على أنه المقصود الإخبار بوقوع هذه الأشياء من غير تـــرتيب زماني قوله تعالى في سورة الرعد : ﴿ **اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا** ﴾ (الرعد:٢) ثم الآية ثم قال بعد { **وهو الذي مد الأرض وجعل فـــيها رواسي وأنـــهاراً** } وظاهر الآية التي نحن فيها جعل الرواسي وتقدير الأقـــوات قبل الاستواء إلى السماء وخلقها ولكن المقصود في الآيتين الإخبار بصدور ذلك منه تعالى من غير تعرض لترتيب زماني .(١)

﴿ **ذَلِكَ جَزَاءُ أَعْدَاءِ اللَّهِ النَّارُ لَهُمْ فِيهَا دَارُ الْخُلْدِ جَزَاءً بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ** ﴾ (فصلت:٢٨) .

تقدم قوله : { **بآياتنا** } على متعلقه { **يجحدون** } وذلك للحصر الإضافي، أي بسبب ما كانوا يجحدون بآياتنا الحقة دون الأمور التي ينبغي جحودها، ولا يخفى ما فيه من حسن الفاصلة أيضاً .

---

(١)البحر المحيط ج٧ ص٤٦٦،٤٦٧.

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا لاَ يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا أَفَمَن يُلْقَى فِي النَّارِ خَيْرٌ أَم مَّن يَأْتِي آمِناً يَوْمَ الْقِيَامَةِ اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ (فصلت:٤٠) .

تقدم قوله: { **أفمن يلقى في النار** } على قوله: { **أمن يأتي ءامناً** } من أجل مناسبة ما قبله وهو قوله تعالى {**إن الذين يلحدون**} فجاء التقديم بحال أهل النار للتخويف والتهديد .

﴿ **إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ السَّاعَةِ** ﴾ (فصلت:٤٧)

تقديم الجار والمجرور { **إليه** } على متعلقه { **يرد** } لإفادة الحصر أي أن علم الساعة عنده وحده لا عند غيره .

سورة الشورى

تتناسب سورة الشورى مع سابقتها في وصف الكتاب العزيز وتأكيد نـزول الوحـي على قلب النبي ﷺ وإثبات الساعة ، مناقشة أدلة الكفار ، تـهديدهم ووعيدهم ، إثبات وجود الله ووحدانيته وحكمته وقدرته وتأييد ذلك بالأدلة والشواهد ، ترغيب المؤمنين في الاستقامة المؤدية إلى الجنة ونعيمها وتحذيـر الكافرين من الانحراف والإعراض عن هداية الله ، وتسلية النبي ﷺ عما لقاه.

﴿كَذَلِكَ يُوحِي إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ من قَبْلِكَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾(الشورى:٣).

تقدم المجرور { **كذلك** } على { **يوحي إليك** } للتشويق وتنبيه الأذهان إلـيه ، وكـذلك تأخر لفظ الجلالة { الله } عن المجرورات التي قبله لنفس الغرض .

﴿ لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ ﴾ (الشورى:١٢).

تقـديم الجار والمجرور { **له** } لإفادة الاختصاص أي أن ملك السموات والأرض لله وحد لا شريك معه .

﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحاً وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِـهِ إِبْـرَاهِيمَ وَمُوسَـى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلاَ تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴾ (الشورى:١٣).

عقب ذكر دين نوح جاء ذكر محمد -عليهما السلام- للإشارة إلى أن ديـن الإسـلام هو الخاتم للأديان ، فعطف على أول الأديان جمعاً بين طرفي الأديان ، ثم ذكر بعدهما الأديان الثلاثة لأنـها متوسطة بين الدينين المذكورين قبلها .

تقـدم المـسند إلـيه وهو لفظ الجلالة { **الله** } لإفادة القصر رداً على المـشركين الـذين أنكروا رسالة بشر من عند الله وتقديم المجرورين لشرف وفضل المجتبى إليه والمهدي إليه سبحانه.

﴿ فلذَلكَ فَادْعُ واستَقمْ كَمَا أُمرتَ ولاَ تَتَّبعْ أَهْوَاءَهُمْ وَقُلْ آمنتُ بما أَنزلَ اللَّهُ من كتَاب وَأُمرْتُ لأَعْدلَ بَيْنَكُمُ اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ لاَ حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْه المَصيرُ ﴾ (الشورى:١٥).

تقــدم الجــار والمجــرور { **فلذلك** } على متعلقه { **فادع** } للاهتمام بما احتوى عليه اسم الإشارة إذ هو مجموع أسباب للأمر بالدوام على الدعوة، وقــد تقــدم أيضاً المسند إليه لفظ الجلالة { **الله** } على الخبر الفعلي { **يجمع بينــنا**} لتحقيق الخبر وتأكيد وقوعه ، كما تقدم الجار والمجرور { **إليه**} وهو الخبر على المسند إليه { **المصير** } لإفادة الحصر مع مراعاة الفاصلة، ومنه قوله تعالى :**﴿ أَلاَ إِلَى اللَّه تَصيرُ الأُمُورُ﴾** (الشور:٥٣).

﴿ يَــسْتَعْجلُ بَــهَا الَّذينَ لاَ يُؤْمنُونَ بــهَا وَالَّذينَ آمَنُوا مُشْفقُونَ منْهَا وَيَعْلَمُــونَ أَنَّهَــا الحَقُّ أَلاَ إِنَّ الَّذينَ يُمَارُونَ في السَّاعَة لَفي ضَلاَلٍ بعيد ﴾ (الشورى:١٨).

قال الأستاذ عبد الكريم الخطيب: " وفي النظم القرآني ما يبدو في ظاهره أنــه جــاء علــى غير الترتيب الذي يقع في نفس المؤمن من مشاهد القيامة، فالظاهر أن يؤمن المؤمن أولاً بأن الساعة حق ثم تكون خشيته ويكون إشفاقه مــن لقائها ولكن النظم القرآني قدم الخشية للقيامة والإشفاق منها على العلم بــها وبأنــها حق هذا ما يبدو في ظاهر الأمر..

والذي ينظر في النظم القرآني يرى أن الإشفاق قد تقدمه الإيمان ، فالذين يــشفقون من الساعة هم الذين آمنوا بالله واليوم الآخر كما يقول سبحانه: { **والذين آمنوا مشفقون منها**} إذ لا يكون المؤمن مؤمناً إلا إذا كان مؤمناً بالــيوم الآخــر ، أما أعلم فهو مادة من المعرفة التي يؤيدها الدليل ويدعمها البرهان حيث يجئ إلى الإيمان الغيبي فيؤكده ويثبت دعائمه في القلب" .[(١)]

﴿ مَــن كَانَ يُريدُ حَرْثَ الآخرَة نَزدْ لَهُ في حَرْثه وَمَن كَانَ يُريدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْته منْهَا وَمَا لَهُ في الآخرَة من نَّصيب ﴾ (الشورى: ٢٠).

تقــدَم ذكــر من أراد حرثَ الآخرة على من أراد حرث الدنيا وهذا التقديم لفضل الطالب والمطلوب .

---

(١) التفسير القرآني ج٢٥ ص٣٨،٣٩.

﴿ للَّــه مُلْــكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَن يَشَاءُ إِنَاثاً وَيَهَبُ لِمَن يَشَاءُ الذُّكُورَ ﴾ (الشورى:٤٩)

هذه الآية تؤيد صحة ما ذهبنا إليه من قبل في معرض الرد على من قال بأن الذكر أفضل من الأنثى في الآيتين الحادية عشرة والثانية عشرة من سورة النساء .قال أبوحيان:" وقدم تعالى هبة البنات تأنيثاً لهن ، وتشريفاً لهن ليُهتم بصونـــهن والإحسان إليهن ".(١)

---

(١) البحر المحيط ج٧ ص٥٠٢

سورة الزخرف

تشابه المطلع والخاتمة لسورتي الشورى والزخرف في وصف القرآن وبيان مصدره والتشابه في إيراد الأدلة القاطعة ومقارنة عذاب الكفار بنعيم الأبرار وتشابه أيضا خاتمة الشورى التي تحدثت عن الوحي الذي أنزل على النبي ﷺ وأنه نور يهدي إليه من يشاء من عباده ابتدأت هذه السورة بالحديث عن هذا الوحي بالإقسام به وبيان كونه عربي اللسان وبيان علو منزلته في اللوح المحفوظ .

﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ مَهْداً وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلاً لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ (الزخرف:١٠).

تقدم الجار والمجرور لـ "لكم" في الموضعين لبيان الاهتمام بهما وإظهار الفضل عليهما.

﴿وَالَّذِي خَلَقَ الأَزْوَاجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْفُلْكِ وَالأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ﴾ (الزخرف:١٢) .

قال صاحب التحرير: "وقدم الفلك على الأنعام لأنها لم يشملها لفظ الأزواج فذكرها ذكر نعمة أخرى ولو ذكر الأنعام لكان ذكره عقب الأزواج بمنزلة الإعادة ، فلما ذكر الفلك بعنوان كونها مركوباً عطف عليها الأنعام فصار ذكر الأنعام مترقباً للنفس لمناسبة جديدة .

وهذا كقول امرئ القيس :

كأنيَ لم أركبْ جواداً للذة ولم أتبطَّنْ كاعباً ذاتَ خَلخال
ولم أسْبأ الرَّاحَ الكُميتَ ولم أقُلْ لخيلي كُرِّي كرَّةً بعد إجفال[١]

إذ أعقب ذكر ركوب الجواد بذكر تبطن الكاعب للمناسبة و لم يعقبه بقوله:و لم أقل لخيلي كري كرة ، لاختلاف حال الركوبين ركوب اللذة وركوب الحرب} .[٢] وقد تقدم أيضاً هنا الجار والمجرور{ **لكم** } على المفعول به { **ما تركبون** } لبيان الاهتمام بهم وإظهار الفضل عليهم .

---

(١) ديوان امرئ القيس رقم {٥٣}ص١٢٧.
(٢) التحرير والتنوير ج٢٥ ص١٧٣.

﴿ **وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءاً** ﴾ (الزخرف:١٥).

أصل الترتيب { **وجعلوا جزءاً من عباده له** } فتقدم الجاران والمجروران { **له من عباده** } على المفعول الصريح { **جزءاً** } فتقديم { **له** } العائد على الله سبحانه وتعالى لبيان شدة الإنكار والتعجب أن يكون الله عز وجل ممن يُجعَل له ذلك وتقديم { **من عباده** } لكونه أقبح في الاتخاذ وأوغل في الضلال وأبعد عن العقل والصواب.

﴿ **أَمِ اتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَاكُم بِالْبَنِينَ** ﴾ (الزخرف:١٦).

وقد عكس هذا الترتيب في سورة الإسراء في قوله تعالى: ﴿ **أَفَأَصْفَاكُمْ رَبُّكُم بِالْبَنِينَ وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلائِكَةِ إِنَاثاً** ﴾ (الإسراء:٤٠).

فتقديم الإناث في سورة الزخرف لأن ذكرهن أهم ، إذ إن الآية سيقت في الاحتجاج على هؤلاء المشركين الذين وصفوا الملائكة بالأنوثة وقد كانوا يكرهون الإناث لبين باطلهم وقبح رأيهم بعيداً عن كون ما اعتقدوه حقاً أم باطلاً ولكنه طريقة القرآن لإبطال قولهم .وأما التقديم في سورة الزخرف فللرد على أهل الجاهلية الذين كانوا يحتقرون البنات ، فأبان القرآن أن الذكور والبنات كلهم خلق الله متساوون وليس هناك اصطفاء للذكور فقول الذكور في هذا الاستفهام الإنكاري لنفي ما ادعوه من الاصطفاء .

﴿ **فَلِلَّهِ الْحَمْدُ رَبِّ السَّمَوَاتِوَرَبِّ الأَرْضِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ٠وَلَهُ الْكِبْرِيَاءُ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ** ﴾ (الجاثية:٣٦،٣٧) .

تقدم الجار والمجرور {**فلله**} لإفادة الاختصاص بأن الحمد لله وحده دون من سواه وكذلك في قوله: { **وله الكبرياء**}.

﴿**أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ أَوْ تَهْدِي الْعُمْيَ وَمَن كَانَ فِي ضَلالٍ مُّبِينٍ**﴾(الزخرف:٤٠).

هذه هي الصورة الثانية من صور الاستفهام الدال على الإنكار وهنا قد انحصر فاعل الفعل حيث أتي به بعد الهمزة حيث يلزم من إنكار الفاعل إنكار الفعل ، ليس إسماع الصم مما يدعيه أحد فيكون ذلك الإنكار وإنما المعنى فيه التمثيل والتشبيه وأن ينزل الذين يظن بهم أنهم يسمعون أو أنه يستطيع إسماعهم منزلة من يرى أنه يُسمع الصم ويهدي العمي والمعنى في تقديم الاسم وأنه لم يقل : { **أتسمع الصم؟** } هو أن يقال للنبي ﷺ أأنت خصوصا

أوتـــيت أن تُسمع الصم وأن يجعل في ظنه أنه يستطيع إسماعهم بمثابة من يظن أنه قد أوتي قدرة على إسماع الصم .

قال الرازي: "اعلم أن تعالى لما وصفهم في الآية المتقدمة بالعشي -يقصد قوله تعالى: ﴿ **وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَاناً فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ** ﴾ (الزخرف:٣٦) وصفهم في هذه الآية بالصمم والعمى وما أحسن هذا الترتيب ، وذلك لأن الإنسان في أول اشتغاله بطلب الدنيا يكون كمن حصل بعينه رمد ضعيف ، ثم كلما كان اشتغاله بتلك الأعمال أكثر كان ميله إلى الجسمانيات أشد وإعراضه عن الروحانيات أكمل لما ثبت في علوم العقل أن كثرة الأفعال توجب حصول الملكات الراسخة فينتقل الإنسان من الرمد إلى أن يصير أعشى فـــإذا واظـــب على تلك الحالة أياماً أخرى انتقل من كونه أعشى إلى كونه أعمى، فهذا ترتيب حسن موافق لما ثبت بالبراهين اليقينية "[(١)]

﴿ **وَتَـــبَارَكَ الَّـــذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَـــهما وَعِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ** ﴾ (الزخرف:٨٥).

تقـــدم الجـــار والمجرور { **له** } لإفادة الاختصاص بأن ملك السموات والأرض له لا لغيره وكذلك الظرف {**عنده**} على قوله: { **علم الساعة** } لإفادة اختصاصه بعلم الساعة دون غيره وكذلك الجار والمجرور {**وإليه**} على متعلقه { **ترجعون** } لإفادة الحصر والاختصاص بالرجوع إليه دون من سواه.

---

(١) مفاتيح الغيب ج٢٧ ص٢١٥،٢١٦

تتشابه سورة الدخان مع سابقتها من وجوه ثلاثة افتتاح كلتا السورتين بالقسم بالقرآن مع تشابه خاتمة السورة المتقدمة بمطلع هذه السورة حيث ختمت الزخرف بسوطها التهديد ﴿ فاصفح عنهم وقل سلام فسوف يعلمون ﴾ (الزخرف:٨٩) وبدأت سورة الدخان في الآية العاشرة والحادية عشرة بتحديد صفة ذلك اليوم الذي هددوا به في قوله :

{ فارتقب يوم تأتي السماء بدخان مبين • يغشى الناس هذا عذاب أليم }

وقد تحدثت سورة الزخرف عن نبي الله موسى وكذلك سورة الدخان فالتشابه واضح بين السورتين.

وقد نقل الإمام البقاعي عن الإمام جعفر بن الزبير قوله: "لما تضمنت سورة حم السجدة وسورة الشورى من ذكر الكتاب العزيز ما قد أشير إليه مما لم تنطو سورة غافر على شيء منه وحصل من مجموع ذلك الإعلام بتنزيله من عند الله وتفصيله وكونه قرآناً عربيا إلى ما ذكر تعالى من خصائصه إلى قوله: ﴿ وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ ﴾ (الزخرف:٤٤) وتعلق الكلام بعد هذا بعضه ببعض إلى آخر السورة افتتح تعالى سورة الدخان بما يكمل ذلك الغرض ، وهو التعريف بوقت إنزاله إلى سماء الدنيا فقال تعالى: { إنَّا أنزلناه في ليلة مباركة } ثم ذكر من فضلها فقال:

{ فيها يفرق كل أمر حكيم } فحصل وصف الكتاب بخصائصه والتعريف بوقت إنزاله إلى سماء الدنيا وتقدم الأهم من ذلك في السورتين ، وتأخر التعريف بوقت إنزاله إلى سماء الدنيا إذ ليس في التأكيد كالمتقدم ، ثم وقع إثر هذا تفصيل وعيد قد أجمل في قوله تعالى : { فاصفح عنهم وقل سلام فسوف يعلمون } وما تقدمه من قوله:{أم أبرموا أمرا فإنَّا مبرمون} وقوله سبحانه: { أم يحسبون أنَّا لا نسمع سرهم ونجواهم } وتنزيهه سبحانه وتعالى [illegible] افترائهم في جعلهم له الشريك والولد – إلى

آخـــر السورة ففصل بعض ما أجملته هذه الآي في قوله تعالى في صدر سورة الدخان: { **فارتقب يوم تأتي السماء بدخان مبين**}[1]

﴿ **وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَاءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ . أَنْ أَدُّوا إِلَيَّ عِبَادَ اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ . وَأَن لا تَعْلُوا عَلَى اللَّهِ إِنِّي آتِيكُم بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ . وَإِنِّـــي عُـــذْتُ بِرَبِّـــي وَرَبِّكُـــمْ أَن تَرْجُمُونِ . وَإِن لَّمْ تُؤْمِنُوا لِي فَاعْتَزِلُونِ** ﴾ (الدخان:١٧-٢١).

قـــال صـــاحب التحرير: " وقد جاء ترتيب فواصل هذا الخطاب على مـــراعاة مـــا يبدو من فرعون وقومه عند إلقاء موسى دعوته عليهم إذ ابتدأ بـــإبلاغ ما أرسل به إليهم فآنس منـــهم التعجب والتردد فقال: { **إني لكم رســـول أمين**} فرأى منـــهم الصلف والأنفة فقال:{ **وألا تعلوا على الله** } فلـــم يـــرعووا فقال: {**إني ءاتيكم بسلطان مبين** } فلاحت عليهم علامات إضمار السوء فقال: { **إني عذت بربي وربكم أن ترجمون . وإن لم تؤمنوا لي فاعتـــزلون**} فكان هذا الترتيب بين الجمل مغنياً عن ذكر ما أجابوا به على أبدع إيجاز "[2]

وقـــد تقـــدم الجـــار والمجرور { **لكم** } على متعلقه { **رسول** } لبيان الاهـــتمام والاعتـــناء بالمرسَل إليهم ، وكذلك الاختصاص إذ كان كل نبي يرسل إلى قومه خاصة ومنه حديث النبي ﷺ أعطيت خمساً".[3]

---

(١) نظم الدرر ج٧ ص٦٣.   (٢) التحرير والتنوير ج٢٥ ص٢٩٦-٢٩٨.   (٣) سبق تخريجه.

سورة الجاثية

لما تضمنت السورة المتقدمة إيضاح أمر الكتاب وعظيم بيانه ووصفه بالشفاء والكفاية والهدى والنور وهى الآيات المقروءة ، ذكر في هذه السورة الآيات الكونية المنظورة فقال في بدايتها : ﴿ **تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ۝ إِنَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۝ وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَابَّةٍ آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ۝ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن رِّزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ** ﴾ (الجاثية:٢-٥)، وقد تشابهت السورتان في الغايات الكبرى وهي إثبات وحدانية الله وبيان قدرته في خلق السموات والأرض ومناقشة المشركين وضرب الأمثال.

﴿ **إِنَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ. وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَابَّةٍ آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ. وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن رِّزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ** ﴾ (الجاثية:٣-٥).

﴿ **وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ** ﴾ (الجاثية:٧) التقدم هنا للسببية لأن الإفك سبب للإثم فلهذا قدم عليه .

في هذه الآيات عبارات ثلاث ، أولها{**يؤمنون**} وثانيها {**يوقنون**} وثالثها {**يعقلون**} والمقصود بها إن كنتم من المؤمنين فافهموا هذه الدلائل وإن كنتم لستم من المؤمنين بل أنتم من طلاب الحق واليقين فافهموا هذه الدلائل وإن كنتم لستم من المؤمنين ولا من الموقنين فلا أقل أن تكونوا من زمرة العاقلين، فاجتهدوا في معرفة هذه الدلائل وقد يكون هذا الترتيب ترتيبا وجودياً ، وهذا ما ذكره المراغي حيث قال: " إن أول المراتب الإيمان بالله ، فإذا ازداد المرء علماً وحكمة وبحثاً في دقائق الأشياء وعظائمها أصبح موقناً به وكلما ازداد بحثاً ازداد عقله دراية وفهماً لأسرار هذا الكون ، فسخره لمنافعه، واستفاد من نظمه التي وجد عليها وعرف أنه لم يخلق عبثاً بل خلق للانتفاع بما في ظاهره وباطنه علويه وسفليه أرضه وسمائه ، نوره وظلامه فكأنه يقول :

إنّا أمرناكم بالنظر في العالم لتؤمنوا فإذا ازددتم علماً أيقنتم بي وذلك كله مما يربي عقولكم ويكملها إلى أقصى حدود طاقاتها البشرية" .[1]

﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلاَّ الدَّهْرُ﴾ (الجاثية:٢٤).

في الكلام تقديم وتأخير ، وأصله نحيا ونموت ، وقدم الموت مع أنه متأخر في الوجود لإنكارهم البعث و قد أمن الالتباس في الفهم بتأخير { **الحياة** } وأنه قد يراد بها الحياة الآخرة بأسلوب الحصر المتقدم { **وقالوا ما هي إلا حياتنا الدنيا**} ، وهناك رأي آخر وجدت صاحب التحرير قد سبق إليه

يقول: " وإنما قدم { **نموت** } في الذكر على { **نحيا** } في البيان مع أن المبين قولهم: { **ما هي إلا حياتنا الدنيا** } فكان الظاهر أن يبدأ في البيان بذكر اللفظ المبين فيقال : نحيا ونموت ، فقيل قدم { **نموت** } لتتأتى الفاصلة بلفظ { **نحيا**} مع لفظ {**الدنيا** } وعندي – مازال الكلام له– أن تقديم فعل { **نموت**} على { **نحيا** } للاهتمام بالموت في هذا المقام لأنهم بصدد تقرير أن الموت لا حياة بعده ، ويتبع ذلك الاهتمام تأتي طباقين بين حياتنا الدنيا ، ونموت ، ثم بين نموت ونحيا ، وحصلت الفاصلة تبعاً ، وذلك أدخل في بلاغة الإعجاز ، ولذلك أعقبه بقوله تعالى: {**وما هم بذلك من علم** } فالإشارة {**بذلك**} إلى قولهم : {**وما يهلكنا إلا الدهر**} أي لا علم لهم بأن الدهر هو المميت إذ لا دليل" .[2] ولسنا مع العلامة الألوسي عندما قال في هذه الآية: " حكم على النوع بجملته من غير اعتبار تقديم وتأخير إلا أن تأخير نحيا في النظم الجليل للفاصلة " .[3]

أقول: إذا كانت حكاية قولهم ، فالقوم أيضاً إنما خالفوا الترتيب الوجودي ولا بد أن يكون لعلة وهي ما قد سبق بيانه ، وأما القول بالفاصلة فقد سبق الرد عليه أيضاً .

﴿ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ ﴾ (الجاثية:٢٧)

تقدم الجار والمجرور { **لله** } للتخصيص ، وكذلك التخصيص في { **فلله الحمد** } و{**له الكبرياء** } من قوله تعالى : **﴿ فَلِلَّهِ الْحَمْدُ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَرَبِّ الأَرْضِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۝ وَلَهُ الْكِبْرِيَاءُ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾** (الجاثية:٣٦،٣٧) .

---

(١) المراغي ج٢١ ص١٤٢ (٢) التحرير ج٢٥ ص٣٦٢. (٣) روح المعاني ج٢٥ ص١٥٣

سورة الأحقاف

تطابق المطلع في كلتا السورتين {**حم تنــزيل الكتاب من الله العزيز الحكــيم**} وقد تشابه موضوع السورتين وهو إثبات التوحيد والنبوة والبعث والمعــاد ، خـتمت الـسورة الـسابقة بتوبيخ آلهة المشركين على الشرك ومطالبــهم بالدليل عليه وبيان عظمة الإله الذي يجيب من دعاه ومطالبتــهم بالدلــيل ، بــدأت هذه السورة بذكر خلق السموات والأرض وبيان حال إعراض المشركين ومطالبتــهم أيضاً بالبرهان النقلي والعقلي لما أشركوا بالله .

﴿ قُلْ أَرَأَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَوَاتِ ائْتُونِي بِكِتَابٍ مِّن قَبْلِ هَذَا أَوْ أَثَارَةٍ مِّنْ عِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ (الأحقاف:٤).

لما كان الدليل أحد شيئين سمعي أو عقلي وكان هؤلاء القوم لا ينكرون وجود الله وإنما يشركون به ، فقد بدأ طلبه منــهم بالدليل السمعي – كتاب منـــزل ووحي صادق يأمرهم بشركهم ، ثم ثنى بعد ذلك بالدليل العقلي ، ولهــذا تقــدم قوله { **ائتوني بكتاب من قبل هذا** } على قوله {**أو أثارة من علم**}.

﴿ إِنَّ الَّــذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ (الأحقاف:١٣)

تقــديم المسند إليه على الخبر الفعلي هنا لتخصيص المسند إليه بالخبر أن الحزن منتف عنــهم لا عن غيرهم ، وقد مر بنا الحديث عن ذلك في الفصل الخامس { **أثر التقديم والتأخير في المعاني**} من الباب الأول .

﴿ قُــلْ أَرَأَيْــتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَكَفَرْتُم بِهِ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ بَنِي إِسْــرَائِيلَ عَلَــى مِــثْلِهِ فَآمَنَ وَاسْتَكْبَرْتُمْ إِنَّ اللَّهَ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ (الأحقاف:١٠)

في الآية تقديم وتأخير ، تقديره : قل أرأيتم إن كان من عند الله وشهد شــاهد من بني إسرائيل على ذلك فآمن هو وكفرتم ، إن الله لا يهدي القوم الظالمين.

﴿ **وَمِن قَبْلِه كِتَابُ مُوسَى إِمَاماً وَرَحْمَةً** ﴾ (الأحقاف:١٢).

تقـــدم الخـــبر { **مـــن قبله** } على المبتدأ { **كتاب موسى** } ليس من قبيل الاختصاص كما قال الألوسي: " وهذا بين حيث سبقه وسبق كتاب موسى كتب كثيرة ، وإنما جاء التقديم للعناية والاهتمام بذكره". (١)

﴿ **وَوَصَّـيْنَا الإِنـسَانَ بِوَالِدَيْه إِحْسَاناً حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهاً وَوَضَعَتْهُ كُرْهاً وَحَمْلُـهُ وَفِصَالُهُ ثَلاثُونَ شَهْراً حَتَّى إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِـي أَنْ أَشْـكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحاً تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ**﴾ (الأحقاف:١٥).

قال الرازي: "المسألة الخامسة :اعلم أنه تعالى حكى عن هذا الداعي أنه طلب من الله تعالى ثلاثة أشياء : أحدها أن يوفقه على شكر نعمه والثاني أن يوفقه للطاعة المرضية عند الله ، الثالث أن يصلح له في ذريته ، وفي ترتيب هذه الأشـياء الـثلاثة علـى الوجه المذكور وجهان : الأول : أنا بينا أن مراتب الـسعادة ثلاثـة أكملـها النفـسانية وأوسطها البدنية وأدونـها الخارجية والسعادات النفسانية هي اشتغال القلب بشكر آلاء الله ونعمائه ، والسعادات البدنية هي الاشتغال البدني بالطاعة والخدمة ، والسعادات الخارجية هي سعادة الأهل والولد فلما كانت المراتب محصورة في هذه الثلاثة لا جرم رتبـها الله تعالى على هذا الوجه.

والسبب الثاني : لرعاية هذا الترتيب أنه تعالى قدم الشكر على العمل ،والعمل مـن أعمـال الجوارح ، وعمل القلب، أشرف من عمل الجارحة ، وأيضا المقـصود مـن الأعمـال الظاهرة أحوال القلب قال تعالى: { **وأقم الصلاة لذكـري** } بين أن الصلاة مطلوبة لأجل أنـها تفيد الذكر فثبت أن أعمال القلوب أشرف من أعمال الجوارح ، والأشرف يجب تقديمه في الذكر ، وأيضا الاشـتغال بالشكر اشتغال بقضاء حقوق النعم الماضية ، والاشتغال بالطاعة الظاهـرة اشتغال بطلب النعم المستقبلة ، وقضاء الحقوق الماضية يجري مجرى قضاء الدين وطلب المنافع المستقبلة طلب للزوائد ومعلوم أن طلب قضاء الدين مقدم على سائر المهمات فلهذا السبب قدم الشكر على سائر الطاعات وأيضا

---

(١) روح المعاني ج٢٦ ص١٥.

أنه طلب التوفيق على الشكر وطلب التوفيق على الطاعة على طلب أن يصلح لـــه ذريته ، وذلك لأن المطلوبين اشتغال بالتعظيم لأمر الله والمطلوب الثالث اشتغال بالشفقة على خلق الله ، ومعلوم أن التعظيم لأمر الله يجب تقديمه على الشفقة على خلق الله" (١)

---

(١) مفاتيح الغيب ج٢٨ ص٢٠

سورة محمد

يـــرتبط أول سورة محمد بآخر الأحقاف ارتباطاً قوياً ففي آخر سورة الأحقاف { **فهل يهلك إلا القوم الفاسقون**} وفي بداية هذه { **الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله أضل أعمالهم** } .

﴿ أَفَلَـمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ دَمَّـرَ اللَّـهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا . ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الكَافِـرِينَ لاَ مَوْلَى لَهُمْ . إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْـرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ﴾ (محمد:١٠-١٢)

لـــا ذكر سبحانه وتعالى ما فعله بالكافرين أتبع ذلك بالإخبار عن علة ذلك فقال : {**ذلك بأن الله مولى الذين ءامنوا وأن الكافرين لا مولى لهم** } ولما تشوق السامع لمعرفة تمام آثار تلك الولاية قال شافياً عن سؤالهم { **إن الله يدخل الذين آمنوا** }.

﴿ مَـثَلُ الجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ المُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِّن مَّاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِّـن لَّـبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى ﴾ (محمد:١٥).

قال أبوحيان: "وبدئ من هذه الأنهار بالماء وهو الذي لا يستغنى عنه في المـــشروبات ، ثم باللبن الذي يجري مجيء الطعوم في كثير من أقوات العرب وغيرهم ، ثم بالخمر لأنه إذا حصل الري والمطعوم تشوقت النفش إلى ما تلتذ به، ثم بالعسل لأن فيه الشفاء في الدنيا مما يعرض من المشروب والمطعوم فهو متأخر في الهيئة" .[1]

﴿ فَاعْلَمْ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ﴾ (محمد:١٩) .

---

(١) التحرير والتنوير ج٨ ص٧٩.

يـــتعلق أمر التقديم والتأخير في هذه الآية بأمر العقيدة والتوحيد ، حيث تقدم الأمر بالعلم على القول والعمل ، وأن القول والعمل بلا علم ولا معرفة لا يفـــيد شيئاً ، فكل من قال لا إله إلا الله دون أن يكون عالماً بمعناها فاهماً لمحـــتواها فإنما ردد حروفاً وأصواتاً لا إدراك لها في عقله ولا أثر لها في نفسه ، ومن ثم فلا يصير بـــها من أهل الإيمان حتى يكون من الذين شهدوا بما علموا كما قال تعالى:﴿ إِلاَّ مَن شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ (الزخرف:٨٦) وقوله تعالى ﴿ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَا إِلاَّ بِمَا عَلِمْنَا﴾ (يوسف:٨١) وقوله تعالى :﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ وَالْمَلاَئِكَةُ وَأُولُوا الْعِلْمِ قَائِماً بِالْقِسْطِ ﴾ (آل عمران:١٨).

وقـــد تأخر طلب الاستغفار في الآية أيضاً عن شهادة التوحيد إشارة إلى أنـــه لا يـــنفع استغفار مع الشرك قال تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ ﴾ (النساء:٤٨) وقد بوب البخاري في صحيحه باباً بعنوان { **باب العلم قبل القول والعمل** } لقول الله تعالى :{ **فاعلم أنه لا إله إلا الله**} فبدأ بالعلم ".[(١)]

قال الشيخ عبد الرحمن بن حسن آل الشيخ: " لا بد في شهادة أن لا إله إلا الله من سبعة شروط ، لا تنفع قائلها إلا باجتماعها ، أحدها : العلم المنافي للجهـــل، الـــثاني: اليقين المنافي للشك ، الثالث: القبول المنافي للرد ،الرابع: الانقـــياد المنافي للترك ، الخامس: الإخلاص المنافي للشرك ، السادس: الصدق المنافي للكذب ، السابع :المحبة المنافية لضدها ".[(٢)]

وتحت عنوان شروط الشهادة السبعة ذكر الشيخ حافظ بن أحمد حكمي الشروط السبعة السابقة ثم قال: " الأول { **العلم**} بمعناه المراد منه نفياً وإثباتاً المنافي للجهل بذلك ، قال الله عز وجل: { **فاعلم أنه لا إله إلا الله** } وقال تعـــالى: { **إلا مـــن شـــهد بالحـــق** } أي بلا إله إلا الله {**وهم يعلمون** } بقلوبـــهم معنى ما نطقوا به بألسنتـــهم وقال تعالى: { **شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولو العلم قائماً بالقسط لا إله إلا هو العزيز الحكيم**} وقال تعالى: { **قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون إنما يتذكر أولوا**

---

(١) صحيح البخاري باب العلم قبل القول والعمل ج١ ص٣٠.

(٢) فتح المجيد شرح كتاب التوحيد ص٩٤.

الألباب} وقال تعالى: { **إنما يخشى الله من عباده العلماء** } وقال تعالى: { **وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون** } وفي الصحيح عن عثمان ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ { **من مات وهو يعلم أنه لا إله إلا الله دخل الجنة** }[1]،[2]

قال الدكتور محمد بكر إسماعيل : " فمن شهد أنه لا إله إلا الله فقد وافق الله عز وجل في شهادته لنفسه ، ووافق الملائكة في شهادتهم لربهم بالوحدانية وكان من أولي العلم ، ولهذا قال الله لنبيه محمد ﷺ { **فاعلم أنه لا إله إلا الله واستغفر لذنبك وللمؤمنين والمؤمنات والله يعلم متقلبكم ومثواكم**}.

إن الإيمان بلا علم كشجرة بلا ثمر ، أو كجسد بلا روح .

ومن هنا سُمِّيَ أهل التوحيد العارفين بالله ، فهم قد وحدوه بعد أن عرفوه.

ولذا يجب علينا أن نتعلم أصول التوحيد وشروطه وآدابه وقواعده وضوابطه - حتى تكون شهادتنا له بالتوحيد شهادة صحيحة ، فالشهادة لا تصح إلا بعلم، فكيف يشهد بالوحدانية من لم يعرف أن الله متصف بكل كمال ، ومنزه عن كل نقص،وأنه ليس كمثله شيء،وأنه الواحد في ذاته وصفاته وأفعاله" .[3]

---

(١) مسلم في كتاب الإيمان باب الدليل على من مات على التوحيد ٢٤٩/١ { ٢٦/٤٣ }نووي.

(٢) معارج القبول ج١ ص٣٢٧،٣٢٨.

(٣) أسماء الله الحسنى ص١٢.

سورة الفتح

ارتبطت هذه السورة بما قبلها،إذ إن السورة السابقة تتحدث عن أحكام القـــتال وهـــذه عن نتيجته وهو النصر والفتح ، في السورة السابقة أمر النبي ﷺ بالاستغفار له وللمؤمنين ﴿ **وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ** ﴾ (محمد: ١٩) وفي هـــذه السورة بيان بحصول هذه المغفرة في الآية الثانية{ **ليغفر لك الله مـــا تقـــدم من ذنبك وما تأخر**} والخامسة {**ليدخل المؤمنين والمؤمنات جنات تجري من تحتها الأنـــهار ويكفر عنـــهم سيئاتـــهم وكان ذلك عند الله فوزاً عظيماً**}.ومن جهة أخرى فإن محمد ﷺ الذي حملت السورة السابقة اسمـــه يناسبه أعظم المناسبة أن يجئ في أعقاب سورته سورة [**الفتح**] إذ كان هذا الفتح لمحمد عليه الصلاة والسلام.

﴿ **إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحاً مُّبِيناً** ﴾ (الفتح:١).

قـــال الألوســـي: "وتقديم {**لك**} على المفعول المطلق أعني قوله تعالى { **فـــتحاً مبيـــنا**} مع أن الأصل تقديمه على سائر المفاعيل كما صرح به العلامة التفتازاني للاهتمام بكون ذلك لنفعه عليه الصلاة والسلام وقيل : لأنه مدار الفائدة ".[1]

﴿ **وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيماً حَكِيماً** ﴾ (الفتح:٤) .

تقدم المسند { **لله**} على المسند إليه {**جنود السموات والأرض**} لإفادة الحصر .

﴿ **لِـــيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِـــيهَاوَيُكَفِّـــرَ عَـــنْـــهُمْ سَيِّئَاتِـــهِمْوَكَانَ ذَلِكَ عِندَ اللَّهِ فَوْزاً عَظِيماً ٠وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَوَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ** ﴾ (الفتح:٥،٦) .

بدأ بذكر ثواب المؤمنين تعجلاً للمسرة والبشارة لهم ، وفي العذاب بدأ بالمـــنافقين قبل الكافرين لأنـــهم أكثر ضرراً وأشد خطراً وأعظم كفراً ولهذا

---

(١) روح المعاني : ج٢٦ ص٨٩.

توعدهم الله بعذاب أشد من عذاب الكافرين في سورة النساء في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيراً ﴾ (النساء:١٤٥).
ونظير هذه الآية قوله تعالى في سورة الأحزاب: ﴿ لِيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ ﴾ (الأحزاب:٧٣)

قال الرازي: " واعلم أنه قدم المنافقين على المشركين في الذكر في كثير من المواضع لأمور أحدها : أنهم كانوا أشد على المؤمنين من الكافر المجاهر لأن المؤمن كان يتوقى المشرك المجاهر وكان يخالط المنافق لظنه بإيمانه ، وهو كان يفشي أسراره ، وإلى هذا أشار النبي ﷺ بقوله : { **أعدى عدوك نفسك التي بين جنبيك** } والمنافق على صورة الشيطان فإنه لا يأتي الإنسان على أنه عدوه ، وإنما يأتيه على أنه صديقه ، والمجاهر على خلاف الشيطان من وجه ، ولأن المنافق كان يظن أنه يتخلص للمخادعة والكافر لا يقطع بأن المؤمن إن غلب يفديه ،فأول ما أخبر الله أخبر عن المنافق". [1]

قال المراغي: " وإنما قدم المنافقين على المشركين لأنهم كانوا أشد ضرراً على المؤمنين من الكافرين المجاهرين ، لأن المؤمن كان يتوقى المجاهر ، ويخالط المنافق لظنه إيمانه ، وكان يفشي سره إليه وفي هذا دلالة على أنهم أشد منهم عذاباً وأحق منهم بما أوعدهم الله به ". [2]

وفي الآية تقديم وتأخير التفت إليه صاحب النظم القرآني فقال: "وفي تقديم إدخال المؤمنين والمؤمنات الجنة على تكفير السيئات، وذلك على خلاف الظاهر الذي يقضي بأن يكون تكفير السيئات أولاً ، ثم دخول الجنة ثانياً إذ لا دخول للجنة إلا بعد تكفير السيئات ، وفي هذا إشارة إلى أن دخول الجنة أمر مقضي به لكل مؤمن ومؤمنة سواء كان ذلك من غير عذاب ، أو بعد أن يستوفي العصاة من المؤمنين عذابهم، فهم جميعاً موعودون بالجنة ، وحسب المؤمن - أياً كان- أن يزحزح عن النار ، ويدخل الجنة كما يقول سبحانه: ﴿ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ﴾(آل عمران:١٨٥)[3].

﴿ لَيْسَ عَلَى الأَعْمَى حَرَجٌ وَلاَ عَلَى الأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلاَ عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ ﴾ (الفتح:١٧).

---

(١) مفاتيح الغيب ج٢٨ ص٨٣،٨٤. (٢) تفسير المراغي ج٢٦ ص٨٧. (٣) التفسير القرآني ج٢٦ ص٤٠١.

قـــال الرازي في المسألة الثالثة: " قدم الآفة في الآلة على الآفة في القوة ، لأن الآفـــة في القـــوة تزول وتطرأ والآفة في الآلة إذا طرأت لا تزول ، فإن الأعمى لا يعود بصيراً فالعذر في محل الآلة أتم .

المسألة الرابعة : قدم الأعمى على الأعرج لأن عذر الأعمى يستمر ولو حضر القـــتال والأعـــرج إن حضر راكباً أو بطريق آخر يقدر على القتال بالرمي وغيره"(١)

وقال الخازن: "وإنما قدم الأعمى على الأعرج لأن عذر الأعمى مستمر لا يمكن الانتفاع به في حرس ولا غيره بخلاف الأعرج لأنه يمكن الانتفاع به في الحراسة ونحوها وقدم الأعرج على المريض لأن عذره أشد من عذر المريض لإمكان زوال المرض عن قريب".(٢)

﴿ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِن شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ ﴾ (الفتح:٢٧)

تقـــدم التحلـــيق هنا على التقصير وهذا التقديم للتفضيل إذ إن ثواب التحليق أعظم من التقصير في الحج والعمرة ودليل ذلك فعل النبي ﷺ وقوله روى مـــسلم في باب تفضيل الحلق على التقصير وجواز التقصير أن عبد الله قال: حلق رسول الله وحلق طائفة من أصحابه وقصّر بعضهم قال عبد الله إن رسول الله ﷺ قال:**{ رحم الله المحلقين مرة أو مرتين والمقصرين مرة}**.وقد ســـاق مسلم بعد هذا الحديث ستة أحاديث تثبت فضل الحلق على التقصير حـــيث جـــاءت الأحاديث بالدعاء بالرحمة والمغفرة للمحلقين قبل المقصرين مرتين وثلاث مرات(٣).

---

(١) مفاتيح الغيب ج٢٨ ص٩٤.
(٢) تفسير الخازن ج٥ ص٤٨٨.
(٣) صحيح مسلم باب تفضيل الحلق على التقصير وجواز التقصير حديث رقم ١٣٠١ وينظر في الجزء التاسع من ص٧١ -٧٤.

سورة الحجرات

هناك ارتباط قوي أيضاً بين هذه السورة والسورة المتقدمة، ففي سورة الفتح بيان أحكام القتال الخارجي مع غير المسلمين ،وفي هذه السورة بيان أحكام القتال الداخلي ضد البغاة من المسلمين ، اختتمت السورة السابقة بذكر المؤمنين ووعدُ الله لهم ،﴿ **وَعَدَاللَّهُ الَّذِينَ آمَنُواوَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنهم مَّغْفِرَةًوَأَجْراًعَظِيماً** ﴾ (الفتح:٢٩).

وافتتحت هذه السورة بذكر المؤمنين تذكيراً لهم بحرمتهم ومكانتهم عند الله ، في كلتا السورتين تشريف كريم للرسول ﷺ ففي الأولى بيان بالتكريم الدنيوي بعد التكريم الأخروي وما ينبغي أن يعامل به النبي { **لتؤمنوا بالله ورسوله وتعزروه وتوقروه وتسبحوه بكرة وأصيلا** } وفي هذه السورة بيان أيضاً بما ينبغي أن يعامل به النبي ﷺ في الخمس آيات الأول من عدم تقدمه بقول ولا فعل وعدم رفع الصوت عليه وبيان أن ذلك محبط للعمل ، بيان فضل من غض الصوت عنده ، بيان حكم من يناديه من وراء الحجرات ووصفه بعدم العقل .

قال البقاعي: "ولما نوه سبحانه في القتال -أي سورة محمد- بذكر النبي ﷺ وصرح في ابتدائها باسمه الشريف وسمى السورة به وملأ سورة محمد بتعظيمه ،وختمها باسمه ومدح أتباعه لأجله افتتح هذه باشتراط الأدب معه في القول والفعل للعد من حزبه والفوز بقربه ومدار ذلك معالي الأخلاق".[1]

﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِوَرَسُولِهِوَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ** ﴾ (الحجرات:١)

قال صاحب التحرير: "وجعلت هذه الآية في صدر السورة مقدمة على توبيخ وفد بني تميم حين نادوا النبي ﷺ من وراء الحجرات لأن ما صدر من بني تميم هو من قبيل رفع الصوت عند النبي ﷺ لأن مماراة أبي بكر وعمر

---

(١) نظم الدرر ج٧ ص٢٢٠.

وارتفاع صوتيهما كانت في قضية بني تميم فكانت هذه الآية تمهيداً لقوله: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلاَ تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لاَ تَشْعُرُونَ** ﴾ (الحجرات:٢) .

لأن من خصه الله بهذه الحظوة ، أي جعل إبرام العمل بدون أمره كإبرامه بدون أمر الله حقيق بالتهيب والإجلال أن يخفض الصوت لديه، وإنما قدم هذا على توبيخ الذين نادوا النبي ﷺ لأن هذا أولى بالاعتناء إذ هو تأديب من هو أولى بالتهذيب ".(١)

﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْماً بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ** ﴾ (الحجرات:٦).

تقدم المجرور {**على ما فعلتم**} على متعلقه { **نادمين** } للاهتمام بالتنفير من الإصغاء الذي يفضي إلى هذا الفعل المتندم عليه، فالتقديم من أجل الاهتمام بالسبب المفضي إلى هذه النتيجة وهو الندم.

﴿ **وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ** ﴾ (الحجرات:٧).

تقدم الجار والمجرور { **فيكم** } وهو الخبر على المبتدأ { **رسول الله** } لبيان إظهار النعمة والفضل بتخصيص وجود النبي ﷺ بين أظهرهم، وتنبيهاً على وجوب الاغتباط به والإخلاص له لأن كونه فيهم شرف ورحمة لهم جميعاً .

﴿ **وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا** ﴾ (الحجرات:٩).

قال الرازي: " و لم يقل وإن اقتتل طائفتان من المؤمنين مع أن كلمة {**إن**} اتصالها بالفعل أولى وذلك ليكون الابتداء بما يمنع الاقتتال فيتأكد معنى النكرة المدلول عليها بكلمة {**إن**} وذلك لأن كونهما طائفتين مؤمنتين تقتضي ألا يقع القتال منهما ، فإن قيل فلم لم يقل يا أيها الذين ءامنوا إن فاسق جاءكم ، أو إن أحد من الفساق جاءكم ، ليكون الابتداء بما يمنعهم من الاصغاء إلى كلامه وهو كونه فاسقاً ؟ نقول المجيء بالنبأ الكاذب يورث كون الإنسان فاسقاً أو يزداد بسببه فسقه فالمجيء به سبب الفسق فقدمه،

---

(١) تفسير التحرير والتنوير ج٢٦ ص٢١٧،٢١٨.

وأما الاقتتال فلا يقع سبباً للإيمان أو الزيادة فقال: {**إن جاءكم فاسق**} أي سواء كان فاسقاً أو لا أو جاءكم بالنبأ فصار فاسقاً به ولو قال : وإن أحـــد من الفساق جاءكم كان لا يتناول إلا مشهور الفسق قبل المجيء إذا جـــاءهم النبأ"(1)

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ﴾ (الحجرات:13).

تقدم قوله: {**خلقناكم**} على قوله: {**جعلناكم**}لأن الخلق أصل تفرع عليه الجعل واعتبار الأصل مقدم على اعتبار الفرع ، وتقدمت الشعوب على القبائل من باب ذكر الأعم لأنه أذهب للافتخار لأن الأمر الأعم منها يدخله فقراء وأغنياء كثيرون غير محصورة وضعفاء وأقوياء كثيرون غير معدودة .

﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴾ (الحجرات:15) .

قال الرازي: "هذه السورة فيها إرشاد المؤمنين إلى مكارم الأخـــلاق ، وهي إما مع الله تعالى أو مع الرسول ﷺ أو مع غيرهما من أبناء الجنس، وهم على صنفين : لأنـــهم إما أن يكونوا على طريقة المؤمنين ، وداخلين في رتبة الطاعة ، أو خارجين عنها ، وهو الفاسق والداخل في طائفتـــــهم الســـالك لطريقتـــهم ، إما إن يكون حاضراً عندهم ، أو غائباً عنـــهم فهذه خمســـة أقسام :

أولـــها – يتعلق بجانب الله.

وثانيها – بجانب الرسول .

وثالثها – بجانب الفساق .

ورابعها – بالمؤمن الحاضر .

وخامسها – بالمؤمن الغائب .

فذكر الله تعالى في هذه السورة خمس مرات { **يا أيها الذين ءامنـــوا** } وأرشد في كل مرة إلى مكرمة مع قسم من الأقسام الخمسة .

فقال أولاً: { **يا أيها الذين ءامنوا لا تقدموا بين يدي الله ورسوله** } وذكر الرسول كان لبيان طاعة الله لأنـــها لا تعلم إلا بقول رسول الله .

---

(1) مفاتيح الغيب ج28 ص 127.

وقـــال ثانـــياً :{ **يا أيها الذين ءامنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي** } لبيان وجوب احترام النبي ﷺ .

وقـــال ثالـــثاً : { **يا أيها الذين ءامنوا إن جاءكم فاسق بنبأ** } لبيان وجوب الاحتراز عن الاعتماد على أقوالهم،فإنـــهم يريدون لقاء الفتنة بينكم وبيّن ذلك عند تفسير قوله: {**وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا** }

وقـــال رابعاً : { **يا أيها الذين ءامنوا لا يسخر قوم من قوم** } وقال {**ولا تنابـــزوا** } لبـــيان وجوب ترك إيذاء المؤمنين في حضورهم ،والإزراء بحالهم ومنصبـــهم .

وقال خامساً : {**يا أيها الذين ءامنوا اجتنبوا كثيراً من الظن إن بعض الظـــن إثم**} وقال: {**ولا تجسسوا**} وقال {**ولا يغتب بعضكم بعضاً**} لبيان وجـــوب الاحتـــراز عن إهانة جانب المؤمن حال غيبته ، وذكر ما لو كان حاضراً لتأذى. وهو في غاية الحسن من الترتيب .

فـــإن قـــيل : لَمَ لَمْ يذكر المؤمن قبل الفاسق لتكون المراتب متدرجة . الابتداء بالله ورسوله ثم بالمؤمن الحاضر ثم بالمؤمن الغائب ثم بالفاسق ؟

نقـــول: قـــدم الله ما هو الأهم على ما دونه ، فذكر جانب الله ، ثم جانب الرسول ، ثم ذكر ما يفضي إلى الاقتتال بين طوائف المسلمين بسبب الإصغاء إلى كلام الفاسق،والاعتماد عليه ، فإنه يذكر كل ما كان أشد نفاراً للصدور. وأما المؤمن الحاضر أو الغائب فلا يؤذي المؤمن إلى حد يفضي إلى القتال . ألا ترى أن الله تعالى ذكر عقيب نبأ الفاسق آية الاقتتال فقال: { **وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا** } .[1]

ذكر القاسمي عن الشهاب قوله :{**وقدم الأموال لحرص الإنسان عليها، فإن ماله شقيق روحه**} .[2]

﴿ يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُل لاَّ تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلامَكُمْ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلإِيمَانِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ (الحجرات:١٧) .

وتقديم المسند إليه { **الله** } على المسند الفعلي { **يمنون** } لتحقيق إثبات المن لله تعالى .

---

(١) مفاتيح الغيب ج٢٨ ص١٤٣، ١٤٤.

(٢) تفسير القاسمي ج٨ ص٥٤٣.

سورة ق

أخـــبر تعالى في سورة الحجرات بأن إيمان الأعراب لم يكن حقاً وذلك دلـــيل على عدم تيقنـــهم في النبوة والبعث وافتتح الله هذه السورة بوصف إنكار المشركين بنبوة النبي ﷺ وإنكار البعث والرد عليهم بالدليل القاطع .

﴿ ق وَالْقُـرْآنِ الْمَجِـيدِ ۝ بَـلْ عَجِـبُوا أَن جَاءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْـــهُمْ فَقَالَ الْكَافِـرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ ۝ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ ۝ قَدْ عَلِمْنَا مَـا تَنقُصُ الْأَرْضُ مِنْـــهُمْ وَعِندَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ ۝ بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَّرِيجٍ ۝ ﴾ (ق:١-٥) .

قـــال الرازي :في قوله: { **بل عجبوا** } "يدل على أمر سابق أضرب عنه ، وقد ذكرنا أنه الشك ، وتقديره والقرآن المجيد إنك لمنذر وإنـــهم شكوا فـــيك بـــل عجبوا ، بل كذبوا، وهذه مراتب ثلاث، الأولى : الشك وفوقها الـــتعجب ، لأن الـــشاك يكون الأمر عنده سيان ، والمتعجب يترجح عنده اعـــتقاد عـــدم وقوع العجيب لكنه لا يقطع به والمكذب الذي يجزم بخلاف ذلـــك، فكأنـــهم كانوا شاكين وصاروا ظانين جازمين فقال: {**فهم في أمر مـــريج**} مـــرتباً علـــى ما تقدم وفيما ذكروه لا يكون مرتباً فإن قيل المريج المخـــتلط ، وهذه أمور مرتبة متميزة على مقتضى العقل لأن الشاك ينتهي إلى درجـــة الظان والظان ينتهي إلى درجة القطع وعند القطع لا يبقى الظن وعند الظن لا يبقى الشك وأما ما ذكروه ففيه يحصل الاختلاط لأنـــهم لم يكن لهم في ذلك ترتيب بل تارة كانوا يقولون كاهن وأخرى مجنون ثم كانوا يعودون إلى نسبته إلى الكهانة بعد نسبته إلى الجنون وكذا إلى الشعر بعد السحر وإلى الـــسحر بعـــد الشعر فهذا هو المريج، نقول كان من الواجب أن ينتقلوا من الـــشك إلى الظـــن بصدقه لعلمهم بأمانته واجتنابه الكذب طول عمره بين أظهـــرهم ومـــن الظن إلى القطع بصدقه لظهور المعجزات القاهرة على يده ولسانه فما غيروا الترتيب حصل عليه المرج".(١)

---

(١) مفاتيح الغيب ج٢٨ ص١٥٤.

﴿ **إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا الْمَصِيرُ** ﴾ (ق:٤٣) .

تقدم الجار والمجرور {**وإلينا**} على المسند إليه {**المصير**} لاختصاص الرجوع إلى الله وحده ومراعاة الفاصلة .

﴿ **يَوْمَ تَشَقَّقُ الأَرْضُ عَنْهُم سِرَاعاً ذَلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ** ﴾ (ق:٤٤).

وتقديم الظرف هنا للاختصاص قال الزمخشري: "يعني لا يتيسر مثل ذلك الأمر العظيم إلا على القادر الذي لا يشغله شأن عن شأن ".[١]

---

(١) الكشاف ج٤ ص٣٨٤ .

سورة الذاريات

اختتمت سورة ق بقوله: ﴿ **نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّار فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَن يَخَافُ وَعِيد** ﴾ (ق:٤٥) افتتح هذه السورة بالقسم على هذا الوعيد فقال: ﴿ **وَالذَّارِيَاتِ ذَرْواً . فَالْحَامِلات وَقْـراً . فَالْجَارِيَـاتِ يُسْـراً . فَالْمُقَسِّمَاتِ أَمْراً . إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِق .وَإِنَّ الدِّينَ لَوَاقِعٌ** ﴾ (الذاريات:١-٦) ﴿ **وَالذَّارِيَاتِ ذَرْواً .فَالْحَامِلاتِوَقْراً .فَالْجَارِيَاتِ يُسْراً .فَالْمُقَسِّمَاتِ .أَمْـراً.** ﴾ (الذاريات:١-٤)،إذا كان المقسم به هو الرياح فإن الترتيب هنا ترتيب وجودى فالرياح تتحرك أولاً مثيرة للسحاب {**الذاريات ذروا**} ومنه قولـه تعـالى: ﴿ **تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ** ﴾ (الكهف:٤٥) {**تذروه الرياح**} ثم تحرك السحاب وتقلـه {فالحاملات وقراً} وتحرك كذلك الفلك {**فالجاريات يسرا**} ثم تنطلق حيث أمرت بتقسيم الأمطار بتصريف السحاب حيث يريد الله، ثم كانـت هـي السبب لعمل الملائكة في حياة الناس { **فالمقسمات أمراً** } .

﴿ **إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ .آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّـهُم إِنَّـهُم كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ .كَانُوا قَلِيلاً مِّنَ اللَّيْلِ مَـا يَهْجَعُـونَ . وَبِالأَسْـحَارِ هُـمْ يَسْتَغْفِرُونَ . وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ .** ﴾ (الذاريات:١٥-١٩).

تقدم ذكر حق الخالق هنا لأنه أولى بالتقديم {**كانوا قليلاً مـن الليـل ما يهجعون وبالأسحار هم يستغفرون**} على حق المخلوقين.

{**وفي أموالهم حق للسائل والمحروم**}

وتقديم الجار والمجرور {**وبالأسحار**} على متعلقه { **يستغفرون** } لبيان أهمية وفضل هذا الوقت على غيره من الأوقات في الاشتغال بالاستغفار .

﴿ **وَفِي الأَرْضِ آيَاتٌ لِّلْمُوقِنِينَ** ﴾ (الذاريات:٢٠)

تقدم الجار والمجرور { **وفي الأرض** } للتشويق إلى معرفة ما فيها .

﴿ **هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ** ﴾ (الذاريات:٢٤)

تقدم الاستفهام التقريري في الآية تفخيماً لشأن الحديث ولفتاً للنظر والانتباه ، مع تـهديد العرب ووعيدهم ووعظهم .

سورة الطور

لمـــا ختمت الذاريات بتحقيق الوعيد في قوله تعالى ﴿ **فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِن يَوْمِهِمُ الَّذِي يُوعَدُونَ**﴾ (الذاريات:٦٠) افتتحت سورة الطور بالقسم على تحقـــيق روح الوعيد الذي هو العذاب{**والطور ٠ وكتاب مسطور ٠ في رق منـــشور ٠ والبـــيت المعمور ٠ والسقف المرفوع ٠والبحر المسجور ٠إن عذاب ربك لواقع ٠ما له من دافع** } .

﴿ **وَالطُّـــورِ . وَكِــتَابٍ مَّـــسْطُورٍ ٠ فِي رَقٍّ مَّنْشُورٍ ٠ وَالْبَيْتِ المَعْمُورِ ٠ وَالسَّقْفِ المَرْفُوعِ ٠ وَالْبَحْرِ المَسْجُورِ ٠ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ** ﴾ (الطور:١-٧) .

بدأ القسم بطور سيناء إشارة إلى رسالة موسى ، حيث كان الكثير من الآيـــات الـــتي أنزلت على نبي الله موسى- عليه السلام- في هذا المكان فقد كانت فيه المناجاة وكتابة الألواح وإحياء بني إسرائيل بعد صعقهم فيه إلى غير ذلك من الآيات التي حدثت في هذا المكان ، ثم ثنى بقوله:{**وكتاب مسطور**} إشارة إلى الصلة بين موسى ومحمد الذي ثلث به إشارة إليه عن طريق القسم بالبيت المعمور الذي هو الكعبة ، ثم ذكر السقف المرفوع ليرشدهم إلى النظر في الآيات العلوية، ثم ختم بما فيه التهديد والوعيد بذكر { **البحر المسجور**} الذي منعه من الطغيان على ظهر الأرض ولو خلاه لأهلك كل شئ من جبل وأرض وبيت ، ولهذا جاءت الآية التالية {**إن عذاب ربك لواقع**}.

﴿ **أَفَسِحْرٌ هَذَا أَمْ أَنتُمْ لاَ تُبْصِرُونَ** ﴾ (الطور:١٥) .

أصل الترتيب أفهذا سحر وقد تقدم الخبر {**أفسحر**} على المبتدأ {**هذا**} لأن السحر هو المقصود بالإنكار والتوبيخ ولـــهذا بدأ به.

سورة النجم

لما ختمت الطور بأمر النبي ﷺ بالتسبيح والتحميد عند إدبار النجوم افتتحت هذه السورة بالقسم بالنجم .

﴿ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اهْتَدَى﴾ (النجم:٣٠) .

تقدم العلم بمن ضل عن سبيله في غير هذا الموضع ، فمنه قوله تعالى في سورة الأنعام **﴿ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَن يَضِلُّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ** (الأنعام:١١٧) .

ومنه قوله تعالى في سورة **{ن}** **﴿ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴾** (القلم:٧)

في هذه المواضع كلها المذكور نبيه ﷺ والمعاندون، فذكرهم أولاً تهديداً لهم وتسلية لقلب نبيه ﷺ.

﴿ فَلِلَّهِ الْآخِرَةُ وَالْأُولَى ﴾ (النجم:٢٥).

قدمت الآخرة على الأولى هنا لأنها أشرف منها وأفضل ، كما أنها هي الأولى بابتغاء الخير والسعي لها وتعليق الأماني بها .

﴿ الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ ﴾ (النجم:٣٢).

التقديم هنا للترقي من الكبير إلى الأكبر فالفواحش هي ما فحش من الكبائر .

﴿أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَى ۝ وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى﴾(النجم:٣٦،٣٧).

قدم موسى -عليه السلام - في هذه الآية وأخر في سورة الأعلى في قوله تعالى **{صحف إبراهيم وموسى}** وأقول: الترتيب في سورة الأعلى من وجهين الأول أن إبراهيم أفضل من موسى والثاني لسبقه في الوجود، أما هنا فإن الكلام مع أهل الكتاب وهم اليهود فقدم كتابهم من أجل ذلك ، وإذا كان الخطاب ليس مع أهل الكتاب بل هو عام لكل المشركين ، فالتقديم هنا لكون صحف موسى أقرب زماناً وأشهر ذكراً ولمخالطة المشركين اليهود فكانوا بها أعرف وذكرها لديهم أشهر .

﴿ وَأَنَّ إِلَى رَبِّكَ الْمُنتَهَى. وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَى .وَأَنَّهُ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا ﴾ (النجم:٤٢-٤٤)

تقدم الجار والمجرور فى { **إلى ربك** }لإفادة الاختصاص فالمنتهى إليه وحده ، أما لماذا تقدم الضحك على البكاء هنا؟ فأقول: الضحك هو آخر مراحل السرور والسعادة فعندما يسر الإنسان يبدأ ذلك بارتياح في قلبه ثم يبتسم ثم يضحك إذاً الضحك هو نتيجة لتوالي السعادات والنعم السابقة التي أنعم الله بها على الإنسان، والبكاء هو آخر علامة تظهر على وجه الحزين مثل الضحك وهو أمر عارض سبقه توالي الإحسان والرحمة والكرم ولهذا قدم عليه، أما تقدم الموت على الحياة فهو من باب التقدم الوجودي ومنه قوله تعالى في سورة الملك: ﴿ **الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً** ﴾ (الملك:٢) .

سورة القمر

لما ختمت النجم بالحديث عن قرب حدوث القيامة﴿ **أَزِفَتِ الآزِفَةُ. لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ اللَّهِ كَاشِفَةٌ. أَفَمِنْ هَٰذَا الْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ .وَتَضْحَكُونَ وَلاَتَبْكُونَ. وَأَنتُمْ سَامِدُونَ. فَاسْجُدُوا لِلَّهِ وَاعْبُدُوا** ﴾ (النجم:٥٧-٦٢).

افتتحت السورة هنا بجنس من أجناس المخلوقات السماوية الأخرى الأكبر حجماً وهو القمر الذي دل انشقاقه على قرب حدوث القيامة أيضاً .

﴿ **إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحاً صَرْصَراً فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ .تَنزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُم أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ. فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ** ﴾ (القمر:١٩-٢١) .

تقدم الوصف بالذات { **صرصر**} على الوصف بالفعل {**تنزع**} ليعلم شدة ما حل بهم من عذاب وتقدم ذكر العذاب على الإنذار مع كون العذاب لا يكون إلا متأخراً عنه كما قال تعالى: {**وما كنا معذبين حتى نبعث رسولاً**} وقد تقدم الإنذار أيضاً في هذه السورة على ذكر العذاب ﴿ **وَلَقَدْ جَاءَهُم مِّنَ الأَنبَاءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ .حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ فَمَا تُغْنِ النُّذُرُ**﴾ (القمر:٤،٥) .

وعن سر هذا الترتيب أقول: تقدم ذكر العذاب للاهتمام به حيث كان هو المقصود بالإنذار به فبدأ بالسؤال عنه على سبيل التهكم بهم ولما فيه من الوعيد لكفار مكة أن يلحقهم مثله فبدأ به .

﴿**أَبَشَراً مِّنَّا وَاحِداً نَّتَّبِعُهُ إِنَّا إِذاً لَّفِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ** ﴾ (القمر:٢٤)

تقدم المفعول في الاستفهام الانكاري حيث أنكروا أن يكون البشر ممن يصح اتباعه وأن يكون مبعوثاً من عند الله ، فإنهم كانوا ينكرون ذلك، ويرون أن الرسول يجب أن يكون ملكاً بدليل قولهم: ﴿**إِنْ أَنتُمْ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُنَا**﴾ (إبراهيم:١٠) .

وقولهم: ﴿ **مَا هَٰذَا إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَائِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ**﴾ (المؤمنون:٢٤)

لمـــا ختم سبحانه وتعالى القمر بعظيم الملك والقدرة ﴿ **إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ ۝ فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ** ﴾ (القمر:٥٤،٥٥) وكان الملك القادر لا يكمل ملكه إلا بالرحمة وكانت رحمته لا تتم إلا بعمومها قصر هذه السورة على تعداد نعمه على خلقه في الدارين وذلك من آثار الملك ، وفصل فـــيها ما أجمل في القمر من مقر الأولياء والأعداء في الآخرة وصدرها بالاسم الدال على عموم الرحمة .

﴿ **الـــرَّحْمَنُ ۝ عَلَّمَ الْقُرْآنَ ۝ خَلَقَ الْإِنسَانَ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ ۝ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُـــسْبَانٍ ۝ وَالـــنَّجْمُ وَالـــشَّجَرُ يَسْجُدَانِ ۝ وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ ۝ أَلَّا تَطْغَـــوْا فِـــي الْمِيـــزَانِ ۝ وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ ۝ وَالْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ ۝ فِيهَا فَاكِهَةٌ وَالنَّخْلُ ذَاتُ الْأَكْمَامِ ۝ وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ وَالرَّيْحَانُ** ﴾(الرحمن:١-١٢).

بـــدأ تعالى عند تعدد النعم بالأعلى منها وهو تعليم القرآن ، والقرآن كـــلام الله وهو صفة من صفاته ولهذا قُدم على خلق الإنسان ، كما أن خلق الإنـــسان إنمـــا هـــو من أجل عبادة ربه ، تلك العبادة التي لا يستطيع العقل البشري أن يستقل بإدراكها ولا معرفة كيفيتها ولا ضوابطها فكان من رحمة الله بعـــباده أن أرســـل إليهم كتاباً أبان لهم فيه ما أحب وما كره فلما كان الكـــتاب هـــو الهادي لتلك الغاية والوسيلة الموصلة إليها تقدمت على خلق الإنسان الذي لن يصل إلى تلك الغاية إلا بـــها ، هذه الغاية التي بـــها تتعلق ســـعادة الإنسان أو شقاؤه الأبدي، وتقدم خلق الإنسان على التعليم تقديم وجود.

وعن سر هذا التقدم قال الأستاذ عبد الكريم الخطيب: "وقد كان سياق المعـــنى يقـــضي - في ظاهر الأمر بأن يقدم خلق الإنسان على تعلمه القراءة مطلقـــاً أو قراءة القرآن بصفة خاصة ولكن النظم القرآني لا يوزن بميزان نظم البشر لكلامهم فهذا كلام الله وكلامه صفة من صفاته والفرق بين كلام الله

وكــلام البشر كالفرق بين صفات الله وصفات عباد الله ولا تصح المقايسة بحال أبداً بين الخالق والمخلوق ..

نقــول - كــان سياق النظم يقضي -في ظاهر الأمر - بأن يقدم خلق الإنــسان على تعلم القرآن فيقال : الرحمن خلق الإنسان علم القرآن ، فماذا إذن وراء هذا النظم الذي جاء عليه القرآن ؟

والجواب أن وراء هذا النظم كثيراً من الأسرار لا يحصيها العد ولا يحيط بــهــا العقل..وإنما هي أسرار تتكشف حالاً بعد حال على مسرح العقول وعلى امتداد الأزمان والآباد .. والذي يبدو لنا من هذا النظم - والله أعلم - أن القــراءة وهي -كما قلنا- قراءة عامة في صحف الوجود ، وفي الكتب - هي التي تكشف للإنسان الطريق إلى الله وتدله على ما لله سبحانه من كمال وجــلال ومــن تفرد بالخلق والأمر ، والتعرف على الله هو الغاية من خلق الإنسان على تلك الصورة الفريدة التي امتاز بــها عن عالم المخلوقات كلها ، والــتي استقل بــها وحده بحمل الأمانة التي عرضت على السموات والأرض والجــبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها ، والتي بــها أيضاً استحق أن يكون أولى من الملائكة بخلافة الله على هذه الأرض ..

فلمعــرفة الله تلــك المعــرفة القائمة على وعي وإدراك وعلى حساب وتقدير- كان خلق الإنسان ..

فمعرفة الله هي العلة وخلق الإنسان ليقوم بوظيفة هذه المعرفة هو معلول لهــذه العلة والعلة مقدمة على معلولها ولهذا قدم قوله تعالى: {**علم القرآن**} على قوله{**خلق الإنسان**} وقد{**علمه البيان**} أي خلقه ذا عقل وإدراك".[1]

قــال أبوحــيان: "وبدأ بقوله {**فاكهة**} إذ هو من باب الابتداء بالأدنى والترقــي إلى الأعلــى .. وبدأ بالفاكهة ، وختم بالمشموم وبينــهما النخل والحــب ليحــصل ما به يتفكه وما به يتقوت وما به تقع اللذاذة من الرائحة الطيبة ".[2]

وتقــدمت الفاكهة على اللحم في قوله تعالى:﴿ **وَفَاكِهَــةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ** ﴾ (الواقعة :٢٠،٢١)

---

(١) التفسير القرآني ج٢٧ ص٦٥٨.

(٢) البحر المحيط ج٨ ص١٨٨.

قال الرازي: "وفي الترتيب وجوه:

أحدها : هو أن الله تعالى لما ثبت كونه رحمن، وأشار إلى ما هو شفاء ورحمة وهو القرآن ذكر نعمه وبدأ بخلق الإنسان فإنه نعمة ،جميع النعم به تتم، ولولا وجوده ما انتفع بشيء ثم بين نعمة الإدراك بقوله: {**علمه البيان**} وهو كالوجود ــ إذ لولاه ــ لما حصل النفع والانتفاع ثم ذكر من المعلومات نعمتين ظاهرتين هما أظهر النعم السماوية،وهما الشمس والقمر ، ولولا الشمس لما زالت الظلمة ، ولولا القمر لفات كثير من النعم الظاهرة بخلاف غيرهما من الكواكب فإن نعمها لا تظهر لكل أحد مثلما تظهر نعمتهما ، ثم بين كمال نفعهما في حركتهما بحساب لا يتغير ولو كانت الشمس ثابتة في موضع لما انتفع بها أحد ، ولو كان سيرها غير معلوم للخلق لما انتفعوا بالزراعات في أوقاتها وبناء الأمر على الفصول ، ثم بين في مقابلتهما نعمتين ظاهرتين من الأرض وهما النبات الذي لا ساق له والذي له ساق فإن الرزق أصله منه ، ولولا النبات لما كان للآدمي رزق إلا ما شاء الله، وأصل النعم على الرزق الدار ،وإنما قلنا النبات هو أصل الرزق لأن الرزق إما نباتي وإما حيواني كاللحم واللبن وغيرهما من أجزاء الحيوان ولولا النبات لما عاش الحيوان ، والنبات هو الأصل وهو قسمان قائم على ساق كالحنطة والشعير والأشجار الكبار وأصول الثمار وغير قائم كالبقول المنبسطة على الأرض والحشيش والعشب الذي هو غذاء الحيوان.

ثانيها: هو أنه تعالى لما ذكر القرآن وكان هو كافياً لا يحتاج معه إلى دليل آخر قال بعده { **الشمس والقمر بحسبان ٥ والنجم والشجر** } وغيرها من الآيات إشارة إلى بعض الناس إن تكن النفس الزكية التي يغنيها الله بالدلائل التي في القرآن فله في الآفاق آيات منها الشمس والقمر ،وإنما اختارهما للذكر لأن حركتهما بحسبان تدل على فاعل مختار سخرهما على وجه مخصوص ....فإن قيل ما الفائدة في تقديم السماء على الفعل حيث قال: {**والسماء رفعها**} وتقديم الفعل على الميزان حيث قال : {**ووضع الميزان**} ؟ نقول : قد ذكرنا مراراً أن في كل كلمة من كلمات الله فوائد لا يحيط بها علم البشر إلا ما ظهر والظاهر هاهنا أنه تعالى لما عد النعم الثمانية كما بينا

وكان بعضها أشد اختصاصاً بالإنسان من بعض ، فما كان شديد الاختصاص بالإنـسان قـدم فـيه الفعل ، كما بينا أن الإنسان يقول أعطيتك الألوف وحـصلت لـك العـشرات ، فلايصرح في القليل بإسناد الفعل إلى نفسه ، وكـذلك يقـول في الـنعم المختصة، أعطيتك كذا فيصرح بالإعطاء عند الاختـصاص ولا يسند الفعل إلى نفسه عند التشريك ، فكذلك هاهنا أمور أربعة بتقديم الفعل ، قال تعالى :{ **علم القرآن خلق الإنسان علمه البيان** } ووضـع الميزان وأمورا أربعة بتقديم الاسم قال تعالى: { **والشمس والقمر ، والنجم والشجر والسماء رفعها والأرض وضعها** }لما أن تعليم القرآن نفعه إلى الإنـسان أعود ،وخلق الإنسان مختص به، وتعليمه البيان كذلك ووضع الميـزان ، كـذلك لأنـهم هم المنتفعون به الملائكة ، ولا غير الإنسان من الحيوانات ، وأما الشمس والقمر والنجم والشجر والسماء والأرض فينتفع به كـل حيوان على وجه الأرض وتحت أديم السماء. ثم قال تعالى:{ **والأرض وضعها للأنام** } فيه مباحث :

الأول: هـو أنه قد مر أن تقديم الاسم على الفعل كان في مواضع عدم الاختصاص وقوله تعالى: { **للأنام** } يدل على الاختصاص ، فإن اللام لعود النفع نقول : الجواب عنه من وجهين أحدهما : ما قيل أن الأنام يجمع الإنسان وغيره من الحيوان ، فقوله للأنام لا يوجب الاختصاص بالإنسان، ثانيهما : أن الأرض موضـوعة لكل ما عليها وإنما خص الإنسان بالذكر لأن انتفاعه بـها أكثر فإنه ينتفع بـها وبما فيها وبما عليها فقال للأنام لكثرة انتفاع الأنام بـهـا ، إذا قلنا إن الأنام هو الإنسان ،وإن قلنا إنه الخلق فالخلق يذكر ويراد به الإنسان في كثير من المواضع ". [1]

﴿ خَلَقَ الإِنسَانَ مِن صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ .وَخَلَقَ الجَانَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ ﴾ (الـرحمن:١٤،١٥) تقـدم هنا ذكر الإنس على الجن وهذا التقديم لبيان مجمل ما ذكر عن الإنس في الآية الثالثة وهذا التقديم يبين فضل وشرف الإنس على الجـن ، وقد تقدم ذكر الإنس على الجن أيضاً في الآية التاسعة والثلاثين من

---

(١) مفاتيح الغيب ج٢٩ ص٨٨-٩٣

نفس السورة في قوله تعالى :{ **فيومئذ لا يسأل عن ذنبه إنس ولا جان**}وفي قوله تعالى: ﴿ **وَأَنَّا ظَنَنَّا أَن لَّن تَقُولَ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى اللَّهِ كَذِباً** ﴾ (الجن:٥).

والتقديم هنا للإنس والله أعلم لأنـــهم المخاطبون بـــهذا القرآن فناسب أن يقدموا في الوعيد لأنـــهم المخاطبون بـــهذا القرآن ابتداء ، وليس كمـــا قال الكبيسي: " أنه من أجل اتساق النظم والحفاظ على الجرس".[1]

فالله تعالى نزه القرآن عن أن يكون شعراً، وحاشاه أن يقدم أو يؤخر من أجل الحفاظ على الجرس ،فسبحانه من لا يعجزه شئ قادر علـــى أن يـــأتي بـــهذا الجرس من غير هذا التقديم. قال تعالى ﴿ **وَلَوْ أَنَّمَا فِـي الأَرْضِ مِـن شَجَرَةٍ أَقْلامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِن بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّـــهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ** ﴾ (لقمان:٢٧) .

﴿ **وَلَهُ الْجَوَارِ الْمُنشَآتُ فِي الْبَحْرِ كَالأَعْلامِ** ﴾ (الرحمن:٢٤).

تقدم الجار والمجرور { **وله** } لإفادة الاختصاص أي له لا لغيره فلا يغتر أحد بالأسباب .

﴿ **يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالإِنسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا مِنْ أَقْطَـارِ السَّـمَوَاتِ وَالأَرْضِ فَانفُذُوا لا تَنفُذُونَ إِلاَّ بِسُلْطَانٍ** ﴾ (الرحمن:٣٣).

تقدم الجن على الإنس في هذا الموضع وتأخر عنه في سورة الإســراء في قوله تعالى : ﴿ **قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً** ﴾ (الإسراء:٨٨)

أقول: إن تقديم الجن هنا أليق بـــهم ، لأنـــهم أقدر وأسرع كما قال تعالى في سورة النمل: ﴿ **قَالَ يَا أَيُّهَا الْمَلأُ أَيُّكُمْ يَـأْتِينِي بِعَرْشِـهَا قَبْـلَ أَن يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ .قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ** ﴾ (النمل:٣٨،٣٩).

وأما في سورة الإسراء فالإتيان بمثل القرآن أليق بالإنس إن أمكن ، فهم المعروفون بالتمكن من اللغة وآدابـــها.

﴿ **وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ . فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ .ذَوَاتَا أَفْنَانٍ . فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ . فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ .فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَـذِّبَانِ . فِيهِمَا مِن كُلِّ فَاكِهَةٍ زَوْجَانِ. فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ . مُتَّكِئِينَ عَلَى فُـرُشٍ بَطَائِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ وَجَنَى الْجَنَّتَيْنِ دَانٍ .فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ .فِـيهِنَّ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلا جَانٌّ** ﴾ (الرحمن:٤٦-٥٦).

---

(١) مجلة الحكمة ص٧٦.

هـــذا الترتيب في هذه الآيات ترتيب في غاية الحسن لأنه في أول الأمر بين المسكن وهو الجن، ثم بين ما يتنـــزه به فإن من يدخل بستاناً أولاً يتفرج فقـــال: {**ذواتـــا أفنان ،فيهما عينان**} ثم ذكر ما يتناول من المأكول فقال: {**فـــيهما من كل فاكهة**} ثم ذكر موضع الراحة بعد التناول وهو الفراش ،ثم ذكر ما يكون في الفراش معه.

قـــال الألوســـي: " ولعله إنما قدم سبحانه ذكر الاتكاء أولاً على ذكر النـــساء لأنه عز وجل ذكر في صدر الآية الخوف حيث قال سبحانه: {**ولمن خاف مقام ربه جنتان**} فناسب التعجيل بذكر ما يشعر بزواله إشعاراً ظاهراً وهـــو الاتكاء فإنه من شأن الآمنين ، وأخر سبحانه ذكره ثانياً عن ذكرهن لعدم ما يستدعي التقديم وكونه مما يكون للرجل بعد فراغ ذهنه عما يحتاجه المنـــزل من طعام وشراب وقينة تكون فيه. (١)

﴿ **مُتَّكِئِينَ عَلَى رَفْرَفٍ خُضْرٍ وَعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ** ﴾ (الرحمن:٧٦)

قال الرازي: "ما الحكمة في تأخير ذكر اتكائهم عن ذكر نسائهم في هذا الموضـــع مـــع أنه تعالى قدم ذكر اتكائهم على ذكر اتكاء نسائهم في الجنتين المتقدمـــتين حـــيث قال {**متكئين على فرش**} ثم قال: {**قاصرات الطرف**} وقـــال هاهـــنا:{**خـــيرات حسان**} ثم قال: {**متكئين**} ؟ والجواب عنه من وجهين:

أحـــدهما : أن أهل الجنة ليس عليهم تعب ولا حركة ، فهم منعمون دائمـــاً ، لكن الناس في الدنيا على أقسام منـــهم من يجتمع مع أهله اجتماعا مستفيضا وعند قضاء وطره يستعمل الاغتسال والانتشار في الأرض للكسب، ومـــنـــهم مـــن يكون متردداً في طلب الكسب وعند تحصيله يرجع إلى أمله ويريح قلبه من التعب قبل قضاء الوطر فيكون التعب لازماً قبل قضاء الوطر أو بعـــده ، فالله تعالى قال في بيان أهل الجنة متكئين قبل الاجتماع بأهلهم وبعد الاجتماع.

وثانـــيهما: هو أنا بينا في الوجهين المتقدمين لأهل الجنة الذين جاهدوا والمتأخـــرين لـــذرياتـــهم الـــذين ألحقوا بـــهم فهم فيها وأهلهم في الخيام

---

(١) روح المعاني ج٢٧ ص١٣٦.

منتظرات قدوم أزواجهن ، فإذا دخل المؤمن جنته التي هي سكناه يتكئ على الفرش وتنتقل إليه أزواجه الحسان فكونـــهن في الجنـــتين المتقـــدمتين بعـــد اتكائهم على الفرش ، وأما كونـــهم في الجنتين المتأخرتين فذلك حاصـــل في يومنا واتكاء المؤمن غير حاصل في يومنا فقدم ذكر كونـــهن فـــيهن هنـــا وأخره هناك ". (٢)

﴿ تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلالِ وَالإِكْرَامِ ﴾ (الرحمن:٧٨).

لما ختم سبحانه نعم الدنيا بقوله تعالى: ﴿ وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَـــلالِ وَالإِكْرَامِ﴾ (الرحمن:٢٧).

ختم نعم الآخرة بـــهذه الآية ﴿ تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلالِ وَالإِكْـــرَامِ ﴾ (الرحمن:٧٨).

---

(١) مفاتيح الغيب ج٢٩ ص١٣٦.

سورة الواقعة

لمـــا صـــنف سبحانه الناس في سورة الرحمن إلى ثلاثة أصناف مجرمين وسابقين ولاحقين وختم بعلة ذلك أنه ذو الجلال والإكرام شرح أحوالهم في هـــذه السورة وبين الوقت الذي يظهر فيه إكرامه وانتقامه بما ذكر في سورة الرحمن غاية الظهور .

﴿ خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ ﴾ (الواقعة:٣).

أي تخفــض أقواماً وترفع آخرين وقدمه قوله {خافضة} لأن عدد من تخفــضهم أكثــر ممن ترفعهم ، قال تعالى :**﴿ وَمَـــا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴾** (يوسف:١٠٣) **﴿ فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ ٠ وَأَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ ٠ وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ﴾**(الواقعة:٨-١٠).

قـــال الـــرازي: "ما الحكمة في الابتداء بأصحاب اليمين والانتقال إلى أصحاب الشمال مع أنه في البيان بين حال السابقين ثم أصحاب الشمال على الترتيب والجواب: أن نقول: ذكر الواقعة وما يكون عند وقوعها من الأمور الهائلـــة إنمـــا يكـــون لمن لا يكون عنده من محبة الله تعالى ما يكفه مانعاً عن المعصية ،وأما الذين سرهم مشغول بربـــهم فلا يحزنون بالعذاب ، فلما ذكر تعـــالى { **إذا وقعـــت الواقعة** } وكان فيه من التخويف ما لا يخفى وكان التخويف بالذين يرغبون ويرهبون بالثواب والعقاب أولى ذكر ماذكره لقطع العـــذر لا لنفع الخبر ، وأما السابقون فهم غير محتاجين إلى ترغيب أو ترهيب فقـــدم ســـبحانه أصحاب اليمين الذين يسمعون ويرغبون ثم ذكر السابقين ليجتهد أصحاب اليمين ويقربوا من درجاتـــهم ".(١)

أقول: وما ذكره الرازي غوص في المعنى دقيق ولكن عند التحقيق نجد أنه لم يرزق فيما ذهب إليه التوفيق في قوله تعالى : { **وأما السابقون فهم غير محـــتاجين إلى ترغيب أو ترهيب**} كيف وقد أثنى الله على الأنبياء وهم أئمة

---

(١) مفاتيح الغيب ج٢٩ص١٤٤.

الهـــدى وســـادات السابقين بقوله: ﴿ إنـــــهم كانُوا يُسَارِعُونَ فِي الخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَباً وَرَهَباً وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ ﴾ (الأنبياء:٩٠)

وأقول: لقد أفرد السابقون بالذكر مؤخراً لبيان شرفهم وعظيم قربـــهم مـــن الله ، ثم بدأ بـــهم عند بيان فضلهم وحسن جزائهم عند الله تعالى فيما بعد.

وللخازن رأي آخر عن سر التقديم والتأخير في هذه الآيات قال: " فإن قلت لم أخر ذكر السابقين وكانوا أولى بالتقديم عن أصحاب اليمين .

قلت: فيه لطيفة وذلك أن الله تعالى ذكر في أول السورة من الأمور الهائلة عند قيام الساعة تخويفاً لعباده فإما محسن فيزداد رغبة في الثواب وإما مسيء فيرجع عن إساءته خوفاً من العقاب فلذلك قدم أصحاب اليمين ليسمعوا ويرغبوا ثم ذكر أصحاب الشمال ليرهبوا ثم ذكر السابقين وهم الذين لا يحزنـــهم الفزع الأكبر ليجتهد أصحاب اليمين في القرب منـــهم ".(١)

﴿ بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ﴾ (الواقعة:١٨) .

في تـــأخير الكـــأس تأخير حسن ، وكذلك في تقديم الأكواب إذا كان الكوب منه يصب الشراب في الإبريق ومن الإبريق الكأس .

﴿ أَفَرَأَيْتُم مَّا تُمْنُونَ ٠ أَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُ﴾ (الواقعة:٥٨،٥٩) .

أقول: وبعده ﴿ أَفَرَأَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ﴾ (الواقعة:٦٣) وبعده ﴿ أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ ﴾ (الواقعة:٦٨) وبعده ﴿ أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ ﴾ (الواقعة:٧١) .

هـــنا سؤالان عن ترتيب هذه الأشياء التي تختص بقدرة الله تعالى وتقديم بعضها على بعض ، وهل كان يجوز تقديم النار على ذكر الماء ؟

وأقول: الأول هو خلق الإنسان من نطفة ، والنعمة في ذلك قبل النعمة في الـــثلاثة الأخر التي بعده ، فوجب تقديمه ، ثم بعده ما به قوام الإنسان من فائـــدة الحرث وهي الطعام الذي لا يستغني عنه الجسد الحي ، وذلك الحب يحـــتاج إلى الماء من قبل حصوله عندما بذر في الأرض إلى أن يخرج حباً ثم يحـــتاج بعد حصوله إلى ما يعجن به وهو الماء ، ثم إلى النار التي تعيده خبزاً ، فالترتيب على حسب الحاجة ، والنعمة الثانية بعد الأولى .

---

(١) تفسير الخازن ج٦ ص٩٥.

وقـــد تقـــدم في هذه السورة ذكر نعم الآخرة على نعم الدنيا من الآية الخامسة عشر وحتى الآية السابعة والثلاثين وهو من باب ذكر النتيجة أولاً ثم ذكـــر ما يدل عليها من نعم الدنيا من الآية التاسعة والخمسين إلى الآية الثالثة والسبعين لتكون قريبة الذكر وهادية للفكر .

سورة الحديد

لمـــا خـــتمت الواقعة بالأمر بتنـــزيه الله عما أنكره الكفرة من البعث ، جاءت هذه السورة لتقرير ذلك التنـــزيه وتبيينه بالدليل والبرهان وقد ختمت الـــواقعة بالأمـــر بالتسبيح ﴿ **فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ** ﴾ (الواقعة:٩٦) وابتدأت الحديد بتسبيح الله سبحانه وتعالى ﴿ **سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ** ﴾ (الحديد:١).

﴿ **حُطَاماً وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ** ﴾(الحديد:٢٠) .

قدم العذاب على المغفرة ، لأن الآية جاءت تواجه الذين خُدعوا بالحياة الدنـــيا وأذهبوا طيباتـــهم فيها ولهذا جاءت فاصلة الآية مؤكدة لما بدئت به { **وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور** }.

﴿ **لَقَـدْ أَرْسَـلْنَا رُسُـلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ الـنَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ** ﴾ (الحديد:٢٥).

لماذا تقدم وصف شدة الحديد وبأسه على صفة نفعه ؟

أقول: لأن دفع الضرر عن الإنسان أولى من جلب النفع لاسيما إن كان الضرر يتعلق بالدين لصد ودفع شر المعتدين الصادين عن سبيل المؤمنين ومن هنا قدم البأس الشديد على منافع الناس.

﴿ **ثُـمَّ قَفَّيْـنَا عَلَـى آثَارِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَآتَيْنَاهُ الْإِنجِيلَ وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا** ﴾ (الحديد:٢٧)

وتقديم الرهبانية هنا للتأكيد على ذم الابتداع ، وأنـــها لك تشرع من عند الله فكان البدء بـــها لإنكار .

قـــال البقاعي: "وفي التقديم على العامل سر آخر ، وهو الصلاحية على العطف على ما قبلها لئلا يتوهم من لفظ الابتداع أن لا صنع لله فيها ".[1]

---

(١) نظم الدرر ج٧ ص٤٦٢.

سورة المجادلة

مقصود السورة الإعلام بإيقاع البأس الشديد ، الذي أشارت إليه سورة الحديد بمن حاد الله ورسوله وكذلك الحديث عن أعمال المنافقين الذين استحقوا بسببها ضرب الظلمة عليهم والخلود في المذكورين في سورة الحديد فجاءت سورة المجادلة ذاكرة أسباب ذلك الحكم السابق عليهم .

﴿ وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِن نِّسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَاسَّا ذَلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ • فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِن قَبْلِ أَن يَتَمَاسَّا فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا ذَلِكَ لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾(المجادلة: ٢-٣).

هذا الترتيب في الكفارات هو الترتيب الواجب فيها ، فالإعتاق أولاً ثم الصيام ثم الإطعام، وقد دلت الأحاديث في السنة على اعتبار هذا الترتيب القرآني ، كما ثبت في قصة الذي جامع امرأته في رمضان فقد رواه البخاري عن أبي هريرة ﷺ وفيه { فقال أتجد ما تحرر به رقبة ؟ قال لا قال : فتستطيع أن تصوم شهرين متتابعين ؟ قال : لا قال : أفتجد ما تطعم به ستين مسكيناً ؟ قال ؟ لا قال : فأُتي النبي ﷺ بعرق فيه تمر وهو الزنبيل قال : أطعم هذا عنك قال:على أحوج منا ما بين لابتيها أهل بيت أحوج منا قال فأطعمه أهلك}[(١)]

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَى مِن ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾(المجادلة : ٧) .

بدأ بالعدد القليل قبل الكثير لأنه أخفى منه وأكد ذلك تقدم لفظة **{ أدنى }** على **{أكثر}** في قوله: **{ ولا أدنى من ذلك ولا أكثر }** .

---

(١) البخاري كتاب الصوم رقم ١٨٠١ .

سورة الحشر

لما تحدثت سورة المجادلة عن المنافقين الذين تولوا المشركين وظاهروهم على المسلمين ﴿ **أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْماً غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِم مَّا هُم مِّنكُمْ وَلا مِنْهُمْ وَيَحْلِفُونَ عَلَى الْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ** ﴾(المجادلة : ١٤) جاءت سورة الحشر لتتحدث عن المؤمنين بقسميهم المهاجرين ﴿ **لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَاناً وَيَنصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُوْلَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ** ﴾ (الحشر : ٨) وتحدثت عن الأنصار ﴿ **وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ** ﴾ (الحشر: ٩) ثم تحدثت عن قسم ثالث من المؤمنين الذين لم يدركوا الصحابة ولكنهم يحبون المؤمنين ويخلصون لهم ﴿ **وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالإِيمَانِ وَلا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلاً لِّلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ**﴾ (الحشر : ١٠)

﴿ **وَظَنُّوا أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ اللَّهِ ..**﴾ (الحشر : ٢) .

تقدم الخبر {**مانعتهم**} على المبتدأ {**حصونهم**} ، فأصل الترتيب : وظنوا أن حصونهم مانعتهم من الله، وقد تقدم الخبر هنا للإشعار بتفاوت الظنين ، وأن ظنهم قد قارب اليقين ، فناسب أن يؤتى بما يدل على فرط وثوقهم بما هم فيه فجئ -بمانعتهم مقدماً ، ومفاد التقديم ما فيه من الاختصاص، فكأنه لا حصن أمنع من حصونهم ، وبما يدل على اعتقادهم في أنفسهم أنهم في عزة ومنعة .

﴿ **وَلَوْلا أَن كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْجَلاءَ لَعَذَّبَهُم فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابُ النَّارِ • ذَلِكَ بِأَنَّهُم شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَن يُشَاقِّ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ** ﴾ (الحشر : ٣-٤) .

تقدم الإخبار أولاً بما فعل الله بهم من خزي الدنيا وما ينتظرهم من عذاب الآخرة مع أن حقه التأخير في الذكر بعد الآية التي تلته لكونها بيان

لسبب كل ما سبق وتعليل لما أصابـــهم، وهذا التقديم بذكر العذاب للتشويق، فيتساءل المستمع ولما كل ذلك فيكون الجواب كما ذُكر{ **ذلك بأنـــهم شاقوا الله ورسوله** } ويحدث التمكن في قلب السامع .

﴿**مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ**﴾ (الحشر : ٧) .

بدأ سبحانه بذكر نفسه لما له من حق التقديم في قوله :{ **فلله**}،ثم أتبعه بذكر الرسول ﷺ {**وللرسول**}لأنه أعظم خلقه ، ثم أتبع ذلك بذكر أقاربه وتعظيمهم لأجله { **ولذي القربى** } ولما ذكر أهل الشرف أتبعهم أهل الضعف فقال مقدماً أضعفهم { **واليتامى** }الذين هم أحق الناس بالعطف ثم المساكين { **والمساكين** } لأنـــهم في الضعف يأتون بعدهم ثم الغرباء { **وابن السبيل** } إذ إن ضعفهم عارض وقتي لانقطاعهم عن أوطانـــهم وعشائرهم.

﴿**لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ**﴾ (الحشر : ٨) .

بدأ سبحانه بذكر صفاتـــهم مبتدئاً بالأشرف منها وهو الأخفى الذي لا يعلمه أحد سواه لبيان فضلهم وشرفهم فقال: { **يبتغون فضلاً من الله ورضواناً** }، وهذا طهارة الباطن وتزكية السرائر ثم أتبع ذلك بطهارة الظاهر وتزكية الأعمال بعد ذكر الإخلاص فقال: {**وينصرون الله ورسوله**} ، ثم جاءت الآية التالية تثني على الأنصار الذين تأخر ذكرهم عن المهاجرين لشرف المهاجرين وتقدمهم بسبق الإيمان وقد مر ذلك من قبل .

﴿ **أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِـــهِم الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلاَ نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَداً أَبَداً وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنـــهم لَكَاذِبُونَ** ﴾ (الحشر : ١١) .

لقد جاء الترتيب في هذه الآية موافقاً لترتيب أحداثها في الواقع ، فهي تتحدث عن غزوة بني النضير والتي كان من أسبابـــها حسبما أشارت المصادر أن بني النضير أرادوا قتل رسول الله ﷺ وحضهم قريش على قتاله ودلوهم على عورته ، وعندما صدر منـــهم ذلك طلب منـــهم النبي ﷺ الخروج من المدينة خلال عشرة أيام ، وعندما استعدوا للخروج طلب منـــهم عبد الله بن

أبي بن سلول عدم الخضوع ورفض الخروج ومناهم بالوقوف إلى جانبهم فحاصرهم المسلمون [١].

ولذا أرى أن تقديم الوعد بالخروج معهم إنما هو ترتيب زماني لسير الأحداث وتتابعها وأن وعدهم لهم بالخروج معهم إنما هو من أجل أيقاد نار الحرب بإعلانهم العصيان على طلب النبي ﷺ حيث إن رفضهم للخروج هو بمثابة إعلان للحرب واستعداد للقتال .

قال الأستاذ عبد الكريم الخطيب: " وقدم الإخراج على القتل مع أن القتال هو الذي ينبغي أن يكون أولاً حتى إذا غلبوا على أمرهم أخرجوا وذلك ليكشف عما في عهد هؤلاء المنافقين من كذب ونفاق ..فهم لو كانوا على ولاء حقاً مع إخوانهم هؤلاء لحرضوهم على القتال ، ولقالوا لهم : نحن أولاء معكم بأسلحتنا إذا وقع بينكم وبين محمد قتال: ولكنهم جاءوا إليهم أولاً بالأمر الذي لا يكلفهم شيئاً أكثر من مجرد الكلام ، وما أرخصه في سوق المنافقين فبذلوا لهم القول في سخاء وبلا حساب قائلين: { **لئن أخرجتم لنخرجن معكم ولا نطيع فيكم أحدا أبدا** } ثم رأوا أن هذا القول الذي ألقوا به إلى أسماع إخوانهم الذين كفروا ، هو مجرد كلمة عزاء إذ ماذا يغني القوم إن أخرجوا من ديارهم وأموالهم أن يخرج معهم المنافقون أو لا يخرجوا؟ وهنا يتنبه المنافقون حين نظروا في وجه هذا الكلام الذي ألقوا به إلى القوم ، وحين رأوا أن القوم لم يمسكوا بشيء منه ، وأنهم قد أخرجوا من ديارهم ، أو هم على طريق الإخراج من الديار ..

حين رأى المنافقون ذلك ألقوا إليهم بهذه القولة الزائفة المنافقة {**وإن قوتلتم لننصرنكم**} ولكن كان ذلك بعد فوات الأوان وبعد أن فضح كذبهم ونفاقهم بقولهم أول الأمر { **لئن أخرجتم لنخرجنّ** } ولهذا جاء قوله تعالى: { **والله يشهد إنهم لكاذبون** } تعقيباً على هذه الوعود الكاذبة التي يبذلها المنافقون لإخوانهم بني النضير }[٢].

﴿لاَ يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الجَنَّةِ أَصْحَابُ الجَنَّةِ هُمُ الفَائِزُونَ ﴾ (الحشر: ٢٠) .

---

(١) السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية ص٤١٧-٤١٩

(٢) التفسير القرآني ج٢٨ص٨٦٧.

قال الألوسي : "ولعل تقديم أصحاب النار في الذكر للإيذان من أول الأمر بأن القصور الذي ينبئ عنه عدم الاستواء من جهتـــهم لا من جهة مقابليهم ، فإن مفهوم عدم الاستواء بين الشيئين المتفاوتين زيادة ونقصاناً وإن جاز اعتباره بحسب زيادة الزائد لكن المتبادر اعتباره بحسب نقصان الناقص وعليه قوله تعالى :{**هل يستوي الأعمى والبصير أم هل تستوي الظلمات والنور**} ولعل تقديم الفاضل قوله تعالى:{**هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون**} لأن صفته ملكة لصفة المفضول والإعدام مسبوقة بملكاتها "[1]

وما ذكره **الألوسي** ذكره **القاسمي** منسوباً لأبي السعود [2].

﴿**هُوَ اللَّهُ الَّذِي لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ عَالِمُ الغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ**﴾ (الحشر: ٢٢) .

سبق الحديث عن تقديم الغيب على الشهادة وتقديم الرحمن على الرحيم، ومن أسرار التقديم أيضاً هنا هو أن الرحمن صفة ذات ، والرحيم صفة أفعال ، فهو من باب تقديم الموصوف على الصفة .

﴿ **هُوَ اللَّهُ الخَالِقُ البَارِئُ المُصَوِّرُ لَهُ الأَسْمَاءُ الحُسْنَى يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ العَزِيزُ الحَكِيمُ** ﴾ (الحشر٢٤) .

قدم لفظ الجلالة { **الله** } فمرجع الأسماء الحسنى كلها إليه كما قال تعالى : {**ولله الأسماء الحسنى فادعوه بـــها**} وإنما قدم ذكر الخالق على البارئ لأن ترجيح الإرادة مقدم على تأثير القدرة ،وقدم البارئ على المصور ، لأن إيجاد الذات مقدم على إيجاد الصفات ، وقدم العزيز على الحكيم لأن العزيز هو الذي يغلب كل شئ ولا يغلبه شئ ولا يوجد له مثل وتشتد الحاجة إليه ، ومن كان بـــهذه الصفة لا يتم أمره ويثبت كل ما يريده إلا إن كان على قانون الحكمة والتي تعني الإتقان في الأمر بما لا يمكن نقضه .

---

(١) روح المعاني ج٢٧ص٦١.

(٢) تفسير القاسمي ج٩ ص١٩٥.

سورة الممتحنة

لما أبانت سورة الحشر موقف المشركين والمنافقين من المؤمنين وعدم ادخارهم الوسع في حربهم وتعاهدهم سوياً على محاربة المسلمين جاءت سورة الممتحنة تأمر المؤمنين بعدم مصادقة هؤلاء الذين أظهروا العداء لله ورسوله والمؤمنين .

﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُم مِّنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَن تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَاداً فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي**﴾(الممتحنة: ١) .

تقدم قوله: { **عدوي** } على {**عدوكم**} تقدم سببي لأن عداوة المؤمنين للكفار كانت من أجل عداوتهم لله ، فلذلك قدم ما كان أصلاً في العداوة على ما كان تابعاً لها فرعاً عنها.

كما تقدم قوله:{ **يخرجون الرسول** } على قوله:{ **وإياكم** } تشريفاً لمقام **النبي** ﷺ، فبدأ بأعظم جرمهم وأقبح فعالهم إذ إن إخراج الرسول أكبر عند الله إثماً وأعظم جرماً ولهذا أخبر تعالى عن أنهم لو أخرجوه ما أمهلوا بل لعجل الله بهلاكهم وعذابهم كما في الآية السادسة والسبعين من سورة الإسراء {**وإن كادوا ليستفزونك من الأرض ليخرجوك منها وإذا لا يلبثون خلافك إلا قليلا**} قال مجاهد وقتادة : "نزلت في همِّ أهل مكة بإخراجه، ولو أخرجوه ما أمهلوا ولكن الله أمره بالهجرة فخرج"[(١)].

﴿ **إِن يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاءً وَيَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِالسُّوءِ وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ** ﴾ (الممتحنة : ٢) .

بدأ بذكر أشد صور العداوة المتمثلة في إيصال الأذى بالفعل:{ **ويبسطوا إليكم أيديهم** } ثم بالقول: { **وألسنتهم** } فإن لم يمكن هذا ولا ذاك فبالقلب حيث تمني حدوث الكفر من المؤمنين: {**وودوا لو تكفرون**} ،وقد

---

(١) تفسير القرطبي ج ١٠ ص ١٩٥.

تكون إرادة الشر تلك من السبق الوجودي إذ هي عمل قلبي فالحقد هو الدافع والمحرك الأول لإيصال الأذى الذي يريده العدو من عدوه وتكون قد أفردت بالذكر لأهميتها إذ إن أعدى الأعداء لك من يتمنى أن يفوتك أعز الأشياء لديك وأعز الأشياء عند كل أحد هو دينه فقال متمما لما سبق مفرداً لهذه الصفة الرذيلة {وودوا لو تكفرون} .

﴿.. رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ﴾ (الممتحنة : ٤) .

تقدم ما حقه التأخير وهو الجار والمجرور على ما بعده لإفادة الحصر والاختصاص.

﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴾ (الممتحنة : ٦) .

بدأ بـــهم في قوله: { **لكم** } حيث قدم الجار والمجرور للاهتمام والاعتناء بالتأسي ، ولما بدأ بالأنفع لهم والأقرب إلى صلاحهم وهو وجوب موالاة المؤمنين وعدم خيانتـــهم بسبب العشيرة والأقرباء جاءت الآية التالية كجائزة لما تحقق في الآية السابقة قال تعالى :**﴿ عَسَى اللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْـــهُم مَّوَدَّةً وَاللَّهُ قَدِيرٌ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾**(الممتحنة:٧) .

﴿ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلاَ تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ لاَ هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلاَ هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ ﴾ (الممتحنة : ١٠) .

تقدم قوله:{ **لا هن حل لهم** } على قوله:{ **ولا هم يحلون لهن** } من باب التقدم الزماني حيث إن الأولى تتحدث عن الحاضر حيث قد أسلمت زوجة لمشرك مع بقائه على الشرك ومن ثم تحصل الفرقة ، ولا يجوز استمرار الزوجية.

أما الثانية فتتحدث عن منع الزواج ابتداءً وكذا المنع عن الاستئناف، وهذا إنما يكون في المستقبل ، ولهذا تقدمت الأولى على الثانية .

﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَى أَن لاَّ يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئاً وَلاَ يَسْرِقْنَ وَلاَ يَزْنِينَ وَلاَ يَقْتُلْنَ أَوْلادَهُنَّ وَلاَ يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلاَ يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ فَبَايِعْهُنَّ وَاسْتَغْفِرْ لَهُنَّ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ (الممتحنة : ١٢) .

قال البقاعي: " ولما كان الشرك بذل حق الملك لمن لا يستحقه ، أتبعه أخذ مال الملك بغير حق لاقتضاء الحال لذلك بتمكن المرأة من اختلاس مال

الزوج وعسر تحفظه منها فقال: {**ولا يسرقن**} أي يأخذن مال الغير بغير استحقاق في خفية ، وأتبع ذلك بذل حق الغير لغير أهله فقال: {**ولا يزنين** } أي يمكن أحداً من وطئهن بغير عقد صحيح ولما كان الزنى قد يكون سبباً في إيجاد أو إعدام نسمة بغير حقها أتبعه إعدام نسمة بغير حقه فقال: {**ولا يقتلن أولادهن**} أي بالوأد كما تقدم في النحل وسواء في ذلك كونه من زنى أو لا، ولما ذكر إعدام نسمة بغير حق ولا وجه شرعي أتبعه ما يشمل إيجاد نسمة بغير حل فقال مقبحاً له على سبيل الكناية عنه بالبهتان وما معه بالتصوير له بلوازمه وآثاره لأن استحضار القبيح وتصوير صورته أزجر عنه فقال: {**ولا يأتين ببهتان** } أي ولد من غير الزوج يبهت من إلحاقه به حيرة في نفيه عنه{ **يفترينه**} أى يتعمدن كذبه ، وحقق المراد به وصوره بقوله: {**بين أيديهن**} أي بالحمل في البطون {**وأرجلهن**} أي بالوضع من الفروج ولأن عادة الولد مع أنه يسقط بين يدي أمه ورجليها أنه يمشي أمامها وهذا شامل لما كان من شبهة أو لقطة ، ولما حقق هذه الكبائر العظيمة تعظيماً لأمرها لعسر الاحتراز منها وأكد النهي عن الزنى مطابقة وإلزاماً لما يجر إليه من الشرور القتل فما دونه وغلظ أمر النسب لما يتفرع عليه من إيقاع الشبهات وانتهاك الحرمات ، عم في النهي فقال: {**ولا يعصينك**} أي فرد كان منه صغيراً أو كبيراً ، وفي ذكره مع العلم بأنه ﷺ لا يأمر إلا به إشعار بأنه لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق ،وقدم المنهيات على المأمورات المستفادة من المعروف لأن التخلي عن الرذائل مقدم على التحلي بالفضائل ، لأن درء المفاسد أولى من جلب المصالح "[1].

---

(١) نظم الدرر جـ٧ ص٥٦٦،٥٦٧

سورة الصف

جاءت سورة الصف تهيئ المؤمنين بعد البراءة من المشركين المحاربين للدعوة والمجاهرين بالعداء أن يتخذوا أسباب القوة ويتهيئوا للدفاع عن أنفسهم .

﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَهُوَ العَزِيزُ الحَكِيمُ﴾(الصف: ١).

تقدم تسبيح ما في السموات على تسبيح ما في الأرض في صدر هذه السورة وفي صدر سورة الحديد والحشر والجمعة ، هذا التقديم راجع إلى جملة من الأسباب:

أولاً: سبق تسبيح الملائكة لأنـــهم أسبق وجوداً حيث إن الملائكة مخلوقون قبل الإنس وهذا واضحٌ بينٌ في قصة خلق آدم في القرآن .

ثانياً: كثرة المسبحين والتسبيح في السموات عن المسبحين والتسبيح في الأرض حيث إن السماء مجتمع الملائكة وهم أكثر عدداً و لا يفترون عن التسبيح كما قال تعالى:**﴿وَمَنْ عِندَهُ لاَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلاَ يَسْتَحْسِرُونَ﴾** (الأنبياء : ١٩) وقو له تعالى : **﴿فَإِنِ اسْتَكْبَرُوا فَالَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُمْ لاَ يَسْأَمُونَ﴾** (فصلت : ٣٨).

ثالثاً : إن تسبيح الملائكة إنما هو تسبيح خشية لا يشوبه شئ مما يدخل علي عبادة بني آدم كما قال تعالى: { **وَلاَ يَشْفَعُونَ إِلاَّ لِمَنِ ارْتَضَى وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ** ﴾ (الأنبياء : ٢٨) .

رابعاً : قد يوجد التسبيح في الأرض من الكافر والمنافق والصالح والطالح والطائع والعاصي بينما الملائكة كلهم أهل طاعة ليس بينـــهم عاص كما قال تعالى في وصفهم :**﴿ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴾** (الأنبياء : ٢٦) ومن هذا القبيل تقدم ذكر الساجدين في السماء على الساجدين في الأرض في آيات السجدة في سورتي النحل والحج

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ۝ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ (الصف : ١٠-١١).

تقدم قوله: { **بأموالكم** } لقلة المال في ذلك الزمان ، أو لأن بالأموال قوام الأنفس والأبدان ، أو لأنها أول مطلب من مطالب الجهاد ، فابتدأ به فيكون الأسلوب للترقي من الصعب وهو إخراج المال الذي جبلت النفوس على حبه إلى إخراج النفس أعز ما عند الإنسان إذ ليس فوقها شيء يعطى .

سورة الجمعة

بدأت سورة الجمعة بالتسبيح كسورة الصف وكما أمرت سورة الصف بالاجتماع لقتال من أعلنوا الحرب على المؤمنين جاءت سورة الجمعة تأمرهم بالاجتماع على أمر تعبدي آخر وهو صلاة الجمعة وبيان حال من تخلف عنها بسبب اللهو أو التجارة وأن الثبات في القتال إنما هو لأهل الثبات في مجاهدة النفس بلزوم العبادات وخاصة مع الجماعات ..

﴿ هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِّنْهُم يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُّبِينٍ ﴾ (الجمعة : ٢) .

بين النفس البشرية ومكارم الأخلاق عوارض وصوارف من الأخلاق الذميمة والعادات القبيحة ، فيعيش الإنسان تتجاذبه قوتان ، قوة المادة تجذبه للسفل وإجابة الشهوات الرخيصة وقوة الروح التي تسمو به نحو معالي الهمم ومراقي الشيم ، ويبقى الإنسان أسير إلفه وقيد رهنه وحبسه الذي يقعده عن طلب ما تسمو إليه الروح أو يضعف ويوهن من عزمه إن هو سار ليطلب الأدون منها أو يهملها أو يرجئها ، ومن هنا إن لم يتخلص الإنسان من تلك المعوقات لم يستطع أن يخوض سبيل معالي المهمات ، وسورة الجمعة نزلت بشأن بعض من الصحابة الذين تركوا أهم المطالب الإيمانية بعد الإيمان ألا وهو صلاة الجمعة حيث شغلوا عنها بقافلة التجارة التي وردت إلى المدينة ، وكان أولى بهم ألا يذهبوا عن النبي ﷺ وهو يخطب فيهم مربياً ومعلماً ، ومن ثم ابتدأت السورة في الآية الثانية بالتزكية قبل التعليم ، لأنه بدون إزالة العوائق والأمراض النفسية والذهنية لن يكون هناك محل طيب لتلقي علماً أو الانتفاع بموعظة ، فكلما كثرت الحشائش في أرض القلوب كلما منعت أو أضعفت الماء أن يصل إلى شجرة الهمة والإرادة فلا تنبت ابتداءً أو تذبل سريعاً فلا يظهر لها أثر ، أولا ينضج لها ثمر ، ومن هنا قال علماء السلوك التخلية مقدمة على التحلية .

قال البقاعي: "ولما كان المقام للتنــزيه ولتأديب من وقع في مودة الكفار ونحو ذلك قدم التزكية فقال: { **ويزكيهم** } أي عن الأخلاق الرذيلة والعقائد الزائغة فكانت تزكيته لهم مدة حياته بنظره الشريف إليهم وتعليمه لهم وتلاوته عليهم ... ولما كانوا بعد التزكية التي هي تخلية عن الرذائل أحوج ما يكون إلى تحلية بالفضائل قال: {**ويعلمهم الكتاب**} أي المنــزل عليه الجامع لكل خير ديني ودنيوي في الأولى والأخرى { **والحكمة** } وهي غاية الكتاب في قوة فهمه والعمل به، فهي العلم المزين بالعمل والعمل المتقن بالعلم معقوله ومنقوله ليضعوا كل شئ منه في أحكم مواضعه فلا يزيغوا عن الكتاب كما زاغ بنو إسرائيل "[1].

﴿ وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِماً قُلْ مَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ مِّنَ اللَّهْوِ وَمِنَ التِّجَارَةِ وَاللَّهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴾ (الجمعة: ١١).

قال ابن عطية: "وتأمل أن قدمت التجارة على اللهو في الرؤية، لأنــها أهم وأخرت مع التفضيل لتقع النفس أولاً على الأبين "[2]

وقد ذكر البقاعي نحو قول ابن عطية قال: "ولما قدم التجارة أولاً اهتماماً بــها، قدم هنا ما كانت سبباً له ليصير كل منها مقصوداً بالنهي فقال: { **من اللهو** } ولما بدأ به لإقبال الأغلب في حال الرفاهية عليه قال معيداً الجار للتأكيد: { **ومن التجارة** } أي وإن عظمت."[3]

وقال الدكتور وهبة الزحيلي: " تفنن في العبارة فقدم التجارة أولاً لأنــها المقصود الأصلي، ثم قدم اللهو لأن الخسارة فيما لا نفع فيه أعظم فقدم المهم في كل موضع"[4]

بينما يرى الألوسي أن تقديم اللهو على التجارة لأنه أقوى مذمة فناسب تقديمه في مقام الذم".[5]

---

(١) نظم الدرر ج٧ ص٦٠٣.
(٢) المحرر الوجيز ج١٤ ص ٤٥١.
(٣) نظم الدرر ج٧ ص٦٠٣.
(٤) التفسير المنير ج٢٨ص١٩٤.
(٥) روح المعاني ج٢٧ص١٠٤

سورة المنافقون

لما ختمت سورة الجمعة ببيان حال من تخلف عن صلاة الجمعة وترك الجماعة بسبب اللهو أو التجارة جاءت سورة المنافقون لتحذر من صفات المنافقين لأن ما سبق في سورة الجمعة إنما هو صورة من صور النفاق

﴿ إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ . اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ . ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ . وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِن يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ ﴾ (المنافقون : ١-٤) .

تقدمت الآية الأولى على الثانية مع أنه بعدها في الترتيب الوجودي إذ إن قولهم : {**نشهد إنك لرسول الله**} إنما خرج بعد نفاقهم فهو أسبق وجوداً ، فلماذا تقدم هنا تلاوة ؟

أقول: هذا من باب التشويق لمعرفة الحامل لهم على ذلك الكلام ولماذا قالوه ، فحينئذ ندرك أن الآية الثانية قد جاءت كتعليل لذلك الكذب في تلك الشهادة .

وقد بدأ سبحانه وتعالى بوصف باطنهم إذ هو المحرك الأول الذي دفعهم لكل تلك الأفعال ، وبدأ بخراب الباطن وهو النفاق لعدم الاغترار بجمال الظاهر وهو صحة وجمال الأجسام، ولما وصف الظاهر أتبعه ببيان أن ذلك الظاهر ليس له حقيقة {**كأنهم خشب مسندة**} أخشاب قطعت من مغارسها وقشرت وأسندت إلى الجدر تعجب الناظرين ولا ثبات لها ، ولا ثمرة لها، ولا سقي ولا مدد لها من السماء ، فهم أشباح بلا أرواح وأجسام بلا أحلام .

﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾(المنافقون: ٨).

لما حصر سبحانه العزة هنا بما دل عليها من تقديم المعمول {لله} بدأ سبحانه يبين أنه يعطي العزة لمن أراد وبدأ برسوله ﷺ لأن عزته من عزة الله له بالنبوة وإظهار دينه على الدين كله،ثم العزة للمؤمنين لأيمانـــهم بالرسول ﷺ الذي أرشدهم إلى مصدر عزتـــهم وهو الله سبحانه وتعالى.

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلاَ أَوْلادُكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الخَاسِرُونَ ﴾ (المنافقون : ٩) .

هذه الآية السابقة تحذيرية ، تخوف المؤمنين من الإقبال على الدنيا كلية والاغترار بنعمها ، حتى إذا ما تمكنت الموعظة بـــها ، ورقت القلوب لتخويف ربـــها وخف التعلق بالدنيا ومتعلقاتها أتبع التحذير بالترغيب في الإنفاق فيكون أقرب إلى الإجابة وأدعى لتصدق ومن ثم جاء بعده قوله تعالى:

﴿ وَأَنفِقُوا من مَّا رَزَقْنَاكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ المَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلا أَخَّرْتَنِي إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴾ (المنافقون : ١٠) .

سورة التغابن

ختمت سورة {المنافقون} بصفة العلم والخبرة لله رب العالمين بدأت هذه السورة بالتسبيح وإثبات الملك وتمام القدرة فعلم وخبرة بلا قدرة نقص وتمام ذلك هو إثبات تمام القدرة ولما كان من أسباب هلاك المنافقين هو اغترارهم بنعم الله من نعمة الصحة ﴿ **وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ** ﴾ (المنافقون : ٤) واغترارهم بالأموال ﴿ **هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُوا عَلَى مَنْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّى يَنفَضُّوا** .. ﴾ (المنافقون : ٧) واغترارهم بالأولاد والقوة ﴿**يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ** ...﴾(المنافقون: ٨). جاءت سورة التغابن تأمر المؤمنين بطاعة الله ورسوله والإنفاق في سبيل الله وعدم الاغترار بالأموال والأزواج والأولاد ﴿ **إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَاللَّهُ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ • فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا وَأَنفِقُوا خَيْرًا لِّأَنفُسِكُمْ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ** ﴾ (التغابن : ١٥-١٦).

﴿ **يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ** ﴾ (التغابن : ١) .

تقدم الظرفان في قوله: {**له الملك**} {**وله الحمد**} على معنى الاختصاص أي أن الملك لله لا لغيره وكذلك الحمد ، وهذا لا يعارض بملك غيره سبحانه فالمقصود هنا بالملك هو الملك الحقيقي وليس التملك فهو سبحانه مبدئ كل شئ ومبدعه والقائم به والمهيمن عليه وكذلك الحمد لأن أصول النعم وفروعها منه وأما ملك غيره فتسليط واسترعاء .

لما كانت أعظم الدلائل عليه سبحانه دلائل الآفاق كما قال تعالى: { **سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق** } بدأ هنا أيضاً بذكر دلائل الآفاق العلوية والسفلية ثم أتبعها بذكر دلائل النفس فقال :

﴿ **هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ** ﴾

(التغابن: ٢)

وتقديم {**فمنكم كافر**} على {**ومنكم مؤمن**} للكثرة ونظيره قوله تعالى: {**خافضة رافعة**} وقد مر الحديث عنها في سورة الواقعة ،و لما ذكر سبحانه وتعالى المظروف ذكر ظرفه دالاً على تمام إحاطته بالبواطن والظواهر فقال :

﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴾ (التغابن : ٣) .

ولما ذكر الظرف والمظروف ذكر حالهما فقال: **﴿ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾**(التغابن: ٤).

﴿ اللَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴾ (التغابن : ١٣) .

وتقديم الجار والمجرور هنا لإفادة الاختصاص فلا ينبغي أن يتوكل إلا على الله.

سورة الطلاق

لما تحدثت سورة التغابن عن النساء وأن الرجل قد يفتـــن بالمرأة فيصرف عن الطاعة بسببـــها مع وجوب أخذ الحذر من إتباعهن في معصية الله وما قد ينجم عن ذلك من عداء ، جاءت سورة الطلاق لتبين أن هذا العداء قد يجر إلى الطلاق فبينت أحكام الطلاق وأمرت الرجل بعدم ظلم المرأة فلا تطلق إلا في طهر لم تجامع فيه حتى لا تطول عليها فترة العدة وكذلك عدم إخراج المرأة من البيت أثناء العدة وكذلك لا تخرج هي بنفسها ثم هددت وتوعدت من يفعل ذلك من الرجال بقوله: { **ومن يفعل ذلك فقد ظلم نفسه** }.

﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ وَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ لاَ تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ وَلاَ يَخْرُجْنَ إِلاَّ أَن يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ لاَ تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا ﴾ (الطلاق : ١) .

بدأ الأمر بتقوى الله تعالى ليكون أرجى للاستجابة ثم أتبعها ما يفسرها بعد ذلك {**لا تخرجوهن من بيوتـــهن ولا يخرجن**} وقد تقدم قوله: {**لا تخرجوهن**} على قوله:{ **ولا يخرجن**} وهذا التقديم من باب البداءة بأعظم الأمرين إثماً لما فيه من معصية الله بمخالفة أمره وهذا تعد على حق الله وكذلك تعديه على حق العباد بظلم المرأة وإجبارها على الخروج وكذلك تقدمت الآية الأولى على الآية الثانية تقدماً وجودياً ولما حد سبحانه وتعالى ما يفعل في العدة أتبعه ما يفعل بعد انقضائها فقال:

﴿فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ..﴾ (الطلاق:٢).

بدأ بقوله: {**فأمسكوهن**} وتقدم على قوله {**فارقوهن**} مع أن -أو- للتخيير لأن الإمساك وعدم الفراق بالطلاق أحب إلى الله فبدأ بأحب الأمرين إليه سبحانه.

سورة التحريم

لما تحدثت سورة الطلاق عن أحكام الطلاق جاءت سورة التحريم لتبين عظم أخلاق النبي ﷺ مع نسائه وفيه تنبيه للغير من الرجال بملازمة باب الأدب ومصاحبة الصبر والتحلي بسماحة الأخلاق وكذلك تأديب للنساء بملازمة حسن المعاشرة مع أزواجهن والنهي عن المكر وإفشاء الأسرار فكل ذلك من أسباب وقوع الطلاق ، مع ضرب المثل بامرأتين من الكافرات عصتا زوجيهما وامرأتين من المؤمنات وهما امرأة فرعون ومريم بنت عمران للتأسي بــــهما .

﴿ إن تَتُوبَا إِلَى اللَّه فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا وَإِن تَظَاهَرَا عَلَيْه فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ ﴾ (التحريم : ٤) .

بعد أن ذكر تعالى أنه المعين لنبيه ﷺ ومولاه الحق وناصره ومظهره على كل من ناصبه العداوة ، ذكر من يعينه من مخلوقاته وأولهم وأفضلهم هنا هو جبريل - عليه السلام- لما أتاه من القوى وزاده بسطة في الخلق ، فهو خير ناصر بعد الله عز وجل لرسول الله ﷺ ، فقدم جبريل لأنه أعظم وأشد بلاءً في الدفاع عنه مع منــــزلته الرفيعة عند الله تعالى ، ثم أتبعه بصالح المؤمنين ، وقدمهم في الذكر على الملائكة مما يشعر بأفضليتــــهم عليهم وهذا ما تفيده أيضاً لفظة **{بعد}** .

﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهد الْكُفَّارَ وَالْمُنَافقينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ٠ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً لِّلَّذينَ كَفَرُوا امْرَأَةَ نُوحٍ وَامْرَأَةَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْــهما مِنَ اللَّهِ شَيْئاً وَقِيلَ ادْخُلا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ ٠ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً لِّلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَةَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِندَكَ بَيْتاً فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ٠وَمَرْيَمَ ابْنَةَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّــها وَكُتُبِهِ وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ﴾ (التحريم : ٩-١٢) .

تقدم ضرب المثل للكافرين قبل ضرب المثل للمؤمنين حيث تقدم ذكر امرأة نوح وامرأة لوط على امرأة فرعون ومريم بنت عمران ، وهما من

المؤمنات بينما الأوليان كافرتان ، وذلك التقديم يعود إلى أن ذكرهما معاً قد جاء مجملاً في آية واحدة وقعت بعد أمر الله نبيه ﷺ بجهاد الكفار والمنافقين والغلظة عليهم ، وبيان سوء مصيرهم فكان هذا أنسب لمناسبة السياق من حيث التلاحم والتناسب ولما ضرب المثل للمؤمنين بذكر امرأة فرعون خصها تعالى بآية كاملة فصل فيها حسن عاقبة تلك المرأة وثباتها بالرغم من تعرضها لفتنة فرعون ولجوئها إلى الله تعالى تطلب منه الهدى والسداد والنجاة وكذلك فعل تعالى مع مريم بنت عمران التي أحصنت فرجها وصدقت بكلمات ربـــها وكتبه وكانت من القانتين فكان ذكرهما خاتمة حسنة للسورة تبهج النفس وتشحذ العزيمة ولتكون ألصق بالذهن وقد روعي الترتيب الزمني مع مَثل الكافرين ومَثل المؤمنين فقد تقدم ذكر امرأة نوح على امرأة لوط وفي مثل المؤمنين تقدم ذكر امرأة فرعون على مريم مع كون مريم أفضل منها التي طلبت من ربــها القرب من رحمته وكان ذلك أهم عندها فقدمت الظرف وهو {**عندك**} ثم بينت مكان القرب فقالت في الجنة .

قال أبو حيان : " وقال بعض الظرفاء وقد سئل : أين في القرآن مثل قولهم الجار قبل الدار؟ قال : قوله تعالى { **ابن لي عندك بيتاً في الجنة**} فــ{ **عندك**} هو المجاورةو{ **بيتاً في الجنة** } هو الدار "[1].

أقول: وهناك تقديم آخر لم يلتفت إليه وهو تقديم النجاة من فرعون على النجاة من القوم الظالمين فبدأت بطلب النجاة من الذي ظلمه واقع بــها على ما لم يقع بعد أو بدأت بطلب النجاة من الأشد ظلماً إذ لم يعلم من هو أشد منه ظلماً في عصره .

(١) البحر المحيط جـ٨ ص٢٩٠.

سورة الملك

لما كان في آخر سورة التحريم عظيم العبرة لامرأتين كانتا تحت عبدين صالحين قد بعثهما الله رحمة لعباده فحرم الهداية بنورهما أقرب الناس إليهما وأكثر الناس مشاهدة لمعجزاتـــهما ، فلم يغنيا عنـــهما من الله شيئاً ، ثم أعقبت هذه العظة نقيض حالها وهو ذكر امرأة فرعون التي لم يفتنها فرعون بسلطانه ولا القرب منه والأنس به من قبل لما ذاقت لذة الإيمان ، وكذلك مريم بنت عمران التي اصطفاها الله ورباها بعين اصطفائه ليعلم العاقل أن القلوب بيد الله العزيز الوهاب فهو صاحب الملك يؤتيه من يشاء ، ولذا ابتدأت سورة الملك بقوله:

﴿ **تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ** ﴾ (الملك : ١).

تقدم الجار والمجرور { **بيده** } على المسند إليه { **الملك** } لإفادة الاختصاص أي أن الملك لله وحد لا بيده لا بيد غيره .

وكذلك تقديم المضاف والمضاف إليه { **كل شئ** } على متعلقه {**قدير**} لإفادة الاهتمام.

﴿ **وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّـــهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ** ﴾(الملك : ٦) .

تقدم الجار والمجرور { **وللذين كفروا** } للتشويق لمعرفة المسند إليه اهتماماً بذلك المسند {**عذاب جهنم**} .

﴿**وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ** ﴾(الملك : ١٠).

تقدم السمع هنا على العقل مع أن العقل أشرف وأهم ، وهذا التقديم من باب تقديم الوسائل على الغايات ، فالسمع وسيلة والعقل هو الغاية من وراء هذه الوسائل .

﴿**إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّـــهُم بِالْغَيْبِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ**﴾(الملك: ١٢) .

قدمت المغفرة على الأجر لأن التخلية مقدمة على التحلية ، وكذلك أفاد التقديم دخول الطمأنينة على قلوبـــهم لإذهاب وجل القلب من المؤاخذة بالذنب ثم أعقب ذلك التبشير بالأجر الكبير .

﴿ **وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ** ﴾(الملك : ١٣) .

قال المراغي: "وقدم السر على الجهر للإيذان بافتضاح أمرهم ووقوع ما يحذرون على كل حال أسروا أو جهروا ، ولأن مرتبة السر مقدمة على مرتبة الجهر فما من شيء يجهر به إلا وهو أو مبادئه مضمر في النفس" .[1]

﴿ أَأَمِنتُم مَّن فِي السَّمَاءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ الْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ. أَمْ أَمِنتُم مَّن فِي السَّمَاءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ ﴾ (الملك : ١٦-١٧).

قال صاحب درة التنـــزيل :" للسائل أن يسأل عن تقديم التوعد بالخسف على التوعد بالحاصب ، وهل كان يختار التوعد بتقديم الحاصب على الخسف ، أم لم يجز في الاختيار إلا ماجاء عليه الوعيدان في الآيتين ؟

والجواب أن يقال : لما كانت الأرض التي خلقها الله لهم ومهدها لاستقرارهم يعبدون عليها غير خالقها ، ويعظمون عليها الأصنام التي هي من شجرها أو حجرها ، خوفهم بما هو أقرب إليهم من الأشياء التي أهلك بـــها من كان قبلهم ، الآية الثانية تخويف بالحاصب من السماء وهي التي لا يصعد إليها الطيب من كلامهم ولا الحسن من عملهم إلا سيئات أفعالهم ونتائج ما كتب عليهم ، وتلك حالة ثانية ، فذكر في الثانية "[2].

أقول: وهذا توجيه منه حسن وهناك توجيه آخر أراه ، فالتخويف هنا لكونـــهم على الأرض وأنـــها أقرب إليهم من السماء وتوقع العذاب من الأرض أقرب في التحقق وأبعد عن مظنة النجاة بينما عذاب السماء قد يظن معه النجاة في الملاجئ أو المغارات .

﴿ قُلْ هُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾ (الملك : ٢٤) .

تقديم الجار والمجرور { **إليه** }على متعلقه { **تحشرون** } لإفادة الاختصاص ، ونظيره تقديم الجار والمجرور{ **عليه** } على متعلقه { **توكلنا** } في قوله تعالى :**﴿ قُلْ هُوَ الرَّحْمَنُ آمَنَّا بِهِ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا ﴾** (الملك : ٢٩) .

﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سِيئَتْ وُجُوهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَقِيلَ هَذَا الَّذِي كُنتُم بِهِ تَدَّعُونَ ﴾ (الملك : ٢٧).

وتقديم الجار والمجرور { **به** } على متعلقه { **تدعون** } للاهتمام ولما فيه من حسن الفاصلة .

---

(١) تفسير المراغي ج١٩ ص١٤.

(٢) درة التنــزيل ص٢٨٣.

سورة القلم

لما تحدثت سورة الملك عن الكافرين وتهديدهم بعدم المانع لعذاب الله إن أصابهم به جاءت سورة القلم لتبين حال أولئك الذين عاقبهم الله بعذابه في الدنيا فأرسل على جنتهم حاصباً فأصبحوا يقلبون أيديهم تحسراً وندماً ، ولما سأل الكفار متى يأتي يوم القيامة جاءت سورة القلم لتبين صفة ذلك اليوم الذي يسألون عنه ﴿ **يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ . خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ وَقَدْ كَانُوا يُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ وَهُمْ سَالِمُونَ** ﴾ (القلم : ٤٢-٤٣) .

﴿ **مَا أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ** ﴾ (القلم : ٢) .

في هذه الآية جواب لسؤال متأخر في آخر السورة في قوله تعالى : ﴿ .. **وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ . وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ** ﴾ (القلم : ٥١-٥٢) .

جاء الترتيب هنا في غاية الإحكام حيث بدأت السورة بتقديم تبرئة النبيﷺ مما نسبوه إليه زوراً وبهتاناً من الجنون لتأكيد النفي القاطع بما يأتي ذكره مما نسب إليه ، وقد تقدم هنا أيضاً ذكر العلة التي من أجلها اتهم ﷺ بالجنون وهي نعمة الرسالة لتكون العلة نفسها التي اتهم من أجلها هي عين الدليل القاطع بالبراءة مما نسب إليه ، فهذه النعمة لا يختص بها إلا أعقل الناس وأرجحهم رأياً وأصوبهم فكراً، وكذلك هنا سر آخر في التقديم وهو نفي الجنون عنه كلية ، لأن الاتهام إنما حصر بسبب تلك النعمة ، ولو جاء الأسلوب على تقدير [**ما أنت بمجنون بنعمة ربك**] لاحتمل أن يكون مجنوناً بغير النعمة من الأسباب الأخر .

﴿ **هَمَّازٍ مَّشَّاءٍ بِنَمِيمٍ** ﴾ (القلم : ١١).

التقديم هنا بالرتبة فالهماز هنا هو المغتاب ، وهو لا يفتقر إلى مشي ، بخلاف النميمة فإنها تفتقر إلى نقل الحديث من شخص إلى شخص إما بالمشي إليه أو بذل الجهد لتوصيل ذلك إليه وما كان مجردا فهو سابق في الرتبة على ما كان له تعلقات بغيره.

﴿ وَغَدَوْا عَلَى حَرْدٍ قَادِرِينَ ﴾ (القلم : ٢٥) .

وتقديم الجار والمجرور {على حرد} على متعلقه { قادرين } لإفادة الحصر أي أنـــهم في خروجهم لم يكن حال قدرتـــهم إلا الحنق والغضب .

﴿ إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِندَ رَبِّـــهِم جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴾ (القلم : ٣٤) .

تقدم المسند { للمتقين } على المسند إليه { جنات النعيم } لبيان شرفهم وفضلهم ، وكذلك ما فيه من التشويق لذكر جزائهم .

﴿ أَمْ عِندَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ ﴾ (القلم : ٤٧)

تقديم الخبر { عندهم } على المبتدأ { الغيب} لإفادة الاختصاص أي أن علم الغيب عنده سبحانه لا عند غيره .

سورة الحاقة

لما قدم سبحانه في سورة القلم الإنكار الشديد أن يسوي المحسن بالمسيء وذكر القيامة وأحوالها وختم بأن القرآن تذكير ومواعظ للعالمين وكان تأويل ذلك وظهور آثاره إنما يكون في يوم القيامة قال واصفاً إياها ومحذراً منها ﴿ **الْحَاقَّةُ** ﴾. (الحاقة : ١) .

﴿ **سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُوماً** ﴾ (الحاقة : ٧).

ابتدأ بذكر الليالي هنا لأن العذاب والمصائب في الليل أفظع وأقبح وأشنع ولما في ظلمة الليل من الرهبة وقلة المغيث وفجأة البلاء عند الراحة أو النوم .

﴿ **فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ ٠وَحُمِلَتِ الأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً ٠فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ٠ وَانشَقَّتِ السَّمَاءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ** ﴾ (الحاقة : ١٣-١٦).

لما ذكر ما يحدث من تأثير في الخلائق بعد نفخة الصور بدأ بذكر السفليات {**وحملت الأرض والجبال فدكتا دكة واحدة** } لأنـــها هي الملابسة للإنسان فتكون عبرته بـــها أكثر .

﴿ **وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ** ﴾ (الحاقة : ١٧)

أصل الترتيب ويحمل عرش ربك ثمانية فوقهم يومئذ وإنما تأخر الفاعل للتشوق إلى ماهيته فيكون ألصق بالذهن ليقع التعجب من العدد المذكور أو للإشعار بعظمتـــهم المستفادة من تقديم{ **فوقهم**} التي يفيد فوقية العلو والقدرة والقوة .

﴿ **مَا أَغْنَى عَنِّي مَالِيَهْ ٠هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَهْ** ﴾ (الحاقة : ٢٨-٢٩) .

تقدم ذكر المال على السلطان لأن الغالب على أحوال الناس اعتقادهم أن إغناء الله إياهم بالمال كان لفضيلتـــهم وشرفهم على غيرهم ، ولهذا استنكروا أن يكون الرسول من غير الأغنياء كما قال تعالى :﴿ **قَالُوا أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ الْمَالِ** ﴾ (البقرة : ٢٤٧).

وكما قال تعالى : ﴿ **وَقَالُوا مَا لِـــهَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الأَسْوَاقِ لَوْلا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيراً ٠أَوْيُلْقَى إِلَيْهِ كَنزٌ**

أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلاَّ رَجُلاً مَسْحُورا ﴾ (الفرقان : ٧-٨).

والسبب الآخر لتقديم المال هو أنه السبب الأول للإلـــهاء والبعد عن واجبات الطاعة لما جبل عليه الإنسان من حبه له﴿**وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُباً جَماً**﴾(الفجر : ٢٠) أو لطغيانه به ﴿ **كَلاَّ إِنَّ الإِنسَانَ لَيَطْغَى. أَن رَّآهُ اسْتَغْنَى** ﴾ (العلق : ٦-٧) .

﴿ **ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ .ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعاً فَاسْلُكُوهُ** ﴾ (الحاقة : ٣١-٣٢).

يرى الزمخشري أن التقديم للتخصيص أي لا تصلوه إلا في الجحيم ولا تسلكوه إلا في هذه السلسلة[١].

وأقول: وقد يكون سبب التقديم للبداءة بما يسؤهم مع حسن الفاصلة[٢] .

(١) الكشاف ج٤ ص٥٩٢

(٢) البحر المحيط ج٨ ص٣٢٧

سورة المعارج

جاءت سورة المعارج لمزيد من بيان صفة ذلك اليوم الذي ذكرته سورة الحاقة فذكرت طوله وحال المجرم الذي يود أن يفتدي بكل شئ من النار ﴿ **يَوَدُّ الْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ بِبَنِيهِ • وَصَاحِبَتِهِ وَأَخِيهِ • وَفَصِيلَتِهِ الَّتِي تُؤْوِيهِ • وَمَن فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً ثُمَّ يُنجِيهِ** ﴾(المعارج : ١١-١٤).

﴿ **تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ** ﴾ (المعارج : ٤).

تقدم ذكر الملائكة على ذكر جبريل وأخرت عنه في قوله تعالى: ﴿ **يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفّاً** ﴾ (النبأ : ٣٨) أشار إلى ذلك أبوحيان دون أن يذكر السبب[١] .

وأقول: إن تقدم جبريل في سورة النبأ لبيان شدة ذلك اليوم وخضوع الكل لله رب العالمين وبدأ بأقربــــهم من الله عز وجل وهو جبريل لبيان هيبة الموقف وأخر في سورة المعارج لأن الآية السابقة تتحدث عن عروج الملائكة إلى ربــــها فناسب ذكرها جملة ثم خص جبريل بالذكر لشرفه .

﴿ **يُبَصَّرُونَــــهُمْ يَوَدُّ الْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ بِبَنِيهِ • وَصَاحِبَتِهِ وَأَخِيهِ • وَفَصِيلَتِهِ الَّتِي تُؤْوِيهِ • وَمَن فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً ثُمَّ يُنجِيهِ** ﴾ (المعارج:١١-١٤).

ولما كان السياق للافتداء ، بدأ بأعزهم في ذلك بخلاف ما سوف يأتي في سورة عبس فقال: {**ببنيه**} لشدة ما يرى ، ولما ذكر ألصق الناس بالفؤاد وأعز من يلزمه لنصره والذب عنه ، أتبعه ما يليه في الرتبة والمودة وما الافتداء به لاسيما عند العرب من أقبح العار فقال: {**وصاحبته**} أي زوجته التي يلزمه الذب عنها والكون دائما معها لكونــــها عديلة روجه في الدنيا ، ولما ذكر الصاحبة لما فيها من تمام الوصلة أتبعها الشقيق الذي لا يلزم من الذب عنه ما يلزم من الذب عن الحريم فقال :{**وأخيه**} ولما كان من بقي من الأقارب

---

(١) التفسير القرآني ج٢٩ ص١١٦٤،١١٦٦.

بعد ذلك متقاربين في الرتبة ذكر أقربــيهم فقال. {**وفصيلته**} أي عشيرته الذين هم أقرب من فصل عنــهم { **التي تؤويه** } ثم ذكر الأبعد فقال: { **ومن في الأرض جميعاً ثم ينجيه**}.

وقد أحسن **الأستاذ عبد الكريم الخطيب** التصوير لــهذا المشهد المهيب في يوم القيامة وهو يتحدث عن أسرار التقديم والتأخير في هذه الآيات فقال: " إن الإنسان هنا في فم الهلاك ، وفي دائرة العذاب المطبق عليه وإن لذعة العذاب لتخرج الإنسان عن نفسه،وتجعل أعضاءه – في متدافع هذا العذاب – يرمي بعضها بعضاً ويتقي بعضها ببعض إنه لاشيء يحرص عليه الإنسان هنا . إن أقرب شيء إليه وأعزه إلى نفسه ليقدمه في غير وعي ليدفع به هذا العذاب الذي يأكله كما تأكل النار الحطب إنه لا يملك غير نفسه وقد احتواها العذاب فهل يحرص بعد هذا على شيء ؟

إنه يود أن لو كان بين يديه أبناؤه إذن لاتقى بــهم هذا العذاب ولجعلهم دريئة له يتلقون عنه ألسنة اللهب ووهج السعير ..

ويود إذ يرمي بأبنائه في جهنم ثم لا يجد فيهم غناء ، يمد يده إلى من هم أبعد إليه منــهم إنها صاحبته ، أي زوجه وأم بنيه ثم هي زوج وصاحبة معاً قد سكن إليها وتعلق قلبه بــها وليست مجرد زوجة .

ثم ماذا ؟ إنــها لم تغن عنه شيئاً وهاهو ذا يمد يده إلى من هم أبعد من بنيه وصاحبته إلى أخيه ثم إلى أهله وعشيرته ثم إلى كل من تطوله يده من قريب أو بعيد ثم لا يزال هكذا حتى يأتي على كل ما في الأرض من أنفس ومتاع ..

إن هذا الترتيب المتتابع في تقديم ضحايا الفداء ، لا يمكن أن يقع على هذا الوجه إلا بحساب دقيق محكم لاتجاهات النفس ،وإلا بتقدير واقعي لارتباطها الشعوري بكل ضحية يضحي بــها في هذا المقام .وقد يبدو غريبا – في ظاهر الأمر – أن يقدم الإنسان أول ما يقدم للفداء والتضحية أعز شيء لديه وهم أبناؤه وقد كان المتوقع أن يضن بــهم وأن يجعلهم آخر سهم يرمي به في وجه هذا الهلاك الذي يحتويه .

هذا الحساب إنما يجري على هذا الوجه حين تكون الأمور على ما ألف الناس وحين يكون في الأمور شيء من السعة ، ولو كان بمقدار سم الخياط أما والعذاب هو عذاب جهنم فإن المعايير تختل والموازين تضطرب "[1].

﴿ إِنَّ الإِنسَانَ خُلِقَ هَلُوعاً • إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعاً •وَإِذَا مَسَّهُ الخَيْرُ مَنُوعاً• إِلاَّ الْمُصَلِّينَ • الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلاتِــهم دَائِمُونَ • وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌ مَّعْلُومٌ •لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ ﴾ (المعارج : ١٩-٢٥).

تقدمت الصلاة على كل الصفات في الآيات التاليات لأنـــها الركن الأول من الأركان التي قام عليها الإسلام ، فهي الركن الثاني بعد التوحيد ، وفي هذا يقول الله تعالى: **﴿ إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلاَةَ لِذِكْرِي ﴾** (طه : ١٤) . ثم تأتي الصفة التالية وهي إيتاء الزكاة وهي قوله تعالى:{ **والذين في أموالهم حق معلوم •للسائل والمحروم** } وهذا الترتيب للأهمية ، فالصلاة حق الخالق ، والزكاة حق المخلوق ، فكان الابتداء بحق الخالق أولى ،وقد جمع الله سبحانه وتعالى بين الصلاة والزكاة في سبعة وعشرين موضعاً من القرآن الكريم ، والتزم القرآن الكريم تقديم الصلاة على الزكاة في كل موضع اجتمعا فيه ، وكذلك التزم هذا الترتيب في السنَّة ، حيث تقدمت الشهادتان على الصلاة وتقدمت الصلاة على الزكاة ،وفي صحيح مسلم حديث واضح بين عن أن هذا الترتيب والتقديم والتأخير في الذكر أمر مقصود لذاته التزمه الصحابة ونقلوه بنسقه لعلمهم بأهميته وما يترتب عليه من أحكام عن ابن عمر – رضي الله عنـــهما – عن النبي ﷺ قال: { **بني الإسلام على خمسة على أن يوحد الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وصيام رمضان والحج** } فقال رجل : الحج وصيام رمضان قال : لا صيام رمضان والحج هكذا سمعته من رسول الله". وفي تقديم الصلاة على الزكاة تنبيه على أن الصلاة هي التي تخلق في الإنسان عواطف الرحمة ومشاعر الإحسان فحينئذ يجود بماله للخلق بعد أن استجاب وخضع واستسلم للحق .

﴿ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ • إِلاَّ عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُــهم فَإِنَّــهمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴾ (المعارج : ٢٩-٣٠) .

---

(١) صحيح مسلم ج١ ص٢٤٧ باب أركان الإسلام ودعائمه العظام.

تقدم ذكر الأزواج لشرفهن .

﴿ فَمَالِ الَّذِينَ كَفَرُوا قِبَلَكَ مُهْطِعِينَ ﴾ (المعارج : ٣٦) .

تقدم الظرف { **قبلك** } على {**مهطعين**} للاهتمام به لأن التعجب من حالهم في حضرة النبي ﷺ أشد لما فيه من سوء الأدب ونـــهاية الوقاحة.

سورة نوح

جاءت سورة نوح في تمام المناسبة لآخر المعارج التي أقسم الله فيها على قدرته بإهلاك المنذرين وتبديل خير منــــهم ومن القدرة على إيجاد يوم القيامة **﴿ فَلاَ أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ إِنَّا لَقَادِرُونَ ٠ عَلَى أَن نُّبَدِّلَ خَيْراً مِّنْــهم وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ٠ فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّى يُلاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ ٠ يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الأَجْدَاثِ سِرَاعاً كَأَنـــهم إِلَى نُصُبٍ يُوفِضُونَ ٠ خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ذَلِكَ الْيَوْمُ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ ﴾** (المعارج : ٣٩-٤٤)، فجاءت سورة نوح لبيان مثال مما فعله الله بــــهؤلاء المنذرين الذين أهلكهم الله وأبدل خيراً منــــهم .

﴿ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾ (نوح : ٢).

تقدم الجار والمجرور { **لكم** } على عامله { **نذير**} للاهتمام بأن النذارة والتخويف لهم لا لغيرهم .

﴿ فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّاراً ٠يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَاراً ٠ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَاراً﴾(نوح : ١٠-١٢).

بدأ بذكرعاقبة التوبة في الآخرة لأنه هو المقام الأشرف والغاية العظمى بقوله:{ **إنه كان غفارا**} ،ثم ثنى بذكر عاقبة الاستغفار في الدنيا ، وبدأ فيه بالأهم وهو الماء الذي به حياة كل شئ ، فبدأ بـــ{ **يرسل السماء عليكم مدرارا** } وهو نظير قوله تعالى: في سورة الجن **﴿ وَأَن لَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لأَسْقَيْنَاهُم مَّاءً غَدَقاً ﴾** (الجن : ١٦).

﴿مِمَّا خَطِيئَاتِـــهم أُغْرِقُوا فَأُدْخِلُوا نَاراً فَلَمْ يَجِدُوا لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ أَنصَاراً ٠وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لاَ تَذَرْ عَلَى الأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّاراً﴾(نوح: ٢٥-٢٦).

تقدم الخبر بإهلاك قوم نوح مع أنه كان بسبب دعائه عليهم بقوله: **﴿ رَّبِّ لاَ تَذَرْ عَلَى الأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّاراً ﴾** (نوح:٢٦) فجاء الترتيب هنا على عكس ماحدث في الواقع وقدم الخبر هنا إما للاهتمام بتعظيم هذا الرسول فى إجابة دعوته تحذيراً للعرب أن يخرجوا رسولهم ﷺ فيضطروه إلى

مثل ذلك ، وقد يكون أيضاً لمناسبة ما قبله وهو أمره بالاستغفار وما ينشأ عنه من خير آجل وعاجل ثم أتبعه ذكر الخطيئات وما يتبعه من النقمات والبليات.

﴿ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِناً وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَلاَ تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلاَّ تَبَاراً ﴾ (نوح : ٢٨) .

التقديم هنا للاهتمام والاعتناء فابتدأ بنفسه ثم بأقرب الناس إليه وهما والداه ثم أهله وذويه المؤمنين وعبر عنــهم بمن دخل بيته ثم عمم المؤمنين والمؤمنات ثم بالدعاء على الكفرة .

سورة الجن

لما كانت السورة السابقة عن أول رسول أرسله الله إلى الأرض وهو نبى الله نوح -عليه السلام- وقد دعا قومه في أوقات مختلفة وأزمان مديدة و لم يؤمن به إلا القليل جاءت سورة الجن عن آخر رسول إلى الأرض وهو محمد ﷺ وأظهرت فضل الجن الذين استمعوا لفترة وجيزة للقرآن وبدون دعوة من النبي ﷺ وفيها أيضا إظهار التشابه بين كفرة نوح وكفرة العرب الذين سبقهم الجن بالإسلام من غير دعوة وصدودهم عن الإسلام مع جهاد الدعوة .

﴿ قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآناً عَجَباً • يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَداً • وَأَنَّهُ تَعَالَى جَدُّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَداً • وَأَنَّهُ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى اللَّهِ شَطَطاً ﴾(الجن: ١-٤).

بدأ الجن بذكر القرآن من جهة فضله وإعجازه {**قرآناً عجباً**} ثم بينوا المقصود بالذات فقالوا {**يهدى إلى الرشد**} ولما حصل لهم من القوة العقلية والعلمية ما استفادوه من العلم بالقرآن الكريم وما ينبغي لله رب العالمين ترجموا هذا العلم إلى العمل فقالوا: { **ولن نشرك بربنا أحداً** } ولما أظهروا العلم والعمل بدءوا في الدعاء إلى الله بقوة البيان { **وأنه تعلى جد ربنا ما اتخذ صاحبة ولا ولداً** } ولما وصفوه تعالى بالتعالي عن الشريك والولد والصاحبة وصفوا من قال بضد ذلك صيانة لدينـــهم وبراءة منـــهم { **وأنه كان يقول سفيهنا على الله شططاً** } وفي هذه الآية تقدم الجار والمجرور { **على الله** } على المفعول به ، وهذا التقديم أفاد التعجب أن يقال على الله شططا لما له من صفات الكمال ونعوت الجلال وأن هذا الأمر قد يجوز على غيره أما هو فهذا عين الاستغراب ولذا قدم لفظ الجلالة .

﴿وَأَنَّا ظَنَنَّا أَن لَّن نُّعْجِزَ اللَّهَ فِي الْأَرْضِ وَلَن نُّعْجِزَهُ هَرَباً﴾(الجن : ١٢).

قال صاحب التحرير: "لما كان شأن الصلاح أن يكون مرضيا عند الله سبحانه وتعالى وشأن ضده بعكس ذلك كما قال تعالى: { **والله لا يحب الفساد** } أعقبوا لتعريض الإقلاع عن ضد الصلاح بما يقتضى أن الله قد أعد لغير الصالحين عقابا فأيقنوا أن عقاب الله لا يفلت منه أحد استحقه وقدموه على الأمر بالإيمان الذي في قوله: { **وأنا لما سمعنا الهدى** } لأن درء المفاسد مقدم على جلب المصالح والتخلية مقدمة على التحلية "[1].

---

(١) التحرير والتنوير ج٢٩ص٢٣٣

سورة المزمل

لما جاء في آخر سورة الجن أن من تعظيم الوحي وأن من تعظيمه حفظ المرسل به من جميع الآفات العائقة للقيام بالإبلاغ ومن هذه الأسباب قطع الراحة المفضية لعدم القيام بأعباء الرسالة حق قيام فجاء في أول سورة المزمل **﴿يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ ٠قُمِ اللَّيْلَ إِلاَّ قَلِيلاً ٠ نِّصْفَهُ أَوِ انقُصْ مِنْهُ قَلِيلاً ٠ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلاً ٠ إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلاً ثَقِيلاً٠ إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئاً وَأَقْوَمُ قِيلاً ٠ إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْحاً طَوِيلاً ﴾** (المزمل : ١-٧) .

بدأ بالأمر بقيام الليل وقدر وقته وعينه ، ثم أمر بترتيل القرآن ، وذلك كله صلاح الدين الذي عصمة الأمر به ، وأتبع ذلك ببيان فضائل قيام الليل فلما ذكر ما يكون به صلاح الدين ، وقدمه لشرفه ذكر بعد ذلك ما يكون به صلاح الدنيا التى فيها المعاش ليحصل منها على الرزق الذي يعينه على أمر دينه ويوسع به على عيال الله فقال:{ **إن لك في النهار سبحاً طويلاً** } .

﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَى مِن ثُلُثَيِ اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ وَطَائِفَةٌ مِّنَ الَّذِينَ مَعَكَ وَاللَّهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَى وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ اللَّهِ﴾ .

تقدم اسمه عز وجل في قوله: { **والله يقدر الليل والنهار** } على معنى الاختصاص بالتقدير فما مقدر لهما إلا هو ، كما فيها التشريف بالبداءة بذكر اسمه الكريم ، كما تقدم الليل النهار فى الذكر هنا لأن قيام الليل والذكر فيه أفضل من النهار ، كما أنه هو المسبوق بالتحدث فى الآية الكريمة ، إذ مدار الآية حول العبادة فى الليل فناسب أيضاً البداءة به .

بدأ هنا بعذر المريض لكونه أعم ولا قدرة للمريض على دفعه ، ثم أتبعه بالسفر للتجارة لأنه يليه فى العموم .

سورة المدثر

لما ختمت المزمل بالبشارة لأرباب الأعمال الصالحة بالتوبة ومغفرة الذنوب افتتحت هذه السورة بمهمة الرسالة وهي الإنذار لغير المؤمنين ،وقد تشابـــهت السورتان فى بداية كل منـــهما بتوجيه الخطاب للنبيﷺ وكذلك تشابـــهت السورتان فى الأمر الخاص بالنبي ﷺ ففي المزمل { **يا أيها المزمل**} وفي المدثر { **يا أيها المدثر** } وقوله تعالى:﴿ **قُمِ اللَّيْلَ إِلاَّ قَلِيلاً. نِصْفَهُ أَوِ انقُصْ مِنْهُ قَلِيلاً** ﴾(المزمل : ٢-٣) وفي المدثر﴿ **قُمْ فَأَنذِرْ .وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ** ﴾ (المدثر: ٢-٣) أتبعت الأولى ﴿ **وَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْراً جَمِيلاً**﴾ (المزمل : ١٠) وفي المدثر أتبعت بقوله: ﴿ **وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ** ﴾(المدثر: ٧) وأتبع أمره بالصبر فى المزمل بتهديد الكفار ووعيدهم ﴿ **وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ** ﴾(المزمل : ١١) وفي المدثر ﴿ **ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيداً** ﴾ (المدثر : ١١) فالسورتان واردتان فى قصد واحد .

﴿ **وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ . وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ . وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ . وَلاَ تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ . وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ** ﴾ (المدثر : ٣-٧).

تقدم المفعول به{ **ربك** } على فعله{ **كبر**} للاهتمام وقصر فعل الفاعل عليه أي لا تكبر غيره ، وكذلك التقديم فى قوله: { **ولربك فاصبر** }.وفي الآيتين { **وثيابك فطهر والرجز فاهجر** } للاهتمام واشترك التقديم فى كل الآيات لرعاية الفاصلة.

﴿ **ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ** ﴾ (المدثر : ٢٣).

قال أبوحيان: "والاستكبار يظهر أنه سبب للإدبار ، إذ الاستكبار معنى فى القلب والإدبار حقيقة من فعل الجسم، فهما سبب ومسبب ، فلا يعطف بثم، وقد يعطف المسبب على السبب لأنه الظاهر للعين"[(1)] .

﴿**ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيداً . وَجَعَلْتُ لَهُ مَالاً مَّمْدُوداً .وَبَنِينَ شُهُوداً . وَمَهَّدتُّ لَهُ تَمْهِيداً . ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ . كَلاَّ إِنَّهُ كَانَ لآيَاتِنَا عَنِيداً** ﴾ (المدثر : ١١-١٦) .

(١) البحر المحيط ج٨ ص٣٦١

ذكر الله تعالى فى هذه الآيات الأسباب التي دعت هذا الطاغية الكافر أن يعاند فى آيات الله ويستكبر على الحق ، وجاء الترتيب هنا على أحسن وجه ، فبدأ بذكر حاله يوم خلقه الله وأوجده من العدم وكان لا شئ وبعد إيجاده لم يكن لديه لا مال ولا ولد { **ذرني ومن خلقت وحيداً** }، ولما كان سبب الطغيان للإنسان هو التمكن والقوة بدأ بأهم أسبابـــها وقطب دائرتـــها ، وهو المال الذى أعطاه الله إياه بلا حول منه ولا قوة بدليل أن غيره أقوى منه بدناً وقلباً وأوسع فكراً وعقلاً وهو دونه فى ذلك .

{ **وجعلت له مالاً ممدوداً** } ولما كان أول ما تمتد إليه النفس بعد المال هو الولد وكان المال سبباً فى مجيئه عن طريق الزواج قال: { **وبنين شهوداً** }، ولما كان ما سبق تمهيداً للرياسة والسلطان والقوة والنفوذ أتبعه قوله: { **ومهدت له تمهيداً** } ،ولما كان كل ما سبق سبباً لبطره وعلوه حث يطلب المزيد مع استمراره فى العناد والاستكبار { **ثم يطمع أن أزيد** } فجاء الجواب معللاً بحكمته { **كلا إنه كان لآياتنا عنيداً** }.

﴿ **كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلاَّ هُوَ وَمَا هِيَ إِلاَّ ذِكْرَى لِلْبَشَرِ** ﴾ (المدثر : ٣١).

تقدم الجار والمجرور { **كذلك** } الذي هو وصف للمفعول المطلق المحذوف والتقدير يضل الله من يشاء ويهدي من يشاء إضلالاً وهدياً كذلك الإضلال والهدى.

والتقديم هنا للاهتمام بـــهذا التشبيه الذي يرشد إلى التفصيل التالي .

﴿ **قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ المُصَلِّينَ ٠وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ المِسْكِينَ٠ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الخَائِضِينَ ٠ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ** ﴾ (المدثر : ٤٣-٤٦).

قال الزمخشري: "فإن قلت لم أخر التكذيب وهو أعظمها ؟ قلت : أراد أنـــهم بعد ذلك كله كانوا مكذبين بيوم الدين تعظيماً للتكذيب كقوله :

﴿ **ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ** ﴾ (البلد : ١٧)[(١)] .

(١) الكشاف ج٤ ص٢٤٢.

يقصد **الزمخشري** بآية البلد تقدم قوله تعالى: { **فلا اقتحم العقبة • وما أدراك ما العقبة • يتيماً ذا مقربة •أو مسكيناً ذا متربة** } على الآية السابقة، فقد تقدم الأمر بالتصدق على اليتيم والمسكين على أمر الإيمان وهو أشرف منـــهما وذلك لتعظيم أمر الإيمان وكأنه الأصل الذي يصدر عنه كل أفعال الخير .

ذكر الله سبحانه وتعالى فى سورة المدثر قول أهل الكفر:﴿ **وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ** ﴾(المدثر: ٤٦) ثم تقدم فى صدر السورة قوله تعالى :﴿ **فَإِذَا نُقِرَ فِى النَّاقُورِ • فَذَلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ • عَلَى الكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ** ﴾(المدثر : ٨-١٠).

والمراد بذلك اليوم يوم القيامة والوعيد به لمن ذكر بعد فى قوله:﴿ **ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيداً** ﴾ (المدثر: ١١) ومن كان على شاكلته فى التكذيب بذلك اليوم ثم تكرر ذكره فى جواب أهل النار لمن سألهم ﴿ **مَا سَلَكَكُمْ فِى سَقَرَ** ﴾ (المدثر: ٤٢) فبسط القول فى هذه السورة فى بيان ذكر ذلك اليوم وأهواله، وأشير إلى حال من كذب به فى قوله تعالى ﴿ **أَيَحْسَبُ الإِنْسَانُ أَن لَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُ** ﴾ (القيامة : ٣) ثم أتبع ذلك بذكر أحوال الخلائق فى ذلك اليوم ﴿ **يُنَبَّأُ الإِنسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ** ﴾ (القيامة : ١٣) .

﴿ **إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ المُسْتَقَرُّ** ﴾ (القيامة : ١٢) .

تقدم الخبر { **إلى ربك** } على المبتدأ { **المستقر** } لإفادة الاختصاص بأن الرجوع والمنتهى إلى الله وحده.

﴿ **وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ • إِلَى رَبِّــهَا نَاظِرَةٌ** ﴾ (القيامة : ٢٢-٢٣).

وتقديم الجار والمجرور{ **إلى ربــها** } على { **ناظرة** } ليس فقط لمجرد الاهتمام بــهذا العطاء كما ذهب صاحب التحرير حيث نفى أن يكون التقديم للاختصاص وحجته فى ذلك أنــهم يرون بــهجات كثيرة فى الجنة [(١)].

وإنما التقديم عندي للحصر والاختصاص فنظرهم إلى البهجات الكثيرات فى الجنة إنما يكون فى غير وقت الرؤية أما وقت الرؤية ،فإنــهم لا ينظرون إلا إلى وجه ربــهم غير ملتفتين إلى ما عداه من النعيم ، أو أنه للتفضيل فإن أعظم عطاء وأفضل نعيم هو نظر أهل الجنة إلى وجه ربنا الكريم ويؤيد صحة

---

(١) التحرير والتنوير ج٢٩ ص٣٥٥.

ما ذهبت إليه من السنة مارواه مسلم فى كتاب الإيمان عن صهيب ﷺ عن النبي ﷺ قال : (إذا دخل أهل الجنة الجنة يقول الله تبارك وتعالى تريدون شيئاً أزدكم فيقولون ألم تبيض وجوهنا ألم تدخلنا الجنة وتنجنا من النار قال فيكشف الحجاب قال فما أعطوا شيئاً أحب إليهم من النظر إلى ربهم عز وجل)[1]

﴿ **إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَسَاقُ** ﴾ (القيامة : ٣٠) .

وتقديم { **إلى ربك** } على متعلقه {**المساق**} للاهتمام وقد يكون أيضاً للاختصاص.

---

(١) صحيح مسلم كتاب الإيمان حديث رقم { ٢٦٦ }.

سورة الإنسان

لما جاء فى آخر سورة القيامة التهديد والوعيد لمن كذب بالإيمان **﴿ أَيَحْسَبُ الإِنسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴾** (القيامة : ٣٦) ، ولما تقدم فى القيامة حال منكري البعث **﴿ أَيَحْسَبُ الإِنْسَانُ أَن لَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُ ﴾** (القيامة: ٣) ثم يتكبر وتعامى عن الاستدلال والنظر **﴿ فَلاَ صَدَّقَ وَلاَ صَلَّى· وَلَكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّى·ثُمَّ ذَهَبَ إِلَى أَهْلِهِ يَتَمَطَّى ﴾** (القيامة: ٣١-٣٣) وتذكيره بحاله وضعف خلقه.

﴿ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَى· ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّى ·فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالأُنثَى· أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَادِرٍ عَلَى أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَى ﴾ (القيامة : ٣٧-٤١) أتبع ذلك فى سورة الإنسان بما هو أعرق فى التوبيخ وأوغل فى التعريف وهو أنه قد كان لا شئ فلا نطفة ولا علقة ، ثم أنعم الله عليه بنعمة الإيجاد ونقله تعالى من طور إلى طور **﴿ هَلْ أَتَى عَلَى الإِنسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئاً مَّذْكُوراً ·إِنَّا خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعاً بَصِيراً ﴾** (الإنسان : ١-٢)

ولما تقدم التهديد فى سورة القيامة بعدم ترك الإنسان بدون حساب ولا عقاب جاء الوعيد أوضح والتهديد أعظم والتذكير بسوء المصير **﴿ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَلاسِلَ وَأَغْلالاً وَسَعِيراً ﴾** (الإنسان : ٤).

﴿ إِنَّا خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعاً بَصِيراً ﴾ (الإنسان : ٢) .

قد يكون فى الآية تقديم وتأخير تقديره فجعلناه سميعاً بصيراً لنبتليه ، لأن الابتلاء لا يقع إلا بعد تمام الخلقة ، وعلى هذا التقدير يكون التقديم هنا للاهتمام بذكر الغاية التى خلق من أجلها الإنسان وهى الابتلاء والامتحان ، ثم ذكر أنه أعطاه ما يصح معه الابتلاء وهو السمع والبصر ، وهما كنايتان عن الفهم والتمييز أو هما الحاستان المعروفتان ، وإنما خصهما بالذكر لأنهما أعظم الحواس وأشرفها **ذكر ذلك** الخازن.وذكر ذلك أيضاً الأستاذ عبد الكريم الخطيب[1].

---

(١) تفسير الخازن ج٦ ص٣٣٤ ، التفسير القرآني ج٢٩ ص١٣٥٣

ولي مع هذه الآية وقفة تتعلق بجانب الإعجاز العلمي للقرآن الكريم الذى كشف النقاب عن ترتيب خلق الإنسان ترتيباً متوافقاً مع ما ذكره القرآن الكريم فى العديد من السور التي تعرضت لـــهذا الجانب والتي أخرت الحديث عنها لهذه السورة حتى أتناولها بشيء من التفصيل فأقول: النطفة فى اللغة العربية تعني قطرة أو جزءاً صغيراً من سائل والمقصود بـــها فى القرآن الكريم هو الحيوان المنوي للذكر والبويضة للأنثى ، المني :سائل الرجل أو سائل المرأة، الأمشاج :اختلاط سائل الرجل وسائل المرأة لتكوين خليط من السائلين ، قال تعالى: ﴿ **أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَى** ﴾ (القيامة : ٣٧) هذه النطفة التي استقرت فى رحم المرأة وهو القرار المكين المذكور فى قوله تعالى:﴿ **ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ** ﴾ (المؤمنون : ١٣) [1]

هذا الترتيب الوجودي فى الخلق والتكوين والمذكور فى قوله تعالى:﴿**يَخْلُقُكُمْ فِى بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقاً مِّنْ بَعْدِ خَلْقٍ فِى ظُلُمَاتٍ ثَلاثٍ** ﴾ (الزمر : ٦) قد بين وفصل فى سورة المؤمنون فى قوله تعالى : ﴿ **وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن سُلالَةٍ مِّن طِينٍ ، ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ، ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَاماً فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْماً ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقاً آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ** ﴾ (المؤمنون : ١٢-١٤)

ويشير القرآن هنا إلى تكون العظام بعد تكون العلقة والمضغة { **فخلقنا المضغة عظاما** } والنشأة هنا المقصود بـــها بدء مرحلة أخرى من التكوين وهي ترمز إلى تحول المضغة والعظام إلى جنين ويتكون فى نـــهاية الأسبوع الثامن بعد الحمل

﴿ **فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْماً ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقاً آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ** ﴾ (المؤمنون : ١٤) .

ومثال هذا الترتيب المذكور قوله تعالى فى سورة الحج : ﴿ **يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِى الأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَى**

---

(1) the developing human third edition clinically y ori 20a

أجَلٍ مُسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّى وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئاً ﴾ (الحج : ٥) ، ونلاحظ هنا فى ترتيب الآيات أن قوله تعالى: {**ومنكم من يتوفى** } قد تقدم فى الذكر على قوله:{ **ومنكم من يرد إلى أرذل العمر**} وذلك التقديم راجع إلى أن المتوفى قد سبق الحي إلى الموت ، فهو تقدم وجودي.

وهنا كلام عظيم الفائدة ذكره **الدكتور محمد علي البار** فى حديثه عن النطفة الأمشاج قال:

" نبذة تاريخية : لم تكن البشرية تعرف شيئاً عن النطفة الأمشاج[**وهي المختلطة أو الإخلاط من الذكر والأنثى**] فقد كان الاعتقاد السائد لدى الفلاسفة والأطباء أن الجنين الإنساني إنما يتكون من ماء الرجل وإن رحم الأم ليس إلا محضن لذلك الجنين، وشبهوا ذلك بالبذرة التي ترمى فى الأرض فتأخذ منها غذاءها وتخرج شجرة يافعة وارفة الظلال يانعة الثمار وليس للمرأة عند هؤلاء دور فى إيجاد الجنين سوى رعايته وتغذيته]، ويمضي الدكتور البار فى ذكر التسلسل التاريخي فى نظرية الخلق والإيجاد حتى قال: [لم يفطن أحد من هؤلاء الباحثين لمدة ألفي عام أن كلا من الذكر والأنثى يساهمان بالتساوي فى تكوين الجنين واستمرت هذه المعارك حتى فى عصر النهضة بل إنـــها استمرت حتى نـــهاية القرن العشرين حيث شيعت هاتان النظريتان إلى مثواهما الأخير.. وقد سيطرت فى القرن السابع عشر النظرية القائلة بأن الجنين موجود بصورة مصغرة فى الحيوان المنوي وأنه ليس للمرأة من دور سوى دور الرعاية والتغذية وأن الجنين جاهز التركيب بصورة دقيقة فى هذا الحيوان المنوي ويمثل ذلك أصدق تمثيل الرسم الذي قدمه هارتسوكر عام ١٦٩٤ وفيه يتمثل الجنين الإنساني فى رأس الحيوان المنوي وقد قدم **سوامر دام** swammerdam هذه النظرية على أساس ما توهمه فى رأس الحيوان المنوي تحت الميكروسكوب وسمى نظريته بنظرية الخلق الجاهز "[1].

---

(١) خلق الإنسان بين الطب والقرآن ، ص١٨٥-١٨٩ ،وينظر من ص٢٠٣ - ص٢٨٩، الطب القرآني غذاء ودواء ، ص١٤١-١٦٨

وقد أبان الدكتور البار عند مقارنته بين خلق الإنسان فى القرآن من خلال الآيات السابقة التطابق التام مع ما وصل إليه العلم الحديث مرورا بمرحلة خلق العظام التي ظهر من خلالها أنـــها تتكون قبل اللحم كما حكى القرآن الكريم"[1] .

﴿ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَلَاسِلَ وَأَغْلَالاً وَسَعِيراً. إِنَّ الْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُوراً ﴾ (الإنسان : ٤-٥).

قال صاحب التحرير: " وأخر تفصيله عن تفصيل جزاء الكفور مع أن {**شاكراً**} مذكور قبل {**كفوراً**} على طريقة اللف والنشر المعكوس ليتسع المجال لإطناب الكلام على صفة جزاء الشاكرين وما فيه من الخير والكرامة ، تقريباً للموصوف من المشاهدة المحسوسة .وتأكيد الخبر عن جزاء الشاكرين لدفع إنكار المشركين أن يكون المؤمنون خيراً منـــهم فى عالم الخلود ، ولإفادة الاهتمام بـــهذه البشارة بالنسبة للمؤمنين"[2] .

﴿ وَمِنَ اللَّيْلِ فَاسْجُدْ لَهُ وَسَبِّحْهُ لَيْلاً طَوِيلاً ﴾ (الإنسان : ٢٦).

تقدم الظرف { **من الليل** } للاعتناء والاهتمام لما فى الليل من مزيد كلفة وشدة نصب وأقرب إلى الإخلاص.

---

(١) المصدر السابق بتطرفه من ص٢٠٣ - ص٢٨٨

(٢) تفسير التحرير والتنوير ج٢٩ ص٣٧٩

سورة المرسلات

لما ختمت سورة الإنسان بالوعد لأوليائه والوعيد لأعدائه ، وكان الكفار يكذبون بذلك، افتتح هذه السورة بالإقسام على أن ذلك كائن فقال :

﴿ وَالْمُرْسَلاتِ عُرْفاً . فَالْعَاصِفَاتِ عَصْفاً . وَالنَّاشِرَاتِ نَشْراً . فَالْفَارِقَاتِ فَرْقاً . فَالْمُلْقِيَاتِ ذِكْراً . عُذْراً أَوْ نُذْراً . إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَاقِعٌ ﴾ (المرسلات : ١-٧) فأقسم تعالى بما ذكر من مخلوقاته على صدق الموعود به فى قوله تعالى: **﴿إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَلاسِلَ وَأَغْلالاً وَسَعِيراً﴾** (الانسان : ٤) وقوله: **﴿وَيَذَرُونَ وَرَاءَهُمْ يَوْماً ثَقِيلاً ﴾** (الإنسان: ٢٧) وقوله: **﴿ يُدْخِلُ مَن يَشَاءُ فِى رَحْمَتِهِ وَالظَّالِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَاباً أَلِيماً ﴾** (الإنسان : ٣١) .

﴿ وَالْمُرْسَلاتِ عُرْفاً . فَالْعَاصِفَاتِ عَصْفاً . وَالنَّاشِرَاتِ نَشْراً . فَالْفَارِقَاتِ فَرْقاً . فَالْمُلْقِيَاتِ ذِكْراً ﴾ (المرسلات : ١-٥).

لما كان العصوف للعواصف يتعقبه الهبوب قال { **فالعاصفات عصفاً** } بعد قوله :{ **والمرسلات عرفاً** } ولما كان نشر الرياح للسحاب متراخياً عن هبوبـــها جاء بعده{ **والناشرات نشراً** } ولما كان السحاب يجتمع بعد الثوران من مجال البخارات ويتكاثف ثم يحمل الماء ثم يؤمر بتفرقه إلى حيث أراد الله قال: { **فالفارقات فرقاً** } ولما كان السحاب عقب الفرق ينـــزل منها الماء أو البرد أو الثلج أو الصواعق مما هو باعث على ذكر الله قال: {**فالملقيات ذكراً** } فالترتيب هنا ترتيب وجودي .

﴿ أَلَمْ نُهْلِكِ الأَوَّلِينَ . ثُمَّ نُتْبِعُهُمُ الآخِرِينَ . كَذَلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ . وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ . أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّاءٍ مَّهِينٍ ﴾ (المرسلات : ١٦-٢٠).

لما ذكر الإهلاك على ذلك الوجه الدال على القدرة التامة على البعث وعلى ما توعد به بعد البعث أتبعه بأعظم دلالة منه على سبيل الترقي فى إثبات الحجة وهو دلالة ابتداء الخلق فقال: { **ألم نخلقكم من ماء مهين** } .

سورة النبأ

سورة النبأ مرتبة على تساؤل واستفهام وقع من الكفار فقوله : ﴿ **كَلاَّ سَيَعْلَمُونَ ۝ ثُمَّ كَلاَّ سَيَعْلَمُونَ** ﴾ (النبأ : ٤-٥) فمناسب للوعيد المتكرر فى قوله : {**ويل يومئذ للمكذبين**} وكأن قد قيل سيعلمون عاقبة تكذيبـــهم .

قال تعالى :﴿ **أَلَمْ نَجْعَلِ الأَرْضَ مِهَاداً ۝ وَالْجِبَالَ أَوْتَاداً ۝ وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجاً ۝ وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتاً ۝ وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاساً** ﴾ (النبأ : ٦ – ١٠).

بدأ بذكر الظرف الذي هو فرشهم وما فيه من تمام القدرة { **ألم نجعل الأرض مهاداً ۝ والجبال أوتاداً** } أتبعه بذكر بما فى هذا المظروف وهو أنفسهم لتجتمع آيات الأنفس والآفاق { **وخلقناكم أزواجاً** } وبعدما ذكر ما هو سبب بقاء النوع أتبعه بالتذكير بما هو سبب لحفظه من إسراع الفساد فقال :﴿ **وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتا ۝ وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاساً ۝ وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشاً** ﴾ (النبأ : ٩-١١) التذكير بنعمة البدن أتبعه بنعمة الزمن ، وبدأ بالليل لمناسبة ما قبله وهو النوم لأن غالب النوم إنما يكون فيه .

﴿ **إِنَّ يَوْمَ الفَصْلِ كَانَ مِيقَاتاً ۝ يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجاً ۝ وَفُتِحَتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ أَبْوَاباً ۝ وَسُيِّرَتِ الجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَاباً** ﴾ (النبأ : ١٧-٢٠) .

بدأ بذكر بعث الخلق أولاً لأنـــهم هم المقصودون بالبعث ، وكل ما يحدث من أمور البعث إنما هي من أجلهم ولهذا بدأ بـــهم ، ولما ذكر السقف{ **السماء**} أتبعه بأقرب الأرض إليه وهو الجبال{ **وسيرت الجبال فكانت سراباً** } .

﴿ **وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ كِتَاباً** ﴾ (النبأ : ٢٩) تقدم المفعول به { **وكل شيء** } على فاعله { **أحصينا**} إظهاراً للاهتمام الذي فيه معنى التحذير أو إظهار عدل الله وإحاطة علمه كل شيء.

سورة النازعات

لما أوضحت سورة النبأ حال الكافر فى قوله:﴿**يَا لَيْتَنِي كُنتُ تُرَاباً**﴾ (النبأ : ٤٠) عند نظر ما قدمت يداه ومعاينته من العذاب عظيم ما يراه أتبع ذلك فى سورة النازعات ما كان مستبعداً إياه فى دنياه من العودة إلى الآخرة فأقسم تعالى بالملائكة الموكلة بذلك ليذكر بقرب وقوعه وعدم استبعاد حدوثه فقال :

﴿**وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا ۝ وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطاً ۝ وَالسَّابِحَاتِ سَبْحاً ۝ فَالسَّابِقَاتِ سَبْقًا ۝ فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْراً ۝ يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ ۝ تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ ۝ قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ ۝ أَبْصَارُهَا خَاشِعَةٌ**﴾(النازعات: ١-٩) .

﴿ **فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَى أَن تَزَكَّى ۝ وَأَهْدِيَكَ إِلَى رَبِّكَ فَتَخْشَى**﴾ (النازعات : ١٨-١٩).

تقدمت التزكية على الهداية، والهداية على الخشية ، وذلك راجع أولاً إلى معنى التزكية وهو التطهر من الشرك ، فإذا تطهر من الشرك وادعاء الربوبية والألوهية صار أهلاً لمعرفة الله ،فإذا عرفه بنعوت كماله وصفات جلاله جاءته الخشية من الله تعالى كما قال تعالى: ﴿ **إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ** ﴾ (فاطر: ٢٨)

وهذه الآية نظير قوله تعالى: ﴿ **لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ** ﴾ (آل عمران : ١٦٤) .

﴿**أَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقاً ۝ أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا ۝ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّاهَا ۝ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا ۝ وَالأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا ۝ أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا ۝ وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا**﴾ (النازعات : ٢٧-٣٢) .

بدأ أيضا كما هو عادة القرآن بتقديم الآيات العلوية على السفلية لأنها أدل بعجائبـــها الكثيرة ولشرف العلو على السفل وقد مر بنا من قبل .

﴿ **يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا ۝ فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَاهَا ۝ إِلَى رَبِّكَ مُنتَهَاهَا**﴾ (النازعات : ٤٢-٤٤) تقدم الخبر { **فيم** } على المبتدأ { **أنت** } والمعنى أنت فى أي شيء من ذكراها وسبب تقديم الخبر هنا على اسمه ﷺ هو أن الخبر هو المقصود إذ إن الحديث إنما هو عن الساعة ووقت حدوثها فلهذا بدئ بــــها .

سورة عبس

لما ذكر سبحانه وتعالى فى سورة النازعات أن الاعتبار والتذكر إنما ينفع الذين يخشون ربهم ﴿ إِنَّ فِى ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَى ﴾ (النازعات : ٢٦) وقال بعد : ﴿ إِنَّمَا أَنْتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَاهَا ﴾ (النازعات : ٤٥) افتتحت هذه السورة بمثال يكشف عن المقصود من حال أهل التذكر والخشية وجميل الاعتناء الرباني بهم ، ومنهم ابن أم مكتوم صاحب قصة هذه السورة والتي أنزلت بسببه ، فقد دخل على النبي ﷺ سائلاً ومسترشداً ، وكان النبي ﷺ يكلم رجلاً من أشراف قريش ، وقد طمع فى إسلامه رجاء إنقاذه وأتباعه من النار، فانشغل به ولم يلتفت لابن أم مكتوم تاركاً إياه لإيمانه خوفاً من تفلت الآخر،فنزل القرآن يعاتبه ﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّى ۰ أَن جَاءَهُ الأَعْمَى ۰ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّى ۰أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ الذِّكْرَى﴾ (عبس : ١-٤) وقد تقدم فى السورة السابقة قول موسى لفرعون : ﴿ هَل لَّكَ إِلَى أَن تَزَكَّى ﴾ (النازعات : ١٨) .

﴿ أَنَّا صَبَبْنَا المَاءَ صَباًّ ۰ ثُمَّ شَقَقْنَا الأَرْضَ شَقاًّ ۰فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَباًّ ۰وَعِنَباً وَقَضْباً ۰وَزَيْتُوناً وَنَخْلاً۰ وَحَدَائِقَ غُلْباً ۰وَفَاكِهَةً وَأَباًّ ۰مَتَاعاً لَّكُمْ وَلأَنْعَامِكُمْ ﴾ (عبس : ٢٥-٣٢).

ترتبت هذه الآيات على السبق الوجودي ، فبدأ بالماء أولاً لأن به قوام حياة كل شيء ، ثم أتبعه شق الأرض بواسطة هذا النبات الضعيف ، وبدأ منه بالحب أولاً لأنه القوت الأصل فى قوام حياة الإنسان ، وأتبعه العنب من الفاكهة لأنه فاكهة فى حال نضجه وقوت باتخاذه زبيباً ودبساً وخلاً ، ولما ذكر ما لا يصلح أن يؤكل إلا رطباً من غير تأخير أتبعه ما لا يفسد سريعاً كسابقه وهو أكل ودهن ، ولما ذكر ما يأكله الناس وما يعلف للدواب ، وكان السياق هنا لطعام الإنسان قال مقدماً ضميرهم : { متاعاً لكم } ثم قال :{ ولأنعامكم } بخلاف ما ورد فى سورة السجدة حيث قال : ﴿ أَوَ لَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ المَاءَ إِلَى الأَرْضِ الجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعاً تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنفُسُهُمْ أَفَلاَ يُبْصِرُونَ ﴾(السجدة ٢٧) حيث تقدمت الأنعام على

الأنفس، وقد ذكرنا هناك قول أبي حيان لأن أول ما يخرج من النبات المزروع تبادره الأنعام بالأكل .

﴿يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ • وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ • وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ﴾ (عبس : ٣٤-٣٦).

وفي فائدة هذا الترتيب كأنه قيل: { **يوم يفر المرء من أخيه**} بل من أبويه ، فإنــهما أقرب من الأخوين بل من الصاحبة والولد لأن تعلق القلب بــهما أشد من تعلقه بالأبوين ، ثم إنه تعالى لما ذكر الفرار أتبعه بذكر سببه وهذا فيه من التشويق وإثارة التساؤل لماذا يفر المرء من هؤلاء جميعاً؟ فيأتي الجواب ، **﴿ لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْــهم يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴾** (عبس : ٣٧).

سورة التكوير

لما ختمت سورة عبس بوعيد الكفرة الفجرة بيوم الصاخة ابتدئت هذه بإتمام ذلك فصورت السورة هذا اليوم وما يكون فيه من الأهوال كأنـــها رأي عين .

﴿ إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ ٭وَإِذَا النُّجُومُ انكَدَرَتْ٭وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ ٭ وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ٭وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ ٭ وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ﴾(التكوير: ١-٦).

هذا التقديم فى أحداث الساعة جاء على الترتيب فى الوقوع ، حيث تبدأ أحداث التخريب فى العالم العلوي قبل السفلي ، وهذا الترتيب هو المذكور فى سورتي الانفطار والانشقاق مما يدل على أنه ترتيب وجودي **﴿إِذَا السَّمَاءُ انفَطَرَتْ٭ وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انتَثَرَتْ٭وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِّرَتْ وَإِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ ﴾** (الانفطار : ١-٤).

﴿ إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ٭ وَأَذِنَتْ لِرَبِّـــها وَحُقَّتْ٭ وَإِذَا الْأَرْضُ مُدَّتْ ٭وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ ٭وَأَذِنَتْ لِرَبِّـــها وَحُقَّتْ ﴾(الانشقاق : ١-٥) ، ويؤيد ما ذكرته ما أخرجه أحمد والترمذي والحاكم عن ابن عمر - رضي الله عنـــهما- قال : قال **رسول الله** ﷺ من سره أن ينظر إلى القيامة كأنه رأي عين فليقرأ { **إذا الشمس كورت** } و{**إذا السماء انفطرت**} و { **إذا السماء انشقت**} .

سورة الانفطار

لما ختمت التكوير بأنه سبحانه لا يُخْرَجُ عن مشيئته وأنه موجد الخلق ومدبرهم ، وكان من الناس من يعتقد أن هذا العالم هكذا بـهذا الوصف لا آخر له ، أرحام تدفع وأرض تبلع ، ومن مات فلن يعود للبعث من الرفات ، افتتح الله سبحانه هذه السورة بما يكون مقدمة للسورة التي قبلها من أنه لابد من نقضه لـهذا العالم وإخرابه ليحاسب الناس كلاً بعمله.

﴿ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ • كِرَاماً كَاتِبِينَ • يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ • إِنَّ الأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ • وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ ﴾(الانفطار : ١٠-١٤) .

بدأ بذكر صفة الحفظ للملائكة من باب التخويف من أن أعمالهم جميعاً محفوظة عليهم ليكون ذلك أدعى للخوف والحذر ومراقبة الله في أعمالهم ، ثم أتبع ذلك بما يفيد العدل وعدم الزيادة أو النقصان في كتابة الأعمال بقوله : { **كراماً كاتبين** } أي في غاية الأمانة وطهارة الأخلاق، ثم ذكر نتيجة الكتابة بعد ذلك حيث ينقسم الناس ويتمايزون حسب أعمالهم التي دونت عليهم فقال: { **إن الأبرار لفي نعيم • وإن الفجار لفي جحيم** } .

سورة المطففين

لما ختم سبحانه الانفطار بانقطاع الأسباب وعدم الانتفاع بالأنساب فى يوم الحساب وأبلغ فى التهديد بيوم الدين وأنه سبحانه وحده هو الآمر لا آمر معه وذكر الأشقياء والسعداء وكان أعظم ما يدور بين العباد المقادير وكانت المعصية فيها من أخس أنوع المعاصي وأدناها ، حذر من الخيانة فيها ، وذكر ما أعد لأهلها ، وجمع إليهم كل من اتصف بوصفهم فحمله وصفه على المعاصي كل ذلك تنبيه للغافلين .

﴿ وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ • الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ • وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ﴾ (المطففين : ١-٣).

بدأت الآية بكلمة { **ويل**} لتعطي من الترهيب والتخويف والألم النفسي الحاصل من تصدرها الآية بخلاف ما لو تأخرت إضافة لما أفادته من التشويق لمعرفة السبب لـــهذا الويل المتوعَد به ،وأما البداء بقوله : { **وإذا اكتالوا** } وتقدمه على قوله :

{ **أو كالوهم** } فأقول: لقد راعى التقديم أن المطففين لابد لهم من أن يكتالوا من الناس ، فهذا أمر لابد من حدوثه بشرائهم ضرورات حياتـــهم التي لابد لهم منها ثم يأتي أمر البيع للبعض ، وليس كل الناس يبيع ، بينما كل الناس يشتري .

سورة الانشقاق

مقصودها الدلالة على آخر المطففين من أن الأولياء ينعمون والأعداء يعذبون لأنـــهم كانوا لا يقرون بالبعث ولا يؤمنون بالعرض على الخالق الحكيم للثواب والعقاب ، ولذا ابتدأت سورة الانشقاق بالقسم على ذلك { **إذا السماء انشقت** } ، ولما سبق فى الإنفطار التعريف بالحفظة وأعمالهم واستقرار ذلك فى المطففين فى قوله: { **إن كتاب الأبرار لفي عليين** } وفي قوله: { **كلا إنَّ كتاب الفجار لفي سجين** } أتبع ذلك بعرض الكتب يوم القيامة عند العرض وأن أخذها بالأيمان عنوان السعادة وأخذها من وراء الظهر عنوان الشقاوة إذ قد تقدم فى كلا السورتين ذكر الكتب واستقرارها.

﴿ **فَلاَ أُقْسِمُ بِالشَّفَقِ ۝ وَاللَّيْلِ وَمَا وَسَقَ ۝ وَالْقَمَرِ إِذَا اتَّسَقَ ۝ لَتَرْكَبُنَّ طَبَقاً عَن طَبَقٍ** ﴾(الانشقاق : ١٦-١٩).

جاء هذا القسم على الترتب فى الوجود وما فيه من آيات الله الكوني التي تدل على صفة القدرة والتقدير ، فأقسم أولاً بالشفق وهو الضياء الذي يكون فى المغرب عقب غروب الشمس أطباقاً حمرة ثم صفرة ثم كدرة إلى بياض ثم سواد الليل وكذلك الليل أوله بياض بغبرة ثم تتزايد غبرته قليلاً إلى أن يسود مرباداً فيجمع كل شئ ظلاماً ثم يظهر القمر واضحاً ، يبدأ صغيراً جداً حتى ينتهي كبيراً فى ليلة التمام ، ويوضح ذلك الترتيب الوجودي بالقسم هو الاستدلال به على أحوال ترتيب الإنسان فى حياته وبعد الموت وهو المقصود بقوله: { **لتركبن طبقاً عن طبق** } أي حالاً بعد حال من أطوار الحياة وأدوار العيش وغمرات الموت ثم أمور البرزخ ثم ما بعد الموت عند البعث ثم الاستقراء فى أحد الدارين الجنة أو النار أعاذنا الله منها برحمته.

سورة البروج

لما ختم سبحانه سورة الانشقاق بثواب المؤمن وعقاب الكافر والاستهزاء بـــهم جاءت سورة البروج تكشف عن أفعالهم الفظيعة حتى لا يشفق عليهم أحد ولإثبات صفة العدل الإلهية وأن ما استحقوه إنما هو بسبب فعلهم الآتي ذكره، وبدأت السورة بالإقسام علي لعنـــهم وعذابـــهم ، ثم ذكرت السبب

﴿ وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ . وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ .وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ . قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ. النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ .إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ .وَهُمْ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ . وَمَا نَقَمُوا مِنـــهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴾(البروج : ١-٨) .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ . إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْكَبِيرُ . إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ . إِنَّهُ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ ﴾

(البروج : ١٠ — ١٣).

بدأ بذكر عقاب المعاندين أولاً لأن المقام له وموضوع السورة عنـــهم وهم المبدوء بـــهم فى الذكر بعد القسم السابق لحكايتـــهم بقوله تعالى:

﴿ قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ .النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ . إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ .وَهُمْ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ﴾(البروج : ٤-٧) .

وقد قدم أيضاً صفة البطش فى قوله : { **إن بطش ربك لشديد** } على صفة الرحمة والمغفرة فى قوله: { **وهو الغفور الودود** } مع أنـــها أولى بالتقديم من أجل مناسبة السياق الجاري قبل .

سورة الطارق

لما ذكر سبحانه وتعالى فى سورة البروج { **والله على كل شيء شهيد** } ﴿ **وَاللَّهُ مِن وَرَائِهِم مُّحِيطٌ** ﴾(البروج : ٢٠) وكان فى ذلك تعريف العباد أن الله سبحانه وتعالى لا يغيب عنه شئ ولا يفوته شئ ، أتبع ذلك بمزيد من التفصيل من شهادته سبحانه على كل شئ وإحاطته بكل شئ فقال فى سورة الطارق: { **إنْ كلُّ نفسٍ لما عليها حافظ** } ولما أقسم سبحانه ببروج السماء جاء هذا القسم الآخر فى سورة الطارق بالقسم الخاص بالطارق الذي هو نجم من نجوم تلك السماء المقسم بـــها .

﴿ **وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ ٭ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ ٭ النَّجْمُ الثَّاقِبُ** ﴾ (الطارق : ١-٣).

هذا الأسلوب جاء على هذا الترتيب للتشويق ، فبعد أن أقسم به وهو مبـــهم لم يعرف بعد ، سأله عنه تعظيماً للمقسم به وللتشويق إلى معرفته { **وما أدراك ما الطارق** } ثم أخبر عنه { **النجم الثاقب** }.

﴿ **فَمَا لَهُ مِن قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ** ﴾(الطارق : ١٠).

بدأ بذكر أقرب ما يدفع به الإنسان عن نفسه ويبدأ به أولاً وهي قوته ، فإن لم تكن عنده قوة ،لجأ إلى الناصر والمعين ولهذا بدأ بقوله:{ **قوة**} متقدماً به على قوله: { **ناصر**}.

﴿ **وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ ٭ وَالْأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ** ﴾(الطارق : ١١-١٢) .

أقسم بالسماء مبتدئاً بـــهذا العالم العلوي لشرفه وقد مر سابقاً الإشارة إليه ثم أتبعه العالم السفلي فقال: { **والأرض ذات الصدع** } .

سورة الأعلى

نـــهى الله سبحانه وتعالى فى آخر سورة الطارق عن الاستعجال بما تضمنه الأمر بالإمهال ﴿ **فَمَهِّلِ الكَافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْداً** ﴾(الطارق: ١٧) . فصفة الحلم صفة كمال ، وصفة الاستعجال صفة نقص ،ولـــهذا بدأ سبحانه سورة الأعلى بتسبيحه الذي يتضمن تنـــزيهه سبحانه عن كل نقص ، فبدأت السورة بقوله: { **سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى** }(الأعلى : ١) وهذا التسبيح مرتبط بالسورة من جهة ثانية وهو جهل الكفار بالله رب العالمين وعدم تأدبـــهم معه بنص قوله فى الطارق : ﴿ **إنـــهم يَكِيدُونَ كَيْداً ،وَأَكِيدُ كَيْداً ،فَمَهِّلِ الكَافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْداً** ﴾(الطارق : ١٥-١٧) وكان وقوع ذلك من العبيد حمقا وجهلا فأتبع سبحانه ذلك بأمر نبيه ﷺ بتنـــزيه ربه عن سوء معتقدهم وسيئ فعالهم فقال : { **سبح اسم ربك الأعلى**} .

قال تعالى: ﴿ **قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّى ،وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى** ﴾ (الأعلى : ١٤-١٥).

المقصود بقوله: {**تزكى**}هو إخراج زكاة الفطر لا مطلق الزكاة إذ إن عادة القرآن تقديم ذكر الصلاة على ذكر الزكاة وليس تقديم ذكر الزكاة على ذكر الصلاة فالتقديم هنا تقديم لسبق الوجود لأنه يجب إخراج زكاة الفطر قبل صلاة العيد روى مسلم فى صحيحه عن ابن عمر رضي الله عنـــهما - أن رسول الله ﷺ أمر بزكاة الفطر أن تؤدى قبل خروج الناس للصلاة }.[1]

---

(١) صحيح مسلم باب الأمر بإخراج زكاة الفطر أن تؤدى قبل خروج الناس للصلاة حديث رقم { ٩٨٦}.

سورة الغاشية

لما ختمت سورة الأعلى بالحث على تطهير النفوس ظاهراً وباطناً **﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّى . وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى ﴾**(الأعلى : ١٤-١٥) ورغب فى أمر الآخرة ورهب منها**﴿سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَى . وَيَتَجَنَّبُهَا الأَشْقَى﴾**(الأعلى: ١٠-١١) فقال تعالى مذكراً بأمر الآخرة التي حث عليها فى آخر سورة الأعلى:

﴿ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الغَاشِيَةِ ﴾ (الغاشية :١) .

﴿ وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ . عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ . تَصْلَى نَاراً حَامِيَةً . تُسْقَى مِنْ عَيْنٍ آنِيَةٍ . لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلاَّ مِن ضَرِيعٍ . لاَ يُسْمِنُ وَلاَ يُغْنِي مِن جُوعٍ ﴾ (الغاشية:٢ — ٧).

بدأ بذكر العذاب لأنه بدأ بذكر أصحابه أولاً ، وبدأ بأشد صوره وهي النار أولاً { **تصلى ناراً حامية** } ثم العطش الشديد الذي يشربون من أجله الماء المغلي غاية الغليان ، ثم ذكر بعد ذلك المطعوم وابتدأ بذكر نفي السمن عنه مع كونه متأخر فى الحدوث لأن الطعام إنما يذهب الجوع أولاً ثم السمنة ثانياً وفي سر هذا التقديم **نقول** إنما ابتدأ بالسمنة قبل إذهاب الجوع لأن الآيات متوجهة لأهل الرخاء والمترفين من الكافرين الذين كانوا لا يأكلون لذهاب الجوع فحسب بل يزيدون فى الطعام إلى حد السمنة ولذا بدأ بـــها هنا .

﴿وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ . لِسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ . فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ . لاَ تَسْمَعُ فِيهَا لاغِيَةً . فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ . فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ . وَأَكْوَابٌ مَّوْضُوعَةٌ . وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ . وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ ﴾ (الغاشية : ٨-١٦).

وفي ذكر نعيم الجنة بدأ بأول ما يعتبر فيها وهو إزالة المنغص فقال: { **لا تسمع فيها لاغية** } وهذا منغص السمع ثم أتبعه بنفي منغص الباطن بإزالة الهم والغم فقال :{**لسعيها راضية**} ثم اتبعه بإزالة منغص البصر ضمناً عندما ذكر محاسن المناظر فقال: { **فيها عين جارية** }.

﴿ أَفَلاَ يَنظُرُونَ إِلَى الإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ . وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ . وَإِلَى الجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ . وَإِلَى الأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴾ (الغاشية : ١٧ — ٢٠).

جاء الترتيب فى النظر إلى الإبل ثم السماء ثم الجبال ثم الأرض ، وقد يكون هذا الترتيب قد راعى محل العين ، فأول ما يلفت النظر إلى الإبل هو قامتها العالية ورقابـــها المرفوعة فناسب ذلك أن ينظروا إلى السماء ويلتفتوا إليها بعلوها الشاهق الذي لا يدرك له حد ، وقد تقدم ذكر السماء على الجبال فما من مكان إلا والسماء ترى فيه ، بينما ليس فى كل الأماكن تكون الجبال ، فلما كان النظر إلى السماء أكثر باعتبار حجمها ناسب أن تتقدم على الجبال ، فإذا ما أرخى الإنسان نظره قابلته الأرض ولذا تأخرت فى الذكر .

وقد وافق ما ذكرناه عن سر هذا الترتيب قول المراغي حيث قال : "وإنما خص هذه المخلوقات بالذكر لأن الناظر منـــهم يفكر فى أقرب الأشياء إليه ، فهو يرى بعيره الذي يمتطيه ، ثم إذا هو رفع رأسه فوق رأى السماء ثم إذا التفت يمنة أو يسرة رأى ما حواليه من الجبال فإذا مد ناظريه أمامه أو تحته رأى الأرض ، فالعربي يرى ذلك كل يوم ومن ثم أمره الله بالتدبر فيها ".[1]

وقد نقل القاسمي كلاماً طريفاً عن السكاكي حول هذا الترتيب قال: " لطيفة: ذكر السكاكي فى {المفتاح} فى بحث الجامع الخيالي ، أن جمعه على مجرى الإلف والعادة بحسب ما تنعقد الأسباب فى استيداع الصور خزانة الخيال وأنه إذ لم يوف حقه من التيقظ وأنه من أهل المدر ، أنى يستحلي كلام رب العزة مع أهل الوبر حيث يبصرهم الدلائل ناسقاً ذلك النسق { **أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت** } الآيات لبعد البعير عن خياله فى مقام النظر ثم لبعده فى خياله عن السماء ، وبعد خلقه عن رفعها وكذا البواقي لكن إذا وفاه حقه بتيقظه بما عليه تقلبـــهم فى حاجاتـــهم جاء الاستحلاء وذلك إذا نظر أهل الوبر إذا كان مطعمهم ومشربـــهم وملبسهم من المواشي ، كانت عنايتـــهم مصروفة لا محالة إلى أكثرها نفعاً وهي الإبل ثم إذا كان انتفاعهم بـــها لا يتحصل إلا بأن ترعى وتشرب كان جل مرمى غرضهم نزول المطر ،

---

(١) تفسير المراغي ج٣٠ ص١٣٧.

وأهم مسارح النظر عندهم السماء ثم إذا كانوا مضطرين إلى مأوى يؤويهم وإلى حصن يتحصنون فيه ولا مأوى ولا حصن إلا الجبال

لنا جبلٌ يحتله من نُجيرُهُ منيعٌ يردُّ الطرفَ وهو كليلُ

فما ظنك بالتفات خاطرهم إليها ؟ ثم إذا تعذر طول مكثهم في منـــزل - ومن لأصحاب مواش بذاك- كان عقد الهمة عندهم بالتنقل من أرض إلى سواها من عزم الأمور ". [١]

---

(١) تفسير القاسمي ج٩ ص٤٦٣.

سورة الفجر

مقصود هذه السورة الاستدلال على أمر الغاشية حيث ختمت بأنه لابد من الرجوع والحساب﴿**إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابهم • ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابهم**﴾(الغاشية: ٢٥-٢٦)، وأدل ما فيها على هذا المقصود هو القسم بالفجر حيث انبعاث النيام من الموت الأصغر الذي يشبه انبعاثهم من موتهم ليوم البعث الأكبر.

قال تعالى :﴿ **وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ** ﴾(الفجر : ٣) .

إذا فُسر الشفع والوتر بأنها هي الصلوات منها الشفع ومنها الوتر وهو الراجح لورود الدليل بذلك، ففي الحديث{ **هي الصلوات منها الشفع ومنه الوتر**} [1] رواه الإمام أحمد ، فإن التقديم يكون لسبق الوجود ، فإن وتر النهار هو صلاة المغرب ووتر الليل هو صلاة الوتر ، روى مسلم فى صحيحه عن ابن عمر - رضي الله عنهما - أن رجلاً سأل رسول الله ﷺ عن صلاة الليل فقال رسول الله ﷺ : { **صلاة الليل مثنى مثنى فإذا خشي أحدكم الصبح صلى ركعة واحدة توتر له ما قد صلى** }، وقد أورد مسلم فى هذا الباب تسعة عشر حديثاً فى أن الوتر هو آخر صلاة منها { **من صلى بالليل فليجعل آخر صلاته وتراً فإن رسول الله ﷺ كان يأمر بذلك** } { **اجعلوا آخر صلاتكم بالليل وتراً**} [2]

﴿ **أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ • إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ • الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِى الْبِلَادِ • وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ • وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ** ﴾ (الفجر : ٦-١٠).

تقدمت قصة عاد على ثمود كما هو المعهود فى معظم آي القرآن ليس لأنهم أسبق زماناً ولكن لكون قصتهم أعجب وأغرب ، ثم ثنى بأقرب الأمم منهم زماناً وهم قوم ثمود .

---

(١) مسند الإمام أحمد ٤/٤٣٨.

(٢) صحيح مسلم باب صلاة الليل مثنى مثنى ، والوتر ركعة من آخر الليل ، باب من خاف أن لا يقوم من آخر الليل فليوتر أوله من ج٦من ص٤٤ -ص٥١.

سورة البلد

لما ابتدأت سورة الفجر بالقسم الزماني الفجر والليل، افتتحت سورة البلد بالقسم المكاني وهو مكة المكرمة **﴿لا أقسمُ بــهذا البَلَد﴾** (البلد : ١) ولما ختمت الفجر بالحدث عن أفضل أماكن الآخرة وهي الجنة **﴿ يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ المُطْمَئِنَّةُ ٠ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً٠ فَادْخُلِي فِى عِبَادِي وَادْخُلِي جَنَّتِي﴾** (الفجر : ٢٧-٣٠) ، بدأت سورة البلد بالحديث عن أفضل أماكن الدنيا وهي مكة المقسم بــها ، ولما ذكر سبحانه فى سورة الفجر أحوال الإنسان فى النصب والتعب بسبب السلطان **﴿ وَفِرْعَوْنَ ذِي الأَوْتَاد ٠ الَّذِينَ طَغَوْا فِى البِلادِ ٠ فَأَكْثَرُوا فِيهَا الفَسَادَ ﴾** (الفجر : ١٠-١٢) ، أو بسبب المال- وأنه ابتلاء فى الإعطاء والمنع **﴿ فَأَمَّا الإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ٠وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ ﴾** (الفجر : ١٥-١٦) ، جاءت سورة البلد تشرح هذه الحال **﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ فِى كَبَدٍ ﴾** (البلد : ٤)، ولما سبق ذكر أهل الفساد والتكبر بالقوة **﴿ وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ﴾** (الفجر : ٩) أو بالحكم**﴿وَفِرْعَوْنَ ذِي الأَوْتَادِ﴾** (الفجر: ١٠) ، وأن ذلك كان سبب غرورهم وكفرهم جاءت سورة البلد تبين خبث ما انطوت عليه نفوس هؤلاء.

﴿ أَيَحْسَبُ أَن لَّن يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ ﴾ (البلد : ٥) ، ولما ذكرت سورة الفجر شح الإنسان وبخله وعدم رحمته لليتيم ولا المسكين **﴿كَلاَّ بَل لاَّ تُكْرِمُونَ اليَتِيمَ ٠وَلاَ تَحَاضُّونَ عَلَى طَعَامِ المِسْكِينِ ﴾**(الفجر : ١٧-١٨) ، وبينت أن ذلك بسبب حب المال.

﴿ وَتُحِبُّونَ المَالَ حُباً جَماً ﴾ (الفجر : ٢٠)، جاءت سورة الفجر لتبين أن هذا الذي منع المال عن مستحقيه والمحتاجين إليه بالغ فى إجرامه حيث أنفقه فى وجوه الفساد وليس فى مصالح العباد **﴿ يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالاً لُّبَداً ٠أَيَحْسَبُ أَن لَّمْ يَرَهُ أَحَدٌ ﴾** (البلد : ٦-٧) .

قال تعالى:**﴿ يَتِيماً ذَا مَقْرَبَة٠ أَوْ مِسْكِيناً ذَا مَتْرَبَة ﴾** (البلد : ١٥-١٦).

تقدم اليتيم على المسكين لأمرين للقرابة ولأنه أشد حاجة وضعفاً من المسكين وقد مر بنا ذلك عند الآية ١٧٧ من سورة البقرة .

﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ﴾ (البلد : ١٧).

قال الرازي: فإن قيل لما كان الإيمان شرطاً للانتفاع بـــهذه الطاعات وجب كونه مقدما عليها ، فما السبب فى أن الله تعالى أخره عنها بقوله: {**ثم كان من الذين ءامنوا** } ؟ والجواب من وجوه :

أحدها : أن هذا التراخي فى الذكر لا فى الوجود ، كقوله :

إنَّ مَنْ سادَ ثُمَّ ساد أبوه ثُمَّ قد ساد قبل ذلك جدُّه

لم يرد بقوله ثم ساد أبوه التأخر فى الوجود ، وإنما المعنى ، ثم اذكر أنه ساد أبوه ، كذلك فى الآية.

وثانيها : أن يكون المراد ثم كان فى عاقبة أمره من الذين ءامنوا وهو أن يموت على الإيمان فإن الموافاة شرط الانتفاع بالطاعات.

وثالثها : أن من أتى بـــهذه القرب تقرباً إلى الله تعالى قبل إيمانه بمحمد- ﷺ - ثم آمن بعد ذلك بمحمد -عليه الصلاة والسلام- فعند بعضهم أنه يثاب على تلك الطاعات ويدل عليه ما روي { **أن حكيم بن حزام بعدما أسلم قال لرسول الله ﷺ: إنا كنا نأتي بأعمال الخير فى الجاهلية فهل لنا منها شيء ؟ فقال عليه السلام أسلمت على ما قدمت من الخير** }.

ورابعها : أن المراد من قوله: { **ثم كان من الذين ءامنوا** }، تراخي الإيمان وتباعده فى الرتبة والفضيلة عن العتق والصدقة لأن درجة ثواب الإيمان أعظم بكثير من درجة ثواب سائر الأعمال [(١)].

قال السمين الحلبي فى قوله: {ثم كان} "لتراخي الإيمان وتباعده فى الرتبة والفضيلة عن العتق والصدقة ، لا فى الوقت ، لأن الإيمان هو السابق ، ولا يثبت عمل إلا به "[(٢)].

وقد يكون المعنى على النحو الآتي: ثم كان فى عاقبة أمره من الذين وافوا الموت على الإيمان ، لأن الموافاة عليه شرط فى الانتفاع بالطاعات ، أو يكون للتراخي فى الذكر .

---

(١) تفسير مفاتيح الغيب ج٣١ص١٨٧

(٢) تفسير الدر المصون ج٦ ص٥٢٦.

سورة الشمس

لما أثبت سبحانه في سورة البلد أن الإنسان في كبد وختمها بذكر حال أهل الفجور وأنـــهم في النار المؤصدة بين سبحانه في سورة الشمس أن الإنسان الذي في ذلك الأمر بين الهداية والضلال إنما سار بما أودع الله في نفسه من إرادة الخير والشر، وبدأ بذكر إلهامها فجورها قبل تقواها في قوله: ﴿ **فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا** ﴾ (الشمس : ٨)، لمناسبة الآية الأخيرة في سورة البلد التي ذكرت أحوال أصحاب النار ﴿ **عَلَيْهِمْ نَارٌ مُّؤْصَدَةٌ** ﴾ (البلد : ٢٠) .

﴿ **وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا ٭وَالْقَمَرِ إِذَا تَلاهَا ٭ وَالنَّهَارِ إِذَا جَلاَّهَا٭ وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا** ﴾ (الشمس : ١-٤).

بدأ بذكر الآيتين الشمس والقمر ثم ذكر ما هما آيتاه وبدأ بـــهما وظهر أثرهما فيه فقال :{ **والنهار إذا جلاها**} وبدأ بالنهار لمناسبة ذكر ما قبله وهو تقدم ذكر الشمس على القمر ،ثم ذكر الليل التالي في الذكر {**والليل إذا يغشاها**} .

﴿ **وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا ٭ وَالأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا** ﴾ (الشمس : ٥-٦) .

لما ذكر محل الوجود { **السماء** } أتبعه محل التأثير فقال: { **والأرض وما طحاها** } .

﴿ **وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ٭فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ٭قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا٭ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا** ﴾ (الشمس : ٧-١٠) .

لم بدأ بإلـــهامها الفجور على التقوى مع أن التقوى أشرف وأظهر في المن، كما أن الهداية للتقوى سابقة عليه ، إذ هي الأسبق في الوجود ؟فقد **روى البخاري** عن أبي هريرة ﷺ قال :قال النبي ﷺ :{ **كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه كمثل البهيمة تنتج البهيمة هل ترى فيها جدعاء** }[1]

---

(١) صحيح البخاري كتاب الجنائز برقم{١٢٩٦}.

أقول: بدأ بالفجور لأنه أعجب ، فأعجب أمور النفس هو الفجور مع أن فطرتـــها هي الإسلام وتوالي ظهور النعم والإحسان فكيف غلب عليها المعاصي والشهوات مع وجود صحيح النقل ووفور العقل، ولهذا بدأ فى الآية التالية بأهل التقوى لشرفهم وليس بأهل الفجور لخبثهم فقال: { **قد أفلح من زكاها ، وقد خاب من دساها** }.

سورة الليل

﴿ وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى . وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى . وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالأُنثَى . إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى ﴾ (الليل : ١-٤) .

تقدم ذكر الليل الذي هو آية الظلام وسبب الخلط والخبط لما يحدث عنه من الإشكال أتبعه بذكر النهار الذي يزيل هذا الظلام وانكشاف الأمور ، وهذا إشارة لنور التوحيد الذي أنار ظلام الكون السابق عليه ، ولما ذكر المختلطين معنى لسبقهما فى الوجود خدمة للبشر أتبعهما المختلطين حساً { **وما خلق الذكر والأنثى** } ولما ذكر المحسوس التخالف من المعاني والأجرام أتبعه ما هو معقول التباين من الأعراض فقال : { **إن سعيكم لشتى** }أي مختلفاً باختلاف ما تقدم .

﴿ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى . وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى . فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى . وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى . وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى . فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى ﴾(الليل : ٥-١٠).

لما تقدم ذكر المزكي وثمرته لأنه أشرف أتبعه ذكر المدسي وشقوته ، وقد جاء الترتيب فى الثاني على غرار الأول حيث قابل الإعطاء والتقوى البخل والاستغناء وقابل التصديق بالحسنى التكذيب بــها .

﴿ إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَى . وَإِنَّ لَنَا لَلآخِرَةَ وَالأُولَى ﴾ (الليل : ١٢-١٣).

تقدم الجار والمجرور فى الموضعين لإفادة الاختصاص ، كما تقدم ذكر الآخرة على الأولى لشرف الآخرة على الدنيا .

سورة الضحى

نقل البقاعي عن الإمام أبي جعفر بن الزبير قوله: " لما قال تعالى : **﴿ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴾** (الشمس : ٨) ، ثم أتبعه بقوله فى الليل: **﴿فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى ٠ وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى٠وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى ٠فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى٠وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّى ﴾** (الليل : ٧-١١)، وبقوله: **﴿ إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَى٠ وَإِنَّ لَنَا لَلآخِرَةَ وَالأُولَى ﴾** (الليل : ١٢-١٣).

فلزم الخوف واشتد الفزع وتعين على الموحد الإذعان والتسليم والتضرع فى التخلص والتجاؤه إلى السميع العليم ،أنّس تعالى أحب عباده إليه وأعظمهم منـــزلة لديه وذكر له ما منحه من تقريبه واجتبائه وجمع خير الدارين له فقال تعالى:**﴿ وَالضُّحَى ٠ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى ٠ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى ٠ وَلَلآخِرَةُ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الأُولَى ﴾** [(١)].

﴿ وَالضُّحَى ، وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى ﴾ (الضحى : ١-٢) .

تقدم فى هذه السورة ذكر الضحى على ذكر الليل، بينما تقدم ذكر الليل فى السورة السابقة-سورة الليل- أقول: إن بالليل والنهار ينتظم مصالح الخلق والليل له فضيلته من حيث السبق والسبات والراحة ووقت الخلوة بالعبادة وكذلك النهار له فضله فهو وقت الضياء والاشتغال بالمصالح والمعاش ، فلما كان لكل واحد فضيلة ليست للآخر ، قدم هذا على ذاك تارة وذاك أخرى .

﴿ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيماً فَآوَى ٠ وَوَجَدَكَ ضَالاً فَهَدَى٠وَوَجَدَكَ عَائِلاً فَأَغْنَى٠ فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلاَ تَقْهَرْ ٠ وَأَمَّا السَّائِلَ فَلاَ تَنْهَرْ ٠ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴾ (الضحى : ٦-١١) .

قال أبوحيان: " ويظهر أنه لما تقدم ذكر الامتنان عليه بذكر الثلاثة ، أمره بثلاثة، فذكر اليتيم أولاً وهي البادية ، ثم ذكر السائل ثانياً وهو العائل ، وكان أشرف ما امتن عليه هي الهداية فترقى من هذين إلى الأشرف وجعله مقطع السورة وإنما وسط ذلك عند ذكر الثلاثة ، لأنه بعد اليتيم هو زمان

---

(١) نظم الدرر ص٤٥٤.

التكليف وهو- عليه الصلاة والسلام - معصوم من اقتراف ما لا يرضي الله عز وجل في القول والفعل والعقيدة ، فكان ذكر الامتنان بذلك على حسب الواقع بعد اليتيم وحالة التكليف . وفي الآخر ترقى إلى الأشرف فهما مقصدان في الخطاب "[1].

قال الرازي: " فإن قيل فما الحكمة في أن أخر الله تعالى حق نفسه عن حق اليتيم والعائل ؟ قلنا فيه وجوه:

أحدها : كأنه يقول أنا غني وهما محتاجان وتقديم حق المحتاج أولى.

وثانيها: أنه وضع في حظهما الفعل ورضي لنفسه بالقول .

وثالثها: أن المقصود من جميع الطاعات استغراق القلب في ذكر الله تعالى ، فجعل خاتمة هذه الطاعات على ذكر الله ".[2]

أقول: وفي الآيات الثلاث الأخيرات رد على الزمخشري في القول بالتخصيص دائما عند تقدم المفعول على الفاعل، ودليل ذلك أنه يلزم القول بالتخصيص أن يقهر النبي ﷺ غير اليتيم ، وأن ينهر غير السائل ، وألا يحدث إلا بنعمة الله . وهذا قول بين البطلان .

---

(١) تفسير البحر المحيط جـ٨ ص٤٨٢.

(٢) تفسير مفاتيح الغيب جـ٣١ ص٢٢١.

سورة الشرح

مقصود هذه السورة تفصيل ما فى آخر الضحى من النعمة ﴿ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴾(الضحى : ١١)،وبيان أن المراد بالتحديث بـــها هو شكرها بالنصب فى عبادة الله والرغبة إليه بتذكر إحسانه وعظيم رحمته ﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ٠ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ٠الَّذِي أَنقَضَ ظَهْرَكَ٠ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ٠ فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا٠ إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ٠فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ ٠وَإِلَى رَبِّكَ فَارْغَبْ ﴾ (الشرح : ١-٨) .

تقدم الجار والمجرور { لك } للبدءاة به لشرف مقامه وإظهار الاهتمام مع ما فيه من التشويق حيث عين المشروح له ولم يعين المشروح ، فزاد تشوف النفس إليه ليكون أضخم له ، فبينه ليكون بياناً بعد إبـــهام وليكون أعظم فى التنويه به ، وأجل فى التعريف بأمره فقال : { صدرك }، ولما كان شرف الذات فى أحسن الصفات لا يصفو إلا بعد الظهور فيكون كالعلامات الواضحات أتبعه قوله{ ورفعنا لك ذكرك } ،وتقدم ذكر العسر على اليسر لأنه أسبق فى الوجود ، وإنما يكون العسر بعد اليسر.

سورة التين

لما ذكر سبحانه فى السورة السابقة عظيم منـــزلة النبي ﷺ جاءت سورة التين لتبين فضله من جهة أخرى ، وهو شرف الأصل وشرف المكان ،فالقسم الوارد فى هذه السورة﴿**وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ** ﴾(التين : ١)، إشارة إلى بلاد الشام مهاجر أبيه إبراهيم ومولد أخيه عيسى -عليهما السلام- ﴿ **وَطُورِ سِينِينَ** ﴾ (التين : ٢) ، إشارة إلى موسى واختصاصه بالرسالة والتكليم من هذا المكان المقدس.

﴿ **وَهَذَا الْبَلَدِ الأَمِينِ** ﴾ (التين : ٣) إشارة إلى مكة بلد النبي ﷺ .

﴿**وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ ۝ وَطُورِ سِينِينَ ۝وَهَذَا الْبَلَدِ الأَمِينِ** ﴾ (التين: ١-٣).

بدأ بالقسم بالتين والزيتون إشارة إلى مواضع نبتــهما فى بلاد الشام إيماء إلى من كان بـــها من الأنبياء لا سيما إبراهيم ولوط وإسحق ويعقوب وعيسى ، وأتبع ذلك بطور سينين حيث إقامة موسى وهارون وفيه كلم الله موسى واصطفاه رسولاً ثم ثلث بـــ{ **وهذا البلد لأمين** } إشارة إلى خاتمهم محمد - عليهم جميعاً الصلاة والسلام- ، وقد بدئ بذكر التين لأنه وحده غذاء كما أنه دواء ، أما الزيتون فلا يكتفى به وحده كغذاء وطعام.

قال صاحب كتاب الطب القرآني غذاء ودواء: " ترجع القيمة الغذائية لثمرة التين لما تحتويه من نسبة عالية من المواد السكرية وعنصري الكالسيوم والحديد ثم ذكر بعد ذلك الفوائد الطبية للتين كعلاج للإمساك وكسل الأمعاء والجروح والقروح واضطرابات الحيض وإدرار البول واللبن" [(١)].

﴿**إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ** ﴾(التين : ٦).

تقدم الجار والمجرور لإفادة اختصاص الأجر بـــهم لا لغيرهم .

---

(١) الطب القرآني غذاء ودواء ص١٩٢،١٩٣.

سورة العلق

بعد أن ذكرت سورة التين أن الله سبحانه هو خالق الإنسان فى أحسن تقويم ،وأنه سبحانه لم يخلق هذا الخلق عبثاً وإنما لحكمة ، جاءت أولى هذه الحكم فى بداية سورة العلق وهو الأمر بالقراءة للقرآن الكريم الذي به تمام المعرفة بـــهذا الخالق العظيم وما يجب على العبد تجاه ربه من حق التعظيم.

﴿ **اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ • خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ • اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ • الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ • عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ** ﴾ (العلق : ١-٥).

بدأ بالخلق لأنه محسوس بالعين فهو أعلق بالفهم ،وأقرب إلى التصور وأدل على الوجود وعظيم القدرة وكمال الحكمة فكانت البداءة به فى هذه السورة التي هي أول ما نـــزل أنسب الأمور لأن أول الواجبات معرفة الله، ثم جاء قوله:{ **خلق الإنسان من علق** } بيان لما قبله ثم بعد الخلق لم يتركهم هملاً ضائعين بل تولت معه عليهم وأحاطهم كرمه وشملتـــهم عنايته فجاء قوله: { **اقرأ وربك الأكرم** } لبيان ما فعله بعباده بعد الخلق وبعد نعم الإيجاد والخلق جاءت نعمة الإكرام وأخصها نعمة العلم فقال:{ **الذي علم بالقلم • علم الإنسان ما لم يعلم** }.

قال الإمام ابن القيم: " ثم تأمل نعمة الله على الإنسان بالبيانين البيان النطقي، والبيان الخطي، وقد اعتد بـــهما سبحانه فى جملة ما اعتد به من نعمة على العبد فقال فى أول سورة أنزلت على رسول الله ﷺ: {**اقرأ باسم ربك الذي خلق • خلق الإنسان من علق • اقرأ وربك الأكرم • الذي علم بالقلم •علم الإنسان ما لم يعلم** } فتأمل كيف جمع فى هذه الكلمات مراتب الخلق كلها ، وكيف تضمنت مراتب الموجودات الأربعة بأوجز لفظ وأوضحه وأحسنه ، فذكر أولاً عموم الخلق وهو إعطاء الوجود الخارجي ، ثم ذكر ثانيا خصوص خلق الإنسان ،لأنه موضع العبرة ، والآية فيه عظيمة ، ومن شهوده عما فيه محض تعدد النعم وذكر مادة خلقه ها هنا من العلقة، وفي سائر المواضع يذكر ما هو سابق عليها ، أما مادة الأصل وهو التراب والطين أو الصلصال الذي كالفخار أو مادة الفرع وهو الماء المهين ، وذكر فى هذا الموضع أول مبادئ تعلق التخليق وهو العلقة ، فإنه كان قبلها نطفة فأول انتقالها إنما هو إلى العلقة ، ثم ذكر ثالثا التعليم بالقلم الذي هو من

أعظم نعمه على عباده ،إذ به تخلد العلوم وتثبت الحقوق وتعلم الوصايا وتحفظ الشهادات ويضبط حساب المعاملات الواقعة بين الناس وبه تقيد أخبار الماضين للباقين اللاحقين ، ولولا الكتابة لانقطعت أخبار بعض الأزمنة عن بعض، ودرست السنن وتخبطت الأحكام، ولم يعرف الخلف مذاهب السلف . وكان معظم الخلل الداخل على الناس فى دينـــهم ودنياهم إنما يعتورهم من النسيان الذي يمحور صور العلم من قلوبـــهم فجعل لهم الكتاب وعاء حافظاً للعلم من الضياع كالأوعية التي تحفظ الأمتعة من الذهاب والبطلان ، فنعمة الله عز وجل بتعليم القلم بعد القرآن من أجل النعم"[1] .

﴿ إِنَّ إِلَى رَبِّكَ الرُّجْعَى ﴾ (العلق : ٨) .

تقدم الجار والمجرور لإفادة الحصر والاختصاص فلا رجوع إلا إلى الله .

﴿ أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَى. عَبْداً إِذَا صَلَّى. أَرَأَيْتَ إِن كَانَ عَلَى الْهُدَى. أَوْ أَمَرَ بِالتَّقْوَى. أَرَأَيْتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّى ﴾ (العلق : ٩-١٣).

تقدم قوله: { أرأيت الذي ينهى ،عبداً إذا صلى } على قوله: **{ أرأيت إن كذب وتولى }** للبداءة بأقبح صفاته وهي أمره بالمنكر وصده عن الخير وعدم اقتصاره فى تكذيبه على نفسه بل تعدى أمر نفسه إلى كونه آمراً غيره بترك الإيمان .

﴿ كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ ﴾ (العلق : ١٩) .

تقدم الأمر بالسجود على الاقتراب من باب تقديم السبب على المسبب عنه ، فلما كان السجود سبب الاقتراب بدأ به ، وعن أبي هريرة ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ **{ أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد فأكثروا الدعاء }**[2] روى أحمد والبخاري ومسلم والترمذي والنسائي وابن ماجه عن المغيرة بن شعبة وعائشة -رضي الله عنــهما - بألفاظ مختلفة لما قالت للنبي ﷺ : قد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر فما هذا البكاء فى السجود وما هذا الجهد الشديد ؟ قال : **{ أفلا أكون عبداً شكوراً }**[2].

---

(١) مفتاح دار السعادة ومنشور دار الولاية ، ص٢٨٩. (٢) مسند الإمام أحمد باقي مسند المكثرين حديث رقم{ ٩٠٨٣ }.

(٢)صحيح البخاري كتاب الجمعة رقم{١٠٦٢} وكتاب تفسير القرآن رقم{٤٤٥٩} وصحيح مسلم كتاب صفة القيامة والجنة والنار رقم {٥٠٤٥} ورقم {٥٠٤٦} ورواه الترمذي في كتاب الصلاة رقم{ ٣٧٧ } النسائي كتاب قيام الليل وتطوع النهار رقم{ ١٦٢٦}وابن ماجه كتاب إقامة الصلاة والسنة فيها رقم { ١٤٠٩}و{ ١٤١٠} ورواه أحمد في مسند الكوفيين رقم{ ٧٥٣٢} وباقي مسند الأنصار رقم { ٢٣٧٠٠ }.

سورة القدر

لما أمر سبحانه فى سورة العلق بالقراءة أي قراءة القرآن الكريم جاءت سورة القدر لتبين عظيم هذا القرآن الذي أنزله الله وأمر بقراءته ولا سيما فى هذه الليلة العظيمة التي أنزل فيها .

﴿ **سَلامٌ هِيَ حَتَّى مَطْلَعِ الفَجْرِ** ﴾ (القدر : ٥).

تقدم الخبر { **سلام** } على مبتدئه {**هي**} لنفي غير السلامة منها ، أي ما هي إلا سلامة وخير ليس فيها أي شر ، أما لو قيل هي سلام لاحتمل أن تكون سلاماً وغير سلام .

سورة البينة

هذه السورة تكملة للسورتين المتقدمتين - العلق والقدر- حيث أمر النبيﷺ بقراءة القرآن الذي به قامت حجته وبانت طريقته ،ثم أتبع ذلك ببيان ليلة إنزاله ، وجاءت هذه السورة -البينة - لتبين أن هذا الكتاب هو الذي كانت اليهود تستفتح به على مشركي العرب وتعظم أمره وأمر الآتي به حتى إذا حصل ذلك مشاهداً لهم كانوا أول كافر به فقال تعالى :

﴿ لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ ۝ رَسُولٌ مِّنَ اللَّهِ يَتْلُو صُحُفاً مُّطَهَّرَةً ﴾ (البينة : ١-٢) .

﴿ وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلاَةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ ﴾ (البينة : ٥) .

تقدم الجار والمجرور { **له** } لإفادة الاختصاص بحصر الإخلاص فى العبادة لله وحده .

﴿ جَزَاؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِم جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً رَّضِيَ اللَّهُ عَنهُم وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ ﴾ (البينة : ٨) .

لما وصف تعالى الجنة أتبعه بما هو أفضل من الجنة وهو الخلود أولاً والرضا ثانياً وروي أنه -عليه السلام- قال: { **إن الخلود فى الجنة خير من الجنة ورضا الله خير من الجنة** } .

وحول هذا المعنى يعجبني ما ذكره الدكتور **عبد الرحمن الحجي** وهو فى معرض حديثه عن الهجرة حيث قال:{ **فلقد اشتاقوا إلى الجنة، لا إلى أطيارها وأزهارها ولا إلى أنهارها وثمارها فحسب ، بل قبل ذلك اشتاقوا أكثر وأكثر إلى رضا الله فى دار المقامة عنده وصحبة النبي ﷺ وصحبه** }[1] .

قال الرازي: "الصفة الثانية وهي الرضا ، فاعلم أن العبد مخلوق من جسد وروح فجنة الجسد هي الجنة الموصوفة ، وجنة الروح هي رضا الرب ،

---

(١) السيرة النبوية منهجية دراستها واستعراض أحداثها ص٢٩٠.

والإنسان مبتدأ أمره من عالم الجسد ، ومنتهى أمره من عالم العقل والروح ، فلا جرم ابتدأ بالجنة وجعل المنتهى هو رضى الله ، ثم إنه قدم رضا الله عنـــهم على قوله: { **ورضوا عنه** } لأن الأزلي هو المؤثر فى المحدث ، والمحـــدث لا يؤثر فى الأزلي[1] وهذا التقديم للسبق نظير قوله تعالى:﴿**فَسَوْفَ يَـأْتِي اللَّـهُ بِقَوْمٍ يُحِبـــهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلاَ يَخَافُونَ لَوْمَةَ لآئِمٍ ذَلِـكَ فَضْـلُ اللَّـهِ يُؤْتِيـهِ مَـن يَشَـاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ**﴾ (المائــدة: ٥٤) ، حيث تقدم حبه على حبـــــهم لسـبق وجوده منه سبحانه أولاً ونظير قوله تعالى :﴿ **وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُباً لِّلَّـهِ** ﴾ (البقرة : ١٦٥) .

قال الخازن فى هذه الآية :"لأن الله أحبـــهم أولاً فأحبوه"[2] .

---

(١) تفسير مفاتيح الغيب ج٣٢ص٥٥.

(٢) تفسير الخازن ج١ ص١٨.

سورة الزلزلة

جاءت سورة الزلزلة عقب سورة البينة لتبين حصول جزاء الفريقين ومآل الصنفين المذكورين فى قوله تعالى: { **إن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين** } إلى قوله: { **أولئك هم شر البرية** } وقوله:{ **إن الذين ءامنوا وعملوا الصالحات أولئك هم خير البرية** }إلى آخر السورة أعقب سبحانه ذلك بمآل الصنفين وبيان حال الفريقين.

﴿ **فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ ٠وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَراً يَرَهُ** ﴾ (الزلزلة : ٧-٨) .

﴿ **إِذَا زُلْزِلَتِ الأَرْضُ زِلْزَالَهَا ٠وَأَخْرَجَتِ الأَرْضُ أَثْقَالَهَا** ﴾ (الزلزلة : ١-٢).

تقدمت الزلزلة تقديماً وجودياً لأنـــها أول ما يحدث من علامات الساعة حيث تحدث الزلزلة ، ثم تتشقق الأرض ثم يخرج منها الأموات بعد ذلك ، ولما أخبر تعالى بإخراج الأثقال اشتد التشوف إلى هيئة ذلك الإخراج وصفته فقال: ﴿ **يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتاً لِّيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ** ﴾ (الزلزلة : ٦)، ثم بدأ بذكر جزاء الخَيْر لشرفه قبل ذكر الشر فقال: ﴿ **فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ ٠وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَراً يَرَهُ** ﴾ (الزلزلة : ٧-٨) .

سورة العاديات

جاءت سورة العاديات لتبين أهم ما تخرج الأرض من أثقالها وهو الموتى المقبورين فى باطن الأرض ﴿ **أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِى الْقُبُورِ** ﴾(العاديات : ٩)، إذ على هؤلاء يكون البعث والحساب والثواب والعقاب .

﴿ **وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحاً ، فَالْمُورِيَاتِ قَدْحاً ، فَالْمُغِيرَاتِ صُبْحاً ، فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعاً ، فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعاً ، إِنَّ الإِنسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ ، وَإِنَّهُ عَلَى ذَلِكَ لَشَهِيدٌ ، وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ** ﴾ (العاديات : ١-٨).

بدأ بذكر الخيل العادية ثم أتبعه ما ينشأ عنها وهو ظهور النار من حوافرها بفعل الاصطكاك بالأحجار ، ثم ذكر المغيرات لأنها أشرف من المنهزمات الموليات ، وذلك من باب ذكر النتيجة قبل حدثها لشرفها ، ثم ذكر ما يحدث بعد الإغارة من الكر والفر فى جميع الجوانب والاتجاهات مما ينشأ عنه الغبار فقال :{ **فأثرن به نقعاً** } وبعد المدافعة من الفريقين يبدو بوادر النصر عندما يتخلل الفريق المهاجم وسط الجيش قال:{**فوسطن به جمعاً**}.

تقدم متعلق الخبر { **لربه** } على الخبر { **لكنود** }فى قوله:{**إن الإنسان لربه لكنود** } إذ أصل الترتيب : إن الإنسان لكنود لربه ، والسبب هنا هو الاهتمام بالبداءة بذكر سبحانه ، مع ما أفاده من تعظيم أمر هذا الجحود ، فالكنود هو الكفور الجحود لنعم الله تعالى الذي يذكر المصائب وينسى النعم، فقدَّم اسمه سبحانه لأن الكفر بنعمه ليس كالكفر بنعم البشر ، إذ إحسانه وإنعامه فوق كل إحسان وإنعام ، بل هو مصدر كل إحسان وإنعام{**وما بكم من نعمة فمن الله** } ، هذا مع ما فى التقديم من حسن الفاصلة التي جاءت تابعة للمعنى وليس استقلالاً كما ادعى **السمين الحلبي** أن تقديم المتعلق للفواصل.[1]

كما تقدمت المتعلق فى قوله سبحانه: { **وإنه على ذلك لشهيد ، وإنه لحب الخير لشديد** } للاهتمام بالمذكور المتقدم الذي سيق الكلام من أجله .

---

(١) تفسير الدر المصون ج٦ ص٥٦٠.

سورة القارعة

لما ختمت العاديات بالبعث ذكر صيحته فقال: **﴿الْقَارِعَةُ﴾**(القارعة : ١) . لأنــها تقرع أسماع الناس وتدقها دقاً شديداً مزعجاً ، وجاءت سورة القارعة كأنــها تجيب عن سؤال سائل عن قوله تعالى السابق فى سورة العاديات: **{ أفلا يعلم إذا بعثر ما فى القبور• وحصل ما فى الصدور• إن ربــهم بــهم يومئذ لخبير }** فجاء الجواب فى سورة القارعة إنه يوم القيامة يوم القارعة يوم الأمر العظيم الهائل .

﴿ الْقَارِعَةُ • مَا الْقَارِعَةُ • وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ • يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ •وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنفُوشِ •فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ • فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ •وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ •فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ •وَمَا أَدْرَاكَ مَاهِيَهْ • نَارٌ حَامِيَةٌ ﴾ (القارعة : ١-١١) .

بدأ بذكر الناس لأن كل ما يحدث فى يوم القيامة من أهوال إنما هو من أجل حسابــهم ، أو أن يكون التقديم من باب الترقي فى التخويف والترهيب من العظيم إلى ما هو أعظم منه ، لأنه لما كانت الجبال أشد ما تكون من الخلق ولما كان اليوم يوصف من أجل ما يقع فيه سبب عن ذلك قوله: **{فأما من ثقلت موازينه• فهو فى عيشة راضية• وأما من خفت موازينه • فأمه هاوية}** .

سورة التكاثر

لما تقدم فى سورة القارعة من أمر الساعة وتقسيم الناس إلى شقي وسعيد وختم بالشقي افتتحت هذه السورة بعلة الشقاوة ومبدأ الحشر والنشر ليرتدع الكافر ويتوب العاصي ، فكانت كالتصريح بما أشارت إليه العاديات من أسباب الهلاك يوم الجمع الذي صورته القارعة الجمع للمال والإخلاد إلى دار الزوال ﴿ **أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ . حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ . كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ . ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ . كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ . لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ . ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ . ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ** ﴾ (التكاثر : ١-٨).

﴿**كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ . لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ . ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ** ﴾ (التكاثر : ٣-٥) .

تقدمت الرؤية الأولى فى قوله تعالى : { **لترون الجحيم** } لأنها رؤية عامة للكافرين والمؤمنين ، أما المؤمن فهي رؤية ورود بلا ولوج وهي التي قال الله فيها : ﴿ **وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْماً مَّقْضِياً . ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا** ﴾ (مريم : ٧١-٧٢)، أما الكافرون فهم يرونها عياناً بالدخول فيها ومواقعة العذاب وهو قوله تعالى:﴿ **وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيّاً** ﴾ (مريم : ٧٢)، وقد تكون الرؤيا الأولى هي رؤية جهنم عندما يؤتى بها فى عرصات القيامة يجرها سبعون ألف ملك- الحديث - حيث يراها أهل الموقف جميعاً من بعيد، ثم يراها عياناً من يدخلها من الكفار وعصاة المؤمنين الذين استوجب عليهم دخولهم فيها ثم يخرجون من بعد ، والتقديم هنا للترقي فى الرؤية .

سورة العصر

لما غلب على الإنسان الانشغال بنعيم الدنيا عن التزود للآخرة وكان ذلك هو سبب هلاك الكثيرين جاءت سورة العصر بـــهذا القسم على أن هؤلاء فى خسارة إلا المؤمنين ﴿ وَالْعَصْرِ • إِنَّ الإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ • إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾ (العصر : ١-٣).

تقدم التواصي بالحق على التواصي بالصبر لأنه لن يكون صبراً محموداً إلا إذا كان على الحق ، كما أن التواصي بالحق يدخل فيه أمر الدين كله من فعل الطاعات وترك المحرمات والصبر على المقدرات ، وكذلك يدخل فيه الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وكلها تحتاج إلى الصبر ، فالعمل يكون أولاً والصبر ثانياً .

سورة الهمزة

مقصود هذه السورة بيان هؤلاء الخاسرين المذكورين فى سورة العصر فقد بينت سورة العصر أوصاف الناجين ولم تبين أوصاف الخاسرين فجاءت سورة الهمزة تبين أحوال هؤلاء الخاسرين ﴿ **وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ . الَّذِي جَمَعَ مَالاً وَعَدَّدَهُ . يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ . كَلاَّ لَيُنْبَذَنَّ فِى الْحُطَمَةِ . وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحُطَمَةُ . نَارُ اللَّهِ الْمُوقَدَةُ . الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الأَفْئِدَةِ . إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ . فِى عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍ** ﴾(الهمزة : ١-٩) .

افتتحت السورة بـ{ **ويل** } للبداءة بما يسوء من هذه صفته مع ما تفيده من التشويق لمعرفة لمن يكون هذا الويل ، وإذا كان الهمز بمعنى الذي يطعن فى العلن ، واللمز هو الذي يطعن فى السر ، فالبداءة به بعد الويل من باب البداءة بالأسوأ من تلك الصفات .

{ **إنها عليهم مؤصدة** } تقدم الجار والمجرور ليس للاختصاص ، فإنها مؤصدة على غيرهم ولكم من باب الاهتمام والترهيب .

سورة الفيل

لما ذكر سبحانه فى سورة الهمزة عاقبة المغرورين بالأموال وما كنـــزوه وأعدوه وأن مرجعهم إلى النار ذكر حالاً لمثال مشهود لبعض هؤلاء فى الدنيا وهم أصحاب الفيل الذين اغتروا بأموالهم وقوتـــهم ﴿ **أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الفيل ٠ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فى تَضْلِيل ٠ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْراً أَبَابِيلَ ٠ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيل ٠ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ** ﴾(الفيل : ١-٥).

﴿ **وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ** ﴾ (الفيل : ٣).

تقدم الجار والمجرور { **عليهم** } على متعلقه { **طيراً أبابيل** } للاختصاص بـــهم ، حيث أرسل الطير عليهم وحدهم و لم يرسل إلى غيرهم.

سورة قريش

مقصود هذه السورة الدلالة على بيان نعمة الله بقريش الذين قصدهم أصحاب الفيل وكيف أن الله أنعم عليهم بنعمة الأمن والإطعام عكس السابقين المعتدين الذين أرادوا بيت الله السوء اغتراراً بأموالهم وقوتهم ﴿ **لإيلاف قُرَيْشٍ إيلافهِمْ. رحلَةَ الشِّتَاء وَالصَّيْف. فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا البَيْت. الَّذي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهم مِّنْ خَوْف** ﴾ (قريش : ١-٤)

وقد نقل الزركشي عن الأخفش قوله : اتصالها بها - أي بسورة الفيل- من باب قوله: ﴿**فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُواً وَحَزَناً** ﴾ (القصص : ٨) .

﴿ **الَّذي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهم مِّنْ خَوْف** ﴾ (قريش : ٤).

تقدم الجوع على الخوف إذ هو الأهم والأعظم فى الامتنان إذ إنه مظنة الهلكة لاسيما وهم يقطنون فى بلد غير ذي زرع ، وقد مر ذلك فى سورة البقرة فى الآية رقم ١٥٥وفي سورة النحل بشيء من التفصيل فى الآية ١١٢.

سورة الماعون

جاءت هذه السورة كالمكملة لسابقتها ، فلما ذكرت السابقة فضل الله وإنعامه على قريش بالإطعام والأمن ذكرهم ألا ينسوا الضعفاء من البشر اليتيم والمسكين ، مع المداومة على شكر الله بلزوم التقرب إليه بالصلاة ﴿ **أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ . فَذَلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ . وَلاَ يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ . فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ . الَّذِينَ هُمْ عَن صَلاَتِـــهِم سَاهُونَ . الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ . وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ** ﴾ (الماعون : ١-٧).

﴿ **فَذَلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ . وَلاَ يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ** (الماعون : ٢-٣) .

تقدم الذم واللوم على من جفا اليتيم على من لم يحض على طعام المسكين وقد مر بنا ذلك سابقاً فى سورة البقرة وسورة البينة .

﴿ **الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ . وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ** ﴾ (الماعون : ٦-٧) .

تقدم قوله: { **يراءون** } على { **يمنعون الماعون** } من باب تقديم الصلاة على الزكاة فالمراءاة فى الصلاة والمنع فى الزكاة .

سورة الكوثر

لما كانت سورة الماعون ناهية عن مساوئ من البخل والشح وعدم معاونة الآخرين وعدم الاعتناء بأمر الصلاة جاءت سورة الكوثر بالأمر بمحاسن هذه الأخلاق ﴿ **إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ ۝ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ ۝ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ** ﴾ (الكوثر : ١-٣) ، وقد زاد الزركشي الأمر وضوحاً وبياناً فقال: ومن لطائف سورة الكوثر أنـــها كالمقابلة للتي قبلها ، لأن السابقة قد وصف الله فيها المنافق بأمور أربعة : البخل ، وترك الصلاة، والرياء فيها ، ومنع الزكاة .

فذكر هنا فى مقابلة البخل: {**إنّا أعطيناك الكوثر**} أي الكثير وفي مقابلة ترك الصلاة {**فصلِّ**} أي : دُم عليها ، وفي مقابلة الرياء { **لربك** } أي: لرضاه لا للناس وفي مقابلة منع الماعون : { **وانحر** } وأراد به: التصدق بلحم الأضاحي "[1].

﴿ **فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ** ﴾ (الكوثر : ٢) .

تقدم أمر الصلاة هنا - صلاة عيد الأضحى- على الأمر بالنحر -الأضحية- لوجوب مراعاة ذلك الترتيب ، حيث يجب لمن أراد أن يضحي أن يبدأ بصلاة العيد أولاً ، ثم تكون الأضحية بعد الصلاة قال الحافظ ابن كثير: "الصحيح أن المراد بالنحر ذبح المناسك" .

وقد جاء فى حديث البراء بن عازب عند البخاري ومسلم: { **كان رسول الله ﷺ يصلي العيد ثم ينحر نسكه ،ويقول من صلى صلاتنا ونسك نسكنا فقد أصاب النسك ومن نسك قبل الصلاة فلا نسك له** ..}ورواية مسلم عن جندب بن سفيان ﷺ قال : شهدت الأضحى مع رسول الله ﷺ فلما قضى صلاته بالناس نظر إلى غنم قد ذبحت فقال : { **من ذبح قبل**

---

(١) البرهان ج١ص٦٥.

الصلاة فليذبح شاة مكانـــها ومن لم يكن ذبح فليذبح على اسم الله }[1]
وقد مر بنا وجوب مراعاة هذا الترتيب فى سورة البقرة فى قوله تعالى : {**إن الصفا والمروة**} وفي قوله تعالى: { **وذكر اسم ربه فصلى** }، وكل ذلك إتباعا لقول النبي – عليه الصلاة والسلام–:
{ **ابدؤوا بما بدأ الله به** } وقد مر تخريجه .

قال الرازي: " ثم أمره حال حياته بمجموع الطاعات ، لأن الطاعات إما أن تكون طاعة البدن أو طاعة القلب ، أما طاعة البدن فأفضله شيئان ، لأن طاعة البدن هي الصلاة ،وطاعة المال هي الزكاة ،وأما طاعة القلب فهو أن لا يأتي بشيء إلا لأجل الله واللام فى قوله: { **لربك** } يدل على هذه الحالة ،ثم كأنه نبه على أن طاعة القلب لا تحصل إلا بعد حصول طاعة البدن فقدم طاعة البدن فى الذكر وهو قوله :{ **فصل** } وأخر اللام الدالة على طاعة القلب تنبيهاً على فساد مذهب الإباحة فى أن العبد قد يستغني بطاعة قلبه عن طاعة جوارحه "[2] .

أقول: وما قاله الرازي فيه نظر حيث إن أعمال الجوارح فى كل الطاعات الواجبات والمندوبات شرط قبولها هو إخلاص النية وإفراد الله بالقصد ، وهذا إنما يكون قبل العمل بإجماع العلماء لا بعده فكيف تكون طاعة البدن سابقة على طاعة القلب وهي مترتبة عليه فى الوجود ، فلولا طاعة القلب بالمعرفة والإيمان والانقياد والإذعان لما كان هناك امتثال لأمر ولا اجتناب لعصيان فهي سابقة فى الوجود ولازمة لصحة ما يتقرب به إلى المعبود.

---

(١) صحيح مسلم كتاب الأضاحي باب وقتها حديث رقم { ١٩٦٠ }.
(٢) تفسير مفاتيح الغيب ج٣٢ ص١٣٥.

سورة الكافرون

مقصودها لإثبات البراءة من مبغضيه ومخالفيه ﷺ الذين ختمت بـــهم سورة الكوثر .

{ إن شانئك هو الأبتر } ، فجاءت هذه السورة لتبين تمام البراءة من هؤلاء وعبادتـــهم الباطلة ، ولما سبقت سورة الكوثر فى إثبات العبادة لله جاءت سورة الكافرون فى نفي العبادة عما سوى الله

﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ . لاَ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ . وَلاَ أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُد . وَلاَ أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ . وَلاَ أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ . لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ﴾ (الكافرون : ١-٦) .

تقدم قوله : { **لا أعبد ما تعبدون** } للاهتمام بما هو أهم وهو هنا البراءة من الشرك ومن آلهة المشركين ، وقد مر بنا ذلك من قبل فى سورة البقرة الآية ٢٥٦ ، وقد تقدم هنا أيضاً الجار والمجرور { **لكم** } و {**لي**} ليحمل معنى الاختصاص أي اختصاصهم بآلهتـــهم لما قد صرح بالبراءة منه وكذلك اختصاصه بدينه لعدم مشاركته فيه فى أي وجه من الوجوه وعدم استطاعتـــهم صرفه عنه أبداً .

قال الخازن فى قوله تعالى:﴿ وَلاَ أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ﴾ (الكافرون : ٥) والمكرر فى الآية الخامسة أنه يحتمل أن تكون الآية الأولى للحال والثانية للاستقبال وقيل يصلح كل واد منـــهما أن يكون للحال وللاستقبال"[1].

أقول: ويختلف المعنى من الحال للاستقبال ، فإذا أريد بالآية الأولى الحال والثانية للاستقبال ، فالترتيب هنا مراعاة للترتيب الوجودي ، وإذا كانت الأولى للاستقبال والثانية للحال فتقديم الاستقبال على الحال وإن كان متأخراً عنه زماناً للتيئيس منه ألا يطمعوا فى عبادته آلهتـــهم ، وإن كانت الآيتان بمعنى واحد فى الحال أو الاستقبال فالأولى بيان والثانية تأكيد .

---

(١) تفسير الخازن ج٦ ص٥١٥.

سورة النصر

لما دلت سورة [**الكافرون**] على أن الكفار قد صاروا إلى حالة لا يلتفت إليهم فيها ولا عبرة لهم بــها، وكان هذا غير كاف فى بيان عاقبة الفريقين المؤمنين والكافرين جاءت سورة النصر بشارة للمؤمنين ونذارة **﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ۞ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِى دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا ۞ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا﴾** (النصر : ١-٣).

تقدمُ النصر على الفتح تقدم وجودي فليس فتح إلا إذا سبق بنصر { **فسبح بحمد ربك واستغفره** } ، أما تقديم التسبيح على الحمد كما مر سابقاً فهو من باب تقديم التخلية على التحلية ، ومن باب نفي النقص قبل ثبات الكمال ، وكان النبي ﷺ يلتزم هذه الصيغة بنفس هذا الترتيب فى صلاته ، فقد كان يقول بعدما أنزلت هذه السورة فى ركوعه وسجوده:{ **سبحانك اللهم وبحمدك، اللهم اغفر لي**}، روى الإمام أحمد فى مسنده عن أبي إسحاق سمعت أبا عبيدة عن أبيه قال كان النبي ﷺ يكثر أن يقول: { **سبحانك اللهم وبحمدك ، اللهم اغفر لي إنك أنت التواب** }[1] فكان يبدأ بما بدأ به القرآن كما مر بنا فى آية الصفا والمروة فى سورة البقرة وآية الوضوء فى سورتي النساء والمائدة.

---

(١) مسند أحمد باقي مسند المكثرين من الصحابة رقم { ٣٦٩٦ } و{ ٣٩٢٦ }و{ ٤١٢٢ }و{ ٤١٢٦ }.

سورة المسد

لما ذكرت سورة النصر بشارة المؤمنين ونذارة الكافرين وكان أبو جهل من أشد مناصبي النبي ﷺ العداء جاءت هذه السورة تبين سوء عاقبته فى الدنيا والآخرة وما أحسن ما قاله الإمام جعفر بن الزبير: "هذه السورة وإن نزلت على سبب خاص وفي قصة معلومة فهي مع ما تقدمها واتصل بـــها فى قوة أن لو قيل : قد انقضى عمرك يا محمد وانتهى ما قلدته من عظيم أمانة الرسالة أمرك وأديت ما تحملته وحان أجلك ، وأمارة ذلك دخول الناس فى دين الله أفواجا واستجابتـــهم بعد تلكؤهم - يقصد الإمام بذلك سورة النصر- والويل لمن عاندك وعدل عن متابعتك وإن كان أقرب الناس إليك فقد فصلت سورة الكافرون { **قل يا أيها الكافرون** } بين أوليائك وأعدائك وبان بـــها حكم من اتبعك ومن عاداك ، ولهذا سماها عليه الصلاة والسلام المبرئة من النفاق وليعلم كفار قريش وغيرهم أنه لا اعتصام لأحد من النار إلا بالإيمان ، وأن القرابات غير نافعة ولا مجدية شيئاً إلا مع الإيمان{**لكم دينكم ولي دين**}[1]

﴿ **تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ٭ مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ ٭ سَيَصْلَى نَاراً ذَاتَ لَهَبٍ ٭ وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الحَطَبِ ٭فى جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ** ﴾ (المسد : ١-٥).

بدأت السورة أيضاً بما يسوء أبا لهب زيادة فى إهانته وإدخال الحزن عليه { **تبت يدا** } ، وتقدم المال على الكسب فى عدم الإغناء من العذاب من باب الترقي من الأخص إلى الأعم ، فإن الكسب عام يدخل فيه كل ما كان من كسبه من ولد وأهل ومكانة وسلطان ومال إلخ وهذا الترقي مثل قوله تعالى فى المعارج:﴿ **يَوَدُّ المُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابِ يَوْمِئذٍ بِبَنِيهِ ٭ وَصَاحِبَتِهِ وَأَخِيهِ ٭ وَفَصِيلَتِهِ الَّتِي تُؤْوِيهِ ٭وَمَن فى الأَرْضِ جَمِيعاً ثُمَّ يُنجِيهِ** ﴾ (المعارج:١١-١٤).

(١) نظم الدرر ج٨ ص٥٦٨.

سورة الإخلاص

لما جاءت سورة الكوثر لبيان ما أعده الله سبحانه لنبيه ﷺ في الآخرة وبيان ما فعله بمبغضه في الدنيا وجاءت سورة الكافرون بمتاركة أهل الكفر وعدم الاكتراث بـــهم ،وجاءت سورة المسد لبيان فعل الله بأشد الناس عداوة للنبي من إهلاكه وسوء منقلبه ، جاءت سورة النصر بالتبشير للنبي ﷺ بالنصر المبين والفتح الأعظم في الدنيا ومغفرة الذنب والتوبة من الله في الآخرة ، جاءت سورة الإخلاص لوصف الفاعل لذلك الذي هو خارج عن طوق الشر وخارق للعوائد وهو إظهار شخص واحد على الناس جميعاً مع شدة عداوتـــهم له ، فجاءت سورة الإخلاص كاشفة لما ثبت من عظمة ولي النبيﷺ وهو الله سبحانه وتعالى القادر على نصر أوليائه وإهلاك أعدائه فلا يعجزه شيء ولا يقوم له شيء ولا يماثله شيء ﴿ **قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ، اللَّهُ الصَّمَدُ ، لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ، وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُواً أَحَدٌ** ﴾ (الإخلاص : ١-٤).

﴿ **لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ** ﴾ (الاخلاص : ٣) .

تقدم هنا نفي الولد على نفي الوالد، فإنه لما وقع في الأول منازعة المنازعين وتقولهم اقتضت الرتبة بالطبع تقديمه في الذكر اعتناء به قبل التنـــزيه عن الوالد الذي لم ينازع فيه أحد من الأمم.

﴿ **وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُواً أَحَدٌ** ﴾ (الإخلاص : ٤).

ولقد أحسن أبوحيان الرد على الزمخشري في قوله: "فإن قلت: الكلام العربي الفصيح أن يؤخر الظرف الذي هو لغو غير مستقر ولا يقدم وقد نص سيبويه على ذلك في كتابه فما باله مقدمٌ في أفصح الكلام وأعربه ؟ قلت : هذا الكلام إنما سيق لنفي المكافأة عن ذات الباري سبحانه وتعالى ، وهذا المعنى مصبه ومركزه هو هذا الظرف فكان لذلك أهم شيء وأعناه وأحقه بالتقديم وأحراه .

قال أبوحيان رداً عليه: "وهذه الجملة ليست من هذا الباب وذلك أن قوله: { **ولم يكن له كفواً أحد** } ليس الجار والمجرور فيه تاماً إنما هو ناقص لا يصلح أن يكون خبراً لـــ{ **كان**}، بل هو متعلق بكفواً وقدم عليه،

فالتقدير ولم يكن أحد كفواً له أي مكانته فهو فى معنى المفعول متعلق بـــ{ **كفواً** } وتقدم على كفواً للاهتمام إذ فيه ضمير الباري تعالى وتوسط الخبر وإن كان الأصل التأخر ، لأن تأخر الاسم هو فاصلة فحسن ذلك . وعلى هذا الذي قررنا يبطل إعراب مكي وغيره أن {**له**} الخبر و{**كفواً**} حال من {**أحد**} لأنه ظرف ناقص لا يصلح أن يكون خبراً وبذلك يبطل سؤال الزمخشري وجوابه .

وما قاله **أبو حيان** هو الصحيح من حيث الإعراب إذ إن الكلام لا يتم المعنى به على إعراب { **له** } على أنه خبر إذ كان الترتيب على هذا النحو { **ولم يكن له أحد** } وقد صدق **أبو حيان** فى قوله : {ولا يشك من له ذهن صحيح} أنه لا ينعقد كلام من قوله: { **ولم يكن له أحد** }[1] .
حيث لا يفيد معنى ولا يثبت حكما .

---

(١) تفسير البحر المحيط ج٨ ص٥٣٠، ٥٣١.

سورة الفلق

لما كانت سورة الإخلاص تدور حول التعريف بالله سبحانه وصفات كماله وأنه لا يعجزه شيء وأنه القائم على كل شيء فلما حصل لديهم تلك المعرفة به أمر عباده أن يستعيذوا به من شر خلقه ليحصل لهم كمال التوكل عليه وحسن الاعتماد عليه والاطمئنان إلى أنه جدير بحفظهم ﴿ **قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ ۝ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ۝ وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ۝ وَمِن شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِى الْعُقَدِ ۝ وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ** ﴾ (الفلق : ١-٥).

بدأ بقوله: {**من شر مَا خلق**} أي من كل شيء سوى الله تعالى فيكون التقديم للعموم ثم أمر بالاستعاذة من شر الأشياء وهو الظلام فإنه أصل كل فساد ، وهو شر معنوي وحسي ، ثم ذكر أخص ما فى الظلام من شر وهو السحر لأنه يعمل خفية والحسد إنما يكون فى الظاهر ، ولذا كان السحر أيضاً أضر من الحسد من هذه الناحية ، لذا بدأ به قبله

سورة الناس

لما كانت سورة الفلق للاستعاذة من شر ما خلق من المضار البدنية وغيرها جاءت سورة الناس بالاستعاذة من الشيطان الذي يفسد على الإنسان أموره الأخروية ، ووجه التعلق بينها وبين سورة الفلق هو الخصوص والعموم فجاءت سورة الفلق عامة {**من شر ما خلق**}، وجاءت سورة الناس خاصة بالإستعاذة من وسوسة الصدر ﴿ **قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ٠ مَلِكِ النَّاسِ ٠ إِلَهِ النَّاسِ ٠مِن شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ٠الَّذِي يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ النَّاسِ ٠ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ** ﴾ (الناس : ١-٦).

لما كان الرب الملك متقاربين فى المفهوم ،وكان الرب أقرب فى المفهوم إلى اللطف والتربية، وكان الملك للقهر والاستيلاء وإظهار العدل وكان الرب قد لا يكون ملكاً اقتضت البلاغة تقديم الأول وإتباعه الثاني ،ولما كان الملك قد لا يكون إلهاً وكانت الإلهية خاصة لا تقبل الشرك بخلاف غيرها أنــهى الأمر إليها وجعلها غاية البيان فقال: { **إله الناس** } .

قال صاحب درة التنــزيل: " إنما اتصف الله تعالى أولاً بـــ { **رب الناس** } ثم بـــ { **ملك الناس** } ثم بـــ { **إله الناس** } ، لحكمة دعت إلى ذلك وأوجبت تقديم الأول وتعقيبه بالثاني والثالث على الترتيب الذي جاء ، لأن رب الشيء هو القائم بإصلاحه وتدبير أمره ، فنبه بتقديمه على ما ترتب من نعمه على الإنسان لما أنشأه ورباه ، وهذه أولى أحواله ، وللثانية إنعامه عليه بالعقل الذي ثبتت عليه ملكته له ، فعلم أنه عبد مملوك ، وإن الذي بلغت به تلك الحال من حد الطفولية هو الذي يملكه وأمثاله ، فجعل الوصف الثاني { **ملك الناس** }، ولما كان بعد ذلك تكليف العبادات التي هي حق الله تعالى على من عرفه نفسه أنه عبد مملوك ، وعرفه أنه عز وجل خالقه ، وتلزمه طاعته ليلتزم غاية التذلل لمن له أكبر الإنعام والأطول ، جعل الوصف الثالث { **إله الناس** } فصار الناس الذين أضيف إليهم رب كأنــهم غير الناس الذين أضيف إليهم ملك غير الذين أضيف إليه إله ، وإذا أريد بالثاني غير الأول.. فترتيب الصفات تنبيه على أن المراد بالناس ذو الأحوال المختلفة فى الصغر

والترعرع والبلوغ ، فسلم ذلك من التكرار ، ويتضمن هذا المعنى اللطيف الذي دل عليه ترتيب الصفات "[1].

أقول: وتقدمت صفة الوسواس على الخناس لسبق الوجود إذ إن الشيطان يوسوس أولاً فإذا ذكر العبد ربه خنس وهذا المعنى هو المذكور فى حديث ابن عباس رضي الله عنهما - روى البخاري فى كتاب تفسير القرآن ويذكر عن ابن عباس -رضي الله عنهما{**الوسواس**} إذا ولد خنسه الشيطان فإذا ذكر الله عز وجل ذهب وإذا لم يذكر الله ثبت على قلبه [2] .

قال الدكتور وهبة الزحيلي: "وهذه صفات ثلاث لله عز وجل : الربوبية ، والملك،والألوهية ، فهو رب كل شيء ومليكه وإلهه فجميع الأشياء مخلوقة له مملوكة عبيد له وإنما قدم الربوبية لمناسبتها للاستعاذة ، فهي تتضمن نعمة الصون والحماية والرعاية ثم ذكر الملَكية لأن المستعيذ لا يجد عوناً له ولا غوثاً إلا مالكه ثم ذكر الألوهية ، لبيان أنه المستحق للشكر والعبادة دون سواه "[3].

﴿ **مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ** ﴾ (الناس : ٦).

فالاستعاذة من الجن وهم على كثرتهم وإجماع كفارهم على حرب المؤمنين وعدم توانيهم أو تكاسلهم عن الوسوسة مع استمرارهم فيها لا يفترون عنها أولى من الاستعاذة من شياطين الإنس ابتداء ، على الرغم من أن شياطين الإنس لا يقلون شراً وكيداً لبني جنسهم عن شياطين الجن إلا أنهم أقل عدداً وقد يرجى منهم الصلاح بخلاف كفار الجن ، ولذا بدأت الاستعاذة من شياطين الجن قبل الإنس ، وقد عكس هذا التقديم فى قوله تعالى: ﴿ **وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوّاً شَيَاطِينَ الإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُوراً** ﴾ (الأنعام : ١١٢) .

وقد سبق الإشارة إليه فى سورة الأنعام ، وذكرنا أن التقديم إما لأنهم أظهر فى العداوة أو أنهم أعظم خطراً ، وهنا احتمال آخر وهو أن يكون التقدم للسبق فى الفعل ، لأن الإنس كانوا أسبق فى إظهار العداوة ،فعلمهم بالرسالات كان متأخراً عن الإنس، ويستدل على ذلك بقوله تعالى:

---

(١) درة التنزيل ص٣٠٦.
(٢) صحيح البخاري ، كتاب تفسير القرآن ، باب وإني أعيذها بك وذريتها من الشيطان.
(٣) التفسير المنير ج٣٠ ص٤٨٠.

﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَراً مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَى قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ﴾ (الأحقاف: ٢٩) .

و يؤيد الذي ذكرناه ما رواه الشيخان عن ابن عباس-رضي الله عنهما- قال : انطلق النبي - صلى الله تعالى عليه وسلم - في طائفة من أصحابه إلى سوق عكاظ وقد حيل بين الشياطين وبين خبر السماء وأرسلت عليهم الشهب قالوا: ما حال بينكم وبين خبر السماء إلا شيء حدث فاضربوا مشارق الأرض ومغاربها فانظروا ما هذا الذي حال بينكم وبين خبر السماء فانصرف أولئك الذين توجهوا نحو تهامة إلى النبي ﷺ وهو أصحابه بنخلة-اسم مكان- عامدين إلى سوق عكاظ وهو عليه الصلاة والسلام يصلي بأصحابه صلاة الفجر فلما سمعوا القرآن استمعوا له فقالوا : هذا والله الذي حال بينكم وبين خبر السماء فهناك حين رجعوا إلى قومهم"[(١)] .

أقول: وقد يكون التقديم لمناسبة ما قبله وهو ذكر الأنبياء وهم من الإنس فتقدم ذكر الإنس من أجل ذلك .

قال سيد قطب: " وقد أطلق النص الصفة أولاً { **الوسواس الخناس**} وحدد عمله{ **الذي يوسوس في صدور الناس** } ثم حدد ماهيته { **من الجنة والناس** } .. وهذا الترتيب يثير في الحس اليقظة والتلفت والانتباه لتبين حقيق الوسواس الخناس ، بعد إطلاق صفته في أول الكلام ، ولإدراك حقيقة فعله التي يتبين بها شره تأهبا لدفعه أو مراقبته "[(٢)].

قال المراغي" : وإنما قدم الربوبية لأنها من أوائل نعم الله على عباده ، ثم ثنى بذكر المالكية لأن العبد إنما يدرك ذلك بعد أن يصير عاقلاً مفكرا ، ثم ثلث بذكر الألوهية لأن المرء بعد أن يدرك ويعقل يعلم أنه هو المستوجب للخضوع والعزة والمستحق للعبادة "[(٣)].

لقد ختم سبحانه كتابه الكريم بتلك الطريق التي هي أشرف الطريقين ، فبدأ بذكر صفات الله وشرح جلاله ،وهو سورة الإخلاص ثم أتبعه بذكر مراتب مخلوقاته في سورة [**الفلق**]، ثم ختم الأمر بذكر مراتب النفس الإنسانية وعند ذلك ختم الكتاب.

---

(١) البخاري ، الجامع الصحيح ، كتاب الصلاة ، باب الجهر بقراءة القرآن حديث رقم ٧٧٣ ، وكتاب التفسير حديث رقم ٧٩٢١ صحيح مسلم ، كتاب الصلاة ، باب الجهر بالقراءة في الصبح والقراءة على الجن حديث رقم ٤٤٩ ، ٤٥٠ ، مسند الإمام أحمد بن حنبل ، مسند ابن عباس حديث رقم ٢٢١٧ ، الترمذي في السنن، كتاب التفسير حديث رقم ٣٣٢٣.

(٢) في ظلال القرآن ج٦ ص٤٠١٠.

(٣) تفسير المراغي ج١٠ ص٢٧٠.

الخلاصة

جاءت هذه الرسالة من أجل أن تغطي مساحة دراسية لم تملأ من قبل الدارسين للعلوم القرآنية من قبل فيما أعلم ، اللهم إلا إشارات عابرة ، ولمحات خاطفة دون أن يؤصل لها منهجٍ متكامل يوفيها حقها ويبرز معالمها ويحدد ملامحها لتكون موضوعاً مستقلاً يثري المكتبة الدراسية لعلوم القرآن الكريم ، كما كانت هذه الدراسة جريئة فى تناولـــها لم تعتمد ما قاله السابقون من آراء على علاتـــها مهما بلغ عددهمٍ ومهما علا شأوهم ، لا سيما وقد وجدت النقل فى بعض المسائل واضحاً والتقليد ظاهراً وليس ذلك راجع فى نظري إلا لجلالة قائله وعظيم مكانته ورواج بضاعته فتأخرت النفوس عن المعارضة وقصرت بعض العزائم عن المناهضة إيثاراً للسلامة أو إيثاراً وإعظاما للقائل وليس للمقول، وأستطيع القول بأنني قد توصلت من خلال هذه الدراسة إلى النتائج التالية .

ظهر جلياً أثر ارتباط أسلوب التقديم والتأخير بكل علوم الشريعة الأصلية والفرعية:

- **علم النحو :**

ما النحو إلا معرفة ترتب الكلام إما على أصله الموضوع من أجله أو على غير أصله ، وفي كلا المجالين دار البحث وقد أفرد له الفصل الخامس فى الباب الأول، المعنى حاكم والنحو محكوم عليه خاصة إذا تعددت وجوه الإعراب واختلفت فقد يصح النحو ويكون المعنى غير المراد لا سيما إن كان مناقضاً لمراد القرآن فقد يكون كفراً ، من أمثلته المذكورة **﴿فَلاَ يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾** (يس:٧٦).

- **البلاغة :**

البلاغة مبنية على ترتيب الألفاظ وحسن مواقعها ، وفضل الكلمة إنما يكون بحسن موقعها وحسن الترتيب اللفظي هو حسن الترتيب الذهني

ويترتب عليه تحسين المعنى أو الإخلال به ، وقد ظهر ذلك جلياً فى الفصل الثاني أثر التقديم والتأخير فى الإخلال **بفصاحة الكلام.**

دوافعه : التقديم والتأخير له دوافعه فى الشعر تم جمعها وإحصاؤها حيث وصلت بــها إلى تسعة عشر دافعاً ، وهذا ما لم أره لباحث قبلي فيما أعلم حيث إن أكثر عدد وقعت عليه عيناي كان تسعة دوافع فقط .

- **علم المعاني** :

حيث أفرد له الفصل الرابع وظهرت الفروق جلية واضحة فى المعاني تبعاً لاختلاف مواضع التركيب بين الكلمات وقد أبنا ذلك فى :

التقديم والتأخير بين الاسم والفعل فى الاستفهام التقريري.

التقرير بالفعل والتقرير بالفاعل.

التقديم والتأخير بين الاسم والفعل فى الاستفهام الإنكاري.

صورة الاستفهام الدال على الإنكار.

التقديم والتأخير فى النفي.

التقديم والتأخير بين المفعول والفاعل.

تقديم بعض معمولات الفعل على بعض.

التقديم والتأخير فى الخبر المثبت.

تقديم النكرة على المعرفة والعكس.

تقديم مثل وغير على الفعل.

إنما وتقديم المفعول وتأخيره.

حكم المبتدأ والخبر الواقع بعد إنما.

- **البديع** :

إبطال مذهب القائلين بمراعاة الفواصل وإثبات أن الفاصلة فى القرآن الكريم غير السجع فى الشعر حيث إن الفواصل تابعة للمعاني ، أما الأسجاع فالمعاني تابعة لــها وهي دليل عجز لا دليل قدرة .

التقديم والتأخير بين الكلمات فى الموضوعات والقصص الواحدة إثماجاء لمعنى آخر يحدده السياق ويدل عليه ما قبل الآية أو مابعدها:

من أمثلة ذلك :

الآية ٣٥ من سورة البقرة والآية ١٩ من سورة الأعراف.

الآية ٤٨ من سورة البقرة والآية العشرين بعد المائة من نفس السورة.

الآية٥٨-٥٩ سورة البقرة والآيتان ١٦١، ١٦٢من سورة الأعراف.

الآية ٦٢ من سورة البقرة والآية ٦٩ من سورة المائدة.

الآية ١٧٢ ، ١٧٣ من سورة البقرة ،والآية ٣ من سورة المائدة والآية ١٤٥ من سورة الأنعام. والآيتان ١١٥، ١١٤ من سورة النحل.

الآية ٢٧٦ من سورة البقرة والآيتان ٣٧، ٣٦ سورة النساء.

الآية ١٣٥ من سورة النساء والآية ٨ من سورة المائدة، الآيتان ١٨٧، ١٨٨ من سورة الأعراف. والآيتان ٤٨، ٤٩ من سورة الأعراف.

الآية ٧٢ من سورة الأنفال والآية ٢٠ من سورة التوبة ..إلخ.

- **أثر أسلوب التقديم والتأخير فى استحالة ترجمة القرآن الكريم .**
مثاله الفصل السادس من الباب الأول.

- **ارتباط التقديم والتأخير بالعقيدة والتوحيد :**
مثاله الآية الخامسة من سورة الفاتحة والآية ٢٥٦ من سورة البقرة والآية ١٠٩ من آل عمران .

- **ارتباط التقديم والتأخير بعلم أسباب النـــزول :**
كما فى الآية ٩٨ من سورة البقرة .

- **التقديم والتأخير وأصول الفقه :**
١- الترتيب فى مصادر الشريعة الإسلامية الآية ٤٩ من سورة النساء
٢-قاعدة سد الذرائع ومنها الآية ٣٠ ، ٣١ من سورة النور.

- **أثر التقديم والتأخير فى الفقه :**

أمثلته :

الوضوء: الآية السادسة من سورة المائدة.

التيمم : الآية ٤٣ من سورة المائدة.

مواقيت الصلاة : الآية ١٢٤ من سورة الإسراء.

صلاة أهل الأعذار الآية ١٤٢ من سورة آل عمران.

الزكاة : الآية ٦٠من سورة التوبة.

الصدقات : الآية ١٧٧ من سورة البقرة.

مناسك الحج والعمرة الآية ١٥٨ من سورة البقرة ، والآية ٢٨ ، ٩٥ من سورة الحج.والآية ٢٧ من سورة الفتح.

درجات التحريم : ومنها المطعومات : الآية ١٧٣ من سورة البقرة.

المحرمات فى النكاح : الآيتان ٢٣،٢٤ من سورة النساء.

الكفارات والديات : الآية ٥٣من سورة النساء.

الوصية والدين والورثة الآية ١٠من سورة النساء.

كفارة اليمين الآية ٤٥ من سورة المائدة.

كفارة قتل الصيد للمحرم كما فى الآية ٥٥ من سورة المائدة.

حكم اللعان ومن يبدأ بالملاعنة الآية ٦-٨ سورة النور.

الاستئناس والسلام وأيهما يقدم كما فى سورة النور الآية ٢٧.

وقت إخراج زكاة الفطر كما فى الآية ١٤ ،١٥ من سورة الأعلى.

وقت ذبح الأضحية كما فى الآية الثانية من سورة الكوثر.

تقديم صلاة الشفع وتأخير الوتر كما فى الآية الثالثة من سورة الفجر.

أذكار الصلاة فى الركوع والسجود كما فى الآية الثالثة والرابعة من سورة النصر.

التقديم والتأخير فى الترتيب التنازلي لرفع الحرج.

كما فى الآية ٦١ من سورة النور والآية ٩٢ من سورة الأحزاب.

- **التقديم والتأخير وفقه الدعوة الإسلامية :**

ومن أمثلته :

تقديم صفة الأمانة على صفة الخيانة عند أهل الكتاب الآية ٨٢ من سورة آل عمران.

تقديم أسباب البراءة على أسباب الإدانة عند مخاطبة أهل السلطان ، الآية ٢٦، ٢٧ من سورة يوسف.

تقديم أسباب الإدانة على البراءة لمن خالف أهل السلطان ليكون الحكم أولى بالقبول ويصار إليه بالإذعان الآية وهذا كسابقه يخضع لمقتضى الحال ، الآية ٢٨ من سورة غافر.

تقديم أفضل الاحتمالين عند الحديث مع المخالفين فى الإيمان ، الآية ٨٥ وإنا أو إياكم والآية٢٥ من سورة سبأ.

البدء بذكر أسباب السلامة والبراءة من التبعة للمدعو قبل الداعي كما فى الآية الواحدة والأربعين من سورة يونس.

تقديم الدعاء بإزالة موانع الإيمان للكافرين على طلب السلامة من أذاهم فى الآيات ٨٣-٨٦ من سورة يونس.

تقديم الصفة الأهم فى حال الداعي والمدعو كما فى الآيات٦٥ ، ٨٥،٧٣ من سورة الأعراف.

تناسب المقال مع مقتضى الحال كما فى الآيات ١٠٦ ، ١٢٤، ١٤٢، ١٦١ من سورة الشعراء.

البداءة بالأكثر قرباً من الإنسان حال الدعوة إلى الله كما فى الآية الثانية والخمسين من سورة الأنبياء و الآية السادسة من سورة التحريم **﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَاراً وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ﴾** (التحريم:٦) .

البدء بالنداء للفت الأذهان واستصغاء الأسماع ، البدء فى الخطبة بالإجمال ثم تعقيبه بالتفصيل للتشويق كما فى الآيات ٣٨،٣٩ ٤٠من سورة غافر .

- **أثر التقديم والتأخير فى البناء القصصي :**
- **مراعاة الترتيب الزماني كما فى الآية ٤٥ من سورة التوبة.**

الشروع فى القصة بعد مقدمتين وما له من ترتيب منطقي بديع كما فى قصة يوسف الآية ٨٩.

مخالفة الترتيب فى ذكر الأحداث كما فى قصة ذبح البقرة وقتيل بني إسرائيل فى سورة البقرة.
ومنها قصة إهلاك قوم هود الآية ٥٩ من سورة الحجر.
التقديم والتأخير بين القصص بعضها البعض كما قدمت قصة نوح على سائر القصص فى سورة المؤمنون مراعاة للترتيب الزماني.
التقديم والتأخير فى ذكر الأحداث وحسن التنقل بينها عند ذكرها كما فى قصة الهدهد من سورة النمل.
البداءة بذكر الأسباب قبل الشروع فى القصة لأخذ العبرة والعظة وتعلم الدروس ومعرفة سنن الله تعالى فى خلقه كما فى قصة فرعون فى بداية سورة القصص .

التقديم والتأخير والسيرة النبوية :

مثاله الآية ٢١٤ من سورة البقرة ،١٥٩من سورة آل عمران ، ١٢ من سورة المائدة، ١١ من سورة الأنفال ، ٢٥-٢٧ ،١١١من سورة التوبة،١١-١٢من سورة الحشر.

- **التقديم والتأخير وعلم الغذاء :**

يرتبط أسلوب التقديم والتأخير بعلم الأغذية ارتباطاً قوياً ، فقد جاء ذكر الفواكه والحبوب فى القرآن مرتباً لحكم عظيمة مثال ذلك الآية ٩٩ من سورة الأنعام ، وفي ترتيب ذكر مساكن النحل كما فى الآية ٦٨ من سورة النحل.

- **التقديم والتأخير وعلم الأجنة :**

وقد ظهر إعجاز القرآن فى ذلك واضحاً بعد أن كشف الطب عن نفس الترتيب المذكور فى القرآن الكريم فيما يتعلق بعلم الأجنة الآية٥ من سورة الحج، ١٢-١٤ من سورة المؤمنون.

وختاماً هذا ما وصل إليه جهدي فى محاولة الوقوف على أسرار التقديم والتأخير فى القرآن الكريم وبيان مدى أهميته الكبرى من خلال ما تبين لي من شدة ارتباطه بعلوم الشريعة كلها ، وهو ما أستطيع من خلاله القول إنني وبفضل الله تعالى لم أجد أحداً قبلي قد أشار إليه أو لفت الذهن عليه .

المصادر

أولاً : القرآن الكريم :

١- ١- رواية حفص عن عاصم.
٢- ٢- رواية ورش عن نافع.

ثانياً : كتب التفسير وعلوم القرآن :

٣- الكتاب الكريم،دار الفكر بدون تاريخ.
٤- الألوسي ، أبو الفضل شهاب الدين السيد محمود البغدادي ت ١٢٧٠ هجرية : روح المعاني فى تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني ، دار الفكر ١٤٠٣ هجرية - ١٩٨٣ ميلادية.
٥- الأندلسي ، محمد بن يوسف الشهير أبوحيان ت ٧٤٥ هجرية : تفسير البحر المحيط ، دراسة وتحقيق وتعليق الشيخ علي محمد عوض، وشارك فى تحقيقه د/ زكريا عبد المجيد النوتي، د/أحمد النجولي الجمل، دار الكتب العلمية بيروت لبنان ١٤١٣ هجرية ١٩٩٣ ميلادية.
٦- ابن أبي الأصبع ، أبو محمد زكي الدين عبد العظيم بن عبد الواحد ابن ظافر بن عبد الله بن محمد المصري المعروف بابن أبي الأصبع المصري: تحرير التحبير فى صناعة الشعر والنثر وبيان إعجاز القرآن ، تقديم وتحقيق شرف حفني محمد، القاهرة ١٣٨٣ هجرية ١٩٦٣ ميلادية .
٧- ابن الجوزي ، أبو الفرج جمال الدين عبد الرحمن بن علي بن محمد القرشي البغدادي : تفسير ابن الجوزي ،ت ٥٩٧هجرية ، دار الفكر، حققه محمد بن عبد الرحمن عبد الله ، خرج أحاديثه السعيد بن بسيوني زغلول.
٨- ابن تيمية ، أحمد بن عبد الحليم: التفسير الكبير، تحقيق د/عبد الرحمن عميرة ، دار الكتب العلمية.

٩- ابن عطية ، أبو محمد عبد الحق الأندلسي ت ٥٤١ هجرية: المحرر الوجيز فى تفسير الكتاب العزيز المشتهر باسم تفسير ابن عطية الأندلسي ، تحقيق وتعليق الرحالي الفاروق،عبد الله بن إبراهيم الأنصاري، السيد عبد العال ، السيد إبراهيم ، محمد الشافعي صادق العناني ، الدوحة ١٣٩٨ هجرية ١٩٧٧ ميلادية.
١٠- ابن كثير، عماد الدين أبو الفداء إسماعيل القرشي الدمشقي : تفسير القرآن العظيم ت ٧٧٤ هجرية ، مكتبة دار التراث القاهرة.
١١- البغدادي ، علاء الدين علي بن محمد بن إبراهيم {ت ٧٢٥ هجرية}: تفسير الخازن المسمى لباب التأويل فى معاني التنـــزيل ، ضبطه وصححه عبد السلام محمد علي شاهين ، دار الكتب العلمية بيروت لبنان ١٤١٥ هجرية ١٩٩٥ ميلادية.
١٢- البغوي ، أبو محمد الحسين بن مسعود الفراء{ت ٥١٠ هجرية}: معالم التنـــزيل فى التفسير والتأويل ، دار الفكر بيروت ١٤٠٥ هجرية ١٩٨٥ ميلادية.
١٣- البقاعي ، برهان الدين أبو الحسن إبراهيم بن عمر {ت ٨٨٥ هجرية} : تفسير نظم الدرر فى تناسب الآيات والسور ، خرج أحاديثه وآياته عبد الرزاق غالب المهدي ، دار الكتب العلمية بيروت ١٤١٥ هجرية ١٩٩٥ ميلادية.
١٤- البيضاوي ، ناصر الدين أبو الخير عبد الله بن عمر بن محمد الشيرازي الشافعي ت ٦٩١ هجرية : تفسير أنوار التنـــزيل وأسرار التأويل المعروف بتفسير البيضاوي.
١٥- التازي ، عبد الوهاب: تفسير سورة النور، المملكة المغربية، وزارة الأوقاف ١٤٠٥ هجرية ١٩٨٤ ميلادية.
١٦- الثعالبي ، عبد الرحمن { ٧٨٤-٨٧٥ هجرية}: تفسير الجواهر الحسان فى تفسير القرآن ، حققه وخرج أحاديثه ووثق أصله أبو محمد الغماري الإدريسي الحسيني ، دار الكتب العلمية بيروت لبنان ١٤١٦ هجرية ١٩٩٦ ميلادية.

١٧- جوهري طنطاوي: الجواهر فى تفسير القرآن الكريم المشتمل على عجائب بدائع المكونات وغرائب الآيات الباهرات ، دار الفكر، بدون تاريخ.

١٨- حجازي ، محمد محمود: التفسير الواضح ، دار الجيل بيروت ، الطبعة العاشرة ١٣١٣هجرية ١٩٩٣ميلادية.

١٩- الخطابي ، أبو سليمان حمد بن محمد بن إبراهيم {٣١٩ هجرية - ٣٨٨ هجرية}، دار المعارف بمصر، حققها وعلق عليها محمد خلف الله ، محمد زغلول سلام.

٢٠- الخطيب ، عبد الكريم: التفسير القرآني للقرآن ، دار الفكر بدون تاريخ.

٢١- الخطيب ، الإسكافي أبو عبد الله محمد بن عبد الله ت ٤٢٠ هجرية : درة التنـــزيل وغرة التأويل فى بيان الآيات المتشابـــهات فى كتاب الله العزيز، ١٤١٦ هجرية ١٩٩٥ ميلادية.

٢٢- دراز، محمد عبد الله : النبأ العظيم نظرات جديدة فى القرآن ، دار القلم، الطبعة الرابعة ١٣٩٧ هجرية ١٩٧٧ ميلادية.

٢٣- الرازي، محمد الرازي فخر الدين ابن العلامة ضياء الدين بن عمر المشتهر بخطيب الري : تفسير الفخر المعروف بـــ "التفسير الكبير ومفاتيح الغيب{٥٤٤- ٦٠٤ هجرية }: دار الفكر ١٤٨٠ ، ١٩٩٠ ميلادية.

٢٤- الرافعي ، مصطفى صادق: إعجاز القرآن والبلاغة النبوية.

٢٥- رضا ، محمد رشيد: تفسير القرآن الكريم الشهير بتفسير المنار، دار الفكر.

٢٦- الرماني ، أبو الحسن علي بن عيسى: { ٢٩٦ هجرية - ٣٨٦ ميلادية } النكت فى إعجاز القرآن ، دار المعارف بمصر.

٢٧- الرومي ، فهد بن عبد الرحمن بن سليمان : دراسات فى علوم القرآن الكريم ، مكتبة التوبة ، الرياض ١٤١٥هجرية.

٢٨- الزحيلي ، وهبة : التفسير المنير فى العقيدة والشريعة والمنهج ، دار الفكر ١٤١١ هجرية ١٩٩١ ميلادية.
٢٩- زرزور ، عدنان محمد ، علوم القرآن: مدخل إلى تفسير القرآن وبيان إعجازه المكتب الإسلامي بيروت الطبعة الثانية ١٤٠٤ هجرية- ١٩٨٤ ميلادية.
٣٠- الزرقاني ، محمد عبد العظيم : مناهل العرفان فى علوم القرآن ، خرج آياته وحق أحاديثه ووضع حواشيه أحمد شمس الدين ، دار الكتب العلمية بيروت ١٤١٦ هجرية ١٩٩٦ ميلادية.
٣١- الزركشي ، بدر الدين محمد بن عبد الله : البرهان فى علوم القرآن، خرج أحاديثه وعلق عليه مصطفى عبد القادر ١٤٠٨ هجرية، ١٩٨٨ميلادية ، تحقيق أبو الفضل إبراهيم ، دار الفكر، الطبعة الثالثة.
٣٢- الزمخشري ،أبو القاسم جار الله محمود بن عمر بن محمد - ٥٣٨ هجرية }: الكشاف ، رتبه وضبطه وصححه محمد عبد السلام شاهين، دار الكتب العلمية بيروت لبنان ١٤١٥ هجرية ١٩٩٥ ميلادية ، المطبعة البهية المصرية ١٣٤٣هجرية.
٣٣- الزملكاني ، كمال الدين عبد الواحد بن عبد الكريم { ت ٦٥١ هجرية - ١٢٥٣ ميلادية}: البرهان الكاشف عن إعجاز القرآن تحقيق ، خديجة الحديثي مطلوب أحمد، مطبعة العاني، بغداد الطبعة الأولى ١٣٩٤ هجرية ١٩٧٤ ميلادية ، الجمهورية العراقية ، إحياء التراث الإسلامي، دار التراث.
٣٤- س . أ. علي: كتاب الندوة العالمية حول ترجمة القرآن الكريم جمعية الدعوة الإسلامية العالمية.
٣٥- السمين الحلبي ، شهاب الدين أبو العباس بن يوسف بن محمد بن إبراهيم ت ٧٥٦هجرية : الدر المصون فى علوم الكتاب المكنون، تحقيق وتعليق الشيخ علي محمد معوض ، الشيخ عادل أحمد

عبد الموجود ، د/ جاد مخلوف جاد. د/ زكريا عبد المجيد النوتي، دار الكتب العلمية بيروت لبنان ١٤١٤ هجرية ١٩٩٤ ميلادية.

٣٦- سيد قطب : فى ظلال القرآن ، دار الشروق ١٤١٢ هجرية ١٩٩٢ ميلادية.

٣٧- السيوطي، أبو الفضل جلال الدين عبد الرحمن أبو بكر: معترك الأقران فى إعجاز القرآن ، ضبطه وصححه وكتب فهارسه أحمد شمس الدين ، دار الكتب العلمية ، بيروت لبنان.

٣٨- السيوطي، أبو الفضل جلال الدين عبد الرحمن أبو بكر، ت ٩١١ هجرية الإتقان فى علوم القرآن ، الطبعة الثانية ١٣٤٣ هجرية ، المطبعة الأزهرية بمصر.

٣٩- الشعراوي، محمد متولي : تفسير الشعراوي ، راجع أصله وخرج أحاديثه أد/أحمد عمر هاشم ، أخبار اليوم القاهرة ١٩٩١ ميلادية.

٤٠- الشنقيطي، محمد الأمين بن محمد المختار الجكني: أضواء البيان ، خرج أحاديثه محمد عبد العزيز الخالدي، طبعة المملكة المغربية.

٤١- الشوكاني، محمد بن علي ت ١٢٥٠ هجرية : فتح القدير بين فني الرواية وعلم التفسير ، دار الفكر لبنان ١٤٠٣ هجرية ١٩٨٣ ميلادية.

٤٢- شيخون، محمود السيد : أسرار التقديم والتأخير فى لغة القرآن الكريم،الطبعة الأولى ١٤٠٣هجرية ١٩٨٣م ، الناشر مكتبة الكليات الأزهرية.

٤٣- الطبري ، أبو جعفر محمد بن جرير ت ٢١٠ هجرية :جامع البيان عن تأويل آي القرآن ، تحقيق وتخريج شاكر محمود أحمد ، دار المعارف بمصر المطبعة الكبرى الأميرية ببولاق مصر ١٣٢٨ هجرية.

٤٤- عبد العزيز أمير: دراسات فى علوم القرآن ، مؤسسة الرسالة ، دار الفرقان بيروت ١٤٠٣ هجرية الطبعة الأولى.

٤٥- العفيفي ، محمد : القرآن الفصل بين كلام الله وكلام : البشر، الطبعة الأولى ١٣٩٧ هجرية ١٩٧٦ ميلادية ، المطبعة العصرية الكويت.

٤٦- العلوي، يحيي بن حمزة بن علي بن إبراهيم اليمني: الطراز المتضمن لأسرار وعلوم حقائق الإعجاز،مراجعة وضبط وتدقيق محمد عبد السلام شاهين ، دار الكتب العلمية بيروت لبنان.

٤٧- الفيروزابادي ، مجد الدين محمد بن يعقوب ت ٨١٧هجرية: بصائر ذوي التمييز فى لطائف الكتاب العزيز ، المكتبة العلمية بيروت لبنان.

٤٨- القاسمي ، محمد جمال الدين ١٢٨٣ ت ١٣٣٢ هجرية ١٨٦٦ هجرية- ١٩١٤ ميلادية }: تفسير محاسن التأويل ، ضبط وتمحيص محمد باسل عيون السود ، عبد الرزاق غالب المهدي ، دار الكتب العلمية ،بيروت، الطبعة الأولى ١٤١٨ هجرية ١٩٩٧ ميلادية.

٤٩- القرطبي ، أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري ت ٦٧١ هجرية: الجامع لأحكام القرآن ، دار الكتب العلمية بيروت لبنان.

٥٠- القطان، مناع: مباحث فى علوم القرآن ، مؤسسة الرسالة بيروت الطبعة التاسعة ١٤٠٢ هجرية.

٥١- القنوجي ، أبو الطيب صديق بن حسن بن علي الحسين البخاري { ١٢٤٨ –١٣٠٧ هجرية} : فتح البيان فى مقاصد القرآن ، المكتبة العصرية.

٥٢- الكرماني ، محمود بن حمزة: أسرار التكرار فى القرآن المسمى البرهان فى توجيه متشابه القرآن لما فيه من الحجة والبيان ، ت نحو ٥٠٥ هجرية دراسة وتحقيق عبد القادر أحمد عطا ، دار الفضيلة ، القاهرة.

٥٣- لاشين ، عبد الفتاح: المعاني فى ضوء أساليب القرآن ، دار الفكر العربي ١٤١٩ هجرية ١٩٩٩ ميلادية.

٥٤- المالكي ، أحمد الصاوي ،{ ١١٧٥ -١٢٤١ هجرية}: حاشية الصاوي على تفسير الجلالين ، دار الفكر طبعة ١٤٠٩ هجرية ١٩٨٨ ميلادية.
٥٥- الماوردي،أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب البصري {٣٦٤ - ٤٥٠ هجرية} : النكت والعيون تفسير الماوردي ، راجعه وعلق عليه السيد بن عبد المقصود بن عبد الرحيم.
٥٦- المراغي ، أحمد مصطفى: تفسير المراغي ، دار الفكر ، بدون تاريخ.
٥٧- الناصري ، محمد المكي: التيسير في أحاديث التفسير ، دار الغرب الإسلامي بدون تاريخ.
٥٨- النجدي ، عبد الرحمن بن محمد بن قاسم الحنبلي: حاشية مقدمة التفسير ، الطبعة الثانية ١٤١٠ هجرية ١٩٩٠ ميلادية.
٥٩- النيسابوري ، نظام الدين الحسن بن محمد بن حسين القمي: غرائب القرآن ورغائب الفرقان ، ضبطه وخرج أحاديثه وعلق عليه زكريا عميرات ، دار الكتب العلمية بيروت لبنان ١٤٠٦ هجرية - ١٩٩٦ ميلادية.

كتب السنة النبوية وعلومها :

٦٠- أبو داود ، سليمان بن الأشعث السجستاني الأزدي ت ٢٧٥ هجرية: السنن شركة صخر لموسوعة الحديث الشريف الناشر، المكتبة العصرية، المكتبة الإسلامية للطباعة ، استانبول تركيا.
٦١- الألباني ، محمد ناصر الدين: صحيح الجامع الصغير {الفتح الكبير} ، أشرف على طبعه الشاويش زهير ، المكتب الإسلامي بيروت، الطبعة الثالثة ١٤٠٨ هجرية ١٩٨٨ ميلادية.
٦٢- ابن الخطيب ، لسان الدين أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن سعيد { ١٣١٣ -١٣٧٤ ميلادية / ٧١٣ - ٧٧٦ هجرية: الإحاطة في أخبار غرناطة ، حققه وضبطه ووضع مقدمته وحواشيه محمد

عبد الله عثمان ، الطبعة الثالثة، الناشر مكتبة الخانجي القاهرة ١٣١٣ هجرية ١٩٧٣ ميلادية.
٦٣- ابن رجب الحنبلي ، زين الدين أبي الفرج عبد الرحمن بن شهاب الدين بغدادي {٧٣٦ - ٧٩٥ هجرية}:جامع العلوم والحكم فى شرح خمسين حديثاً من جوامع الكلم ، تحقيق الشيخ علي محمد عوض ، الشيخ عادل أحمد عبد الموجود ، مكتبة العبيكان الرياض ١٤١٨ هجرية ١٩٩٧ ميلادية.
٦٤- ابن قيم الجوزية،شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أبي بكر: {ت٧٥١ هجرية} ، زاد المعاد فى هدي خير العباد ، حقق نصوصه ، وخرج أحاديثه وعلق عليه ، شعيب الأرنؤوط وعبد القادر الأرنؤوط ، مؤسسة الرسالة بيروت ، الطبعة السادسة والعشرون ١٤١٢هجرية –١٩٩٢ميلادية.
٦٥- ابن كثير ، أبو الفداء الحافظ إسماعيل بن كثير بن ضو بن درع القرشي، ت ٧٧٤ هجرية : البداية والنهاية ، دقق أصوله وحققه دكتور أحمد أبو ملحم دكتور علي نجيب عطوي ، الأستاذ فؤاد السيد، الأستاذ مهدي ناصر الدين الأستاذ علي عبد الستار ، دار الريان للتراث ١٤٠٨ هجرية - ١٩٨٨ ميلادية، الطبعة الأولى.
٦٦- ابن ماجة ، أبو عبد الله محمد بن أبي يزيد القزويني: {٢٠٩ - ٢٧٣ هجرية}، شركة صخر لموسوعة الحديث الشريف ، الناشر دار إحياء التراث العربي ، دار الطباعة العربية السعودية ١٤٠٤هجرية ، دار إحياء الكتب العربية ١٩٨٧ ميلادية.
٦٧- البخاري ، محمد بن إسماعيل: {١٩٤ - ٢٥٦هجرية} صحيح البخاري -استانبول - تركيا - ١٩٧٩م ، دار الكتب العلمية ، بيروت لبنان ، دار صخر لموسوعة الحديث الشريف.
٦٨- ابن أنس ، مالك { ٩٥ – ١٧٩هجرية- ٧١٣ - ٧٩٥ م }: شركة صخر لموسوعة الحديث الشريف دار إحياء العلوم بيروت ١٩٨٨ ميلادية، دار إحياء التراث العربي ١٩٨٥ ميلادية، دار إحياء الكتب العربية.

٦٩- الترمذي ، أبو عيسى محمد بن عيسى بن سورة ت ٢٧٩ هجرية: السنن شركة صخر لموسوعة الحديث الشريف ، الناشر، دار إحياء التراث العربي ١٩٥٤ ميلادية ، دار الكتب العلمية بيروت ١٩٨٣.

٧٠- الدارمي ، أبو محمد عبد الله بن عبد الرحمن بن الفضل بن بهرام ت٢٥٥ هجرية: السنن دار الكتاب العربي ١٩٨٧ ميلادية ، دار إحياء السنة النبوية.

٧١- الشيباني ، أحمد بن محمد بن حنبل {١٦٤- ٢٤١ هجرية}: المسند ، شركة صخر لموسوعة الحديث الشريف ، الناشر دار المعارف مصر ١٩٤٩ ميلادية ١٩٨٠ ميلادية ، المكتب الإسلامي ١٩٨٠ ميلادية ، مؤسسة التاريخ العربي دار إحياء التراث العربي ١٩٩١ ميلادية دار الفكر ١٤١١هجرية ١٩٩١ ميلادية.

٧٢- القشيري ، أبو الحسين مسلم بن الحجاج بن مسلم ، ت ٢٦١ هجرية: صحيح مسلم ، تحقيق وتصحيح وترقيم عبد الباقي محمد فؤاد، رئاسة إدارة البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد، الرياض ١٤٠٠هجرية.

٧٣- النسائي ، أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب بن علي بن محمد {٢١٥ - ٣٠٣ هجرية}: السنن شركة صخر لموسوعة الحديث الشريف ، الناشر دار البشائر الإسلامية ١٩٨٦ ميلادية ، دار إحياء التراث العربي، مكتبة المطبوعات الإسلامية ، مكتب التربية العربي لدول الخليج ١٤٠٩ هجرية.

ثالثاً : كتب السيرة والتاريخ الإسلامي :

٧٤- أحمد ، مهدي رزق الله: السيرة النبوية فى ضوء المصادر الأصيلة دراسة تحليلية، الطبعة الأولى ١٤١٢ هجرية ١٩٩٢ ميلادية ، مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية.

٧٥- التلمساني ، أحمد بن محمد المقري { ٩٨٦هجرية – ١٥٧٨ م/١٠٤٠ هجرية- ١٦٣٠ م}: نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب ، شرحه وضبطه وقدمه وعلق عليه طويل مريم قاسم ، طويل يوسف علي ، دار الكتب العلمية بيروت، الطبعة الأولى ١٤١٥ هجرية ١٩٩٥ ميلادية.

٧٦- الحجي ، عبد الرحمن علي: السنة النبوية منهجية دراستها واستعراض أحداثها، دار ابن كثير دمشق بيروت الطبعة الأولى ١٤٢٠ هجرية ١٩٩٩ ميلادية.

٧٧- الشعراوي ، محمد متولي: غزوات الرسول ، دراسة وإعداد وتحقيق مركز التراث لخدمة الكتاب والسنة، القاهرة ،بدون تاريخ.

٧٨- ابن البديع الشيباني الشافعي ، وجيه الدين عبد الرحمن بن علي بن محمد:حدائق الأنوار ومطالع الأسرار فى سيرة النبي المختار- ﷺ وعلى آله المصطفين الأخيار – ، تحقيق عبد الله بن إبراهيم الأنصاري ، إحياء التراث الإسلامي بدولة قطر.

٧٩- ابن هشام ، جمال الدين { ت ٧٩٩ هجرية}: السيرة النبوية ، حققها وضبطها مصطفى السقا، إبراهيم الإبياري ، عبد الحفيظ شلبي.

رابعاً : كتب العقيدة :

٨٠- آل الشيخ ، عبد الرحمن بن حسن: فتح المجيد شرح كتاب التوحيد ، مراجعة وتصحيح وتعليق عبد العزيز بن عبد الله بن باز، مكتبة المعارف ، المملكة المغربية.

٨١- حكمي ، حافظ بن أحمد: معارج القبول بشرح سلم الوصول إلى علم الأصول فى التوحيد ، تحقيق سيد عمران،علي محمد علي ، دار الحديث القاهرة ١٤٢٠ هجرية ١٩٩٩ ميلادية.

خامساً : كتب الفقه الإسلامي وأصوله :

٨٢- أبو الخير ، علي: الواضح فى فقه الإمام أحمد ، دار الخير دمشق
١٤١٦ هجرية ١٩٩٥ ميلادية.
٨٣- أبو زهرة ، محمد: أصول الفقه ، دار الكتاب العربي.
٨٤- الآمدي ، سيف الدين أبو الحسن علي بن أبي علي بن محمد
الإحكام فى أصول الأحكام ، دار الكتب العلمية.
٨٥- ابن تيمية ، أحمد بن عبد الحليم ت ٧٢٨ هجرية : أحكام الزواج
، تحقيق محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان
١٤١٦ هجرية ١٩٩٦ ميلادية.
٨٦- ابن حزم ، أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد: { ت ٤٥٦
هجرية} المحلى ،تحقيق لجنة إحياء التراث العربي دار الجيل
دار الآفاق الجديدة بيروت.
٨٧- ابن قيم الجوزية ، شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أبي بكر
إعلام الموقعين عن رب العالمين ، تحقيق محمد عبد السلام هارون
دار الكتب العلمية ، الطبعة الثانية ١٤١٤هجرية ١٩٩٣ ميلادية
٨٨- البيومي، محمد أبو عياشة الدمنهوري : منهج السالك إلى بيت الله
المبحل فى أعمال المناسك على مذهب الإمام أحمد بن حنبل
دراسة وتحقيق دكتور صالح بن غانم السدلان، دار بلنسية،
الرياض، السعودية ١٤١٧ هجرية.
٨٩- الحجاوي، موسى بن أحمد بن موسى المقدسي ت ٩٦٨ هجرية
الشرح الممتع على زاد المستقنع ، شرح محمد بن صالح العثيمين
جمع وترتيب وتوثيق وإشراف أبا الخيل سليمان بن عبد الله بن
حمود.
٩٠- سابق ، السيد : فقه السنة ، دار الكتاب العربي بيروت ١٤٠٥
هجرية ١٩٨٥ ميلادية.

٩١- الشاطبي ، أبو إسحاق إبراهيم بن موسى اللخمي الغرناطي ، ت ٧٩٠ هجرية: الموافقات ، شرح الشيخ دراز عبد الله.
٩٢- الشافعي ، محمد بن إدريس: {١٥٠ - ٢٠٤ هجرية} الرسالة ، تحقيق أحمد شاكر ، الطبعة الثانية ١٣٩٥ هجرية ١٩٧٩ ميلادية، دار التراث،القاهرة .
٩٣- الشوكاني ، محمد بن علي: إرشاد الفحول إلى تحقيق الحق من علم الأصول، تحقيق أحمد عبد السلام ، دار الكتب العلمية.
٩٤- المقدسي ، أبو محمد عبد الله بن أحمد بن محمد بن قدامة : المغني على مختصر الخرقي ، ضبطه وصححه عبد السلام شاهين ، دار الكتاب العربي ، الطبعة الأولى ، ١٤١٤ هجرية ١٩٩٤ ميلادية.
٩٥- النووي ، أبو زكريا محيي الدين بن شرف: المجموع شرح المهذب للشيرازي ، حققه وعلق عليه وأكمله بعد نقصانه المطيعي محمد نجيب ، مكتبة الإرشاد، جدة ، السعودية.

سادساً : كتب الفكر الإسلامي :

٩٦- إسماعيل ، محمد بكر: أسماء الله الحسنى آثارها وأسرارها ، دار المنار الطبعة الأولى ١٤٢١ هجرية ٢٠٠٠ ميلادية.
٩٧- ابن قيم الجوزية ، شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أبي بكر ، ت ٧٥١ هجرية: تـــهذيب مدارج السالكين ، هذبه عبد المنعم صالح العلي العزي ، دار المطبوعات الحديثة، جدة ، المملكة العربية السعودية.
٩٨- ابن قيم الجوزية، شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أبي بكر { ت ٧٥١ هجرية ١٣٥٠ م}: مفتاح دار السعادة ومنشور دار الولاية ، ت٧٥١ هجرية، طباعة بيروت، دار الكتب العلمية ١٤١٦هجرية ،١٩٩٥ ميلادية.
٩٩- البار، محمد علي: خلق الإنسان بين الطب والقرآن ، الدار السعودية للنشر والتوزيع، الطبعة العاشرة ١٤١٥ هجرية ١٦٩٥ ميلادية ، جمهورية مصر العربية ،دار القارئ العربي.

united kingdom makkah advertising international crown all house
USA new era publication.

١٠٠–بنعبد العالي : كتاب نصف الشهر، العدد أربعون ،جمادى الثانية ١٤١٩ هجرية ١٩٩٨ ميلادية.

١٠١–البوطي، محمد سعيد رمضان: المرأة بين طغيان النظام الغربي ولطائف التشريع الرباني، دار الفكر المعاصر، بيروت لبنان.

١٠٢–الزركلي ، خير الدين بن محمود بن محمد بن علي بن فارس {١٣١٠ – ١٣٩٦ هجرية/ ١٨٩٣ - ١٩٧٦ ميلادية}: مؤسسة الرسالة، الطبعة الثانية.

١٠٣–الشعراوي ، محمد متولي: مكانة المرأة فى الإسلام ، مكتبة الشعراوي الإسلامية.

١٠٤–شمسي ، حسان باشا عضو الكليات الملكية للأطباء فى بريطانيا عضو الكلية الملكية للأطباء فى أيرلندا: دار المنارة للنشر والتوزيع، جدة السعودية، الطبعة الأولى ١٤١٢هجرية ١٩٩٢ ميلادية.

١٠٥–عبد الله ، محمد محمود: الطب القرآني غذاء ودواء، دار الكتب العلمية بيروت ١٤٠٩ هجرية ١٩٨٩ ميلادية

١٠٦–عبد الله ، محمد محمود: عسل النحل غذاء وشفاء ، دار الكتب العلمية بيروت ،الطبعة الأولى ١٤١٠ هجرية ١٩٩٠ ميلادية.

سابعاً: كتب قواعد اللغة العربية :

١٠٧– الأنباري ، أبو البركات عبد الرحمن كمال الدين بن محمد، ت ٥٧٧ هجرية : لمع الأدلة فى أصول النحو تحقيق سعيد الأفغاني ، مطبعة الجامعة السورية ١٣٧٧ هجرية ، ١٩٥٧ ميلادية.

١٠٨–ابن هشام ، أبو محمد عبد الله جمال الدين بن يوسف بن أحمد بن عبد الله الأنصاري، ت٧٦١ هجرية : شذور الذهب فى معرفة كلام العرب ، شرح محمد محيي الدين عبد الحميد ، قدمه ووضع هوامشه إميل يعقوب، ١٤١٧ هجرية ١٩٩٦ م ، دار الكتب العلمية، بيروت.

١٠٩-ابن هشام ، أبو محمد عبد الله جمال الدين بن يوسف بن أحمد ابن عبد الله الأنصاري،{٧٠٨-١٣٠٦/هجرية٧٥٦-١٣٥٥م}: قطر الندى وبل الصدى.
١١٠-ابن هشام ، أبو محمد عبد الله جمال الدين بن يوسف بن أحمد ابن عبد الله الأنصاري المصري : أوضح المسالك على ألفية ابن مالك، شرح محمد محيي الدين عبد الحميد، دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة السادسة ١٩٨٠ ميلادية.
١١١-حسن ، عباس: النحو الوافي ، دار المعارف مصر.
١١٢- درويش ، محيي الدين: إعراب القرآن وبيانه، دار ابن كثير، دمشق ١٤٠٨ هجرية ١٩٨٨ ميلادية.
١١٣-الشنقيطي ، أحمد بن الأمين: الدرر اللوامع على همع الهوامع ، شرح جمع الجوامع ، دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت ، لبنان.
١١٤-مكرم ، عبد العال سالم : تطبيقات نحوية وبلاغية ، مؤسسة الرسالة سوريا ١٩٩٢م.
١١٥-المنتخب من محاسن أشعار العرب : صنفه مؤلف مجهول فى القرن الرابع الهجري ونسب للثعالبي أبو منصور عبد الملك ، ت ٤٢٩ هجرية : تحقيق وشرح جمال عادل سليمان ، الطبعة الأولى ١٤١٤ هجرية ١٩٩٣ ميلادية مكتبة الخانجي، القاهرة مصر.

ثامناً: كتب اللغة والأدب :

١١٦-الأصبهاني ، أبو الفرج: الأغاني ، تحقيق سمير جابر، طبعة دار الفكر بيروت لبنان.
١١٧-ابن الأثير، أبو الفتح نصر الله بن أبي الكرم محمد بن محمد ابن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني ت ٥٨٧ هجرية: المثل السائر فى أدب الكاتب والشاعر ، قدمه وعلق عليه الحوفي أحمد ، طبانة بدوي ، نهضة مصر للطباعة والنشر.

١١٨–ابن ميمون ، محمد بن المبارك بن محمد : منتهى الطلب فى أشعار العرب ، تحقيق وشرح طريفي محمد نبيل ، الطبعة الأولى ١٩٩٩ ميلادية، دار صادر بيروت ، لبنان.
١١٩–البابرتي،أكمل الدين محمد بن محمد بن محمود بن أحمد، ت ٧٨٦ هجرية : شرح التلخيص ، دراسة وتحقيق صوفية محمد مصطفى رمضان ، الطبعة الأولى ، الناشر المنشأة العامة للنشر والتوزيع والإعلان ليبيا.
١٢٠–التبريزي ، الخطيب: شرح اختيارات الضبي المفضل ، تحقيق فخر الدين قباوة الطبعة الثانية ١٤٠٧ هجرية ١٩٨٧ ميلادية ، دار الكتب العلمية ، دار الفكر بيروت لبنان.
١٢١–الجاحظ،أبو عثمان عمرو بن بحر{١٦٣- ٢٥٥ هجرية / ٧٨٠ - ٨٦٩ ميلادية }: الحيوان ، المجمع العلمي العربي الإسلامي ، الطبعة الثالثة ١٩٦٩ ميلادية ، تحقيق عبد السلام محمد هارون.
١٢٢–الجرجاني ، عبد القادر: أسرار البلاغة فى علم البيان ، {ت ٤٧١ أو ٤٧٤ هجرية} ، تحقيق السيد محمد رشيد رضا، الشيخ أسامة صلاح الدين ، دار إحياء العلوم بيروت ، الطبعة الثانية ١٤١٨ هجرية ، ١٩٩٧ ميلادية.
١٢٣–الجرجاني ، عبد القاهر: دلائل الإعجاز دار المدني بجدة ، تعليق محمود محمد شاكر ١٤١٣ هجرية ١٩٩٢ ميلادية ، مكتبة الخانجي القاهرة.
١٢٤–الدينوري ، أبو عبد الله بن مسلم بن قتيبة {ت ٢٧٦ هجرية ٨٩٩ ميلادية} طبقات الشعراء تحقيق قميحة مفيد ، مراجعة زرزور، نعيم دار الكتب العلمية بيروت، الطبعة الثانية ١٩٩٥ ميلادية.
١٢٥–الصابوني ، محمد ضياء : الموجز فى البلاغة والعروض ، طباعة رابطة العالم الإسلامي، بدون تاريخ.

١٢٦-العسكري ، أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل: كتاب الصناعتين الكتابة والشعر، تحقيق دكتور قميحة مفيد ، دار الكتب العلمية، الطبعة الثانية ١٤٠٩هجرية-١٩٨٩ميلادية.
١٢٧-فروخ ، عمر : تاريخ الأدب العربي ، بدون تاريخ.
١٢٨-القزويني ، جلال الدين أبي عبد الله محمد بن سعد الدين أبي محمد عبد الرحمن{١٢٦٨ - ١٣٣٨ميلادية/٦٦٦ - ٧٣٩هجرية}: الإيضاح، مطبعة محمد علي صبيح، القاهرة ١٣٨٥ هجرية ١٩٦٦ ميلادية ، تعليق وتنقيح الدكتور محمد عبد المنعم خفاجي، المكتبة الأزهرية، الطبعة الثالثة ١٤١٣ هجرية ١٩٩٣ ميلادية.
١٢٩-القلقشندي ،أحمد بن علي{١٣٥٥- ١٤١٨ميلادية / ٧٥٦ - ٨٢١ هجرية}: صبح الأعشى فى صناعة الإنشا ، شرح محمد حسين شمس الدين ، دار الكتب العلمية، بيروت.
١٣٠-كاتفورد: نظرية لغوية فى الترجمة ، ترجمة دكتور خليفة العزابي ، دكتور محيي الدين حميدي ، معهد الإنماء العربي ، الطبعة الأولى، بيروت ١٩٩١ ميلادية.
١٣١-المبرد، أبو العباس محمد بن يزيد المعروف النحوي {٨٢٦ - ٨٩٩ميلادية/ ٢١٠هجرية ت ٢٨٦ هجرية}: الكامل فى اللغة والأدب ، مراجعة تغاريد بيضون نعيم زرزور، الطبعة الأولى، دار الكتب العلمية، بيروت ١٤٠٦ هجرية، ١٩٩٦ ميلادية.
١٣٢-المرزوقي: شرح الحماسة ، نشر وتحقيق أحمد أمين وعبد السلام هارون ، الطبعة الأولى ١٤١١هجرية ١٩٩١ ميلادية ، دار الجيل بيروت.
١٣٣-مهنا عبد .أ. علي ، علي نعيم خريس : مشاهير الشعراء والأدباء، دار الكتب العلمية،بيروت ط١ ١٤١٠ هجرية-١٩٩٠ ميلادية.

١٣٤- النمري القرطبي ، أبو عمر يوسف بن عبد الله بن محمد ابن عبد البر، ٢٦٨-٤٦٣ هجرية: بـهجة المجالس وأنس المجالس وشحذ الذاهن والهاجس ، تحقيق الخولي محمد مرسي ، دار الكتب العلمية ، بيروت بدون تاريخ.
١٣٥- الهاشمي ، السيد أحمد:جواهر البلاغة فى المعاني والبيان والبديع، دار الكتب العلمية ، الطبعة السادسة ، بدون تاريخ.

تاسعاً: الدواوين الشعرية :

١٣٦- أبو العتاهية، إسحق إسماعيل بن القاسم بن سويد بن كيسان ، { ٧٤٨- ٨٢٥} {ميلادية ١٣٠هجرية - ٢١٠ هجرية}: ديوانه الشعري.
١٣٧- الأحنف، أبو الفضل العباس بن الأحنف { ٨٠٨م / ١٩٢ هجرية } : ديوانه الشعري ، شرح وتحقيق عاتكة الخزرجي ١٣٧٣ هجرية ١٩٥٤م الطبعة الثانية.
١٣٨- الأسدي، المغيرة المعروف بالأقيشر {ت نحو ٨٠ هجرية}: ديوانه الشعري تحقيق خليل الدويهي، دار الكتاب العربي ١٤١١ هجرية ١٩٩١ ميلادية.
١٣٩- الأعشى الكبير، ميمون بن قيس البكري**{٥٣٠ - ٦٢٩ ميلادية}**: ديوانه الشعري شرح ناصر الدين مهدي محمد ، دار الكتب العلمية ، بيروت طباعة ١٩٣٨ميلادية.
١٤٠- ابن أبي سلمى، زهير { ٥٣٠ - ٦٢٧ ميلادية }: ديوانه الشعري. دار الكتب العلمية ، تحقيق قباوة فخر الدين ، بيروت، الطبعة الأولى ١٤١٣ هجرية ١٩٩٢ ميلادية.
١٤١- ابن الرومي ، أبو الحسن علي بن العباس بن جريج: ديوانه الشعري ، شرح بسج أحمد حسن ، دار الكتب العلمية ، الطبعة الأولى ١٤١٥هجرية – ١٩٩٤ ميلادية.
١٤٢- ابن العبد طرفة،{ ٥٤٣ - ٥٦٩ م }: ديوانه الشعري ، قدم له وشرحه سعدي الضناوي، دار الكتاب العربي ، الطبعة الأولى ١٤١٤ هجرية ١٩٩٤ ميلادية.

١٤٣–ابن الورد عروة ، { ..- نحو ٣٠ قبل الهجرة /..- نحو ٥٩٤ ميلادية}: ديوان عروة بن الورد ، دراسة وشرح وتحقيق محمد أسماء أبو بكر ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، الطبعة الأولى ١٤١٢ هجرية ١٩٩٢ ميلادية.
١٤٤–ابن برد بشار، { ٢٣٠-٣٠٢ هجرية/٧١٤-٧٨٤ ميلادية}: ديوانه الشعري شرحه ورتب قوافيه وقدم له مهدي محمد ناصر الدين ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، الطبعة الأولى ١٤١٣ هجرية ١٩٩٣ ميلادية.
١٤٥–ابن ثابت، حسان { ؟ - ت. نحو ٦٧٤ميلادية / ٥٤هجرية}: ديوانه الشعري ، شرح عبدأ مهنا ، دار الكتب العلمية ، الطبعة الثانية ١٤١٤هجرية ١٩٩٤ ميلادية.
١٤٦–ابن حيوس، أبو الفتيان محمد بن سلطان بن محمد بن حيوس الغنوي الدمشقي { ٣٩٤-٤٧٣ هجرية}: ديوانه الشعري ، تحقيق خليل مردم بك ، دار صادر بيروت ١٤٠٢هجرية ١٩٨٤ميلادية، المجلد الثاني.
١٤٧–ابن زهير كعب ، { ؟ -٦٤٥م /ت ٢٦ هجرة}: ابن زهير حياته وشعره ، إعداد الصباح محمد علي ، دار الكتب العلمية ، الطبعة الأولى ١٤١١هجرية ١٩٩٠ ميلادية.
١٤٨–ابن زيدون ، أبو الوليد أحمد بن عبد الله المخزومي { ١٠٠٣-١٠٧١ ميلادية / ٣٩٤-٤٦٣ هجرية}: ديوانه الشعري ، شرح فرحات يوسف، دار الكتاب العربي، الطبعة الثانية ١٤١٥هجرية-ميلادية١٩٩٤.
١٤٩–ابن سهل ، إبراهيم بن سهل الأندلسي {١٢٠٨ - ١٢٥١ ميلادية / ٦٠٥- ٦٤٩هجرية }: ديوانه الشعري، تحقيق يسري عبد الغني وعبد الله دراز، دار الكتب العلمية بيروت ١٤٠٨ هجرية ١٩٨٨ميلادية.
١٥٠–ابن شرف القيرواني ، أبو عبد الله محمد{٣٩٠ - ٤٦٠ هجرية}:ديوانه الشعري ، تحقيق حسن ذكري حسن ، مكتبة الكليات الأزهرية.

١٥١-ابن عبد ربه، شهاب الدين أحمد بن محمد الأندلسي { ٢٤٦ - ٣٢٨ } هجرية :ديوانه الشعري تحقيق محمد التنوجي،دار الكتاب العربي،الطبعة الأولى ١٤١٤ هجرية - ١٩٩٣ ميلادية.
١٥٢-ابن قحطان ، كثير بن عبد الرحمن بن أبي جمعة بن الأسود { ١٠٥ هجرية /٧٢٣م }:ديوانه الشعري ،شرح مجيد طراد ، دار الكتاب العربي ، الطبعة الثانية ١٤١٦هجرية ١٩٩٥ميلادية.
١٥٣-ابن كلثوم عمرو من قبيلة تغلب { ..-٦٠٠ ميلادية }: ديوانه الشعري ، شرح يعقوب نبيل بديع ، دار الكتاب العربي.
١٥٤-امرئ القيس، خُنْدُج بن الحارث بن عمرو بن قحطان { ٥٠٠ميلادية - ٥٤٠ ميلادية}: ديوانه الشعري ضبطه وصححه الأستاذ عبد الشافي مصطفى ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، الطبعة الأولى ١٤٠٧ هجرية ١٩٨٧ميلادية.
١٥٥-البحتري ، أبو عبادة الوليد بن عبيد بن يحيي بن عبيد بن شملال ابن جابر الطائي{ ٢٠٥ -٢٨٤ هجرية}: ديوانه الشعري ، شرح محمد يوسف الشيخ دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى ١٤٠٧ هجرية.
١٥٦-التلمساني، شمس الدين بن العفيف، ٩٨٨هجرية:ديوانه الشعري ، قدمه وشرحه صلاح الدين الهواري ، الناشر دار الكتاب العربي ، الطبعة الأولى ١٤١٥ هجرية -١٩٩٥ميلادية.
١٥٧-الحكمي، أبو نوّاس الحسن بن هانئ ، ولد تقريباً ١٣٦ هجرية، ت ١٩٥ أو ١٩٧ هجرية: ديوانه الشعري ، شرحه وضبطه علي فاعور، دار الكتب العلمية بيروت لبنان ١٤٠٧ هجرية ١٩٨٧ ميلادية.
١٥٨-الخزاعي، دعبل { ١٤٨ - ٢٤٦ هجرية / ٧٦٥ - ٨٦٠ ميلادية}: ديوانه الشعري شرح حسن محمد ،دار الكتاب العربي، الطبعة الأولى ١٤١٤ هجرية ١٩٩٤ ميلادية.

بن عطية. {٣٣ - ١١٤ هجرية ، ٦٥٣ ميلادية
-ية}: ديوانه الشعري ، دار صادر بيروت.
-ين ، مطبعة دار الكتب المصرية ، القاهرة الطبعة الثانية
-ية مصورة عن الطبعة الأولى ،١٩٧٩ ميلادية.
١٦١- [illegible] النابغة ، ت نحو ٦٠٤ ميلادية: ديوانه الشعري ، شعراء
النصرانية في الإسلام ، الأب شيخو لويس ، الطبعة الثانية،
[illegible] مطبعة الآباء الرسولية بيروت.
١٦٢- [illegible] . ديوانه الشعري ، مشكل إعراب الأشعار شرح
محمد ابن [illegible] إبراهيم بن محمد الحضرمي ، تحقيق علي الهروط
- الكرك ١٩٩٢ ميلادية المعهد الإسباني العربي ، المكتبة
الوطنية.
١٦٣- ذو الرمة، غيلان بن عقبة بن مسعود بن حارثة {٧٧ هجرية-
١١٧ هجرية / ٦٩٦ميلادية -٧٣٥ ميلادية} ديوانه الشعري ،
قدمه وشرحه له أحمد حسن بسج ،دار الكتب العلمية ١٤١٥
هجرية [illegible] ميلادية.
١٦٤- شوقي، أحمد و [illegible] ١٢٨٥هجرية-١٣٥١هجرية/١٨٦٨ميلادية١٩٣٢
ميلادية }: ديوانه الشعري ، دار الفكر.
١٦٥- الضبي، المفضل بن محمد : المفضليات، الطبعة الأولى، دار المعرفة
مصر.
١٦٦- الطائي، أبو تمام حبيب بن أوس ، {ولد ١٩٠ هجرية}: ديوانه
الشعري ، شرح شاهين عطية ، دار الكتب العلمية ،الطبعة الثانية
١٤١٤ هجرية ١٩٩٢ ميلادية.
١٦٧- العامري ، قيس بن الملوح بن مزاحم {ت٦٨ هجرية / ٦٨٨
ميلادية}: ديوانه الشعري ، تحقيق يعقوب أميل، دار الكتاب
العربي، الطبعة الأولى ١٤١٤هجرية/ ١٩٩٣ميلادية.
١٦٨- العبسي ، عنترة بن شداد { ٥٢٥ميلادية-٦١٥ميلادية }: ديوانه
[illegible] الكتب العلمية ، بيروت ١٤٠٦ هجرية ١٩٩٥

١٦٩-الفرزدق ، همام بن غالب بن صعصعة بن ناجية بن عقال ابن محمد بن سفيان بن مجاشع بن دار {٢ - ١١٤ هجرية/ ٦٤١ - ٧٣٢ ميلادية }: ديوانه الشعري ، شرح وضبط علي فاعور،
دار الكتب العلمية ١٤٠٧ هجرية ١٩٨٧ ميلادية.
١٧٠-القرشي، أبو يزيد محمد بن الخطاب : جمهرة أشعار العرب ، تحقيق وضبط علي محمد ، دار نـــهضة مصر للطباعة والنشر القاهرة.
١٧١-المتنبي أبو الطيب أحمد بن الحسين { ٩١٥- ٩٦٥ ميلادية / ٣٠٣ - ٣٥٤ هجرية}: ديوانه الشعري ، وضعه البرقوقي عبد الرحمن ، المكتبة التجارية الكبرى ، مطبعة السعادة ، مصر.
١٧٢-المعري ، أبو العلاء أحمد بن عبد الله بن سليمان التنوخي { ٣٦٣ - ٤٤٩ هجرية / ٩٧٣ - ١٠٥٨ميلادية }: ديوان سقط الزند، شرح أحمد شمس الدين ، دار الكتب العلمية ١٤١٠هجرية - ١٩٩٠م.
١٧٣-الهلالي، حُميد بن ثور بن حزن العامري أبو المثنى {..نحو ٢٣٠ هجرية / ..نحو ٦٥٠ ميلادية} :ديوانه الشعري ، دراسة فى شعر المخضرمين ، عبد الواحد أحمد جامعة أم القرى ، الطبعة الأولى ١٤١٠ هجرية ١٩٩٠ ميلادية.

عاشراً : المعاجم اللغوية :

١٧٤- ابن منظور، جمال الدين أبو الفضل محمد بن مكرم بن علي ابن أحمد بن أبي القاسم بن حنبقة{**ت ٧١١هجرية**}: لسان العرب، دار المعارف الطبعة الثالثة بدون تاريخ.
١٧٥- الفيروزابادي ، مجد الدين محمد بن يعقوب بن محمد بن إبراهيم الفيروزابادي الشيرازي الشافعي **{ت ٨١٧ هجرية}** : القاموس المحيط ، دار الكتب العلمية بيروت.

المصادر غير العربية:

١٧٦-Keith L. Moor. The developing human: Clinically oriented embryology, ٣rd edition with Islamic additions correlation studies with Qur`an and Hadith, by W.B. Saunders company USA ١٩٨٢; {١٩}.

١٧٧- Kwitco ML {ED}: *Surgery of the infant eye*, New York Appleton-Century Crofts, ١٩٧٩.

١٧٨- Gerhardt KJ, *Abrams RM Fetal exposures to sound and vibroacoustic stimulation*, J. Peri natol ٢٠٠٠ Dec; ٢٠ {٨ Pt ٢}: S٢١-٣٠.

١٧٩-Moon CM Fiefer WP. *Evidence of transnatal auditory learning*, J. Perinatol ٢٠٠٠ Dec; ٢٠ {٨ Pt ٢}: S٣٧-٤٤.

١٨٠- El Alcorán, trad. Juan Vernet, Barcelona, Planeta, ١٩٩٦.

١٨١- El Alcorán, trad. Julio, cortes , Barcelona, Herder, ١٩٩٥

١٨٢- El Alcorán, trad.Melara Navio, Abdelgani El noble Coran, Complejo Rey Fahd de im presión y traducción del Alcorán, ١٩٩٧.

١٨٣- Le Coran, traducción francesa hecha por Complejo Rey Fahd de impresión y traduc ción del Alcorán, ١٩٩٧.

الدوريات والمجلات:

١٨٤- فضل، صلاح: "الأسلوبية،علم الأسلوب وصلته بعلم اللغة"،فصول، المجلد الخامس ، العدد الأول، أكتوبر، نوفمبر، ديسمبر، ١٩٨٤.

Hatzfeld Helmut-estudios de estilistica, Barcelona, ١٩٧٥.

١٨٥- الكبيسي ، قاسم محمد عبد الرزاق: مقال (التقديم و التأخير في القرآن) مجلة الحكمة ، بريطانيا ، ليدز العدد الرابع ، جمادى الأولى ١٤١٥ هجرية.

١٨٦- عفيفي محمود [مدلولات مختلفة للبصر والرؤية والنظر في القرآن]، جريدة العالم الإسلامي ، إصدار رابطة العالم الإسلامي ، العدد ١٧٢٧ الجمعة،/ ١٤٢٣ هجرية – ٢٠٠٢ ميلادية .

الفهرس



هـذا الكتاب

﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ قرآن كريم .

● بدأ الإعتناء بالقرآن الكريم منذ بدء نزوله على النبى ﷺ حيث كان يسارع بتكراره خلف جبريل خشية أن ينساه، فأنزل الله قوله : ﴿ لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ * إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ * فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ ﴾ .

● واشتد حرص الصحابة على تعلم القرآن وتفهم علومه المختلفة، فحفظوا علومه كما حفظوا آياته، وواصلت جهود العلماء فى تفسير القرآن الكريم وتنوعت الدراسات وانتشرت من مِصرٍ إلى مِصرٍ ومن عصرٍ إلى عصرٍ، وكل منها يثرى المكتبة القرآنية ويغرس نبتة فى بستان الدراسات الإسلامية .

● وقد جاءت هذه الرسالة لتغطى مساحة دراسية لم تملأ من قبل للدراسين للعلوم القرآنية، اللهم إلا إشارات عابرة، ولمحات خاطفة .

● وهذا الكتاب «دلالات التقديم والتأخير فى القرآن الكريم» رسالة دكتوراه حازت على درجة الامتياز مع مرتبة الشرف بالاجماع، لتتناول موضوعاً ظهر من خلال تناوله تعلقه الشديد بكل علوم الشريعة، علم النحو، البلاغة، علم المعانى، البديع، أثر أسلوب التقديم والتأخير فى استحالة ترجمة القرآن الكريم وهو فريد من نوعه لم يتناوله أحد من قبل، ارتباط التقديم والتأخير بالعقيدة والتوحيد، أسباب النزول، أصول الفقه، الفقه، فقه الدعوة الإسلامية، البناء القصصى، علم الغذاء، علم الأجنة .

● ويسر مكتبة وهبة أن تقوم بنشر هذا الكتاب لينير الطريق أمام المهتمين والمشتغلين بلغة القرآن الكريم ليتعرفوا على «دلالات التقديم والتأخير فى القرآن الكريم دراسة تحليلية» وحتى يعرف المستعربون وجهاً من وجوه إعجاز القرآن الكريم الذى ظهر جلياً فى استحالة ترجمة القرآن ترجمة حرفيه . . .

ومن الله نستمد العون والتوفيق .

مكتبة وهبة